

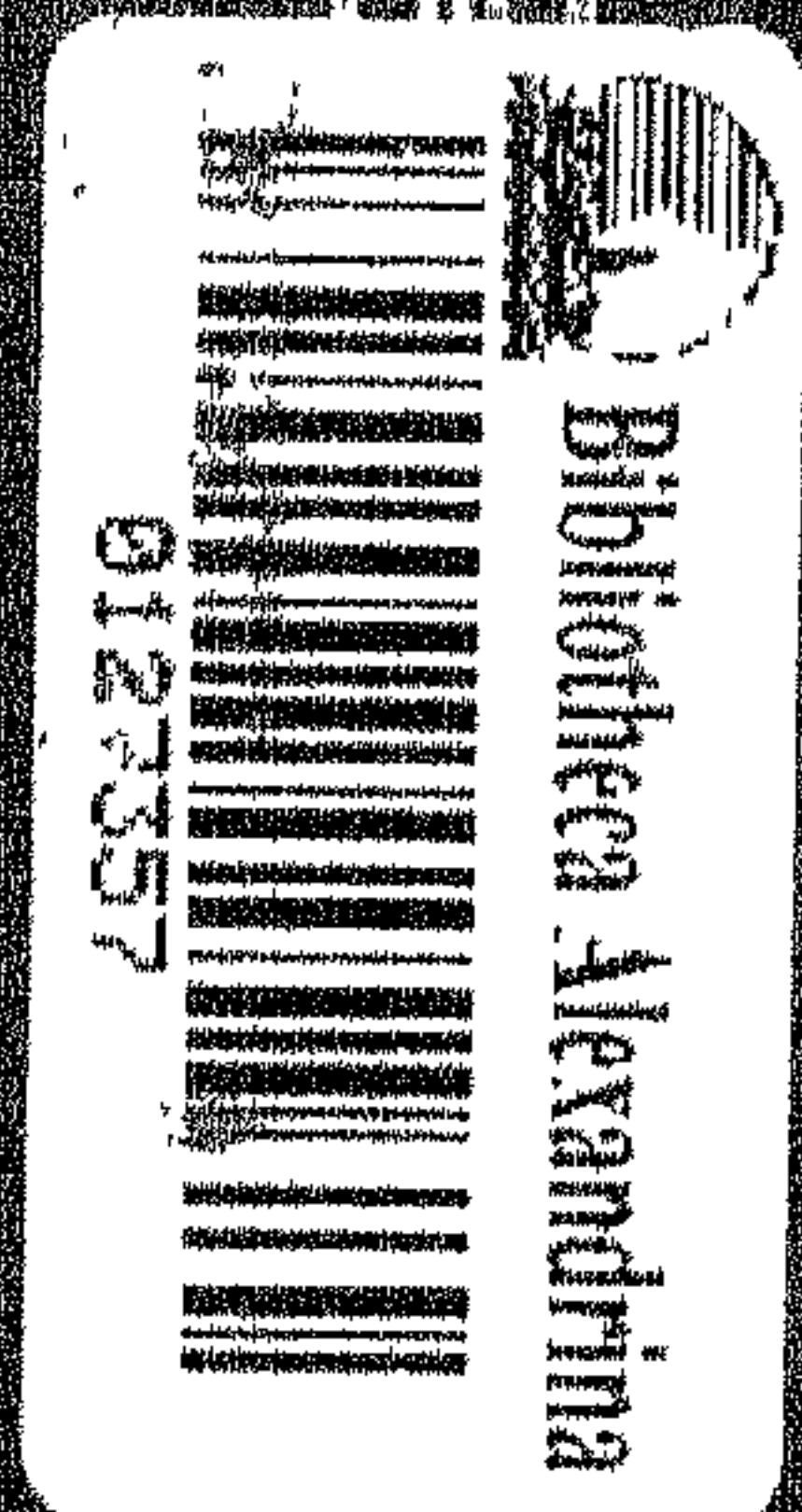
ذو القرنين في التاريخ

تأليف
محمد عبد الله غنيان

المجلد الأول - القسم الثاني

الحداثة الأممية والدولة العارضة

الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة



دولة الإسلام في الأندلس

الخلافة الأموية والدولة العائمة

تألف

محمد عبد الله غنّان

العصر الأول - القسم الثاني

الناشر مكتبة النخاس بالفاخرة

حقوق الطبع محفوظة للناشر

الطبعة الرابعة

١٤١٧ هـ = ١٩٩٧ م

رقم الإيداع : 90/8988

الترقيم الدولي : 977-505-082-4

مطبعة المكي
المؤسسة السعودية للمطبوعات
٦٨ شارع العباسية - القاهرة ١٠١ : ٤٨٩٧٨٥١

الكتاب الثاني

الدولة الأموية في الأندلس

القسم الثالث

عبد الرحمن الناصر

وقيام الخلافة الأموية بالأندلس

٣٠٠ - ٣٥٠ هـ - ٩١٢ - ٩٦١ م

الفصل الأول

ولاية عبد الرحمن الناصر وقيام الخلافة الأندلسية

ولاية عبد الرحمن حفيد الأمير عبد الله . نشأته وحداثته . أخذ البيعة له . حزمه في معالجة الثورة . غزو قلعة رباح وإخضاعها . خروج عبد الرحمن لغزو الثوار . غزوة المنتلون . غزوه لمعاقل ابن حفصون في ريه وإلبيرة . سحق الثورة في إشبيلية . موده لغزو كورة ريه . محاصرته لقرمونة وإخضاعها . مولد ولي للعهد الحكم . القحط بالأندلس . أقوال ابن حيان . إخضاع أوريولة ولبللة . ابن حفصون يطلب الصلح ويحاج إليه . عهد الناصر له . وفاة عمر بن حفصون . مبالغة النقد الغربي في تصوير شخصيته . أبنائه يخلفونه في معاقله . مطاردتهم وإخضاع ببشتر آخر معاقلهم . استخراج جثة الثائر وصلبها . إعدام ابنته أرختا . كتاب الناصر عن فتح ببشتر . محاصرة طليطلة وإخضاعها . إخضاع بطليوس ونهاية بني الحليقي . إخضاع بني ذى النون . تمزيق الثوار في شرقي الأندلس . إسبانيا النصرانية وتربص بها بالأندلس . حيث النصراني في أراضى المسلمين . غزو أردونيو ليابرة وماردة وبطليوس . غزو المسلمين لأراضى ليون . موقعة شنت إشتين وهزيمة المسلمين . مود المسلمين إلى غزو ليون . موقعة مطنية وهزيمة النصراني . مسير عبد الرحمن إلى ليون . استيلاؤه على أوسمة وشنت إشتين . توغله في أراضى نافار . موقعة جونيكيرو وهزيمة النصراني . استيلاء النصراني على بقيرة وفكهم بالمسلمين . مسير عبد الرحمن إلى الثغر الأعلى . غزوه لنافار واستيلاؤه على بنبلونة . هزيمة النصراني . وفاة أردونيو وولاية ولده راميرو . راميرو يشجع ثوار طليطلة . محاصرة للناصر لطليطلة . محاولة راميرو لإنجادها . سقوطها في يد الناصر . غزو الناصر لقشتالة . مسيره إلى أوسمة . التماس طوطة للصلح . غزو ألبه والقلاع . غزوة بحرية إسلامية للثغر الفرنجي . الصلح بين الناصر وراميرو . تحالف بني هاشم أصحاب الثغر الأعلى مع النصراني . مسير عبد الرحمن إلى مقاتلة الثوار . محاصرته لسرقسطة . خروج أمية بن إسحاق والتجأه للنصراني . سقوط سرقسطة وخضوع محمد بن هاشم . عهد الناصر له بالأمان . غزو عبد الرحمن لنافار وخضوع ملكتها طوطه . تأهب عبد الرحمن لمহারبة راميرو . نفوذ الصقلية في القصر والحيش . مسير عبد الرحمن إلى ليون . تحالف ليون ونافار . زحف عبد الرحمن على سمورة . موقعة الخندق وهزيمة المسلمين . أقوال الروايات العربية . رواية المسعودي . رواية ابن حيان . كتاب الناصر عن الغزوة . رواية ابن الخطيب . الروايات النصرانية . رواية ألفونسو الحكيم . الروايات الأخرى . آثار الموقعة . عود المسلمين لغزو ليون . وفاة راميرو وجلوس أردونيو . الصلح بين الأندلس وليون . بعض الحوادث الداخلية . حريق قرطبة . الحبل والقحط . الدعوة الفاطمية واجتياحها للمغرب . جزع حكومة قرعة . استيلاء عبد الرحمن على سبتة . خضوع المغرب الأقصى لعبد الرحمن . خطر الفاطميين على الأندلس . السفن الفاطمية تغزو ألمرية . غزوات عبد الرحمن لشواطئ المغرب . أثر الدعوة الفاطمية في بحث فكرة الخلافة الأندلسية . عبد الرحمن يتخذ سمة الخلافة . الوثيقة الخاصة بذلك . ابن مسرة . حركته وحقيقة أمرها . أقوال ابن حيان عنها . مطاردة متحليها . كتاب الناصر في شأنها .

مضى زهاء قرن منذ استقر ملك بني أمية بالأندلس ، وتوطدت أسس الدولة الحديدية ، وأخذت تزهو وتزدهر في عهد عبد الرحمن بن الحكم . ولكن عوامل الإنتقاص والتفكك ، سرت فجأة إلى هذا الصرح القوي ، ولبثت الأندلس مدى النصف الأخير من القرن الثالث الهجري (أواخر القرن التاسع الميلادي) تضطرم بسلسلة لا نهاية لها من الثورات والفتن ، حتى لاح مدى لحظة أن ملك بني أمية أضحى على وشك الانهيار .

توفي الأمير عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن أمير الأندلس في مستهل ربيع الأول سنة ٣٠٠ هـ (١٥ أكتوبر سنة ٩١٢ م) بعد حكم طويل عاصف ، مزقت فيه أوصال المملكة ونضبت مواردها ، فخلفه في نفس اليوم على العرش حفيده عبد الرحمن ابن ابنه محمد ، غير متجاوز الثالثة والعشرين من عمره ، وذلك بالرغم من وجود أعمامه وأعمام أبيه . وكان الأمير عبد الله قد اختار محمداً أكبر أولاده لولاية عهده ، فوجد عليه أخوه المطرف وقتله حسباً تقدم . وولد عبد الرحمن قبيل مقتل أبيه بأسابيع قلائل في ٢٢ رمضان سنة ٢٧٧ هـ (ديسمبر سنة ٨٩٠ م) وأمه جارية إسبانية نصرانية تدعى ماريّا أو مزنة حسبما تسميها الرواية العربية ، فلشأ الطفل اليتيم في كفالة جده مرموقاً بعين العطف والرعاية ، وأسكنه جده معه بالقصر دون ولده . وما كاد يبلغ أشده حتى ظهرت نجابته ، وأبدى بالرغم من حداثة تفوقاً في العلوم والمعارف إلى درجة تسمو على سنه ، ودرس القرآن والسنة وهو طفل لم يجاوز العاشرة ، وبرع في النحو والشعر والتاريخ ، ومهر بالأخص في فنون الحرب والفروسية ، وأقبل عليه جده الأمر بخصه بحبه وثقته ، ويرشحه لختلف المهام ، ويندبه للجلوس مكانه في بعض الأيام والأعياد لتسليم الحند عليه ، وهكذا تعلق آمال أهل الدولة بهذا الفتى النابه ، وأضحى ترشيحه لولاية العهد أمراً واضحاً مقضياً ، بل يقال إن جده قد رشحه بالفعل لولاية عهده وذلك بأن برئ بخاتمه إليه ، حينما اشتد عليه المرض إشارة منه باستخلافه^(١)

(١) وردت هذه التفاصيل الأخيرة في أوراق مخطوطة عن بداية عهد الناصر ، نشرت بعناية الأستاذ ليثي بروثنسفال بعنوان : *Una Crónica Anónima de Abd Al-Rahman III*, Al-Nasir (Madrid 1950) p. 29—30

وما كاد الأمير عبدالله يسلم أنفاسه الأخيرة حتى بويح حفيده عبد الرحمن بالملك .
وجلس عبد الرحمن للبيعة ، يوم الخميس غرة شهر ربيع الأول في قاعة « المجلس
الكامل » بقصر قرطبة ، فكان أول من بايعه أعمامه ، وأعمام أبيه ، وتلاهم أخوة
جده ، وقد مثلوا أمامه وعليهم الأردية والظواهر البيض عنوان الحزن على الأمير
الراحل ، وتكلم بلسانهم عمه أحمد بن عبدالله فقال : « والله لقد اختارك الله على علم
للخاص منا والعام ، ولقد كنت أنتظر هذا من نعمة الله علينا ، فأسأل الله لإيزاع
الشكر ، وتمام النعمة ، وإلهام الحمد » . وتتابع للبيعة بعد ذلك وجوه الدولة
والموالى ، ثم أهل قرطبة من الفقهاء والأعيان ، ورؤساء البيوتات ، واستمرت
بيعة الخاصة على هذا النحو حتى الظهر ، وعندئذ نهض الأمير الجديد فصلى على
جثمان جده ، ثم واره في مدفنه بالروضة ، ومعه الوزراء ورجال الدولة . وجلس
لتلقى البيعة في المسجد الجامع صاحب المدينة الوزير موسى بن محمد بن حدير ،
والقاضي أحمد بن زياد اللخمي ، وصاحب الشرطة العليا ابن وليد الكلبي ،
وصاحب الشرطة الصغرى ، أحمد بن محمد بن حدير ، وصاحب أحكام السوق
محمد بن محمد بن أبي زيد ، فاستمرت بضعة أيام . وكذلك أنفذت الكتب بأخذ
البيعة إلى العمال في سائر الكور ، وأخرج الأمان إلى البلاد لأخذها ، وتتابع
الردود بإنجازها من جميع النواحي^(١) . وساد البشر يوم البيعة في القصر والمدينة ،
وتوسم الجميع في الأمير الفتى آيات العظمة واليمن ، وعلقوا على ولايته أكبر
الآمال . وفي ذلك يقول معلمه شاعر العصر ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد ،
يوم أن تولى عبد الرحمن الملك في مستهل ربيع الأول سنة ٣٠٠ هـ :

| | |
|-------------------|-------------------|
| بدا الهلال جديداً | والملك غص جديداً |
| يا نعمة الله زیدی | ما كان فيك مزید |
| إن كان للصوم فطر | فأنت للدهر عيد |
| إمام عدل عليه | تاجان : بأس وجود |
| يوم الخميس تبدى | لنا الهلال السعيد |
| فكل يوم خميس | يكون للناس عيد |

وكانت الأندلس عندئذ أشد ما تكون حاجة إلى السكينة بعد أن هزتها الثورة

(١) الأوراق المخطوطة الخاصة بمعهد الناصر ص ٣١ .

إلى الأعماق ، وتجاذبتها الأعاصير من كل صوب ، وكان الأمير الفتي يرى أن خطة التردد والرفق التي اتبعها أجداده نحو الزعماء الخوارج كانت سياسة خطيرة ، ولم تكن ناجعة ، وأنه لابد لاستتباب الأمن واستقرار السكينة ، من سحق الثورة وزعمائها بأي الوسائل . ومن ثم فإنه لم تمض على جلوسه أسابيع قلائل حتى بعث حملته الأولى إلى المناطق الثائرة بقيادة الوزير عباس بن عبد العزيز القرشي ، فقصدت إلى منطقة قلعة رباح وكان قد ثار بها الفتح بن موسى بن ذى النون من زعماء البربر ، ومعه حليفه الرياحي المعروف بأرذبلش ، ف وقعت بين جند الأمير وبين العصاة معارك شديدة ، هزم فيها الفتح بن موسى ، وارتد مغلولاً إلى معقله ، وقتل أرذبلش ، وبعث رأسه إلى قرطبة ، ف رفعت فوق باب السدة ، وطهرت قلعة رباح وأحوازاها من الثورة ، وذلك في شهر ربيع الآخر^(١) . وسارت حملة أخرى نحو الغرب ، واستردت مدينة إستجة من أيدي العصاة أتباع ابن حفصون (جمادى الأولى) ، وهدمت أسوارها وقنطرتها الواقعة على نهر شنيل ، حتى تغزل وتغدو بذلك عاجزة عن التمرد والخروج .

وفي شعبان سنة ٣٠٠ هـ (مارس سنة ٩١٣ م) خرج عبد الرحمن للغزو وتولى القيادة بنفسه ، فأثار ظهور الأمير الفتي في الصفوف حماسة الجند وأكبروا شجاعته وإقدامه . وسار عبد الرحمن أولاً إلى الجنوب الشرقي ، ومعه جند كورة لبيرة وزعمائها ، وكان ابن حفصون قد نزعهم حصونهم ومعقلهم ، فالتجأوا إلى الأمير ، وألقوا بطاعتهم إليه ، واتجه صوب كورة جيان في وسط الأندلس ، حيث كانت الثورة على أشدها ، وحيث كان ابن حفصون أخطر الزعماء الخوارج يبسط سلطانه على طائفة من الحصون القوية ؛ فاستولى على حصن مرتش الواقع في طريق جيان ، وسير في نفس الوقت بعض قواته إلى مالقة لإنجاده ، وكان يهددها الزعيم الثائر ، فاحتلتها وأمنها . وقصد عبد الرحمن بعد استيلائه على مرتش ، إلى حصن مونت ليون (حصن المتلون) القريب منها ، وكان يمتنع به زعيم من المولدين هو سعيد بن هذيل ، فضربه بشدة ، وهاجمه حتى اقتحمه ، وأذعن الزعيم الثائر إلى التسليم والطاعة ومنح الأمان (رمضان سنة ٣٠٠ هـ) . وتعتبر هذه الغزوة أول غزوات عبد الرحمن ، وتسمى عادة بغزوة المتلون .

(١) الأوراق المخطوطة السالفة الذكر ص ٣٣ .

وانجيه عبد الرحمن بعد ذلك إلى حصن شمكتان ، الواقع على مقربة من بياسة ، وبه عبد الله بن الشالية ، فاستسلم الثائر دون مقاومة ، وطلب الأمان ، ونزل عن جميع حصونه ومعاقله . واستولى عبد الرحمن بعد ذلك على حصن متيشة من يد صاحبه ابن عطاف . وافتتح سائر الحصون التي كانت بيد ابن حفصون من كورة جيان ، وظهرها من آثار الخروج والعصيان . وقدم إليه سائر الزعماء الخوارج طاعهم ، فتقبلها وعفا عنهم .

وسار عبد الرحمن بعد ذلك جنوباً إلى كورة ريث ، فاحتل منها سائر الحصون التي تدين بالطاعة لابن حفصون ، واقتحم أمتع هذه الحصون ، وهو حصن شبليس بعد قتال عنيف ، وقتل من كان به من أصحاب الثائر ، وفزأمامه جعفر ابن حفصون ليلاً ولحق بأبيه ، ثم استولى عبد الرحمن على حصن إشتين على مقربة من البيرة . وانجيه بعد ذلك إلى وادي آش فاحتل حصونها ، ثم توغل في شعب جبل الثلج (سيراً نقادا) وافتتح ما هنالك من المعاقل والحصون . وحاول ابن حفصون أن يزحف على غرناطة ، فخرج إليه أهل البيرة ومعهم مدد من جيش عبد الرحمن فردوه على عقبه . وما زال عبد الرحمن يجول في تلك الأنحاء يخضع حصونها وينتسف أراضيها ، حتى قضى على كل عناصر الثورة والخروج فيها ، وبلغ ما استولى عليه في تلك الغزوة من الحصون زهاء سبعين حصناً من أمهات المعاقل الثائرة ، ثم ارتد عائداً إلى قرطبة فوصلها في يوم عيد الأضحى بعد أن قضى في غزوته زهاء ثلاثة أشهر (١) .

على أن هذه الجولة الأولى لم تكن إلا بداية الصراع المرير ، الذي كان على عبد الرحمن أن يضطلع به . ذلك أنه لم تمض بضعة أشهر أخرى حتى عادت عناصر الثورة تجتمع ، وتتحفز ، وعاد ابن حفصون ينظم خططه وقواته . وكانت لإشبيلية في مقدمة القواعد التي رفعت لواء الثورة ، وقام بها منذ أيام الأمير عبد الله ، بنو حجاج حسباً تقدم ، وأنشأوا بها إمارة مستقلة . وقد كانوا بالرغم من انحدارهم من أصل عربي ينتمون إلى المولدين من ناحية الأم ، ويشاطرونهم شعور الحفيظة ضد حكومة قرطبة . وكان عبد الرحمن يتوق إلى تحطيم سلطان أولئك المولدين ومن يمالئهم ، وقد أبدوا دائماً أنهم لا يدينون بالولاء للحكومة الإسلامية التي

(١) وردت تفاصيل هذه الغزوة في الأوراق المخطوطة الخاصة بعهد الناصر ص ٣٥ - ٣٨ .

لم تدخر وسعاً في الرفق بهم ومعاملتهم دون تمييز أو إجحاف أو تحامل . وكان زعيم إشبيلية إبراهيم بن حجاج قد توفي ، وخلفه في حكمها ولده عبد الرحمن ، وخلفه في حكم قرمونة ولده محمد . ولما توفي عبد الرحمن في المحرم سنة ٣٠١ هـ ، تطلع أخوه محمد إلى أن يحكم إشبيلية من بعده ، ولكن أهل إشبيلية اجتمعوا حول زعيم قوى آخر هو أحمد بن مسلمة وهو أيضاً من بني حجاج وقدموه لحكمها ، وسبق محمداً إلى الاستيلاء عليها . فسار محمد إلى قرطبة ، وقدم طاعته إلى عبد الرحمن ، فتقبلها وأوفد معه الجند بقيادة الحاجب بدر ، فحاصر إشبيلية ثم استولى عليها في جمادى الأولى سنة ٣٠١ هـ وهدم أسوارها ، وندب لها عبد الرحمن والياً من قبله ، وانتهت بذلك ثورة العرب والمولدين في إشبيلية .

وفي شوال سنة ٣٠١ هـ (مايو سنة ٩١٤ م) خرج عبد الرحمن في غزوته الثانية ، وقصد إلى كورة ريه والجزيرة . وكان ابن حفصون زعيم ثورة المولدين قد عاد فبسط حكمه على تلك الأنحاء ، وعادت الثورة تضطرم فيها . وبدأ عبد الرحمن بحصار قلعة « طرُش » في شرقي مالقة ، ثم سار إلى حصون ريه ومعاقلها يفتتحها تباعاً ، وهنا قدم ابن حفصون على رأس قواته والتقى بعبد الرحمن أمام قلعة طرُش ، ونشبت بين الفريقين معركة شديدة قتل فيها كثير من جند ابن حفصون وحلفائه النصاري ، وارتد الثائر بفلوله صوب الغرب ، واستطاع أسطول عبد الرحمن أن يضبط عدة سفن محملة بالموث كانت قادمة من عدوة المغرب لإمداد ابن حفصون وأن يحرقها . وزحف عبد الرحمن على منطقة الجزيرة الخضراء ، واقتحم حصن لورة الواقع بجوار الجزيرة ، ثم دخل الجزيرة الخضراء في أوائل شهر ذي القعدة سنة ٣٠١ (يونيو ٩١٤ م) . وسار عبد الرحمن بعد ذلك إلى شذونة ثم إلى قرمونة ، وكان حاكمها حبيب بن سودة قد ثار بها ، فحاصرها حتى سلم الثائر واستأمن ، ففتح الأمان ، وانتقل بأهله إلى قرطبة . بيد أنه نكث بعهده فيما بعد . ودخلت في طاعته سائر المعازل والحصون التي مر بها ، ثم عاد إلى قرطبة في شهر ذي الحجة بعد أن أصاب جهة الثورة في تلك المرة بضربة شديدة وإن لم تكن قاضية . ومع أن عبد الرحمن كان يتوق إلى سحق الثورة بكل الوسائل ، فإنه لم يلجأ إلى قسوة لا مبرر لها ، بل آثر منذ البداية أن يتبع سياسة الرفق والتسامح نحو الزعماء والثوار الذين قدموا خضوعهم

وطاعتهم ، فسمح للكثير منهم بالانتقال إلى قرطبة مع الأهل والولد ، وأجرى عليهم الأرزاق والأعطية ، وأبدى بالأخص نحو النصارى الذين أذعنوا إلى الطاعة منتهى الكرم والتسامح^(١) .

وفي سنة ٣٠٢ هـ (٩١٥ م) ، وقع حادث سعيد في البلاط القرطبي ، هو مولد ولي العهد الحكم بن عبد الرحمن الناصر . وقد اختلف في تاريخ مولده ، فيقول الرازي إنه وقع في يوم الجمعة غرة رجب من هذه السنة . ويقول محمد ابن مسعود إنه وقع في يوم الجمعة ٢٤ من جمادى الأولى ، وأمه مرجان الرومية ، أم الولد الأثرية ، وقد سر عبد الرحمن بولادته أما سرور ، ونوه بها ، وأوسع الإنعام ، وتقدمت طبقات الناس إليه بالتهنئة . وأنشد الشعراء تهنيتهم ، فمن ذلك قول الفقيه أحمد بن محمد بن عبد ربه :

| | |
|-------------------------------|--|
| هلال نماء البدر واختاره الفجر | تلقت به شمس وأنجمه زهر |
| على وجهه سيماء المكارم والعلی | فضاءت به الآمال وابتهج الشعر |
| سلالة أفراس وبيت خلايف | أكفهم بحر ونایلهم غمر |
| بدا لصلاة الظهر نجم مكارم | تحف به العليا ويكنفه الفخر |
| ثماء إلى العلياء خير خليفة | تتبه به الدنيا ويزهى به العصر ^(٢) |

وفي أواخر سنة ٣٠٢ هـ (٩١٥ م) حل بالأندلس قحط شديد ، فعزت الأقوات وارتفعت الأسعار ، وأمر عبد الرحمن وزيره أحمد بن محمد بن زياد بالبروز بالناس للاستسقاء ، فبرز بهم يوم الإثنين ١٣ شوال (أول مايو) فنزل فيه رذاذ مملح وندى مبلل لم يكن له كبير أثر^(٣) ، وعمت المحنة سائر القواعد والشعور ، واستمرت خلال العام التالي (سنة ٣٠٣ هـ) ، وبلغت الشدة بالناس مبلغاً عظيماً ، وانتشر الوباء مع القحط ، وكثر الموت ، وهلك كثير من الرؤساء والوجهاء ، وكانت محنة قاسية شديدة الوطأة . ولم يدخر عبد الرحمن خلال تلك الآونة العصبية ، وسعاً في بذل المعونة والغوث لشعبه بتوزيع المؤن والصدقات الوفيرة . وحذا حذوه كثير من الكبراء وأهل الدولة ، فكان

(١) ابن حيان في السفر الخامس (مخطوط الخزانة الملكية بالرباط) لوحة ٣٢ أ ،

و Dozy : Hist., Vol. II. p. 103

(٢) ابن حيان في السفر الخامس (مخطوط الخزانة الملكية) لوحة ٥٣ .

(٣) ابن حيان في السفر الخامس (مخطوط الخزانة الملكية) لوحة ٥٣

لجهودهم أثر كبير في التلطيف من آثار المحنة . وكان لهذا الظرف أثره في تهدئة الثورة ، والفت في عضد الثوار ، ولكن عبد الرحمن لبث مع ذلك متيقظاً يرقب حركاتهم بحذر وأهبة .

ويحدثنا ابن حيان عن هذه المحنة في حوادث سنة ٣٠٣ هـ ، ويقدم إلينا عنها الصورة التالية :

« فيها كانت المجاعة بالأندلس التي شبت بمجاعة سنة ستين ، فاشتد الغلاء ، وبلغت الحاجة والفاقة بالناس مبلغاً لم يكن لهم عهد بمثلها ، وبلغ قفيز القمح بكل سوق قرطبة ثلاثة دنائير ، ووقع الوباء في الناس ، فكثرت الموتان في أهل الفاقة والحاجة ، حتى عجز عن دفعهم ، وكثرت صدقات الناصر لدين الله في هذه الأزمة على المساكين وأهل الفاقة ، وعلى المتعفين عن المسئلة ، وصدقات أهل الحسبة من رجاله الموتسين فيه ، فنفق الله بهم كثيراً من خلقه . وكان حاجبه بدر بن أحمد ، مدبر دولته ، أفشاهم صدقة ، وأعظمهم مواساة ، فنعش الله به أمة . وعدا أصر هذه المجاعة وضيق الأحوال ، السلطان عن تجريد صايفة وإعداد جيش ، لما بالناس من الجهد . فأخذ الناصر لدين الله في شأنه بالوثيقة ، وعول على ضبط أطراف وتحصين بيضته ، والإرصاد لأهل الخلاف والخلعان خلال معاقلهم ، ومجال مساربهم ، إذ كانوا مع استيلاء المجاعة عليهم ، لا يفترون عن العدوان ، على من مربهم من رفاق المسلمين ، وطالبي المعيشة ، وجالبي الميرة ، فلم يجدوا منفذاً إلى ما طمعوا فيه من إشاعة ، ونفع الله بذلك . وعاث الموتان في هذه الأزمة ، فأودى بخلق من وجوه أهل قرطبة وعلمائهم وخيارهم » (١) .

وما كادت تنقش هذه الغمة حتى عاد عبد الرحمن إلى استئناف الغزو ، فسير قائده أحمد بن محمد بن أبي عبدة غازياً إلى أرض النصارى . وسوف نتبع غزوات عبد الرحمن لاسبانيا النصرانية مجتمعة فيما بعد . وسير وزيره إسحق بن محمد القرشي إلى كورتى تدمير وبلنسية ، فطارد فيهما أهل الخلاف ، وافتتح حصن أوريولة المنيع ، قاعدة تدمير التالد من يد الثوار ، ثم أخضع الثوار في مدينة الحامة : وغزا الحاجب بدر مدينة لبلة ، وكان صاحبها الثائر عثمان بن نصر ممتنعاً بها .

(١) السفر الخامس (مخطوط الخزانة الملكية) لوحة ٥٥ أ

فبعث إليه الحاجب بلاطفه ويئذل الأمان له ولأصحابه ، ويعده بكل ما يحب ، ولكن الثائر رفض كل عرض ، وأصر على العصيان ، فطوق بدر المدينة ، وبرز له كثير من أهل الطاعة فأمهم ، وأبقاهم لديه ، وجد في مهاجمة عثمان وأصحابه إلى أن اقتحم عليه المدينة يوم ٢٠ رمضان سنة ٣٠٣ هـ (فبراير ٩١٦ م) ، وقبض على عثمان وصحبه وأرسلهم في الأصفاد إلى قرطبة ، وأمن أهل المدينة ، ونظر في مصالحهم . وقد نظم ابن عبد ربه في فتح مدينة لبلة وفي مديح الناصر والحاجب بدر قصيدة يقول فيها :

خليفة الله وابن عم رسول الله والمصطفى على رسله
 متتك نعمى نمت سوابغها كما استتم الهلال في كمله
 وجهه ربيع أذاك باكره يرفل في حليه وفي حلاله
 وأقبل العيد لاهياً جـذلاً يختال في لهوه وفي جـذله
 نصر من الله تضمنه ينـض في ريشه وفي عجله
 يجزى بشأو الأمام منصلتها يسبق حضر الجياد في مهله
 قد وقف النكت والخلاف بها وقوف صب ييكى على طله^(١)

وفي هذا العام ، سنة ٣٠٣ هـ ، وقع حادث داخلي هام ، هو جنوح عمر بن حفصون ، أكبر ثوار الأندلس إلى الصلح والطاعة ، فبعث إلى الناصر بخطب وده ، ويلتمس الصلح ، مستشفعاً بما كان منه في إيواء الأمير محمد والد عبد الرحمن وحمايته ، حينما فر من أبيه الأمير عبد الله . وقام بالوساطة في ذلك يحيى بن إسحق طيب عبد الرحمن ، وكان صديقاً لعمر بن حفصون ، فبذل في سبيل ذلك جهده ، وعاونه الحاجب بدر لدى الناصر ، فاستجاب الناصر لعقد الصلح مع عمر ، مع الحذر من غدره ومكره ، واتصل يحيى في ذلك مع جعفر بن مقسم أسقف بيشتر ، وعبد الله بن أصبغ بن نبيل ، وودنا ابن عطف ، وهم أكابر رجال ابن حفصون وخاصته ، وكانوا يميلون إلى عقد الصلح والدخول في كنف الطاعة . وسار يحيى نفسه لمقابلة ابن حفصون ، ووضع معه شروط الصلح ، وعاد إلى قرطبة ، وأقر الناصر تلك الشروط ،

(١) ابن حيان في السفر الخامس (مخطوط الخزائن الملكية) لوحة ٦١ ب و ٦٢ أ .

وعقد لابن حفصون على ذلك كتابة المشهور ، الذى خط فى أسفله بيده الأسطر الآتية :

« يا لله الذى لا إله إلا هو الطالب الغالب ، وجميع إيمان البيعة لازمتى من العهود المشددة ، والأيمان المؤكدة ، والمواثيق المغلظة ، لانقضت شيئاً مما جمعه هذا الكتاب تبديله ، ولا نقصان شيء منه ، ولا رضيت ذلك فى سر ولا جهر ، وأن كل ما فيه من الشروط والعهود والمواثيق لازمتى ، والله شهيد علينا ، وخططنا هذه الأحرف بيدنا ، وأشهدنا الله عز وجل على أنفسنا ، وكفانا بالله شهيداً ، ما وفى عمر بن حفصون بما نص فى هذا العهد وصح فيه إنشاء الله ، والله المستعان . »

ويقول لنا الرازى الذى يورد لنا نص هذه الوثيقة ، إن الحصون التى دخلت فى أمان عمر بن حفصون بمقتضى هذا الصلح ، وسميت فى كتاب العهد ، مائة واثنين وستين حصناً . واغتبط عمر بن حفصون بعقد هذا العهد مع الناصر أيما غبطة ، وبذل جهده وفى المحافظة على شروطه وأوضاعه ، وسر الناصر من بجانبه بما أبداه ابن حفصون فى ذلك من دقة وإخلاص ، وقدم ابن حفصون بهذه المناسبة إلى الناصر هدية فخمة ، فتقبلها الناصر ، وحسن موقعها لديه ، وكافأ ابن حفصون عنها بأضعافها ، وعظم سرور ابن حفصون بها ، واستحكمت طاعته طول حياته . وكان هذا من أعظم العوامل فى تهدئة اضطرام الثورة ، وجنوحها إلى التبدد والانحيار^(١).

وكان حبيب بن سواده الثائر بقرمونة قد نكث بعهدده ، وعاد إلى قرمونة ، وأظهر الامتناع بها ، فسير إليه عبد الرحمن الحاجب بداراً فى حملة قوية ، فحاصر بدر قرمونة وضربها بالمجانيق بشدة ، ثم دخلها عنوة ، وقبض على حبيب وولده وأرسلهما فى الأصفاد إلى قرطبة (ربيع الأول ٣٠٥ هـ)^(٢).

وفى شهر ربيع الأول من العام التالى ، فى سنة ٣٠٦ هـ (سبتمبر ٩١٨ م)^(٣)

(١) ابن حيان فى السفر الخامس من المقتبس - مخطوط الخزائن الملكية - لوحة ٥٦ ب و ٥٧ أ و ب .

(٢) الأوراق المخطوطة الخاصة بعهد الناصر ص ٥٥ و ٥٦ .

(٣) وفى رواية الرازى التى نقلها إلينا ابن حيان ، أن وفاة ابن حفصون كانت فى شهر شعبان سنة ٣٠٥ هـ - السفر الخامس - مخطوط الخزائن الملكية - لوحة ٦٥ أ .

وقع حادث كان له أكبر الأثر في تفكك عرى الثورة وانحلالها . ذلك هو وفاة عمر بن حفصون زعيم الثورة الكبرى ، ومثير ضرامها في غربي الأندلس ، توفي بعد مرض طويل ، في الثانية والسبعين من عمره . وكان ابن حفصون في الواقع أخطر ثائر عرفته الأندلس منذ الفتح ، وكانت ثورته تمثل أخطر العناصر التي لا تدين بالولاء لحكومة قرطبة ، وفي مقدمتها طائفة المولدين الذين ينتمى إليهم ، وهم هلاله القوط والنصارى الإسبان الذين أسلموا منذ الفتح ، وغدوا جزءاً من الأمة الأندلسية . وكان أولئك المولدون بالرغم مما تسبغه عليهم حكومة قرطبة الإسلامية من ضروب الرعاية والتسامح ، يضمرون لها الحصومة والكيد ، وينتهزون كل فرصة للخروج عليها . وكانوا يلقون العون دائماً من زملائهم النصارى المعاهدين رعايا الحكومة الإسلامية : وقد رأينا كيف دبر ابن حفصون حركته ونظم ثورته في المناطق الجنوبية الغربية ، فيما بين رندة ومالقة ، وقد كانت فضلاً عن وعورتها ومناعتها الطبيعية ، تضم كثرة من المولدين والنصارى ، وكان من هؤلاء معظم أنصاره وجنده . ولم ير ابن حفصون نفسه وهو يرجع إلى أصل نصراني ، بأساً من أن ينبذ الإسلام ويرتد إلى النصرانية لكي يذكرى حماسة أنصاره . وهكذا كانت وفاة هذا الثائر الخطر ضربة شديدة للثورة ، وتنفست حكومة قرطبة لوفاته الصعداء ، بعد أن شغلها زهاء ثلاثين عاماً .

قال الرازي : « وكان أول قيامه بالفتنة ، وصدعه عصي الجماعة ، وامتناعه بقلعة بيشتر منبر المعصية ، من ثلاثين سنة ، ركب فيها من العيث في الخلق ، والفساد في الأرض بغير الحق ، ما لم يركبه مارق بالأندلس ، منذ دانت للمسلمين ، فعد مهلكه فاتحة الإقبال ، وطالعة السعد ، واجتثاث الفتنة » (١) . وقد بالغت التواريخ النصرانية في تصوير ثورة عمر بن حفصون الطويلة المدى ، واعتبارها ثورة قومية تهدف إلى غاية وطنية سامية ، وهي تحرير وطنه — إسبانيا — من نير المتغلبين عليه ، وأنه كان في مناوآته لحكومة قرطبة الإسلامية يجيش بهذه النزعة ، ويهدف إلى هذه الغاية . وعمل النقد الحديث على إبراز هذه الصورة ، وعلى اعتبار ابن حفصون بطلا قومياً ، جديراً بالتقدير والاحترام .

(١) ابن حيان في المقتبس — السفر الخامس — لوحة ٦٥ ب .

وهذا ما نقرأه في تعليقات بعض أكابر النقدة المحدثين أمثال دوزي وسيمونيت ، وذلك بالرغم من كونهم لم ينسوا أن يذكروا في نفس الوقت أن ابن حفصون قد نشأ سفاهاً وقاطعاً للطرق ، لا تحذوه أية نزعة وطنية أو غاية مثلى . بيد أن سيمونيت ، وهو مؤرخ النصارى المستعربين ، يحاول أن يبرر حسن تقديره وتصويره لحركة ابن حفصون ، بأن قيامه اتخذ فيما بعد « شكلاً أكثر نبلاً ، وتحول من زعيم عصابة إلى زعيم حزب وأمة »^(١) . ويصفه دوزي بأنه « البطل الإسباني الذى لبث أكثر من ثلاثين عاماً يتحدى المتغلبين على وطنه ، والذى استطاع مراراً أن يجعل الأمويين يرتجفون فوق عرشهم » وأنه « كان بطلاً خارقاً لم تنجب إسبانيا مثله منذ أيام الرومان »^(٢) . أما نحن فنرى في مثل هذه الآراء مبالغة وإغراقاً ، وأنها ليست إلا ثمرة نزعة من التعصب الدينى والجنسى ، الذى يطبع النقد الغربى ، فى كثير من المواطن ، وأن ابن حفصون بالرغم من صلابته وقوة عزمه ، وبراعة خطته ، لم يكن سوى قاطع طريق ، وثائر من طراز قوى عنيف . أجل إن ابن حفصون ، كان يدعو منذ اشتد ساعده ، إلى ما يسميه قضية الاستقلال والحرية ، وتحرير مواطنيه من نير المسلمين ، بيد أنه لم يكن فى هذا الزعم سوى مخادع سياسى ، يسعى إلى كسب الصاحب والأنصار لتقوية مركزه ، ودعم سلطانه ، ولم يكن يصدر فى مغامراته وحروبه أو فى أعماله خلال ثورته الطويلة ، عن أية نزعة نبيلة ، أو تصرف تطبعه الشهامة ، والعزة القومية ، بل كانت أعماله وتصرفاته كلها ، بغى صراح ، وإجرام فى إجرام ، وامتهان لكل المبادئ الأخلاقية ، وكل مقتضيات الشرف والمروءة والشهامة . ومن كان هذا شأنه ، فإنه من التعسف أن تُسبغ عليه صفات البطولة ، وثوب التحرير والوطنية .

وترك ابن حفصون أربعة بنين ، هم سليمان وعبد الرحمن وجعفر وحفص ، وابنة هى « أرختا » ؛ وكان له ولد آخر هو أيوب أتهمه أبوه عندما اعتل ذات مرة ، بمحاولة الفتك به وقتله^(٣) . فقام سليمان فى أبده ، وقام جعفر مكان أبيه فى ببشتر بعهد منه ، وكان أبوه قد قلده عهده فى حياته ، وأخذ له البيعة فى

(١) راجع : J. Simonet : Histoire de los Mozarabes de Espana (Madrid : 1897) p. 516

(٢) Dozy : Histoire ; V. II. p. 106

(٣) أعمال الأعلام لابن الخطيب ص ٣٢ ؛ ونقط العروس لابن حزم ص ٧٩ .

وأخيراً أيامه ، فأظهر جعفر يوم موت أبيه لجميع نصارى بيشتر أنه يعتقد دينهم ، ويدين بالنصرانية معهم ، وزعم أن أباه كان يعتقد ذلك ولا يظهره ، وجمع إلى نفسه ثقاته منهم ، مع القسيسين والرهبان دون سائر الناس ، فتولوا تجهيز والده معه ، ودفنه على سنة النصارى ، بعد أن أمر بسد باب القسبة ، وحجاب باقي الناس من نصارى وغيرهم ، ولطف جعفر لإخوته ، ووعدهم بالحميل حتى سلموا له ، قال الرازى : « وكان جعفر في ذاته متهوراً بخيفاً ، جباناً ضعيف السبا ، ذميماً ، جسوراً حقوداً ، منافساً لمن يعمل عنده ، كنوداً لمن استرسل إليه ، موافقاً للسفال ، مستصحباً للأرذال ، لم تسم همته إلى مروءة ، ولا انطوت نيته على جميل ، ولا عرف قدر ما مهد له والده مع السلطان من فراش الصلح ، وبسط من ظلال الأمن ، بالتسجيل له على أعماله ، وإمضاء ذلك بعده لعقبه ، بل غمط النعمة عليه ، ورفض الساعين فيه لأبيه ، وعقد شهادات جماعة من السفلة والطغام ، على ابن مقسم الأسقف وابن نبيل وابن عطف حاجبيه ، فلمهم سعوا في الغدر بوالده عند السلطان ، وأرادوا إراحة سلطانه عن ولده بعده » (١) .

بيد أنه لم تمض أشهر قلائل حتى سير عبد الرحمن قواته إلى أبدة فاقتحمها وأسر سليمان ، وأخذ إلى قرطبة حيث عفا عنه عبد الرحمن وضمه إلى جيشه ، وكذا استسلم عبد الرحمن بن حفصون ، وكان ممتنعاً بحصن طرُش ، وكان أخوه جعفر صاحب بيشتر ، قد ضايقه ، وحاول أن ينتزع منه طرُش ، فالتجأ عندئذ إلى الأمير ، وأذعن للطاعة ، على أن يسلم حصنه ويمنح الأمان لنفسه وأهله ، فأجابه الأمير إلى ما طلب ، وتسلم منه الحصن ، واستقدمه إلى قرطبة وأجرى عليه الصلات ، وكان أديباً شاعراً . واستبد جعفر بحكم بيشتر وما حولها ، وأثر عبد الرحمن أن يهادنه مدى حين ، وأن يقره على أعماله . وفي سنة ٣٠٨ هـ (٩٢٠ م) قتل جعفر في بيشتر ضحية مؤامرة قيل إنها من تدبير أخيه سليمان ، وقيل من جهة أخرى إنه رأى أن يعود إلى الإسلام اكتساباً لمودة السكان والجنود المسلمين ، فاغتاله نفر من جنده النصارى (٢) . فقام أخوه سليمان مكانه في بيشتر ، وأقره عبد الرحمن

(١) ابن حيان في المقتبس - السفر الخامس - مخطوط الخزانة الملكية - لوحة ٦٥ ب

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٣٥ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ١٨٩ ، وراجع : Dozy : Hist.

على ولايته ، ولكنه نكث عهد الطاعة ، فسار عبد الرحمن لقتاله وحاصره مدى حين ، وكان أصحاب سليمان بحصن طُرُش ، قد نبذوا الطاعة مثله ، فسار عبد الرحمن إلى طُرُش ، ونالزهم ، ثم ترك قوة استمرت في حصارهم ، حتى أذعنوا إلى الطاعة ، وسلموا الحصن بالأمان ، وأمر عبد الرحمن بتخريبه وتسويته بالأرض . ثم سار عبد الرحمن لحصار سليمان مرة أخرى في سنة ٣١١ هـ (٩٢٣ م) ، وخرب سائر المناطق التي يسيطر عليها الثائر ، وأخضع معظم حصونها ، واعتصم سليمان بجبل بُبَشْتَر ، فنازله عبد الرحمن ، واشتد في محاصرته ، حتى ضاق الثائر وضجه بالحصار ذرعاً ، وخرج عليه معظم أنصاره ، ونكل بالكثير منهم . ونازل عبد الرحمن بالأخص حصن الشط ، وكان من أمنع الحصون الثائرة ، حتى تغلب عليه وعلى ما حوله من الحصون . وأخيراً عرض عليه سليمان أن يعود إلى الطاعة ، وأن يسلم بعض حصونه ، فاستجاب عبد الرحمن إلى رغبته ، وقسم حصن الشط ، وحصن منت ميور وغيرهما من الحصون كفالة بحسن الطاعة ، وانصرف عائداً إلى قرطبة ، وهو يتحين الفرصة الملائمة للقضاء على الثائر بصورة نهائية . وفي سنة ٣١٣ هـ ، صُلب على الرصيف بباب قرطبة ، رجل من أصحاب ابن حفصون هو الرامي النصراني المعروف بأبي نصر ، وكان من أحذق الرماة في عصره ، وطار صيته أيام عمر بالحدق في الرماية وإصابة الأغراض البعيدة ، قلما تخطئ رميته ، وقد أودى بحياة كثير من المسلمين من الجند وغيرهم ، وساد الذعر منه ، وانتهى الأمر بأسره ، وإحضاره إلى الحضرة ، فجيء به إلى باب السدّة وأمر عبد الرحمن بصلبه وشكه بالسهم ، فرفع فوق جذع في مشهد حافل من الناس ، وتعاورته الرماة بالسهم حتى مزق بدنه ، وترك دامياً فوق جذعه ، ثم أخذت جثته بعد أيام وأحرقت (١) .

وفي أواخر سنة ٣١٤ هـ ، سير عبد الرحمن وزيره عبد الحميد بن بسيل إلى بيشتر ، وخرج سليمان في قواته إلى لقائه فهزم وقتل ، واحتز رأسه وقطعت أشلائه ، وأرسلت إلى قرطبة فرفعت على باب السدة (يونيه سنة ٩٢٧ م) . وقام أخوه حفص مكانه في بيشتر ، واستمر على المقاومة حيناً . وفي ربيع الأول سنة ٣١٥ هـ ، سار عبد الرحمن بنفسه إلى بيشتر ومعه ولي عهده الحكم ،

١ . (ابن حيان في المقتبس - السفر الخامس - مخطوط الخزانة الملكية ، لوحة ٨٤ ب .

وكان يومئذ صبياً في الثانية عشرة من عمره ، ونزل على مدينة ببشتر ذاتها ، وبها حفص ، وشدّد عليها الحصار ، وابتنى إزاءها حصناً للتضييق عليها ، وفرق قواته لمنازلة بقية الحصون الثائرة ، ثم ترك قوة لمتابعة الحصار . واستمر الحصار بضعة أشهر ، حتى اضطر حفص أن يذعن أخيراً إلى التسليم ؛ فسلم المدينة بالأمان إلى القائد سعيد بن المنذر ، وذلك في أواخر شهر ذي القعدة سنة ٣١٥ هـ (يناير سنة ٩٢٨ م) وأخذ حفص بن عمر وأهله وأصحابه ، أسرى إلى قرطبة ، فعفا عبد الرحمن عنهم ، وأحسن مثواهم ، وضم حفصاً إلى جيشه .

وفي العام التالي سنة ٣١٦ هـ ، سار عبد الرحمن إلى ببشتر لتنظيم شئونها ، فخرج من قرطبة في منتصف شهر المحرم منها (مارس سنة ٩٢٨ م) ورافقه ولده الحكم ، ووزيره أحمد بن محمد بن حدير ، واستخلف على المدينة أحمد ابن عيسى بن أبي عبدة . وقصد إلى ببشتر بطريق أشونة ، فوصلها في العشرين من المحرم ، ودخلها وجال في أرجائها ، وألفاها منقطعة النظر من حيث الحصانة والمنعة . فعين لها والياً من قبله ، وعمد إلى تطهيرها من آثار ابن حفصون ، فصلى في مسجد جامع ، وأمر أن تقام به الصلاة . وكان ابن حفصون في أواخر أيامه ، قد أثار حول موقفه من تذبذبه حول إظهار الإسلام ، وجنوحه إلى النصرانية ، ريباً حول حقيقة الدين الذي كان يعتنقه . فأمر الناصر بن بشار قبره ، وإخراج جثته وفحصها . فتبين من هيئتها ، وكونه ملق على الظهر ، مشبوك الذراعين على الصدر ، ومستقبلاً المشرق ، أنه دفن على دين النصرانية ، وعان ذلك الناس من العسكر وغيرهم ، وشهد بذلك الفقهاء المرافقون ، واتفق الجميع على أنه هلك على دين النصرانية . فأمر عبد الرحمن بحمل الجثة ، إلى قرطبة ، حيث علقت في أعلى الجذوع على باب السدة يكتنفها أشلاء ولديه المصلوبين قبله ، وهما حكم وسليمان . واستمرت أشلاؤهم معلقة على جذوعها عرة للناظرين حتى سنة ٣٣١ هـ ، حيث حملها مد النهر الطامى في تلك السنة ولأحمد بن محمد الرازي في صلب أوصال ابن حفصون قصيدة يقول فيها

تبدى لمراى العين مجسماً وقام من الأجداث خلقاً متمماً
فما كان إلا مثل من نام نومة فأنبه عنها حين أغنى وهووماً

ثوى في الثرى حتى إذا صار رمة أعيد إليه جسمه فتلاًماً
 رقى فوق جذع بالهواء معلق يحاول منه بالنجوم تحسوماً
 تبارك من أبداه للخلق سامعاً وبوأ منه النفس قعر جهنماً^(١)
 وأمر عبد الرحمن ، فعمرت سائر مساجد ببشتر المهجورة ، وهدمت سائر
 الكنائس والأديار ، التي ابتناها النصارى في تلك المنطقة ، واستولى عبد الرحمن
 على سائر معقلها وحصونها ، وطهرها من آثار الثورة الأخيرة^(٢) . ثم أمر
 بعد ذلك بالقبض على « أرختنا » ابنة عمر بن حفصون وإعدامها ، لارتدادها
 عن الإسلام ، وتمسكها باعتناق النصرانية ، فأعدمته في سنة ٩٣١ م ، أو في
 سنة ٩٣٧ وفقاً لرواية أخرى ، ونظمتها الروايات والأساطير النصرانية في سلك
 القديسين والشهداء^(٣) :

هذا ، وقد أصدر الناصر عقب فتح ببشتر واستئمان حفص ، كتاباً طويلاً
 ينوه فيه بهدى الإسلام وفضله ، وما خصه الله به من خلافة وأمانة عباده ،
 ويشير إلى خروج المارقين ، وميل نفوسهم المريضة إلى الشرك ، وكيف أنه أصدر
 أمانة لأهل ببشتر ، ثم يقول في خطابه ما يأتي :

« وعهدنا إلى الوزير أحمد بن محمد حدير ، بالتقدم إليهم لحضور خروجهم ،
 ومباشرة نزولهم ، وإكمال الأمان لهم ، وقبض الأيدي عنهم ، فنهض إلى ذلك
 وقصد له ، فلما صار بمدينة طليج ، المبتناة على مدينة ببشتر ، هبت بالطاغين عنها ،
 فتساربوا خارجين ، وتهافتوا ذاهبين ، وتعرفوا الذي سبا إلى جوانب شتى ،
 فقصد كل واحد إلى منزعه ، وأم مكان طماعيته ، ولحق بمدائن الطاعة ،
 فصاروا في غمار الرعية ، وتمكث خلفهم عميدهم حفص بن عمر طائر القواد ،

(١) ابن حيان - السفر الخامس - لوحة ٨٩ أ و ب و ٩١ أ . هذا ولم نجد ذكرًا لحكم
 من أبناء عمر بن حفصون إلا في هذه المناسبة ، وفي رواية ابن حيان ، وفي الأوراق المخطوطة
 (ص ٧٧) .

(٢) تراجع تفاصيل الممارك الأخيرة بين عبد الرحمن وأبناء ابن حفصون ، ونخاتمة هذه
 الممارك في الأوراق المخطوطة الخاصة بعصر الناصر ص ٦٢ و ٦٥ و ٦٩ و ٧٣ و ٧٤ و ٧٥ و ٧٩
 و ٧٧ و ٧٨ . وكذلك في البيان المنسوب ج ٢ ص ١٩١ و ١٩٣ و ١٩٤ و ٢٠٤ و ٢٠٨ و ٢٠٩ .
 وابن خلدون ج ٤ ص ١٣٥ .

(٣) R.M. Pidal: Orígenes del Español, وكذلك Dozy: Hist., Vol. II, p. 109

خافق القلب ، لم تطب نفسه على الخروج خوارجاً ، ولا سكن منه الأمان نقاراً ،
يحشى كل يد أن تضبط عليه ، وكل شجرة أن تتعلق به ، قد خامره من الرعب
ما كاد أن يربى على العطب ، فطمأن الوزير أحمد محمد بن حدير من جزعه ،
وسكن من بجأشه ، ووفاه من آمالنا المبسوطة ليناً وثق به واطمأن إليه ، فخرج
آخر الخارجين ، ولحق بالآمنين ، فأصبحت مدينته بقعة الضلالة ، ومنبر
الخلاف ، ومعدن الغواية ، بما أحاط بها من أسوارها وأبنيتها وقصاياها ،
وداخلها من جناتها ومصانعها ، مغوية من قطينها ، خاوية على عروشها ، كأن لم
يغن بها ساكن ، ولا استوطنها قافل .

ثم يقول إنه أمر بعد ذلك بتخريب ببشتر ، وحط أسوارها ، وإنزال
جدرانها ، وهدم كل قائم فيها من قصرها ودورها ومخازنها ، وإعادة جبالها
أجرد ، على ما كانت عليه لأول خلقها . « ثم استقدمنا حفصاً اللائذ بالتوبة
إلى ما تفضلنا عليه من التأمين والتمكين ، وعدنا عليه من العفو والتطمين ،
وأخذنا فيه بالفضل المبين ، الذي جعلنا الله أهله ، وغلب على مذهبنا إيثاره ،
وجمعنا له من ذلك ما اغتبط به ، وسكن إليه ، وقرر نفسه عليه ، فاعلم ذلك ،
وقف عليه ، واستشعر حمد الله ، ومر بقراءة كتابنا هذا إليك على المسلمين
قبلك في جامع موضعك ، ليحمدوا الله عز وجهه ، على عظيم ما اصطنعه إليهم ،
ووهبه لهم ، وليحدثوا من شكره تعالى على ما درأ عنهم ، والتقرب بنوافل
الحمد إليه ، ما يستدام له رضاه عز وجهه ، ويستجلب به المزيد من نعمه ، إن
شاء الله وهو المستعان ، وكتب يوم الخميس لخمس من ذى الحجة سنة خمس
عشرة وثلاث مائة .

ويقول لنا الرازي ، إن الناصر لما خرج إلى ببشتر ، وأمر بهدمها ، أمر
بالإبقاء على القصور والقصاب ، التي أبقاها لعماله وحشمه الذين ندبهم للقيام بها ،
فدكت أسوارها ، وحطت أعلامها ، وإنه أي الناصر أصدر كتاباً بحوادث
ببشتر ، والأمر بهدمها ، وهدم مسجدها الذي أقامه ابن حفصون ، لأنه كان
ستاراً لفسقه المسلمين ، والأمر بإحراق منبره « الذي دعى فيه للخزير الضال ،
ومن خلفه من نسله الخبيث ، وأعلن عليه بدعوة الشيعة » (١) .

(١) ابن حيان في المقتبس - السفر الخامس - مخطوط الخزانة الملكية لوحات ٩٤

ولم يغفل عبد الرحمن في الوقت الذي كانت فيه ثورة ابن حفصون وأبنائه في جنوب الأندلس ، تشغل معظم عنايته ، عن مطاردة الثورة في الأنحاء الأخرى . وكانت طليطلة من أمنع معاقل الثورة ، فسير عبد الرحمن جنده لحصارها ، وفيها لُبَّ بن الطربيشة وهو من زعماء المولدين ، واستمر الحصار زهاء عامين حتى نضبت موارد المدينة ، ونحبت عزائم أهلها واضطرت في النهاية إلى التسليم والإذعان . وسار لب مع الأمير بقواته إلى الغزو في أرض النصارى (سنة ٣٠٨ هـ) . وكانت بطليوس وأحوازها منذ أكثر من أربعين عاماً ، معقلاً من معاقل ثورة المولدين . وكان بنو مروان الحلقي مازالون يسيطرون على تلك المنطقة ، وكانوا من أخطر الحوارج وأشدّهم مراساً ، يمالئون الأمراء النصارى ويخالفونهم على حكومة قرطبة . ففي سنة ٣١١ هـ (٩٢٣ م) ، هلك عبد الله بن محمد بن مروان الحلقي صاحب بطليوس قتيلاً بيد بعض المخالفين من أصحابه ، فقام مكانه ولده عبد الرحمن ، واستبد بمدينة بطليوس وما حولها ، واستمر بضعة أعوام على خروجه وتحمديه لحكومة قرطبة .

وفي ربيع الأول سنة ٣١٧ هـ (إبريل ٩٢٩ م) خرج الناصر من قرطبة متجهاً نحو الغرب ، ومعه ولده الحكم والمندروعدة من الوزراء ، واستخلف على القصر ولده عبد العزيز . وبعث الناصر ينذر المتخلفين عن الطاعة ، بوجوب الدخول في طاعته ، والتخلي عن العصيان ، وفي مقدمتهم صاحب بطليوس عبد الرحمن بن عبد الله الحلقي . ووصل الناصر بجيشه إلى بطليوس في أواخر ربيع الآخر من هذه السنة وحاصر بطليوس ، وقاتل المتصدين للمقاومة حتى هزموا واقتحم أرباضهم ، وأحرقت ديارهم ، فامتنعوا داخل المدينة ، فعهد الناصر بقتالهم إلى القائد أحمد بن إسحق القرشي في قوة كثيفة ، فشدد في حصار المدينة ، واقتحم ما حولها من الحصون ، ثم ضربها بالمجانيق بشدة ، وقطع عنها كل مورد ، واشتد بأهلها الضيق ، واضطر الحلقي إلى الإذعان وطلب الأمان ، فأجابه الناصر إليه ، وأسكنه هو وأهله وأكابر رجاله بحضرة قرطبة ، وعين لبطليوس والياً جديداً هو عثمان بن عبد الله ، وكان خضوع بطليوس في سنة ٣١٨ هـ (٩٣٠ م) .

ولما غادر الناصر بطليوس سار إلى مدينة باجة ، أقصى قواعد الغرب ،

وفيهما التأثير عبد الرحمن بن سعيد بن مالك ، فنزل عليها ، وأنذر صاحبها بالدخول في الطاعة ، فلم يقبل النصيح ، فطوقها وحاصرها بشدة ، حتى أجهد أهلها الجوع والعطش ، وتساقطوا من الإعياء ، وعندئذ اضطر صاحبها إلى الإذعان ، ففتحهم عبد الرحمن الأمان ، وأمن صاحبها وآله ، وخرجوا إليه تائبين مستسلمين ، فبعثهم إلى قرطبة . وكان افتتاح باجة في منتصف جمادى الآخرة سنة ٣١٧ هـ . ونظر الناصر في مصالح المدينة ، ثم عين لها والياً من قبله ، هو عبد الله بن عمرو ابن مسلمة ، وزوده بحامية كافية .

وتحول عبد الرحمن بعد ذلك إلى مدينة أكشونبه على مقربة من ساحل المحيط الجنوبي ، وبها التأثير خلف بن بكر ، فبادر إلى الطاعة معتذراً ، وأقره الناصر على ولايته ، على أن يلتزم بأداء الجباية وبحسن السيرة .

وقضى الناصر في هذه الغزوة زهاء ثلاثة أشهر ، طهر خلالها أنحاء ولاية الغرب من آثار الخروج والثورة ، ثم قفل إلى قرطبة فوصل إلى القصر في منتصف رجب^(١) . وكان الناصر قد سار بنفسه إلى تدمير وبلنسية ، وذلك في سنة ٣١٢ هـ (٩٢٤ م) أثناء مسيره إلى غزوة بنبلونة الكبرى ، حسبما تفصل بعد . فطارد الخوارج والعصاة في شرقي الأندلس ، وأستولى على معقلهم ومزق شملهم . وفي سنة ٣١٤ هـ (٩٢٦ م) سير الناصر وزيره القائد عبد الحميد ابن بسيل إلى الثغر الأعلى لمقاتلة بنى ذى النون ، وكانوا قد عادوا إلى الخلاف والعصيان ، وأكثروا من الفساد والعدوان على من جاورهم من المسلمين وأهل الذمة ، فقصد إلى معقلهم شنت بريّة واقتحمها ، وقتل كبيرهم محمد بن محمد ابن ذى النون ، وعدة آخر من رجالهم ، وافتتح مدينة سُرّية من مدنها ، وولى عليها عاملاً للسلطان . ونخضعت شنت برية وما والاها للطاعة ، ودرت جبايتها من ذلك الحين^(٢) . وفي سنة ٣١٧ هـ ، افتتحت مدينة شاطبة ، واستنزل عنها صاحبها عامر بن أبي جوشن التأثير بها ، بعد أن ترددت الحملات عليه ، مدى خمسة أعوام ، وكان خضوعه على يد صاحب الشرطة العليا دريّ بن

(١) ابن حيان في المقتبس - السفر الخامس - لوحات ١٠٠ و ١٠١ و ١٠٩ ، والأوراق المخطوطة الخاصة بعهد الناصر ص ٨١ .

(٢) ابن حيان في المقتبس - السفر الخامس - لوحة ٨٥ أ .

عبد الرحمن ، واشترط عامر عند استسلامه أن يمنح الإقامة مدة في حصن « شنت مريّة » من حصونه ، حتى ينظم شتونه ويسير في أهله إلى قرطبة ، فأجيب إلى طلبه^(١) . وهكذا أخذت الثورة في سائر النواحي ، بعد أن لبثت زهاء نصف قرن تستنفد قوى الأندلس ومواردها ، وتفت في عضدها ، وتقعدها عن الكفاح ضد عدوها الحقيقي المتربص بها ، ونعني إسبانيا النصرانية .

- ٢ -

كانت إسبانيا النصرانية في خلال تلك الفترة التي اضطربت فيها الأندلس بالفتن ، وشغلت حكومة قرطبة بأمر الثورة في النواحي ، تسير قدماً في سبيل القوة والتوطد ، وتعمل جاهدة لانتهاز كل فرصة للكيد للأندلس ، وممالأة ثوارها والعيث في أراضيها . وكانت تنقسم عندئذ إلى إمارتين أو مملكتين متحالفتين ، هما مملكة ليون (أو مملكة جليقية) ، ومملكة ناغار (نبرة أو بلاد البشكنس) . وكانت ليون وهي الواقعة في الشمال الغربي بين المحيط ونهر دويرة ، أكبر المملكتين وأوفرهما قوة ومنعة ، وكانت بذلك تتولى قيادة إسبانيا النصرانية ، في ميدان الكفاح الخالد بينها وبين إسبانيا المسلمة . وكانت قواعد الأندلس الشمالية التي تتأخم مملكة ليون ، مثل أسترقة وسمورة وشلمنقة وشقوبية وميراندة ، قد خلت منذ أواخر القرن الثامن من معظم سكانها المسلمين ، واستوحش العرب والبربر ، لقتلهم في تلك الأنحاء ، وكثر اعتداء النصارى عليهم ، وتوالى القحط في تلك الربوع ، فهاجروا إلى الجنوب ، وجاء ملك ليون ألفونسو الثالث (أواخر القرن التاسع) ، فعاث في تلك المنطقة ، وقتك بمن فيها من المسلمين ، ثم ارتد إلى جباله . ولبثت هذه المنطقة قفراً خالية تقريباً ، يتبادلها المسلمون والنصارى من وقت إلى آخر ، وشغلت حكومة قرطبة بأمر الثورة فلم تستطع رد الاعتداء ، وانهز ألفونسو الثالث تلك الفرصة ، فدفع حدود مملكته جنوباً حتى نهر دويرة . واختط هنالك عدة قلاع منيعة ، كان يتخذها النصارى قواعد للإغارة على الحدود الإسلامية ، واجتياح المسلمين العزل بالنار والسيوف ، وقتل النساء والأطفال والشيوخ ، ونهب الأموال والمتاع . وجرى ولده غرسية على هذه السياسة الدموية للغاشمة . وكانت إسبانيا النصرانية تنظر من خلال هضابها القفرة ، ومواردها

(١) ابن حيان في المقتبس - السفر الخامس ، لوحة ١٠١ ب .

الضئيلة ، وفقرها المدقع ، إلى وديان الأندلس النضرة ، وإلى نعمائها الوافرة ، وحضارتها الزاهرة ، بعين المقت والحسد ، وتعمل جاهدة لبث الدمار والويل إلى هاتيك الربوع السعيدة . وكان على حكومة قرطبة أن تعمل على حماية الأندلس وحماية تراثها وحضارتها ، من هذا العدوان الخرب الذي أخذ يشتد يوماً عن يوم . وكان عبد الرحمن حينما ولي الملك ، يؤثر الإغضاء حيناً عن محاربة النصارى ، لكى يكرس جهوده وقواه لقمع الثورة ، وتطهير الأندلس من عناصر الفتنة ؛ ولكن النصارى رأوا بالعكس أن يعملوا على انتهاز الفرصة ، وإذكاء نار الفتنة والفوضى فى الأندلس . فما كاد عبد الرحمن يلى الملك ، حتى بادر أردونيو الثانى (أردون) ملك ليون بالإغارة على الأراضى ، الإسلامية واتجه أولاً نحو منطقة الغرب لأنها وضعف وسائل الدفاع عنها ، وقصد إلى مدينة يابرة ، الواقعة غربى بطليوس . ويقول لنا الرازى إن أردونيو نزل على يابرة فى يوم ١٣ من المحرم سنة ٣٠١ هـ (أغسطس ٩١٣ م) وأنه كان فى جيش يقدر بثلاثين ألفاً من الخيل والرجل والرماة ، وكان على يابرة يومئذ عاملها مروان عبد الملك بن ، فبذل جهده لمداغة الغزاة ؛ وطوق أردونيو المدينة من سائر نواحيها ، وهاجمتها قواته من كل صوب ، ودافع المسلمون عن مدينتهم من فوق الأسوار ، حتى أرغموا بفعل السهام على النزول عنها وتسلىق النصارى الأسوار ، ودخلوا المدينة ، واضطربت بينهم وبين المسلمين داخلها معارك شديدة ، وفى المسلمون شيئاً فشيئاً حتى قتلوا جميعاً ، ولم تنج منهم سوى شرذمة قليلة ، فرت تحت جناح الظلام إلى مدينة باجة . وسبى النصارى سائر النساء والذرية ، وقتل مروان بن عبد الملك عامل المدينة مدافعاً عنها ، وبلغ السبى أكثر من أربعة آلاف من النساء والولدان . وترك أردونيو المدينة خراباً ياباً ، وعاد فى قواته إلى جليقية . وبث هذا الحادث الروح والفرع فى سائر قواعد الغرب ، فأخذ أهلها فى إصلاح أسوارهم ، وقام أهل بطليوس بالأخص فى ذلك بمجهود ضخم ، ودعموا أسوارهم ، وزادوا فى عرضها وارتفاعها ، بقيادة عاملهم عبد الله بن محمد الحليقى^(١) . وفى سنة ٣٠٣ هـ (٩١٥ م) ، سار أردونيو فى قواته مرة أخرى إلى منطقة الغرب ، فى جيش تقدره الرواية الإسلامية بستين ألفاً ،

(١) ابن حيان عن الرازى - السفر الخامس - مخطوط الخزانة الملكية - لوحة ٥١ أ وب

فعبّر نهر التاجه ، واشترك في إرشاده لإثنان من الأدلاء المسلمين ، من بربر مضمودة من البرانس ، ولكنهما كانا يضمران عكس ما طلب إليهما ؛ واتجه أردونيو جنوباً صوب حصن مدلين ، وقاده الدليلان المسلمان من طريق صعبة وعرة ، فلم يخرج منها إلا وقد هك جيشه ، فأمر بالدليلين فأعدما ، وسار حتى وصل إلى الحصن ، فاستولى عليه دون مقاومة وأصاب فيه بعض الغنائم ، ثم سار إلى قلعة الحنش (الانية) ، الواقعة جنوبى ماردة ، وكان يسكنها يومئذ برانس كتامة ، وكانوا في عدد وافر وعلى أتم استعداد للمقاومة ، وكان المقدم عليهم يسمى بابن راشد ؛ فهاجم النصارى الحصن ، ودافع المسلمون عن أنفسهم أشد دفاع ، ولكنهم هزموا في النهاية وقتل معظمهم ، وقتل ابن راشد فيمن قتل ، ودخل النصارى الحصن فقتلوا كل من وجدوه ، وسبوا النساء والذرية ، وهدموا الحصن . ثم سار أردونيو في اليوم التالى إلى ماردة ، ولكنه وقف أمامها ذاهلاً من حصانتها ، واعتزم الكف عن قتالها ، وبعث إليه قائد المدينة محمد بن تاجيت رسولا يستلطفه ، وأهدوا إليه فرساً رائعاً من عتاق الخيل بسرجه وعدته ، فقبله وأعجب به ، وتركهم ورحل عنهم . ولكنه عاث حين قفوله في تلك المنطقة ، وقتل وسبى كثيراً من سكانها ، واستولى على بعض قلاعها ؛ ثم قصد إلى مدينة بطليوس ، فارتاع أهلها واسترضوه بالمال والخلى ، وعبر النصارى نهر دويرة قافلين إلى ديارهم مثقلين بالغنائم والسبى دون أن يعترض سبيلهم معترض (١) .

وبقيت يابرة خراباً نحو عام ، حتى بعث عبد الله بن محمد الحلقي ، صاحب بطليوس حليفه مسعود بن سعدون المعروف بالسرنباقي ، ومن معه من قومه الشاردين عن الجماعة إلى مدينة يابرة ، فنزلها مسعود بأهله وولده وصحبه ومن معهم ، وكان منهم كثير ممن لجأ من قبل من أهل يابرة إلى باجة وأكشونبه ؛ وابتنى لهم الحلقي أسوار المدينة ، وأمدهم بالأطعمة والدواب والكسى ؛ وعلى أثر ذلك قصد الناس إلى يابرة فاستوطنوها ، وعمرت بسكانها مرة أخرى (٢) .

(١) ابن حيان في السفر الخامس من المقتبس - مخطوط الخزائن الملكية ، لوحة ٦٠ أ و ب وابن خلدون ج ٤ ص ١٤١ .

(٢) المقتبس - السفر الخامس ، لوحة ٥٣ و ٥٤ .

وكانت هذه المنطقة التي غزاها النصارى وهى منطقة ماردة ، من المناطق
الناثرة . ولكن عبد الرحمن كان أبعد نظراً من أن يغضى عن عدوان يقع في صميم
الأراضي الإسلامية . هذا إلى أنه رأى أن يأسر قلوب الثوار ، بإنجادهم والانتقام
لهم ، وأن يرد عدوان النصارى بمثله . ففي فاتحة سنة ٣٠٤ هـ (٩١٦ م) سير
عبد الرحمن وزيره وقائده أحمد بن محمد بن أبي عبدة في جيش قوى ، غازياً إلى
أراضي مملكة ليون ، فالتقى بالنصارى وهزمهم في عدة وقائع محلية ، وعاث
في أراضيهم وسبي وغنم غنائم كثيرة^(١) . وفي العام التالى أراد أردونيو الثانى
الانتقام لهزائمه ، فعاث في منطقة طلبيرة^(٢) ، وأحرق مدنها وانتسف ضياعها ،
فضج المسلمون لهذا البلاء ، وتضرعوا إلى مليكهم أن ينقذهم من هذا العدوان
الصارخ .

فسير عبد الرحمن قائده أحمد بن أبي عبدة ثانية إلى أرض النصارى في جيش
ضخم من المدونين ، والمتطوعة ، وانضم إليه حين دخوله إلى الثغر (الحدود)
خلق كثير ، واخترق المسلمون أراضي قشتالة ، وزحفوا إلى قلعة شنت إشتين
الواقعة على نهر التاجه ، وكانت تسمى أيضاً قلعة قاشترو مورش^(٣) ، وهى
من أمنع قلاع النصارى على الحدود ، وضربوا حولها الحصار الصارم ، ثم
نازلوها بشدة ، وكادت تسقط في أيديهم ، لولا أن هرع إلى إنجادها أردونيو
في جموع ضخمة من النصارى ، وكان الجيش الإسلامى بالرغم من تفوقه في
الكثرة مختل النظام ، مفكك العرى ، يتألف سواده من البربر والمرترقة الذين
لا يعتمد على ولائهم وشجاعتهم ، وكانوا يحرصون على غنائمهم أكثر من
حرصهم على مقاتلة العدو ، فلما انقض أردونيو بقواته على المسلمين ، تسالت
منهم وحدات كثيرة ، وارتدت أمام المهاجمين ، ودب الهرج إلى صفوف
المسلمين . ولكن قائدهم الشجاع أحمد بن أبي عبدة فضل الموت على الارتداد ،
فصمد في مكانه في نفر من أشجع ضباطه وجنده ، فقتلوا جميعاً ، وهلك معهم
عدة من أكابر الفقهاء والمجاهدين . وكانت هزيمة مروعة . وكان ذلك في
الرابع عشر من ربيع الأول سنة ٣٠٥ هـ (٤ سبتمبر سنة ٩١٧ م) . وتقول

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ١٧٦ .

(٢) وهى بالإسبانية Talavera ، وهى تقع على نهر التاجه غربى طليطلة .

(٣) San Esteban أو Castro Moros

الرواية الإسلامية إن فلول الجيش الإسلامي ، استطاعت أن ترتد بعثاتها ومتاعها سالمة إلى الأراضي الإسلامية^(١) . ولكن الرواية الإسبانية تقول بالعكس إن هزيمة المسلمين كانت ساحقة ، وبلغ من روعتها أن غصت سائر التلال والسهول والغابات الممتدة جنوباً من دويرة إلى أنتيسة^(٢) ، بقتلاهم وأشلأهم^(٣) . وكان لذلك الخطب وقع عميق في بلاط قرطبة . وكان عبد الرحمن يعزم المبادرة إلى غزو ليون بنفسه ، لولا أن شغلته عندئذ حوادث إفريقية ، على أنه اضطر غير بعيد أن ينهض لرد اعتداء النصاري . ذلك أنه لم تمض بضعة أشهر حتى عاد أردونيو الثاني وحليفه سانشو (شانشو) ملك نافار ، إلى غزو الأراضي الإسلامية في منطقة الثغر الأعلى ، وذلك في ربيع سنة ٩١٨ م . وكانت موقعة شنت إشتين قد ضاعفت من جرأة النصاري واستهتارهم ، فعاثوا في أحواز ناجرة وتطيلة . واستولى سانشو على بلدة بلتيرة^(٤) وأحرق مسجدها الجامع ونكل بأهلها . يقول ابن حيان : « وانقلب الكفرة لغنهم الله إلى بلادهم أعزة ، فكان هذا مما أحفظ الناصر لدين الله وحرّكه لمجاهدة أعداء الله ، ورغبه في الانتقام منهم بمن الله تعالى »^(٥) . وكان عبد الرحمن في الواقع يتوق إلى الانتقام لهزمته الفادحة في شنت إشتين ومقتل قائده الشهم ، ولم ينس أن أردونيو سمر رأسه في جدران شنت إشتين ، فحشد جيشاً ضخماً لمقاتلة النصاري بإمرة حاجبه بدر بن أحمد ، وبعث الأوامر والكتب إلى أهل الثغور بالنهوض لتأييده ، ومعاونته على معاقبة النصاري ورد عدوانهم والإيقاع بهم . وخرج بدر في جيشه الضخم من قرطبة في المحرم سنة ٣٠٦ هـ (أوائل يولييه سنة ٩١٨ م) ، وهرع إليه أهل الثغور (الأطراف) من كل ناحية ، ظمئين إلى الجهاد والانتقام . وكذلك احتشد النصاري من سائر الأنحاء لرد الغزاة . ونفذ المسلمون كالسيل

(١) هذا قول ابن حيان في السفر الخامس من المقتبس — مخطوط الخزائن الملكية ، لوحة ٦٤ أ ، وكذلك البيان المغرب ج ٢ ص ١٧٨ .

(٢) هي بالإسبانية Atienza

(٣) Dozy : Hist , Vol. II. p. 117

(٤) ناجرة هي بالإسبانية Najera ، وبلتيرة هي Valtierra ، وكلتاها تقع في أحواز تطيلة .

(٥) السفر الخامس من المقتبس — لوحة ٦٦ ب .

إلى حدود ليون ، فاعتصم النصارى بالجبال لما رأوا من كثرة العدو وأهبطه ، ولكن المسلمين هاجوهم في مواقعهم ، ونشبت بين الفريقين موقعتين دمويتين على مقربة من مكان يسمى « مطونية » . فهزم النصارى هزيمة ساحقة ، وأمعن المسلمين فيهم قتلاً وأسراً ، ولم تنج منهم سوى فلول يسيرة ، وكان ذلك في الثالث والخامس من ربيع الأول سنة ٣٠٦ هـ (١٣ و ١٥ أغسطس سنة ١٩١٨ م) (١) .

على أن هذه الهزيمة الساحقة لم تفت في عضد النصارى ، فلم يمض سوى قليل حتى عادوا إلى الاحتشاد والإغارة على الأراضي الإسلامية ، واستمر القتال محالاً بين المسلمين والنصارى مدى أشهر ، وكثر العيث والسبي في مناطق الحدود . فاعتزم عبد الرحمن أن يسير إلى مقابلة النصارى بنفسه ، فخرج من قرطبة في الثالث عشر من المحرم سنة ٣٠٨ هـ (أوائل يونيو ٩٢٠ م) في جيش ضخم ، وانضم إليه أثناء سيره كثير من أهل الثغور . واخترق أراضي الثغر الأوسط من طليطلة شمالاً ، حتى مدينة الفرّج أو وادي الحجارة ومدينة سالم ، فوصل إليها في الرابع والعشرين من المحرم . وفي ذلك اليوم ولي خطة الوزارة لسعيد بن منذر القرشي ، وعينه والياً لوادي الحجارة ، واتجه إلى طريق ألبّة والقلاع (قشتالة) ثم عبر نهر دويرة وزحف على مدينة أوسمة (وخشمة) وأحرقها ، وفر منها النصارى ولاذوا بالجبال . ثم سار إلى قلعة شنت إشتين (قاشترو مورش) ، وهي التي كانت مسرحاً لهزيمة المسلمين المروعة ، ففرت حاميتها النصرانية ، واستولى عليها وخرّبها ، وغنم ما فيها . وخرب في تلك المنطقة كثيراً من المعاقل والأبراج والكنائس والديارات . ثم سار إلى مدينة قلونية وهي مدينة قديمة لم تبق منها اليوم سوى أطلال دارسة ، وكان أهلها قد فروا إلى الجبال ، فاجتاح تلك المنطقة كلها ، وانتسف أراضيها وخرّب قلاعها ، وهدم قلونية وخرّب دورها وكنائسها ، ولم يعترض سبيله أحد من النصارى . وكان أردونيو ملك ليون وسانشو (شانجه) ملك نافار قد حشدا حشودهما ، واجتمعت لهما قوات كثيرة . ولكنهما بقيا في الشمال انتظاراً لمقدم المسلمين ، وعرج عبد الرحمن بعد ذلك على مدينة تطيلة إستجابة لصريح أهلها ، حيث أزعجها النصارى

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ١٧٩ و ١٨٠ .

باعتدائهم المتكرر ، وبعث بعض قواته بقيادة محمد بن لب بن قسى صاحب
تطيلة لاحتلال قلعة قلقرة^(١) التى كان سانشو يتخذها قاعدة للإغارة عليها ،
فألفوها خالية ، وزحف عبد الرحمن فى الوقت نفسه على حصن قلهرة وكان
به سانشو فى قواته ، ففر عند اقترابه ، واحتله المسلمون وغنموا كل ما فيه
ثم دمروه ، وانتسفوا الأراضى المحيطة به ، ولجأ سانشو إلى حصن أرنيط
(أورنيديو) الواقع جنوب غربى قلهرة . والظاهر أن النصارى اعزموا
ألا يعترضوا سبيل المسلمين فى تلك المنطقة كلها ، وفقاً لخطة وضعوها
لاستدراج المسلمين . فلما عبر عبد الرحمن بقواته نهرا يبرو (إبرة) فاجأه
سانشو فى قواته ، وهاجم مقدمة المسلمين ، ولكن عبد الرحمن كان يقظاً
متأهباً ، فتعاون الفرسان والرماة المسلمون على النصارى ، وأثنخوا فيهم ،
فارتدوا إلى شعب الجبال واعتصموا بها . ولجأ سانشو إلى حليفه أردونيو ملك
ليون ، وجمع الملكان قواتهما من سائر النواحي وتربصا للقاء المسلمين فى مواقع
منيفة ، وعلم عبد الرحمن باجتماع القوات النصرانية على هذا النحو ، فأمر بإحكام
التعبئة ، ومضاعفة الاستعداد ، فلما نفذ الجيش الإسلامى إلى شعب الجبال ،
انحدر النصارى لمهاجمته واشتبكوا بمؤخرته وأحدثوا بها اضطراباً وخسائر ،
فشعر عبد الرحمن بخطر المأزق ، وبادر بالخروج من الشعب الضيقة إلى السهل
المنبسط . وهناك عسكر بجيشه فى مكان يسمى « خونكيرا » Junquera على
مقربة من غربى بنبلونة ، واستعد للقاء النصارى . وهنا طمع النصارى فى
محاربة المسلمين فانحدروا إلى السهل بعد أن كانوا فى حى الجبال ، ولكنهم
دفعوا ثمن جرأتهم هزيمة فادحة ، وأمعن المسلمون فيهم قتلاً وأسرأ ، ولم ينقذهم
من الفناء الشامل سوى دخول الليل ، وقتل وأسر كثير من أكابر فرسانهم
وزعمائهم ، ومن بينهم أسقفان هما دولثديو أسقف شلمنقة وأرمخيو أسقف توى ،
وقد كانا محاربين كجنديين ، ولجأ نحو ألف من النصارى ، أو أزيد من خمسمائة
على قول آخر ، إلى قلعة مويش القرية ، فاقتحمها المسلمون ، واستخرج
جميع النصارى الذين بها ، ومنهم عدد من القوامس ووجوه الفرسان ، فأمر
عبد الرحمن بإعدامهم جميعاً ، ومزق النصارى كل ممزق ، وانهارت كل مقاومة ،

(١) وهى بالإسبانية Carcar وهى تتبع على مقربة من شمال قلهرة .

وقضى عبد الرحمن أربعة أيام يجمع الأسلاب والنعم ، ويهدم الديار ويقطع الأشجار : وأصاب المسلمون كثيراً من الأسلاب والغنائم . وحدثت هذه الواقعة الساحقة على النصارى ، فى اليوم السادس من شهر ربيع الأول سنة ٣٠٨ هـ (٢٦ يولييه ٩٢٠ م) . وهدم عبد الرحمن حصون العدو ، وأصلح حصون المسلمين ، وفى مقدمتها حصن بقيرة *Viguera* المشرف على حدود ناغار ، وزودها بالعتاد والمؤن .

وفى اليوم السابع والعشرين من ربيع الأول ، قفل عبد الرحمن عائداً إلى قرطبة ، وتوقف فى طريقه يوماً بمدينة أنتيسة على مقربة من مدينة سالم ، وفرق الأموال والكسبى فى أهل الثغر ، وأذن لهم بالعودة إلى ديارهم ، ووصل إلى قصر قرطبة فى يوم الخميس الثالث عشر من ربيع الآخر سنة ٣٠٨ هـ (أواخر سبتمبر سنة ٩٢٠ م) بعد أن قطع فى غزوته هذه ثلاثة أشهر ، وكانت غزوته الأولى فى مقاتلة النصارى ، وكان ممن شهدا معه سليمان بن عمر بن حفصون المستأمن إليه ، فأبلى فيها بلاء حسناً ، وبها ارتفع شأنه ، وتوطدت سمعته (١) .

وكان عبد الرحمن يرجو أن يكون هذا الدرس بعيد الأثر فى ردع النصارى ووقف عدوانهم . ولكنه أخطأ الظن . ذلك أنه لم يمض سوى عامين حتى أغار أردونيو على ناجرة واستولى عليها ، وسار حليفه سانشو إلى بقيرة ، وكان يتولى الدفاع عنها عبد الله بن محمد بن لب ، ومعه نفر من زعماء بنى لب وبنى ذى النون وغيرهم من الوجوه الأكابر ، فحاصرها سانشو واستولى عليها ، وأسر من فيها من الزعماء وحملهم إلى بنبلونه ثم قتلهم ، ولم ينج منهم سوى مطرف بن موسى ابن ذى النون حيث استطاع الفرار من سجنه : فضجت الأندلس من أقصاها إلى أقصاها لتلك الفعلة البشعة ، ووجهت سهام اللوم إلى عبد الرحمن لقصوره أو تقصيره ، فى حماية الثغور وحماية الزعماء والقادة ، ولم يك ثمة مناص من العمل على تهدئة الخواطر ، والانتقام لذلك الاجترار . وسير عبد الرحمن مولاه ووزيره

(١) ابن حيان فى السفر الخامس من المقتبس - مخطوط الخزانة الملكية - لوحة ٧١ ب ش ٧٤ أ وب ، والأوراق المخطوطة الخاصة بعصر الناصر ص ٦٣ و ٦٤ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ١٨٧ - ١٨٩ ، وكذلك Dozy : Hist., V. II. p. 114 & 143, Crónica General ; ibid. Vol. II. p. 386 .

عبد الحميد بن بسيل إلى الثغر الأعلى في جيش قوى ، ريثما يتم هو أهبطه (ربيع سنة ٣١١ هـ - ٩٢٣ م) ، فقصده إلى تطيلة وجاز منها إلى أراضى نبرة (ناغار) ، وعاث فيها ، وقاتل سانشو وهزمه في عدة وقائع . ولم تمض بضعة أشهر أخرى ، حتى أتم عبد الرحمن أهبطه ، ولم يصبر على انتظار الربيع وهو موعد الصوائف ، بل غادر قرطبة في السادس عشر من المحرم سنة ٣١٢ هـ (١٧ إبريل سنة ٩٢٤ م) في قوى جرارة ، وهو يعتزم التنكيل بالنصارى ، والانتقام الذريع لحناية بقيرة ، وترك في القصر ابنه الأكبر وولى عهده الحكم ، وهو صبي في نحو العاشرة من عمره ، وإلى جانبه الوزير أحمد بن محمد بن حدير ، وسلك الناصر إلى الثغر طريق المشرق ، مخترقاً كورة تدمر ، فكورة بلنسية ، ونازل في طريقه مدينة لورقة ، وكان يمتنع بها زعيمها الثائر عبد الرحمن بن وضاح ، فأخضعه بالأمان ، وبعثه مع أهله إلى قرطبة . ثم تقدم منها إلى مدينة مرسية ، فاستنزل بها يعقوب بن أبي خالد التوزري وزملاءه العصاة ، وأخضع بعض حصون أخرى في قطاع بلنسية ، ثم سار إلى طرطوشة ونظر في شئونها ، وتقدم بعد ذلك صوب سرقسطة ، وهناك انضم إليه التجيبيون وحلفاؤهم . ولما وصل إلى تطيلة هرع إليه زعماء الثغرى بقواتهم ، وهم في جموع وافرة وتعبية محكمة ، ودخل أراضى ناغار في أوائل ربيع الآخر (يولييه) . فساد الذعر بين النصارى ، وترك العدو معظم قلاعهم وحصونهم دون دفاع ، وكان أول ما استولى عليه المسلمون حصن قلهرة وكان سانشو قد أخلاه ، فأمر عبد الرحمن بهدمه وإحراق ما فيه ، ثم استولى عبد الرحمن على حصن قلقرة ، ومحلة بيطرالته (بيرالتا)^(١) الواقعة شمال شرقي قلهرة وما حولها من الحصون ، وقتل وسبى كل من وجد بها من النصارى ؛ ثم سار إلى حصن بالخش القريب منها وأحرقه ، وخرب ما حوله من الضياع والزروع ، واستولى بعد ذلك على حصن قرقشتال (كاركاستيلو) في وادى أراجون شرقي بيرالته ، وشمال شرقي تطيلة ، وهدم سائر القلاع في تلك المنطقة أو أحرقها . ثم نفذ عبد الرحمن إلى قلب ناغار وزحف على عاصمتها بنبلونة ، وحاول ملكها سانشو غير مرة أن يعترض طريقه في شعب الجبال ، فكان يرد في كل مرة بخسارة فادحة . ودخل

(١) يبدو أن بيطرالته هو المكان الذى يسميه ابن حيان « قنطرة ألبه » .

عبد الرحمن بنبلونة ، وقد فر سكانها رعباً ، فدمرها وأحرق قصورها وكنائسها ، وجد سانشو في جمع قواته ووافته الأمداد من قشتالة ، وحاول لقاء المسلمين في مناور نافار الوعرة مرتين ، الأولى على مقربة من شنت إشتين ، والثانية على مقربة من قلهرة ، ولكن عبد الرحمن كان على حذر ، وكان يعرف تلك المفاجآت الخطرة ، فهزم النصاري في كلتا الموقعتين ومزقوا شر ممزق ، وانهارت كل مقاومة ، وبذلك تم إخضاع نافار وسمي قواتها (ربيع الثاني ٣١٢ هـ - أغسطس ٩٢٤ م) .

ثم سار عبد الرحمن جنوباً إلى حصن مسرة ، وهو أول حصون المسلمين على حدود نبرة ، فعهد إلى من فيه بادخار الأطعمة ، وفرق فيهم الأموال . ورحل بعد ذلك إلى مدينة تطيلة ، فوصلها في اليوم السابع والعشرين من ربيع الثاني ، ثم قفل منها راجعاً إلى الحضرة ، وتوقف خلال الطريق بمدينة شنت برية مقر بني ذى النون ، وكان زعيمهم يحيى بن موسى بن ذى النون قد خلع الطاعة ، والتزم العصيان مستقلاً بسلطانه ، فلما أشرف الناصر على معقله ، خرج إليه نادماً مستغفراً منضوياً في ظل طاعته ، فتقبل الناصر توبته ، ودخل الناصر قصر قرطبة في يوم الخميس الثاني والعشرين من جمادى الأولى سنة ٣١٢ هـ ، وقد أنفق في غزوته أربعة أشهر ، وهي تعرف في الرواية الإسلامية « بغزوة بنبلونة » (١) .

ولم يمض سوى قليل حتى توفي أردونيو الثاني ملك ليون (سنة ٩٢٥ م) ، فخلفه في الملك أخوه «فرويل» ، فلم يحكم سوى عام ثم توفي ، فتنازع العرش سانشو وألفونسو ولدا أردونيو ، وشغلت ليون بحرب أهلية استمرت بضعة أعوام ، وانتهى طورها الأول بوفاة سانشو . ثم نشبت ثانية بين ألفونسو وأخيه راميرو ، وانتهت بفوز راميرو ، وجلسه على عرش ليون باسم راميرو الثاني ، وذلك سنة ٩٣٢ م .

ولم يتدخل عبد الرحمن في تلك الحرب الأهلية ، فترك النصاري يمزق بعضهم بعضاً ، وانتهز الفرصة ليتم سحق الثورة ، وتوطيد السكينة داخل مملكته ، حسبما

(١) ابن حيان في المقتبس - السفر الخامس - مخطوط الخزانة الملكية - لوحة ٨٠ - ٨٣

والبيان المغرب ج ٢ ص ١٩٥ - ٢٠١ ؛ وكذلك Dozy : Hist, V. II, p. 144-145 .

فصلنا في موضعه ، وليقضى على دعوة الفاطميين في المغرب الأقصى :
 وكان راميرو الثاني أو رذمير كما تسميه الرواية الإسلامية ، ملكاً مقداماً شديد
 البأس فما كاد يلي العرش حتى نشط إلى استئناف الصراع القديم ضد المسلمين ،
 وكان يرى أن العمل على إذكاء عوامل الفتنة في المملكة الإسلامية هو خير السبل
 إلى تبديد قوى المسلمين ؛ وكانت مدينة طليطلة قد عادت تضطرم بعوامل الفتنة
 والثورة ، وشجع راميرو بدسائسه ووعوده ، زعماءها على التمادي في غيهم ،
 فأرسل إليهم عبد الرحمن وفداً من العلماء يخطب ودهم ويحثهم على الخضوع والطاعة ،
 فرفضوا نصحه بكبرياء وصلف ، معتمدين على مؤازرة ملك ليون . فبادر الناصر (١)
 بالسير إلى طليطلة في قوات ضخمة ، وذلك في ربيع الثاني سنة ٣١٨ هـ (مايو سنة
 ٩٣٠ م) وضرب حولها الحصار وانتسف ما حولها من المروج ، ثم غادرها بعد
 بضعة أسابيع ، وترك لحصارها بعض قواته ، ثم عاد فصار إليها بعد ذلك بعامين
 في صيف سنة ٣٢٠ هـ (يونيو سنة ٩٣٢ م) معزماً في هذه المرة أن ينزل بها
 الضربة القاضية . وهنا حاول راميرو أن يسعى إلى إنقاذ المدينة المحصورة ، استجابة
 لنداء أهلها ، فصار لإنجادها في بعض قواته ، واستولى في طريقه على حصن
 مجريط (٢) . ولكن القوات الإسلامية استطاعت أن ترده قبل أن يصل إلى طليطلة ،
 فاضطروا أن يترك المدينة الثائرة لمصيرها ، وفقد الثوار بذلك كل أمل في المقاومة ،
 وأضنتهم مصائب الحصار ، فاضطروا في النهاية إلى الإذعان والتسليم ، ودخل الناصر
 طليطلة ظافراً (رجب سنة ٣٢٠ هـ) ، وشهد مبلغ منعها وكثافة أسوارها ، وأمر
 بهدم حصونها ، وفقدت الثورة في الأندلس بسقوط طليطلة أمنع معاقلها .

وفي العام التالي ، سنة ٣٢١ هـ (٩٣٣ م) ، سار ملك ليون إلى مدينة
 أوسمة (وخشمة) التي كان يهددها المسلمون ، فردم عنها واحتلها ، وكانت
 أوسمة ، وهي تقع شرقي شنت إشتين على مقربة من دويرة ، وعلى خط
 الحصون الفاصل بين الأراضي الإسلامية وقشتالة القديمة ، من القواعد الدفاعية
 الهامة ، ومن ثم فقد اعتزم الناصر أن يسير لاستردادها بنفسه ، فخرج بالصائفة

(١) كان عبد الرحمن قد اتخذ سمة الخلافة وتلقب بالناصر لدين الله منذ سنة ٣١٧ هـ حسبما نبين بعد .

(٢) هو حصن ومحلة منيعة أنشأها الأمير محمد بن عبد الرحمن سنة ٢٤٦ هـ (٨٦٠ م) على ضفة نهر
 منشارس ضمن منطقة الحصون الدفاعية بين الأندلس ومملكة ليون . وقد استمرت تؤدي دورها الدفاعي حتى
 سقطت أخيراً في يد القشتاليين سنة ٤٧٦ هـ (١٠٨٣ م) ، وعلى موقعها أقيمت مدينة مدريد الحديثة .

من قرطبة في منتصف جمادى الأولى سنة ٣٢٢ هـ (مايو ٩٣٤ م) ، في جيش كثيف حسن الأهبة ، وكانت قواته في هذه المرة ترفع أعلام العقاب المصورة ، التي كان أول من استعملها ، وكان معه ولده الأكبر وولى عهده الحكم ، واستخلف في القصر ولده عبيد الله . وقصد الناصر إلى دار الحرب (أراضى النصارى) من طريق مدينة الفرّج أو وادى الحجارة ، وذلك لكي يضع حداً لما أبداه محمد بن هاشم التجيبي صاحب سرقسطة ، من أعراض الخلاف ، والتوقف عن اللحاق به حسبما أوعز إليه ، فتحول نحو أراضيه مما يلي غرب الثغر الأعلى ، واحتل حصن ماومده من حصونه ، بعد أن بادر أهله بالطاعة ، ثم تقدم إلى حصن روضة اليهود على مقربة من سرقسطة ، وكان به أخوه يحيى بن هاشم ، وافتتحه قسراً . ثم سار إلى سرقسطة ، وطوقها ببعض قواته ، وبعث قوات أخرى إلى تطيلة وطرسونة . ولكنه رأى بعد ذلك أن يتحول بقواته إلى غزو أراضى النصارى ، وكان أقربها إليه أراضى نبرة (ناقار) . وهنا وفدت عليه رسل تيودا (طوطة) ابنة شخير ملكة ناقار ، التي قامت بالأمر بعد وفاة زوجها سانشو ملك ناقار وصية على ولدها غرسية ، ترجو عقد الصداقة ، والسلام . فرحب الناصر بطلبها ، ووفدت عليه في وجوه مملكتها وقواميسها وأساقفتها ، وهو بمحلة قلهرّة ، فاستقبلها الناصر ومن حوله جيوشه الكثيفة ، العظيمة الأهبة ، وأكرم منزلتها ، وتعهدت لديه بالطاعة ، والابتعاد عن مخالفة أى ملك أو أمير نصراني ، وكف الأذى عن المسلمين ، ومعاونة قواد الثغر الأعلى في محاربة كل من خرج على الطاعة ، وأخيراً أن تخلى سبيل وجوه بني ذى النون الذين في اعتقالها . وسجل الناصر ذلك وأشهد عليه ، وأقر الناصر من جانبه ولدها غرسية ، ملكاً على بذلونة وأعمالها (بلاد البشكنس) ، وانصرفت مع رجالها مزودة بالهدايا والكسب الفاخرة ، وفي وفود طوطة على الناصر يقول الشاعر إسماعيل بن بدر :

| | |
|--------------------------|------------------------|
| وقيدت زعيمهم إليه | كبلقيس تحف به الجنود |
| تلفت لا ترى إلا شهاباً | به يرمى وتختطف العديد |
| فبادرت السجود لنور وجهه | له ربح التواضع والسجود |
| فأوسعها بفضل العفو أمناً | وقد كادت بمهجتها تجود |

فدام يسوسنا ما دام شسبه له في الأرض طالعه السعود
وسار الناصر بعد ذلك إلى أراضي ألبه والقلاع ، وتوغل فيها ، ففر النصارى
من السهول ، واعتصموا بالجبال ، وكان أول ما استولى عليه من حصون
العدو ، حصن المنار ، وهو من أعظم حصون ألبه ، فدمره المسلمون ، ودمروا
حدائقه ، ولم تبق منها قائمة . وتردد المسلمون بعد ذلك في مختلف الأنحاء ،
وهم يدمرون في طريقهم كل شيء ، حتى وصلوا إلى حصن أنه ، فهدموه ،
وأثلفوا حدائقه ومصانعه ، وكان ضمن أبنيته كنيسة فخمة ، وضمن سكانه
ثلاثمائة راهب . واجتاح الناصر سائر بقاع ألبه . ثم نزل على قلونية في شهر
رمضان ، وكان الناصر يود أن يلتقى برامير ملك ليون في موقعة ما ، ولكنه
حاول عبثاً أن يحمله على مغادرة قلاعه ، والاشتباك مع المسلمين في معركة فاصلة ،
وكان رامير يرى ما ينزله المسلمون تبعاً بأراضي مملكته من صنوف التدمير
والتخريب ، وهو عاجز عن أن يقوم بأية حركة لوقف هذا السيل المخرّب .
وأخيراً اجتمع النصارى ، ومعهم ملكهم رامير في قلعة مزورته الواقعة فوق
ربوة وافرة الحصانة ، على مقربة من قلونية ، واستعدوا للقاء المسلمين ؛ فعبأ
المسلمون صفوفهم ، واشتبكوا مع النصارى في معركة حامية ، قتل فيها عدة
من أكابر الفرسان النصارى ، واستشهد عدد من المسلمين ، وحاول المسلمون
بعد ذلك استدراج النصارى إلى السهل . فلما عبروا وادى أوسمة حاول النصارى
الهجوم ، فردهم المسلمون وقتلوا منهم جملة ؛ ثم رحل المسلمون بعد ذلك إلى
حصن غرماج (Gormaz) على مقربة من ليون . ورأى الناصر أن التقدم بعد
ذلك في السهول القفرة يعرض جيشه لمتاعب شديدة ، فارتد بقواته شرقاً ،
وهو يعيث في أراضي قشتالة . ثم زحف على مدينة برغش عاصمة قشتالة
ونخر بها ، وقتل على مقربتها عدداً كبيراً من أحبار الأديار المجاورة (سنة ٩٣٤ م)
ثم قفل راجعاً بجيشه إلى قرطبة ، وقد قطع في غزوته هذه زهاء أربعة أشهر .
وذكر الناصر في كتاب الفتح الصادر عن هذه الغزوة ، الجهات والمدن التي
غزاها من بلاد ألبه والقلاع ، فكان منها مدينة أوسمة ، وحصن القصر ، وحصن
أنه والدير المنسوب إليه ، ومدينة برغش وقصبتها المنيعه وبسيطها ، وحصن بلنسية
وبسيطه ، وحصن اشكفيرش وبسيطه والأديار المتصلة به ، ومدينة لزمة

العظيمة الشأن وبسيطها ، ونظم الشعراء قصائدهم في تهنئة الناصر بما أصابه في هذه الغزوة من الظفر (١) .

وتقص علينا الرواية الإسلامية خبر غزوة بحرية قام بها أسطول الناصر في تلك السنة (٣٢٣ هـ) . وخلاصة ذلك أن أسطولا بقيادة أمير البحر عبدالملك ابن سعيد بن أبي حماسة ، قوامه أربعون مركباً منها عشرون من الجرافات التي تحمل النفط والآلات البحرية ، وعشرون تحمل الرجال المقاتلة ، وعدة ركابه من الجند ألف رجل ومن البحريين ألفين ، خرج من ثغر ألمرية في شهر رجب (مايو ٩٣٥ م) فسار أولاً إلى جزيرة ميورقة الإسلامية ، ثم خرج منها متجهاً نحو شاطئ الثغر الفرنجي ، وقصد أولاً إلى مدينة بالش وهاجمها ، ووقعت بينه وبين أهلها معركة عنيفة هزم فيها الفرنج ، وقتل منهم ثلاثمائة رجل ؛ ثم سار الأسطول إلى مدينة إينش ، وأحرق بها المسلمون برّاً وبحراً وأحرقوا المراكب في مرساها وقتلوا من أهلها نحو أربعمائة رجل ؛ وبعث ابن حماسة من سفنه خمسة عشر سارت شمالاً إلى بلدة مسنيط ثم سار خلفها ببقية الأسطول ، وغزا الأسطول قرى كثيرة على الشاطئ ، وحقق غنائم كثيرة ، وخرج الافرنج لقتاله ، فهزموا وقتل قائدهم . ثم تقدم الأسطول بعد ذلك من مدينة برشلونة ، عاصمة الثغر الفرنجي ، فاجتمع الفرنج لمقاومته بقيادة زعيمهم بليط ، فهزموا وقتل قائدهم ، وأغلقت المدينة أبوابها ودافع أهلها من فوق الأسوار ، فتحول الأسطول إلى الساحل الجنوبي ، ودارت بينه وبين الفرنج المجتمعين على الشاطئ معركة شديدة هزم فيها الفرنج . ثم قفل الأسطول الإسلامي بعد ذلك عائداً إلى ثغر طرطوشة الإسلامي ، مثقلاً بالسبي والغنائم ، وهناك تلقى قائده أبا حماسة كتاب الناصر ، بالهوص إلى سبتة وطنجة لمحاربة من انتقض هنالك من أهلها فصدع القائد بالأمر ، وسار بسفنه نحو الجنوب ، ولبث متردداً بين مراسي العدو حتى شتاء العام التالي ، ثم عاد إلى مراسيه في ألمرية في صفر سنة ٣٢٤ هـ (٢) .

(١) ابن حيان في المقتبس - السفر الخامس - مخطوط الخزانة الملكية ، لوحات ١٣١ - ١٣٥

ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٢ ؛ وكذلك : Dozy : Hist. • Vol. II. p. 148

(٢) ابن حيان في المقتبس - السفر الخامس - لوحة ١٤٤ ب و ١٤٥ أ .

وفي هذه السنة أيضاً (٣٢٣ هـ) ، عقد السلم بين الناصر لدين الله وراميرو ملك ليون . وكان راميرو ، على أثر الغزوة المخربة التي قام بها المسلمون في أراضيه ، قد بعث رسله إلى الناصر في التماس الصلح ، فبعث إليه الناصر وزيره يحيى بن يحيى بن إسحاق سفيراً ، فاجتمع في ليون مع راميرو ، وعقد معه شروط الصلح . ووقع الناصر هذه المعاهدة في منتصف ربيع الثاني من هذه السنة (مارس ٩٣٥ م) ، في يوم مشهود . وكان الناصر يرمى بعقد هذا الصلح إلى أبعاد ملك ليون عن التفاهم مع محمد بن هاشم صاحب سرقسطة ومعاونته . بيد أن هذا الصلح لم يدم طويلاً ، لما كان يجيش به راميرو من رغبة ملحة في النكث والتفاهم مع الخارجين على حكومة قرطبة^(١) .

ذلك أن بذور الثورة كانت تختمر في الثغر الأعلى ، وكان النصارى إلى جانب ذلك يتحينون الفرصة للنهوض والانتقام . وكانت طوطة ملكة نبرة الوصية على ولدها غرسية ، قد لزمت السكينة حيناً وفقاً لمعاهدة السلم التي عقدتها مع الناصر ، ثم تحرك البشكنس بعد ذلك وأغاروا على بعض الحصون الإسلامية (٩٣٧ م) . وظهرت في الوقت نفسه في الولايات الشمالية أعراض فتنة خطيرة . ذلك أن بنى هاشم التجيبين سادة سرقسطة ، لم يكونوا دائماً على وفاق مع حكومة قرطبة ، وكانت تحدوهم أطماع كثيرة . وكانوا يخشون عواقب السياسة التي يتبعها الناصر في إخضاع الولاة المحليين ، وسحق سلطان الأسر القديمة ، وكان وجودهم في الشمال بين الممالك النصرانية يفسح لهم مجال التآمر والخروج . وكان أبو يحيى محمد بن عبد الرحمن التجيبى ، حينما توفى في سنة ٣١٢ هـ ، قد خلفه ولده هاشم بمصادقة الناصر ، وحكم سرقسطة ، وضبط الثغر ، واشترك في الغزو مع الناصر ، وتوفى في سنة ٣١٨ هـ . فطلب ولده محمد بن هاشم التجيبى إلى الناصر أن يقره على ولاية سرقسطة ، فلم يجبه إلى ذلك ، فسار محمد إلى قرطبة مؤكداً لولائه ، فصدر الأمر بتوليته في رجب سنة ٣١٩ هـ ، والتزم بأن يورد قسماً من الحباية . ولما سار الناصر في سنة ٣٢٢ هـ إلى الغزو بعث إلى أهل الثغور لموافاته ، فقدم إليه التجيبيون ، في رجالهم ، وتخلف محمد بن هاشم عنهم ، وسار الناصر لقتاله ، ولكنه تحول

(١) ابن حيان - السفر الخامس - لوحة ١٤٣ أ

عنه إلى قتال النصارى حسباً تقدم^(١) . ومن ثم فإنه لما اضطرمت نار الحرب بين ملك ليون وبين الناصر ، رأى التجيبيون الفرصة سانحة لتنفيذ مشاريعهم ، وكان راميرو ملك ليون بالرغم من ارتباطه بعهد السلم مع الناصر ، يرقب الفرصة للنكث واستئناف الحرب ضد المسلمين ، فلما استجاش به محمد بن هاشم ، رأى الفرصة سانحة ، فنكث عن السلم وعقد الحلف المنشود مع محمد بن هاشم التجيبي صاحب سرقسطة ، وقريبه مطرف بن منذر التجيبي صاحب قلعة أيوب^(٢) ، وتعهد محمد لراميرو أن يعترف بطاعته ، نظير معاونته إياه في الخروج على عبد الرحمن الناصر ومحاربتة ، بل يقال إن هذا الحلف كان قد عقد قبل ذلك سراً ، وإن آثاره ظهرت منذ سنة ٣٢٤ هـ (٩٣٤ م) ، حينما كان الناصر يغزو أراضي ليون ، ولم يتقدم بنوهشام لمعاونته ، بل بالعكس جاهر محمد بالخروج عليه وخلع طاعته ، ثم اعترف بسيادة ليون على سرقسطة وأحوازها ، ولما أبى بعض قواد الحصون مجاراته في خيانتة ، سار إليهم راميرو وأخضعهم ، وسلم قلاعهم إلى الزعيم الثائر ، ثم عقد محمد وراميرو محالفة مع طوطة ملكة نافار ، وغزا البشكنس الأراضي الإسلامية حسباً قدمنا ، وبذا تحالف الشمال كله ضد عبد الرحمن .

وتقدم إلينا الرواية الإسلامية ، خبر معركة ، نشبت في ذلك الوقت في الثغر الأعلى بين المسلمين والنصارى . وذلك أن الفرنج في برشلونة وحلفاءهم في الثغر ، حاولوا انتهاز الفرصة ، وغزوا الأراضي الإسلامية ، فخرج إليهم أحمد بن محمد بن إلياس قائد القوات السلطانية المرابطة في الثغر على مقربة من سرقسطة ، ونشبت بين المسلمين والنصارى معركة شديدة على ضفاف نهر لبره ، فهزم النصارى هزيمة شديدة وقتل وغرق منهم عدد جم . وتضع الرواية الإسلامية تاريخ هذه الموقعة في آخر شوال سنة ٣٢٤ هـ (سبتمبر ٩٣٦ م)^(٣) . وبعث الناصر في نفس الوقت جيشاً كثيفاً إلى الثغر الأعلى بقيادة الوزير عبد الحميد بن بسيل ، ليقوم بالتضييق على سرقسطة وبني هاشم ، ولیدعم

(١) العذرى في كتاب ترصيع الأخبار ص ٤٣ و ٤٤ .

(٢) Calatayud وهي تقع جنوب غربى سرقسطة في منتصف الطريق بينها وبين مدينة سالم .

(٣) المقتبس - السفر الخامس - لوحة ١٤٨ ب و ١٤٩ أ

للقوى السلطانية المرابطة على مقربة منها ، وذلك ريثما يستطيع السير بنفسه إلى الشمال . ثم أتبعه بجيش آخر ، بعثه إلى الثغر أيضاً بقيادة الوزير سعيد بن المنذر القرشي ، ليقوم بالمعاونة في التضييق على سرقسطة .

وفي نفس هذا العام (٣٢٤ هـ) حاول نصارى ليون مرة أخرى الاستيلاء على قلعة مجريط أهم قلاع الثغر الأدنى ، فهاجمتها قوة كبيرة ، ولكن الحامية الإسلامية بقيادة أبي عمر بن أبي عمر استطاعت أن تصد هذا الهجوم ، وأن تنقذ القلعة (١) .

وكان عبد الرحمن أثناء ذلك يتأهب إلى الغزوة المرتقبة إلى الشمال . ففي منتصف شهر رجب سنة ٣٢٥ هـ (مايو سنة ٩٣٧ م) ، خرج من قرطبة إلى مقاتلة أعدائه في جيش ضخم ، وكان بروزه يوماً مشهوداً ، تبدت فيه روعة أهباته ، وفي ذلك يقول الفقيه أحمد بن محمد بن عبد ربه :

يوم من العز مجموع له الناس يختال في عقوته الجود والباس
وعلم عبد الرحمن أثناء سيره ، أن النصاري في الوقت الذي يحتشدون فيه بأطراف الثغر الأعلى ، لمناصرة حليفهم الخارج محمد بن هاشم التجيبي صاحب سرقسطة ، يحاولون في نفس الوقت أن يزحفوا صوب طليطلة لإثارة الثورة فيها . فسار بجيشه إلى طليطلة كيما يؤمن أهلها ، ويرهب النصاري ، وتنزل عليها ، فلما علم النصاري بمقدمه ارتدوا مذعورين إلى الشمال . وفي خلال ذلك وافاه كتاب من أحمد بن محمد بن إلياس قائد الثغر بظفره بالعصاة في مدينة وشقة ، وكتاب آخر بإخماد ثورة أهل طليطلة غربي طليطلة .

وسار عبد الرحمن بعد ذلك إلى الثغر الأعلى من طريق وادي الحجارة ، وأبقى قوة من جيشه في منطقة طليطلة بقيادة مولاة دري ، للسهر على النظام في تلك المنطقة ؛ ورأى أن يبدأ بقلعة أيوب ، وكان قد امتنع بها مطرف بن منذر التجيبي المعروف بأبي شويرب ، وكان راميرو قد بعث لإنجاده فرقة من فرسان ألبه والقلاع . فحاصر عبد الرحمن القلعة ، وبعث يدعو إلى الطاعة ، ويؤكد له الأمان بخطه ، فرفض مطرف أن يستجيب إلى هذه الدعوة ، فهاجم عبد الرحمن القلعة ، وبرز إليه مطرف وحلفاؤه ، ونشبت بين الطرفين معركة

(١) المقتبس - السفر الخامس - لوحة ١٤٩ ب .

شديدة ، هزم على أثرها مطرف ، وقتل ، ولجأ أخوه حكم بن منذر في فلوله ومن معه من فرسان ألبه إلى القصبة ، وامتنعوا بها ، فاستمر الهجوم عليهم ، وكثر القتل في المدافعين ، حتى اضطر حكم أن يطلب الأمان لنفسه ولخلفائه النصارى ، ليعودوا إلى بلادهم ، ويلحق هو وأهله بالحضرة ، فقبل الناصر ونزل حكم ومن معه من القصبة ، وأعفى عن النصارى المستأمنين وقتل الباقون . ووقع فتح قلعة أيوب على هذا النحو في التاسع عشر من شهر رمضان من هذه السنة . وكان فتح قلعة أيوب أول صدع خطير في ثورة بنى تميم ، وكان بها ، فضلا عن مناعتها الطبيعية ، عدة كبيرة من فرسان سرقسطة الأكابر ، وخمسمائة من الفرسان النصارى لم ينج منهم سوى الخمسين الذين أمنوا ، وقد أفاضت الشعراء في تهنئة الناصر بهذا الفتح ، ومن ذلك قصيدة لابن عبد ربه هذا مطلعها :

يا ابن الخلايف والصيد الصناديد ألفت إليك الرعايا بالمقاليد
ورأى الناصر ، قبل أن يسير إلى سرقسطة ، أن يقوم بجولة في أرض النصارى . فاتجه إلى أراضى ألبه والقلاع ، فافتتح عدة كبيرة من حصونها تبلغ السبعة والثلاثين حصناً . واعتزم بعد ذلك أن يعاقب البشكنس على عدوانهم ، فسار إلى بسيط بنبلوثة ، وخرب معاهدها وحصونها ، ومزق جموع البشكنس وسحق كل مقاومة ، وبعث فرقاً من جيشه إلى مختلف الأنحاء المجاورة فعاثت فيها وأصاب المسلمون غنائم كثيرة . وساد الرعب على البشكنس ؛ وهرعت إليه طوطة ، ملكة نبرة تقدم إليه خضوعها وتوبتها ، فقبل الناصر اعتذارها وأقر ولدها غرسية ملكاً على نبرة في طاعته وتحت حمايته ؛ وكان ذلك في أواخر رمضان وأوائل شوال من سنة ٣٢٥ هـ (أغسطس ٩٣٧ م) (١) .

وسار الناصر بعد ذلك إلى تطيلة ، ثم سار منها إلى سرقسطة ، فنزل عليها في الثانى عشر من شهر شوال ، وابتنى حولها المنازل والدور بمحلته ، وعهد بحصارها إلى أحمد بن إسحاق القرشى قائد الفرسان ، وهو من قرابته ، وعينه حاكماً للثغر . ولكنه تهاون في الحصار وتوانى لمرض في قلبه ، ولأطماع كانت تجيش بها نفسه ، فأنبه عبد الرحمن وعزله ، فاتفق مع أخيه أمية على التآمر

(١) ابن حيان في المقتبس - السفر الخامس - لوحات ١٥٣ و ١٥٥ و ١٥٦ أ .

والخروج ، فوقف عبد الرحمن على أمرهما واكتفى بنفيهما من الأندلس .
فسار أمية إلى مدينة شنترين^(١) في ناحية الغرب ، واستولى عليها ورفع بها
علم الثورة ، وتحالف مع ملك ليون . فأمر الناصر القائد أحمد بن محمد بن إلياس ،
وكان مقبلاً في بطليوس ليرصد حركات أمية بن إسحاق ، أن يغزو أرض العدو ،
فسار إلى أراضي ليون واشتبك مع الحلالقة في معركة ، هزم فيها الحلالقة ،
وقتل منهم عدد جم ، ولا سيما من أهل سمورة (جمادى الأولى سنة ٣٢٦ هـ) ،
ثم أمر الناصر بعد ذلك القائد عبد الحميد بن بسيل ، أن ينضم في قواته إلى أحمد
ابن محمد بن إلياس ، وأن يسيرا معاً إلى غزو ليون . فصدعا بالأمر ، ووصلا
بقواتهما إلى أرض النصاري وعائثا في جنبااتها ، وفي نفس الوقت تحركت بعض
السفن من نهر الوادي الكبير وسارت نحو الغرب لغزو أهل شنترين الذين
يناصرون أمية بن إسحاق . وانتهى الأمر بأن قام أحد الزعماء المحليين الذين
يدينون بطاعة الأمير ، واستطاع أن ينتزع شنترين من أمية ، فالتجأ أمية
إلى راميرو . أما أخوه أحمد فحاول أن يتصل بعمال الفاطميين في عدوة المغرب ،
وأن ياتمر معهم على حكومة قرطبة ، فسعى عبد الرحمن إلى القبض عليه ثم أمر
بإعدامه^(٢) ، ولكن سري أن مغامرات بني إسحاق لم تنته عند هذا الحد .
واستمر حصار سرقسطة مدى أشهر ، والناصر يشدد عليها الخناق شيئاً
فشيئاً . وأخيراً اضطر محمد بن هاشم أن يبعث رسله في طلب الأمان والصلح ،
على أن يقره الناصر على حاله ، فأبدى الناصر قبوله وتسامحه ، وطلب أن يخرج
إليه إخوة محمد ووجوه أهل سرقسطة لعقد الصلح . فخرج إليه وجوه سرقسطة ،
ومن بينهم إخوة محمد ، يحيى وعبد الرحمن وهذيل ، وعدة من ذوى الشوكة .
وهنا ثابت للناصر فكرة في انتهاز الفرصة ، والقبض على تلك الصفوة المختارة
من أهل سرقسطة ، ليسدد إلى المدينة الثائرة ضربة مميتة ، فأمر بالقبض عليهم
جميعاً واعتقالهم داخل سرادقه ، فلما علم محمد بن هاشم بما تم سقط في يده ،
وشعر بوقع هذه الضربة التي حرمت من كبار معاونيه ، ولكنه استمر صامداً
ممتنعاً ، ورسل الناصر تتردد إليه بالإعذار والإنذار دون جدوى . وأخيراً بعث

(١) وهي بالإفرنجية Santarem .

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٠ ؛ وابن الأثير ج ٨ ص ١١٥ .

إليه الناصر بوزيره ومولاه محمد بن عبد الملك بن أبي عبدة ، فاطمأن الناثر إليه ، وأذعن إلى التوبة والإنابة وطلب الأمان والصلح ، وكان ذلك خلال عيد الأضحى سنة ٣٢٥ هـ .

فاستجاب الناصر إلى طلب محمد بن هاشم ، وعقد له الأمان بأوثق عقد ، وشهد الملاء من أهل العسكر وأهل الثغور ، وشهدت نسخته في الناس عامة ، وذلك في شهر المحرم سنة ٣٢٦ هـ (نوفمبر ٩٣٧ م) . وكان مضمونه « أن يمنح الأمان لمحمد بن هاشم وإخوته وجميع أهله وأصحابه من مدينة سرقسطة ، وجميع من يتصل بهم من أهلها ، للمدة التي يرضاها الناصر ، وأن يملكه سرقسطة تملكاً يدخل فيها من يشاء ، وإلى العدد الذي يرضاه من رجاله ، ويكون أهل مدينة سرقسطة ومن يبقيه محمد بن هاشم منهم من أهله وأتباعه آمنين بأمان لله ، محفوظين بعهد الملة . مستمسكين بمثل أمان محمد بن هاشم ، غير معتقبين في أنفسهم ، ولا مأخوذِينَ بذنب سلف ، وأن يخرج محمد بن هاشم من سرقسطة بنفسه ، ومن أحب إخراجه معه من خواص أهله وولده ، إلى مدينة تطيلة أو غيرها من مدن الثغر ، وحصوله مسجلاً على الموضع الذي يتخيره ، ويبقى بسرقسطة من أحب منهم ، ويختلف عليهم . وعلى المولى بسرقسطة بعده ، إحسان صحتهم ، وعاليه أن يباعد منزله عنهم ، لا يقربه شيء من دور محمد ابن هاشم ، أو ينزل القصر القديم بعد خروج محمد بن هاشم عنه بجميع ماله فيه . وعلى أن يسجل الناصر لدين الله ، لأخيه يحيى بن هاشم على ما كان بيده من مدينة لاردة وأحوازها . فإن انقضت المدة التي يضربها الناصر لمحمد ، توجهه إلى الحضرة ، وأقام فيها ثلثين يوماً أو نحوها ، مظهرًا لصدق طاعته ، ماحياً لكل ما انتثر في أقطار الأرض من معصيته ، وهو في توجهه إليه آمن في طريقه ، ومدة مقامه ومنصرفه ، غير مقطوع ولا معترض دون الانصراف ، إذ انقضت المدة التي وضعت له . وله على السلطان إذا وفي بما عقد عليه من الشخوص إلى باب سدّته أن يكتب له عهداً على مدينة سرقسطة ، ويصرفه إليها عاملاً وقائداً ، ويعزل عنها عامله وقائده ، بعد أن يناله من كرامته ، ويظهر عليه من آثار نعمته ، ما يعود معه إلى أحسن الأحوال التي كان عليها قبل هفوته . »

وقد اشترط عهد الأمان أيضاً أن يقدم محمد بن هاشم إلى الناصر رهائن من

ولده وإخوته وصحبه وكاتبه ، وأن يكون جماعتهم لدى الناصر بحال حفظ وتكرمة ، وأمان في المسير والمقام ، يديلمهم ستة أشهر ، باكفايهم ونظرائهم من إخوتهم خاصة ، إلى أن يظهر لأمر المؤمنين براءة محمد بن هاشم من ممالأة المشركين ، وتصحيحه طاعة أمير المؤمنين ، وعلى أن يقطع محمد بن هاشم من المشركين في ظاهره وباطنه ، من حد بلد برشلونة إلى شرطانية إلى بنبلونة إلى ألبه والقلاع وإلى جليقية ، ولا يكاتبهم ولا يداخلهم ، ولا يصالحهم على طرف من أطراف الثغر إلا عن إذن أمير المؤمنين ، وأن يورد جباية بلده لمحلها ، بعد أن يسقط عنه جباية عام ، وألا يتقبل حراً نازعاً ، ولا عبداً آبقاً لأمر المؤمنين ، ولا لأحد من رعيته ، وأن يوثق من ظفر به من هذه الطبقة ويصرفه إلى مكانه ، وألا يتعقب أحداً ممن سجل له عليه ، أو يسجل بعد ، ممن حاربه مع أمير المؤمنين وفارقه إليه أيام الطاعة ، وأن يجدد البيعة لأمر المؤمنين ويلتزم شروطها ، وأن يغزو مع أمير المؤمنين ، ويعادى من عاداه ويحارب من حاربه ، ويسالم من سالمه من أهل الملوك وغيرهم ، ويقطع نصيبه من كل من أخرج يده عن طاعته ، وإن كان ابنه أو أخاه ، يلتزم كل ما ألزمه أمير المؤمنين من ظاهر القول وباطن الإرادة ، لا ينقص تناول البغية ، ولا يحرف عن التصحيح بالعلة ، فقد التزم أمير المؤمنين في عقده ، مثل ما سأله محمد في ذلك وأوجبه على نفسه مع دركه لهذه المن ، إن صدق الطاعة ، أن يوليه مدينة سرقسطة ، وما وقع في سجله معها ولاية مستمرة ، ولا يعزله طول أيامه عنها ، ثم لا يؤاخذ به بذنوب ، ولا يعدد عليه اقتراف خطأ ولا عمد ، ولا تقبل فيه مقالة كاشح ولا طعن حاسد ، ويصير ذلك له وصية فيمن بعده ، يلزمهم الوقوف عندها على سبيل الخلفاء في خالدهم إن شاء الله ، ووقعت الأمان في هذا الأمان من الناصر لدين الله مستوفاة مغلظة ، أخذ على محمد بن هاشم أشد منها ، فحلف في مقطع الحق بمسجد سرقسطة الجامع خمسين يمينا منسوقة بمحضر قاضي الجماعة بقرطبة والفقهاء وأعلام العسكر ، والملا من أهل بيت محمد بن هاشم ، ووجوه أهل الثغر ، على التزام ما عقد على نفسه منه واعتداده إياه ديانته . ثم أشهد الناصر لدين الله على نفسه فيه جميع أهل عسكره ، فكان أول من شهد عليه أولاده الحاضرون ، ثم أعمامهم ثم الوزراء وأصحاب الخطط ، ثم الفقهاء ، ثم

وجوه أهل سرقسطة ومن حضر من أهل الثغر^(١).

سقطت سرقسطة وسائر الحصون المجاورة لها في يد الناصر ، وكذلك سقط في يده حصن روضة أمني حصونها في الغرب ، وبذا انهارت ثورة التجيبين في الشمال ، وكانت من أخطر الثورات التي واجهها الناصر ، لأنها كانت مركزاً لتجمع القوى المعادية لخلافة قرطبة ، من الخوارج والأمراء النصاري . أما عفو الناصر عن محمد بن هشام ، ومنحه الأمان له ، واستصناعه بالرغم من فداحة جرمه ، فيرجع إلى ما كان يتمتع به محمد من مقدرة إدارية فائقة ، ولما كان لبني هاشم في الشمال من مركز قوى موثّل ، ولما كان لهم من العصبة والأنصار . وقد رأينا الناصر في غير موطن ، يعفو عن الثوار العتاة ، ويحسن إليهم ، وينظمهم في جيشه . وقد كانت هذه سياسة مستنيرة من الخليفة القادر ، للاستفادة من هذه العناصر المنحرفة القوية معاً ، متى استقرت توبتها ، وحسن ولاؤها .

ودخل الناصر بجيشه مدينة سرقسطة وفقاً للسلم المعقود في يوم الخميس ١٤ من المحرم سنة ٣٢٦ هـ (٢٢ نوفمبر ٩٣٧ م) ، وشهد منعها وحصانة أسوارها ، فأمر بهدم الأسوار حتى لا تعود منعها فتشجع الخوارج على الثورة ، وشحنها برجاله ، ونظر في مصالحها ، فساد بها الهدوء والأمن ، وبعث الناصر أثناء مقامه بسرقسطة ، قوة من جيشه بقيادة نجدة بن حسين الصقلي لتقوم ببعض الغزوات في أرض العدو ، وأمر محمد بن هاشم أن يرافقه في أصحابه امتحاناً لوفائه ، فصعد بالأمر . وسار المسلمون بالرغم من اشتداد البرد وانهمار الثلوج صوب ناحية شنت إشتين ، وتفرقوا إلى ثلاث فرق ، أخذت كل فرقة منها بشن الغارات في قطاع معين ، ثم اجتمعت عند حصن شنت إشتين ، وهنا حاول النصاري اعتراض المسلمين ، ونشبت بين الفريقين معركة هزم فيها النصاري . وتوغل المسلمون بعد ذلك في أراضي ألبه ، وانتسفوا الزروع

(١) أورد لنا ابن حيان حوادث فتح سرقسطة ، وعهد الأمان الذي أصدره الناصر لمحمد ابن هاشم نقلاً عن عيسى بن أحمد الرازي . وقد أورد لنا أيضاً أسماء الشهود الذين وقعوا هذا الأمان من الأمراء والوزراء وأصحاب الخطط والموالي والفقهاء وغيرهم ، وشغل ذلك أكثر من صفحة . المقتبس في السفر الخامس - مخطوط الخزانة الملكية لوائح ١٥٦ ب إلى ١٥٩ أ .

وخرّبوا الكنائس والديارات ، ثم عادوا مثقلين بالغنائم إلى سرقسطة . وكان الناصر قد استتم خلال ذلك النظر في شئون الثغر ، وحفظ أطرافه ، وتزويده بالحماة والمقاتلة ، وكل ما يضمن سلامته ، ثم خرج بجيشه من سرقسطة قافلاً إلى الحضرة في الرابع عشر من صفر ، فوصل إلى قصر الخلافة في الثامن عشر من ربيع الأول سنة ٣٢٦ هـ (أواخر يناير ٩٣٧ م) . وذلك بعد أن قضى في غزوته زهاء ثمانية أشهر^(١) .

ووفد محمد بن هاشم التجيبي بعد ذلك على قرطبة ، فأكرم الناصر وفادته ، وأقام في كنفه مدة في رغد وإيثار ، وهو يحضر مجالس الخليفة ، ثم غادر قرطبة في رجب بعد أن ولاه الناصر سرقسطة ، وعقد له عليها وعلى الجهات التابعة لها ، وولاه القيادة في نفس الوقت ، وبذا رد إلى سابق مناصبه ومكانته .

* * *

وهكذا استطاع عبد الرحمن أن يمزق شمل هذا التحالف الخطر ، وأن يخضع الشمال الشرقي من شبه الجزيرة كله لسلطانه وصولته ؛ ولم يبق عليه إلا أن يحطم خصمه القوى العنيد راميرو الثاني ملك ليون ، وهو محور النضال الحقيقي . فلم يمض سوى عامين حتى تأهب للقيام بأعظم غزواته ضد مملكة ليون ، فحشد جيشاً ضخماً يبلغ زهاء مائة ألف ، وعهد بقيادته إلى نجدة بن حسين الصقلي . وكان الأجانب والصقالبة قد تبوأوا يومئذ ذروة القوة والنفوذ في بلاط قرطبة ، وسيطروا على معظم المناصب الكبيرة في القصر والجيش . وكان لهذه السياسة التي أسرف الناصر في اتباعها ، أسوأ الأثر في نفوس الزعماء العرب ، وفي انحلال قوى الجيش المعنوية . وفي صيف سنة ٩٣٩ م (٣٢٧ هـ) سار الناصر إلى ليون على رأس جيشه الضخم ، وعبر نهر التاجه من عند طليطلة ، ثم عبر نهر دويرة متجهاً نحو قلعة شنت منكش ، أو شنت مانك (سيانقة) دون أن يفتن إلى ما يفت في عضد هذه القوة العظيمة من العوامل الخفية ؛ وكان راميرو الثاني يربط على مقربة منها في حشود عظيمة ، متأهباً لقتال المسلمين بكل ما وسع ، وزوده حليفه الخائن أمية بن إسحاق بنصائح ومعلومات ثمينة ،

(١) المقتبس في السفر الخامس - لوحة ١٦٣ أ و ب .

وانضمت إليه طوطة ملكة نافار ناكثة لعهدا ، وبذا اتحدت قوى اسبانيا النصرانية لمقاتلة المسلمين مرة أخرى .

وهنا تختلف الرواية العربية والفرنجية اختلافاً بيناً في شأن الواقعة التي نشبت بين المسلمين والنصارى ؛ وبينما تقدم إلينا الرواية الفرنجية كثيراً من التفاصيل الواضحة المغرقة أحياناً ، إذا بالرواية العربية يغلب عليها الإيجاز والغموض والتحفظ ؛ وبالرغم من أن الرواية الأندلسية تشير إليها في غير موضع وتصفها « بغزاة القدرة » تنوياً بأهميتها ، وما كان يعلق عليها من رغبة في سحق المملكة النصرانية ، وتسميها بموقعة « الحندق » وهو نفس الاسم الذي تقدمه الرواية الفرنجية ، فإنها لا تقدم إلينا أى تفصيل شاف عن مكانها وظروفها^(١) . وسوف نستعرض أقوال الرواية الإسلامية أولاً ، ثم نتلوها بأقوال الرواية النصرانية ، حتى نستطيع بالتمحيص والمقارنة ، أن نخرج بفكرة واضحة عن حقائق هذه الواقعة التي تعتبر من كوارث التاريخ الأندلسي .

ويقدم إلينا المسعودي عن الواقعة رواية يطبعها لون القصة . فيقول لنا إن عبد الرحمن اقتحم بجيشه حدود ليون وزحف على مدينة سمورة عاصمتها ، وكانت في غاية المناعة ، يحيط بها سبعة أسوار شاهقة البنيان ، قد أحكمها الملوك السابقة ، وبين الأسوار خنادق متسعة تفيض بالماء ، فافتتح المسلمون منها سورين ، واحتوى النصارى بداخل المدينة ، ثم لحق المسلمين الإعياء من امتناع المكان وحصانته ، فكر عليهم النصارى بشدة وحماسة ، فساد الاختلال بين المسلمين وهزموا هزيمة شديدة ، وقتل منهم زهاء أربعين ألفاً وقيل خمسين ألفاً ، وكان ذلك في شوال سنة ٣٢٧ هـ (يولييه ٩٣٩ م) . وسميت الواقعة بموقعة الحندق لنشوبها على خنادق سمورة^(٢) .

على أن الرواية الأندلسية أكثر وضوحاً ودقة ، في شرح تفاصيل هذه

(١) أخبار مجموعة ص ١٣٦ ؛ ويشير ابن خلدون إلى الواقعة بإشارات عابرة (ج ٤ ص ١٣٧ و ١٤٠) . وكذا ابن الأبار في الحلة السيراد ص ١٥٠ . ولم يذكرها ابن عذاري في البيان المغرب .

(٢) مروج الذهب (بولاق) ج ١ ص ٧٨ ؛ ونقلها المقرئ في نفح الطيب ج ١ ص ٦٦٥ وابن الأثير ج ٨ ص ١١٥ .

الكارثة . ولدينا من ذلك روايتان ، تمتاز كلتاهما بنوع من الوضوح في تحديد مكان الواقعة وظروفها ، هما رواية مؤرخ الأندلس الكبير ابن حيان ، ورواية الوزير ابن الخطيب .

أما رواية ابن حيان ، وهي التي ينقلها في المقتبس عن عيسى بن أحمد الرازي ، فخلاصتها ، هو أن الناصر لما عزم على غزو أهل جليقية (مملكة ليون) ، جد في الاستعداد والحشد ، وبعث كتبه إلى الثغور ، واستكثر من الآلات والسلاح ، وخرج في حشوده إلى الغزو في يوم الجمعة ٢٢ شعبان سنة ٣٢٧ هـ الموافق لأول شهر يونيه العجمي (سنة ٩٢٩ م) . وكان الناصر قد سير قبل خروجه الوزير القائد أحمد بن محمد بن أبي عبدة في بعض قواته إلى جهة الغرب احتياطاً على أهله ، وحماية لهم أثناء قيامه بالغزو .

ووصل الناصر في قواته إلى طليطلة في يوم ٢٣ رمضان ، ثم خرج منها إلى أرض العدو (قشتالة) في الخامس من شوال ، فعاث فيها أياماً ، وألقى النصارى قد أدخلوا معظم بلاد هذه المنطقة ، وكانت غاصة بالنعم والأقوت ، فاستولى المسلمون عليها ، ثم تقدموا إلى حصن أشكر ، وخرّبوه وانتسفوا ما حوله . ثم ساروا إلى حصن أطلّة ، فحصن برتيل ، وذلك في يوم ١٣ شوال .

وكان محمد بن هاشم التجيبي صاحب سرقسطة قد تقدم في قواته ، في الوقت نفسه ، فعبر نهر شنت مانكش (سيانقا) ، فارتد العدو بقواته وراء النهر ، ونشبت بين الفريقين معركة هزم فيها النصارى أولاً ، ولكنهم عادوا فاجتمعوا وتكاثروا على المسلمين ، وسقط محمد بن هاشم عن فرسه خلال القتال فأسر ، وهزم المسلمون على باب شنت مانكش هزيمة شديدة ، وقتل منهم كثيرون وارتدوا في تراجعهم إلى خندق عميق ، وهو الذي تنسب إليه الواقعة ، فتردى فيه منهم خلق كثير ، فتقدم الناصر مضطراً بقواته ، وترك محلته ، فملكها العدو في الحال ، واحتل الناصر أعلى النهر بقواته ، وقد عجز النصارى عن اتباعه ، فلبث هناك يومه ، وقد ساد الخلل في الجيش ، وأيقن الناصر بتمحيص الله للمسلمين ، ثم رحل قافلاً حتى وصل إلى مدينة وادي الحجارة ، ثم سار منها إلى قرطبة .

هذا ملخص ما نقله ابن حيان عن عيسى بن أحمد عن موقعة الخندق ، ويزيد ابن حيان على ذلك ، أن هذه الواقعة التي اشتهر حديثها بالأندلس قد نالت

السلطان (الخليفة) والمسلمين فيها محنة عظيمة ، وقتل وأسر فيها خلق كثير . واستولى العدو على محلة السلطان وسرادقه وآلاته السلطانية ، وفيها مصحفه الخاص ودرعه الأثير لديه . وشملت الهزيمة سائر الكافة ، فلم ينج من نجا منها إلا على متون الدواب . وأصاب القتل والأسر بالأخص أهل البلاد والمطوعة . وأما الجند فقد نجا معظمهم ، وفشا القتل فيمن سواهم من المستنفرين والحشودة .

ويقول لنا ابن حيان : إنه كان بين ضحايا المعركة جده أبوسعبد مروان بن حيان بن محمد بن حيان . ومن الحقائق المؤلمة التي ينقلها إلينا ابن حيان ، أنه قد بدا في هذا اليوم ، من قوم من وجوه الجند « النفاق لأضغان احتملوها على السلطان فقبعوا للصفوف ، وسارعوا في الهرب ، وجروا على المسلمين الهزيمة وأوبقوهم . وكان أسبقهم إلى ذلك وأكشفهم لما في نفسه الخاين » ابن فرتون بن محمد الطويل » وقد بعث الناصر خلفه برسول استطاع القبض عليه ، فثقف وحمل إلى قرطبة ، وهناك صلب على باب السدة يوم وصول الناصر من غزاته ، وألحق به نفر من أشكاله ممن عملوا عمله ، ولحقهم وزره .

ويصف لنا عيسى بن أحمد ، طريق العودة الذي سلكه الناصر بجيشه عقب الموقعة ، فيقول إن الناصر ، قصد أولا إلى مدينة الفرج (وادي الحجارة) ، ثم غادرها في يوم الخميس الحادي عشر من ذي العقدة ، وسار إلى جربة ، ومنها إلى شبتران ، ومنها إلى محارس ، ومنها إلى مدينة طليطلة ، فلبث بها أربعة أيام ، ورحل منها يوم الخميس إلى فج سراج ، ومنها إلى ملقون ، ثم احتل بالبركة ، ومنها إلى منزل رند ، ثم إلى قنالش على وادي أريش ، ومنها إلى طير برتيطة ، ومنها إلى قليانة ، فأزملاط ، ومنها إلى منية نصر على باب قرطبة بعدوة النهر بالربض . وهناك قضى الليل . ثم سار إلى قصر قرطبة في الغد ، وقد نفذ أمره بصلب فرتون بن محمد الطويل ، على باب السدة الأكبر من أبواب القصر .

هذا ، وقد نقل إلينا ابن حيان نص الكتاب الذي صدر باسم الناصر عن الموقعة ، وهو من إنشاء الوزير الكاتب عيسى بن فطيس . وهو كتاب طويل ، يحاول فيه كاتبه أن يصف أدوار الموقعة ، وروعة القتال الذي نشب بين المسلمين والنصارى ، ويستخلص منه أن المعركة بدأت في صالح المسلمين ، وأنهم استطاعوا في البداية أن يردوا النصارى ، وأن يفضوا جموعهم ، حتى سقط محمد بن هاشم التجيبي

قائد الطليعة عن فرسه ، وأسره النصارى ، فعندئذ ارتد المسلمون إلى خطوطهم ، وذلك بعد أن قتلوا عدداً كبيراً من أعلام النصارى ، وقوامسهم وفرسانهم . ثم استؤنف القتال فى اليوم الثالث ، وقد تضخمت حشود النصارى بما ورد إليهم من الأمداد « من أقصى بنبلونة وألبه والقلاع ، وأهل قشتيلة إلى مشركى قلمرية ، وكل صنف من أصناف العجم معهم » ، واضطربت المعركة بين الفريقين ، وانتهت هذه المعركة الثانية بهزيمة النصارى وقتل عدد من أعلامهم ، وارتد المسلمون إلى خطوطهم ظافرين . وفى اليوم التالى بادر النصارى بالهجوم ، فلقىهم المسلمون بعنف وشدة ، واحتدم القتال ، وسقط « عظيم من عظماء النصارى » فاستداروا حوله ، وقد لحقتهم الهزيمة ، وهنا يقول الكتاب « وبلغ أمير المؤمنين أقصى أمله من إذلال جميع المشركين ، والاحتلال بساحتهم ، وانحياز طاغيتهم فى أعلى شاهق ، يرجو النجاة بنفسه ، فأمر بالرحيل ، وقد ضاعف النظر ، والعدو فى ضبط ساقة جيشه ، لما توقع خروج الكفرة فى أثره ، وأصبح منتقلا ، فما أقدم أعداء الله أن ينظروا من الجيش إلا من بعد على رأس جبل » .

وسار الناصر ، حسبما ينبئنا الكتاب ، بعد ذلك صوب نهر دويرة ، فى اتجاه حصن شنت منكش ، وهو يهدم الحصون ، وينتسف الزروع فى طريقه ، وكان الناصر ، يزمع السير شرقاً بجذاء دويرة ، حتى حصن شنت إشتين ، ولكنه عدل عن ذلك ، وأزمع السير إلى حصن أنثيشة . وهنا يحدثنا الكتاب عن المرحلة الحاسمة من الموقعة ، ذلك أن الناصر ، أشرف فى سيره على « خنادق ومهاو تتقاذفه ، وأجراف منقطعة قد عرفها المشركون ، وقدموا إليها ، وألقوا إلى ساقة الجيش فرسانهم ، فدارت عليهم الحرب ، وصرع فيها من جلة فرسانهم ، ومتقدمى رجالهم جملة ، لو أصيبت بحيث يترأى الجمعان لكانت سبب هزيمتهم ، ولكنهم وثقوا بالوعد ، وانتظروا تقدم الحماة ، وترادف الأثقال ، فحامى أمير المؤمنين برجاله وخاصته عن المسلمين ، ساعات من النهار ، حتى تقدم أكثرهم ، وجازت الخندق لقتالهم ، إلا من ضعفت دابته ، أو ضعفت تعبته عن استنفارها ، فلما رأوا الخلل تصايحوا من قنن الجبال ، وانخطوا من أعاليها انخطاط الأوعال ، فأصابوا من الأمتعة والدواب المثقلة ، ما لو أصابوا مثله فى مجال حرب أو سهل

من الأرض ، لما أنكر مثله مثله . عند مقارعة الرجال . وتصرف الأحوال .
وحامى صاحب العسكر عن كل من أجاز الخندق ، وخلص من مضايقه ، حتى
أسهلوا . وأصبح لأمير المؤمنين جيوشه ، وانتظمت جموعه ، وسلم الله رجاله ،
فلم يصب منهم أحد . وفى ذلك دليل للسامع عن الموقعة أنها لم تدر بغلبة ،
ولا ظفر المشركون ، اظفروا به فيها عن مساواة أو كثرة ، ولكن ضيق المسالك ،
ووعر الطريق . وسوء فهم الدليل ، خلى لما جلبه إلى أقدار الله تعالى التى
لا تصرف . ومحنة التى لم يزل يمتحن بها أوليائه ليعظمهم ، ويبتلى عبيده ليرهبهم ،
وأمير المؤمنين شاكر لله تعالى عظيم نعمه ، وواقف على تصرف محنته ، مستسهل
ما اختص به فى حب طاعته ، ضارع إلى الله تعالى فى التقبل لقوله وفعله .

وقد أرخ هذا الكتاب فى اليوم الثامن من ذى القعدة سنة ٣٢٧ هـ ، أعنى
عقب الموقعة بأربعة أسابيع ، وحينما وصل الناصر فى ارتداده إلى وادى الحجارة ،
وذلك ليكون أيضاً للناس ومعدرة من الخليفة ، عما أصابه من هزيمة . على أن
هذه العبارات الرفيعة التى صيغ فيها الخطاب ، وهذه التأكيدات الجريئة ، بأن
أمير المؤمنين ، عقب جواز الخندق ، قد انتظمت جيوشه ، وسلم الله رجاله ،
ولم يصب منهم أحد ، لا يمكن أن تنفى شيئاً من الحقائق المؤلمة ، التى تشهد كلها
بفداحه النكبة التى نزلت بجيش الناصر على خندق شنت منكش ، والتى يفصل
لنا ابن حيان بعض نتائجها وآثارها فيما تقدم .

ونقل إلينا ابن حيان كذلك رواية موجزة عن الموقعة عن عريب بن مسعود
جاء فيها : « غزا الناصر لدين الله سنة سبع وعشرين وثلاثمائة بالصوائف إلى
مدينة شنت مانكش بلد ألبه ، وبارز الكفرة ، ف وقعت حرب عظيمة انهزم
المسلمون عنها ، واستمسك الناصر لدين الله فى رجال الحقيقة بعد أن هلك فى
[الموقعة] عالم من المسلمين ، وقتل منهم كثير ، وأسو كثير ، وكان ممن أسر
محمد بن هاشم التجيبى صاحب سر قسطة . وذلك فى شهر رمضان منها » .

وكان القائد الباسل محمد بن هاشم التجيبى ، قد لبث فى أسر راميرو
(رذمير) ملك ليون ، مدة استطالت أكثر من عامين ، والناصر يسعى إلى
افتكاكه ، ويضاعف له الفدية ، حتى أفرج عنه أخيراً ، وحضر إلى قرطبة فى

شهر صفر سنة ٣٣٠ هـ ، بعد عامين وثلاثة أشهر من أسره (١) ؛
وأما رواية ابن الخطيب ، فهي بالرغم من إيجازها أقرب الروايات الإسلامية
إلى الدقة والحقائق التاريخية ؛ فهو يحدد تاريخ الموقعة ، ومكانها بدقة ، ويصفها
« بالوقعة الشهيرة التي ابتلى الله بها عبد الرحمن ومحصه ، والتي أوقعه بها عدو الله
وذمير ابن أردون » . فأما تاريخ الموقعة فهو يوم الجمعة ١١ شوال سنة ٣٢٧ هـ
(أول أغسطس سنة ٩٣٩ م) ، وقد وقعت على باب شانت منكش (٢) ، بعد
قتال استمر أياماً ، تراوحت فيه المغالبة بين الفريقين بأشد ما يكون وأصعبه . ثم
كانت للعدو الكرة ، فانكشف المسلمون انكشافاً لم يسمع بمثله ، وألجأ العدو
المسلمين إلى التراجع إلى خندق عميق ، هو الذي تنسب إليه الموقعة (فهي تسمى
موقعة الخندق) (٣) . فتساقط فيه المسلمون حتى ساووا بين ضفتيه ، وانكشف
الناصر ، واستولى العدو على محلاته ، وما فيها من عدة ومتاع ، وضاع فيها
مصحفه ودرعه (٤) .

ولدينا من الرواية النصرانية أولاً رواية ألفونسو الحكيم في تاريخه العام ،
وهي رواية موجزة مغرقة معاً ، وخلاصتها أن عبد الرحمن ملك قرطبة وابن
يحيى ملك سرقسطة ، قدما في جيش ضخم إلى أرض الملك راميرو ، ووصلا في
جيشهما حتى بلدة سيت مانكاس . فلما علم بذلك الملك راميرو خرج لقاتلهم وقاتلهم
حتى هزم المسلمون ، وقتل منهم ثمانون ألفاً ، وكان هذا اليوم يوم القديس يوستي
والقديس باستور . ويقول لوقا التوجي إنه كان يوم الإثنين . وأسر ابن يحيى .
وهرع المسلمون الآخرون إلى حصن يسمى « الخندق » Alfondiga وتركوا
كثيراً من قتلاهم في الميدان . وحاصرهم الملك راميرو في هذا الحصن ، وفر منه

(١) نقلنا رواية ابن حيان عن موقعة الخندق والكتاب الذي صدر عن الناصر عقب وقوعها
من السفر الخامس من المقتبس (مخطوط الخزائن الملكية) لوائح ١٦٧ إلى ١٧٢ أ . هذا وقد
نشرنا نص كتاب الناصر كاملاً في نهاية الكتاب .

(٢) شنت مانكش هي بالإسبانية Simancas (سيمانقة) . وهي تقع على مقربة من نهر
دويرة شرق مدينة سمورة وجنوب غرب بلد الوليد . وما تزال هذه القلعة قائمة حتى اليوم بصورتها
النصرانية المجددة . وهي اليوم مقر دار المحفوظات الإسبانية .

(٣) وتعرف الموقعة بالإسبانية Alhandega بحرفة عن كلمة « الخندق » .

(٤) أعمال الأعلام ص ٣٦ و ٣٧ .

عبد الرحمن ناجياً بنفسه في نفر من صحبه ، وعاد الملك راميرو في جيشه ومعهم غنائم كثيرة من الذهب والفضة والأحجار النفيسة وأشياء كثيرة أخرى ، وأخذ معه ابن يحيى أسيراً (١) .

بيد أن هنالك روايات نصرانية أخرى أكثر دقة ووضوحاً . وخلاصة هذه الروايات هو أن عبد الرحمن سار بجيشه في اتجاه سبانقة الواقعة على مقربة من نهر دويرة شرق مدينة سمورة ، فلقيه راميرو وحليفته طوطة في قواتهما ، ونشبت بين الفريقين موقعة في ٥ أغسطس سنة ٩٣٩ م ، فأبدى رؤساء العشائر العربية في القتال فتوراً وتراجعوا أمام النصارى . ولكن حدث ما لم يتوقعه المسلمون ، ذلك أن النصارى طاردوهم وألحوا في قتالهم ، فارتد المسلمون أمامهم نحو الجنوب الغربي ، حتى محلة صغيرة في جنوبي مدينة شملنقة تسمى ألانديجا (الحنديق) ، ثم وقفوا وكروا على النصارى بفتور وتحاذل ، وهجم النصارى عليهم بجرأة وشدة ، فهزم المسلمون هزيمة شديدة ، وأمعن النصارى فيهم قتلاً وأسراً . فساد الخلل في الجيش الإسلامي ، ومزقت منه فرق برمتها ، وقتل قائده نجدة الصقلي ، وأسر محمد بن هاشم حاكم سرقسطة ومزق جيشه ، وكان يحارب إلى جانب عبد الرحمن في هذه الغزوة ، وحمل مصفداً إلى ليون . وأثنى عبد الرحمن نفسه جراحاً ، ولم ينج من الموت والأسر إلا بأعجوبة ، فولى شطر قرطبة في نفر من الفرسان (٢) . ولم يحاول راميرو أن يستغل نصره بمطاردة المسلمين . ويقال إن الذي منعه من مطاردتهم هو أمية بن اسحاق إذ حذره من الكمين ورغبه فيما خلفوه من الأسلاب والغنائم الضخمة . ولولا ذلك لفنى الجيش الإسلامي بأسره (٣) . وكان لانتصار راميرو وقع عظيم في أوروبا وفي العالم الإسلامي ، بيد أن الموقعة على روعتها لم تكن بعيدة الأثر في قوة الأندلس ومنعتها ، ولم يدخر عبد الرحمن منذ عوده إلى قرطبة جهداً في تنظيم الجيش وإصلاحه ، وتطهيره من العوامل الخطيرة التي أدت إلى هذه الكارثة . ويحاول ابن الخطيب أن يوضح لنا أسباب هذه الكارثة في قوله : « وجرت الهزيمة على المسلمين طائفة من جند الناصر

(١) Crónica General, ibid, Vol. II. p. 396

(٢) Dozy : Hist.; Vol. II. p. 155—156 وكذلك : Aschbach : Geschichte der

Omajaden in Spanien. B. II. p. 50 حيث يورد الروايات النصرانية .

(٣) نفح العليب ج ١ ص ١٦٥ ، وابن الأثير ج ٨ ص ١١٥ .

لدين الله حسدته ما هياً الله من الصنع ، ولم تناصح في الحرب حق النصيح ، فجالت ثانية للأعنة ، واختل مصاف القتال . ثم يقول لنا إن الناصر ، قرر أن يبطش بأولئك الخونة المتهاونين ، فأمر قبيل وصوله إلى قرطبة ، أن تقام المصالب على ضفة نهرها ، وما كاد يصل إلى قرطبة ، حتى قبض على نحو ثلاثمائة من الفرسان ، فصلبهم وأمر بالنداء عليهم : « هذا جزاء من غش الإسلام ، وكاد أهله ، وأخل بمصاف الجهاد »^(١). بيد أن موقعة الخندق كانت خاتمة أعمال الناصر الحربية فلم يغز من بعدها بنفسه .

وفي ذلك يقول ابن حيان : « إنه قد اشتدت على الناصر نكبته في غزوته هذه ، فاتهم سعده ، واعتكر بكبره ، حتى خاف على نفسه ، فأشير عليه بعكس همه . فالتفت إلى البنيان يعالج به همه وأساه ، فأنشأ مدينة الزهراء ، وأقصر من ذلك الوقت عن الغزو بنفسه ، ووكل إلى حزمة قواده وشجعانهم ، يجردهم بالصوائف كل عام » . ومن جهة أخرى فقد رأى عبد الرحمن أن يتبع نحو أمراء الثغر الأعلى سياسة جديدة . وذلك أنه ، وفقاً لقول ابن حيان قد « اقتصر في تقليد شئون الثغر الأعلى الممانعة للدروب على أكابر ساكنيها ورآئها عن الأجداد والآباء صلابة البأس ، آل تميم ، وآل ذى النون ، وآل زروال ، وآل غزوان ، وآل الطويل ، وآل رزين ، وأسبابهم المؤثرين قدماً بشغورهم ، الدابن عن حريمهم ، فضم بلادهم بينهم حصصاً ، وجدد لهم ولآعقابهم بعدهم على أقسامهم منها كل عام ، ثم لا يغبنهم بالصلوات إذا وفدوا وطلبوا ، وبالهدايا إن بعدوا » ، وقد ترتب على ذلك أن كان هؤلاء الزعماء يقومون بدفاع النصارى ، وكان الناصر يزودهم كل عام بالعدد والسلاح ، والمستنفرة والمطوعة إلى الثغر تعصيلاً لجهودهم^(٢) .

واستأن أمية بن إسحاق بعد ذلك عبد الرحمن ، فلم ير بأساً من تأمينه والعفو عنه . وكانت سياسة عبد الرحمن ترمى دائماً إلى اصطناع خصومه الأقوياء بالعفو والإغضاء . وسعى عبد الرحمن حسبما تقدم إلى افتداء محمد بن هشام ، فأفرج عنه النصارى بعد أن لبث في سجون ليون زهاء ثلاثة أعوام ، وغمره الناصر بعطفه

(١) أعمال الأعلام ص ٣٧ .

(٢) ابن حيان في السفر الخامس لوحة ١٦٨ ب .

فأسبغ عليه لقب الوزارة ، وجعله قائداً للثغر ، وعاد إلى سرقسطة ، وكان يزور قرطبة من آن لآخر ، واستمر والياً لسرقسطة حتى توفي في سنة ٣٣٨ هـ . فعين الناصر ولده يحيى مكانه في الولاية والقيادة . وشغل النصارى مدى حين بعد موقعة الخندق بطائفة جديدة من الحروب الأهلية ، واستطاع عبد الرحمن خلال ذلك أن يعنى بإصلاح شئون المملكة وتقويتها .

وجنح راميرو ملك ليون إلى السلم مرة أخرى ، وبعث إلى الناصر يطلب عقد الصلح ، فأجابه الناصر عن كتابه بالقبول ، وبعث إليه سفيراً ليعقد معه شروط السلم . ولكنه كان كالعادة سلماً قصير الأمد .

وعقد الناصر من جهة أخرى السلم مع صاحب برشلونة الإفرنجى شنير بن منفريد ، وبعث إليه كاتبه حسداى بن إسحاق الإسرائيلى ، لينظم معه عقد السلم وفقاً للشروط التى ارتضاها الناصر ، وخلاصتها أن يتخلى شنير عن إمداد جميع النصارى الذين ليسوا فى سلم الناصر ، وأن يلتزم طاعته ، وأن يحل المصاهرة التى بينه وبين غرسية بن شانجه صاحب بنبلونة (نبرة) ، وكان شنير قد زوجه ابنته فألغى زواجها وفقاً لرغبة الناصر . وأصدر الناصر أوامره إلى قادة الأسطول وعمال السواحل بتحامى أعماله ومسألة أهل بلاده . ودعا حسداى أمراء الثغر الفرنجى إلى طاعة الناصر ، فأجابه منهم ، إلى جانب شنير ، لإنجه صاحب جبرنده ، وبعث إلى قرطبة سفارة يطلب تأمين تجار أراضيه الذين يجوبون ربوع الأندلس ، فأجيب إلى طلبه ، وصدرت الأوامر إلى جميع عمال الخزائر الشرقية والمراسى الساحلية ، بتأمين سائر رعايا لإنجه على أنفسهم وأموالهم (١) .

ولم يحترم ملك ليون عهد السلم طويلاً ، وعادت بعوثة تعيث فى الأراضى الإسلامية . ومن ثم فإن غزوات المسلمين لإسبانيا النصرانية لم تنقطع فى الأعوام التالية . فى سنة ٣٢٩ هـ (٩٤١ م) غزا المسلمون أراضى ليون وعاثوا فيها ، وفى سنة ٣٣٥ هـ (٩٤٦ م) غنى الناصر بتجديد مدينة سالم (٢) وهى أقصى مدن الأندلس الشمالية الغربية على حدود ليون ، وحصنها وشحنها بالرجال والعدد ،

(١) المقتبس - السفر الخامس - لوحات ١٧٣ - ١٧٥ .

(٢) هى بالإسبانية **Medinaceli** وترجع تسميتها بذلك الاسم إلى أنها كانت منزل بنى سالم ، وهم بطن من بطون قبيلة مصمودة البربرية (راجع جمهرة أنساب العرب لابن حزم - القاهرة - ص ٤٦١) .

وكانت قد خربت من جراء غزوات العدو المتكررة . وتوالت غزوات المسلمين لأراضي ليون في الأعوام التالية . وفي أواخر سنة ٣٣٩ هـ (يناير ٩٥٠ م) ، توفي راميرو الثاني ملك ليون ، فثارت الحرب الأهلية بين ولديه أردونيو وسانشو ، وانتهاز المسلمون هذه الفرصة فعاثوا في أراضي ليون غير مرة ، وانتهى الأمر بفوز أردونيو وجلوسه على العرش . ورأى أردونيو أن يعقد الصلح مع الناصر ، فأرسل إليه سفيراً يخطب وده ، فاستجاب الناصر إلى دعوته ، وعقد معه معاهدة صلح تعهد فيها أردونيو بأن يصلح بعض القلاع الواقعة على الحدود ، وأن يهدم البعض الآخر (سنة ٩٥٥ م) ، ولكن أخاه سانشو رفض هذه المعاهدة وحال دون تنفيذها . فاضطر الناصر إلى استئناف الحرب ، وسير قائده أحمد ابن يعلى في جيش إلى ليون ، فهزم النصارى وعقد الصلح بين الفريقين مرة أخرى ، واستقرت بينهما علائق السلم مدى حين .

* * *

ونعود الآن قليلاً إلى الوراء لنستعرض بعض الحوادث الداخلية ، ومنها بالأخص ما حدث من محن المحل والمجاعة بالأندلس . ففي سنة ٣١٧ هـ (٩٢٩ م) ، وقع المحل بالأندلس واحتبس الغيث ، واضمحلت الزروع ، وعزت الأقوات ، وغلت الأسعار على نحو ما حدث في سنة ٣٠٣ هـ ، فأمر الناصر خطيب المسجد الجامع بالحضرة ، بالاستسقاء ، فبدأ بذلك في خطبة الجمعة التالية ، ثم برز بالناس إلى مصلى الربض يوم الإثنين الثامن من شهر صفر (٢٣ مارس) ، فلم يسقط الغيث ، واستمر المحل والقحط ، وجهدت الناس . وخرجت كتب الناصر إلى جميع العمال على الكور بالأمر بالاستسقاء ، وكان الكتاب إلى جميع العمال بنفس النص على النحو الآتي :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد فإن الله عز وجل ، إذا بسط رزقه وأغدق نعمته ، وأجزل بركاته ، أحب أن يشكر عليها ، وإذا رواها وقبضها ، أحب أن يستلها ، ويضرع إليه فيها ، وهو الرزاق ، ذو القوة المتين ، والتواب الرحيم ، الذي يقبل التوبة من عباده ، ويعفو عن السيئات ، ويعلم ما تفعلون ، وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا ، وينشر رحمته ، وهو الولي الحميد ، فأوجب به الرغبة ، عز وجهه فيه ، والخشوع لعزته ، والاستكانة له ، والإلحاح في المسئلة

فما احتبس به ، والتوبة من الأعمال المنكرة التي توجب سخطه منه ، وتبذل ثمنه ، وتستروحه رضاه ، تعالى جده . وقد أمرنا الخطيب فيما قبلنا بالاستسقاء في المسجد الجامع يوم الجمعة ، والجمعة الثانية التي تليه ، إن أبطأت السقيا ، والبروز يوم الإثنين بعدها لجماعة المسلمين عندنا إلى مصلاتهم ، أو يأتي الله قبل ذلك بغيثه المعنى عنه ، ورحمته المنتظرة منه ، المرجوة عنده ، فوالخطيب بموضعك أن يحتمل على مثل ذلك ، ويأخذ به من قبله من المسلمين ، وليحملهم بذلك الحمل ، ولتكن ضراعتهم إلى الله تعالى ، ضراعة من قد اعترف بذنبه ، ورجا رحمة الله ، والله غفور رحيم ، وهو المستعان لا شريك له إن شاء الله^(١).

وفي سنة ٣٢٤ هـ ، وقع بالأندلس محل جديد لم يعهد فيها بمثله من قبل ، فاحتبس المطر ، وجفت الزروع . ومع ذلك فلم يترك هذا المحل وراءه كثيراً من الآثار الخربة ، ويقول لنا ابن حيان ، إن البركات والخيرات استمرت ذائعة بين الناس في سائر الجهات . وبذل الناصر لمعونة الناس ما جبر النقص في المحل . وانهمل الغيث في العام التالي ، وقد نظم الشاعر عبد الله بن يحيى بن إدريس في ذلك قصيدة في مدح الناصر هذا مطلعها :

نعم الشفيع إلى الرحمن في المطر مستنزل الغيث بالأعذار والنذر^(٢)

وعاد المحل والقحط يعصف بالأندلس في سنة ٣٢٩ هـ (٩٤١ م) ، وتوقف المطر ، وعم الجفاف ، وشرع قاضي الجماعة ، وصاحب الصلاة محمد بن أبي عبد الله بن عيسى في إقامة صلاة الاستسقاء في يوم الجمعة الثاني من ربيع الآخر . ولكن المحل تمادى ، وبرز الناس إلى مصلى الربض مراراً وتكراراً . وفي الثاني عشر من جمادى الأولى (أول فبراير) ، بدا نوء غليظ وسحاب كثيف ونزل الثلج طوال اليوم وغطى الأرض ، ثم نزل المطر والثلج ، وانقطع دون أن يروى الأرض . فعاد القاضي إلى الاستسقاء حتى استجاب الله لعباده بعد أيام قلائل ، وبدأ الناس في الزرع ، وتوالى نزول الغيث ، وامتنقى الناس سقيا وافياً ، ورويت الأراضي والمزارع ، وهبطت الأسعار وعاد الرخاء^(٣).

(١) ابن حيان في السفر الخامس - لوحة ١٠٢ أ و ب .

(٢) ابن حيان - السفر الخامس - لوحة ١٥٠ أ .

(٣) ابن حيان السفر الخامس - لوحة ١٨١ .

هذا ، ومما ذكره لنا ابن حيان من الحوادث الداخلية في سنة ٣٢٤ هـ (٩٣٦ م) ، وقوع الحريق العظيم بمدينة قرطبة . ففي أوائل شهر شعبان من هذه السنة ، شبت النار بسوق قرطبة ، فأحرقت جميع مجالس الحصاد ، واتصل الحريق بحى الصرافين ، وما جاور مسجد أبي هرون ، فأحرق وتداعى المسجد . ثم اتصلت النار بسوق العطارين ، وما جاوره من الأسواق والأحياء ، واتسع نطاقها بصورة مرعبة . وكان حريقاً شنيعاً مروع الآثار . وقد أمر الناصر بعد انتهائه ، وانجلاء آثاره ، أن يعاد بناء مسجد أبي هرون ، فأعيد على أحسن حال . وأمر الناصر كذلك بإعادة بناء ما تهدم من الدور والصروح العامة^(١).

لم ينس عبد الرحمن خلال توفره على محاربة الثوار والنصارى داخل شبه الجزيرة ، أن يعنى بمقاومة الدعوة الفاطمية التي اجتاحت شمال إفريقيا ، وامتدت بسرعة إلى عدوة المغرب وإلى سبتة ، وأخذت تهدد شواطئ الأندلس . وكانت الدعوة الفاطمية تنطوى بالنسبة للأندلس على خطر مزدوج ديني وسياسي معاً . وكانت في قوتها وعنفوانها تهدد طرفي إفريقيا أعني مصر والمغرب . فنذ عبيد الله المهدي أول الخلفاء الفاطميين ، تردد جيوش الخلافة الفتية من قواعدها في تونس نحو مصر والمغرب ، غازية . وكان اجتياحها السريع للمغرب يثير بحق جزع حكومة قرطبة ؛ ولا غرو فقد كانت عدوة المغرب تعتبر دائماً ، قاعدة لغزو الأندلس وخط دفاعها الأول . وكان ثوار الأندلس يتجهون بأبصارهم إلى العدو ، ويفاوضون الفاطميين ، ويأتمرون معهم على حكومة الأندلس ، فكان على عبد الرحمن أن يغالب هذا الخطر الجديد قبل استفحاله . ففي سنة ٣١٩ هـ (٩٣١ م) سير عبد الرحمن إلى ثغر سبتة أسطولاً قوياً يتكون من مائة وعشرين سفينة ، ما بين حربية وناقلة ، وسبعة آلاف رجل منهم خمسة آلاف من البحارة وألف من الحشم ، وانضم إليه عدة من وجوه ألمرية وبجانة تطوعا في مراكزهم ، وكان تحت قيادة أمري البحر أحمد بن محمد بن إلياس وسعيد بن يونس بن سعديل . فخرج هذا الأسطول من الجزيرة آخر جمادى الأولى من هذه السنة ، واستولى على سبتة من يد ولاتها البربر بنى عصام حلفاء الفاطميين ، وطلب الناصر إلى صاحب طنجة

(١) ابن حيان السفر الخامس - لوحة ١٥٠ أ .

أبى العيش الحسنى أن ينزل له عنها لتكمل له بذلك السيطرة على رأس العدو ، فأبى ، فحاصره الأسطول وضيق عليه حتى أذعن ، وأجاب الناصر إلى ما طلب ، وانتقل مع إخوته وبني عمه من الأدارسة إلى مدينة البصرة وثرغ أصيلاً تحت طاعة الناصر (١) .

وبادر زعماء البربر من الأدارسة وزنانة إلى طاعة الناصر ومهادنته ، وامتدت دعوته إلى فاس . وبعث إليه موسى بن أبى العافية أمير مكناسة يطلب مخالفته والدخول في طاعته ، فأجابه عبد الرحمن إلى رغبته ، وأمدّه بالأمول والهدايا ، وقوى أمره في المغرب . وفي سنة ٣٢١ هـ (٩٣٣ م) استطاع موسى أن يهزم جيشاً أرسله عبيد الله الفاطمي لغزو المغرب ، والقضاء على دعوة الناصر ، بقيادة قائده ابن يصل عامل تاهرت . ثم توفي عبيد الله في العام التالي . وفي سنة ٣٢٣ هـ سير ولده الخليفة القائم إلى المغرب حملة أخرى ، بقيادة ميسور الصقلي ، فضيق على موسى وطارده حتى الصحراء ، واستولى الأدارسة حلفاء الفاطميين على مملكته .

وبعث الناصر لإنجاده إلى شواطئ العدو أسطولا قوامه أربعون سفينة بقيادة أمير البحر عبد الملك بن أبى حمادة ، سار إلى سبتة ، ثم تقدم إلى مليلة فافتتحها ، ثم افتتح نكور وجراوة ، فقويت نفس موسى ، واستقل نوعاً من عثرته ، وانسحب الفاطميون إلى الداخل ، وقضى الأسطول في غزواته هذه ستة أشهر ، ثم عاد إلى قواعده في ألمرية .

وجازت جيوش عبد الرحمن وأساطيله بعد ذلك مراراً إلى المغرب ، لمحاربة الفاطميين وحلفائهم من الأدارسة وغيرهم من أمراء البربر ، واضطر الأدارسة في النهاية إلى طلب الصلح من عبد الرحمن والاعتراف بطاعته (٣٣٢ هـ) ، ودعى لعبد الرحمن على منابر المغرب ، واستقرت دعوته هنالك مدى حين ، ولكن سلطانه فيما وراء البحر لم يكن ثابت الدعائم ، وكان رهيناً بقيام دولة الأمراء المخالفين له .

ولما تولى المعز لدين الله رابع الخلفاء الفاطميين الملك ، وبدت الدولة الفاطمية في أوج قوتها في إفريقية ، وأخذت أساطيلها القوية تزعم الدولة البيزنطية ، بغزو

(١) ابن حيان - السفر الخامس - لوحة ١٢٥ أ و ب ، والاستقصاء ج ١ ص ٨٥ .

شواطىء قلورية^(١) في جنوبي إيطاليا ، كان خطر غزو الفاطميين للأندلس يلوح قوياً في الأفق . والظاهر أن هذه الفكرة لم تكن بعيدة عن ذهن المعز ، بل يبدو فوق ذلك أن حكومة قرطبة وقفت على بعض وثائق تؤيد هذه النية . وفي سنة ٣٤٤ هـ (٩٥٥ م) سارت بعض السفن الفاطمية وهاجمت ثغر ألمرية ، وأحرقت ما فيه من السفن ، وعاثت في ألمرية . فرد عبد الرحمن بأن أرسل قوة بحرية بقيادة أمير البحر غالب ، إلى شواطىء إفريقية (تونس) ، فعاثت فيها ، وأمر عبد الرحمن في الوقت نفسه بلعن الشيعة والفاطميين على منابر الأندلس . ثم عاد بعد ذلك بثلاثة أعوام ، فسير أسطوله ثانية إلى إفريقية بقيادة أحمد بن يعلى ، تهديداً للقوات الفاطمية ، التي زحفت بقيادة جوهر الصقلي حذاء الشاطىء إلى عدوة المغرب ، وكان المعز قد سير قائده جوهرراً في سنة ٣٤٧ هـ ، في جيش عظيم إلى المغرب الأقصى ، ومعه زعيم منسهاجة زيرى بن مناد في قواته ، فاجتاح شمالي المغرب كله حتى المحيط ، ونازل فاس واقتحمها عنوة . وكان الناصر يرقب تقدم الفاطميين على هذا النحو في أراضي العدو بجزع ، ويجعل أساطيله على أهبة دائمة . وعبرت في نفس الوقت حملة أندلسية أخرى من طريق سبتة إلى المغرب ، ولبثت هنالك حتى ارتد الفاطميون أدارجهم^(٢) .

ويقدم إلينا ابن حيان بقلمه البليغ تلك الصورة عن تقدير الناصر لأهمية عدوة المغرب في الدفاع عن الأندلس ، ومقاومة الدعوة الفاطمية :

« لم تزل نفس الخليفة الناصر لدين الله ، منذ استولى على أمر الملك ، واعين النصر ، وسلط على أهل الخلاف ، دروباً على ما سخر له من ذلك ، ظموا إلى درك اقصاره ، متخطياً موسطته إلى نهايته ، معملاً فيه رؤيته ، موقظاً له فكرته ، تأمل هذا الفرج في ساحل البحر الرومي . . . مجاورة جبل البرابر الحالين بلاد المغرب الملكتهم لعدوتهم الراكبة لعدوة بلد الأندلس ، تكاد عدوتهما تتراءى لضيق بحر الزقاق الحاجز بينهما ، وسهولة مرامه أى أوقات الزمان رؤى

(١) وهي بالإفرنجية Calabria .

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٢٨ و ١٤١ ؛ وابن الأثير ج ٨ ص ١١٩ ؛ ونفح الطيب ج ١ ص ١٦٩ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٢١٩^٥ و ٢٢٠ و ٢٢٥ و ٢٣٧ ، ٢٣٨ ؛ وراجع Dozy: Hist., Vol. II, p. 164 & 165

ركوبه . فنه طرقت الأندلس في الزمان الخالية ، واكتسب أهلها المخافة ، فدعته
همته العلية ، وفكرته المصيبة ، إلى التوقل إلى تلك الباغية المرهوبة ، والسمو لتلك
العورة المكشوفة ، وذلك عند ما كشف عند يكنف ذلك الساحل الغربي من
طنجة الفتنة ، وضع ما كان أوهته من صدع الفرقة ، وملك مفتاح الجزيرة
الخضراء فرضة الأندلس الدنيا ، الراكبة فتح ذلك البحر المرهوب ، المحاضية
لضرتها مدينة سبتة فرضة المحاز من بلد العدو . فأذكى نظر عينه ما كان منبثاً
بخطره من الرهبة ، فأرهمف العزم ، وألطف الحيلة ، وابتدئ ففتح ذلك بمخاضة
من تقدمت له بأسلافه ملوك بني أمية من أمراء تلك البلاد وصلة أو سلفت بينهم
أصرة ، يستثير وصايلهم ، ويصل أحبلهم ، ويستدعي ولايتهم ، ويسبب ذلك
ما شاء مهاداتهم ، واكرام أسبابهم ، وقضاء حوائجهم ، فلم يلبث أن هويت
إليه أفئدة كثير منهم ، وزعمائهم بين مصحح في ولايته ، مستجيب لدعوته ،
مغتم لعطيته . مستعين بقوته على مدافعة من قد هد ركنه من بني عبيد الله إمام
الشيعة المقتحم أرضه عليه ودونه ، وبين منافق مقيم لسوقه بينه وبين تلك الشيعة ،
منذ بدت بينها العداوة ، مايل مع الدولة ، مجتلب لعاجل ما استمسك به من
الرشوة .

« استوى للناصر لدين الله من الطائفتين أولياء قاموا بدعوته ، ورفعوا فوق
أعلامه ، وعاطوا مضطهدا ، عبيد الله الشيعي صاحب إفريقية بدعوته ، وقلبوا
مجانهم إليه ، ونصبوا الحرب لرجاله ، فكفكفهم عن الإيغال في بلدتهم من قاصية
المغرب ، يهطنونهم بالكيد والمكر ، فتمكنت بذلك قدم الناصر لدين الله ،
فما حازه من مدينة سبتة والقطعة التي استضمها إليها من أرض العدو ، واجتذب
من أبله كثيراً من فرسان البربر وحماة رجالهم إلى حضرته ، استعان بهم في
حروبه ، وتمكن من ذلك من ارتياد عتاق الخيل بوادي البربر ، واستنتاجهم
الفاضل لبراذين الأندلس ، فتنت بذلك أسباب ملكه ، وجل مقداره ،
وبعد صيته ، وهابته ملوك الأمم حوله ، وظهرت نتيجة ما عاتاه من مواصلة
أمراء البربر ، وسعى لهم سعيه لصدر دولته الفاضلة ، سنة سبع عشرة وثلث مائه
وما يليها ، إذ ترددت فيها عليه كتب محمد بن خزر عظيم أمراء زنانة في وقته ،
وأنفروهم عن عبيد الله الشيعي ، وأدناهم من داره ، وأول من تناوله الناصر

لمدين الله من جماعتهم بمكاتبتهم ، واجتذبه بوصلته (١) .

— ٤ —

هذا وربما كان قيام الخلافة الفاطمية في الضفة الأخرى من البحر ، وانسياب دعوتها إلى المغرب الأقصى ، على مقربة من شواطئ الأندلس ، في مقدمة البواعث التي حدثت بعبد الرحمن إلى العمل على إحياء تراث الخلافة الأموية الروحية ، بعد أن توطدت دعائم دولتها السياسية بالأندلس ، وكان مؤسسها عبد الرحمن الداخل قد أمر بمنع الدعاء لبني العباس ، ولكنه لم يتخذ سمة الخلافة واكتفى بلقب الإمارة . وسار بنوه على أثره . وبالرغم من أن الدولة الأموية قد استطاعت غر مرة ، أن تستعيد مجدها السالف ، في عهد الحكم بن هشام وولده عبد الرحمن الأوسط ، فإن أمراء بني أمية لم يفكروا في الإقدام على منافسة بني العباس في ألقاب الخلافة . وقيل في تعليل ذلك إنهم كانوا يرون الخلافة تراثاً لآل البيت ، ويدركون قصورهم عن ذلك « بالقصور عن ملك الجحاز أصل العرب والملة ، والبعد عن دار الخلافة التي هي مركز العصبة » وأنهم بعبارة أخرى كانوا يرون أن الخلافة تكون لمن يملك الحرمين (٢) . بيد أننا نعتقد أن هذا الإحجام يرجع بالأخص إلى بواعث الحكمة والسياسة ، والنحوط من إثارة الفتنة والخلافات الدينية والمذهبية . فلما ظهرت الدعوة الفاطمية في إفريقية ، ونمت بسرعة في أوائل القرن الرابع الهجري ، ولما تواترت الأنباء من جهة أخرى ، عما انتهت إليه الدولة العباسية في المشرق من الإضطراب والفوضى ، وما حدث من استبداد موالى الترك بالأمر وحجرهم على الخلفاء ، رأى عبد الرحمن أن يتسم بسمة الخلافة ، وأن يسترد بذلك تراث أسرته الروحية ، وأنه بما وفق إليه من النهوض بالدولة الإسلامية وتوطيد أركانها ، أحق بألقاب الخلافة من دولة منحلة وأخرى طارئة . ونفذ الأمر بذلك في يوم الجمعة مستهل ذي الحجة سنة ٣١٦ هـ ، حيث قام صاحب الصلاة القاضي أحمد بن أحمد بن بتي بن مخلد بالدعاء له بالخلافة ، على منبر المسجد الجامع بقرطبة (٣) . وإليك نص الوثيقة الرسمية التي صدرت بذلك وهو :

(١) ابن حيان في المقتبس - السفر الخامس لوحة ١٠٣ ب و ١٠٤ أ
(٢) ابن خلدون ج ١ (المقدمة) ص ١٩٠ ؛ والمسعودي في مروج الذهب (بولاقي)
ج ١ ص ٧٨ ؛ وابن الأبار في الحلة السيرة ص ٩٩ .
(٣) ابن حيان في المقتبس - السفر الخامس - لوحة ٩٩ أ .

« بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على نبيه محمد الكريم . أبا بعد فإننا أحق من استوفى حقه ، وأجدر من استكمل حظه ، ولبس من كرامة الله تعالى ما ألبسه ، فنحن للذي فضلنا الله به ، وأظهر أثرنا فيه ، ورفع سلطاننا إليه ، ويسر على أيدينا دركه ، وسهل بدولتنا مرامه ، وللذي أشاد في الآفاق من ذكرنا ، وأعلى في البلاد من أمرنا ، وأعلن من رجاء العالمين بنا ، وأعاد من انحرافهم إلينا ، واستبشارهم بما أظلمهم من دولتنا لإنشاء الله ، فالحمد لله ولي الإنعام بما أنعم به ، وأهل الفضل بما تفضل علينا فيه . وقد رأينا أن تكون الدعوة لنا بأمر المؤمنين ، وخروج الكتب عنا وورودها علينا بذلك — إذ كل مدعو بهذا الاسم غيرنا ، منتحل له ، ودخيل فيه ، ومتسم بما لا يستحقه منه ، وعلمنا التماذى على ترك الواجب لنا من ذلك حق أضعنا ، واسم ثابت أسقطناه ، فر الخطيب بموضعك ، أن يقول به ، وأجر مخاطبتك لنا عليه إن شاء الله . والله المستعان . وكتب يوم الخميس لليلتين خلتا من ذى الحجة سنة ٣١٦ هـ » (١) .

وهكذا اتخذ عبد الرحمن سمة الخلافة عن يقين بأفضليته ، وأولوية حقه وحق أسرته ، وتسمى بأمر المؤمنين الناصر لدين الله ، وذلك في الثاني من شهر ذى الحجة سنة ٣١٦ هـ (يناير سنة ٩٢٩ م) فكان أول أمير من بني أمية بالأندلس ينعت بأمر المؤمنين . وبدأت الدعوة من ذلك الحين لبني أمية بألقاب الخلافة في الأندلس والمغرب الأقصى ، ونقشت ألقاب الخلافة على السكة ، ويضع بعض المؤرخين اتخاذ لقب الناصر لسمة الخلافة في سنة (٣٢٧ هـ) أي بعد وقوعه بنحو عشرة أعوام ، وهو تحريف واضح تنقضه وثيقة الدعوة الرسمية (٢) .

— ٥ —

وكان من أبرز الحوادث الداخلية في عصر الناصر ، حركة الفيلسوف المتصوف ابن مسرّة الجبلي ، واهتمام الناصر بمقاومتها وقمعها ، وذلك حتى بعد أن توفي زعيمها بأعوام طويلة ، وإصدار كتابه الشهير في شأنها .

(١) يضع ابن حيان اتخاذ الناصر لسمة الخلافة في حوادث سنة ٣١٦ هـ والدعاء له بها ، حسبما تقدم في مستهل ذى الحجة من هذه ، السنة ويلخص في كلامه نص الوثيقة (السفر الخامس — لوحة ٩٩ أ) . وقد اعتمدنا في نقل الوثيقة الخلافة على ما ورد في الأوراق المخطوطة الخاصة بعهد الناصر ، ص ٧٨ و ٧٩ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٢١٢ .

(٢) هذه رواية ابن الأثير (ج ٨ ص ١٧٨) وكذلك ابن خلدون (ج ٤ ص ١٣٧) . والظاهر أن أصحاب هذه الرواية لم يطلعوا على وثيقة الدعوة التي أثبتنا نصها .

وهو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن مسرة من أهل قرطبة ، وبها ولد سنة ٢٦٩ هـ (٨٨٢ م) ، ودرس على أبيه وعلى ابن وضاح والحشني وغيرهم ، ولكنه جاهر ببعض الآراء الدينية المغرقة في التأويل والقدر وإنفاذ الوعيد وغيرها ، فاتهم بالزندقة ، فغادر الأندلس فاراً إلى المشرق ، وأنفق هنالك بضعة أعوام ، وتفقّه على يد المعتزلة والكلاميين وأهل الجدل . ثم عاد إلى الأندلس ، وهو يخفى آراءه ونحلته الحقيقية تحت ستار من النسك والورع ، وكان ذلك في بداية عهد الناصر ، فاختلف إليه الطلاب من كل صوب ، وكان يستهويهم بغزير علمه ، وسحر بيانه ، ومنطقه الخلاب ، حتى التف حوله جمهرة كبيرة من الصاحب والأتباع ، أصبحت تكون مدرسة خاصة من الآراء الدينية والكلامية المتطرفة . واختلف الناس في أمر ابن مسرة ، فمنهم من كان يرتفع به إلى مرتبة الإمامة في العلم والزهد والورع ، ومنهم من كان يرميه بالزندقة وترويج البدع ، والانحراف عن مبادئ الدين الصحيحة . وتوفي ابن مسرة بقرطبة في شوال سنة ٣١٩ هـ (٩٣١ م) (١) . ولكن آراءه وتعاليمه بقيت من بعده ذائعة بين تلاميذه وأتباعه ، وتكونت من حولها فرقة سرية ، اتهمت بالمروق والإلحاد ، تتابع دعايته ، وتعمل على بث تعاليمه ، حتى برم بهم المتزمتون من أهل السنة ، وأخذوا يسعون لدى السلطات المختصة ، لتعمل على قمع هذه الجماعة ، والقضاء على تعاليمها .

ولذلك كيف يصور لنا ابن حيان بقلمه البارع خطة ابن مسرة في بث تعاليمه ، واستهواء أتباعه . قال :

« كان مذهب الظنين ، المرتب المرأى بالعبادة ، المنطوى على دخل السريرة ، محمد بن عبد الله بن مسرة ، الرابض للفتنة ، دب في الناس صدر دولة الخليفة الناصر لدين الله ، واستهواهم بفضل ما أظهره من الزهد ، وأبدى من الورع . « وكان يستهوى العقول ، ويصور الأفتدة . وكان من شأنه أن يلتقي أول من يأتيه ، مقتبساً من أهل السلامة ، بالمساهلة ، إلى أن يحيله عن رأيه بالمفاضلة ، فإذا أصغى إلى علوبة منطقته ، وعلق في شرك حجاجه ، غره رفقاً يباطله من

(١) ابن الفرضي في « تاريخ العلماء والرواة بالأندلس » (القاهرة) ج ٢ رقم ١٢٠٤ . وكذلك الحميدى في « جدوة المقتدس » (القاهرة) ص ٥٨ و ٥٩ . والتكلمة لابن الأبار (القاهرة) رقم ٧٦ و ٩٩١ .

الطائر فرخه ، فلا يبعد أن يلفته عن رأيه ، ويشككه في اعتقاده . . . ويحصله في أتباعه ، فاستهوى خلقاً من الناس ، صدّهم عن سبيل الله ، وأوحشهم من الجماعة ، واتخذ من رأى غيهم في مذهبه وائمة دخل في عرضهم رجال من ذوى الفهم . ولم يزل يستظهر عليهم بالمواثيق في الكتمان إلا من الثقات الوثاق العقدة ، فاكتم بذلك شأنه ، إلى أن عاقصته منيته ، صدر دولة الناصر لدين الله ، أيام شغله بحروب أهل الخلاف المتصلة . فرفع الله بموته عن الناس فتنة ، ولم يلبث دعائه مع انتشارهم في البلاد أن تلبسوا بعده بما أودعه من مكنون علمه ، فكثّر القول في شأنه ، وشيم أهل الخلاف من تلقاياه ، فذعر له أهل السنة من أهل قرطبة ، وتوقعوا منه البلية ، ففرع فقهاؤهم وكبراؤهم بها إلى أصحاب الخليفة الناصر لدين الله فنبهوا ... » (١) .

ومضت أعوام طويلة ، قبل أن تصل أصوات أهل السنة المعارضين لتعاليم ابن مسرة إلى المسئولين ، ولم يصدر قرار السلطة العليا في شأنه وشأن تعاليمه ، إلا بعد أن مضى أكثر من عشرين عاماً على وفاته ، مما يدل على أن دعوته وتعاليمه لبثت حية ذائعة . قال ابن حيان :

« وفي يوم الجمعة لتسع خلون من ذى الحجة سنة أربعين وثلاث مائة ، قرئ على الناس بالمسجدين الجامعين بالحضرتين ، قرطبة والزهراء ، كتاب أمير المؤمنين الناصر لدين الله إلى الوزير صاحب المدينة عبد الله بن بدر ، بإنكاره لما ابتدعه المبتدعون ، وشذ فيه الخارجون ، من رأى الجماعة المتممون إلى صحبة محمد بن عبد الله بن مسرة ، وانتحلوه في الديانة ، فافتتن العوام بما أظهره من التقشف والشظف في المعيشة ، واستتروا لبدعهم بسكنى الأطراف البعيدة ، حتى استمالوا بفعلتهم عصابة . . . وفرقة ، فتنت بمذاهبهم ، وأن ذلك بلغ أمير المؤمنين ، ففحص عليه ، وعلم صحته ، فتعاضمه ، واستوحش من اجترأ تلك الطائفة الخبيثة عليه ، فأوعز إلى وزيره ومتولى أحكامه ومدينته ، تتبع هذه الطائفة ، وإخافتها والبسط عليها ، والقبض على من عثر عليه منها ، وإنهاء خبره إلى أمير المؤمنين » .

وأورد لنا ابن حيان بعد ذلك ، نص الكتاب الذي صدر باسم الخليفة

(١) مخطوط ابن حيان (السفر الخامس من المتببس) المحفوظ بالخزانة الملكية . وقد حالت خروم المخطوط دون ظهور بعض الكلمات .

فالنصر لدين الله ، في الحملة على تلك الطائفة ، والتبرؤ منها ، وهو من إنشاء كاتبه ووزيره عبد الرحمن بن عبد الله الزجالي .

ويبدأ الكتاب بالتنويه بشأن الإسلام ، وأفضليته على سائر الأديان ، وبرسالة محمد خاتم النبيين ، الذي اصطفاه الله ، وأرسله إلى الناس ، وكرم به أمته على سائر الأمم ، وما نبه به الإسلام من إقامة الدين ، وعدم افتراق الكلمة . وانه لما شملت النعمة ، وعم الأقطار بعدل أمير المؤمنين السكون والدعة ، طلعت فرقة لا تبغى خيراً ، ولا تأتمر رشداً ، من طغام السواد ، « وأبدت كتباً لم يعرفوها ، ضلّت فيها حلومهم ، وقصرت عنها عقولهم » واستولى عليهم الشيطان بخيله ورجله ، فقالوا بخلق القرآن ، واستيثسوا ، وآيسوا من روح الله ، وأكثروا الجدل في آيات الله ، وحرّموا التأويل في حديث رسول الله ، فبريت منهم الذمة ، ووعدهم الله ببالغ نكاله ، لما انطوت عليه قلوبهم من الزيف ، ولما كذبوا من التوبة ، وأبطلوا من الشفاعة ، ونالوا بحكم التنزيل ، والقدح في الحديث ، والقول بمكروه في السلف الصالح ، فشدوا عن مذهب الجماعة ، حتى تركوا رد السلام على المسلمين ، وهى التحية التى نسخت تحية الجاهلين ، وقالوا بالاعتزال عن العامة . ولما فشى غيهم ، وشاع جهلهم ، واتصل بأمر المؤمنين ، من قدحهم في الديانة ، وخروجهم عن الجادة ، أغلظ في الأخذ فوق أيديهم ، وأنذرهم إنذاراً فظيماً ، واعتزم أن يوقع بهم العقاب الشديد ، وأمر بقراءة كتابه هذا على المنبر الأعظم بحضرة قرطبة ، ليفزع قلب الجاهل ، ويضطر الغواة إلى الآثار الصحيحة التى يتقبلها الله منهم ، وأن يقرأ هذا الكتاب في سائر الأقطار والكور ، وفي البدو والحضر ، وأن ينفذ عهده بذلك إلى سائر قواده ، وجميع عماله . لكى يقوموا بمطاردة هذه « الطغمة الخبيثة » التى اجترائت على تبديل السنة ، والاعتداء على القرآن العظيم ، وأحاديث الرسول الأمين .

ويختتم الكتاب بمطالبة العمال ببث العيون ، وتتبع أولئك المارقين ، وإخطار أمير المؤمنين بأسمائهم ومواضعهم ، وأسماء الشهود عليهم ، حتى يحملوا إلى باب سدته ، وينكلوا بحضرته (١) .

(١) ورد نص هذا الكتاب في اللوحات ١٧ و ١٨ و ١٩ من مخطوط المقتبس السالف الذكر . وسوف ننشر نص الكتاب كاملاً في نهاية الكتاب .

قال ابن حيان : « وتمادى الطلب لهذه الفرقة المسرّية ، والإخافة لهم ، وتخويف الناس من فتنهم بقية أيام الناصر لدين الله » .

وهنا ولأول مرة نجد شرحاً وافياً ، بقلم ابن حيان القوى الناقد ، لتلك الحركة الدينية الخطيرة ، حركة ابن مسرّة وتلاميذه ، وهى التى استحوّلت أيام الناصر لدين الله إلى جمعية سرية واسعة الانتشار . فهل كانت حقاً ، كما يصورها ابن حيان ، وكما تصورها لنا الوثيقة الخلافية ، التى ينقلها إلينا ، جمعية مارقة ملحدة ، تهدد العقائد والنظام والأمن ؟ أم هل كانت حركة تفكير فلسفى حر ، لم يتسع لها أفق التفكير المعاصر ، وكانت كمعظم الحركات المماثلة ضحية لنقمة المتزمتين الرجعيين من الفقهاء والحكام ، يدافعون بسحقها عن نفوذهم وسلطانهم المطلق ؟ .

الفصل الثاني

خلال الناصر وماثره

عصر الناصر أعظم عصور الإسلام بالأندلس . منشآت الناصر . مشروع بناء الزهراء . البدء في إنشائها . قصر الزهراء وفخامته وروعته . منشآت الزهراء الأخرى . بعض أوصاف وأرقام عن الزهراء . نهاية الزهراء كقاعدة ملوكية . تخريبها أيام الثورة . بعض ما قيل في رثائها . أطلال الزهراء واختفاؤها . جهود العلماء الإسبان للكشف عن مواقعها . وصف لما ظهر من آثارها ومعالمها . منشآت الناصر بالمسجد الجامع . تنظيم الناصر للجيش والأسطول . الأحوال المالية في عهد الناصر . غنى الدولة الأموية وبلذتها . إنشاء دار السكة بقرطبة . قرطبة وعظمتها . اصطفاة الدولة الأموية للموال والصقالبة . حرص الناصر على السلطان المطلق . الصقالبة ونفوذهم . أثر هذا الاصطفاء . قرطبة مركز الجاذبية الدبلوماسية . تقدم الصلات الدبلوماسية بين الإسلام والنصرانية . سفارة قيصر قسطنطينية إلى الناصر . حفل استقبال السفراء وروعته . هدايا قيصر إلى الناصر . خطاب القاضي منذر بن سعيد . سفارات ملوك النصرانية . سفارة إمبراطور ألمانيا . سفارة الناصر إلى الإمبراطور . موضوع المفاوضات بين العاهلين . رأى الناصر في نظام الحكم . سفارات نصرانية أخرى إلى الناصر . مرض الناصر ووفاته . خلالة وصفاته . حجابيه ووزراؤه وقواده . الوزراء وأصحاب الخطط . تنويه الشعر بعظمة عصره . صفة الناصر . أبنائه . إشادة النقد الحديث بمناقبه .

ننتقل الآن إلى ناحية أخرى من نواحي عصر الناصر .

كان عصر عبد الرحمن الناصر بالرغم مما شغله من فتن وحروب مستمرة ، عصر عظمة ورخاء ومجد ، بل كان في الواقع أعظم عصور الإسلام بالأندلس ، ولاسيما من نواحيه المعنوية والحضارية . وإذا كانت الأندلس قد بلغت فيما بعد في عصر المنصور بن أبي عامر ، ذروة تفوقها السياسي والحربي في شبه الجزيرة الإسبانية ، فإن الدولة الأموية بالأندلس بلغت في عهد الناصر ذروة القوة والبهاء ، وكان هذا العهد حد الفصل بين مراحل تقدمها وازدهارها ، ومراحل انحلالها وسقوطها .

ولم تحل مهام الحرب والسياسة دون قيام الناصر بأعمال الإنشاء العظيمة ، وكان في مقدمتها إنشاء مدينة الزهراء أعظم قواعد الأندلس الملوكية . وكانت قرطبة عاصمة الأندلس قد بلغت يومئذ أوج العظمة والازدهار ، وأضحت تفوق بغداد منافستها في المشرق بهاء وفخامه . وكان الناصر قد ابتنى إلى جانب القصر الزاهر

وهو مقام الملك ، قصرأ جديداً سماه دار الروضة ، جلب إليه الماء من فوق الجبل ، واستدعى المهندسين والبنائين من كل فج ، وأنشأ في ظاهر قرطبة متزهات عظيمة ساق إليها الماء من أعلى الجبل فوق قناطر بديعة . ومع ذلك فقد كانت قرطبة بمعاهدها ودورها وطرقها الزاخرة ، وسكانها الخمسمائة ألف ، تضيق بما يتطلبه ملك عظيم كملك الناصر ، من استكمال الفخامة الملوكية ، والقصور والميادين والرياض للشاسعة ، بل كانت تضيق بهذه المرافق الملوكية منذ عهد عبد الرحمن الداخل ، حيث أنشأ الرصافة في ظاهرها لتكون له منزلاً ومنازها ملوكياً . وقد كان بناء القواعد الملوكية دائماً سنة العروش للقوية الممتازة . فلما بلغ الناصر لدين الله ما أراد من توطيد ملكه ، وسمح أعدائه في الداخل والخارج ، عني بأن يعرض آيات من ملكه الباذخ ، وثاب له رأى في أن يقيم بجوار قرطبة ضاحية ملوكية عظيمة ، فأنشأ مدينة الزهراء . ولإنشاء الزهراء قصة ، وربما كانت أسطورة على مثل الأساطير التي تربط بقيام المدن والمنشآت العظيمة . ولم تقل لنا الرواية إن الناصر رأى حلماً كالذي رآه قسطنطين ، وأوحى إليه بإنشاء قسطنطينية ، ولكنها تقول لنا إن الذي أوحى إلى الناصر ببناء هذه الضاحية الملوكية هي جاريته وحظيته «الزهراء» وأنه ورث من إحدى جواريه مالا كثيراً ، فأمر أن ينحصر لافتداء الأسرى المسلمين ، ولكنه لم يجد من الأسرى من يفتدى ، فأوحت إليه «الزهراء» بأن ينشئ بهذا المال ، مدينة تسمى باسمها وتخصص لسكانها^(١) . بيد إنا نفضل أن نرجع مشروع الناصر إلى بواعث الملك والسياسة ، وإلى عرض فخامة الملك ، والترفع بمظاهره وخصائصه ، عن المظاهر العامة ، لعاصمة مكتظة زاخرة .

والظاهر أيضاً أن شغفا خاصاً بالعمارة والبناء ، كان يحفز الناصر ويدكي رغبته في إقامة هذه الضاحية الملوكية ، وقد كانت المنشآت والهياكل العظيمة على كر العصور مظهر الملك الباذخ ، والسلطان المؤثر ، وقد نسبت إلى الناصر في ذلك أبيات قالها في هذا المعنى :

| | |
|-------------------------------|-------------------------|
| هم الملوك إذا أرادوا ذكرها | من بعدهم فبالسن البنيان |
| أو ما ترى الهرمين قد بقيا وكم | ملك محياه حوادث الأزمان |
| إن البناء إذا تعاظم شأنه | أضحى يدل على عظيم الشأن |

وهكذا اختطت الزهراء في ساحة تقع شمال غربي قرطبة ، على قيد خمسة أميال أو ستة منها ، في سفح جبل يسمى جبل العروم^(١) . وكان البدء في بنائها في فاتحة المحرم سنة خمس وعشرين وثلثمائة (نوفمبر سنة ٩٣٦ م) . وعهد الناصر إلى ولده وولي عهده الحكم ، بالإشراف على بناء العاصمة الجديدة^(٢) ، وحشد لها أمهر المهندسين والصناع والفنانين من سائر الأنحاء ، ولا سيما من بغداد وقسطنطينية^(٣) . وجلب إليها أصناف الرخام الأبيض والأخضر والوردي من ألمرية وريته ، ومن قرطاجنة إفريقية وتونس ، ومن الشام وقسطنطينية ، وجلب إليها من سوارى الرخام أربعة آلاف وثلثمائة أربعة وعشرين سارية^(٤) . وكان يشتغل في بنائها كل يوم من العمال والفعلة عشرة آلاف رجل ، ومن الدواب ألف وخمسمائة ، ويعد لها من الصخر المنحوت نحو ست آلاف صخرة في اليوم ؛ وقدرت النفقة على بنائها بثلثمائة ألف دينار كل عام طوال عهد الناصر ، أعني مدى خمسة وعشرين عاماً ، هذا عدا ما أنفق عليها في عهد ولده الحكم^(٥) . وابتنى الناصر في حاضرتة الجديدة قصرأ منيف الذرى ، لم يدخر وسعاً في تنميقة وزخرفته ، حتى غدا تحفة رائعة من الفخامة والحلال ، تحف به رياض وجنان ساحرة ، وأنشأ فيه مجلساً ملوكياً جليلاً سمي بقصر الخلافة ، صنعت جدرانها من الرخام المزين بالذهب ، وفي كل جانب من جوانبها ثمانية أبواب ، قد انعقدت على حنايا من العاج والأبنوس المرصع بالذهب والجوهر ، وزينت جوانبها بالتماثيل والصور البديعة ، وفي وسطه صهريج عظيم مملوء بالزئبق ، وكانت الشمس إذا أشرقت على ذلك المجلس سطعت جوانبها بأضواء ساحرة^(٦) . وزود الناصر مقامه في قصر الزهراء ، وهو الجناح الشرقي المعروف بالموئس بأنفس التحف والذخائر ، ونصب فيه الحوض الشهير المنقوش بالذهب ، الذي أهدى إليه من قيصر

-
- (١) مختصر نزهة المشتاق للادريسي (طبع رومة) ص ١٩٣ ؛ والمسالك والممالك لابن حوقل ص ٧٨ . ويسمى ابن حوقل هذا الجبل بجبل بطلش .
 (٢) البيان المغرب ج ١ ص ٢٤٧ ؛ ونفع الطيب ج ١ ص ٢٦٦ .
 (٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٤ .
 (٤) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٤٦ ، ونفع الطيب ج ١ ص ٢٤٦ ، وأعمال الأعلام ص ٣٨ .
 (٥) نفع الطيب ج ١ ص ٢٦٥ .
 (٦) نفع الطيب ج ١ ص ٢٤٦ و ٢٤٧ .

قسطنطينية ، والذي جلبه من هنالك إلى قرطبة ، ربيع الأسقف . وجلب إليه الوزير أحمد بن حزم من الشام حوضاً ثانياً رائعاً ، يقوم عليه اثنا عشر تمثالا من الذهب الأحمر المرصع بالجوهر ، وهي تمثل بعض الطيور والحيوانات وتقذف الماء من أفواهها إلى الحوض^(١) . وقد دون هذه الروايات والأوصاف العجيبة ، التي تشبه أوصاف قصور ألف ليلة وليلة المسحورة ، عن قصر الزهراء ، أكثر من مؤرخ معاصر وشاهد عيان ، وأجمعت الروايات على أنه لم يكن في أمم الإسلام مثله في الروعة والإناقة والبهاء^(٢) .

وأنشأ الناصر في الزهراء أيضاً مسجداً عظيماً ، تم بناؤه في ثمانية وأربعين يوماً . وكان يعمل فيه كل يوم ألف من العمال والصناع والفنانين ، وزوده بعمد وقياب فخمة ، ومنبر رائع الصنع والزخرف ، فجاء آية في الفخامة والجمال^(٣) . وأنشئت بها مجالات فسيحة للوحوش متباعدة الساح ، ومسارح للطير مظلة بالشباك ، ودار عظيمة لصنع السلاح ، وأخرى لصنع الزخارف والحلي^(٤) . والخلاصة أن الناصر أراد أن يجعل من الزهراء قاعدة ملوكية حقة ، تجمع بين فخامة الملك الباذخ ، وصوله السلطان المؤثّل ، وعناصر الإدارة القوية المدنية والعسكرية .

واستمر العمل في منشآت الزهراء طوال عهد الناصر ، أعني حتى وفاته في سنة خمسين وثلثمائة ، واستمر معظم عهد ابنه الحكم المستنصر ، واستغرق بذلك من عهد الخليفين زهاء أربعين سنة^(٥) ؛ ولكنها غدت منزل الملك والخلافة مذ تم بناء القصر والمسجد في سنة تسع وعشرين وثلثمائة ، وبذا كانت (إلى جانب قرطبة) أول منزل للخلافة الإسلامية بالأندلس .

وقد انتهت إلينا عن هذه الضاحية الملوكية الشهيرة أوصاف وأرقام مدهشة ، تنبئ عما كانت عليه من الضخامة . فقد ذكر ابن حيان مؤرخ الأندلس أن الزهراء كانت تشغل مسطحاً قدره تسعمائة وتسعون ألف ذراع ، وأن مبانيها اشتملت على أربعة آلاف سارية ما بين صغيرة وكبيرة ، منها ما جلب من مدينة

(١) نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٦ ؛ وأعمال الأعلام ص ٣٨ .

(٢) نفح الطيب ج ١ ص ٢٧٤ ، ٢٦٥ .

(٣) نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٤ .

(٤) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٤ .

(٥) نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٤ .

رومة ، ومنها ما أهداه قيصر قسطنطينية ، وأن مصاريح أبوابها كانت تبلغ زهاء خمسة عشر ألفاً ، وكلها ملبسة بالحديد والنحاس المموه . وذكر مؤرخ آخر أن عدد الفتيان بالزهراء ثلاثة عشر ألفاً وسبعمائة وخمسين فتى ، وعدد النساء والحشم بالقصر ستة آلاف وثلثمائة ، يصرف لهم في اليوم ثلاثة عشر ألف رطل من اللحم ، سوى الدجاج والحجل وغيرها^(١) . وقد لا نجد في المنشآت الملوكية الحديثة ما يذكرنا بهذه الأرقام المدهشة ، سوى القصر البابوي أو قصر الفاتيكان الشهير برومة ، وما انتهى إليه خلال العصور المتعاقبة من الضخامة والفخامة والجلال ، فإن هذا المقام الكنسي الملوكي الفخم ، يحتوى على أربعة آلاف غرفة ، وعلى مئات الأبهاء والساحات والأروقة ، ويضم عدة أجنحة ومجالس رائعة ، أسبغ عليها أبدع ما عرف الفن الرفيع من آيات الزخرف والنقش والتصوير .

ويحدثنا الرحالة البغدادي ابن حوقل عن الزهراء — وقد زارها أيام الحكم ولد الناصر — فيصف موقعها ، ويقول «إن العمارة اتصلت بينها وبين قرطبة ، وإن لها مسجداً جامعاً دون جامع البلدة (قرطبة) في المحل والقدر ، وعلى سورها سبعة أبواب حديد ، وليس لها نظير بالمغرب فخامة حال وسعة تملك ، وابتدال بلعيد الثياب والكسي ، وفراشة الكراع وكثرة التحلى ، وإن لم يكن لها في عيون كثير من الناس حسن بارع »^(٢) .

ولكن الزهراء لم تعمر طويلاً كقاعدة ملوكية ، فقد لبثت قاعدة الملك والخلافة زهاء أربعين عاماً فقط ، ثم نزل بها الناصر سنة ٣٢٩ هـ حتى نهاية عهد ابنه الحكم المستنصر سنة ٣٦٦ هـ ، ولم يكن ذلك لأن الزهراء قد عفت كقاعدة ملوكية ، ولكن لأن تحولا خطيراً قد وقع في سلطان بني أمية عقب وفاة الحكم ، إذ استطاع الوزير محمد بن أبي عامر (الحاجب المنصور) أن يتغلب على الدولة وأن يحجر على الخليفة هشام المؤيد ولد الحكم حسباً نفصل بعد ؛ ثم رأى أن ينقل قاعدة الحكم إلى ضاحية ملوكية جديدة أنشأها لنفسه بجوار قرطبة (سنة ٣٦٨ هـ) على نهر الوادي الكبير وسماها الزاهرة ، ونقل إليها خزائن الأموال والأسلحة ودور الحكومة ، واتخذ لنفسه سمة الملك ، وتسمى بالحاجب المنصور .

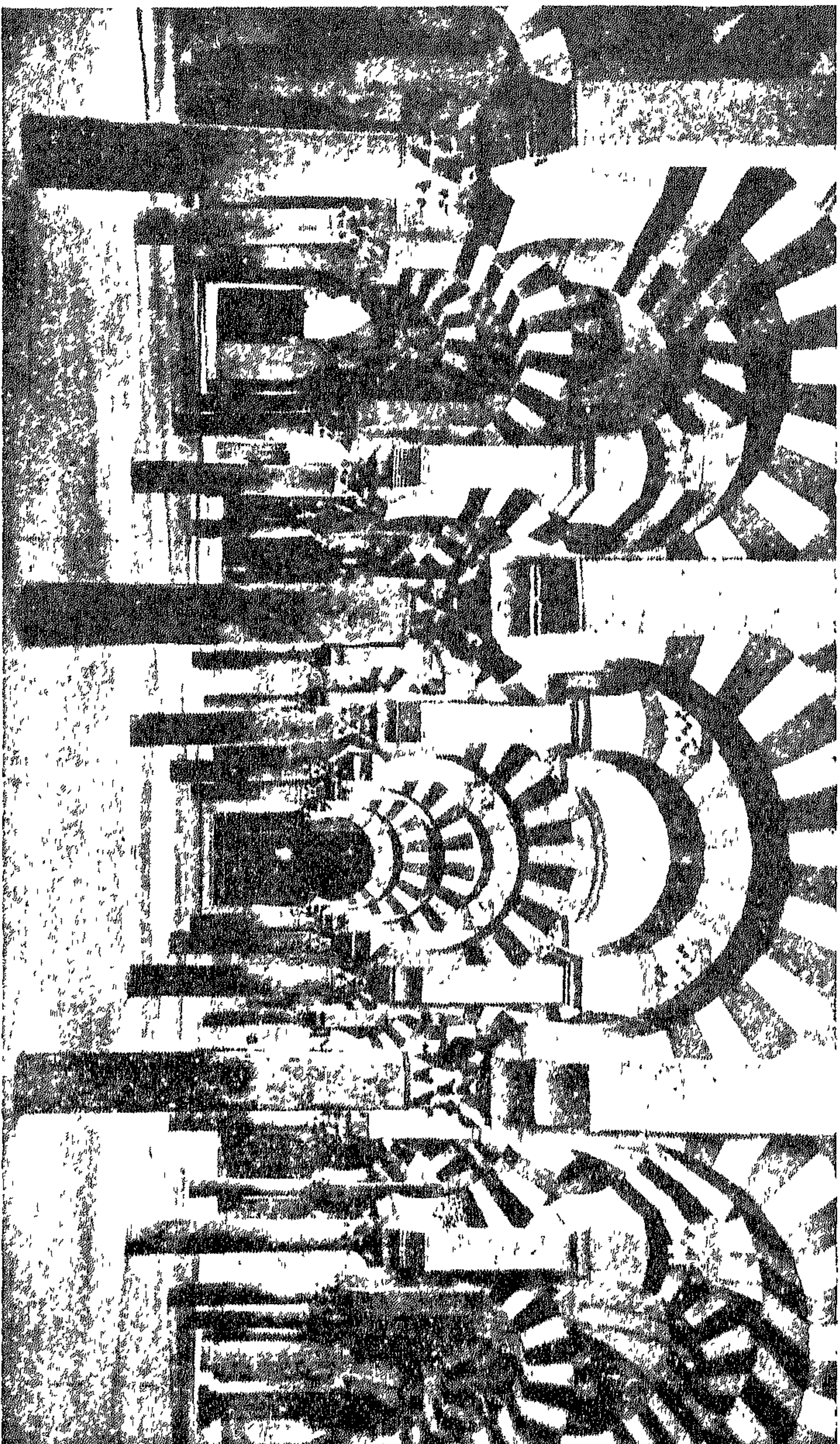
(١) نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٥ .

(٢) المسالك والممالك ص ٧٨ .

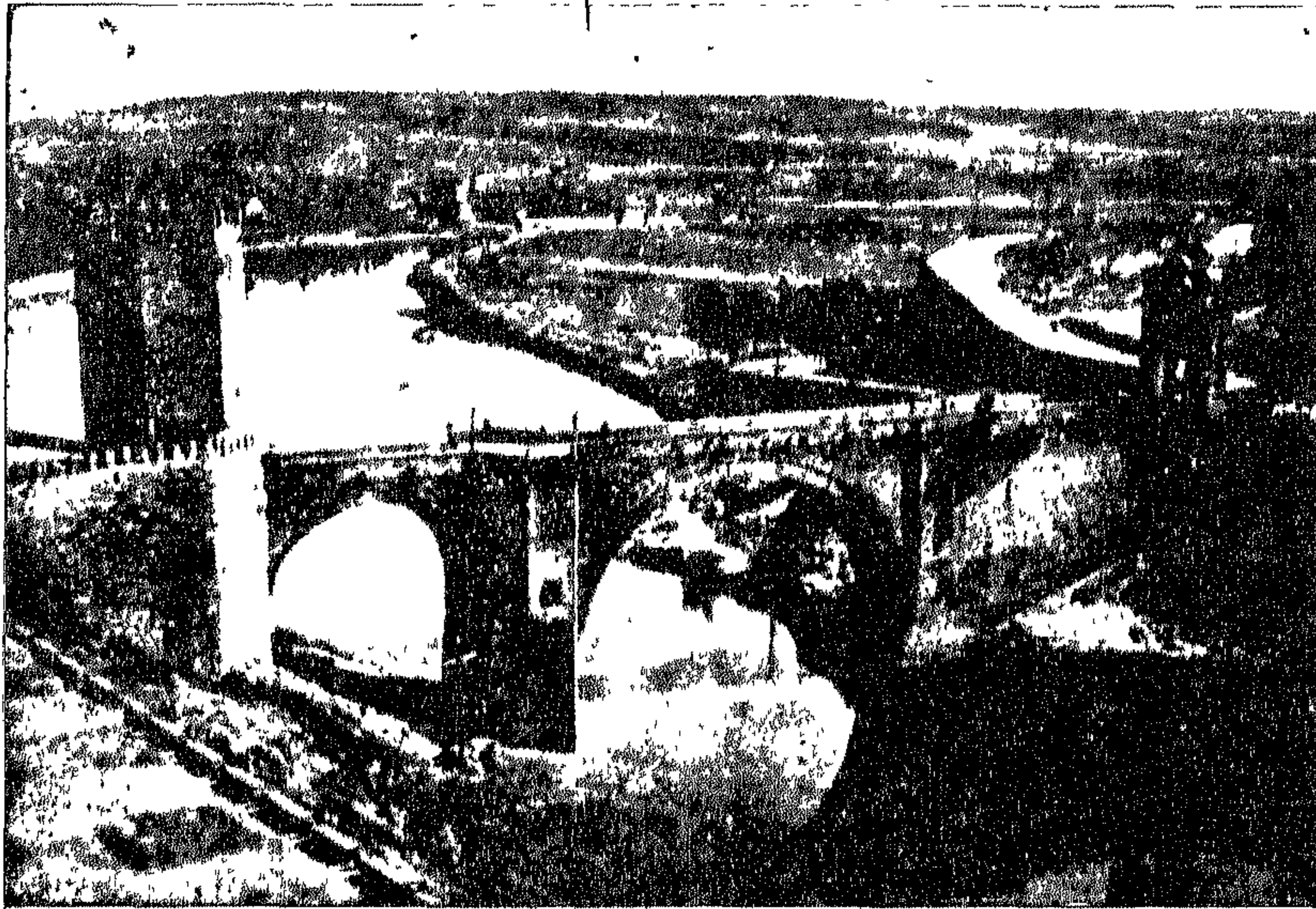
وهكذا فقدت الزهراء صفتها كقاعدة رسمية ، وشاعت الأقدار ألا تكون منزل الملك والخلافة إلا في عهد مؤسسها ، وعهد خلفه الذي أكل بناءها ، وكان قيام الحاجب المنصور في الواقع خاتمة لسلطان بني أمية ، ولم يبق بعد ذلك من دولتهم سوى الاسم . وقد بقيت الزهراء حيناً مقاماً ملوكياً للخليفة المحجور عليه — هشام المؤيد — ولكنها فقدت من ذلك الحين أهميتها السياسية وهيبتها الملوكية .

ثم كانت المحنة الكبرى بانهباء هذا الصرح البديع الذي شاده بنو أمية بالأندلس ، وانهباء الخلافة الأموية والدولة العامرية معاً ، وسقوط الأندلس صرعى الحرب الأهلية . ففي ربيع الأول سنة ٤٠١ هـ (نوفمبر سنة ١٠١٠ م) زحمت قوات البربر ومعها سليمان المستعين زعيم الثورة الأموية على قرطبة لينزعها من الخليفة هشام المؤيد ، والفتى واضح الحاجب المتغلب عليه ، واقتحموا في طريقهم مدينة الزهراء ، وفتكوا بحاميتها وسكانها ، وعاثوا في معاهدها ورياضها ، وأحرقوا المسجد والقصر ، ولبثوا بها بضعة أشهر . والظاهر أن الضربة كانت قاضية فلم يبق من الضاحية الملوكية الباهرة بعد أن غادروها سوى أطلال دارسة . ولا يكاد اسم الزهراء ، يذكر بعد ذلك في التاريخ الأندلسي ، إلا كأثر عصفت به صروف الدهر ، وقد كانت الزهراء أيام روعتها وازدهارها ، وحى الشعر الرائع والخيال الرفيع ، وقد أشاد بجمالها وفخامتها ، جمهرة من أكابر شعراء الأندلس وأمراء البيان ، ثم رثوها بعد ذلك في مقطوعات مؤثرة . ومما قاله ابن زيدون وهو من أعظم شعراء عصر الطوائف ، يشيد بالزهراء ، ورائع ذكرياتها :

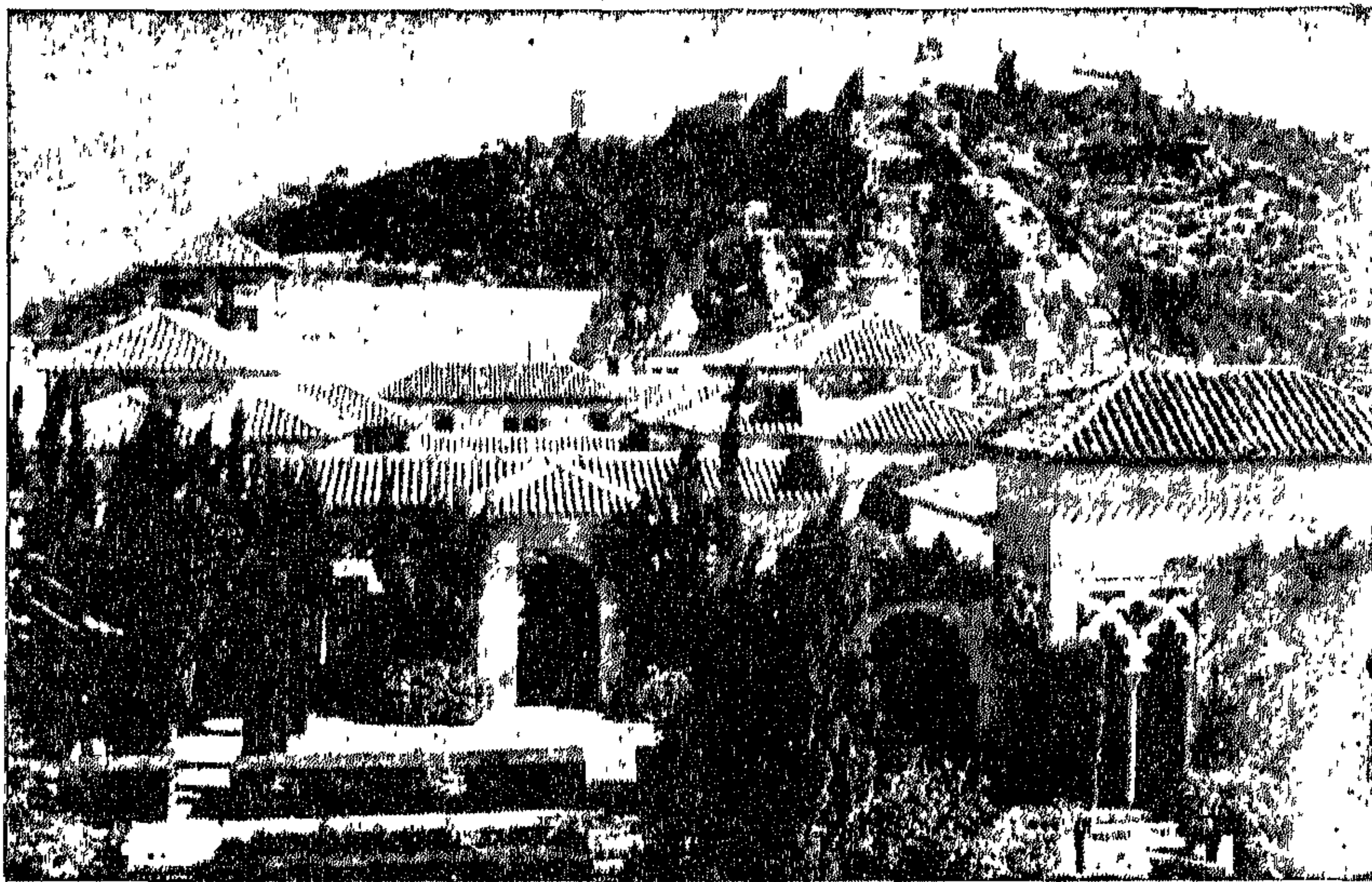
| | |
|------------------------------|----------------------------------|
| خليلى لا فطر يسر ولا أضحى | فما حال من أمسى مشوقاً كما أضحى |
| لئن شاقنى شرق العقاب فلم أزل | أخص بمخصوص الهوى ذلك السفح |
| معاهد لذات وأوطان صبوة | أجلت المعلى فى الأمانى بها قدحا |
| ألا هل إلى الزهراء أوبة نازح | تقضت مبانها مدامعه نرحا |
| مقاصير ملك أشرقت جنباتها | فخلنا العشاء الجون أثناءها صبحا |
| يمثل قرطيا لى الوهم جهرة | فقتبها فالكوكب الرحب فالسطحا |
| عمل ارتياح يذكر الخلد طيبه | إذا عز أن يصدى الفتى فيه أو يضحا |



قرية المسج الخنج . حرج تقديم الى أساءه عند الرجح الداخل وولده هنام سنة ١٧٠ - ١٧٧ هـ (٨٧٦ - ١٩٣ م)



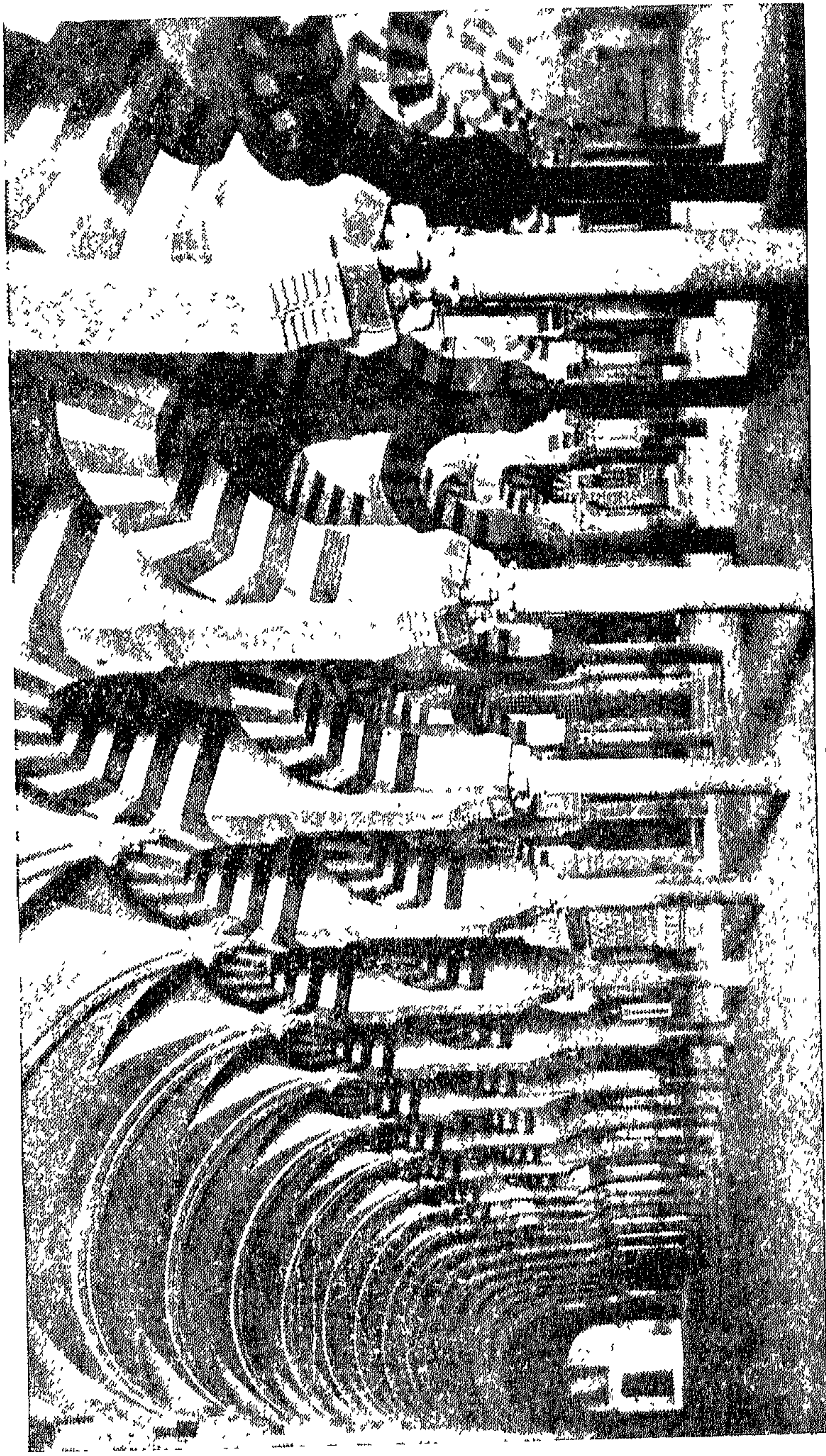
طلال : التنطرة الأندلسية المسماة قنطرة « القنطرة » Alcántara القائمة فوق نهر التاجه



مالقة : منظر عام لواجهة القسبة الأندلسية وقد ظهر في أيمنها هو وعقود يظن أنها من بقايا قصر بني حمود



مدينة الزهراء : بعض العقود والزخارف التي وجدت بين انقاص المجلس المؤنس بالقصر الخليلي وأعيد تركيبها فيما يسميه الأثريون الإسبان هو عبد الرحمن الناصر أو « هو السفراء »



قرطبة : المسجد الجامع . الحجاج الشرقى المسمى « جامع المصور » وهو الذى أنشأه المصور من أنى عاصر تشرق جامع قرطبة الكبير سنة ٣٧٧ هـ - ٨٠ هـ (٩٨٧ - ٩٩٠ م) وما يزال قائماً على حاله حتى اليوم .

هناك الحمام الزرق تندی خفافها ظلال عهدت الدهر فيها فتي سمحا
تعوضت من شدو القيان خللاها صدى فلوات قد أطار الكرى صبحا^(١)
ونقل إلينا الشيخ محي الدين بن عربي^(٢) أبياتاً ، قال إنه قرأها على بعض
جدران الزهراء بعد خرابها ، رثاء في المدينة الشهيرة وهي :

ديار بأكناف الملاعب تلمع وما إن بها من ساكن وهي بلقع
ينوح عليها الطير من كل جانب فيصمت أحياناً وحيناً يرجع
فخاطبت منها طائراً متغرداً له شجن في القلب وهو مروع
فقلت على ماذا تنوح وتشتكى فقال على دهر مضى ليس يرجع

ويرثي الفتح بن خاقان معاهد الزهراء خلال رواية نقلها عن جولة لبعض
الكبراء في تلك الأطلال : « وآثار الديار قد أشرفت عليهم كثكالي ينحن على
خرابها ، وانقراض أطرابها ، والوهي بمشيدها لاعب ، وعلى كل جدار غراب
ناعب ، وقد محت الحوادث ضيائها ، وقلصت ظلالها وأفياءها ، وطالما أشرفت
بالخلائف وابتهجت ، وفاحت من شذاهم وأرجت ، أيام نزلوا خللاها ، وتفيأوا
ظلالها ، وعمرؤا حدائقها وجناتها ، ونهبوا الآمال من سناتها ، وراعوا الليوث
في آجامها ، وأخجلوا الغيوث عند انسجامها ، فأضحت ولها بالتداعي تلفع
واعتجار ، ولم يبق من آثارها إلا نوئى وأحجار ، وقد هوت قبابها ، وهرم
شبابها ، وقد يلين الحديد ، وييلي على طيه الحديد ... »^(٣) .

وكانت أطلال الزهراء ما تزال قائمة حتى القرن السابع الهجري (القرن الثالث
عشر) . وقد ذكرها الشريف الإدريسي في معجمه الجغرافي الذي وضعه في
منتصف القرن السادس الهجري (منتصف القرن الثاني عشر) ، وذكر أن بينها وبين
قرطبة خمسة أميال^(٤) ؛ وذكرها أيضاً ياقوت الحموي في معجمه الجغرافي الذي

(١) : اجمع قصيدة ابن زيدون برمتها في ترجمته في « قلائد العقيان » للفتح بن خاقان ص ٧٢ .

(٢) : هو من أكابر متصوفة الأندلس وعلمائها في أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع

الهجري ، وقد نقل إلينا هذه الرواية والأبيات في كتابه الشهير « محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار » .

(٣) : راجع قلائد العقيان في ترجمة المعتمد بن عباد ص ١٠ .

(٤) : راجع نزهة المشتاق (المختصر) طبع رومة - ص ١٩٣ .

وضعه في أوائل القرن السابع الهجرى^(١) . وفي شوال سنة ٦٣٣ هـ (١٢٣٦ م) كانت نكبة الأندلس ونكبة الإسلام ، بسقوط قرطبة في أيدي الإسبان ؛ فطويت بذلك أسطح صحف الإسلام وصحف الخلافة في الأندلس . وكانت قرطبة قد فقدت أهميتها السياسية منذ الثورة وسقوط الدولة الأموية ، ولكنها لبثت بعد ذلك عصراً تحتفظ بهبتها الخلافة القديمة . ومن المرجح أن أطلال الزهراء بقيت بعد سقوط قرطبة في أيدي الإسبان عصراً يصعب تحديده ، غير أن قرطبة فقدت في ظل سادتها الجدد صبغتها ومعالمها الإسلامية بسرعة ، ولم يبق اليوم من آثارها وصروحها الإسلامية سوى مسجدها الجامع ، الذي ما يزال بالرغم من تحويله إلى كنيسة جامعة ، يحتفظ إلى اليوم بكثير من روعته الإسلامية السالفة .

* * *

هذا وما زالت سيرة مدينة الزهراء وذكريات فخامتها الزاهية ، تحتل المقام الأول في تاريخ إسبانيا المسلمة الأثرى والفنى . وقد اهتم العلماء الإسبان منذ نحو قرن بالكشف عن معالمها وأطلالها ، لما يلقيه ذلك الكشف من أضواء هامة على أحوال الخلافة الأندلسية ونظمها الإدارية والاجتماعية ، وعلى تطور الفن الأندلسي في أزهى عصوره . وعينت الحكومة الإسبانية منذ بداية القرن الحالى ، بإجراء الحفريات الأثرية للكشف عن صروح المدينة الخلافة . وبالرغم من أن جهود اللجان الأثرية المتعاقبة التى اضطلعت بهذا العمل ، لم تكن متواصلة أو ذات نطاق واسع ، فقد استطاع الأثريون الإسبان أن يكشفوا عن كثير من معالم الزهراء ، ومواقع صروحها ، وأبنائها الملوكية .

وقد أتيت لنا أن نزور معالم الزهراء وأطلالها غير مرة ، خلال زيارتنا لعاصمة الخلافة القديمة^(٢) . وتقع هذه الأطلال الضخمة غربى قرطبة على بعد نحو سبعة أميال منها ، وشمالى نهر الوادى الكبير على قيد ميلين ، وتحتل منحدرأ ضحياً وعراً يقع أسفل الأكمة التى يحتلها دير سان خيرنمو San Jeronimo الشهير ، الذى يقال إنه بنى بأنقاض قصر الزهراء . وتسمى هذه المنطقة التى تحتلها أطلال الزهراء « قرطبة القديمة » Córdoba la vieja .

(١) راجع معجم البلدان تحت كلمة الزهراء (مصر) ج ٤ ص ٤٢١ .

(٢) قمنا بزيارة أطلال الزهراء لآخر مرة في مايو سنة ١٩٦٣ .

وتشمل الحفريات الأثرية التي يقوم بها العلماء الإسبان منذ سنة ١٩١٠ منطقة واسعة ، تمتد ١٥١٨ متراً من الشرق إلى الغرب و ٧٤٥ متراً من الشمال إلى الجنوب . ومع أن هذه المنطقة لم تكشف كلها فإن ما كشف حتى الآن من الأطلال الضخمة ، ومن نقوشها وزخارفها التي مازال بعضها قائماً في بعض الجدران ، والتي تتمثل بالأخص في مئات القطع الرخامية الزخرفية التي وجدت ، يكفي لتكوين فكرة عامة ، عن هندسة المدينة الملوكية ومنعتها وفخامة صروحها الذهبية .

وتنقسم أطلال الزهراء بصفة عامة إلى مجموعات ثلاث ، مدرجة من أعلى إلى أسفل . وتشمل المجموعة الأولى مواقع القصر الخلفي والمقام الخاص . وتشمل الثانية فيما يبدو مساكن الحاشية والحرس . وتشمل المجموعة الثالثة ، وهي الواقعة أسفل الربوة ، في بسيط معتدل من الأرض ، أربعة أفنية كبيرة عالية ، هي التي يجري اليوم ضمها وإعادة تشكيلها ، فيما يظن أنه البهو العظيم الذي كان مخصصاً لاستقبال الملوك وأكابر السفراء .

وقد تم الكشف عن هذا البهو الذي يعتبر أعظم ما كشف حتى اليوم من آثار الزهراء في سنة ١٩٤٤ ، ووجدت سائر حطامه وزخارفه مدفونة تحت الانقراض . ويعكف الأثريون الإسبان منذ أعوام على إقامة الصرح وتنسيقه ، مما وجد من أنقاضه وأعمدته وزخارفه . وقد أقيم حتى اليوم في وسطه ما اصطلاح على تسميته « بهو السفراء » أو باسمه التاريخي « المجلس المونس » ، وهو عبارة عن أربعة أفنية متلاصقة تبلغ واجهتها نحو أربعين متراً ، وقد قسمت من الداخل إلى ثلاث أروقة مستطيلة ، يتوسطها رواق رابع ذو عقود من الجانبين . ويقوم كل فناء منها على خمسة عقود ، وقد ركب على هذه العقود ما وجد بين الأطلال من رؤوس وقواعد رخامية مزخرفة ، وفي وسط الرواق الثالث عقد جميل عال يفضي إلى بهو داخلي ، زين جانباؤه بالزخارف الرخامية ، ويبلغ طول كل رواق من الأروقة المذكورة نحو عشرين متراً ، وعرضه نحو ثمانية أمتار . وقد صنعت العقود كلها على نمط واحد ، وزينت من أعلاها بما أمكن جمعه من قطع الزخارف الرخامية التي وجدت . وقد شيدت هذه الأروقة على ارتفاع يبلغ نحو عشرة أمتار .

وقد كشفت الحفريات الأخيرة عن مجموعة جديدة من الأطلال تقع أعلى هذه الأبناء من اليسار ، وهي عبارة عن مجموعة من الغرف السكنية وبهو مستطيل ،

وهي لا تفرق كثيراً عن غيرها من المجموعات الأخرى المماثلة من حيث التخطيط ، ولكنها تكشف لنا عن حقائق معمارية وفنية هامة ، فهي المجموعة الوحيدة التي وجد بها أثر الدهان واضحاً . وقد تبين أن لون الدهان الذي كان مستعملاً في هذه المجموعات من المساكن (مساكن الحاشية) هو اللون الأحمر ، يحف به على ارتفاع نحو متر ونصف خط أبيض ، يعلوه خط أحمر ، وتبين كذلك أن البلاط المستعمل في تغطية أرض الغرف هو أيضاً أحمر اللون ، وهو قطع مربعة يبلغ ضلع الواحد منها أربعين سنتيمتراً . وتبين أخيراً أن الأحجار المستعملة في أسفل البناء ، هي أحجار كبيرة بعضها يبلغ طوله نحو ٨٠ سنتيمتراً وعرضه ٤٠ سنتيمتراً .

ولإلى جانب هذه المجموعات الحديدية من أطلال الزهراء ، توجد المجموعات القديمة ، وهي تشمل موقع القصر الخليفي والحدار الشمالي ، والفناءين التوأمين المتصلين بالمنحدر ، والفناء الصغير المتصل بقصر الخلفاء ، ومجموعة من مساكن الحرس . وترجع منطقة الحدار الشمالي إلى عصر الناصر ذاته ، وهي من منشأته في المرحلة الأولى من بناء الزهراء ، وقد أصلحت على امتداد سبعين متراً . وهذا الجزء من الحدار أمتن وأحكم صنفاً ، من قسمه الذي بنى فيما بعد في عهد الحكم المستنصر .

أما عن الفناءين المتماثلين أو الفناءين التوأمين ، فيقع أولهما على بعد ثمانية أمتار أسفل القصر الخليفي ، ويشتمل كل منهما على بهو كامل ، وهناك ما يدل على أن كلا منهما كان يحتوي على مجموعة من المساكن المماثلة المخصصة لسكنى طائفة هامة من البطانة أو الحند . يشغل الفناء الغربي رقعة ضخمة مربعة تقريباً تبلغ مساحتها نحو خمسمائة متر ، وبه أيضاً بقايا أبنية سكنية . بيد أنه لم يكتشف في هذه المنطقة أبواب أو مداخل تكشف عن حقيقة نوع هذه الأبنية ، والظاهر أن الفناء الشرقي كان موقع مسكن « للحریم » ، أو بعبارة أخرى كان جناحاً للقصر الذي تسكنه النساء والأولاد حسبما تدل على ذلك آثار أبنيته ومرافقه .

وعثر المكتشفون إلى جانب هذه المجموعات الضخمة من أطلال المدينة الخليفية ، بطائفة كبيرة من القطع الزخرفية والعقود والأعمدة والألواح والأحواض الرخامية ، ومئات من القطع والأواني الزخرفية والبللورية ، وقد جمعت كلها في متحف خاص أقيم عند مدخل « مدينة الزهراء » ، وعرضت فيه بعض القطع

والأحواض الرخامية البديعة الزخرف والنقوش ، وبعض الأواني الخزفية والبللورية المصححة ، وهذا إلى ما يوجد من تحف الزاهراء ونقوشها الزخرفية بمتحف قرطبة الأثرى ، وفي مقدمتها الوعل البرونزي الشهير الذي يعتبر من أروع القطع الفنية . نقول ، ولعل حفائر الزاهراء المستقبلية تكشف لنا عن معالم كثيرة أخرى من ضروب الفخامة والجلال ، التي كانت تتسم بها المدينة الخلافة ، والتي تحدثنا عنها الروايات المعاصرة (١) .

هذا ولم ينس الناصر أن يشمل المسجد الجامع بعنايته ، أسوة بسائر أسلافه من بني أمية ، فجدد واجهته ، وزاد فيه زيادات كبيرة (٣٤٦ هـ - ٩٥٧ م) . وكان قبل ذلك قد هدم منارته القديمة ، وأنشأ مكانها المنارة العظمى ، وذلك في سنة ٣٤٠ هـ (٩٥١ م) . وكانت منارة الناصر تمتاز بفخامتها وارتفاعها للشاهق ، وكانت مربعة الواجهات ، ولها أربعة عشرة شباكاً ذات عقود ، وتحتوى على سلمين أحدهما للصعود ، والآخر للنزول ، وقد ركب في قممها ثلاث تفاحات كبيرة ، إثنان منها من الذهب ، والثالثة من الفضة (٢) ، وكانت إذا أرسلت الشمس أشعتها عليها ، تكاد تحطف الأبصار ببريقها . وقد أزال الإسبان فيما بعد ، تلك المنارة العظيمة ، تنمة لبرناجهم في تشويه المسجد الجامع ، وأقاموا مكانها برج الأجراس الحالي .

وما زالت اللوحة التي تنوه بما قام به الناصر من تجديد واجهة الجامع قائمة إلى اليوم ، في مكانها في الجانب الأيمن من بابه الرئيسي المسمى «باب النخيل» (٣) . وقد كتب بها ما يأتي بخط كوفي جميل :

« بسم الله الرحمن الرحيم . أمر عبد الله عبد الرحمن أمير المؤمنين الناصر لدين الله أطل الله بقاءه ، ببنيان هذا الوجه ، وإحكام إتقانه ، تعظيماً لشعائر الله ،

(١) رجعنا في هذا الاستعراض لأطلال الزاهراء إلى مشاهداتنا الخاصة . وكذلك إلى البحوث الأثرية الآتية :

Medina Azzahra y Alamiya, por D.R. Velazquez Bosco (Madrid 1912)
Excavaciones del Plan nacional en Medina Azzahra (Córdoba), Campana de 1943. por R. Castéjon y Martínez de Arizala (Madrid 1945)
Nuevas Excavaciones en Medinat Al-Zahra : El Salon de Abd Al-Rahman III por R. Castéjon (Al-Andalus, Vol. X (1945) Fasc. I.

(٢) أعمال الأعلام ص ٣٨ .

(٣) وبالإسبانية Puerta de las Palmas .

ومحافظة على حرمة بيوته ، التي أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه ، ولما دعاه على ذلك من تقبل عظيم الأجر ، وجزيل الدخر ، مع بقاء شرف الأثر ، وحسن الذكر ، فتم ذلك بعون الله ، في شهر ذى الحجة سنة ست وأربعين وثلث مائة على يد مولاه ووزيره وصاحب مبادئه عبد الله بن بدر ، عمل سعيد بن أيوب^(١) .

تولى عبد الرحمن الناصر عرش مملكة تفاقمت من حولها الخطوب ، واستنفدت مواردها الثورة ، فتداركها بعزمه وقوة نفسه ، واستطاع أن يسحق خصومها في الداخل والخارج ، في سلسلة طاحنة من الحروب والغزوات المستمرة ، وأن يوطد دعائمها وأن يخضع الجزيرة لصلوتها ، وأن يكفل لها الأمن والسكينة والرخاء . ولم يفت الناصر منذ البداية أن الجيش عماد الدولة وسياج الملك ، فعكف على إصلاح الجيش الذي أضناه الكفاح ضد الثورة ، وحشد له الحند من سائر أنحاء الأندلس والمغرب ، واستكثر من الأسلحة والذخائر ، وصقلت الحروب والغزوات المستمرة كفاية الجيش ودربته ، وأمدته بطائفة من أمهر القادة وأشد هم بأساً ، ورفعت القوة المعنوية بين الصفوف . وكان لإقدام الأمير على تولي القيادة بنفسه مجدداً لعهد الحماسة الحربية والانتصارات الباهرة . وعنى عبد الرحمن في الوقت نفسه بأمر الأسطول وإصلاحه ، فأنشأ له وحدات جديدة قوية . وكانت ألمرية عندئذ مركز الأسطول الأندلسي الرئيسي ، وبها أكبر دار للصناعة . وبلغ الأسطول في عهد الناصر زهاء مائتي سفينة مختلفة الأنواع والأحجام ، وهذا عدا الأسطول المخصص لشئون المغرب البحرية ، وقد كان يضم كذلك عدداً كبيراً من السفن . وهكذا كان أسطول الأندلس في ذلك العهد من أقوى الأساطيل يومئذ ، وكان بضخامته وأهباته ، يسيطر على مياه إسبانيا الجنوبية والشرقية ، وينازع الفاطميين سيادة الشق الغربي من البحر المتوسط .

وكان عهد الناصر بالرغم من استمرار الحروب والغزوات ، كما قدمنا عهد رخاء ويسر ، توطدت فيه مالية الدولة وامتلات خزائنها بالأموال الوفيرة ، وزاد الحراج والدخل زيادة عظيمة باستتباب السكينة والأمن ، وازدهار الزراعة والتجارة والصناعة ، وكثرة الأخماس والغنائم . وإن فيما احتوته الزهراء من القصور

(١) راجع الآثار الأندلسية الباقية لمحمد عبد الله منان (الطبعة الثانية) ص ٢٠ و ٢١ و ٣٠

والمنشآت الباذخة ، وما بذل لإقامتها من النفقات مدى أعوام طويلة ، لما يستوقف النظر ، ويحمل على تأمل ذلك المدى المدهش الذي بلغته الدولة الأموية بالأندلس في عهد الناصر من القوة والضحامة والغنى . وقد انتهت إلينا في ذلك أرقام مدهشة ، منها أن جباية الأندلس بلغت في عهد الناصر من الكور والقرى خمسة آلاف ألف وأربعمائة ألف وثمانين ألف دينار ، ومن السوق والمستخلص سبعمائة ألف وخمسة وستين ألف دينار ، هذا عدا أخماس الغنائم التي لا تحصى . وقيل إن الناصر خلف عند وفاته في بيوت الأموال ما تبلغ قيمته خمسة آلاف ألف ألف (خمسة آلاف مليون) دينار . وكان يقسم الجباية من أجل النفقة إلى ثلاثة أثلاث : ثلث لنفقة الجيش ، وثلث للبناء والمنشآت العامة ، وثالث يدخر للطوارئ^(١) . ولم يتردد المؤرخ الحديث في قبول هذه الأرقام حتى أن العلامة دوزي ينقلها ، ويقدر أن الناصر ترك عند وفاته في بيت المال عشرين مليوناً من الذهب^(٢) . ويقول لنا ابن حوقل الرحالة البغدادي الذي زار قرطبة في هذا العهد ، إن الناصر كان أغنى ملوك عصره ، وإنه وبني حمدان ملوك حلب والجزيرة أغنى ملوك العالم في ذلك العصر^(٣) . وهذه أرقام وروايات تشهد بضحامة الدولة الأموية وغناها الطائل في عصر الناصر ، وتفسر لنا كيف استطاع الناصر إلى جانب حروبه غزواته ، أن يضطلع بكثير من المنشآت العظيمة .

هذا ، وقد كان مما عني به الناصر تنظيم العملة ، وتثبيتها ، فأمر في سنة ٣١٦هـ ، باتخاذ دار السكة داخل مدينة قرطبة لضرب العين من الدنانير والدراهم ، فاتخذت هناك على رسمه ، وولى خطتها أحمد بن محمد بن حدير ، وذلك في ١٧ من شهر رمضان من هذه السنة ، فقام بالضرب فيها من هذا التاريخ ، من خالص الذهب والفضة ، وبذل جهده في الاحتراس من المدلسين ، فأصبحت دنانيره ودراهمه عياراً محضاً . وقد كان ضرب النقد معطلاً قبل الناصر ، وكان لهذا الإجراء أثره في تثبيت العملة واستقرار التعامل^(٤) .

(١) نفع الطيب ج ١ ص ١٧٧ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٤٧ ، وأعمال الأعلام ص ٣٨ .

(٢) Dozy : Hist. Vol. II. p. 178

(٣) ابن حوقل ، المسالك والممالك ص ٧٧ .

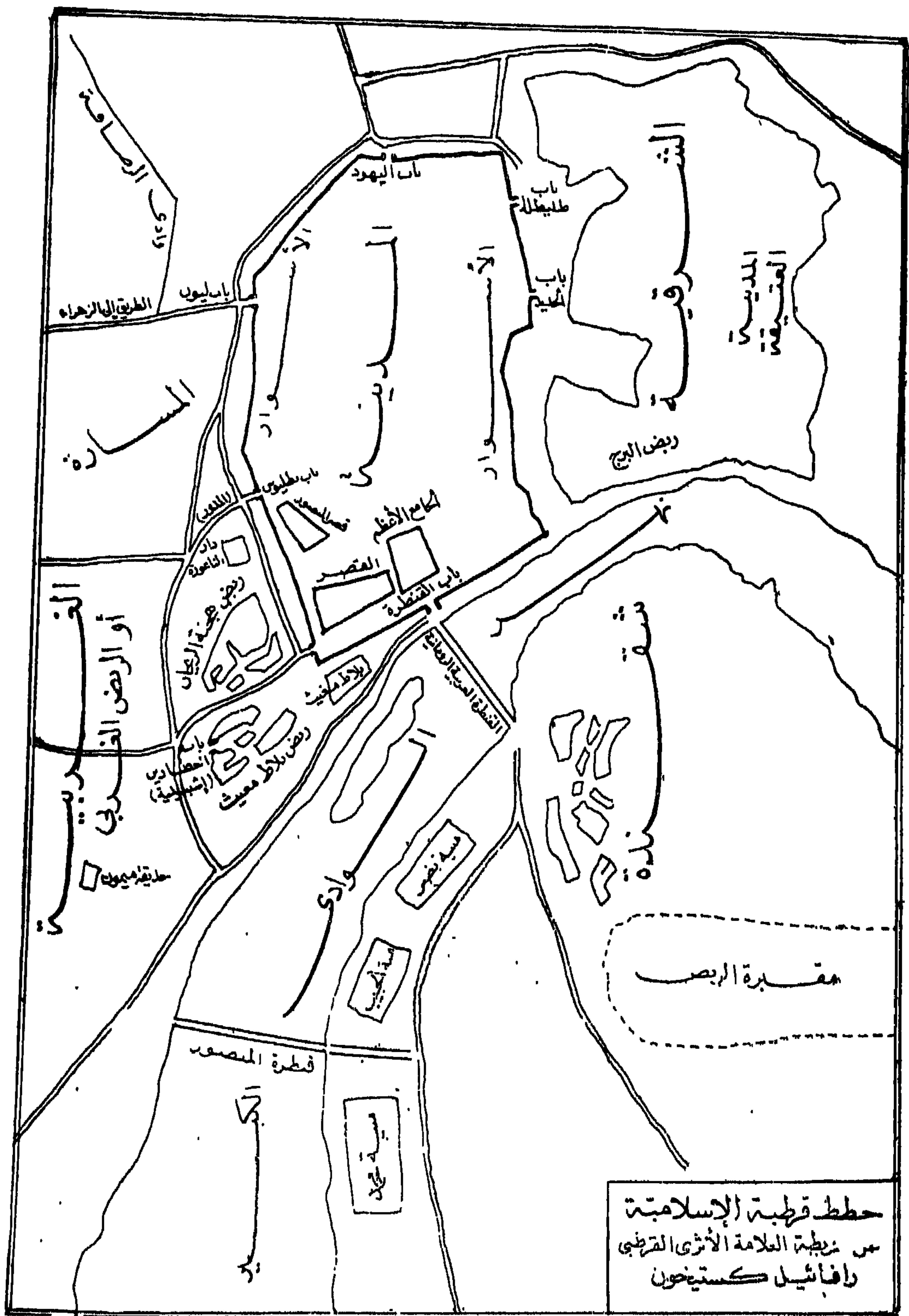
(٤) ابن حيان - السفر الخامس - مخطوط الخزانة الملكية لوحة ٩٩ ب .

وبلغت الأندلس في عهد الناصر ذروة الرخاء والنماء والأمن والعزة ، وازدهرت الزراعة والتجارة والصناعة والعلوم والآداب والفنون ، وشمل الأمن سائر أطراف المملكة ، ورخصت كلفة العيش . ونمت قرطبة نمواً عظيماً حتى بلغ سكانها أكثر من خمسمائة ألف ، وبلغت مساجدها ثلاثة آلاف ، ومنازلها أكثر من مائة ألف ، وحماماتها العامة ثلاثمائة ، وبلغت أرباضها أو ضواحيها ثمانية وعشرين ، هذا عدا المدينة الوسطى ، وكان لقرطبة يومئذ سبعة أبواب : باب القنطرة ، وباب اليهود ، وباب عامر ، وباب العطارين ، وباب طليطلة ، وباب عبد الجبار ، وباب الجوند . وكان للقصر الأموي ستة أبواب : باب السدة ، وباب الحنان ، وباب العدل ، وباب الصناعة ، وباب الملك ، وباب السباط ، وهو في المسجد الجامع . وازدانت قرطبة بعدد كبير من القصور والمتنزهات الفخمة ، ودوت شهرتها في الآفاق ، ووصلت إلى قاصية الشمال ، حتى أن الراهبة السكسونية هروسوفيتا التي اشتهرت بنظمها في أواخر القرن العاشر ، أشادت في قصائدها اللاتينية بمحاسن قرطبة ووصفتها بأنها « زينة الدنيا » (١) .

— ٣ —

كانت سياسة الدولة الأموية بالأندلس تقوم منذ البداية على اصطناع الموالي والصقالبة واتخاذهم أداة وبطانة ، وكان مؤسسها عبد الرحمن الداخل قد عمد بتأثير الظروف العصبية التي أحاطت بقيام ملكه ، والخطوب والثورات الجمة التي أثارها خصومه ومنافسوه من زعماء القبائل العربية ، إلى الاسترابة بالعرب ، واصطناع البربر والموالي الذين آزره وقت المحنة ، ومكنوه من توطيد زعامته وإمارته . وقد حافظ خلفاء الداخل على هذه السياسة في جوهرها . ومنذ عهد الحكم المنتصر (١٨٨ - ٢٠٦ هـ) نرى نفوذ الموالي والصقالبة يشتد في البلاط وفي الدولة . وكان الحكم يعيش مظاهر الفخامة والملك والباذخ ، فغص البلاط الأموي في عهده بالخدم والحشم ، من المماليك والصقالبة ، بيد أن نفوذهم لبث مدى حين بعيداً عن شئون الدولة العليا ، قاصراً على شئون القصر والخاص . واقتنى عبد الرحمن الناصر أثر سياسة جده الداخل ، في الاسترابة بالقبائل

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٤٧ . وكذلك Dozy : Hist. Vol. II. p. 174



العربية ذات البأس والعصبية ، وفي إقصاء زعمائها عن مناصب النفوذ والثقة ، واستأثر بكل سلطة حقيقية في الدولة ، وجمع مقاليد الحكم كلها في يده ، فلم يبق سلطة فعلية لحاجب أو وزير . وكان الناصر حريصاً على سلطانه المطلق ، لا يني عن سحق كل من حدثته نفسه بالوقوف في سبيله ، ولو كان أقرب الناس إليه . ولما نمي إليه أن ولده عبد الله يأتمر به مع بعض فتيان القصر ورجال الدولة ، لأنه آثر أخاه الحكم بولاية العهد وتصريف الشئون ، وأن جماعة من أهل قرطبة بايعوه بالخلافة ، لم يحجم عن أن يقضى بإعدامه ، وإعدام جميع من اتجهت إليهم شبهة الاشتراك معه ، وكان ذلك في سنة ٣٣٨ هـ (٩٤٩ م) . وكان عبد الله من أفضل أبناء الناصر علماً وعقلاً وبصراً بالأمور ، وكذلك قضى الناصر بإعدام بعض أبناء عمومته وأخيه القاضي ابن محمد حين قامت الأدلة على ائتمارهم به^(١) .

وعهد الناصر بالمناصب الكبيرة إلى رجال وضيعى المنبت من الصقالبة والموالي المعتقين أو الأرقاء ، وهم رجال لا إرادة لهم يوجههم كيفما شاء ، وكان يثق بالصقالبة بنوع خاص ، ويوليهم من الساطان والنفوذ ما لا يوليه سواهم^(٢) .

وقد كانت كلمة « الصقالبة » تطلق في الأندلس على الأسرى والخصيان من الأجناس الصقلية (السلافية) الحقيقية ، ثم غدت تطلق بمضى الزمن على جميع الأجانب الذين يعملون في البطانة وفي القصر . وكان أولئك الصقالبة مزيجاً من الحلقيين (النصارى الإسبان) والألمان والفرنسيين واللونبارد والإيطاليين^(٣) ، وكان معظمهم يوثق بهم أطفالاً بواسطة خوارج البحر (القراصنة) وتجار الرقيق ، وكانوا يختارون من الجنسين ، ويربون منذ الحداثة تربية عربية حسنة ، ويلقنون مبادئ الإسلام ، وقد نبغ بعضهم في النثر والنظم وصنفوا الكتب والقصائد . ومنذ عهد الناصر يشتد نفوذ الصقالبة في شئون الإدارة والحكم ، فضلاً عن القصر والخاص ، ويعهد إليهم بالمناصب الكبرى في القصر والإدارة والجيش ، وما لبث أن سما شأنهم وتوطد سلطانهم ، وأحرزوا الضياع والأموال الوفيرة ، وفاق عددهم في عهد الناصر أي عهد آخر ، حتى قدر بعض المؤرخين عددهم

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٣ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٤٤ ، وأعمال الأعلام ص ٣٩ .

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٣٨ .

(٣) ابن حوقل في المسالك والممالك ص ٧٥ ، وكذلك Dozy : Hist. Vol. II, p. 158 .

يومئذ في القصر والبطانة ، بثلاثة عشر ألفاً وسبعمائة وخمسين ، وبلغوا في رواية أخرى سبعة آلاف وثمانين . ويقول لنا ابن الخطيب إن عدد الفتيان الصقالبة بمدينة الزهراء كان عند وفاة الناصر ثلاثة آلاف وسبعمائة وخمسين ، وعدد النساء بالقصر ستة آلاف وسبعمائة وخمسين ، تجرى عليهم جميعاً رواتب الطعام بسائر صنوفه^(١) . وعلى أي حال فقد كان من أولئك الصقالبة الحرس الخلفي ، ورجال الخاص والحشم ، وكان الناصر يمد لهم في السلطان والنفوذ ، ويرغم أشرف العرب وزعماء القبائل على الخضوع لهم ، ليدل بذلك أنوفهم ويسحق هيبتهم^(٢) . بل كان منهم في عهد الناصر قائد الجيش الأعلى نجدة ، ومعظم أكابر القادة والضباط ، وكان منهم أفلح صاحب الخيل ، ودرى صاحب الشرطة ، ومنهم ياسر وتمام صاحباً النظر على الخاص^(٣) . وكان لهذه السياسة غير بعيد ، أسوأ الأثر في انحلال الجيش وفتور قواه المعنوية ، لما جاشت به صدور الضباط والجند العرب ، من الحفيظة والسخط على هذه السياسة المهينة ، وكانت هزيمة الناصر في موقعة الخندق الشهيرة (الأنديجا) (٣٢٧ هـ) ، ترجع من وجوه كثيرة إلى هذا الانحلال المعنوي ، الذي سرى إلى الجيش من جراء الأحقاد القومية والطائفية^(٤) .

كانت الأندلس بما اجتمع لها في عهد الناصر من أسباب القوة والسلطان ، قد تبوأ مركز الصدارة بين الدول الإسلامية ، وكانت الدولة العباسية قد دخلت يومئذ في دور انحلالها ، ولم تكن الدولة الفاطمية الفتية منافستها في المشرق ، قد بلغت يومئذ ذروة قوتها ونفوذها ، فكانت الأندلس تستأثر يومئذ بزعامة الإسلام . وكانت قرطبة مركز الحاذبية الدبلوماسية في العالم الإسلامي ، تتجه إليها أبصار الدول النصرانية في طلب المودة ، وعقد العلائق الدبلوماسية ؛ وكانت قسطنطينية مركز هذه الحاذبية الدبلوماسية بين أمم النصرانية حتى القرن الثامن . ثم نافستها في ذلك مملكة الفرنج القوية مدى حين ، فلما اضمحل شأن المملاكة

(١) أعمال الأعلام ص ٤٠ و ٤١ .

(٢) Dozy : Hist. Vol. II. p. 158 . وراجع نفح الطيب ج ١ ص ٢٦٥ .

(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ١٢٣ ؛ ونفح الطيب ج ١ ص ١٧١ .

(٤) Dozy : Hist. V. II. p. 153

الفرنجية ، استردت قسطنطينية زعامتها الدبلوماسية في النصرانية . ولما قامت الإمبراطورية الجرمانية في القرن العاشر ، استطاعت أن تبسط زعامتها السياسية على أواسط أوربا وغربها ، وهكذا كانت زعامة النصرانية تتردد في هذه الحقبة بين شرق أوربا وغربها . هذا بينما لبثت قرطبة تستأثر وحدها بزعامة الإسلام في الغرب حتى نهاية القرن العاشر .

وقد كان هذا العصر الذي اجتمعت فيه تلك الزعامات الدينية والسياسية القوية ، أحفل العصور بصلات الإسلام والنصرانية . فكانت ثمة معاهدات وسفارات ومراسلات وعلاقات دبلوماسية ، بين قرطبة وبين معظم الأمم النصرانية ، وقد بلغت هذه الصلات ذروتها في عصر الناصر لدين الله ، وتوالت وفود الأمم النصرانية يومئذ على بلاط قرطبة ، تنشُد الخلف والصداقة والمهادنة ، من زعيم الإسلام في الغرب .

وكان بلاط قسطنطينية بالرغم من نأيه عن مقر الخلافة الأندلسية ، وعدم اتصاله بها ، بأية حدود أو صلات جغرافية مشتركة ، في مقدمة الساعين إلى توثيق الروابط الودية مع بلاط قرطبة . ففي سنة ٣٣٦ هـ (٩٤٨ م)^(١) ، وفدت على الناصر رسل قسطنطين السابع قيصر قسطنطينية المعروف «بيورفيروجنتوس»^(٢) ومعهم طائفة من الهدايا النفيسة . وتقدم إلينا الرواية الأندلسية عن هذه السفارة تفاصيل شائقة ، تأتي ضوءاً على نظم الرسوم الدبلوماسية في هذا العصر ، فتقول لنا إن الناصر بعث رسله للقاء السفراء البيزنطيين حين وصولهم إلى الشاطئ لإرشادهم وخدمتهم ، ولما وصل الركب إلى مقرية من قرطبة ، بعث بعض قواته للاحتفاء بهم ، ثم بعث الفتية يأسراً وتاماً فصحباهم إلى دار الضيافة ، بقصر ولي العهد الحكم ، في ربض قرطبة ، ومنعوا من لقاء الخاصة والعامة ، ورتب لخدمتهم طائفة من الموالى والحشم . وفي اليوم الحادى عشر من

(١) هذه هي رواية ابن خلدون (ج ٤ ص ١٤٢) . وفي رواية أخرى أنها وقعت سنة ٣٣٨ هـ (نفع الطيب ج ١ ص ١٧١) . وذكر الطبيب الأندلسي ابن جليجل وقد عاش قريباً من عصر الناصر ، أنها وقعت في سنة ٣٣٧ هـ (راجع طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة - طبعة ميللر - ج ٢ ص ٤٤٧) . وذكر صاحب البيان المغرب أنها وقعت في سنة ٣٣٤ هـ (ج ٢ ص ٢٣٩) . ولم نعثر في تواريخ الدولة البيزنطية على تفاصيل هذه السفارة ، ولكن الرواية الإسلامية واضحة جلية .

(٢) ومعناها الأرجواني .

ربيع الأول من السنة المذكورة ، خرج الناصر من قصر الزهراء إلى قصر قرطبة لاستقبالهم ، وجلس في بهو المجلس الزاهر ، وكان يوماً مشهوداً من أيام الأندلس . فركبت الخند بالسلاح في أكمل شكل ، وزين القصر الخلفي بأنواع الزينة وأصناف الستور ، وحفل السيرير الخلفي بمقاعد الأبناء والإخوة والأعمام والقراية ، وجلس عن يمين الخليفة ولده وولى عهده الحكم ، وجلس باقى أولاده يميناً وشمالاً ، ورتب الوزراء في مراتبهم ، وغص المجلس برجال الدولة والقادة والعظماء والزعماء من كل ضرب . ودخل سفراء ملك الروم ، فبهروهم ما رأوا من روعة الملك وفخامة السلطان ، وقدموا الهدايا التي يحملونها . وذكر لنا الطبيب الأندلسي أبو داود سليمان بن حسان المعروف «بابن جليلجل» الذي عاش في عصر هشام المؤيد حفيد الناصر ، أنه كان في مقدمة هدايا أرمانئوس ملك الروم إلى الناصر سفيران جليلان من كتب الأقدمين ، أحدهما نسخة مصورة أبدع تصوير من كتاب ديسقوريدس^(١) عن الحشائش ، مكتوبة بلغة مؤلفها أى باليونانية ؛ والثاني نسخة من تاريخ أورسيوس (هروسيوس)^(٢) مكتوبة باللاتينية ، وهو المتضمن لتاريخ العالم القديم ، وأقاصيص الملوك السابقين^(٣) . وقدم الرسل كتاب القيصر قسطنطين السابع ، وقد كتب في رق ذى لون سماوى باللغة اليونانية ، وداخل الكتاب مدرجة مصبوغة ومكتوبة بنفس اللغة ، فيها وصف هدايا الإمبراطور ، وعلى الكتاب طابع ذهبي ، على إحدى وجهيه صورة للمسيح ، وعلى الوجه الآخر صورة الإمبراطور قسطنطين ، مصنوعة من الزجاج الملون البديع . وكان في ترجمة عنوان الكتاب في سطر منه : « قسطنطين ورومانين

(١) ديسقوريدس **Dioscorides** طبيب وكيميائي يوناني . أصله من كلبيكية بآسيا الصغرى . وقد عاش في القرن الأول للميلاد ، واشتهر بكتابه عن مركبات الأدوية . وهو ما يزال يعتبر ذا قيمة علمية حتى عصرنا ، وكان يعتبر حتى القرن السابع عشر أثمن مرشد لخواص الأعشاب الطبية .

(٢) باولوس أورسيوس **Paulus Orosius** حبر ومؤرخ إسباني (قوطي) عاش في القرن الخامس الميلادي ووضع باللاتينية تاريخاً للخليفة في عصره . وقد اشتهر تاريخه بالرغم من وكاكتيه وكثرة تحريفاته ، وانتفع به كثير من المؤرخين اللاحقين . وعرفه المؤرخون المسلمون ونقلوا عنه . وأشار إليه ابن خلدون في مواضع عديدة من تاريخه ، وتعرفه الرواية الإسلامية بهروسيوس أو هرثيوش .

(٣) راجع رواية ابن جليلج متصلة في كتاب طبقات الأطباء ، في ترجمة ابن جليلجل (ج ٢ ص ٤٤٧) .

المؤمنان بالمسيح الملكان العظيمان ملكا الروم»^(١)، وفي سطر آخر صيغة التوجيه : «العظيم الإستحقاق للفخر ، الشريف النسب عبد الرحمن الخليفة ، الحاكم على العرب بالأندلس ، أطال الله بقاءه» . وذكر لنا ابن جُلجل أن ملك الروم كتب إلى الناصر في شأن كتاب ديسقوريدس أنه لا تجنى فائدته إلا بواسطة شخص يجيد اليونانية ، وأنه لم يكن في قرطبة يومئذ من يحسن هذه اللغة ، وأن الناصر كتب في خطابه إلى «أرمانوس» فيما بعد ، أن يرسل إليه رجل يتكلم اليونانية واللاتينية ، فبعث إليه براهب يدعى نيقولا ، فحظى عند الناصر ، وتوفر على تفسير كتاب ديسقوريدس وشرح محتوياته لأطباء قرطبة . وأما كتاب أورسيوس المكتوب باللاتينية فقد كان في بلاط قرطبة من يجيدها^(٢) . وكان الناصر قد أمر أن يخطب الأعلام في ذلك الحفل ، وأن يعظموا من شأن الإسلام والخلافة ، وأن يشكروا نعمة الله على ظهور دينه ، وإعزاز كلمته ، وذلة أعدائه ، واستعد بعض الخطباء لذلك ، ولكن بهرهم هول المجلس فوجوا وأرتج عليهم القول ، وكان منهم اللغوى الكبير أبو علي القالى وافد العراق وضيف الخليفة — وكان قد وفد على الأندلس في سنة ٣٣٠ هـ — ، ندبه الناصر لذلك تكريماً له وتقديراً لبلاغته ، ولكنه ما كاد يبدأ خطابه ، حتى بهت وتلعثم ثم صمت ؛ فعندئذ نهض الفقيه منذر بن سعيد البلوطى دون استعداد ولا سابق توقع ، وارتجل خطاباً بليغاً ضافياً يشيد فيه بعهد الناصر ومآثره ، ثم أعقبه بقصيدة في نفس المعنى^(٣) ، فأثار بذلاقتة وثبت

(١) رومانين هـ ورومانوس الثانى ابن قسطنطين السابع ، وقد حكم بعد أبيه من سنة ٩٥٩ إلى سنة ٩٦٣ م . وتسميه الرواية الإسلامية «أرمانوس» .

(٢) راجع رواية ابن جُلجل المشار إليها في طبقات الأطباء ج ٢ ص ٤٤٧ .

(٣) نقل المقرئ عن ابن حيان وغيره ، نص الخطاب الذى ألقاه منذر بن سعيد في ذلك الحفل . وإله ليصعب علينا متى تأملنا عباراته المنمقة ، وسجعائه المرتبة ، وما يتخلله من ضروب البيان والبديع ، أن نصدق أنه خطاب مرتجل أتى عفوا الساعة . ولعله صورة منمقة منمقة للخطاب الأصل . وقد رأينا أن ننقل فقرات من ذلك الخطاب تتناول عهد الناصر بشيء من الوصف والتحليل . جاء في الخطاب بعد الديباجة ما يأتى :

« وإني أذكركم بأيام الله عندكم ، وتلافيه لكم بخلافة أمير المؤمنين ، التى لمت شعركم ، وأمنت مربيكم ورفعت قوتكم ، بعد أن كنتم قليلا فكثركم ، ومستضعفين فنصركم ، ولله الله رعايتكم وأسند إليهم إمامتكم ، أيام ضربت الفتنة سرادقها على الآفاق ، وأحاطت بكم شعل النفاق ، حتى صرتم ، في مثل حدة البعير من ضيق الحال ، وفكده العيش والتقتير ، فاستبدتكم بخلافته من الشدة بالرغاء ، وانتقلتم بين سياسته إلى تمهيد كنف العافية ، بعد استيطان البلاء . أناشدكم بالله معشر الملأ —

جنانه ، أئما إعجاب ، وأكبر الناصر همته وعلمه ، وكان هذا الخطاب المرتجل فائحة مجده ، فأغدق عليه الناصر عطفه ، وولاه القضاء ، وأصبح من رجال الدولة المشهورين .

ومن شعر منذر بن سعيد في وصف ذلك الحفل المشهود قوله :

| | |
|------------------------------|---------------------------------|
| مقالى كحد السيف وسط المحافل | فرقت به ما بين حق وباطل |
| بقلب ذكى ترتى جمراته | كبارق رعد عند رعرع الأنامل |
| فما دحضت رجلى ولا زل مقولى | ولا طاش عقلى يوم تلك الزلازل |
| وقد حدقت حولى عيون أخاها | كمثل سهام أثبتت في المقاتل |
| لخير إمام كان أو هو كائن | لمقتبل أو في العصور الأوائل |
| ترى الناس أفواجاً يؤمون بابه | وكلهم ما بين راج وآمل |
| وفود ملوك الروم وسط فنائه | مخافة بأس أو رجاء لنائل |
| فعش سالماً أقصى حياة مؤملا | فأنت رجاء الكل حاف وناعل |
| ستملكها ما بين شرق ومغرب | إلى درب قسطنطين أو أرض بابل (١) |

— ألم تكن الدماء مسفة فحقنها ، والسبل مخوفة فأمنها ، والأموال منتبهة فأحرزها وحصنها ، ألم تكن البلاد خراباً فعمرها ، وثغور المسلمين مهتضة فحمأها ونصرها .

ثم قال : « فأصبحتم بنعمة الله إخواناً ، وبلم أمير المؤمنين لشعثكم على أعدائه أعواناً ، حتى تواترت لديكم الفتوحات ، وفتح الله عليكم بخلافته أبواب الخير والبركات ، وصارت وفود الروم وافدة عليكم ، وآمال الأقبصين والأدنيين مستخدمة إليه وإليكم ، يأتون من كل فج عميق وبلد سحيق »

ثم قال : « فاستمعينوا على صلاح أحوالكم بالمناصحة لإمامكم ، والالتزام بالطاعة لخليفتمكم ، فإن من نزع يداً من الطاعة ، وسعى في تفريق الجماعة ، ومرق من الدين ، فقد خسر الدنيا والآخرة ، وذلك هو الخسران المبين . وقد علمتم أن في التعلق بمصمتها واتمسك بعروتها ، حفظ الأموال وحقن الدماء وصلاح الخاصة والدعاء ، وأن بقوام الطاعة تقام الحدود وتوفى للمهود ... فاعتصموا بما أمركم الله بالاعتصام به ، فإنه تبارك وتعالى يقول (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) ، وقد علمتم ما أحاط بكم ، في جزيرتكم هذه من ضروب المشركين وصفوف الملحدين ، الساعين في شق عصاكم ، وتفريق ملاكم الآخدين في مخاذلة دينكم وتوهين دعوة نبيكم ... الخ .

راجع خطاب ابن سعيد بأكمله في نفح الطيب ج ١ ص ١٧٢ - ١٧٣ .

(١) وقد نقل إلينا المقرئ من المغرب لابن سعيد وغيره نبذة في ترجمة القاضي منذر بن سعيد للبلوطى ، وفيها أنه ولد سنة ٢٦٥ هـ ، وبرع في علوم القرآن والسنة ، وظهر بفصاحته وذلاقتة وجزالة شعره ، وكان الخطاب الذى ارتجله في مجلس الناصر لمناسبة استقباله لرسل ملك الروم بدأ ظهوره وشهرته ، فولاه الناصر الصلاة والخطابة في مسجد الزهراء ، ثم ولاه قضاء الجماعة بقرطبة . وتوفى سنة ٣٥٥ هـ . (راجع نفح الطيب ج ١ ص ١٧٤ و ١٧٥ وكذلك قضاء قرطبة للخشى ص ١٧٥ و ١٧٦) .

ولما انصرف رسل قسطنطين ، بعث الناصر معهم سفيراً هو هشام بن هذيل بهدية حافلة ، ليؤكد المودة ويوثق عرى التحالف بين قرطبة وقسطنطينية ، فعاد بعد سنتين وقد أدى سفارته خير أداء ، وعادت معه رسل قسطنطين (١) . وتفيض الرواية الإسلامية في تفاصيل هذه السفارة إفاضة واضحة ، ولكنها لا تلتقي كبير ضوء على موضوعها وغايتها الحقيقية ، وأكبر الظن أنها لم تكن إلا تجديداً لعلائق الدولة البيزنطية مع دولة الإسلام بالأندلس ، وتوطيداً للصداقة القديمة التي رأى بلاط قسطنطينية أن يعقدها مع بلاط قرطبة منذ عهد عبد الرحمن ابن الحكم (٢) لتكون شبه تحالف ضد الدولة العباسية خصيمتهما المشتركة . وربما كانت ترمى في الوقت نفسه إلى تنظيم الخطط المشتركة بين الدولتين ، لمقاومة الدولة الفاطمية الفتية ، التي بدأت تزعج البيزنطيين في أواسط البحر المتوسط ، وتزعج حكومة قرطبة بتوغلها في المغرب الأقصى .

ثم توالى سفارات ملوك النصرانية بعدئذ على الناصر فوفدت عليه رسل ملك الصقالبة وهو يومئذ الملك بيتر أو بطرس (٣) ، فاحتفل بقدومهم كذلك وبعث معهم ربيعاً (ريفا) الأسقف سفيراً إلى ملكهم ؛ ثم وفدت رسل ملك فرنسا وهو يومئذ لويس الرابع في طلب الصداقة والمودة ، فأجابهم إلى ما طلبوا .

على أن أهم سفارة تلقاها الناصر يومئذ ، هي سفارة أوتو الأكبر إمبراطور ألمانيا ، وقد كان أوتو يومئذ زعيم النصرانية ، كما كان عبد الرحمن الناصر زعيم الإسلام . وتشير الرواية الإسلامية إلى تلك السفارة في غموض وإيجاز ، وتصف أوتو بملك الصقالبة أو ملك « اللان » وتسميه « هوتوا » أو « هوتو » (٤) ، ولكنها تتفق مع الرواية الفرنجية في تاريخ هذه السفارة وهو سنة ١٠٤٤ هـ الموافقة سنة ١٠٥٦ م . ففي ذلك العام وفد على قرطبة سفير ، وهو حبر يدعى يوحنا الجورزني نسبة إلى الدير الذي ينتمي إليه في جورزني على مقربة من متز ، وكان يوحنا من أكابر

(١) راجع في أخبار هذه السفارة البيزنطية : ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٢ و ١٤٣ ، ونفح الطيب ج ١ ص ١٧٠ - ١٧٤ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٣٩ . وراجع Aschbach : ibid B. I. p. 95-100

(٢) راجع « دولة الإسلام في الأندلس » القسم الأول ص ٢٨٢ - ٢٨٣ .

(٣) هو بطرس بن سيمون الكبير ملك بلغاريا وقد كان يومئذ يعرف بملك الصقالبة .

(٤) راجع ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٣ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٣٤ .

العلماء وأقطاب البحث والمناظرة . والظاهر أنه قد وقعت فعلاً قبل ذلك مراسلات كلامية بين الناصروأوتو عن الإسلام والنصرانية ، وأن الناصر قد عرض في بعض رسائله بالنصرانية وتعاليمها ، فألقى أوتو الفرصة سانحة لأن يدافع سفيره العلامة الذلق عن قضية النصرانية لدى خليفة قرطبة^(١) . بيد أنه يبدو من أقول الروايات الكنسية أن هذه المهمة الحدية لم تكن لإمهمة ثانوية إلى جانب موضوع سفارته الأصلية ، وأن مهمته الحقيقية كانت تتعلق بشأن توغل المستعمرات العربية المغامرة ، في جنوبي فرنسا وفي ليجوريا وسويسرة ، وعيها في تلك الأنحاء ، بصورة تبث الرعب والروع إلى كثير من المدن والجماعات النصرانية ، والاستعانة بنفوذ خليفة الأندلس الذي تنتمي إليه هذه المستعمرات من الناحية الأدبية ، لوقف عدوانها وتوغلها^(٢) . وقدم يوحنا إلى قرطبة عن طريق الرون وقطلونية برفقة راهب آخر ، ومعه طائفة نفيسة من الهدايا برسم الخليفة ، فاستقبل بحفاوة ، وأنزل في إحدى الدور الرسمية . ولكن الناصر لم يبادر باستقباله حين وقف على موضوع رسالته ، ولم يقبل بالأخص أن تكون المسائل الدينية موضوع جدل بينهما . ولما ألح يوحنا في طلب المقابلة والمحادثة ، أجاب الناصر بأنه سبق أن أرسل رسولا أسقفاً إلى أوتو فاعتقله مدى ثلاثة أعوام ، وأنه سيعتقله أي يوحنا ، أضعاف هذه المدة ، لأنه أرفع مقاماً من ملك النصرانية . وأخيراً تقرر أن يرسل الناصر إلى ملك الألمان رسولا آخر يستوثق من عواطفه ونياته نحوه ، وأن يبقى يوحنا معتقلاً حتى يعود السفير . واختير لهذه السفارة كالعادة قس من رعايا الخليفة هوربيغ أو ريفا الأسقف ، وكان عالماً متمكناً يشغل في البلاط منصباً هاماً ، ويحبه الناصر بعطفه وتقديره ، لعلمه وجليل خدماته^(٣) ، فاخترق فرنسا إلى ألمانيا ، ومثل لدى الإمبراطور أوتو في تورنجن ، حيث كان ينفق معظم أوقاته . وكان أوتو يجوز يومئذ بعض المتاعب للداخلية من جراء ثورة ولده عليه ، فأبدي تساهلاً في قبول وجهات نظر الخليفة ، وأكرم مشوى سفيره ، وعاد ربيع الأسقف إلى قرطبة ، بعد سنتين من سفره (٣٤٧ هـ - ٩٥٨ م) . فارتاح الناصر لنتائج سفارته ، وأذن بروية يوحنا سفير

(١) Reinaud: *Invasions des Sarrazins en France* p. 187

(٢) تناولنا قصة هذه المستعمرات في الفصل التالي .

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٣ . وهو ربيع بن زيد من زعماء النصارى المعاهدين ، وكان

يجهل العربية واللاتينية .

الإمبراطور ، واستقبله بقصر قرطبة في احتفال فخيم ، ظهرت فيه روعة البلاط الأموي ، وأفضى إلى الخليفة بموضوع سفارته . ولسنا نعرف ماذا كانت نتائج هذه السفارة ، لأن الرواية العربية لا تحدثنا عن موضوعها ، ولا تحدثنا الرواية الكنسية عن نتائجها . ولكن المرجح أن وجهة النظر التي أبدتها حكومة قرطبة لسفير الإمبراطور ، فيما يتعلق بأمر المستعمرات العربية المغامرة ، وغزواتها في غاليس وشمال إيطاليا وسويسرة ، أنها ليست لها علاقة بتلك المستعمرات ، وأنها لا تتحمل تبعه أعمالها ، ولا تستطيع أن تتدخل في شأنها ، أو تبذل نصحتها لأولئك المغامرين الخارجين عن طاعتها ، وهو استنتاج يؤيده صمت الرواية العربية عن ذكر أخبار هذه المستعمرات ، مما يدل على أن حكومة الأندلس ، لم تكن ذات علائق رسمية بها ، ولم تكن تعنى بأمرها ، وإن كانت بلاريب تنظر إلى غزواتها وتوغلها في الأراضي النصرانية ، بعين العطف والرضى . ولكن لوتبراند وهو مؤرخ كنسي معاصر ، يؤكد لنا أن الخليفة كان يحمي هذه المستعمرات ، ويمدها بالتشجيع والعون^(١) .

بيد أن الرواية الكنسية تقدم إلينا بهذه المناسبة حديثاً طريفاً عن آراء الناصر في نظم الحكم ، فقد وقف الناصر من مستشاريه أو من يوحنا نفسه على طرق نظام الحكم الإقطاعي السائد في ألمانيا ، وما يتمتع به بعض الأمراء المحليين في ظل هذا النظام ، من الاستقلال الداخلي ، وأبدى ليوحنا اعتراضه على هذا النظام ، قائلاً إن ملككم أمير حكيم ماهر ، ولكن في سياسته شيئاً لا أستسيغه ، وهو أنه بدلاً من أن يقبض بيديه على جميع السلطات ، ينزل عن بعضها لأتباعه ، ويترك لهم بعض ولاياته ، معتقداً أنه يكسب بذلك ، وهذا خطأ فادح ، فإن إدارة العظماء لا يمكن إلا أن تزيد في كبريائهم ، وتذكى رغبتهم في الثورة^(٢) . وفي ذلك ما يوضح لنا فكرة الناصر في الحكم المطلق ، وسياسته في سحق أولى الشأن والعصبية من زعماء القبائل العربية ، واعتماده على بطانة ذليلة من الفتيان الصقالبة والمولدين . تلك تفاصيل المراسلات والسفارة الشهيرة التي تبادلها أوتوالأكبر وعبد الرحمن الناصر ، زعماء النصرانية والإسلام في عصرهما ، بيد أنها لم تكن خاتمة الصلات

Reinaud : *ibid*, p. 198 (١)

Dozy : *Hist. V. II. p. 153* (٢)

الدبلوماسية بين الناصر وملوك النصرانية . فقد تلقى الناصر كذلك في سنة ٣٤٤ هـ (٩٥٥ م) سفارة من أردونيو الرابع ملك ليون يرجو عقد السلام والمودة ، فأجابه إلى طلبه ؛ وأرسل في السنة التالية سفيره محمد بن الحسين إلى ليون ، فعقد مع أردونيو معاهدة صادق عليها ، ولكن حال دون تنفيذها منافسة سانشو لأخيه أردونيو . وفي سنة ٣٤٧ هـ (٩٥٨ م) وفدت طوطة ملكة نافار بنفسها إلى قرطبة ، ومعها ولدها غرسية وسانشو أمير ليون ، وطائفة من الأحرار والعظماء النصاري ، فاستقبلهم الناصر في قصره بالزهراء استقبالا حافلا ، وعقد السلم مع طوطة ، وأقر ولدها ملكاً على نافار ، ووعد سانشو بالعون على استرداد عرشه . ثم وفدت على الناصر رسل البابا يوحنا الثاني عشر في طلب السلم والمودة بين الإسلام والنصرانية فأجابهم إلى ما طلبوا^(١) ، وكانت سفارة ذات مغزى واضح في الاعتراف بزعامة الناصر للعالم الإسلامي . وفي أخبار هذه السفارات المتبادلة بين زعيم الإسلام وملوك النصرانية ، وفي تفاصيلها الشائقة ، ما يلقي كبير ضوء على طبيعة التقاليد والرسوم الدبلوماسية في العصور الوسطى .

— ٥ —

في أوائل سنة ٣٤٩ هـ مرض الناصر من برد شديد أصابه ، واحتجب حيناً ، وأكسب الأطباء على معالجته حتى تحسنت حالته نوعاً ، وعاد إلى الجلوس في القصر ، ولكنه أصيب بنكسة ، وعاد إلى احتجابه ، ولبت أشهراً تشتد به العلة حيناً ، وتخف حيناً ، حتى وافاه القدر المحتوم ، في الثاني من شهر رمضان سنة ٣٥٠ هـ (١٥ أكتوبر سنة ٩٦١ م) . وكانت وفاته بقصر الزهراء في الحادية والسبعين من عمره ، واستطال حكمه زهاء خمسين عاماً ، وهي أطول مدة حكمها خليفة من خلفاء الإسلام ، إذا استثنينا عهد المستنصر بالله الفاطمي بمصر .

وكان عبد الرحمن الناصر أعظم أمراء الإسلام في عصره ، بل ربما كان أعظم أمراء عصره قاطبة . ولم تصل الدولة الإسلامية في الغرب ، إلى ما وصلت إليه في عصر الناصر ، من القوة والسؤدد والهيبة والنفوذ . وكان يتمتع بخلال باهرة قلما تجتمع في شخصية واحدة ، سياسية وعسكرية وإدارية . وكان يشبه في

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٣ .

حزمه وصرامته وبعد نظره ، بجده الأكبر عبد الرحمن الداخل^(١) . ويجمل ابن الأبار خواصه وخواص عصره في تلك العبارة : « وظهر لأول ولايته من يمن طأثره ، وسعادة جده ، واتساع ملكه ، وقوة سلطانه ، وإقبال دولته ، وخود نار الفتنة على اضطرامها بكل جهة ، وانقياد العصاة لطاعته ، مما تعجز عن تصوره الأوهام^(٢) . وتولى حجابته لأول ولايته مولاه بدر بن أحمد ، وما لبث أن اصطفاه وأولاه كل ثقته ، وفوض إليه الأمر والنهي ، وجعله على حد قول المؤرخ « شمساً لملكه وبدرأ^(٣) . وولى أبناءه الثلاثة عبد الرحمن وعبد الله وإسماعيل مناصب في القصر والخاص . ولما توفى بدر بن أحمد في شهر رجب سنة ٣٠٩ هـ ، ولى الناصر مكانه في الحجابة موسى بن محمد بن حدير . وتولى وزارته عدة من أنبه رجال العصر ، منهم أحمد بن محمد بن حدير ، وجهنور بن عبد الملك ، وعبد الله بن محمد الزجالي . وتولى إدارة الشئون المالية عبد الملك بن جهور ، وأحمد بن عبد الملك بن شهيد^(٤) . وأهدى ابن شهيد إلى الناصر هديته المشهورة ، التي أفاض في وصفها مؤرخو الأندلس ، وكان منها خمسمائة ألف مثقال من الذهب ، ومائتا أوقية من المسك والعنبر ، وثلاثون شقة من الحرير المرقوم بالذهب ، ومائة فرس مسرجة ، وعشرون بغلا عالية الركاب ، وأربعون وصيفاً ، وعشرون جارية بكسوتهن وزينتهن ، وأصناف عديدة أخرى . قال ابن خلدون « وهي مما يدل على ضخامة الدولة الأموية واتساع أحوالها » . ويجمع مؤرخو الأندلس على أنه لم تقدم هدية في قدرها ونفاستها إلى ملك من ملوك الأندلس . قدمها ابن شهيد إلى الناصر في سنة ٣٢٧ هـ ، ومعها خطاب رقيق يشيد فيه بعظمة الناصر ومآثره ، فوقعته لديه أحسن موقع ، وزاده حظوة واختصاصاً ، وأسمى منزلته على سائر الوزراء ، وأسبغ عليه لقب ذي الوزارتين ، فكان أول من حظى بهذا اللقب من وزراء الأندلس ، وضاعف له رزق الوزارة ، وجعله ثمانين ألف دينار في العام^(٥) . وولى قيادة الجيش لأول عهد الناصر أحمد بن محمد

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ١٦٣ .

(٢) الحلة السيرة (لیدن) ص ٩٩ - ١٠٠ .

(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٤٠ .

(٤) البيان المغرب ج ص ١٦٤ .

(٥) راجع ابن خلدون ج ٤ ص ١٣٨ ؛ ونفع الطيب ج ١ ص ١٦٦ و ١٦٧ و ١٧٧ .

فلا من ابن حيان وابن الفرغى وغيرهما .

ابن أبي عبدة ، سليل الأسرة الشهيرة ، التي تولى زعمائها قيادة الحيوش الأندلسية خلال الفتنة الكبرى . وكذلك وليها الحاجب بدر غير مرة ، ووليها الفتيان الصقالبة مثل نجدة وميسور وغيرهما . وقد رأينا كيف انتهت سياسة عبد الرحمن في إثارة الصقالبة بالقيادة إلى كارثة الخندق . وممن ولى القضاء في عهد الناصر أحمد بن محمد بن زياد ، وأسلم بن عبد العزيز بن هشام ، ومنذر بن سعيد البلوطي (١) .

وقد أورد لنا ابن حيان ثبناً طويلاً من الوزراء وأصحاب الخطط والموالي الذين تولوا المناصب الكبرى في عهد الناصر .

فمن الوزراء : محمد بن سليمان بن وانسوم . سعيد بن المنذر القرشي ، عبد الحميد بن بسيل ، خالد بن أمية بن شهيد . عيسى بن أحمد بن أبي عبدة ، جهور بن عبد الملك البختي ، أحمد بن محمد بن إلياس .
ومن أصحاب الخطط : محمد بن سعيد بن المنذر القايد . عيسى بن فطيس الكاتب . عبد الله بن بدر بن أحمد صاحب الشرطة . محمد بن قاسم بن طملس صاحب المظالم . محمد بن عبد الله بن موسى الخازن : إسماعيل بن بدر بن إسماعيل العارض .

ومن الموالي : جهور بن عبيد الله بن محمد بن أبي عبدة . أحمد بن خالد ابن أمية بن عيسى بن شهيد . محمد بن جهور بن عبد الملك البختي . مروان بن جهور بن عبد الملك البختي ، أحمد بن سهل بن محمد . عبد الله بن أحمد بن محمد ابن عيسى . محمد بن عباس بن محمد بن أبي عبدة . عبيد الله بن عباس بن أحمد ابن أبي عبدة ، عبد الله بن يحيى بن أدريس . عبد الوهاب بن محمد بن بسيل . محمد بن مروان بن عبد الله بن بسيل . عبد الرحمن بن أحمد بن زكريا بن عاصم . محمد بن أحمد بن قابوس . أحمد بن محمد بن عيسى . محمد بن عبد السلام بن كليب بن ثعلبة (٢) .

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ١٦١ .

(٢) نقلنا هذا الثبوت عن ابن حيان أوردته في المقتبس - السفر الخامس - مخطوط الخزانة الملكية الذي سبقته الإشارة إليه غير مرة . وأورد لنا ابن حيان أيضاً ثبناً طويلاً بأسماء عمال الكور في عهد الناصر استغرق صفحة كاملة (لوحة ١٥٣ أ) . ولكننا لم نجد محلاً لإيراده .

وذكر لنا ابن حيان ، في حوادث سنة ٣٢٤ هـ ، أن الوزراء في هذه السنة كانوا عشرة ، وهم : سعيد بن المنذر القرشي المرواني . أحمد بن محمد بن حدير . عبد الحميد بن بسيل . أحمد بن عبد الوهاب بن عبد الروثوف . خالد بن أمية ابن شهيد . عيسى بن أحمد بن أبي عبدة . عبد الملك بن جهور . فطيس بن أصبغ بن فطيس . أحمد بن محمد بن إلياس . يحيى بن إسحق .

وذكر لنا في حوادث سنة ٣٢٥ هـ ، أنه قد عزل عن الوزارة يحيى بن إسحق ، ووليها أحمد بن عبد الملك بن شهيد ، وعبد الرحمن بن عبد الله الزجالي ، وأن الوزراء بلغ عددهم في هذه السنة واحداً وعشرين وزيراً ، منهم تسعة من العشرة الذين سبق ذكرهم عدا يحيى بن إسحق (١) .

وكان عبد الرحمن الناصر عالماً أديباً ، يهوى الشعر وينظمه ، ويقرب الأدباء والشعراء ، وكان في مقدمة دولته وأكثرهم حظوة لديه ، الفقيه ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد ، وشاعر الدولة المروانية منذ محمد بن عبد الرحمن . وفيض ابن عبد ربه في مناقب الناصر ، ويستعرض غزواته منذ ولايته حتى سنة ٣٢٢ هـ ، في أرجوزة طويلة رتبت وفق السنين (٢) . ومن شعره في وصف عصر الناصر ، واعتزاز الإسلام بدولته قوله :

| | |
|---------------------------------|---------------------------------|
| قد أوضح الله للإسلام منهاجا | والناس قد دخلوا في الدين أفواجا |
| وقد تزينت الدنيا لساكنها | كأنها ألبست وشياً ودياجا |
| يا ابن الحلائف إن المزن لو علمت | نداك ما كان منها الماء ثجاجا |
| والحرب لو علمت بأساً تصول به | ما هيجت من حمياك الذي اهتاجا |
| مات النفاق وأعطى الكفر رمته | وذلت الخيل إلحاماً وإسراجا |
| وأصبح النصر معقوداً بألوية | تطوى المراحل تهجيراً وإدلاجا |
| أدخلت في قبة الإسلام بارقة | أخرجتها من ديار الشرك إخراجا |
| بمحفل تشرق الأرض الفضاء به | كالبحر يقذف بالأمواج أمواجا |
| يقوده البدر يسرى في كواكبه | عرمرماً كسواد الليل رجراجا |

(١) وردت الفقرة الأولى في المنقبس - السفر الخامس - لوحة ١٥٣ أ ، ووردت الفقرة الثانية في لوحة ١٦٢ أ .

(٢) راجع هذه الأرجوزة في كتاب العقد الفريد (طبعة المطبعة الأزهرية) ج ٣ ص ٢٠٩ إلى ٢٢٧ .

إن الخلافة لن ترضى ولا رضيت حتى عقدت لها في رأسك التاجاً (١)
ومما ينسب إلى الناصر من النظم ، قوله :

لا يضر الصغير حدثان سن إنما الشأن في سعود الصغير
كم مقنم فازت يدها بغنم لم تنسله بالركض كف مغير (٢)
وكان الناصر سمحاً وافر الجود : ويصفه ابن الأثير بأنه كان ، أبيض ،
أشهل ، حسن الوجه ، عظيم الجسم ، قصير الساقين (٣) وترك الناصر من
البنين أحد عشر ولداً منهم ولي عهده وخلفه الحكم المستنصر بالله .
وقال الوزير جعفر بن عثمان المصحفي في رثاء الناصر :

إلا إن أياماً هفت بإمامها لحائرة مشتطة في احتكامها
فلم يؤلم الدنيا عظام خطوبها وأحداثها إلا قلوب عظامها
تأمل فهل من طالع غير آفل لمن وهل من قاعد لقيامها
وعاين فهل من عائش برضاها من الناس إلا ميت بفطامها
كأن نفوس الناس كانت بنفسه فلما توارى أيقنت بحمامها
فطار بها يأس الأسى وتقاصرت يد الصبر عن أعوالها واحتدامها

ويشيد النقد الحديث بمناقب عبد الرحمن الناصر وعصره أعظم إشادة : وربما
كان أبلغ ما قيل في ذلك تلك العبارات القوية التي يختتم بها العلامة دوزي حديثه عن
عصر عبد الرحمن الناصر : « لقد كانت هذه نتائج باهرة ، ولكننا نجد إذا ما درسنا
ذلك العصر الزاهر ، أن الصانع يشر الإعجاب والدهشة ، بأكثر مما يشرهما
المصنوع : تشرهما تلك العبقرية الشاملة التي لم يفلت شيء منها ، والتي كانت
تدعو إلى الإعجاب في تصرفها نحو الصغائر ، كما تدعو إليه في أسمى الأمور . إن
ذلك الرجل الحكيم النابه ، الذي استأثر بمقاليد الحكم ، وأسس وحدة الأمة ،
ووحدة السلطة معاً ، وشاد بواسطة معاهداته نوعاً من التوازن السياسي ، والذي
اتسع تسامحه الفياض لأن يدعو إلى نصحه رجالاً من غير المسلمين ، لأجدر بأن
يعتبر قريناً لملوك العصر الحديث ، لا خليفة من خلفاء العصور الوسطى » (٤) .

(١) وقيل إن هذه القصيدة وجهت إلى الناصر لما سبته عوده ظافراً من أول غزوة قام بها ضد
الثوار في مستهل حكمه .

(٢) نفع الطيب ج ١ ص ١٦٦ .

(٣) ابن الأثير ج ٨ ص ١٧٧ .

(٤) Dozy : Hist, V. II. p. 175

الفصل الثابت

غزوات المسلمين

في غاليس وشمال إيطاليا وسويسرة

توقف الغزو الإسلامي عقب بلاط الشهداء . استثناف الغزو في عهد هشام . غزو الفرنج لشمال الأندلس . الغزوات الإسلامية المغامرة . صمت الرواية الإسلامية عن ذكرها . غزو قورسقة وشواطئ فرنسا الجنوبية . غزو مرسيليا وبروقانس . غزو موسى بن موسى لسبتمانيا . غزو جزيرة كاماراج . اضطراب الأحوال في جنوبي فرنسا . غزو المسلمين لشواطئ سان تروبيه . معاقبتهم في تلك الأنحاء . تدخلهم بين النصاري . اختراق الغزاة لدوفينه . عبورهم مون سني . احتلالهم لممرات الألب . جوازهم إلى سهول بيبمون . عودهم إلى غزو بروقانس . غزوهم لمرسيليا وإيكس . خلقهم لممرات الألب . تقدمهم إلى ليجوريا . غزوهم لمنطقة فالايه وسافوا . وصولهم إلى قلب سويسرة وشرقها . غزوهم لشتر فريجوس . اتحاد الأمراء النصاري على مقاومتهم . استنجادهم بقيصر قسطنطينية . مهاجمة المسلمين وتمزيقهم . الصلح بينهم وبين ملك بروقانس . احتلالهم لممر سان برنار . استيلائهم على جرينوبل . غاراتهم في بيبمون . الحرب بينهم وبين المجر . وصولهم إلى سان جالن . قتالهم وهزيمتهم . صدى الغزوات الإسلامية في جنوبي أوروبا . سعى البابوية وإمبراطور ألمانيا لوقفها . محاربة الغزاة في دوفينه وبروقانس . هزيمتهم وارتدادهم إلى الجنوب . سقوط حصن فراكسليه . سقوط المستعمرات الإسلامية في الألب . غزوات بحرية إسلامية لشواطئ فرنسا . غزو قورسقة وسردانية . ظروف هذه الغزوات الإسلامية . خواصها وبواعثها . آثارها المادية والأدبية . أثر العرب في تقدم الزراعة في الأنحاء المفتوحة . نقلهم لكثير من المحاصيل والفراش . أثرهم في تحسين سلالة الخيل . الآثار الاجتماعية . أقوال النقد الحديث .

— ١ —

تحدثنا فيما تقدم عن غزوات العرب في غاليس (جنوبي فرنسا) منذ الفتح ، ورأينا كيف وضع ارتداد العرب في موقعة بلاط الشهداء في سنة ١١٤ هـ (٧٣٢ م) حداً لغزواتهم في غاليس ، وكيف فقدوا تبعاً قواعدهم في لانجدوك وسبتمانيا ، حتى انتهت رياستهم فيما وراء البرنيه بسقوط ثغر أربونة ، آخر قواعدهم في سبتمانيا ، في يد الفرنج في سنة ١٤٢ هـ (٧٥٩ م) (١) .

وكانت الأندلس خلال هذه الفترة تضطرم بالفتن الداخلية والحرب الأهلية . ولما استطاع عبد الرحمن الأموي أن ينتزع الرياسة لنفسه من عمر الفتن ، وأن يعيد

(١) راجع « دولة الإسلام في الأندلس » القسم الأول ص ١٣٧ .

ملك الدولة الأموية بالأندلس ، لبث بقية عهده يعمل على توطيد ملكه القتي ، وحمايته من الثوار والخوارج ، ولم تتح له فرصة للتفكير في الغزوات الخارجية . بل لقد اضطر أن يقف موقف المدافع من مملكة الفرنج ومن عاهلها شارلمان ، الذي حاول أن يغزو الولايات الإسلامية ، بمؤازرة الزعماء الخوارج في الثغر الأعلى ، واضطر أن يغضي مدى حين عن غزوات المملكة النصرانية الناشئة ، لأراضي الأندلس وقواعدها الشمالية .

فلما تولى ولده هشام الملك ، واستطاع أن يقضي على ثورة أخويه سليمان وعبد الله ، وجه عنايته إلى مقارعة المملكة الفرنجية ، ورد خطرهما عن الأندلس ، وبعث إلى الشمال في سنة ١٧٦ هـ (٧٩٢ م) بجيش كثيف بقيادة حاجبه عبد الملك ابن عبد الواحد بن مغيث ، فعبر جبال البرنيه ، ونشبت بين المسلمين والفرنج في بسائط سبتمانيا عدة معارك كانت سجالا ، وجدد بذلك عهد الغزو والجهاد فيما وراء البرنيه .

وعاد الفرنج في عهد الحكم بن هشام ، فعبروا جبال البرنيه في سنة ١٨٥ هـ (٨٠١ م) وغزوا الثغر الأعلى وافتتحوا ثغر برشلونة ، واقتطعوا بذلك جزءاً من الأندلس الشمالية : ولم تمض بضعة أعوام أخرى ، حتى عبر الفرنج البرنيه للمرة الثانية (١٩٣ هـ - ٨٠٩ م) وحاولوا الاستيلاء على مدينة طرطوشة ، ولكن المسلمين استطاعوا إنقاذها .

وفي عهد عبد الرحمن بن الحكم سارت حملة بحرية أندلسية لغزو الجزائر الشرقية ، وقد رأينا فيما تقدم كيف غدت مياه الأندلس الشرقية مركزاً لحملات البحارة المسلمين ، يسرون منها نحو الشمال والشرق إلى الشواطئ والجزائر القريبة ، ينقضون عليها طلباً للغنيمة والسبي ، وكيف بدأت من ذلك الحين محاولات المجاهدين المسلمين ، لغزو شواطئ فرنسا الجنوبية وأحواز مصب الرون .

وقد فصلنا فيما تقدم من كتابنا أخبار الغزوات الأندلسية الرسمية فيما وراء البرنيه ، وأشرنا بإيجاز إلى بداية عهد الحملات البحرية الأندلسية الخاصة^(١) . سنحاول في هذا الفصل أن نستعرض لمحة من أخبار هذه الحملات والغزوات الإسلامية غير الرسمية البحرية والبرية ، إلى شواطئ فرنسا الجنوبية ، وما يجاورها

(١) راجع « دولة الإسلام في الأندلس » ص ٢٦٥ و ٢٦٦ .

من سهول ليجوريا وهضاب سويسرة ، ومما يجدر ذكره أن الرواية الإسلامية قلما تشير إلى هذه الغزوات بكلمة ؛ وربما كان ذلك راجعاً إلى طبيعة هذه الغزوات والمغامرات غير الرسمية ، التي كانت تنظمها جماعات خاصة من المجاهدين لا تربطها بحكومة قرطبة صلة رسمية ، ولا تعتمد إلا على جهودها ومواردها الخاصة .

بدأت هذه الغزوات الأندلسية للشواطئ والثغور الفرنجية منذ أوائل القرن التاسع . وكان معظمها حملات بحرية ، قوامها جماعات من المجاهدين والزعماء المغامرين . ففي سنة ٨٠٦ م غزت إحدى هذه الجماعات البحرية المجاهدة جزيرة كورسيكا (قورسقة) ، وهزمت الأسطول الفرنجي الذي بعثه بين ابن شارلمان ملك إيطاليا لقتالهم ، وعادت بكثير من الغنائم والسبي . وتوالت بعد ذلك غزوات البحارة الأندلسيين لشواطئ كورسيكا وسردانية ، وهما يومئذ أغنى جزر البحر المتوسط . وكذلك توالت غارات البحارة المسلمين على شواطئ فرنسا الجنوبية . وتعنى الرواية الكنسية والفرنجية المعاصرة بتدوين هذه الغزوات الإسلامية ، وتصف عصفها وعيها ، وما كانت تحدثه من الرعب بين السكان النصارى ، وتقول لنا إن البحارة المسلمين ، ذهبوا في الجراة إلى حد التجول في مياه الأطلنطيق ، والإغارة على شواطئ فرنسا الغربية ، وإن سفينة عربية كبيرة اجتازت في ذلك الحين مياه الأطلنطيق حتى مصب نهر اللوار (١) .

وفي سنة ٨٣٨ م سار أسطول أندلسي من مياه طركونة ومياه الجزائر الشرقية إلى مياه بروقانس ، وغزا ثغر مرسيليا وما حوله من الأراضي ، وأثنى فيها ، وحمل الغزاة كثيراً من الغنائم والسبي . ولم يستطع ملك فرنسا الضعيف لويس ابن شارلمان مقاتلة الغزاة . ثم عاد البحارة المسلمون وغزوا شواطئ بروقانس مرة أخرى ، ونفذوا إلى مصب نهر الرون ، واقتحموا مدينة آرل وخربوا كنائسها . وتوالت بعد ذلك غزواتهم لهذه المنطقة . وفي سنة ٨٥٠ م في أواخر عهد عبد الرحمن ابن الحكم ، عبر موسى بن موسى بن قسي صاحب سرقسطة وزعم الثغر الأعلى ، جبال البرنيه ، وغزا سبتمانيا وأثنى في نواحيها ، واضطر شارل الأصغر ملك فرنسا أن يهادنه ، وأن يعقد الصلح معه ، وأن يسترضيه بالهدايا والتحف . ومن

(١) جمعت أقوال الروايات الكنسية والفرنجية المعاصرة ، عن هذه الغزوات الإسلامية ، في موسوعة Bouquet التي سبقت الإشارة إليها غير مرة ، بنصوصها اللاتينية أو الفرنسية القديمة ، وقد عتمدنا عليها في كثير من حوادث هذا الفصل .

المرجح أن هذه الغزوة لم تكن ذات طابع رسمي ، ولم تكن لها صلة بحكومة قرطبة . ذلك أن بنى قسيّ زعماء الثغر الأعلى في ذلك الحين ، كانوا يتمتعون باستقلال محلي ، ولا يدينون بالولاء لحكومة قرطبة ، وكانوا بالعكس ينزعون إلى مقاومتها والخروج عليها . وفي سنة ٨٦٩م هاجمت جماعة من البحارة والمجاهدين المسلمين شواطئ پروقانس مرة أخرى ، واستولت على جزيرة كاماراج الواقعة في مصب الرون ، وأسرت أسقف آرل الذي كان يقيم بها ، وعادت مثقلة بالغنائم والأسرى .

وأذكى نجاح هذه الغزوات المتوالية ، في نفوس المغامرين والمجاهدين من مسلمي الأندلس وإفريقية ، حب التوغل في هاتيك الأنحاء ، ورغبة في استعمارها والاستقرار فيها . وكانت أحوال غاليس (جنوبي فرنسا) قد اضطربت يومئذ ، وغلب سيد من سادة هذه الأنحاء يدعى بوسون على ولايتي دوفينه وپروقانس ، وتلقب بملك آرل . وقام يناوئه بعض منافسيه ، ونشبت بينه وبينهم حرب أهلية (نحو سنة ٨٩٠ م) . ففي تلك الآونة رست سفينة عربية صغيرة عليها عشرون بحاراً من المسلمين ، في خليج جريمو أو خليج سان تروبيه ، ونزلوا إلى الشاطئ وبلحأوا إلى غابة كثيفة ، تظللها الجبال ، ثم هاجموا بعض الضياع القريبة وفتكوا بسكانها . ولما رأوا منعة معقلهم من البر والبحر ، عولوا على الاستقرار فيه ، ودعوا إخوانهم من الثغور الإسلامية القريبة إلى القدوم ، وأرسلوا في طلب العون والتأييد من حكومات الأندلس والمغرب ، فوفد عليهم كثير من المغامرين البواسل . ولم تمض أعوام قلائل ، حتى استقروا في ذلك المكان ، وأنشأوا لهم سلسلة من المعاقل والحصون ، أمنعها وأشهرها حصن تطلق عليه الرواية الفرنجية المعاصرة ، اسم (فراكستيم) Fraxinetum . والمظنون أنه هو المكان الذي تقوم عليه اليوم قرية (جارد فرينيه) Garde-Frinet الواقعة في سفح جبال الألب^(١) . وما زالت آثار تدل على قيام معقل قديمة في ذلك المكان : ولما كثر جمعهم ، واشتد ساعدهم ، أخذوا في الإغارة على الأنحاء المجاورة ، وأصبحوا قوة يخشى بأسها . وسعى إليهم بعض الأمراء والسادة المتنافسين يستظهرون بهم ، بعضهم على بعض ، فلبوا الدعوة ،

وانتزعوا من بعض السادة أراضهم ، وأعلنوا أنفسهم سادة في الأنحاء المغلوبة ، وبثوا الدعر والروع في جنوب بروفانس ، حتى وصفهم كاتب معاصر (١) بأن واحداً منهم يهزم ألفاً ، واثنين يهزمان ألفين (١) .

وكانت هذه أول خطوة في استعمار المسلمين لجنوبي فرنسا . وفي خاتمة القرن التاسع اتخذ المستعمرون المسلمون خطوة أخرى ، فتقدموا نحو جبال الألب غرباً وشمالاً . وكانت مملكة آرل قد ضعفت واضمحلت ، وخلف بوسون ولده لويس ، ولكنه ذهب إلى إيطاليا ليحارب إلى جانب حلفائه فهزم هنالك وأسر ، وتركت مملكته بلا دفاع ، وساد الانحلال والفوضى غاليس كلها : فانتهر المسلمون تلك الفرصة واخترقوا مفاوز دوفينه ، وعبروا « مون سني » أهم ممرات الألب الفرنسية ، واستولوا على دير نوثاليس الشهير الواقع في وادي « سيس » على حدود بيمون ، وفر الأخبار إلى مختلف الأنحاء (سنة ٩٠٦ م) . وأغار المسلمون على القرى والضياع المجاورة ونهبوها ، وفتكوا بأهلها ، وأسر بعضهم وأخذوا إلى تورينو بإيطاليا وسجنوا في ديرها ، ولكنهم استطاعوا أن يحطموا أغلالهم ، وأضرمو النار في الدير وفي المدينة ، وفروا عائدين إلى زملائهم واشتد بأس المسلمين في تلك الأنحاء ، واحتلوا معظم ممرات الألب ، فسيطروا بذلك على طرق المواصلات بين فرنسا وإيطاليا ، ثم انحدروا من آكام الألب إلى سهول بيمون ، وأغاروا على بعض مناطقها .

وفي سنة ٩٠٨ م نزلت سرية قوية من البحارة المسلمين في شاطئ بروفانس على مقربة من « إيج مورت » ونهبت دير بالودي ، وكانت الأديار والكنائس يومئذ مطمح أنظار الغزاة ، لما كانت تغص به من الذخائر والأموال . وانتشر المسلمون بعد ذلك في جميع الأنحاء المجاورة ، واجتاحوا كل ما في طريقهم من البسائط ، وهاجموا مرسيليا ، وهدموا كنيستها ، وغزوا إيكس ، وسبوا النساء وتزوجوا من ليكثر نسلهم ويقووا به ، وانضم إليهم كثير من النصاري المغامرين من أهل هذه الأنحاء ، وهجر السادة والأغنياء حصونهم وقصورهم ، والتجأوا إلى الداخل خشية القتل والأسر ، وأغلق المسلمون طريق الألب إلى إيطاليا ، وكان يمر بها كل عام ألوف من الحجاج الذين يقصدون إلى رومة ، واقتضوا منهم الضرائب الفادحة ليسمحوا لهم بالمرور •

ثم اتخذ المسلمون خطوة جديدة في سبيل التقدم إلى أواسط أوربا ، فدفعوا غزواتهم إلى پييمون ومونفراتو. وتقول لنا الرواية الكنسية المعاصرة إنهم وصلوا في أوائل القرن العاشر إلى حدود ليجوريا على شاطئ خليج جنوة . ويروى لوتبراند ، وهو كاتب معاصر ، أن العرب غزوا سنة ٩٠٦ ، مدينة « آكي » من أعمال مونفراتو الشهيرة بحماماتها (وهي على مقربة من تورينو) ، ثم غزوها ثانية سنة ٩٣٥ بقيادة زعيم يدعى (ساجيتوس) ولكنهم هزموا ومزقوا . وفي هذا الوقت أيضاً نزلت جماعة قوية من البحارة الإفريقيين بساحل جنوة ، وقتلت عدداً كبيراً من أهلها ، وأسرت جموعاً كثيرة من النساء والأطفال .

وفي سنة ٩٣٩ م غزا المسلمون منطقة « قاليه » في جنوب سويسرة ، ونهبوا دير « أجون » الشهير ، وغزوا في الوقت نفسه منطقة « تارانتز » من أعمال ساقوا الوسطى ، ثم اتخذوا منطقة « قاليه » قاعدة للإغارة على الأراضي المجاورة في سويسرة وإيطاليا ، ونفذوا منها إلى أواسط سويسرة ، ثم إلى « جريزون » في شرق سويسرة ، ونهبوا دير ديزنتي أشهر وأغنى الأديار السويسرية ، ونهبوا طائفة أخرى من الأديار والكنائس الغنية . وفي بعض الروايات أيضاً أن المسلمين وصلوا في غزواتهم إلى بحيرة جنيف ، وجاوزوا إلى مفاوز جورا الواقعة في شمالها ، وكانت سويسرة يومئذ من أقاليم بورجونية وملكتها يومئذ الملكة « برت » الوصية على ولدها الطفل كونراد ، فارتدت حين اقتراب العرب إلى حصن ناء في جهة نيو شاتل .

وفي سنة ٩٣٠ م غزا العرب فريجوس وكانت يومئذ من أكبر وأمنع ثغور فرنسا الجنوبية ، وغزوا أيضاً ثغر طولون ، ففر السكان إلى الجبال ، وعاث المسلمون في تلك الأنحاء ، ونهبوا المدن والحصون ، وأحرقوا الأديار والكنائس . ولما اشتدت وطأة المسلمين في جنوبي فرنسا ، وبلغ السخط من غزواتهم وعيْثهم ذروته ، اعتزم سادة الجنوب ، وعلى رأسهم هوج ملك بروفانس أن يبذلوا كل ما في وسعهم لسحق ذلك العدو المزعج . ورأى هوج أن يبدأ بافتتاح حصن فراكسنيه (فراكسنتم) الذي يمتنع به المسلمون ، ويتخذونه قاعدة لتأمين مواصلاتهم مع اسبانيا وإفريقية ، وقاعدة للإغارة على الداخل ، وكتب إلى صهره إمبراطور

قسطنطينية ، يطلب منه أسطولاً من قاذفات النار اليونانية ، حتى يستطيع مهاجمة المسلمين من البر والبحر معاً . فلبى نداءه . وفي سنة ٩٤٣ م رسا أسطول بيزنطي في مياه سان تروبيه ، وزحف هوج في نفس الوقت بجيشه على فراكسنيه ، وهوجم المسلمون من البر والبحر بمنتهى الشدة ، وأحرقت سفنهم ، ونفذ هوج إلى الحصن بعد قتال رائع ، وفر المسلمون إلى الآكام والربى ، وكاد يسحق سلطانهم في تلك الأنحاء . ولكن حدث بعد ذلك أن علم هوج أن خصمه ومنافسه بيرانجيه ، قد عاد إلى إيطاليا لينازعه في انتزاع عرشها فصرف هوج الأسطول ، واضطر أن يعقد الصلح مع المسلمين ، بشرط أن يقوا في رؤوس الألب وممراتها ، وأن يغلقوا الطريق إلى إيطاليا في وجه خصمه ، وبذلك استعاد المسلمون قلاعهم وسيادتهم في جنوبي پروقانس .

واحتل المسلمون آكام الألب وممراتها ، وفرضوا الضرائب الفادحة على المسافرين ، واستطاعوا بسيطرتهم على ممر سان برنار الكبير ، الموصل بين سويسرة وإيطاليا ، وغيره من الممرات والمعازل الجبلية ، أن يجتاحوا الأنحاء المجاورة ، وأن يبنوا فيها الدعر والروع ، واستقرت منهم جموع في السهول والضياع القريبة من معاقلهم ، وتزوجوا النساء الأسيرات ، وزرعوا الأرض ، واكتفى أمراء هذه النواحي بأن يحصلوا منهم بعض الضرائب . ونفذ المسلمون أيضاً إلى منطقة نيس ذاتها ، وما يزال في نيس إلى اليوم حي يعرف بحي العرب *Canton des Sarrazins* وأخيراً نفذ المسلمون إلى قلب ولاية دوفينه ، وغزوا جرينوبل واحتلوها مدى حين ، واحتلوا وادها الحصيب «جرينيثودان» الذي يجري فيه نهر الإيزر فرع الرون ، وفر أسقف جرينوبل وزملاؤه إلى الشمال حاملين رفات قديسيهم^(١) .

وهكذا انتشرت المستعمرات والمعازل الإسلامية خلال القرن العاشر الميلادي في پروقانس وساقوا وبييمون وسويسرة ، وبسط المسلمون سيادتهم على ممرات جبال الألب وعلى الحدود بين غاليس وبلاد اللونبارد (شمال إيطاليا) وبينها وبين سويسرة ، وبلغوا في تقدمهم في غاليس مدينة جرينوبل ، واحتلوا في سويسرة ولاية فاله ومفاوز چورا المتاخمة لبرجونية ، واحتلوا في إيطاليا الشمالية ، ولاية

(١) Reinoud : ibid , p. 180 & 181

ليجوريا : وكانت معاقلهم في بروفانس ولاسيا حصن «فراكسنيه» ، قواعد غزواتهم وملاذ قوتهم وسيادتهم . والظاهر أنهم اتبعوا نفس هذه الخطة في سهول بيبمون ، فأنشأوا بها سلسلة من الحصون والقلاع القوية ، لتكون مركز غزواتهم في بلاد اللونبارد وفي سويسرة ، فإن الرواية الكنسية التي كتبها حبر معاصر من دير نوقاليس ، تذكر لنا اسم حصن إسلامي في تلك الأنحاء وتسميه «فراشنديلوم» *Fraschendellum* ، والمظنون أنه هو المكان الذي تعرفه الجغرافية الحديثة باسم «فراسنيتو» ، وهو الواقع في لومبارديا على مقربة من نهر «پو» . وتقص علينا نفس هذه الرواية الكنسية أيضاً أن سيداً نصرانيا من سادة تلك الأنحاء يدعو إيمون دفعه شغف المغامرة والكسب ، إلى مخالفة المسلمين فانضم إليهم ، واشترك في غاراتهم الناهبة ؛ وفي ذات يوم وقعت بين السبايا امرأة رائعة الحسن ، فاستبقاها إيمون لنفسه ، ولكن زعيماً مسلماً استحسناها وانتزعها منه قسراً ، فغضب إيمون والتجأ إلى كونت روتبالدرس حاكم بروفانس العليا ، وفاوضه سرّاً في محاربة المسلمين ، وإنقاذ البلاد منهم ، فرحب الكونت بهذا المشروع ، ودعا السادة إلى معاونته ، واستطاع أن يحشد قوات كبيرة ، وهوجم المسلمون في بيبمون من كل صوب ومزقوا ، وسقطت قلاعهم في أيدي النصاري ، وذهب سلطانهم في تلك الأنحاء . وتقص الرواية الكنسية أيضاً قصة مؤامرة دبرها كونراد ملك برجونية لإهلاك المسلمين النازلين في أملاكه في چورا وعلى حدود برجونية ، والمجر الذين كانوا يشاطرونهم يومئذ الإغارة والعيث في تلك الأنحاء . وذلك أنه كتب إلى المسلمين يستحثهم على قتال منافسيهم المجر ، وانتزاع ما بيدهم من الأراضي والضياع الحصبة ، وكتب مثل ذلك إلى المجر يستحثهم لقتال المسلمين والمعاونة على إجلائهم ، وعين مكاناً للقاء الفريقين ، فالتقت الجموع المتنافسة من المسلمين والمجر ، ونشب بينهما قتال هلك فيه كثير من الفريقين ، ثم أشرف كونراد بجموعه ، ومزق البقية الباقية من الفريقين قتلاً وأسراً ، وتضع الرواية تاريخ هذه الموقعة في سنة ٩٥٢ م ، ولكنها لا تعين لنا مكان حدوثها^(١) .

ومنذ منتصف القرن العاشر يأخذ نجم أولئك المسلمين المستعمرين المغامرين في الأفول ، وتضمحل سيادتهم في تلك الأنحاء . بيد أنهم لبثوا مدى حين بعد ذلك

يحتلون كثيراً من مواقع ساقوا ، ويجوبون أنحاء سويسرة كلها في طلب الغنيمة والسبي ، وقد اعتادوا على حرب الجبال وحذقوا أساليبها ، وبلغوا في توغلهم في سويسرة مدينة سان جالن على مقربة من بحيرة كونستانس ، وأنشأوا ثمة كثيراً من القلاع والأبراج ، التي مازالت تقوم منها إلى اليوم بعض الأطلال والبقايا ، ولبثوا حيناً في سان جالن حتى حشد رئيس ديرها حوله جمعاً من المقاتلين الأشداء ، وفاجأوا المسلمين في جوف الليل ، ومزقوهم قتلاً وأسرّاً ، وبذلك خفت وطأة الغزوات الإسلامية في شمال سويسرة .

واستمرت المستعمرات والمعاقل الإسلامية في دوفينه وبروقانس ، وبعض جهات الألب ، وكان قربها من «فراكسنيه» أمنع المعاقل الإسلامية يمدّها بأسباب الحرية والعون ، ويمدّها قربها من البحر دائماً بأمداد جديدة من المتطوعين والمغامرين من ثغور الأندلس وإفريقية .

وكان لاستقرار هذه المستعمرات الإسلامية في جنوبي أوروبا ، وعيها المستمر في الأنحاء والسهول المجاورة ، وقع عميق في الحكومات الأوروبية ، وكان صريخ البابوية يتردد لدى أمراء أوروبا ، بالسعي إلى مكافحة هذا الخطر الداهم ، وكان أوتو الأكبر إمبراطور ألمانيا وأعظم أمراء النصرانية يومئذ ، أشد هؤلاء الأمراء اهتماماً بالقضاء على خطر المستعمرات الإسلامية ، لأنه يدنو من أملاكه ويصيدها بشره . ولهذا رأى أن يبذل في هذا السبيل سعيه ، لدى عبد الرحمن الناصر عاهل الأندلس وزعيم الإسلام الروحي والزمني ، وأوفد إليه في سنة ٩٥٦ م سفارته الشهيرة التي أتينا على ذكرها . وبحث سفيره يوحنا الجورزيني مع الخليفة مسألة اعتداء المستعمرات الإسلامية على الأراضي النصرانية ، والتمس إليه أن يعاون بنصحه ونفوذه على قمع هذا العدوان . ولكن هذا المسعى لم يسفر عن أية نتائج عملية ، إذ اعتذر الخليفة حسباً فصلنا من قبل ، بأن هذه المستعمرات الإسلامية لا تخضع له ولا تأتمر بأوامره ، وأنها تعمل مستقلة بعيدة عن حكومة قرطبة . على أن لوتبراند، وهو مؤرخ كنسي معاصر ، يؤكد أن الخليفة كان يحمي هذه المستعمرات ويمدّها بالتشجيع والعون^(١) .

ولم يمض قليل على ذلك حتى أخرج المسلمون من معاقلم في آكام سان برنار

(في نحو سنة ٩٦٩ م) : ولسنا نعرف تفاصيل ذلك الحادث ، ولكن المحقق أن المسلمين أبدوا كعادتهم منتهى البسالة في الدفاع عن مواقعهم : والظاهر أيضاً أن القديس برنار (سان برنار) الذي سميت هذه الآكام باسمه ، كان من أبطال الموقعة التي نشبت وانتهت بجلء المسلمين .

واستمر المسلمون في دوفينه وپروفانس ، وكثيراً ما دعوا إلى التدخل بين سادة هذه الأنحاء . ولما غزا الإمبراطور أوتو بلاد اللونبارد ، وأخرج منها ملكها يرانجيه ، التجأ ولده أدلبرت إلى عرب «فراكسنيه» ، ليعاونوه في استعادة ملكه ، وكان هذا التحالف بين السادة والمسلمين ، يقوى سيادة الغزاة ويدعمها كلما أذنت بالانهيار . بيد أن هذه السيادة قد أخذت في الاضمحلال ، مذ فقد العرب معاقلهم في جبال الألب . وفي سنة ٩٦٥ م أخرج المسلمون من مدينة جرينوبل ومن واديها الحصص (جريزيفودان) وطوردوا في تلك النواحي ، وساءت أحوالهم ، وأعلن الإمبراطور أوتو بعد ذلك بعامين أو ثلاثة وهو يومئذ في إيطاليا ، أنه سيتولى طرد المسلمين من الأراضي النصرانية ، ولكنه توفي دون القيام بمشروعه . ثم دنت بوادر المعركة الحاسمة : وحدث في ذلك الحين أن حبراً كبيراً ذائع الصيت ، وهو سان ماييل أسقف دير كلوني من أعمال برجونية ، حج إلى رومة ، ولما عاد من طريق دوفينه أسره المسلمون المرابطون في الجبال مع جماعة كبيرة من الحجاج ، واشترطوا عليهم فدى فادحة ، فدفعت بعد عناء ، وأطلق سراح سان ماييل وزملاؤه ، وأذكى الحادث حماسهم وخطهم ، وذاعت قصة أسرهم ، وما يعانیه الحجاج من شر المسلمين وعدوانهم . فنهض سيد من سادة تلك الأنحاء يدعى بويون ، (أو بيفون) ، وانتهاز فرصة الحماسة العامة وجمع حوله كثيراً من المقاتلة ، وبني حصناً في سترون على مقربة من حصن كان يملكه المسلمون ، ولبت يتحين الفرصة لمفاجأة العرب والاستيلاء على حصنهم ، حتى استطاع ذات يوم أن يحمل بعض الحراس على فتح الأبواب ، فتمت الخيانة ، وباغت النصاري المسلمين في حصنهم ، وقضوا عليهم قتلاً وأسراً (سنة ٩٧٢ م) .

وفي الوقت نفسه التف النصاري في دوفينه حول زعيم يدعى جيوم ، وهاجموا المسلمين في جميع مراكزهم وقلاعهم ومزقوهم في كل ناحية ، وبدا انهيارت سيادتهم في دوفينه ، ولم تبق إلا في پروفانس : ولما قوى جيوم وكثر جمعه ، بسط نفوذه

على پروفانس وتلقب بالقباب الإمارة ، واعتزم أن يخرج المسلمين نهائياً من تلك الأرض . فدعا السادة لمعاونته ومنهم كونت نيس ، ورأى المسلمون أن العاصفة تنذر باجتياحهم من كل ناحية ، فاستجمعوا كل أهبتهم وقواهم ، ونزلوا من الآكام إلى البسيط في صفوف متراسة ، ووقعت بينهم وبين النصارى معركة هائلة في «تورتور» فهزم المسلمون وارتدوا إلى قلاعهم ، ولاسيا «فراكسنيه» التي غدت ملاذهم الأخير ، فطاردهم النصارى أشد مطاردة ، وضيقوا الحصار عليهم ، فحاولوا الفرار تحت جناح الليل إلى الغابات المجاورة ، ولكن النصارى لحقوا بهم وأمعنوا فيهم قتلاً وأسراً ، وأبقى على من استسلم وعلى المسلمين الذين كانوا يحترفون الزرع في الضياع المجاورة ، وفر كثيرون من طريق البحر ، وتنصر كثير منهم ، وبقي نسلهم في تلك الأرض زمناً طويلاً .

وهكذا سقط حصن فراكسنم أو فراكسنيه سنة ٩٧٥ م ، بعد أن لبث زهاء ثمانين سنة مركزاً قوياً للغزوات العربية في غاليس ، وقسمت أسلاب العرب وأراضهم بين السادة والهند ، الذين اشتركوا في هذه الحرب الصليبية ، وانهارت سلطة العرب في تلك الأنحاء .

أما المستعمرات الإسلامية التي كانت مبعثرة في آكام الألب ، فيقال إنها طوردت ومزقت في نفس الوقت ، واعتنق الذين أسروا النصرانية . ولكن توجد رواية أخرى خلاصتها أن هذه المستعمرات لبثت في معاقلها نحو جيل آخر حتى تولى مطاردتها زعيم يدعى جيرولدوس . وعلى أى حال فلم تأت أواخر القرن العاشر حتى ذهبت سيادة المسلمين في غاليس وسويسرة ، ولم يجب أحد في إفريقية والأندلس صريح الغوث ، الذي وجهه أولئك المستعمرون البواسل إلى إخوانهم ، لأن الحوادث الداخلية لم تكن تسمح يومئذ ببذل هذا العون .

على أن ذلك لم يكن خاتمة الغزوات الإسلامية في تلك المياه . ففي سنة ١٠٠٣ م سارت حملة بحرية من مسلمي الأندلس ، ونزلت بجوار أنتيب في جنوب فرنسا ، واجتاحت الأراضي المجاورة . وفي سنة ١٠١٩ م نزلت حملة مسلمة أخرى في ظاهر أربونة وحاولت أن تستولى عليها ، ولكنها هزمت ومزقت . وفي سنة ١٠٤٧ م هاجمت حملة أخرى جزيرة ليران الواقعة إلى الغرب من مرسيليا وأسرت عدداً من الرهبان . وظهر في ذلك الحين زعيم أندلسي جرىء هو مجاهد العامري

أحد أمراء الطوائف ، وصاحب ثغر دانية والجزائر الشرقية (جزائر البليار) ، واهتم بأمر الغزوات البحرية ، فسار في أسطوله إلى مياه قورسقة وسردانية ، وغزا سردانية واحتل بعض أنحائها (سنة ٤٠٦ هـ - ١٠١٥ م) ، ولكن النصارى استردوها بعد قليل^(١) . ولبت مجاهد العامرى الذى تسميه الرواية النصرانية «موسيتو» أو موجيتوس «مدى حين سيد هذه المياه ، يبت فيها بحملاته الرعب والروع .

تلك هى قصة الغزوات الإسلامية فى غاليس وبلاد اللونبارد وسويسرة ؛ وهى قصة تغفل الرواية الإسلامية كثيراً من أدوارها ووقائعها ، ولكنها تشغل فراغاً كبيراً فى الروايات الكنسية والفرنجية المعاصرة . وهذه الروايات هى عمدتنا فيما نقل من سير هذه الغزوات الشهيرة . ومن المحقق أنها مشبعة بروح التحامل والخصومة فى كثير من المواطن ، ولكننا نستطيع مع ذلك أن نقبين منها ، أهمية الدور الذى قام به أولئك المجاهدون والمغامرون المسلمون ، فى تلك الزهاد والآكام النائية ، وما كان لهم بين هاتيك الأمم من السيادة والنفوذ مدى عصور .

— ٥ —

والآن فلنحاول أن نستعرض طرفاً من العوامل والظروف التى أحاطت بتلك الغزوات الإسلامية النائية ، وطرفاً من الآثار التى خلفتها فى البلاد والأمم التى كانت ميداناً لها .

ينكر بعض مؤرخى الغرب على تلك الفتوحات والغزوات العربية والإسلامية بوجه عام ، خاصة الاستقرار والإنشاء ، ويقولون إنها كانت فى الغالب حملات ناهبة ، تقوم على رغبة الكسب وتحصيل الغنائم . ولا ريب أن ظمأ المغم وشغف المغامرة ، وما إليها من لذة الاستكشاف والسيادة ، كانت من أهم العوامل التى قامت عليها هذه الغزوات ، وتلك هى العوامل الخالدة التى تقوم عليها فتوحات الأمم منذ أقدم العصور . ولكن من الحق أيضاً أن نقول إن نزعة الجهاد لم تكن بعيدة عن تلك الغزوات ، وإن كثيراً من أولئك المغامرين البواسل ، كانت تحفزهم الحماسة الدينية ، وفكرة الجهاد فى سبيل الله . وقد كانت هذه العصابات الغازية المستعمرة تعمل فى الغالب لحساب نفسها ، ولكنها كانت تعمل ملحوظة بعطف

(١) ابن خلدون ؛ المقدمة ص ٢١٢ .

الحكومات والأمم الإسلامية التي تنتمي إليها . وكانت تؤدي إلى تلك الحكومات خدمات حليمة ، بما كانت تقوم به من إزعاج الحكومات والأمم النصرانية ، وإضعاف جيوشها ومواردها . ومن المحقق أيضاً أن نزعة الاستقرار والإنشاء لم تكن بعيدة عن أذهان الغزاة ، بل كان يحفزهم مثل ذلك الروح الاستعماري القوي الذي دفع الأمم الغربية في العصر الحديث إلى افتتاح الأمم المتأخرة واستعمارها^(١) . وقد استقروا بالفعل واستعمروا ، حيث مهدت لهم الكثرة والقوة سبيل البقاء ، كما فعلوا في إقريطش (كريت) ، حيث استقروا بها بعد افتتاحها زهاء قرن وثلث قرن (٨٢٧ - ٩٦١ م) ، ونشروا بها الإسلام والحضارة الإسلامية . وكذلك استقروا مدى حين في باري وفي تارنت من ثغور إيطاليا الجنوبية وفي راجوزا (رغوس) من ثغور الأدرياتيك الشرقية ؛ وكان لهم على شواطئ قلورية (جنوبي إيطاليا) مستعمرة زاهرة لبثت تستطع في هذه المياه عصراً :

ويبالغ المؤرخون الغربيون أيضاً ، في تصوير الآثار المخربة لتلك الغزوات الإسلامية ، وما كانت تترن به من ضروب العنف والسفك . ولكن العنف والقسوة والسفك والتخريب ، لم تكن خاصة بالغزوات الإسلامية ، وإنما كانت من خواص العصر ذاته ، ولم تكن الغزوات النصرانية للأراضي الإسلامية أقل عنفاً وسفكاً . ويكفي أن نشير هنا إلى الحملات الصليبية التي لبثت مدى عصور تحمل إلى الأمم الإسلامية أروع صنوف الدمار والسفك ، بل يكفي أن نشير إلى ما كانت ترتكبه البعث الاستعمارية الحديثة ، الإسبانية والإنجليزية والفرنسية ، في الدنيا الجديدة من صنوف القسوة والسفك ، وما ترتكبه اليوم بعض الأمم الأوروبية « المتعدنة » من الجرائم المروعة في إفريقية وآسيا باسم المدنية والاستعمار .

* * *

والآن لنر ماذا خلفته الغزوات الإسلامية في هذه الأنحاء من الآثار المادية والاجتماعية . ومن المحقق أن هذه الآثار لاتكاد ترى اليوم ، ولا يشعر بها إلا الباحث المنقب . ويلاحظ أولاً أن الفتوحات العربية الأولى في غاليس وأكوتين لم يطل أمدتها أكثر من نصف قرن ، ولم تكن الحضارة الإسلامية في اسبانيا قد تكونت وتفتحت بعد . ثم كانت الغزوات اللاحقة التي فصلنا أخبارها ، والتي كانت

أقرب إلى المغامرة المؤقتة ، منها إلى الفتوح المستقرة ، فلم تتح للغزاة فرص الاستقرار والعمل السلمي ، لأنهم كانوا في مراكزهم النائية متفرقين ، يشتغلون قبل كل شيء بالدفاع عن مراكزهم وأنفسهم . بيد أن هذه الغزوات المحلية المتقطعة وهذه المستعمرات الإسلامية النائية ، خلفت وراءها في الأراضي المفتوحة بعض الآثار المادية والمعنوية . ومن ذلك ما كشفته المباحث الأثرية منذ القرن الماضي على شواطئ خليج سان تروبيه من أطلال الحصون العربية القديمة التي كانت قائمة في تلك الأرض ، والتي ما تزال قائمة في بعض آكام الألب الفرنسية والسويسرية ، وهي تدل على ما كان للغزاة من الحذق والبراعة في فن التحصينات والمنشآت الحربية . وهناك في جنوب فرنسا وفي بعض أنحاء إيطاليا الشمالية والجنوبية ، عدد كبير من الأبراج القائمة فوق الآكام والربى ، يدل ظاهرها على أنها كانت تستعمل لأغراض حربية . ويرى البعض أن هذه الأبراج هي آثار عربية من مخلفات الغزاة كانت تبنى لعقد حلقات الاتصال ، وتسهيل حركات الدفاع فيما بينهم ، ومن المعروف أن العرب منذ فتوحاتهم الأولى في سبتمانيا أعنى منذ أوائل القرن الثامن ، كانوا ينشئون في الأراضي المفتوحة حصوناً وأبراجاً تسمى «بالرباط» ، بيد أن فريقاً آخر من الباحثين يرى بالعكس أن هذه الأبراج إنما كانت من إنشاء أبناء الأرض المفتوحة ، أقاموها أيام اشتداد خطر الغزوات العربية ، ليستعينوا بها على رد الغزاة .

وقد ظفرت المباحث الأثرية أيضاً بالعثور على كثير من القطع الذهبية والفضية (المداليات) في أنحاء كثيرة من لانجدوك وپروفانس ، وثبت أنها من مخلفات العرب والمسلمين ، وأنها كانت تستعمل للتعامل مكان النقود ، ولكنها لا تحمل اسماً ولا تاريخاً ولا يمكن تعيين عهد سكها ، وإن كانت بذلك تدل على أنها ترجع إلى عصر الغزوات الأولى . ووجدت أيضاً في العهد الأخير في منطقة توراسيوف ودروع قيل إنها عربية ، من مخلفات الموقعة الشهيرة التي نشبت في تلك السهول بين العرب والفرنج في سنة ٧٣٢ م (موقعة بلاط الشهداء) .

ومن الحقائق التي لا شك فيها أثر المسلمين في الزراعة ؛ فقد رأينا أن كثيراً من الغزاة تخلفوا عن إخوانهم ، واستقروا في تلك الأرض وزرعوها ، ومن المعروف أن العرب حولوا وديان اسبانيا المجذبة ، إلى حدائق وغياض زاهرة ، ونقلوا

إليها مختلف الغراس من المشرق ، وأنشأوا بها القناطر العظيمة . وقد حمل هؤلاء الغزاة المغامرون إلى جنوب فرنسا كثيراً من خبرتهم الزراعية ، ولقنوها لسكان تلك الأنحاء . ويقال إن « القمح الأستر » الذي هو الآن من أهم محاصيل فرنسا إنما هو من مخلفات العرب ، وهم الذين حملوا بذوره ، وكانوا أول من زرعه بفرنسا ، والمرجح أيضاً أنهم هم الذين حملوا فساتل النخيل من إسبانيا وإفريقية إلى شواطئ الريفييرا . ومن آثارهم الصناعية ، استخراج « القطران » الذي تطلّى به قاع السفن ويحميها من العطب ، فهم الذين علموه لأهل بروقانس ، وما زال عندهم من الصناعات الدائنة ، وما زال اسمه الفرنسي Quitrان ينم عن أصله العربي .

ومن الحقائق الثابتة أيضاً ، فضل العرب في تحسين نسل الخيول في تلك الأنحاء ، وما يزال في جنوب فرنسا جهات تشتهر بجبال خيولها ونبل أرومتها ، ولا سيما في « كاماراج » في مقاطعة « لاند » من أعمال غسقونية ، ومن المحقق أن هذه الخيول الأصيلة الحميلة ، إنما هي من سلالة الخيول العربية ، التي أحضرها القرساني المسلمون معهم إلى تلك الأنحاء .

ولا ننسى ما للدم العربي من أثر في بعض أنحاء جنوب فرنسا . فقد رأينا أن المسلمين أنشأوا بعض المستعمرات الزراعية ، وتزوجوا من نساء تلك الأراضي وتناسلوا فيها . ولما تغلب عليهم النصارى وأخرجوا نهائياً من تلك الأراضي تنصر كثير منهم ممن أسروا ، وأرغموا على افتداء حياتهم وأسرهم بالتنصر ، وقد لبث أبناء أولئك المسلمين المتنصرين عصوراً في تلك البلاد ، يشتغلون بالزراعة والتجارة حتى جرفهم تيار التطور واندمجوا في المجتمع النصراني ، واختفت كل آثارهم وخواصهم العربية والإسلامية .

هذا ، وأما عن الآثار الاجتماعية ، فانه يلاحظ في بعض جهات بروقانس التي استقر فيها المسلمون مدى حين ، أن لسكانها بعض التقاليد الخاصة ، ومن ذلك أنواع معينة من الرقص يظن أنها ترجع إلى أصل عربي . على أن أعظم آثار العرب الاجتماعية في جنوب فرنسا ، يبدو في تطور الحركة الفكرية في العصور الوسطى ، فقد كان للعرب أثر عظيم في تكوين النزعة الشعرية في الجنوب ، وظهر أثر هذه النزعة واضحاً في الحركة الأدبية التي تعرف بحركة « التروبادور » Troubadour التي ظهرت في جنوبي فرنسا ، وفي شمال إسبانيا وشمال إيطاليا ، منذ القرن الحادي عشر

الميلادى ، وقوامها القريض الحربى والغنائى ، وزعمائها قرسان شعراء وفنانون . أضف إلى ذلك أن تأثير الحضارة الإسلامية في سير الحضارة الأوروبية ، لم يقف عند هذا العصور ولا عند هذه الحدود ، فقد استمرت العلائق بعد ذلك طويلاً بين مسلمى الأندلس والأمم النصرانية المجاورة ، وكان للحضارة الأندلسية في تطورها العقلى والاجتماعى أعظم الآثار .

وقد لبثت ذكرى العرب وذكرى الغزوات العربية في فرنسا ، تثير مدى القرن الثامن في نفوس النصارى أعظم ضروب السخط والروع ، وتقدمها الرواية الكنسية المعاصرة في أشنع الصور ؛ فلما ظهرت عصابات النورمان والمجر وغزت فرنسا من الشرق والغرب ، رأى النصارى من عيهم وسفكهم أهوالاً لا تذكر بجانبها أهوال الغزوات الإسلامية ، وارتفعت ذكرى العرب وأضحت تقترن بكل ما هو عظيم ضخيم^(١) ، وفي ذلك يقول المستشرق رينو : « إن ذكرى الغزوات النورمانية والمجرية لا توجد إلا في الكتب . ولكن ما السر في أن ذكرى العرب ما زالت ماثلة في جميع الأذهان . لقد ظهر العرب في فرنسا قبل النورمان والمجر ، واستطالت إقامتهم بعد الغزوات النورمانية والمجرية ، وإن غزوات العرب الأولى لطبعها طابع من العظمة ، حتى أننا لا نستطيع أن نتلو أخبارها دون تأثر . ذلك لأن العرب^(٢) دون النورمانيين والمجر ، ساروا مدى آماد في طليعة الحضارة ، ثم إنهم لبثوا بعد أن غادروا أرضنا موضع الروع في شواطئنا ، وأخيراً لأن المعارك التي اضطلعوا بها أيام الصليبيين في اسبانيا وإفريقية وآسيا ، أسبغت على اسمهم بهاء جديداً ، بيد أن هذه العوامل كلها قد لا تكفى لتعليل المكانة العظيمة التي يتبوأها الاسم العربى في أوربا وفي أذهان المجتمع الأوروبى . أما السبب الحقيقى لهذه الظاهرة المدهشة ، فهو الأثر الذى بثه قصص الفروسية في العصور الوسطى ، وهو أثر لا يزال ملموساً إلى يومنا »^(٣) .

(١) Reynaud : ibid , p. 310

(٢) يلاحظ أن كلمة « العرب » هنا يجب أن تفهم بأوسع معانيها ، فالمقصود بها هنا « الغزاة المسلمون » . ومنذ أواخر القرن الثامن الميلادى تغلبت الصبغة العربية عن هذه الفتوحات ، وتغلدو فتوحات إسلامية ، ينضمون تحت لوائها العرب وغيرهم من أبناء المجتمعات الإسلامية ، التي قامت في إفريقية واسبانيا .

(٣) Reynaud : ibid ; p. 311 — 312 . وقد اعتمدنا على مؤلف هذا الدلالة في كثير من هذه الملاحظات الخاصة بآثار العرب (المسلمين) في جنوب فرنسا .

الكتاب الثاني

الدولة الأموية في الأندلس

القسم الرابع

ربيع الخلافة الأندلسية

٣٥٠ - ٣٧٠ هـ : ٩٦١ - ٩٨١ م

الفصل الأول

الحكم المستنصر بالله

خلافة الحكم المستنصر . تنظيم البيعة له . منايته بهوسيع المسجد الجامع . تحريك أمير قشتالة . وفود أردونيو الرابع على الحكم . وصف لحفل استقباله . سفارة سانشو . وفاة أردونيو . تحالف الملوك النصارى ، خروج الحكم إلى الغزو . استيلاء المسلمين على شلت لإشتين . لافتتاح قلهرة . استرداد حصن غرماج . مناية الحكم بتعزيز الأسطول . ظهور النورمان في المياه الغربية . مقاومة المسلمين وارتداد النورمان . عود النورمان إلى المياه الغربية ثم انسحابهم . قرطبة تغزو مركز التوجيه في شبه الجزيرة . وفود الملوك النصارى وسفاراتهم على قرطبة . حوادث المغرب . انحلال دولة الإدارة . أميرهم الحسن بن كزون . طاعته للناصر والحكم . مسير بلكين قائد المعز الفاطمي إلى قتال زفانة . ولاء زفانة لبني أمية . غزو بلكين لأراضيهم . هزيمة زفانة . نكث الحسن بن كزون . الحكم يرسل جيوشه إلى المغرب . هزيمة الحسن وفراره . عوده إلى القتال . هزيمة جند الأندلس . الحسن يطلب الصلح . الحكم يرسل كبير قواده غالباً في جيش ضخم . غالب يطارد الحسن ويرغمه على التسليم . التجاء الحسن إلى قرطبة . وصف لموكب القائد غالب . وصف لصفات الحسن . مغادرته قرطبة إلى مصر . اعتداء صاحب قشتالة على الأراضي الإسلامية . نكبة جعفر ويحيى أبني على بن حمدون . اصطناع الحكم للبربر . مولد ولي العهد هشام . الحكم العالم . شغفه باقتناء الكتب . المكتبة الأموية الكبرى ودور الحكم في إنشائها . ذبوع الشنف باقتناء الكتب . جامعة قرطبة . تشجيع الحكم للعلماء . تقدير النقد الحديث لهذه النزعة العلمية . المكتبات العامة بالأندلس . أخذ البيعة لولي العهد الطفل . تعلق ابن حيان على ذلك . وفاة الحكم . ورعه وخلاله . الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي . هديته إلى الحكم . القائد غالب الناصري . الحكم الشاعر . أبهة بلاط قرطبة في عهد الحكم . تكوين المجتمع الأندلسي في هذا العصر . الأرستقراطية الأندلسية . المولدون . طبقة الرقيق . النصارى المعاهدون . لليهود . نفوذهم وازدهارهم العلمي . طويت بوفاة عبد الرحمن الناصر ، ألمع صفحة في تاريخ اسبانيا المسلمة ، وتاريخ الخلافة الأندلسية .

استقرت الخلافة الأندلسية في عهد الناصر ، على أسس ثابتة ، وصحقت ثورة المولدين والعرب ، بعد أن كادت تقضي على ملك بني أمية ، وعلى صرح الدولة الأندلسية كلها ، ورد النصارى الإسبان إلى عقر دارهم ، فسكنوا وجلين منتظرين ، وتمتعت الأندلس بعهد من السلم والاستقرار والرخاء ، لم تعرفه من قبل ، ووصلت رقعة الوطن الأندلسي إلى أعظم ما وصلت إليه ، إذا استثنينا عهد الفتح الأول . وهكذا كان عصر الناصر بالنسبة للأندلس ، ذروة عصورها ، قوة وعظمة ومجداً .

وخلف الناصر أكبر ولده الحكم المستنصر بالله بعهد منه ، وكان الناصر قد آثره منذ حداثته على سائر إخوته وولاه عهده^(١). وقيل إنه أخذ له بيعة العهد وهو طفل لم يجاوز الثامنة . وبويع الحكم في اليوم التالي لوفاة أبيه ، في الثالث من رمضان سنة ٣٥٠ هـ (١٦ أكتوبر ٩٦١ م) ، وكان الحكم يومئذ في نحو الثامنة والأربعين من عمره ، إذ كان مولده حسبما تقدم بقرطبة في ٢٤ من جمادى الأولى وقيل في غرة رجب سنة ٣٠٢ هـ (٩١٥ م)^(٢) وأمه أم ولد تدعى مرجان . وأخذت البيعة للخليفة الجديد في قصر الزهراء . وجلس الحكم على سرير الملك في البهو الأوسط الذهبي ، واجتمع إخوته ، وسائر الوزراء ورجال الدولة ، وأكابر القعيان الصقالبة ، ومن دونهم من رجال الخاص ، وأهل الخدمة ، وأكابر الحند ، انتظموا جميعاً وفق مراتبهم في المجلسين الشرقي والغربي ، وفي مختلف الأروقة ، وانتظم الحرس وفرسان الحشم وطبقات الحند ، فيما وراء باب السدة ، صفوفاً متصلة حتى باب المدينة . ولما تمت البيعة ، أذن للناس في الانصراف ، إلا الإخوة والوزراء ورجال الخاصة ، فلزمهم لبثوا بالقصر ، حتى احتمل جسد الخليفة الداهب (الناصر) إلى قصر قرطبة ليُدفن هنالك في مقبرة القصر^(٣) .

ولم يكن الحكم حين ولايته ، محدثاً في شئون الملك ، بل لقد مارسها في حياة أبيه ، وكثيراً ما ندبه أبوه لمباشرة المهام والشئون الخطيرة ، فكان عند جلوسه أميراً مكتمل النضج والخبرة .

واستهل الحكم عهده بالنظر في توسيع المسجد الجامع ، وأصدر بذلك مرسومه في اليوم التالي لجلوسه . وكان المسجد الجامع قد ضاقت جنباته بمجموع المصلين ، فقرر توسيعه من الناحية الشرقية على طول الجامع من الجنوب إلى الشمال حتى صحنه . وبلغت الزيادة نحو مساحة الجامع ، فتضاعف بذلك حجمه . وابتنى الحكم محرابه الثالث ، واستغرق بناؤه أربعة أعوام ، وعملت له قبة فخمة زخرفت

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٤٤ ، وأعمال الأعلام لابن الخطيب (المطبوع ببيروت سنة ١٩٥٦) ص ٤١ .

(٢) الإحاطة في أخبار غرناطة لابن الخطيب (القاهرة سنة ١٩٥٦) ج ١ ص ٤٨٧ ، والحلة السيرة لابن الأبار ص ١٠٢ . وراجع ص ٣٧٨ من هذا الكتاب .

(٣) نفع الطيب ج ١ ص ١٨١ .

بالفسيفساء البديعة . وأرسل قيصر قسطنطينية رومانوس الثاني إلى الحكم منها قدراً كبيراً ، كما أرسل إليه أستاذاً خبيراً بأعمال الفسيفساء . وأنشأ الحكم أيضاً مقصورة جديدة لها قبة على الطراز البيزنطي . وابتنى إلى جانب المسجد داراً للصدقة ، وأخرى للوعاظ وعمال المسجد . وتشغل زيادة الحكم في الجامع اليوم قسمه الأوسط ، الواقع بين الجناح القديم ، الذي أنشأه عبد الرحمن الداخل وزاد فيه عبد الرحمن الأوسط — والجناح الذي أنشأه الحاجب المنصور ، وهو يشغل نحو ثلث المسجد من الناحية الشرقية (١) .

ولم يمض سوى قليل ، حتى بدت من الأمراء النصاري نزعة إلى العدوان . وكان الناصر قبيل وفاته قد عاون سانشو الأول (سانجيه) ملك ليون ابن أردونيو الثالث بالمال والجند على استرداد عرشه ، وفر ابن عمه ومنافسه أردونيو الرابع مهزوماً إلى برغش (سنة ٩٦٠ م) ، واشترط الخليفة ثمناً لهذا العون ، أن يهدم النصاري بعض حصون الحدود ، وأن يسلموا عدداً آخر منها إلى المسلمين . فلما توفي الناصر بعد ذلك بقليل ، نكث سانشو بالعهد ، وأبى تنفيذ ما وعد . ومن جهة أخرى فقد ظهر عامل جديد في عدوان النصاري . وذلك أن قشتالة ، وقد كانت يومئذ ولاية من ولايات ليون ، كانت تنزع إلى الاستقلال ، وكان زعيمها الكونت (القومس) فرنان كوثالث (٢) رجلاً مقداماً يلتف حوله مواطنوه ، فثار على سانشو ، وأعلن استقلال قشتالة ، ونصب نفسه أميراً عليها ، وأخذ يغير على أراضي المسلمين المجاورة ، وهي مما يلي غرب الثغر الأعلى ، وشمال الثغر الأوسط ، وانضم إليه كثير من النصاري المتعصبين . فما بذلك جيشه واشتد بأسه . وكان الكونت يطمح إلى توسيع أملاكه ، ويعتمد على مناعة قلاع الواقعة على الحدود . وقد أغضى الحكم في البداية عن هذا العدوان مؤثراً الاعتصام بالسلم ، ولكنه لما رأى تمادي النصاري في بغيتهم ، أخذ في التأهب للحرب ، وأنفذ الكتب إلى سائر الولاة والقواد ، بوجوب الأهبة والاستعداد للجهاد في سبيل الله .

وكان أردونيو الرابع الملك المخلوع ، قد لجأ إلى الحكم ليعاونه على استرداد

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٤٩ ، وأعمال الأعلام ص ٤٨ .

(٢) ويسميه ابن خلدون « فردلند القومس » (ج ٤ ص ١٤٤) وفي مكان آخر فرلند بن غند شلب (ج ٤ ص ١٨٠) وورد اسمه في أعمال الأعلام « فران غنصااص » وهو أكثر مطابقة لاسم القشتالي (ص ٣٧٥) .

عرشه . وتفيض الرواية الإسلامية في وصف مقدمه على قرطبة ، ومثوله بين
يدى الخليفة ، فتقول لنا إن أردونيو وقد على قرطبة في عشرين رجلا من وجوه
أصحابه ، ومعهم غالب الناصري مولى الحكم وصاحب مدينة سالم ، وذلك في آخر
صفر سنة ٣٥١ هـ (٣٠ مارس ٩٦٢ م) . وتلقاهم الوزير هشام المصحفي في قوات
كثيفة من الحند . فلما دخلوا قصر قرطبة ، ووصل أردونيو إلى ما بين باب السدة
وباب الحنان ، سأل عن مكان مدفن الناصر ، فأشير إليه في الروضة بداخل
القصر ، فسار إليه وخلع قلنسوته وانحنى أمامه خاشعاً . وأنزل أردونيو وصحبه
في دار الناعورة الفخمة ، وبولغ في إكرامهم . وبعد يومين استدعاهم الحكم
إلى قصر الزهراء ، وقد حشدت قوات عظيمة من الحند ، وبولغ في الاحتفال
بالزينات ، وإظهار الأسلحة والعدد . وجلس الحكم فوق سرير الملك في المجلس
الشرقي ، ومن حوله الإخوة والوزراء والأكابر ، وجيء بأردونيو وأصحابه ،
ومعهم جماعة من وجوه نصارى الأندلس . فدخلوا بين الصفوف الفخمة المزركشة
وقد بهروا بما رأوا ، وجازوا أبواب القصر المتعاقبة ، وأجلسوا برهة في بهو
الانتظار ، ثم استدعوا للمثول بين يدي الخليفة ، فسار أردونيو ومن ورائه أصحابه ،
فلما وصل إلى المجلس الخلافي كشف رأسه وخلع برنسه . ولما دنا من سرير الحكم
سجد أمامه ثم قبل يده . ثم ارتد راجعاً إلى كرسي من الديباج المثقل بالذهب .
وتولى الترجمة بين أردونيو والخليفة ، وليد بن خيزون قاضي الدمة بقرطبة ،
وأعرب الحكم عن سروره وترحيبه بمقدم أردونيو ، ووعد برعايته . وبسط
أردونيو قضيته ، وشكا مما أنزله به خصمه سانشو ، مع أن الشعب كان قد آثره
باختياره ، ولكن خصمه لحاً إلى الخليفة الراحل واستجار به ، فأغاثه ونصره
عليه ، ومع ذلك فقد قصر في الوفاء بعهوده ، وأنه يضع نفسه وبلاده وشعبه ،
تحت رعاية الخليفة ، وأنه يتعهد بمخالفة الإسلام ، ومقاطعة صهره فردلند القومس
أمير قشتالة ، ويقدم ولده غرسيه رهينة بصدق وفائه^(١) . وهنا وعده الخليفة
بعونه ونصرته في تمليك ما كان له . وانصرف أردونيو بعد الشكر والتحية ،
وخرج من المجلس ، وقد بهره وأذهله ما رأى من آيات الفخامة والسلطان . وقدم
إليه الحاجب جعفر الهدايا التي أمر بها الخليفة له ولأصحابه . وألقى الخطباء والشعراء

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٥ .

خطبهم وقصائدهم ، منوهين بروعة هذا اليوم المشهود . فن ذلك قول عبد الملك ابن سعيد المرادى من قصيدة :

ملك الخليفة آية الإقبال وسعوده موصولة بنوال
والمسلمون بعزة وبرفة والمشركون بذلة وسفال
ألفت بأيديها الأعاجم نحوه متوقعين لصولة الرثبال
هذا أميرهم أتاه آخذاً منه أوأصر ذمة وحبال
متواضعاً لجلاله متخشعاً متبرعاً لما يرع بقتال^(١)

فلما نمت إلى سانشو ما وعد به الخليفة خصمه ومنافسه ، خشي عاقبة هذا المنسعى ، فبعث إلى الحكم وفداً من الأكابر والأجبار ، يعرض عليه أن يعترف بطاعته ، وأن يقوم بتنفيذ ما تعهد به للناصر من تسليم بعض الحصون الواقعة على الحدود وهدم البعض الآخر^(٢). ولكن أردونيوما لبث أن توفي ، وعاد سانشو إلى نكته بعد أن أمن شر منافسه . وهنا شعر الأمراء النصاري بخطورة أهبة المسلمين العسكرية ، وأدركوا أن لا بد لهم من الاتحاد جميعاً ، لكي يستطيعوا مواجهتهم . وهكذا عقد التحالف بين سانشو ملك ليون ، وخصمه الكونت فرنان أمير قشتالة ، وغرسية سانشيز ملك ناغار ، وكونت برشلونة ، وتأهب الجميع لمداغة المسلمين .

وفي صيف سنة ٣٥٢ هـ (٩٦٣ م) خرج الحكم إلى الغزو ، معلناً الجهاد ، واجتمعت إليه الجيوش في طليطلة ، فسار مخترقاً جبال وادي الرملة إلى أراضي قشتالة ، وأشرف على قلعة شنت إشتين المنيعة^(٣) فحاصرها المسلمون ، واستولوا عليها . وعبثاً حاول الكونت فرنان كونثال ، أن يقف في سبيل المسلمين ، واجتاح المسلمون أراضيهم ، ومزقوا قواته ، حتى أذعن إلى طلب الصلح ، ولكنه فكث عهده ، فهاجمه المسلمون كرة أخرى ، واستولوا على بلدة أنتيسة الحصينة^(٤).

(١) أورد لنا المقرئ (عن ابن حيان) عن هذه الزيارة تفاصيل مسهبية (راجع نفع الطيب ج ١ ص ١٨١ - ١٨٤) . ولخصها ابن خلدون (ج ٤ ص ١٤٥) . وكذلك للبيان المغرب ج ٢ ص ٢٥١ .

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٥ .

(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥١ .

(٤) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٤ . وأنتيسة هي Atienza .

وأرسل الحكم جيشاً آخر بقيادة يحيى بن محمد التجيبي حاكم سرقسطة في اتجاه نافار . وكان ملكها غرسية سانشيز ، قد أغار على الأراضي الإسلامية ناكثاً لعهد ، وهرع حليفه سانشو ملك ليون في قواته لإنجاده ، ونشبت بين الفريقين معركة هزم فيها النصاري وامتنعوا بالجبال . وفي نفس الوقت سار القائد غالب مولى الحكم في جيش قوى إلى مدينة قلهرّة ، من قواعد نافار الغربية ، فافتتحها ، وحصنها وشحنها بالرجال والعدة ، وكان فتحاً عظيماً . وسار حاكم مدينة وشقة في قواته شمالاً نحو أراضي نافار مما يلي جبال البرنيه ، واستولى على حصن يبه^(١) واجتاح تلك المنطقة ، وغنم ما فيها من السلاح والأقوات والماشية^(٢) . واستغرقت هذه الفتوح والغزوات العظيمة ، الصائفة في سنتي ٣٥٢ و ٣٥٣ هـ (٩٦٣ - ٩٦٤) . ويروي لنا ابن خلدون قصة غزوة إسلامية أخرى في أراضي قشتالة - فيقول لنا إن غالباً سار إلى بلاد ألبه ، ومعه يحيى بن محمد التجيبي ، وقاسم بن مطرف بن ذى النون ، فاستولى على حصن غرماج Gormaz . ويضع ابن خلدون تاريخ هذه الغزوة في سنة ٣٥٤ هـ (٩٦٥ م) . وتقع قاعدة « غرماج » الحصينة على نهر دويرة على مقربة من شنت إشتين . وكان الناصر قد انزعها من النصاري في سنة ٩٤٠ م . والظاهر أن القشتاليين بقيادة فرنان كوثالث ، كانوا قد استولوا عليها فيما استولوا عليه من قواعد الحدود ، قبل أن يخرج الحكم إلى الغزو ، فاستردها المسلمون في صائفة سنة ٣٥٣ هـ ، أو في الصائفة التالية ، وقاموا بتحسينها للدفاع القشتاليين في هذه المنطقة^(٣) .

وتشير الرواية الإسلامية فوق ذلك إلى غزوات ناجحة أخرى ، قام بها المسلمون في أراضي قشتالة في سنتي ٣٥٥ و ٣٥٦ هـ ، بيد أنها لا تقدم إلينا شيئاً عن تفاصيل تلك الغزوات^(٤) .

وفي سنة ٣٥٣ هـ وقعت بالعاصمة الخلافة مجاعة عظيمة ، فبذل الحكم للفقراء والمعوزين في سائر أرباض قرطبة والزهراء ، من النفقة ما يكفل أقواتهم ويسد عوزهم .

(١) وبالإسبانية Yerba .

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٥ .

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٥ .

(٤) راجع البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥٥ .

وكانت حوادث المغرب الأقصى (وسوف نتحدث عنها بعد) ، وما يتهدد الأندلس من جراء مشاريع الفاطميين وأشياعهم في تلك المنطقة ، مما يشغل حكومة قرطبة ، ويحفظها دائماً إلى اليقظة والتأهب ، وكان من أثر ذلك أن قصد الحكم في شهر رجب سنة ٣٥٣ إلى ثغر ألمرية (سبتمبر سنة ٩٦٤) في جماعة كبيرة من الرؤساء والقادة ، ليشرف بنفسه على أعمال التحصين الحارية فيها ، وليتخذ ما يجب لتجديد الأسطول وتعزيزه . وكانت ألمرية أعظم قواعد الأسطول الأندلسي ، وكانت سفنه الراسية بها يومئذ تبلغ ثلاثمائة قطعة^(١) .

بيد أنه لم يمض قليل ، حتى جاء الخطر يتهدد الأندلس من ناحية أخرى : ففي أواخر سنة ٣٥٥ هـ^(٢) (أواخر سنة ٩٦٧ م) ظهرت سفن النورمان أو المجوس في مياه الشاطئ الغربي قبالة ولاية الغرب .

وكان النورمان قد ظهرُوا في مياه الأندلس لأول مرة في سنة ٢٢٩ هـ (٨٤٣ م) أيام عبد الرحمن بن الحكم ، وبدأت حكومة قرطبة تعنى بشأن الأسطول ومضاعفة أهبتها البحرية من ذلك الحين . وكان أولئك الغزاة النورمان في هذه المرة من أهل دانماركة المجوس ، ويقودهم رتشارد الأول دوق نورماندى ، وحفيد زعيمهم الكبير رولو . وكانت عدة أسطولهم ثمانية وعشرين مركباً . ونزل الغزاة على مقربة من بلدة قصر أبى دانس^(٣) ، وعاثوا في تلك المنطقة ، ثم زحفوا شمالاً إلى بسائط أشبونة الغنية اليانعة ، وعاثوا فيها تخريباً ونهباً ، واجتمع المسلمون في تلك المنطقة لقتالهم . ونشبت بينهم وبين الغزاة موقعة دامية قتل فيها كثير من الفريقين . وفي تلك الأثناء خرج أسطول إشبيلية من نهر الوادى الكبير بقيادة أمير البحر عبد الرحمن بن رماحس ، وسار على عجل إلى شاطئ البرتغال الجنوبي ، وكان الغزاة قد انحدرُوا عندئذ جنوباً ثم شرقاً بمحاذاة الشاطئ ، ووقع اللقاء بين سفنهم وبين سفن المسلمين عند مصب نهر شيلب . فحطم المسلمون عدة من سفن الغزاة ، وأنقلوا من كان بها من أسرى المسلمين ، وقتل كثير من النورمان ، وارتدوا منهزمين عن تلك المياه ، بيد أن سفنهم لبثت تجوس خلال المياه الغربية ، والمسلمون لهم بالمرصاد أينما ظهوروا . وأمر الحكم زيادة في التحوط أن تحشد بعض

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥٢ ، والإحاطة (١٩٥٦) ج ١ ص ٤٨٦ .

(٢) ويذكر ابن خلدون أنها كانت سنة ٣٥٤ هـ (ج ٤ ص ١٤٥) .

(٣) وهي بالإنجليزية Alcacer do Sal ، وهي ثغر برتغالى صغير يقع جنوب شرق أشبونة .

سفن الأسطول الصغرى فى نهر الوادى الكبير تجاه قرطبة ، وترتيبها على هيئة
مراكب النورمان^(١) ، وذلك خشية أن يتسرب الغزاة بطريق النهر إلى العاصمة ،
كما فعلوا حينما هاجموا إشبيلية فى غزوتهم الأولى .

ولم تمض بضعة أعوام على ذلك ، حتى عادت مراكب النورمان تجوس خلال
المياه الغربية (٣٦٠ هـ - ٩٧١ م) مرة أخرى ، وتهدد شواطئ ولاية الغرب
الغنية .

ويقدم إلينا ابن حيان عن هذه الغزوة الثانية للنورمان لشواطئ الأندلس
بعض تفاصيل ملخصها أن الحكم عهد إلى أمير البحر عبد الرحمن بن رماحس
بتسيير الأسطول من ألمرية وإشبيلية ، واجتماع قوى الأندلس البحرية كلها
لمواجهة الغزاة ، كما عهد إلى الوزير القائد غالب بن عبد الرحمن بأن يشرف على
القوات البرية والبحرية التى أعدت لمداخلة أولئك الغزاة ، وأمر صاحب الخيل
والحشم زياد بن أفلح بإخراج السلاح والعدة ، وحشد قوة مختارة من الجند .

بيد أنه لم تقع فيما يبدو ، أية معارك هامة بين المسلمين والغزاة ، ولم يحدثنا
ابن حيان عن وقوع مثل هذه المعارك . والظاهر أنهم ارتدوا من تلقاء أنفسهم
لما رأوا من تفوق قوى المسلمين^(٢) .

وفى خلال ذلك كانت قرطبة تغدوشيناً فشيناً ، مركز التوجيه فى شبه الجزيرة
الإسبانية كلها ، وتغدو كعبة للملوك اسبانيا النصرانية ، يفدون إليها تباعاً ، يقدمون
إليها عهود الطاعة ، ويلتمسون منها الصداقة والعون . وقد بدأ تقاطر هذه الوفود
والسفارات من سنة ٣٥٥ هـ (٩٦٦ م) واستمر عدة أعوام . ويجدر بنا قبل
التحدث عنها ، أن نشير إلى ما وقع من تغييرات فى الإمارات والممالك النصرانية .
فقد توفى سانشو ملك ليون مسموماً فى سنة ٩٦٦ م . وخلفه ولده الطفل راميرو
الثالث ، تحت وصاية عمته الراهبة البيرة ، وكان من أثر ذلك أن وقع التفكك .
فى مملكة ليون ، وأعلن عدة من الزعماء المحليين استقلالهم . وتوفى الكونت

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥٥ .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥٧ . وابن حيان فى المقتبس - مخطوط أكاديمية التاريخ
بمديرية (مجموعة كوديرا) المنشور بتحقيق الأستاذ عبد الرحمن على الحجى (بيروت ١٩٦٥)
ص ٢٣ - ٢٦ وبه بيانات وتفاصيل هامة عن حوادث الأعوام الخمسة من سنة ٣٦٠ إلى سنة ٨٣٦٤ هـ .
وسوف نرجع إليه بكثرة فيما يتعلق بأحداث هذه الأعوام وأحوالها .

فرنان كونثال أمير قشتالة في سنة ٩٧٠ م ، وخلفه ولده غرسية فرناندز . وتولى عرش نافار سانشو غرسية الثاني ، بعد وفاة أبيه غرسية سانشيز .

وكان أول الوافدين على قرطبة من أمراء النصارى أمير جليقية ، وأمير أشتوريش ، (الاسترياس) . ثم وفدت رسل سانشو غرسية ملك نافار ، وهم جماعة من القوامس والأساقفة يسألون الصلح ، فأجابهم الحكم إلى ما طلبوا .

ووفدت في شعبان سنة ٣٦٠ هـ (يونيه ٩٧١ م) سفارة من أمير برشلونة الكونت بوريل ابن شونير Saunier على رأسها مبعوثه القومس بون فلي لتجديد المودة والصداقة ، ومعهم ثلاثون أسيراً من المسلمين الذين كانوا محجوزين بالإمارة ، تقريباً من الخليفة . فاستقبلهم الحكم بالمجلس الشرقي من قصر الزهراء مرتين ، الأولى في الرابع من رمضان سنة ٣٦٠ هـ ، والثانية في الثاني من شوال ، واستمع إلى رسالتهم بالقبول والرضى ، وصرفهم بجزيل الصلات وفاخر الكسى^(١) . وفي السادس من ذي الحجة سنة ٣٦٠ هـ (أكتوبر ٩٧١ م) وفدت الراهبة البيرة عمة ملك ليون راميرو الثالث والوصية عليه — ويسمى ابن حيان حلورية وأحياناً حلورية^(٢) — ، فقبولت في قرطبة بمظاهر الترحاب والتكريم ، واحتفل الحكم باستقبالها بقصر الزهراء في يوم مشهود ، وعقد السلم لملك ليون تحقيقاً لرغبتها ، وأغدق عليها الهدايا والصلوات « وحملت على بغلة فارهة بسرج ولحام مثقلين بالذهب وملحفة ديباج »^(٣) . ومما هو جدير بالذكر أنه قام بالترجمة يومئذ بين الخليفة الحكم ، وبين سفراء أولئك الأمراء والملوك النصارى ، قاضي النصارى وأسقفهم بقرطبة ، عيسى بن منصور ، وقومس أهل الذمة ، معاوية بن لب ، ومطران إشبيلية عبيد الله بن قاسم . وكانت لغة النصارى

(١) ابن حيان في المقتبس — قطعة أكاديمية التاريخ السالفة الذكر ص ٢١ و ٢٢ .

(٢) راجع ابن حيان في المقتبس — القطعة السالفة الذكر ص ٦٣ و ١٤٦ و ٢٣٥ و ٢٤١ .
ويلاحظ أن ابن حيان لم يتحدث عن قدومها بنفسها إلى قرطبة وإنما يتحدث عن قدوم رسل من قبلها .
بيد أننا أخذنا هنا برواية ابن خلدون بالرغم من كونها تنصرف إلى اسم سيده نصرانية أخرى .
والرواية الإسبانية تؤيد هذا التفضيل .

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٦ . وراجع المقتبس لابن حيان (قطعة أكاديمية التاريخ السالفة الذكر) ص ٦٤ .

الإسبان يومئذ هي اللغة الرومانية (الرومانشي) Romance أو « اللاتينية » ، وهي التي تطورت فيما بعد إلى اللغة القشتالية^(١) .

ووفدت سفارات أخرى من غرسية فرناندز أمير قشتالة ، وفرنان لينيز كونت شلمنقة وغيرهما . وفي سنة ٩٧٣ م (٣٦٢ هـ) وفدت سفارة جديدة من سانشو غرسية ملك نافار ، ومن الراهبة إلبيرة الوصية على ملك ليون . وكان جل هذه الزيارات والسفارات من أمراء اسبانيا النصرانية ، يقصد إلى عقد السلم والمودة مع خليفة الأندلس ، وأحياناً إلى تقديم الطاعة وطلب العون .

هذا وقد وردت إلى الخليفة رسالة ودية من يوحنا زيمسكي (الدمستق) قيصر قسطنطينية على يد رسوله قسطنطين الملقى ، وذلك في جمادى الأولى سنة ٣٦١ هـ (٩٧٢ م)^(٢) ، ورسالة أخرى في أواخر سنة ٣٦٣ هـ (٩٧٤ م) من إمبراطور ألمانيا أوتو الثاني الذي خلف أباه أوتو الأول ، وفيها يجدد علائق المودة التي كانت بين أبيه وبين الناصر . ووردت في نفس العام سفارة جديدة من الكونت بوريل أمير برشلونة يطلب تجديد المودة والصداقة .

ويعلق العلامة المؤرخ الأستاذ بيدال على ذلك بقوله : « وصلت الخلافة الأندلسية في ذلك العصر إلى أوج روعتها ، وبسطت سيادتها السلمية على سائر اسبانيا ، وكفلت بذلك السكينة العامة » .

وفي هذا العام ، سنة ٣٦١ هـ ، في الخامس والعشرين من جمادى الأولى ، أمر الخليفة الحكم صاحب مدينة الزهراء ، محمد بن أفلح ، بمطاردة الشعراء المهجائين والقبض عليهم ، صوناً لأعراض الناس من لاذع ألسنتهم ومقذع هجائهم وكان منهم عيسى بن قرلمان الملقب بالزبراقة ، ومونس الكاتب ، وأحمد بن الأسعد ، ويوسف بن هارون البطليوسي وغيرهم . فظفر صاحب المدينة بمعظمهم وأودعهم السجن ، واختفى البطليوسي حيناً ، ولكنه لما شعر بوطأة المطاردة ،

(٢) R. M. Pidal : Origenes del Espanol p. 421

(٣) راجع المقتبس قطعة أكاديمية التاريخ ص ٧١ و ٧٢ . وكان يوحنا زيمسكي . وهو كبير الجيش البيزنطي قد ائتمر بعمه القيصر نيقفور الثاني مع زوجه الحسناء ثيوفانو وانتهى بقتله وذلك في العاشر من ديسمبر سنة ٩٦٩ م ، واعتلى العرش في الحال مكانه ، وحكم حتى وفاته في العاشر من يناير سنة ٩٧٩ م .

قدم نفسه لصاحب المدينة . فزج إلى السجن . ورفع أمره إلى الخليفة ، فرق
لخنتهم . وأمر بالإفراج عنهم . فأطلق سراحهم في أواخر شعبان من هذه السنة (١)
وفي هذا الإجراء ما يشهد برفيع خلال الحكم . ورقة شعوره ، وموفور
احتشامه .

* * *

وفي ذلك الحين حدثت بعدوة المغرب ، في الضفة الأخرى من البحر ، حوادث
هامة . شغلت الحكم ، وكدرت صفو السلام السائد في مملكته . وقد سبق أن
أشرنا إلى غزو الناصر لدين الله لثغر سبتة ، وعبور جيوشه إلى المغرب لمقاومة
جهود الفاطميين في السيطرة عليه . ومحاربة الأدارسة أمراء المغرب وحلفاء
الفاطميين ، ومطاردتهم . حتى أذعنوا في النهاية إلى طلب الصلح ، والاعتراف
بطاعة الناصر (سنة ٣٣٢ هـ - ٩٤٣ م) . وقيام الدعوة المروانية بالمغرب منذ
ذلك الحين .

وكانت دولة الأدارسة ، قد تقلصت في ذلك الحين ، عن معظم أنحاء المغرب
الجنوبية والوسطى ، وارتدت إلى منطقة الريف الشمالية ، ما بين غربي بحر
الزقاق والمحيط ، وجعلت قاعدتها بعد انقراض أمرهم في فاس ، في قلعة حاجر
النسر المنيع ، الواقعة في جنوبي تطوان . ولم تكن مع ذلك دولة مستقلة بمعنى
الكلمة ، إذ كانت تنضوي تحت لواء المتغلب على المغرب ، سواء من العبيديين
(الفاطميين) أصحاب إفريقية ، أو الأمويين أصحاب الأندلس . وكان أمير الأدارسة
في أواخر عهد الناصر ، الحسن بن كنتون (أو قنون) ، وهو القاسم بن محمد
ابن القاسم بن إدريس ، الذي قدر أن تنقضي على يده دولة الأدارسة بالمغرب ،
وكان قد بايع العبيديين ، ودعا لهم حينما تغلب جوهر الصقلي على المغرب ، ناكثاً
بذلك عهده للناصر . فلما انصرف جوهر إلى إفريقية في أواخر سنة ٤٤٩ هـ (٩٦٠ م)
عاد الحسن إلى طاعته لبنى أمية . ولما توفي الناصر أعلن الحسن طاعته لولده الحكم
المستنصر . ولم يكن ذلك سوى مصانعة ورياء ، إذ كان الأدارسة يبغضون
بنى أمية ، ويتربصون فرص الخروج عليهم ، ولم تكن طاعتهم لهم إلا خوفاً من
بطشهم ، لوقوع مملكتهم في شمال العدو على مقربة من الأندلس .

(١) راجع المقتبس - قطعة أكاديمية التاريخ المشار إليها - ص ٧٣ - ٧٥ .

وفي أوائل سنة ٣٦١ هـ (٩٧١ م) سار بُلُكَيْن بن زيري بن مناد الصنهاجي ، قائد الخليفة الفاطمي المعز لدين الله ، من إفريقية غازياً إلى المغرب ، ليعيد هنالك سلطان الشيعة ، ولينتقم من قبيلة زناته لمقتل أبيه زيري بن مناد . وكان زيري عامل الخليفة المعز وقائده على المغرب ، وكانت زناته من القبائل المغربية القوية المخالفة للشيعة ، والمنضوية تحت لواء الأمويين . وكان من أشد خصوم الشيعة أيضاً ، جعفر ويحيى ابنا علي بن حمدون المعروف بالأندلسي^(١) ، وكان الأندلسي هذا قد استقر في «المسيلة» في المغرب الأوسط ، وبسط حكمه على تلك الناحية ، وخلفه ولده جعفر في إقطاعه ، ولكنه خشي سطوة الشيعة ، وسطوة عاملهم زيري ، ففر وأخوه يحيى مع الأهل والمال إلى المغرب الأقصى ، ولجأ إلى بني خزر أمراء زناته الأقوياء ، وألد خصوم الشيعة وصنهاجة . وكان رسل الحكم يروجون الدعوة في زناته وحلفائهم لمحاربة الشيعة ، ويمدونهم بالمال لحشد الرجال والعدة ، فاجتمعت قوات بني خزر وجعفر ويحيى على قتال زيري ، ودارت بينهما الحرب في وادي ملوية عند مشارف المغرب الأقصى ، وانهزم الشيعة ، وقتل زيري ومعظم رجاله بعد معركة طاحنة ، واحتوى الزناتيون على معسكره ، وانهار بذلك سلطان الشيعة في المغرب ، وكان ذلك في العاشر من رمضان سنة ٣٦٠ هـ (يوليه ٩٧١ م) . واحتز الظافرون رأس زيري وروؤوس عدة من أكابر صحبه . وحملها جعفر ويحيى وأصحابهما إلى الأندلس ، وقدموها إلى الحكم ، فحفظوا لديه وغمرهم بعطفه وصلاته^(٢) .

(١) ذكر ابن حيان نقلاً عن محمد بن يوسف بن عبد الله الوراق أن جعفر وأخاه هما من أصل أندلسي ، وهما ابنا علي بن حمدون بن سملك بن سعيد بن إبراهيم . وكان منزلهم بالأندلس بكورة البيرة على مقربة من قلعة يحصب . وانتقل جداهما حمدون إلى إفريقية وتزوج من كتامة ، ثم سافر إلى الحج ، وتعرف هناك بأبي عبد الله الشيعي ودخل في مذهبه . ولما ظهر الشيعي بإفريقية واحتوى على ملك بني الأغلب حظى لديه ، وحظى أبناؤه لدى الخلفاء الفاطميين ، واستقروا مدى حين حكماً للمسيلة . ثم اتهم زعيمهم جعفر بالاتصال ببني خزر ، وتوعد الخليفة المعز بشر النكال ففر وأخوه في الأهل والمال إلى بني خزر أمراء زناته (راجع المقتبس - قطعة أكاديمية التاريخ - ص ٣٣ - ٣٦)

(٢) يقدم إلينا ابن حيان تفاصيل ضافية عن استقبال جعفر وأخيه يحيى حين مقدمهما إلى الأندلس برؤوس زيري وأصحابه ، ودخولهما قرطبة في ركب فخم برفقة أحب السكة والمواريث . وقاضى إشبيلية محمد بن أبي عامر ، ثم استقبال الخليفة لها ومن معها من أعيان بني خزر ، وذلك بالجلس القبل من قصر الزهراء ، في حفل فخم رتبت فيه صنفوف الخند وأهل الخدمة بأنواهم =

وكان لهذه النكبة التي حلت بجيش الشيعة وصنهاجة ، وقع عميق في الخلافة الفاطمية . فأمر الخليفة المعز قائده يوسف بن زيري بن مناد ، المسمى بـ **بُلْكَيْن** (بلقين) أن يسير في الجيوش إلى المغرب جسباً تقدم . فسار بلكين ، وهو ينزل ضرباته المتوالية بآتياع زناتة حيناً وجدوا في طريقه ، وكانت منهم جموع غفيرة في المغرب الأوسط في بجاية ، والمسيلة ، وبسكرة ، وتاهرت وغيرها ، فزقهم شر ممزق . ووصل بلكين في قواته ، إلى المغرب الأقصى ، في ربيع الثاني سنة ٣٦١ هـ ، واستعد بنو خزر وسائر أمراء زناتة للقائه ، ووقعت الحرب بين الفريقين ، فهزمت زناتة شر هزيمة ، وانتحر أميرها محمد بن الخير بن خزر وذلك بأن اتكأ على سيفه فذبح نفسه ، حتى لا يقع في يد عدوه ، ومزق بلكين زناتة كل ممزق ، وهدم مدينة البصرة ، وبسط سلطانه على معظم أنحاء المغرب ، وقطع دعوة الأمويين ، وحقق انتقامه لمقتل أبيه كاملاً^(١) .

وسارع الحسن بن كنون ، القلب مع كل تطور جديد ، إلى بيعه بلكين ، والانضواء تحت لوائه ، أو بعبارة أخرى ، تحت لواء سادته الشيعة : ولكن بلكين لم يمكث طويلاً بالمغرب . إذ سرعان ما استدعاه سيده المعز — وكان يتخذ يومئذ أهبة للسفر إلى مصر ، مقر ملكه الجديد — فارتد عائداً بقواته إلى إفريقية . ووقف الحكم على تطور الحوادث بالمغرب ، فأزعجه ذلك وأهمه ، وبادر

= الزاهية ، وقد رفعت رؤوس القتلى وعددها مائة وفي مقدمتها رأس زيري على القنوات . وكان دخولهم على الخليفة ، في أواخر ذي القعدة سنة ٣٦٠ هـ . واستقبلهم الخليفة بالبشر والرضى ، وامتدح موقفهم وانصرافهم عن حزب الشيعة إلى وزارة حزبه . وعلى أثر انتهاء المقابلة ، انزلوا في الدور التي خصصت لهم بقرطبة ، ورتب الخليفة لكل من جعفر وأخيه يحيى فنقة شهرية قدرها ألف دينار ، ورتب لمرافقيهم من بني خزر ، كل ما يكفيه من النفقة والطعام . يقول ابن حيان بعد أن أورد لنا هذه التفاصيل الشائقة بإسهاب لا مزيد عليه : « فكاف يوم جعفر بن علي ومن ورد معه من أحد الأيام للعقم بقرطبة ، في اكتمال حسنه وجلالة قدره ، خلده حديثه زماناً في أهلها ، قاصياً من عجب الجلالة ، وكل شيء نأى انقضاء ، إلا إله الأرض والسماء ، تعالى جده » (المقتبس — قطعة أكاديمية المادريخ ص ٤٤ — ٥٣ وص ٥٧) .

(١) راجع مجموعة « نبل تاريخية في أخبار البربر في القرون الوسطى » المنتخبه من كتاب « مفاخر البربر » مؤلف مجهول ، والمنشور بعناية الأستاذ ليث بروثنسال (الرباط سنة ١٩٣٤) ص ٦ — ٨ ، ويرجع الكتاب هذه الموقعة إلى سنة ٣٦٠ هـ . وراجع أيضاً المقتبس — قطعة أكاديمية التاريخ ص ٣٦ و ٣٨ .

باعداد جيش ضخيم ، حسن الأهبة ، لغزو المغرب ، ومقاتلة الحسن بن كنون ، تحت إمرة قائده محمد بن القاسم بن طملس ، كما أمر قائد البحر عبد الرحمن بن رماحس بجشد الأسطول . وعبر محمد بن القاسم في قواته من الجزيرة الخضراء إلى سبتة ، في شوال سنة ٣٦١ هـ (يولييه ٩٧٢ م) ، وكان الحسن بن كنون عندئذ في طنجة ، فخرج في جموع البربر لقتال جيش الحكم ، ف وقعت عليه الهزيمة وقتل كثير من أصحابه ، وفر هارباً تاركاً أمواله وعتاده بطنجة ، واستسلم أهل طنجة إلى محمد بن القاسم ، وأعلنوا طاعتهم للحكم ؛ ودخل محمد طنجة واحتلها ، وبعث إلى الحكم بفتحها . ثم طارد فلول الحسن بن كنون جنوباً حتى ثغر أصيلا ، ودخلها .

وفي تلك الأثناء كان الحسن قد جمع فلوله ، وأعاد تنظيم قواته ، وسار إلى لقاء جيش الحكم مرة أخرى ، فالتقى الجمعان في مكان يعرف بفحص مهران ؛ وهنا حالف الحسن حسن الطالع ، فدارت الدائرة على جند الأندلس ، وقتل منهم عدة كبيرة فرساناً ومشاة ، وفي مقدمتهم قائدهم محمد بن القاسم ، وبلغ القتلى من الفرسان وفق تقدير الرازي خمسمائة ومن الرجال ألفاً ، وكان ذلك في الثالث والعشرين من ربيع الأول سنة ٣٦٢ هـ ، وفرت فلوك الأندلسيين إلى سبتة فامتنعوا بها ، وبعثوا إلى الحكم يطلبون الإنجاد والغوث (١).

وأراد الحسن في نفس الوقت أن يستغل نصره بطلب الصالح ، وتقديم الطاعة وتبادل الرهائن ، وبعث أمير البحر عبد الرحمن بن رماحس بذلك إلى الحكم ، فكتب الحكم إليه ومن معه من القادة يوصيهم بالاستمرار في مجاهدة الملحد ، ومجاهدة من معه ، حتى يفتح الله عز وجل فيه وفيهم . وكان مما قاله في كتابه : « أن أفضل ما احتمل عليه ، وعمل به ، استشعار الخزم ، وإدراع التحفظ ، واستنصاح الاتهام ، وإذكاء العيون ، وبث الجواسيس ، والاستكثار منهم ، ومن حملة الأخبار حتى لا يخفى لحسن — أهلكه الله — حركة ، ولا يتواري له مذهب » .

ومما كتبه الحكم إلى عبد الرحمن بن يوسف بن أرمطيل قائد ثغر أصيلا ،

(١) راجع مجموعة « بُد تاريخية في أخبار البربر » التي سبق ذكرها ص ٨ . وابن حيان في المقتبس — قطعة أكاديمية التاريخ ص ٩٦ .

رداً على ما أبداه الحسن من رغبة في الإنابة والصلح : « وكيف يذهب الآن هذا المذهب وهو في طغيانه مستمر ، وفي دينه مستبصر ، ولكم في كل أيامه محارب ، هذا هو الضلال ، والمحال عين المحال ، وسبب الخبال ، وقد رأى أمير المؤمنين تأمين جميع الناس لديه غيره ، وغير من أصر لإصراره ، وتمادى تماديه ، إلى أن يحكم الله عليه ، ويفتح فيه »^(١) .

وبادر الحكم في نفس الوقت بحشد جيش جديد ، ندب لقيادته مولاة ووزيره وكبير قواده غالباً بن عبد الرحمن « البعيد الصيت المعروف بالشهامة » . وأمدّه عدا الحند الكشيف ، والعتاد الضخم ، بأموال جلييلة لاستمالة القبائل ، وأمره أن يشتد في قتال الأدارسة ، وأن يستأصل شأفتهم ، وأن يطهر المغرب من كل القوى المناوثة لبني أمية . وقال له : « سر يا غالب مسير من لا إذن له في الرجوع إلا حياً منصوراً ، أو ميتاً معذوراً ، وابسط يدك في الإنفاق ، فان أردت نظمت للطريق بيننا قنطار مال »^(٢) . فخرج غالب في قواته الحرارة من قرطبة ، وعبر البحر من الجزيرة الخضراء إلى قصر مصمودة (أو القصر الصغير) وذلك في الحادى عشر من رمضان سنة ٣٦٢ هـ . وعلم الحسن بمقدمه ، وعظيم أهبطه ، فغادر مدينة البصرة ، الواقعة في الجنوب حيث كان يقيم ، ولجأ بأهله وأمواله وذخائره إلى قلعة حاجر النسر ، الواقعة شمالها . ثم جمع قواته وخرج لقتال جيش الحكم ، ونشب القتال بين الفريقين أياماً ، وبث غالب في رؤساء البربر من نعمة وغيرهم من جند الحسن ، الأموال والهدايا ، فانفصلوا عنه ، واضطر الحسن أن يمتنع بمن بقي معه في قلعة حاجر النسر ، فطارده غالب وضرب الحصار حول القلعة . وفي أوائل شوال بعث الحكم ثقتة محمد بن أبي عامر إلى العدو بأحمال من المال والحلى والخلع لتوزيعها على أكابر البربر الذين يمكن استمالتهم إلى جانب الخلافة . وأصدر الحكم في نفس الوقت مرسومه بتعيين ابن أبي عامر

(١) ابن حيان - قطعة أكاديمية التاريخ ص ٩٧ و ٩٨ .

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ٢١٨ ، وكذلك « نبد تاريخية في تاريخ البربر » ص ٩ . وقد وردت هذه العبارة بصورة أخرى في كتاب نقله إلينا ابن حيان ، وأرسله الحكم إلى غالب وهو بالهدوء رداً على كتاب منه وجاء ، في خاتمته هذه العبارة : « فاستقبل نظرك استقبال من استشعر مذهب أمير المؤمنين ووطن فيه على أن لا مرجع إلا بما يحب أو يموت فيمعدر » . راجع المقتبس - قطعة أكاديمية التاريخ - ١٣١ .

قاضياً لقضاة العدو ، إلى ما يتقلده من خطى الشرطة الوسطى والعليا والمواريث وقضاء إشبيلية^(١) . ووصلت إلى غالب من الأندلس بعد ذلك أمداد جديدة ، بقيادة الوزير يحيى بن محمد التجيبي وإخوته ، يوسف ومحمد وهاشم وهذيل ، ومعه حملة من المال (المحرم سنة ٣٦٣ هـ) ونزل يحيى وجنده بطنجة ، وانضموا إلى قوات القائد الأعلى غالب . وشدد غالب الحصار على الحسن ، وقطع سائر علائقه وموارده ، وبث قواته في سائر الأنحاء لمطاردة الأدارسة ، واستئصال شأفتهم . ونشبت بين جند الحكم وبينهم معارك عديدة ، قتل فيها الكثير منهم . وفي صفر سنة ٣٦٣ هـ استولى غالب على مدينة البصرة ، وسلمها إليه أهلها ، بعد أن قتلوا نائبها الحسن . وكان ضمن حاشية غالب الشاعر محمد بن حسين التميمي المعروف بالطنبى ، بعثه إليه الحكم تحقيقاً لرغبته لكى يساعده بنظمه على اكتساب ولاء المنشقين على الحسن^(٢) . وفي تلك الأثناء ، كان الحسن قد أجهدته الحصار ، وأشرف على الهلاك ، ومن معه من أهله ورجاله ، فاضطر في النهاية إلى طلب الأمان والتسليم ، وأعلن طاعته للحكم (جمادى الآخرة سنة ٣٦٣ هـ) ، ودخل غالب قلعة حجر النسر ، ودعى في مسجدها للحكم . ووصلت هذه الأنباء السارة إلى الحكم ، وأعلنها الحكم في جامع قرطبة ، بعد ذلك بأيام قلائل . وتتبع غالب سائر من بقى من الأدارسة ببلاد الريف حتى استأصل شأفتهم ، وقضى على دولتهم . وسار إلى مدينة فاس ودخلها ، وعين لها حاكماً من قبله ، وتم بذلك إخضاع المغرب للدعوة الأموية .

وكان قد وصل من العدو قبل هزيمة الحسن ، عدد كبير من القبائل والبطون البربرية الخارجة عليه ، الجانحة إلى طاعة الحكم . وكان بين هؤلاء عدد كبير من فرسان قبائل كتامة يبلغون زهاء ثلاثة آلاف وخمسمائة فارس ، ورئيسهم أبو العيش بن أيوب ، وقد عقد له الحكم على قومه ، وأصدر له بذلك سجلاً من إنشاء صاحب المواريث جعفر بن عثمان ، يبين فيه واجباته وسلطاته ولا سيما في شئون الجباية ، وأصدر الحكم سجلات مماثلة لزعماء القبائل والبطون البربرية الأخرى ، وقد ذكرها لنا ابن حيان ، وذكر أسماء زعمائها^(٣) .

(١) ابن حيان - قطعة أكاديمية التاريخ ص ١٢٢ .

(٢) ابن حيان في المقتبس - قطعة أكاديمية التاريخ ص ١٠٩ .

(٣) ابن حيان في المقتبس قطعة أكاديمية التاريخ ص ١١٠ - ١١٥ .

وفي أواخر ذي الحجة سنة ٣٦٣ هـ ، عبر القائد الأعلى غالب البحر إلى الجزيرة الخضراء ، تاركاً شئون العدو للقائد يحيى بن محمد بن هاشم التجيبي تحقيقاً لرغبة الحكم ؛ وكان في ركب القائد الأعلى المظفر ، الحسن بن كنون وسائر أهله وشيعته من زعماء الأدارسة ومعهم الأهل والولد . وصدر قبيل ذلك في قرطبة ، عن أمر الخليفة الحكم ، كتاب طويل من لإنشاء الوزير جعفر ابن عثمان قرئ على سائر منابر الأندلس ، وفيه ينوه بما من الله على خليفته من كفالة أمر المسلمين ، وقمع عدوان النصارى بالأندلس ، ثم مطاردة الشيعة أهل البدع بالعدوة ، وما منحه الله من النصر على المخالفين « حتى استوسقت الطاعة في جميع بلاد المغرب وقامت الدعوة بمنابر قواعده »^(١). وأشرف غالب في ركبته الحافل على قرطبة في أوائل المحرم سنة ٣٦٤ هـ ، وأنزل الأشراف الحسنيون المرافقون له في الدور التي أعدت لهم بقرطبة وأرباضها . وخرج الجند من مدينة الزهراء في صبيحة يوم الخميس الخامس من محرم لتلقى القائد المظفر ، والمسير بين يديه ، وعلى رأسهم عدة من الفتيان ورؤساء الخدمة ، ودخل غالب قرطبة في عسكره ، وفي ركبته الأشراف الأدارسة ، ونزل بفحص الناعورة ؛ ويصف لنا ابن حيان في تفصيل شاف موكب القائد غالب ، وركبه المظفر الفخم ، ومن كان يحف به أو يتبعه من الفرسان المدرعين وأهل الخدمة والصقالية ، والعبيد الرماة وغيرهم من أصحاب الطبول والقرون والبنود والرايات . ودخل غالب في موكبه الفخم مدينة الزهراء من باب السدة ، ونفذ إلى القصر ، وأنزل الأدارسة الذين معه في المجالس القبلية بدار الجند . وكان الخليفة الحكم قد جلس لاستقباله في المجلس الشرقي المشرف على الرياض ، وقد حف به الإخوة ، وجلس من بعدهم الوزراء والحجباب وأصحاب الشرطة والمدينة والقضاة وسائر أهل الخدمة ، كل في مكانه المعهود . واستقبل الخليفة زعماء الأدارسة ، وشيوخهم حمون بن أحمد بن عيسى ، وشكر طاعتهم ، وعفا عن الحسن ، ووعدهم بالإحسان ، وأجزل لهم الأرزاق والصلوات^(٢) . وعين من حاشيتهم في ديوانه ، سبعمائة من أنجادهم . واستمر الحسن وذووه على ذلك زهاء عامين . ثم وقعت

(١) راجع التتبع المذكور في المقتبس - قطعه أكاديمية التاريخ ص ١٧٨ - ١٨٢ .

(٢) ابن حيان في المقتبس - قطعة أكاديمية التاريخ ص ١٩٤ - ٢٠٠ .

النفرة بينه وبين الحكم لأسباب منها ، « سوء خلق الحسن وبالحاجته » . قال المؤرخ : « وكان الحسن بن قنون هذا جاهلاً متهوراً فظاً ، شديد الخراة ، قاسى القلب » . ولم ينس الحكم ما كان من قسوته وفضاعته نحو جنده أيام الحرب بينهما ، حيث كان الحسن يلتقى بالأسرى من جند الأندلس من أعلى قلعة الشامخة فيصلون إلى الأرض إرباً^(١) . وهكذا ثقل وجوده وذووه في قرطبة . ومن جهة أخرى فقد كان الحاجب جعفر بن عثمان المصنحى يتوجس شراً من وجود الحسن وصحبه ، ويستثقل نفقاتهم ، وينصح بإخراجهم من الأندلس . فرأى الحكم أن يقصمهم عن مملكته ، وأن يتخلص من نفقاتهم الباهظة ، وأن يبعث بهم إلى المشرق . وهكذا أخرج الحسن وعشيرته من قرطبة ، وركبوا البحر من ألمرية إلى تونس سنة ٣٦٥ هـ (٩٧٥ م) ، ثم ساروا إلى مصر ، حيث نزلوا في كنف خليفته الفاطمى العزيز بالله ، فأكرم وفادتهم ، ووعدهم بنصرة قضيتهم : واستقر الحسن بمصر بضعة أعوام ، حتى سنة ٣٧٣ هـ ، وعندئذ بعثه العزيز بعهد منه ، إلى بلكين بن زبرى بن مناد بالقيروان ، يطلب إليه إمداده وعونه ، على تنفيذ مشاريعه ، إلى أن كان من أمره ما سييجىء^(٢) .

وكان غرسية فرناندز ، ولد فرنان كثنالث ، صاحب قشتالة وألبه ، قد خلف أباه في الحكم ، منذ وفاته في سنة ٩٧٠ م . وكان مثله يتبع سياسة النفاق والمصانعة ، في إظهار رغبته في السلم ، ثم يقوم في الوقت نفسه بالإغارة على الأراضي الإسلامية ، كلما سنحت الفرص . فلما شغل الحكم بحوادث المغرب ، وعبرت الجيوش الأندلسية وقوادها الأكابر ، إلى العدو ، بعث غرسية قواته ، فأغارت على أراضي المسلمين ، واقتحمت حصن دسة الواقع شمال شرق مدينة سالم ، والذي يتوسط أراضي بنى عمريل بن تيملت الثغرى . ووقع هذا الاعتداء في شهر ذى الحجة سنة ٣٦٣ هـ (صيف سنة ٩٧٤ م) ، وأحرق النصارى الزروع واستاقوا الماشية ، فخرج في أثرهم زروال ومضاء ، ولدا عمريل ، واليا هذه

(١) « نبد تاريخية في أخبار البربر » ص ١٠ و ١٤ .

(٢) راجع في سرد هذه الحوادث المغربية : البيان المغرب ج ٢ ص ٢٦١ - ٢٦٥ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢١٦ - ٢١٩ ، والاستقصاء ج ١ ص ٨٦ - ٨٨ . و « نبد تاريخية في أخبار البربر » ص ٦ - ١٢ .

المنطقة ، في أصحابهما ، واستنقذوا الماشية ، وقتلوا عدداً من النصارى ؛ ولكن النصارى تكاثروا عليهم بعد ذلك ، ووقعت بين الفريقين معركة قتل فيها زروال . ومن الغريب أن غرسية فرناندز ، كان قبل هذا الاعتداء بقليل ، قد بعث رسله إلى قرطبة ، في طلب السلم والمهادنة ، فأجابهم الحكم إلى ما طلبوا ؛ وما كادوا ينصرفون من قرطبة ، حتى جاءت الأنباء بما حدث من اعتداء القشتاليين ، فبعث الحكم لفوره أفلح صاحب الخيل ، في سرية من وجوه الجند ، للقبض على السفراء القشتاليين ، فهرعت في أثرهم واستطاعت أن تظفر بهم ، وأعيدوا إلى قرطبة حيث زجوا إلى السجن .

ووفد على الحكم في العام التالي ، أبناء عمريل الخمسة بعد وفاة أبيهم ، وشهد القائد الأعلى غالب بن عبد الرحمن ، بحزمهم وحسن طاعتهم ، وأوصى بتقليدهم عمل والدهم ، فقسمت بينهم الأراضي والحصون ، على رضا منهم ، وغمرهم الحكم بالخلع والصلوات (١) .

وكان من الأحداث البارزة في أواخر سنة ٣٦٣ هـ ، ما وقع من نكبة جعفر ويحيى ابني علي بن حمدون الأندلسي . وكانا قد استقرا في قرطبة ، في كنف الحكم وتحت سابغ رعايته . وكان الحكم قد ابتاع منهما عبيدهما الذين استغفوا من خدمتهما ، ودفع الثمن إليهما ، وتم فصل العبيد عنهما ، وضمهم الحكم إلى جنده لما كانوا يتصفون به من الشجاعة والبأس ، وكان لذلك فيما يبدو أثر سيئ في نفسيهما ، فقبل لهما تكلمهما في حق الخليفة بما لا يحمد ، وجاهرا بامتداح خلفاء الشيعة ، سادتهم الأوائل ، ونمى ذلك إلى الحكم ، فأمر في الحال بالقبض عليهما ، وزجا مكبولين إلى سجن الزهراء . وكان ذلك في شوال سنة ٣٦٣ هـ ، ولبثا في المطبق بضعة أشهر ، حتى عاد الخليفة فعفا عنهما ، وأمر بإطلاق سراحهما ، وذلك في رجب من العام التالي ، فأقرا بالذنب وطلبا الإنابة والصفح ، فأسغفهما الخليفة بما طلبا ، وغمرهما بصلاته (٢) .

(١) راجع ابن حيان في « المقتبس » قطعة مكتبة أكاديمية التاريخ (ص ١٨٨ و ١٨٩ و ١٩٠) .
وراجع بحثاً في ذلك الموضوع للعلامة كوديرا عنواله :

Embajadores de Castilla encarcelados en Córdoba de los últimos años de Alhakam II (B. R. A. H. Tom. XIV, 1889).

(٢) ابن حيان في المقتبس — قطعة أكاديمية التاريخ ص ١٧١ — ١٧٤ .

وعمد الحكم في نفس الوقت إلى اصطناع البربر وفرسانهم ، لما لقيه منهم في حربه ضد الحسين الأدارسة ، من المجالدة ووفرة البأس والشجاعة ، فأكرم وفادتهم ، وألحقهم بجنده ، وأجزل لهم العطاء . وكان في مقدمة هؤلاء بنو برزال الذين أبلوا من قبل في محاربة زيري بن مناد الصنهاجي ، وكانوا قد عبروا إلى الأندلس ، وأغضى الحكم عن انخيازهم إلى مبادئ الخوارج الإباضية . وهكذا اجتمعت للحكم من عبيد جعفر ويحيى ومن داخلهم من أحرار البربر الوافدين ، قوة عسكرية بربرية تضم نحو سبعمائة فارس من خيرة الشجعان (١) .

وفي شهر جمادى الآخرة سنة ٣٦٤ هـ أصدر الحكم أوامره بإسقاط سدس المغرم (الضرائب) الواجب أدائه على سائر الرعايا عن هذه السنة ، وأنفذ بذلك مرسومه إلى سائر القواد والعمال بمختلف الكور ، وقرر أن يكون هذا السدس شائعاً في الناس يستوى في معرفته العالم منهم والجاهل ، وذلك ترفيهاً لهم وتحقيقاً لمصالحهم (٢) .

وفي شهر رجب من هذه السنة ، بعث الحكم ، نظراً لما بدا من تحركات النصاري في مختلف الأنحاء ، عدداً من أكابر رجال المملكة إلى كور الأندلس لحث أهلها على ارتباط الخيل ، والاستعداد لموازرة جيش الصائفة ، وكان ممن بعث من رجالاته صاحب الشرطة العليا ، يحيى بن عبيد الله بن يحيى ، بعثه إلى كور الجوف ، وبعث قائد البحر عبد الرحمن بن رماحس إلى كور الشرق ، وبعث أحمد بن محمد بن سعد الجعفرى إلى الغرب ، نحو شنترين وما إليها ، وبعث آخرين لنفس الغرض (٣) .

وفي أوائل شعبان سنة ٣٦٤ هـ (أبريل ٩٧٥ م) هاجم جيش مشترك من الجلالقة والقشتاليين والبشكنس ، حصن غوماج الواقع على نهر دويرة على مقربة

(١) ابن حيان - قطعة أكاديمية التاريخ ص ١٩١ و ١٩٢ .

(٢) المقتبس - قطعة أكاديمية التاريخ ص ٢٠٨ . وقد أورد لنا ابن حيان نص هذا المرسوم كاملاً (ص ٢٠٧ و ٢٠٨) وفيه يقرر الحكم أنه أصدر مرسومه المذكور « لما تظاهرت آلاء الله تعالى عليه ، وحسن بلائه عنده » وأنه « رأى أن يجدد له الشكر » ويمتري منه المزيد بإسقاط سدس مضمون الحشود الواجب تقاضيتها منهم لسنة أربع وستين وثلاثمائة ، تخفيفاً عن رعيته وإحساناً إلى أهل مملكته .

(٣) المقتبس - قطعة أكاديمية التاريخ ص ٢١٦ .

من مدينة سالم ، ونشب بينه وبين حاميته الإسلامية قتال عنيف . وشجع النصارى على انتهاك السلم المعقود بينهم وبين الخليفة ، اعتقادهم بأن قوى الأندلس كلها ما تزال مشغولة بحروب العدو . وانقلب النصارى لإزاء بسالة الحامية الإسلامية إلى محاصرة الحصن ، ووافتهم أمداد أخرى جاءت لتشد أزرهم : وما كاد الحكم يقف على هذه الأنباء حتى بعث كبير قواده غالباً بن عبد الرحمن في قوة مختارة غادرت قرطبة على عجل . وبعث الحكم في أثرها أحمال المال للإنفاق على الصائفة . واستمر حصار النصارى لغرماج حتى شوال من تلك السنة . وجاءت للنصارى أمداد جديدة من جند ليون ، سيرتها الراهبة إلىبرة الوصية على ملك ليون ، ناكثة بذلك عهدا في التهادن والسلم . وفي منتصف شوال ، هاجم النصارى الحصن ، وهم في أكثر من ستين ألفاً ، محاولين اقتحامه ، ونشبت بينهم وبين الحامية الإسلامية معركة طاحنة انتهت بهزيمة النصارى وتبديد شملهم ، فبادرت صفوفهم بالارتداد عن الحصن بعد أن فقدوا كثيراً من جندهم وعتادهم ، وطاردتهم المسلمون ، فقتلوا منهم جموعاً أخرى ، وأحرزوا غنائم جمة . وبعث المسلمون إلى الوزير غالب ، وهو مقرب منهم لنصرتهم ، نبأ هذا الظفر ، فأنفذه من فوره إلى الخليفة ، وسار إلى الحصن ونزل به ، ثم خرج في قواته ، فعاث حيناً في أراضي قشتالة ، وانتسف الزروع ، وخرّب القرى ، وتقدمت قوة بعث بها غرسية فرنانديز صاحب قشتالة لمداغة المسلمين ، فهزمت وردت إلى أعقابها^(١) .

* * *

تولى الحكم المستنصر الملك ، حسبما أسلفنا ، وهو كهل في الثامنة والأربعين من عمره ، ولم يكن إلى ذلك الحين قد أنجب ولداً ، وكان ذلك مما يثير قلقه وجزعه ، إذ كان يتوق أن يكون له وريث في الملك . ومن ثم فقد سرّأبما سرور حينما ولدت له حظيته « جعفر » أو صبح النافارية ، ولداً سماه عبد الرحمن (سنة ٣٥١ هـ - ٩٦٢ م) ، وكان مولده حادثاً خطيراً ، نوهت به الشعراء والأدباء ، ولكن هذا الولد توفي طفلاً ، فعزن الحكم لفقده أيما حزن . على أن القدر لم يلبث

(١) المقتبس - قطعة أكاديمية للتاريخ ص ٢١٨ و ٢١٩ و ٢٣٤ - ٢٣٧ .

أن حباه مرة أخرى ، إذ ولدت «جعفر» ولداً آخر سماه أبوه هشاماً وكنيته أبو الوليد ، فكان ولي عهده الملقب بالمؤيد . « فعظم استبشاره به وسروره بموهبة الله فيه »^(١). وحضر الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي وقت البشارة بولادته ، وأنشد هذه الأبيات :

أطلع البدر في صحابه وأطرف السيف من قرابه
وجاءنا وارث المعالي ليثبت الملك في نصابه
بشرنا سيد البرايا بنعمة الله في كتابه

وكان مولد هشام المؤيد سنة ٣٥٤ هـ (٩٦٥ م) ، وكان مؤدبه مذ بلغ الثامنة من عمره الفقيه أحمد بن محمد بن يوسف القسطلی ، وقد أمر الحكم بأن تعد لتعليمه الدار المعروفة بدار الملك بقصر الزهراء ، وأن تزود بجميع ما يحتاج إليه لذلك . وكان قعود هشام مع مؤدبه في المجلس الشرقي منها في رمضان سنة ٣٦١ هـ . وندب الحكم وصيفه الفتى ذكاء ناظراً للأمر متكفلاً بشئونه^(٢). وفي أواخر سنة ٣٦٣ هـ ندب الخليفة العلامة النجوى أبا بكر الزبيدي الإشبيلي ليقوم بتدريس العربية وعلومها لولي العهد . وفي العام التالي ندب الفقيه المحدث يحيى بن عبدا لله ابن يحيى ليقوم بإسماعه الحديث . وكان يومئذ عمدة المحدثين بقرطبة^(٣) . وسنرى أى دور عظيم تلعبه فيما بعد ، أم هشام جعفر أو صبح النافارية ، على مسرح الحوادث .

وأما عن شخص الحكم ، فقد كان حسباً تصفه الرواية ، أبيض مشرباً بحمرة ، أعين ، أقنى ، جهير الصوت ، قصير الساقين ، ضخيم الجسم ، غليظ العنق ، عظيم السواعد ، أفقم^(٤) .

* * *

يمتاز عصر الحكم المستنصر بظاهرة ، من ألمع الظواهر في تاريخ الدولة

- (١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥٢ و ٢٥٣ ، وأعمال الأعلام لابن الخطيب ص ٤٣ .
- (٢) ابن حيان في المقتبس - قطعة أكاديمية التاريخ ص ٧٦ و ٧٧ .
- (٣) المقتبس - قطعة أكاديمية التاريخ ص ١٣٣ و ٢١٦ .
- (٤) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٤٩ . والأعين هو ذو العينين السوداوين النجلاوين ، والأقنى ذو الأنف المرتفع الأعلى والمحدود الوسط ، والأفقم أى الأعرج .

الأندلسية ، هي ازدهار العلوم والآداب أعظم ازدهار ، وإنشاء المكتبة الأموية العظيمة ، التي كانت بضخامتها ، وتنوع محتوياتها ، من أعظم مكتبات العصور الوسطى .

ويرجع ذلك قبل كل شيء إلى شخصية الحكم نفسه ، وإلى صفاته العلمية الممتازة ، التي نوه بها أكثر من مؤرخ أندلسي ، وإلى شغفه العظيم بجمع الكتب ، وهو شغف كان له أكبر الأثر في ملء خزائن الأندلس بنفائس الكتب ، من كل فن ومن كل قطر ، من أقطار العالم الإسلامي .

وقد أشاد ابن حيان مؤرخ الأندلس — وقد عاش قريباً من عصر الحكم — بصفات الحكم العلمية ، وتقدمه في العلوم الشرعية ، وعنايته بتحقيق الأنساب وتأليف قبائل العرب ، واستدعاء رواة الحديث من جميع الآفاق ، وإيثار مجالس العلماء ، وشغفه بجمع الكتب بصورة لم يسمع بها^(١) . ويشاطره معاصره الفيلسوف ابن حزم ، هذا الإعجاب بصفات الحكم العلمية ، ويذكر لنا في أكثر من موضع من مؤلفه الجامع في الأنساب ، أنه ينقل من خط الحكم^(٢) . ويحمل ابن الخطيب هذه الصفات في قوله : « وكان رحمه الله (أي الحكم) عالماً فقيهاً بالمذاهب ، إماماً في معرفة الأنساب ، حافظاً للتاريخ ، جامعاً للكتب ، مبرزاً لأرجال من كل عالم وجيل ، وفي كل مصر وأوان ، تجرد لذلك ، وتهتم به ، فكان حجة وقدوة ، وأصلاً يوقف عنده »^(٣) .

وقد انتهت إلينا تفاصيل مدهشة عن الدور العظيم الذي قام به الحكم في إنشاء المكتبة الأموية الكبرى . وكانت هذه النزعة الأموية ، إلى تشجيع العلوم والآداب وجمع الكتب ، قد بدت منذ عصر عبد الرحمن الداخل . وفي عهد الأمير محمد ابن عبد الرحمن كانت المكتبة الأموية بالقصر ، أعظم مكتبات قرطبة . وكان عبد الرحمن الناصر يشغف بجمع نفائس الكتب من سائر الآفاق ، حتى أن قيصر

(١) الحلة السيرة ، نقلها عن ابن حيان ص ١٠١ و ١٠٢ .

(٢) جبهة أنساب العرب لابن حزم (القاهرة) ص ٢٨١ و ٢٨٢ و ٢٩٢ و ٣٧٤ و ٣٧٥ و ٣٨٤ ، ٣٩٨ . وقد وضع الحكم بالفعل كتاباً في « أنساب الطالبين والملوك القاديين إلى المغرب » (نفج الطيب ج ٢ ص ٧٩) .

(٣) أعمال الأعلام ص ٤١ .

قسطنطينية حينما أرسل إليه سفارته الشهيرة ، حرص على أن يهديه كتابين من ذخائر الأقدمين هما كتاب ديسقوريدس عن الأعشاب الطبية وتاريخ أورسيوس . ولما توفي الناصر ، عني ولده الحكم بجمع مكتبات القصر وتنظيمها ، لتكون بداية طبية للمكتبة الأموية العظيمة ، التي أنفق بقية عمره في جمعها وتنسيقها^(١) . ويقول لنا ابن حيان في دهشة وإعجاب إنه « لم يسمع في الإسلام بخليفة ، بلغ مبلغ الحكم في اقتناء الكتب والدواوين ، وإيثارها والتهمم بها . أفاد على العلم ، ونوه بأهله ، ورغب الناس في طلبه ، ووصلت عطاياه ووصلاته إلى فقهاء الأمصار النائية » . وكان الحكم يبعث إلى أكابر العلماء المسلمين من كل قطر ، بالصلوات الخزيلة ، للحصول على النسخ الأولى من مؤلفاتهم . ومن ذلك أنه بعث إلى أبي الفرج الأصفهاني ألف دينار من الذهب العين ، ليحصل منه على نسخة من كتابه « الأغاني » . فأرسل إليه منه نسخة حسنة منقحة ، قبل أن يحصل عليه أحد في العراق أو ينسخه أحد منهم ، وأرسل إليه أبو الفرج أيضاً - وهو ممن ينتمون إلى المروانية بنى أمية - كتاباً ألفه في أنساب قومه بنى أمية ، يشيد فيه بمجدهم وما أثرهم ، فجدد له الحكم الصلة الخزيلة^(٢) . وفعل الحكم مثله ذلك مع القاضي أبي بكر الأبهري المالكي ، إذ بعث إليه بمبلغ جليل ليحصل على النسخة الأولى من شرحه لمختصر ابن عبد الحكم . وأسبغ الحكم رعايته على اللغوي الكبير أبي علي القالي ، الذي وفد من العراق على أبيه الناصر ، وقربه إليه ، وألف كتبه تحت كنفه ، وأورث أهل الأندلس علمه^(٣) . وأهدى إليه أبو عبد الله الخشني بعض كتبه ومنها كتاب « القضاة » أو « قضاة قرطبة »^(٤) ، وأهدى إليه مطرف ابن عيسى الغساني ، كتابه المسمى بالمعارف في « أخبار كورة البيرة » ، كما أهدى إليه كثير من علماء العصر مؤلفاتهم ، تيمناً برعايته للعلم والعلماء . وكان للحكم طائفة من مهرة الوراقين بسائر البلاد ، ولا سيما في بغداد والقاهرة ودمشق ، ينقبون له عن الكتب ، ويحصلون منها على النفيس والناذر ، كما كانت له في بلاطه طائفة

(١) J. Ribera : *Disertaciones y Opusculos* (Madrid 1928) p. 191 & 192

(٢) الحلة السيرة - عن ابن حيان ص ١٠٢ .

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٦ .

(٤) راجع كتاب قضاة قرطبة للخشني (المقدمة) .

أخرى ، من البارعين في نسخ الكتب ، وتحقيقها ، وتجليدها ، وتصنيفها . وبذل في هذا السبيل من الجهود والأموال ما لم يسمع به ، واجتمع لديه من نفائس الكتب في مختلف العلوم ، ما لم يجتمع لأحد قبله . ولما ضاقت أبهاء القصر الخلفي ، عن استيعاب العدد العظيم ، من الكتب الواردة إليها باستمرار ، أنشأ الحكم على مقربة من القصر صرحاً عظيماً خاصاً بالمكتبة ، افتن المهندسون في ترتيبه وتنسيقه ، وإنارة أبهائه . قال ابن حزم « ملأ الأندلس بجميع كتب العلوم » وذكر لنا أن تليداً الفتي — وكان على خزانة العلوم بقصر بني أمية بالأندلس — أخبره أن عدد الفهارس التي كانت فيها تسمية الكتب أربع وأربعون فهرسة ، في كل فهرسة خمسون ورقة ، ليس فيها إلا ذكر أسماء الدواوين فقط (١) .

وعهد الحكم بإدارة المكتبة الأموية العظيمة إلى أخيه عبد العزيز . وعهد بالإشراف على جامعة قرطبة وأساتذتها إلى أخيه المنذر . وكان يقضي معظم أوقاته بمدينة الزهراء ، في أبهائها المنيفة وظلالها الهادئة ، معتكفاً على القراءة والدرس برفقة صفيه محمد بن يوسف الحجاري ، الذي كتب له تاريخ الأندلس والمغرب ، وتواريخ أخرى لبعض المدن . وكان من أصفياه في تلك المجالس أيضاً ، الفتي سابور الفارسي ، الذي قدم بدعوته إلى قرطبة ، واختاره ليكون وصيفاً خاصاً له ، وكان من أعلم أهل عصره (٢) .

ولم يكن هذا الشغف بجمع الكتب ، في عصر الحكم ، قاصراً على الأمير ، فقد غنى كثير من كبراء العصر وعلمائه ، بإنشاء مكتبات خاصة زاخرة بنفائس الكتب . وشغف النساء المثقفات كذلك بجمع الكتب ، وإنشاء المكتبات ، ومن أشهر هؤلاء عائشة بنت أحمد بن قادم ، وكانت من أبرع نساء عصرها ، عالماً وأدباً وشعراً ، وكانت خزانة كتبها من أغنى وأقيم المكتبات الخاصة . وكانت سوق الكتب في قرطبة ، من أشهر الأسواق وأحفلها بالحركة . بل لقد سرى هذا الشغف باقتناء الكتب إلى النصارى واليهود أنفسهم ، وكان الكثير منهم يجيدون اللغة العربية ، ويتذوقون ثمرات التفكير العربي من أدب وشعر وفلسفة وغيرها . وكان من أشهر هؤلاء الطبيب اليهودي حسداى ، طبيب الحكم الخاص ، وفي

(١) جمهرة أنساب العرب ص ٩٢ . ونقلها ابن الأبار في الحلة السيرة ص ١٠٣ .

(٢) Modesto Lafuente : Historia General de Espana ; T. III, p. 337.

طله وتحت رعايته كتب يهود قرطبة باللغة العربية ، وألفوا بها مختلف الكتب ، وكان من أشهر المكتبات الأندلسية الخاصة فيما بعد ، مكتبة يوسف بن إسماعيل ابن نغالة اليهودي ، وزير باديس أمير غرناطة^(١) .

ولمى جانب هذا الشغف بالكتب والثقافة العالية ، كان التعليم العام في عهد الحكم يجوز نهضة عظيمة ، وكان أبناء الشعب جميعاً يعرفون القراءة والكتابة ، هذا بينما كان أرفع الناس مكانة في أوروبا — خلا رجال الدين — لا يعرفون . وأسس الحكم عدداً كبيراً من المدارس يتعلم فيها الفقراء مجاناً . أما جامعة قرطبة ، فقد كانت يومئذ من أشهر جامعات العالم ، وكان مركزها في المسجد الجامع ، وتدرس في حلقاتها مختلف العلوم ، وكان يدرس الحديث أبو بكر ابن معاوية القرشي ، ويملى أبو علي القالي ضيف الأندلس دروسه عن العرب قبل الإسلام ، وعن لغتهم وشعرهم وأمثالهم ، وكان ابن القوطية يدرس النحو ، وكان يدرس باقي العلوم أساتذة من أعلام العصر ، وكان الطلبة يعدون بالآلاف^(٢) .

وكان الحكم يسبغ رعايته على سائر العلماء من مختلف الملل والنحل ، مسلمين كانوا أو غير مسلمين . ومن شواهد هذه الرعاية أن الأسقف العالم ريثموندو الإلبيري ، المسمى باسمه العربي ، ربيع بن زيد ، كان أثيراً لديه متمتعاً برعايته ، لتبحره في علم الفلك ، والعلوم الفلسفية ، وهي من الدراسات التي كان يعنى بها الحكم . وكان هذا الحبر القرطبي عالماً مبرزاً ، متمكناً من الآداب العربية واللاتينية ، وكان الناصر والد الحكم يقدر علمه ومواهبه ، ويحبوه بعطفه ورعايته بالرغم من نصرانيته ، وكان يشغل مكانة هامة في القصر^(٣) .

يقول العلامة دوزي : « وعلى العموم فإن إغداق الحكم على العلماء الإسبان والأجانب لم يعرف حداً ، وقد كانوا يهرعون إلى بلاطه . وكان المليك يشجعهم ويوليهم رعايته ، حتى الفلاسفة استطاعوا في ظله أن ينصرفوا إلى بحوثهم دون

(١) كتاب الصلة لابن بشكوال (القادة) ج ٢ ص ٦٥٤ ، وكذلك J. Ribera : *ibid.*

p. 199—202

(٢) Dozy : *Histoire des Musulmans d'Espagne*, Vol. II, p. 184 & 185

F. J. Simonet : *Historia de los Mozarabes de Espana* (Madrid 1897), (٣)

p. 607 & 612.

خوف من أن يقتلهم الأتقياء الورعون» (١).

ويبدى النقد الحديث تقديره وإعجابه بتلك النزعة العلمية التي امتاز بها الحكم ، والتي سادت كل عصره . فمثلاً يقول لنا المؤرخ الإسباني موديستولا فونتي : « كانت دولة الحكم الثاني دولة الآداب والحضارة ، كما كانت دولة أبيه دولة العظمة والبهاء . وإن الرواية العربية لتحبو الحكم بكثير من جميل الذكر ، فهل نغضى نحن عن تسجيل إعجابنا بما لهذا الأموي المستنير من الصفات الباهرة ، لأنه كان مسلماً ولم يكن نصرانياً؟ إن ذلك يعنى أننا ننكر فضائل أمثال أوغسطوس وتراجان وأدريان وماركوس أوريليوس ، لأن أولئك القياصرة العظام لم يكونوا نصارى . إن السلم الذي وطده أكتافيوس في إسبانيا الرومانية ، قد وطده الحكم في إسبانيا العربية ؛ وقد قدم الحكم ، كما قدم أكتافيوس من قبل ، الأدلة على أن الرغبة في السلم ، لم تكن لأنه لا يعرف الحرب ولا النصر ، ولكن لأنه كان يؤثر إلهام القريض ، ويؤثر الكتب على خزائن السلاح ، وإكليل الجامعات الحقيقي على إكليل الحروب الدموى .

لقد أعيد عصر أوغسطوس في إسبانيا بعد ألف عام في صورة جديدة ، وقد تحول بلاط قرطبة إلى نوع من الأكاديمية العظيمة ، وأغدق على ثمرات العبقريّة فيض الإغداق والكرم الرائع ، ونستطيع أن نقدر مدى التضحيات العظيمة ، ومدى الصبر ، والمثابرة ، والنفقات التي أمكن أن يتحقق بها إنشاء تلك المجموعة المدهشة ، من أربعائة ألف إلى ستمائة ألف مخطوط ، هي محتويات مكتبة قصر بنى مروان » .

ثم يشير موديستولا فونتي بعد ذلك إلى أن هذا المستودع الزاخر من ثمرات العقل ، وتلك الحضارة التي وصل إليها العرب في عصر الحكم ، كانت قد وضعت بذورها من قبل ، وتعاقب أمراء بنى أمية منذ عبد الرحمن الداخل في تعهدها بالغرس والنماء ، وقد كانوا جميعاً من أهل العلم والآداب ، ومن حماة العلوم والآداب . ثم يختم تعليقه على عصر الحكم بقوله :

« لقد جاء هذا الخليفة الشهير الذي يعشق الآداب في عهد سعيد من السلم ، ولما كانت بذور التمدن موجودة من قبل ، فقد تفتحت في ظل رعايته ، وازدهر

الغرس ازدهاراً عظيماً ، حتى أنه بعد الحرث الكثير ، والمطر الغزير ، بدت شمس وضاعة رائعة منعشة» (١) .

وقد اختلف في تقدير محتويات المكتبة الأموية العظيمة ، التي أنشأها الحكم المستنصر ، فقدرها بعض المؤرخين بأربعمائة ألف مجلد ، وقدرها البعض الآخر بستمائة ألف (٢) . وكانت توجد في قواعد الأندلس الأخرى ، عدا مكتبة قرطبة العظيمة زهاء سبعين مكتبة أخرى (٣) . وهذا وحده يكفي للدلالة على مدى التقدم العظيم ، الذي بلغت الحركة الفكرية والأدبية في الأندلس ، في هذا العصر الزاهر . ولبثت المكتبة الأموية العظيمة قائمة بقصر قرطبة ، حتى وقعت الفتنة الكبرى في سنة ٤٠٠ هـ ، وحاصر البربر قرطبة ، فأخرجت معظم الكتب من خرائنها خلال الحصار ، وبيعت بأمر الفتي واضح مولى المنصور بن أبي عامر ، ثم نهب ما تبقى منها عند اقتحام البربر لقرطبة ، حسبما نذكر بعد (٤) .

* * *

وشعر الحكم في أواخر عهده ، بأعراض الضعف والمرض تدب إليه ، فانتقل من قصر الزهراء وفقاً لنصح أطبائه ، لغلبة برد الجبل عليه ، وقضى حيناً في منية ناصح ، ومنية الناعورة ، ثم انتقل إلى قصر قرطبة . وعقد العزم على تأمين ولاية العهد لولده الطفل هشام . وتم ذلك في شهر جمادى الثانية سنة ٣٦٥ هـ (٥ فبراير سنة ٩٧٦ م) حيث جلس الحكم بقصر قرطبة ، وأعلن عزمه في تقليد ولده عهد الخلافة من بعده ، وأخذت البيعة بالفعل من الحاضرين ، وأخرجت كتبها لسائر الخاصة والعامة . وتولى أخذها على الناس وفق مراتبهم ، محمد بن أبي عامر ، وهو يومئذ صاحب الشرطة والمواريث ، وكان من قبل كافلاً لهشام ، وميسور الفتي الكاتب مولى صبيح ، ثم دعى لهشام في الخطبة بالأندلس والمغرب ، ونقش اسمه في السكة .

(١) Modesto Lafuente : Historia General de Espana (Barcelona 1869),

Tom. II ; p. 364 - 367.

(٢) نفح الطيب ج ١ ص ١٨٤ .

(٣) Prescott : Ferdinand and Isabella of Spain, p. 187.

(٤) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٦ .

وينعى ابن حيان على الحكم هذه السياسة في اختيار ولده الطفل لولاية العهد ، فيقول إنه أى الحكم على ما وصف من رجاحة « كان ممن استهواهم حب الولد ، وأفرط فيه ، وخالف الحزم في توريثه الملك بعده ، في سن الصبا دون مشيخة الأخوة ، وفتيان العشيرة ، ومن يكمل للإمامة بلا محابة ، فرط هوى ، ووهلة انتقدها الناس على الحكم ، وعدوها الخانية على دولته . وقد كان يعيها على ولد العباس قبله ، فأتاها هو مختاراً ولا مرد لأمر الله » .

وأصيب الحكم بعد ذلك بقليل ، بشلل أقعده عن الخروج والحركة ، ويقول لنا ابن حيان إن الحكم كان يعاني من هذه « العلة الفالجية » ولا يكاد يستفيق منها^(١) فلزم فراشه ، وتولى تدبير الشئون خلال مرضه ، وزيره جعفر بن عثمان المصحفي . ثم توفي بعد ذلك بأشهر قلائل ، في اليوم الثاني من صفر سنة ٣٦٦ هـ (٣٠ سبتمبر سنة ٩٧٦ م)^(٢) .

* * *

وكان الحكم المستنصر من خيرة أمراء بني أمية خلقاً وعلماً وعدلاً . وتنوه الرواية الإسلامية في غير موطن بجميل خلاله وصفاته . فيقول لنا ابن الأبار : « وكان حسن السيرة ، فاضلاً عادلاً ، مشغولاً بالعلوم »^(٣) . ويقول لنا ابن الخطيب : « وإليه انتهت الأبهاء والجلالة ، والعلم والأصالة ، والآثار الباقية ، والحسنات الراقية »^(٤) . وكان الحكم من ذوى الورع والتقوى ، تشهد بذلك عنايته الفائقة بأمر المسجد الجامع ، وتوسعته وإنشاء منبره الحديد ، وتزويده بالماء بطريقة هندسية بدیعة ، وما بذله في سبيل ذلك من النفقات الطائلة ، ويشهد بذلك أيضاً تشدده في محاربة الخمر وإراقها^(٥) . وكان محباً للعدل معنياً بإقامته ، شديداً في محاسبة الطغاة من العمال والحكام ، يؤيد ذلك ما رواه صاحب

(١) المقتبس - قطعة مكتبة أكاديمية التاريخ ص ٢١١ .

(٢) تضع معظم الروايات وفاة الحكم في هذا التاريخ (الحلة السيرة ص ١٠١ ، وفتح الطيب ج ١ ص ١٨٥ ، وابن الخطيب عن ابن حيان ، في أعمال الأعلام ص ٥٦) . ولكن صاحب البيان المغرب ينفرد بالقول بأن وفاته كانت في الثالث من رمضان سنة ٣٦٦ هـ .

(٣) الحلة السيرة ص ١٠١ .

(٤) أعمال الأعلام ص ٤٩ .

(٥) الحلة السيرة ص ١٠٣ .

البيان المغرب من أنه أرسل غير مرة إلى الحكام الظلمة ، يحذرهم من سطوته ، وإلى القواد والعمال ، يحذرهم من سفك الدم بلا موجب (١) .

وكان من أعمال الحكم الإنشائية أيضاً إصلاح قنطرة قرطبة العظيمة على نهر الوادي الكبير ، وتقوية دعائمها التي وهنت بمضي الزمن (سنة ٣٦١ هـ) ، وإشرافه على ذلك بنفسه (٢) .

وكان الحكم عارفاً بأقدار الرجال ، مميزاً للناهين منهم ، وقد جمع في حكومته وبلاطه جمهرة من أعظم رجال العصر والمعهم . وكان في مقدمة هؤلاء ، كبيرهم وزعيمهم الحاجب جعفر بن عثمان بن نصر المصحفي . وكان جعفر ينتمي إلى بطن من بطون البربر من بلنسية ، وتولى أبوه عثمان أيام الناصر تأديب ولده الحكم ، وهكذا نشأت بين الحكم وبين ولد أستاذه ومؤدبه جعفر مودة عميقة ، فلما أسندت إليه ولاية العهد ، قدم جعفر في الأعمال واستخدمه في الكتابة ، ثم ولاه الناصر بعد ذلك حكم جزيرة ميورقة . ولما ولي الحكم الخلافة استوزره وأمضاه على كتابة الخاصة ، وضم إليه بعد ذلك ولاية الشرطة ، ثم تولى بعد ذلك منصب الحجابة أي رئاسة الوزارة ، خلفاً للحاجب جعفر بن عبد الرحمن الصقلي ، وأصبح أول رجل في الدولة ، واجتمعت لديه سائر السلطات ، ولما رزق الحكم بولده هشام اختار جعفر كافلاً له ، واستمر جعفر هو القائم بدولة الحكم حتى وفاته . وكان المصحفي من أساطين الكتابة والشعر وله شعر حسن ، أورد لنا منه ابن الأبار مختارات رقيقة مشرقة تدل على تمكنه (٣) .

وكان من أشهر أعمال المصحفي في بداية عهد الحكم أن قدم إليه هديته الباذخة ، التي حاول أن يبرز فيها هدية الوزير ابن شهيد إلى الناصر . وقد أورد لنا ابن حيان في المقتبس وصفاً لمحتويات هذه الهدية الشهيرة وهي : مائة مملوك من الفرنج ناشئة على خيول صافنة كاملو العدة والسلاح ، وثلاثمائة وعشرون درعاً مختلفة الأجناس ، وثلاثمائة نحوذة كذلك ، ومائة بيضة هندية ، وخمسون نحوذة

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥٥ ، ٢٥٦ .

(٢) ابن حيان في المقتبس - قطعة مكتبة أكاديمية التاريخ السابق الإشارة إليها ص ٦٤ و ٦٥ .

(٣) راجع ترجمة جعفر المصحفي ومختارات من شعره ، في «الحلة السراء» ص ١٤١-١٤٧ .

حبشية من حبشيات الإفرنجية ، وثلاثمائة حربة إفرنجية ، ومائة ترس سلطانية ، وعشرة جواشن مذهبة ، وخمسة وعشرون قرناً مذهبة من قرون الحماموس^(١). وكانت هدية المصحفي للحكم ، من أشهر الحوادث الاجتماعية في هذا العصر . وكان من أكابر دولة الحكم أيضاً ، القائد غالب بن عبد الرحمن الناصري صاحب مدينة سالم ، وكان مولى لأبيه الناصر . وكان غالب ، فضلاعن كونه من نصحاء الحكم ، ومستشاريه المقربين ، من أعظم قادة الأندلس ورجالاتها في هذا العصر ، وكان الحكم ، عرفاناً منه بقدر هذا القائد المظفر ، قد أسند إليه القيادة العليا ، وأصدر مرسومه بذلك إليه في سنة ٣٦١ هـ ، وذلك « لغناؤه وجميل مقامه » . ثم عاد على أثر انتصاره في موقعة حصن غرماج في سنة ٣٦٤ هـ ، فقلده سيفين مذهبين من ذخائر سيوفه ، وسماه « ذا السيفين » ،^(٢) وكان منهم أيضاً الوزير يحيى بن محمد التجيبي ، والقائد سعيد بن الحكم الجعفري ، وكلاهما من أعظم الوزراء والقادة ، وقد برز كلاهما في غزوات الصوائف ، وحوادث المغرب الأقصى :

وكان من كتاب الحكم عيسى بن فطيس ، ومن قضاته منذر بن سعيد البلوطي كبير القضاة في عهد أبيه الناصر ، ثم أبو بكر محمد بن السليم ، وكان الحكم ، بالرغم مما كان يسود الممالك الإسبانية النصرانية في عهده من جنوح إلى المهادنة والسلم ، يرقب حركاتها وتصرفاتها بعناية ، وقد رتب لذلك بعض عماله المهرة المخلصين المعروفين بصدق الخدمة ، وفي مقدمتهم ابن أبي عمرو العريف ، وصاحبه سعيد ، للسفارة بينه وبين ملوك جليقية ، ولقاء قواميسها ، والتردد عليهم « للتعرف على أخبارهم ، والتجسس لأنبأهم » وحمل الكتب إليهم في كل وقت ، وصرفها عنهم ، وهو ما يفصح عن بعض الوسائل التي كان يلجأ إليها بلاط قرطبة للإحاطة بأخبار الممالك النصرانية ونياتها^(٣). وكان الحكم شاعراً مطبوعاً ينظم القريض الرقيق ، ومما ينسب إليه قوله :
إلى الله أشكو من شمائل مسرف على ظلوم لا يدين بما دنت

(١) ابن خلدون في كتاب العبر ج ٤ ص ١٤٤ .

(٢) راجع المقتبس - قطعة أكاديمية التاريخ ص ٦٩ و ٢٢٠ .

(٣) المقتبس - قطعة أكاديمية التاريخ ص ٧٦ .

نأت عنه دارى فاستزاد صلوده ولانى على وجدى القديم كما كنت
ولو كنت أدري أن شوقى بالغ من الوجد ما بلغته لم أكن بنت
وقوله :

عجبت وقد ودعتها كيف لم أمت وكيف انثنت بعد الوداع يدى معى
فيامقلتي العبرا عليها اسكبي دماً ويا كبدي الحراً عليها تقطعي

* * *

ونلاحظ أخيراً أن بلاط قرطبة ، كان في أيام الحكم المستنصر ، يبدو في
بهى أثوابه الملوكية والخلافية ، وكان جلوس الحكم في أيام الأعياد أو لاستقبال
الوافدين والسفراء من أيام قرطبة المشهودة . وقد أفاض ابن حيان في وصف
هذه الأيام والحفلات الباذخة . ويبدو مما كتبه أن الخليفة الحكم ، كان يؤثر
الجلوس في هذه الأيام بالمجلس الشرقى من قصر الزهراء ، ويجلس عن يمينه
ويساره إخوته بترتيب السن ؛ ثم يليهم في ترتيب الجلوس ، الوزراء ، يجلسون
بعد فرجتين ، إلى اليمين وإلى اليسار ، ويلى ذلك صاحب المدينة بقرطبة ، ويجلس
إلى اليمين ، وإلى جانبه صاحب المدينة بالزهراء ، ثم يجلس من بعدهم صاحب
الحشم ، فصاحب الخيل ، فأصحاب الشرطة العليا والوسطى ، وسائر طبقات أهل
الخدمة وفق مراتبهم ، وقاضى الجماعة ، والحكام وأصحاب الشرطة الصغرى ،
وأسباط الخلافة ، وجلة قريش ، ثم وجوه الموالي ، ثم قضاة الكور والفقهاء
المشاورون والعسود ، وأعيان قرطبة . ويصطف الحند في أثوابهم الزاهية ،
منذ مداخل القصر حتى الممر المفضى إلى مجلس الخليفة ، وقد أورد لنا ابن حيان
وصف هذا النظام في مختلف المناسبات الرسمية ، فما يدل على أنه هو نظام البروتوكول
(المراسيم) الثابت الذى كان يتبعه بلاط قرطبة في هذا العهد عند جلوس الخليفة
للمناسبات الرسمية الكبرى (١) .

ويجب أن نلاحظ من ذلك الوقت التطور العظيم ، الذى حدث في تكوين
المجتمع الأندلسى . فقبل عهد الناصر كانت الرياسة والأرستقراطية ، تنحصر في
القبائل العربية . وكان البربر يحتلون مقاماً أدنى : وكانت المعارك يضطرم لظاها

(١) ابن حيان في المقتبس - قطعة أكاديمية التاريخ ص ٢٩ و ٤٩ و ٥٠ و ٥٧ و ٨١

و ٩٤ و ١٩٤ و ١٩٥ .

باستمرار بين السلطة المركزية أعنى بين الإمامة وبين العصبية العربية ، التي تحاول دائماً أن تقيم رياستها في الثغور والمدن على أساس الاستقلال المحلي . وقد استمرت هذه المعارك عصوراً ، منذ عبد الرحمن الداخل ، حتى جاء الناصر ، فشدد في مطاردة العصبية العربية وتحطيمها ، وآثر أن يعهد بالرياسة والسلطات المحلية إلى طوائف الصقالبة حسبما شرحنا ذلك من قبل . وفي عهد الحكم المستنصر كانت الأرستقراطية العربية ، قد اضمحلت ، وغاض نفوذها ، واختفت كقوة سياسية واجتماعية تخشاه السلطة المركزية ، وإن كانت قد بقيت كطبقة من الطبقات ، وحلت محلها أرستقراطية من نوع جديد ، قوامها القادة والرؤساء العسكريون ، من الموالى والصقالبة ، فكانت بذلك أرستقراطية سيف ، وليست أرستقراطية قبيل أو عصبية ، وباع الفتيان الصقالبة أيام الحكم ، ذروة القوة والنفوذ والثراء ، مثلما كانوا أيام أبيه الناصر . ويكنى أن نذكر هنا دليلاً على ضخامة ثراء هؤلاء القوم ، أن أحدهم وهو الفتي الكبير درى الخازن ، قام بإهداء مولاه الخليفة الحكم ، منيته الغراء بوادى الرمان من ضواحي قرطبة ، وكان قد أنشأها مغنى ومتزهاً ، وأفاض عليها أروع صنوف البذخ والبهاء ، وجعلها رياضها ومنشأتها جنة حقة . وقد قبل الحكم هدية فتاه ، وقام بزيارة هذه المنية مع ولي عهده هشام وحاشيته ، وأنفق فيها يوم استجمام ومسرة . وقد أجمع الخليفة ومرافقوه على أنهم « لم يشاهدوا في المتنزهات السلطانية أكمل ولا أعذب ولا أعم من صنيع درى هذا » (١) . هذا وأما الطبقة الوسطى فقد انحصرت في التجار ورجال الصناعة وغيرهم ممن استطاعوا أن يحرزوا بالتجارة والفنون في مختلف القواعد ثروات عظيمة . ويأتى بعد الطبقة الوسطى ، طبقات الشعب الكادحة ، وكانت على نحو ما يحدث في كل زمان ومكان ، تبغض الطوائف المبسورة ، وتنقم عليها نعماء العيش .

وكانت ثمة طبقة أخرى ، ذات مميزات خاصة ، هي طبقة الموالدين أو بعبارة أخرى مسلمو الإسبان ، وكانت تحتل مكانها بين الطبقات المتوسطة والمبسورة . وكان بينها الكثيرون ممن أحرزوا الحياه والنفوذ والثراء . بيد أن المولدين بالرغم من إسلامهم ، كانوا يعتبرون أقل مكانة من المسلمين الأصليين . وكان المعروف

(١) ابن حيان في المقتبس - قطعة أكاديمية التاريخ ص ١٠٧ .

من أصولهم دائماً ، أنهم كانوا على الأغلب عبيداً أو مسترقين من القوط ، دخلوا في الإسلام اجتناء للحرية . وقد زاد عدد المولدين زيادة كبيرة ، منذ عهد عبدالرحمن ابن الحكم ، حيث دخل كثير من النصارى المعاهدين في الإسلام ، حينما اشتدت وطأة حكومة قرطبة عليهم ، أيام الفتن التي حاولوا إثارتها لإشاعة الإضطراب والفوضى ، حسبما فصلنا ذلك في موضعه . وبذلك ازداد عدد المولدين زيادة كبيرة ، منذ أوائل القرن التاسع الميلادي ، وغدوا في ظل الخلافة أيام الناصر وولده الحكم ، يمثلون أقلية كبيرة بين الأمة الأندلسية .

وأما الطبقة المستركة أو طبقة العبيد ، فكانت في تلك العصور تتألف من العمال العبيد ، الذين يلحقون في الغالب بالضياع . وكان هذا النظام موجوداً منذ أيام القوط ، ولكنه طبق أيام المسلمين ، بصورة أفضل بكثير مما كان عليه ، ومنح هؤلاء العمال حقوقاً إجتماعية وإنسانية ، رفعت عنهم كثيراً من صور العبودية القديمة ، التي كانت تعطى للسيد عليهم حق الحياة والموت ، والبيع والشراء . ويلحق بغير الأحرار أيضاً طبقة الصقالبة والخصيان . بيد أن هذه الطبقة كانت تحتل مكانة ملحوظة في المجتمع ، وكان لها في الحكومة والقصر ، إيما نفوذ ، وقد ظهر منها زعماء وقادة وصلوا إلى مراكز عظيمة ، وكان لهم فيما بعد شأن يذكر ، في تطور الحوادث التي أعقبت انهيار الخلافة الأندلسية .

وإلى جانب هذه الطبقات المختلفة ، التي تتألف منها الأمة الأندلسية ، كانت توجد دائماً طبقة النصارى المعاهدين ، الذين يعيشون في ظل الحكم الإسلامي ، وكانت تجتمع في القواعد الأندلسية في أقليات كبيرة . وكانت تحتل في العاصمة ، وفي بعض المدن الأخرى مكانة خاصة ، ويشغل كثير من أفرادها مراكز هامة في الحكومة والجيش ، وقد تحدثنا من قبل عن بعض أحوال هذه الطبقة وظروفها : ويجب أخيراً ألا ننسى الأقلية اليهودية . فقد عومل اليهود منذ الفتح بمنتهى الرفق والرعاية ، وازدهرت أعمالهم التجارية والصناعية ، في ظل ذلك التسامح الإسلامي الماثور ، ووصلوا في قرطبة في ظل الخلافة ، إلى ذروة النفوذ والرخاء . وفي أيام الناصر تولى أحدهم ، وهو العلامة حسداى بن شبروت ، الإشراف على الخزانة العامة ، وكان قبل ذلك قد حظى برعاية الناصر بخدماته الدبلوماسية ، وترجمته لكتاب ديسقوريدس عن الأعشاب الطبية ، من اليونانية إلى العربية .

وهو الكتاب الذى لدى قيصر منه نسخة إلى الناصر . وفى ظل هذه الرعاية ، وفد كثير من العلماء واُدباء اليهود إلى قرطبة ، أيام الناصر وولده الحكم ، وقامت فى ظل نشاطهم مدرسة قرطبة التلمودية ، ومؤسسها الرابى موسى بن حنوش ، وازدهرت فى ظلها ابحاث التلمودية ، وغدت مركز الرياسة والتوجيه لهذه البحوث . واستمرت الخلافة الأموية ، ومن بعدها حكومات الطوائف على رعاية الأقلية اليهودية وتشجيعها ، وكان يهود قرطبة يرتدون الزى العربى ، ويتخلقون بالتقاليد والعادات العربية ، ويمتازون بآرائهم ومظاهرهم الفخمة (١) ،

(١) راجع : R. Altamira : Historia de Espana y de la Civilización :
Espanola, Vol. I, p. 250 - 25٦.

الفصل الثاني

هشام المؤيد بالله

مؤامرة الفتيان الصقالبة لإبعاد هشام وترشيح المغيرة بن الناصر. الحاجب جعفر يناهض مشروعاتهم . محمد بن أبي عامر يتولى قتل المغيرة . معسكر الصقالبة ومعسكر الأحرار . أخذ البيعة لهشام . وصف ابن الخطيب لأحوال الخلافة الأندلسية يومئذ . اجتماع السلطة في يدي الحاجب جعفر وابن أبي عامر . صبح البشكنسية أم المؤيد . ظهورها في بلاط قرطبة وتمكن نفوذها من الحكم . حظوة الحاجب جعفر لديها . محمد بن أبي عامر . أصله ونشأته . خلال طموحه . حظوته لدى صبح . لطبيعة العلاقات بينهما . مصانعة الحاجب جعفر . نفوذه لدى صبح . جعفر المصحفي يتولى الحجابة وابن أبي عامر الوزارة . الصراع الخفي بين الرجلين . الخليفة للصبي هشام . شغفه باللهو واللعب . حجبه والحجر عليه . دور ابن أبي عامر في ذلك . طموحه في الاستئثار بالسلطة . الفتيان الصقالبة . تفاهم الحاجب وابن أبي عامر على سحقهم . ابن أبي عامر يتولى قيادة الجيش ويغزو أرض النصارى . الخلاف بين الحاجب والقائد غالب . مسير ابن أبي عامر وغالب إلى الغزو . ذبوع شهرة ابن أبي عامر . الصراع بينه وبين المصحفي . محاولة المصحفي التفاهم مع غالب . ابن أبي عامر يحبط خطته . مسير ابن أبي عامر وغالب ثانية إلى الغزو . زواج ابن أبي عامر من أسماء ابنة القائد . تولية غالب منصب الحجابة . تضاعف مكانة المصحفي . إقالته والقبض عليه وعلى أهله . اشتداد ابن أبي عامر في مطاردته . وفاة المصحفي أو قتله في سجنه . شعر له في محنته . ابن أبي عامر يسحق خصومه ومنافسيه . اهتمامه بتنظيم الجيش . اصطناعه للبربر واضطهاده للعرب .

لما توفي الحكم المستنصر بالله ، في اليوم الثاني من صفر سنة ٣٦٦ هـ ، حرص خادماه الحصيان ، الفتيان فائق وجوذر ، على كتمان خبر موته ، وقاما بضبط القصر ، واتخاذ التدابير اللازمة ، لتسيير الأمور وفق الخطة التي وضعها . وكانت هذه الخطة ، تنحصر في تنحية ولي العهد الصبي هشام عن العرش ، واختيار عمه أخي المستنصر ، المغيرة بن عبد الرحمن الناصر ، لولاية العرش ، وكان الفتيان الصقالبة داخل القصر ، زهاء ألف ، ولهم نفوذ عظيم ، وفي أيديهم الحرس الخلفي ومعظمه من الصقالبة والمرترقة . فكانوا بذلك قوة يخشى بأسها .

استدعى فائق وجوذر ، الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي ، ونباه بموت الخليفة وعرضا عليه مشروعاتهما ، في تولية المغيرة ، فتظاهر الحاجب بالاستحسان والموافقة ، ووعدهما بالعمل وفق خططهما ، وتنفيذ ما يشيران به . ثم خرج ،

فبادر إلى ضبط أبواب القصر ، واستدعى أصحابه من خاصة الحكم ، مثل زياد بن أفلح مولى الحكم ، وقاسم بن محمد ، ومحمد بن أبي عامر ، وهشام بن محمد بن عثمان وغيرهم . واستدعى في نفس الوقت عصيته وأشياعه من زعماء البربر ، مثل بني برزال ، كما استدعى سائر القادة الأحرار ، فاجتمع له منهم ومن أجنادهم طوائف ضخمة . فنعى لهم الخليفة ، وعرض عليهم مشروع الفتیان الصقلية ، في تنحية هشام وتولية المغيرة ، وأوضح لهم أن هذا المشروع خطر داهم عليهم ، وأنه إذا ولي المغيرة ، واستبد الصقلية بالأمر ، قضى عليهم وعلى دولتهم ونفوذهم ، ونكل بهم المغيرة والصقلية . والأمر بالعكس إذا ولي هشام ولي العهد الشرعي ، فإنهم يستبقون سلطانهم ونفوذهم ، وتغدو الدولة دولتهم ، ويأمنون على أنفسهم وأموالهم . فاقترح بعض أصحابه أن يقتل المغيرة ، فيؤمن بذلك شره في الحال والاستقبال ، وتطوع محمد بن أبي عامر لتنفيذ هذه المهمة الدموية ، حفظاً للوئام والوحدة ؛ فبعث جعفر معه سرية من الحند الأحرار الموثوق فيهم ، وسار معه بدر القائد مولى الحكم ، في سرية من غلمان الخليفة . وأحاط الحند بدار المغيرة ، ثم نفذ محمد بن أبي عامر في نفر من أصحابه ، ونباه بموت الخليفة وجلس ابنه هشام ، وأنه أتى ليتبين حقيقة موقفه ، فدعر المغيرة وأكد لا بن أبي عامر ، أنه مطيع مخلص لكل ما تقرر ، وتضرع إليه أن يحقن دمه ، وأن يراجع القوم في أمره . ولكن الرد كان قاطعاً في وجوب التخلص من المغيرة ، فدفع إليه ابن أبي عامر عدة من رجاله ، فقتلوه خنقاً أمام زوجته ، ثم أشاعوا أنه قتل نفسه ، ودفن في نفس مجلسه ، وكان سنه يوم قتل سبعاً وعشرين سنة . ووقع ذلك كله في يوم واحد فقط .

ولما وقف الفتیان فائق وجوذر على ما وقع ، تملكهما السخط والروع ، وبادرا إلى الحاجب جعفر ، وتظاهرا بالرضا والاستبشار بما وقع ، واعتذرا له عما سبق أن اقترحا عليه ، وأخذ الفريقان من ذلك الحين ، يتوجس كل من صاحبه ويتربص به ، وانقسم أهل القصر إلى معسكرين ، معسكر الصقلية يتزعمه فائق وجوذر ، ومعسكر الأحرار يتزعمه الحاجب جعفر ومحمد بن أبي عامر^(١)

(١) نقل إلينا ابن بسام في الذخيرة هذه التفاصيل عن ابن حيان (الذخيرة - القسم الرابع المجلد الأول ص ٤٠ و ٤١) . ونقلها أيضاً صاحب البيان المغرب ج ٢ ص ٢٧٨ - ٢٨٠ .

وسرى فيما بعد ، كيف تطورت هذه المعركة الخفية بين المعسكرين ٥

* * *

وهكذا وقع الاتفاق على تولية هشام ، وأخذت له البيعة في صبيحة اليوم التالى لوفاة أبيه الحكم ، وهو يوم الإثنين الثالث من صفر سنة ٣٦٦ هـ (أول أكتوبر سنة ٩٧٦ م) . فأجلس الخليفة الصبى هشام ، فى كرسى الخلافة ، ولما يجاوز الثانية عشرة من عمره . وتولى أخذ البيعة له الحاجب جعفر ومحمد ابن أبى عامر ، ولم يعترض أحد على توليته . واستمر أخذ البيعة أياماً ، وكتب بها إلى الأقطار ، فلم يردها أحد . وينقل إلينا ابن الخطيب ، عن ابن حيان ، ماث من أسماء الوزراء والعلماء والقضاة والأكابر ، من مختلف الطبقات ، الذين أخذوا البيعة لهشام ، ومنهم كثيرون ، ممن اشتركوا فى أخذ البيعة له بولاية العهد ، فى حياة أبيه (١) .

ويصف لنا ابن الخطيب حالة الخلافة الأندلسية ، وأحوال الأندلس ، عند ولاية هشام ، فيما يأتى : « بويغ ولى عهده (أى الحكم) هشام الملقب بالمؤيد بالله والخلافة قد بلغت المنتهى ، وأدركت الجنى ، وبلغ طورها ، وانتهى دورها ، فكانت كمامة ثم زهرة بسامة ، ثم ثمرة بهية ، ثم فاكهة شهية ؛ وكان بكرسى العامرية مجلاها ، ثم تلاها ما تلاها ، وأرخص الخطوط من أعلاها ، فكان المال قد ضاقت عنه خزائنه ، والمصر قد عظمت مزاياه ومزايينه ، والملك تعوذ بالله ، أن لا يصيبه عائنه الذى يعاينه ، والمباني قد باغت السماء سمواً ، وزاحت الكواكب علواً ، والبلاد وقد بلغ فيها إلى أقاصى الاهتمام ، وفرغت بناتها من لبنات التمام ، والآثار الصالحة قد تخلصت ، والمآثر الواضحة قد تعددت ، والأذهان فى بسطة الإسلام قد تبلدت ، ورسم الخلاف قد أمحى ، والدولة المراونية قد بركت وسط المرعى ، والدعوة قد انتشرت فى المغرب الأقصى » (٢) ٥

* * *

وهكذا تمت البيعة لهشام المؤيد ، بين يوم وليلة ، وقضى على كل معارضة ، وتوارى الأعمام وبنو العم ، واجتمعت مقاليد السلطة فى أيدي رجلين ، هما الحاجب

(١) أعمال الأعلام ص ٤٨ . وقد شذلت أسماء الذين أخذوا البيعة لهشام تسع صفحات

كاملة . (٤٨ - ٥٧) .

(٢) أعمال الأعلام ص ٤٣ و ٤٤ .

جعفر بن عثمان المصحفي ، ومحمد بن أبي عامر ، وهو يومئذ مدير الشرطة ، ومتولى خطة المواريث ، وناظر الحشم . بيد أنه من الخطأ أن يقال إن السلطة ، قد خلصت لـ هذين الرجلين وحدهما ؛ فقد كان ثمة شخصية ثالثة تشاطرهما السلطان من وراء ستار . تلك هي « صبح » البشكنسية حظية الحكم وأم ولده هشام الخليفة الصبي ، وكانت قد منحت الوصاية على ولدها ، واكتسبت بذلك صفة شرعية في الاشتراك في الحكم وتدبير الشئون .

فن ذلك كانت تلك المرأة ، التي لبثت ردحاً طويلاً من الزمن ، تسيطر بسحرها ونفوذها ، على خلافة قرطبة ، وتشترك في تدبير شئونها ، في السلام والحرب ، مع أعظم رجالات الأندلس ؟ لسنا نعرف الكثير عن نشأتها وحياتها الأولى . وكل ماتقدمه إلينا الرواية الإسلامية في ذلك ، هو أن « صبحاً » كانت جارية بشكنسية أي نافارية . ولا تذكر الرواية إن كانت قد استرقت بالأسر في بعض المواقع ، أم كانت رقيقاً بالملك والتداول ، ولكنها تصفها بالجارية والحظية ؛ وصبح أو صبيحة ترجمة لكلمة *Aurora* الفرنجية ، ومعناها الفجر أو الصباح الباكر ، وهو الاسم النصراني الذي كانت تحمله صبح فيما يظهر^(١) . وظهرت صبح في بلاط قرطبة في أوائل عهد الحكم المستنصر ، وكانت فتاة رائعة الحسن والخلال ، فشغف بها الحكم ، وأغدق عليها حبه وعطفه ، وسماها « بجعفر »^(٢) ولم تلبث أن استأثرت لديه بكل نفوذ ورأي . ثم ازداد هذا النفوذ توطداً وتمكناً ، حينما رزق منها الحكم بولده عبد الرحمن ثم بولده هشام حسباً تقدم . ولم تك صبح يومئذ جارية أو حظية فقط ، بل كانت ملكة حقيقية ، ولا تشير الرواية الإسلامية إلى أنها غدت زوجة حرة للحكم المستنصر ، بعد أن كانت جارية وحظية . ولكن هنالك ما يدل ، على أن صبحاً ، كانت تتمتع في البلاط والحكومة بما يشبه مركز الملكة الشرعية . فالرواية الإسلامية تنعتها بالسيدة صبح أم المؤيد^(٣) أو السيدة أم هشام . وتصفها التواريخ الإفرنجية « بالسلطانة صبح »^(٤) . بيد أن

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٦٨ و ٢٦٩ . وكذلك Dozy : Hist. Vol. II. p. 100

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٥١ و ٢٥٣ .

(٣) راجع اللخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ٤٣ ؛ والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٦٧ و ٢٨٢ .

(٤) Conde : Dominacion, V l. p. 480 & 493 ; Dozy : Hist. Vol. II. p. (٤)

هناك ما يقطع مع ذلك بأنها بقيت من الوجهة الشرعية جارية « وأم ولد » فقط ، وأن الحكم توفى عنها دون تغيير في مركزها الشرعى (١) .

استمرت صبح أيام الحكم ، تتمتع في البلاط والحكومة ، بنفوذ لا حد له . وكان الحكم يثق بإخلاصها وحزمها ، ويستمع لرأيها في معظم الشئون . وكانت كلمتها هي العليا ، في تعيين الوزراء ورجال البطانة ، وكان الحاجب جعفر بن عثمان المصحفى ، يجتهد في خدمتها وإرضائها ، ويستأثر لديها ولدى الحكم بنفوذ كبير . واستمرت الحال حيناً على ذلك ، حتى دخلت في الميدان شخصية جديدة قدر لها أن تضطلع فيما بعد بأعظم قسط في توجيه مصائر الأندلس . تلك هي شخصية محمد بن أبي عامر الذى تقدم ذكره غير مرة ، والذى رأيناه في أواخر عهد الحكم يشغل منصب مدير الشرطة وناظر الخاص .

كان محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أبي عامر المعافرى ، يرجع إلى أصل من أعرق الأصول العربية . وكان جده عبد الملك بن عامر المعافرى ، أول من دخل الأندلس مع الفاتحين موسى وطارق ، وظهر في الفتح بشجاعته وحسن بلائه . ونزلت أسرة بنى عامر بالجزيرة الخضراء ، وأقطعت حصن طرُش الواقع على نهر وادى يارُه ، الذى يصب على مقربة من جبل طارق ، وظهرت بالعلم والوجاهة ، وتولى كثير من أبنائها مناصب القضاء والإدارة ؛ وولد محمد بن أبي عامر بحصن طرُش وأنفق فيه حياته . وكان أبوه عبد الله ، المكنى بأبى حفص من أهل العلم والتقى ، عالماً بالحديث والشرعة ، وكانت أمه بريهة بنت يحيى تنتمى إلى بنى تميم . ونشأ محمد على تقاليد أسرته ، مؤثراً حياة الدرس ، ووفد على قرطبة حدثاً ، ودرس في معاهدها درساً مستفيضاً ، وبرع في الأدب والشرعة ، وكان من أساتذته العلامة اللغوى أبو على القالى البغدادى ، وأبو بكر بن القوطية ، والمحدث أبو بكر بن معاوية القرشى ؛ وكان طموحاً مضطرب النفس والعزم ، رفيع المواهب والخلال . وتنوه بهذا الطموح المدهش معظم الروايات المعاصرة واللاحقة (٢) : وكان محمد بن أبي عامر في نحو

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٦٩ . والمعجب للمراكشى ص ٧٤ .

(٢) الحلة السيرة ص ١٤٨ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٧٤ ، والذخيرة القسم الرابع المجلد

الأول ص ٢٤٣ . والإحاطة في أخبار غرناطة (القاهرة ١٩٥٦) ص ٤٧٤ .

السابعة والعشرين من عمره ، حينما أراد الخليفة الحكم أن يعين مشرفاً لإدارة أملاك ولده عبد الرحمن ، ورشح الحاجب جعفر فيمن رشح لتولى هذا المنصب ، وأعجبت صبيح بذلكه وحسن روائه ، وظرف شمائله ، فاخترته دون غيره ، وعين بمرتبة قدره خمسة عشر ديناراً في الشهر ، وذلك في أوائل سنة ٣٥٦ هـ (٩٦٧ م) (١) : ولما توفي عبد الرحمن طفلاً ، عين مشرفاً لإدارة أملاك أخيه هشام : وتقدم في وظائف الدولة بسرعة . فأضيف إليه النظر على الخزانة العامة . وعلى أمانة دار السكة ، ثم عين للنظر على خطة الموارث (٣٥٨ هـ) ، فقاضياً لكورة إشبيلية ولبلة . ثم عينه الحكم مديراً للشرطة الوسطى (٣٦١ هـ) : وفي أواخر أيامه عينه ناظراً على الحشم (الخاص) . ويقدم إلينا ابن حيان وظائف ابن أبي عامر في أواخر أيام الحكم على النحو الآتي : صاحب الشرطة الوسطى ، والموارث ، وقاضى إشبيلية ، ووكيل الأمير أبي الوليد هشام ، وكان عندئذ يلقب « بفتى الدولة » (٢) :

وهكذا وصل محمد بن أبي عامر إلى أرفع وظائف الدولة والقصر في أعوام قلائل . ويرجع الفضل في تقدمه بتلك السرعة ، أولاً إلى مواهبه وكفاياته الباهرة ، ثم يرجع بالأخص إلى عطف صبيح وحماتها له . وقد انتهى هذا العطف غير بعيد إلى النتيجة الطبيعية : كانت صبيح امرأة حسناء ، لا تزال في زهرة العمر ، وما زال قلبها يضطرم حباً وجوى ، وكان سيدها الحكم قد أشرف على الستين ، وهدمه الإعياء والمرض ، أما ابن أبي عامر فقد كان فتى في نضرة الشباب ، وسيم الحيا ، حسن القد والتكوين ، ساحر الخلال ، وكان من جهة أخرى يفتن في خدمة صبيح وإرضائها ، ولا ينفك يغمرها بنفيس الهدايا والنعيم ، حتى لقد أهداها ذات مرة نموذج قصر من الفضة ، بديع الصنع والزخرف ، أنفق عليه مالا عظيماً ، ولم ير مثله من قبل بين تحف القصر وذخائره ، وشهده أهل قرطبة حين حمل من دار ابن أبي عامر إلى القصر ، فكان منظراً يخلب اللب ، وبثوا

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٦٧ . وينقل إلينا المقرئ رواية أخرى عن اتصال ابن أبي عامر بصبيح ، خلاصتها أنه كان يجلس في دكان عند باب القصر ، ليكتب للخدم والمترافين للسلطان ، إلى أن طلبت صبيح من يكتب عنها ، فمر بها به بعض من كان يأنس الجلوس إليه من فتيان القصر : فاستحسن كتابته ، وعينته أميناً لبعض شئونها (نفع الطيب ج ١ ص ١٨٧) .

(٢) المقتبس - قطعة أكاديمية التاريخ - ص ١٠٦ .

يتحدثون بشأنه حيناً ؛ فكانت هذه العناية تقع من قلب صبيح أحسن موقع ؛
وتزیده عاطفاً على ابن أبي عامر وشغفاً به . وكان الحكم يشهد هذا السحر الذي ينفثه
ابن أبي عامر إلى حظيته ، وإلى نساء القصر جميعاً ، ويعجب له . ويروى أنه قال
يوماً لبعض ثقاته : « ما الذي استلطف به هذا الفتى حرماً حتى ملك قلوبهن ،
مع اجتماع زخرف الدنيا عندهن ، حتى صرن لا يصفن إلا هداياه ، ولا يرضين
إلا ما أتاه ، إنه لساحر عظيم أو خادم لبيب ، وإني خائف على ما بيده » (١) .
ولم تلبث علائق صبيح وابن أبي عامر أن ذاعت ، وغدت حديث أهل قرطبة ،
ولم يك ثمة ريب في أنها استحالت غير بعيد إلى علائق غرامية . وربما ارتاب
الحكم في طبيعة هذه العلائق ، وثاب له رأى في نكبة ابن أبي عامر ، وسعى
لديه بعض خصومه ، واتهمه بأنه يبدد الأموال العامة ، التي عين للنظر عليها ،
في شراء التحف والإنفاق على أصدقائه ، فأمره الحكم أن يقدم حساب الخزانة
العامة ، ليتحقق من سلامتها ، وقد كان بالخزانة في الواقع عجز كبير ، فهرع
ابن أبي عامر إلى صديقه الوزير ابن حدير ، وكان وافر الوجاهة والثراء ، فأغاثه
وأعانه بماله على تدارك هذا العجز ، وتقدم إلى الحكم سليم العهدة برىء الذمة ،
فزالت شكوكه ، وتوطدت ثقته فيه .

واستمر ابن أبي عامر متمتعاً بنفوذه وسلطانه ، يندبه الحكم لعظام المهام
والشئون ، وكان آخرها ما عهد إليه من تنظيم البيعة بولاية العهد لولده هشام
حسباً تقدم ؛ وابن أبي عامر خلال ذلك كله ، يحرص على عطف صبيح ، ويستزیده
ويصانع الحاجب جعفر ، ويجتهد في إرضائه وكسب ثقته ؛ وكان بين الرجلين
تباين يفيد منه ابن أبي عامر ، فقد كان الحاجب جعفر على ما يبيده من التواضع
والبشر والترفق بالناس ، قليل الجود ، موثراً لجمع المال . وكان ابن أبي عامر
على نقيضه في ذلك ، فكان واسع البذل والجود ، حريصاً على اصطناع الرجال ،
وكانت داره الفخمة بضاحية الرصافة ، مقصد الناس من كل صوب ، وكانت
مائدته معدة دائماً ، وكان بذلك كله يخلق جواً من الحب والإعجاب ، ويجتذب
الصحب والأنصار ، بسحر خلاله ، ووافر بذله ومروءته ، وبارع وسائله
وأساليبه (٢) .

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٦٨ .

(٢) الأخيرة - القسم الرابع المجلد الأول ص ٤٢ . والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٧٥ .

فلما توفي الحكم المستنصر ، وأسندت الخلافة إلى ولده الطفل هشام ، اتخذت الأمور وضعاً جديداً ، ينذر بتطورات جديدة . وقد رأينا أى دور قام به ابن أبي عامر عندئذ ، من الانضمام إلى الحاجب جعفر في معارضة الفتيان الصقالبة ، ومقتل مرشحهم للخلافة ، المغيرة بن عبد الرحمن الناصر .

* * *

وهكذا تحقق مشروع الحكم بجلوس ولده هشام ، وتحقيق مشروع الثلاثة ذوى السلطان من بعده ؛ وكان طبيعياً أن تحرص صبيح على تولية ولدها لتحكم باسمه ، وكان طبيعياً كذلك أن يؤازر ابن أبي عامر صاحبته المحسنة إليه ، ليستمر بواسطتها محتفظاً بسلطانه ونفوذه . أما الحاجب جعفر فقد كان له مثل ذلك الباعث في تولية هشام ، إذ كان يخشى من تولية المغيرة ، وأوليائه الصقالبة ، على نفسه وعلى سلطانه . وهكذا جمعت البواعث والغايات المشتركة بين أولئك الثلاثة ، الذين قدر لهم أن يسيطروا على تراث الخلافة الأموية . ولكن هذا التحالف الذى أملت الضرورة المؤقتة ، لم يكن طبيعياً ولا سيما بين الحاجب جعفر ، ومنافسه القوى محمد بن أبي عامر . وكانت العلائق بين صبيح وابن أبي عامر ، تزداد كل يوم توثقاً ، ولا سيما منذ وفاة الحكم . وكان ابن أبي عامر ، يرى في تلك المرأة ، التى تجتمع في يدها السلطة الشرعية ، بوصايتها على ولدها الطفل ، أداة صالحة هينة ، يستطيع أن يخضعها لإرادته ، ويسخرها لمعاونته ، على تحقيق مشاريعه البعيدة المدى . وكانت صبيح من جانبها تغدق كل عطفها وثقتها ، على هذا الرجل القوى الذى سحرها بخلاله ، وقوة نفسه ، وباهر كفاياته ، وتضع فيه كل أملها لحماية العرش الذى يشغله ولدها الفتى ، فلم تمض أيام قلائل على تولية هشام ، حتى عين حاجب أبيه جعفر المصحفى حاجباً له ، ورفى في نفس الوقت ابن أبي عامر من خطة الشرطة إلى مرتبة الوزارة ، وجعله معاوناً للمصحفى في تدبير دولته (١) . وبذلك أشرك ابن أبي عامر ، في تولى السلطة المباشرة مع المصحفى ، ولم يعترض أحد من رجال القصر أو الدولة على ذلك الاختيار ، سوى الحاجب جعفر ، فقد كان يرى في هذا التعيين انتقاصاً لسلطته ، ونكراناً لحميله ، بعد أن حمل أعباء السلطة كلها دهرآ . وكان يرى في ابن أبي عامر بالأخص منافساً يخشى

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٧٠ .

بأسه ، و يرتاب في نيّاته وأطماعه . ومن ذلك اليوم يضطرم بين الرجلين صراع عنيف صامت لم يك ثمة شك في نتيجته . وكان ابن أبي عامر هو الأقوى بلا ريب ، سواء بمواهبه وقوة نفسه ، أو بموازرة صبح له . ولم تكن هذه الموازرة ترجع فقط إلى ذلك الحب القديم ، الذي تضطرم به جوانح صبح نحو ذلك الرجل القوي ، ولكنها كانت أيضاً ترجع إلى ثقة صبح في قدرته وبراعته ، وفي أنه هو الرجل الوحيد الذي يستطيع أن يحمي ملك ولدها الفتى ، وأن يوطد الأمن والسلام في المملكة . كان ابن أبي عامر في الواقع هو السيد المطلق ، وكانت صبح تفوض إليه كل سلطة وكل أمر ، فكان يدير الشؤون كلها بمهارة ، تثير إعجاب خصومه وأصدقائه على السواء .

وكان الخليفة الفتى هشام المؤيد بالله ، ميّالاً بطبيعته وسنه إلى اللهو والدعة ، ولم يكن له شيء من تلك الخلال الرفيعة ، التي تهيب الأمراء للاضطلاع بمهام الملك ، فكان يلزم القصر والحدائق ، ويقضي كل أوقاته في اللهو واللعب ، بين الحصيان وآلات الطرب ؛ وكان ابن أبي عامر وصبح يشجعان هذه الميول السيئة في نفس الأمير ، ويريانها ملائمة لمقاصدهما^(١) . ومذ ولي هشام ، حجر عليه ابن أبي عامر ، ولم يسمح لأحد غيره برويته أو مخاطبته ، وكان يحمل صبحاً بدهائه وقوة عزمه ، على أن تخلق الأعذار لحجب ولدها ، حتى غدا هشام شبه معتقل أو سجين . وفي ذلك يقول لنا مؤرخ أندلسي : « حجر المنصور ابن أبي عامر على هشام المؤيد ، بحيث لم يره أحد مذ ولي الحجابة ، وربما أركبه بعض سنين ، وجعل عليه برنساً فلا يعرف ، وإذا سافر وكل من يفعل به ذلك »^(٢) . ويقدم إلينا ابن الخطيب تلك الصورة عن الخليفة هشام : « ولما كان هشام مندرجاً في طي كافله الحاجب المنصور ، بحيث لا ينسب إليه تدبير ، ولا يرجع إليه من الأمور قليل ولا كثير ، إذ كان في نفسه وأصل تركيبه مضعفاً مهيناً مشغولاً بالنزهات ، ولعب الصبيان والبنات ، وفي الكبر بمجالسة النساء ومحادثة الإماء ، محرص بزعمه على اكتساب البركات والآلات المنسوبات »^(٣) . وفي الفرص النادرة ، التي كان يسمح فيها للأمير بالخروج ، كان ابن أبي عامر يتخذ أشد

(١) Dozy : Hist. Vol. II. p. 227

(٢) راجع نفح الطيب ج ١ ص ٢٧٦ .

(٣) أعيان الأعلام ص ٥٨ .

التحولات ، فيحيط موكب الأمير حين يهترق شوارع قرطبة ، بصنوف كثيفة من الجند ، تمنع الشعب من رؤيته أو الاقتراب منه : وكان حجب هشام على هذا النحو ، عماد ذلك الانقلاب العظيم الذي اعتزم ابن أبي عامر ، أن يحدّثه في نظم الدولة ، لتمكين سلطانه وجمع سلطات الخلافة كلها في يده .

وكان لابد لتحقيق هذه الغاية الكبرى ، أن يسحق ابن أبي عامر كل سلطة أخرى تعترض سبيله . وكان الصقالبة وعددهم نحو ألف ، لا يزالون قوة يحسب حسابها ، وكذا كان الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي ، ما يزال يحكم منصبه وتأييد عصبته ، مسيطراً على السلطة العليا . وكانت الوحشة ما تزال قائمة بين الحاجب وبين الصقالبة ، مذ تسبب في فشل مشروعاتهم لتولية المغيرة بن عبد الرحمن ، وحصد شوكتهم بتوليته هشام . وكان الحاجب يخشى غدرهم ودسائسهم . وبلغه أن فريقاً من زعمائهم ، وعلى رأسهم الفتيان جوذر وفائق ، يدبرون مؤامرة لقلب نظام الحكم ، فاتخذ بعض التحولات ، ووضع الفتيان تحت الرقابة ، وأغلق باب الحديد ، الذي كان مخصصاً بدخولهم ودخول أصحابهم إلى القصر ، وقصر دخولهم مع بقية الناس على باب السدة ، وفصل الغلمان من أصحاب جوذر وفائق ، وتفاهم مع ابن أبي عامر على إلحاقهم بحاشيته ، وكانوا زهاء خمسمائة ، فقبل ابن أبي عامر خدمتهم وفخم بهم شأنه ، ثم انحاز إليه بنو برزال ، وكانوا قبلاً من أصحاب الحاجب جعفر ، فقوى بهم أمره ، ولم يمض سوى قليل حتى استقال زعيم الصقالبة الفتي جوذر ، وشعر الصقالبة بأن نجمهم قد أفل ، وسلطانهم قد انهار ، فسرى بينهم التذمر ، واجتمع المتمردون حول فتي من زعمائهم يدعى دري . فتفاهم الحاجب وابن أبي عامر على إزالته ، فدعى إلى بيت الوزارة لسؤاله عن أمور نسبت إليه وإلى عماله من رعيته في بياسة ، ولما قدم دري ورأى كثرة الجند ، شعر بالشر ، وأراد العودة فمنعه ابن أبي عامر ، فهاجم عليه وأراد أن يبطش به ، فصاح ابن أبي عامر بالجند ، فهاجم إليه بنو برزال وانهالوا عليه ضرباً ، ثم حمل إلى داره وقتل في نفس المساء . ورأى ابن أبي عامر الفرصة سانحة لسحق الصقالبة ، فأمر كبيرهم فائقاً وباقي زعمائهم بالتزام دورهم ، وفرق بذلك شملهم . ثم جد في مطاردتهم واستصفاء أموالهم ، وقضى فيهم القتل والنفي ، حتى هلك الكثير منهم ، وأبعد الفتي فائق في النهاية إلى

ميورقة فأت هناك ، وانهار بذلك سلطان الصقالبة ، وأمن الحاجب وزميله ابن أبي عامر شرهم ، وتقلد الحاجب جعفر أمر القصر والحرم بدلا منهم .
ويبدو ابن حيان ارتياحه لسحق الصقالبة واستئصال شأفتهم على هذا النحو .
وقد كان الصقالبة في البداية زينة للدولة والبلاط ، وكان ظهورهم بمجموعهم المتألقة وأزيائهم الفخمة ، يسبغ على القصر ، وعلى مواكب الخلافة ، طابعا من الأبهة والعظمة . ولكنهم منذ استأثروا بثقة الخليفة ، وبسطوا سلطانهم على القصر والدولة ، اشتد طغيانهم ، وثقلت وطأتهم على أهل الدولة ، وعلى الشعب قاطبة^(١) .
وسنحت بعد ذلك بقليل فرصة أخرى ، لكى يوطد ابن أبي عامر قدمه في السلطة ، وييسط نفوذه على الجيش عصب كل سلطان حقيقى . وذلك أن القشتاليين ، كانوا قد انتهزوا فرصة مرض الحكم ، وانشغال المسلمين عقب وفاته ، فدفعوا غاراتهم جنوبا ، ووصلوا إلى مقربة من العاصمة ذاتها ، ولم يبد الحاجب في ذلك ، ما كان واجبا من الهمة والنجدة ، فاهتم ابن أبي عامر ، وأشار إلى الحاجب جعفر بتجهيز الجيش واستئناف الجهاد ، ولكن الحاجب لم يجد من القادة من يعهد إليه بتلك المهمة ، فتقدم ابن أبي عامر للاضطلاع بها ، وجهاز المال والجنود ، وأشرف بنفسه على اختيار الجنود . وخرج من قرطبة في رجب سنة ٣٦٦ هـ (فبراير ٩٧٧ م) ، وسار شمالا إلى أراضي قشتالة ، ثم عطف غربا حتى أحواز شلمنقة ، وحاصر حصن الحامة ، ومكانه اليوم محلة تسمى بالإسبانية « لوس بانوس » Los Baños (الحمامات) ، وتقع في جنوب بلدة (بخار) في السفح الغربى لجبال جريدوس ، ثم استولى على الحصن وربضه ، وقفل راجعا إلى قرطبة ، مثقلا بالأسرى والغنائم ، وذلك لثلاثة وخمسين يوماً من خروجه إلى الغزو^(٢) .
وكان لهذا الظفر الحربى الأول ، الذى حقق على يد ابن أبي عامر ، أكبر الأثر في نفوس الجنود ، ونفوس الشعوب قاطبة ، فقد رأى الجنود فيه قائدهم المظفر ، وقد استولى على قلوبهم ببذله ووفرة عطائه ، ورأى فيه الشعب حامى المملكة والمدافع عنها ، وكان لهذه البداية نتائج بعيدة المدى .
ولم تمض أسابيع قلائل على ذلك حتى تاهب ابن أبي عامر للسير إلى غزوته

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٨٠ و ٢٨١ . والذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ٤٤ .

(٢) الذخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ٤٥ . والبيان المغرب ج ٢ ص ٣٨٢ . وكذلك

Dozy : Hist. Vol. II. p. 208.

الثانية ؛ وكانت قد وقعت ثمة ظروف جديدة زادت في توطيد مركزه ، وفي إضعاف مركز الحاجب جعفر . وكان بين الحاجب ، وبين القائد غالب بن عبد الرحمن صاحب مدينة سالم ، وأعظم فرسان الأندلس ، عداء مستحكم ، زاده ما تقول به الحاجب على غالب ، من تقصيره في الدفاع عن الحدود الشمالية ، وعجزه عن رد النصارى ، فانهز ابن أبى عامر هذه الفرصة ليضم غالباً إلى جانبه ، وسعى إلى خدمته والدفاع عنه لدى صبح ، ولدى الخليفة ، حتى خرج المرسوم برفعه إلى خطة «ذى الوزارتين» ، وبأن يندب لقيادة جيش الثغر ، وأن يندب ابن أبى عامر لقيادة جيش الحضرة . وخرج ابن أبى عامر على أثر ذلك بالجيش إلى غزوته الثانية ، وذلك في يوم عيد الفطر سنة ٣٦٦ هـ (مايو ٩٧٧ م) ، فالتقى بغالب وجيشه في محلة مجريط^(١) على طريق وادى الحجارة ، واخترق الحيشان معاً أراضى قشتالة القديمة ، واستولى المسلمون على حصن مولة ، وأصابوا كثيراً من الغنائم والسبي . وكان لجيش غالب التفوق في الأعمال الحربية في تلك المنطقة ، ولكن غالباً تنحى عن ذلك لابن أبى عامر ، وارتد بجيشه إلى الثغر ، بعد أن توثق بينهما التحالف ، والتفاهم على سحق الحاجب جعفر عدوهما المشترك ؛ وقفل ابن أبى عامر إلى قرطبة بالغنائم والسبي ، وقد نسب إليه فخر الظفر على الأعداء ، فزاد صيته ، وارتفعت هيئته ، وتمكنت منزلته لدى الخليفة ، وازداد الشعب حوله التفافاً وله حباً^(٢) .

وهنا بدت طلائع المعركة الحاسمة بين ابن أبى عامر وجعفر المصحفى . فماكاد ابن أبى عامر يصل إلى قرطبة ، حتى خرج أمر الخليفة بعزل محمد بن جعفر ولد الحاجب عن حكمها ، وتقليده لابن أبى عامر ، وبذلك تم لابن أبى عامر السيطرة على المدينة والجيش معاً . وكانت قرطبة تعاني قبل توليه حكمها من اضطراب الأمور ، واختلال الأمن ، وذيوع الفساد والفسق ، فضبط أمرها وقمع أهل الشر والدعارة ، فساد بها الهدوء والأمن . ثم استخلف ابن أبى عامر على حكم المدينة ابن عمه عمرو بن عبد الله بن أبى عامر . فسار على طريقته ، في

(١) هى محلة وقلة حصينة أنشأها الأمير محمد بن عبد الرحمن فوق سفح جبال وادى الرملة على مقربة من طليطلة لصد غارات النصارى . ولبتت تؤدي مهمتها الدفاعية ، حتى سقطت في أيدي النصارى في سنة ٤٧٦ هـ (١٠٨٣ م) . وعلى موقعها القديم أنشئت مدينة مدريد الحديثة .

(٢) الدخيرة - القسم الرابع ج ١ ص ٤٦ و ٤٧ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٨٣ .

انتهاج الحزم والشدة في ضبط الأمور ، ومطاردة أهل البغي والعدوان . كل ذلك والحاجب جعفر ، يشهد سلطانه يغيض شيئاً فشيئاً ، وسلطان ابن أبي عامر في صعود وتمكن مستمر ، ويشهد انصراف الخليفة والشعب عنه ، ويشعر في قرارة نفسه بدنو الخاتمة المحتومة .

ونخطر للحاجب جعفر أن يقف هذا التحول الخطر ، باستمالة القائد غالب ومصالحته ، فطلب يد ابنته أسماء زوجاً لابنه محمد ، فاستجاب غالب إلى طلبه ، وكادت تتم المصاهرة ، ولكن سرعان ما علم ابن أبي عامر بذلك المشروع ، فثارت نفسه ، وكتب إلى غالب يناشده الولاء ، ويخطب ابنته لنفسه ، وعرضه في ذلك أهل القصر ، فنزل غالب على تلك الرغبة ، وعدل إلى مصاهرة ابن أبي عامر ، وتم العقد في أوائل المحرم سنة ٣٦٧ هـ (٩٧٧ م) . ولم يمض قليل على ذلك حتى خرج ابن أبي عامر إلى غزوته الثالثة ، فسار إلى طليطلة في أوائل صفر ، حيث التقى مع صهره غالب . وسار الإثنان في قواتهما شمالاً ، وافتتحا في طريقهما بعض الحصون ، ثم قصدا إلى مدينة شلمنقة الواقعة جنوب غربي مملكة ليون فاقتحماها ، وعاثا في أرباضها ، واستوليا على كثير من الغنائم والسبي ؛ وعاد ابن أبي عامر إلى قرطبة لأربعة وثلاثين يوماً فقط من خروجه ، ومعه عدد عظيم من رؤوس النصارى . فاغتبط الخليفة بصنعه ، ورفع إلى خطة الوزارتين أسوة بصهره غالب ، ورفع راتبه إلى ثمانين ديناراً في الشهر ، وهو راتب الحجابة في ذلك العصر .

وما كاد ابن أبي عامر يستقر في قرطبة ، حتى اتخذت الأبهة لإتمام زفافه . فأحضرت أسماء إلى العاصمة في موكب فخم ، وكانت من أحمل نساء عصرها وأوفرهن ثقافة وسجراً ، وكانت قد تزوجت لأول مرة بالوزير ابن حدير أيام الحكم ، ثم طلقته منه . وزفت أسماء إلى ابن أبي عامر ، في حفلات كانت مضرب الأمثال في البذخ والبهاء ، ونظم الاحتفال في قصر الخليفة ، وبإشراف أمه صبح ، وأغدقت صبح على العروس أروع الهدايا والتحف . وكان زواجاً سعيداً موفقاً لبث مدى الحياة^(١) ، وإن كان غالب قد خرج بعد ذلك بأعوام قلائل على صهره حسبما نفصل بعد .

(١) الأخيرة انقسم الرابع المجلد الأول ص ٤٦ و ٤٧ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٨٤ و ٢٨٥ ، وفتح الطيب ج ١ ص ١٨٧ . وراجع أيضاً Dozy : Hist. Vol. II. p. 214 & 215 .

واستقدم الخليفة غالباً من الثغر ، وقلده خطة الحجابة إلى بجانب جعفر ، فكانت ضربة جديدة للحاجب . ولكن جعفر لم يسعه إلا الإذعان والسكوت ، وقد أضحى يشعر شعوراً قوياً بالخطر المحدق به ، وبأنه لم يبق له من الحجابة سوى الاسم ، ولم ينخدع بما كان يبدية نحوه ابن أبي عامر من التلطف والمصانعة ، وهو يقبض دونه على كل شيء في القصر والدولة .

وأخيراً وقعت النكبة المرتقبة ، ففي الثالث عشر من شعبان سنة ٣٦٧ هـ ، أصدر الخليفة أمره بإقالة الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي ، والقبض عليه وعلى ولده وآله ، والتحفظ على أموالهم . وبادر ابن أبي عامر إلى محاسبتهم واستصفاء أموالهم ، وشدّد في مطاردتهم ، حتى مزقهم كل ممزق ، وعوجل هشام ابن أخي الحاجب فقتل في مطبقة ، وكان من أشد الناس عداوة لابن أبي عامر ، وزج جعفر إلى ظلام السجن ، يعتقل فيه حيناً ، ثم يعتقل حيناً في داره ، واضطر إزاء التشدد في مطالبته أن يبيع داره الفخمة بالرّصافة ، وكانت من أعظم دور قرطبة ، وأمعن ابن أبي عامر في نكايته ، واستجوابه بمحضر من زملائه القدماء ، واستطالت محنة المصحفي أعواماً ، عانى خلالها أروع آلام المهانة والذلة ، وهو يستعطف ابن أبي عامر فلا يرحمه ، واستمر سجيناً في مطبق الزهراء حتى توفي سنة ٣٧٢ هـ (٩٨٢ م) . وقيل إنه قتل خنقاً في مطبقة ، وقيل إنه دست إليه شربة مسمومة كانت سبب وفاته .

وكان المصحفي حسباً تقدم شاعراً جزلاً ، وقد أذكت المحنة شاعريته ، وصدر عنه في مطبقة كثير من القصائد المؤثرة . ومن ذلك قوله :

| | |
|--------------------------------|-----------------------------|
| صبرت على الأيام لما تولت | وألزمت نفسي صبرها فاستمرت |
| فيا عجباً للقلب كيف اضطباره | وللنفس بعد العز كيف استدلّت |
| وما النفس إلا حيث يجعلها الفتى | فإن طمعت تآقت وإلا تسلت |
| وكانت على الأيام نفسي عزيزة | فلما رأّت صبرى على الدل ذلت |
| وقلت لها يانفس موتى كريمة | فقد كانت الدنيا لنا ثم ولت |

ويعلق ابن حيان على محنة المصحفي بقوله : « وكانت لله عند جعفر ، في إثارة هشاماً بخلافته ، واتباع شهوة نفسه وحظ دنياه ، وتسرعه إلى قتل المغيرة لأول وهلة ، دون قباص جريرة استدركته دون إملاء ، فسلط

عليه من كان قدر أن يتسلط على الناس باسمه» (١) .
وهكذا سار ابن أبي عامر إلى غايته بسرعة مذهشة ، ولجأ في تحقيقها إلى
أذكى الوسائل وأشدّها ، واستطاع بعزمه وصرامته وبارع خططه ، أن يسحق
كل عقبة ، وأن يروع كل منافس ومناوئ . وبجمل ابن خلدون معركة ابن
أبي عامر مع خصومه في تلك العبارة القوية : « ثم تجرد لرؤساء الدولة ممن عانده
وزاحمه ، فمال عليهم ، وحطهم عن مراتبهم ، وقتل بعضهم ببعض ، كل ذلك
عن أمر هشام وتوقيعه ، حتى استأصل شأفتهم ، ومزق جموعهم » (٢) . ولم
يكن مهلك المصحف ، بعد سحق الصقالبة ، سوى حلقة جديدة في سلسلة المطاردة
الشاملة التي نظمها ابن أبي عامر لاستئصال شأفة خصومه ومنافسيه . ذلك أنه
جدد في نفس الوقت ، في مطاردة كل من يخشى بأسه من بني أمية أو غيرهم
من زعماء القبائل ، حتى سحق كل من يصلح منهم للولاية والرياسة ، ومزقهم
في البلاد شر ممزق ، كل ذلك تحت شعار حمايته للمؤيد وللعرش ، وفي ذلك
يقول شاعر من شعراء العصر :

أبني أمية أين أقمار الدجى منكم وأين نجومها والكوكب
غابت أسود منكم عن غابها فلذاك حاز الملك هذا الثعلب
ولما خلا الحو لابن أبي عامر من أولياء الخلافة ، والمرشحين للرياسة ، اهتم
بتنظيم الجيش . فأنشأ صفوفاً جديدة من المرتزقة من زنانة وصنهاجه وغيرهما من
قبائل البربر ، ومن الحند النصاري من ليون وقشتالة ونافار ، وبذل لهم الأجور
السخية ، واجتذب قلوبهم بعدنه ورفقه وجوده . وغير أنظمة الجيش القديمة ،
فقدم رجال البربر ، وآخر زعماء العرب ، وأقصاهم عن مناصبهم ، وفرق جند
القبيلة الواحدة في صفوف مختلفة ، وكانوا من قبل ينتظمون في صف واحد .
وكان العرب يتمسكون منذ أيام الفتح بوحدة القبيلة ، لأن العصبية كانت في قبائلهم
حتى أيام الناصر ، ما تزال فتية قوية ، ولكن الناصر عمل على سحق القبائل
العربية ، وإضعاف هيبتها ، وجاء ابن أبي عامر فألقى الميدان ممهداً لخططه ، فلم
تلق سياسته الجديدة كبير معارضة (٣) .

(١) راجع في محنة المصحف ، الأخيرة القسم الرابع المجلد الأول ص ٤٨ و ٤٩ ، والبيان
المغرب ج ٢ ص ٢٨٥ - ٢٨٨ ، والحلة السيرة ص ١٤٢ .

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٧ .

(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ٣١٦ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٤٨ ، ونفع الطيب ج

ص ١٣٧ . وراجع : Dozy : Hist. Vol. II. p. 232 & 233

الكتاب الثالث
الدولة العامرية

٣٦٨ - ٣٩٩ هـ : ٩٧٨ - ١٠٠٩ م

الفصل الأول

الحاجب المنصور

ابن أبي عامر يطمح إلى حلل الملك . لإنشاؤه لمدينة الزاهرة وانتقاله إليها . يؤلف حرسه من الصقالبة والبربر . تشدده في الحجر على هشام . موقف صبيح من ذلك . ذبوع علاقتها مع ابن أبي عامر . تحوّلها إلى خصومته والتشهير به . تفاهمها مع القائد غالب . التفاف المعارضين حوله . جعفر بن حمدون الأندلسي يتولى الوزارة . تقاطر البربر من العدو . الوحشة بين ابن أبي عامر وغالب . نهوض غالب لمحاربته . استعانت به بملك ليون . القتال بين غالب وابن أبي عامر . مصرع غالب وهزيمة قواته . الموقعة حسبما يصفها ابن حزم . غزوات ابن أبي عامر . غايته من القيام بها . مسيره إلى ليون ومحاصرته لسمورة . هزيمته للنصارى في شنت مكش . توغله في ليون ثم عوده إلى قرطبة . إتحاذه لسمة الملك وتسحيه بالحاجب المنصور . غدره بجعفر الأندلسي . الحرب الأهلية في ليون . اعتراف برمودو بطاعة المنصور . سير المنصور إلى الغزو . يفتقر شرق الأندلس ويغزو قتلونية . اقتحامه لبرشلونة وتدميرها . حداث المغرب . سير الحسن بن كنون إلى غزو المغرب . المنصور يرسل جيشاً لقتاله . مطاردة الحسن وإرغامه على طلب الأمان . مسيره إلى قرطبة واغتياله . نذب الوزير السلمي لحكم المغرب . إجماع قبائل البربر حوله . سير زيري زعيم مغراوة إلى قرطبة . القتال بين السلمي وبني يفرن . مقتله وولاية زيري حكم المغرب . سير زيري ثانية إلى قرطبة . حوده وخيبة أمله . غز بني يفرن لفاس واحتلالها . القتال بين مغراوة وبني يفرن . اشتداد ساعد زيري . لإنشاؤه لمدينة وجدة . غزو المنصور لليون واستيلائه على قلمرية . غزوه لنافار . ما تزعمه الرواية النصرانية . حود المنصور إلى غزو ليون . اقتحامه لمدينة ليون وتدميرها . استيلائه على سمورة . حوادث الثغر الأمل . عبد الله ولد المنصور . تأمره مع عبد الرحمن التجيبى والى صرقسطة وآخرين . وقوف المنصور على المقاومة في خروجه إلى الغزو . اعتقاله لعبد الرحمن التجيبى . فرار هبة الله والتجاءه إلى غرسية أمير قشتالة . هزو المنصور لقشتالة وهزيمة أميرها . غرسية يرسل هبة الله استجابة لطلب المنصور . إعدامه . تأملات عن هذا الحادث . سانشو ابن غرسية يخرج عليه بتحريض المنصور . المنصور يغزو قشتالة ويستولى على شنت إشتين وكلونية . قصة الأيل الذى أهده صاعد إلى المنصور . سير المنصور إلى غزو ليون . إذعان برمودو وتمهده بأداء الجزية . المنصور يرشح ولده عبد الملك للولاية من بعده ويوليه الحجابة . اقتصاره على التسمى « بالمنصور » . اختصاصه باللقاب السيادة . إحجامه عن المساس بالخلافة . عوامل هذا الإحجام . موقف صبيح أم الموقيد . اتصالها بزيري حاكم المغرب . تحوّلات المنصور . تفاهمه مع هشام وموكبهما المشترك . يأس صبيح ووفاتها . الوحشة بين المنصور وزيري . سير عبد الملك إلى العدو لمحاربة زيري . هزيمة البربر وسقوط فاس . عبد الملك يولى حكم المغرب . الصلح بين زيري والمنصور . المنصور يغزو جليقية . اختراقه لأراضى البرتغال . استيلائه على بازو وقلمرية . توغله في جليقية ومسيره إلى شنت ياقب . يهدم أسوارها وكنيستها العظمى . مسيره شمالاً حتى ثغر لأكروفيه . عوده من طريق لاميجو إلى قرطبة . ملك ليون يطلب

الصلح . غزوة أخرى لقشتالة . موقعة صحرة جربيرة . اقتحام المنصور لمدينة برغش . غزوه لناقار .
آخر غزوات المنصور . ما تقوله الرواية الإسلامية . موقعة قلعة النصور . ما تقوله عنها الرواية
النصرانية . آراء البحث الحديث في شأنها . مرض المنصور ووفاته . قبره بمدينة سالم .

أضحى ابن أبي عامر ، بعد أن قضى على كل خصومه ومنافسيه ، وحده ،
سيد الميدان ، وأضحى بعد أن وضع يده على الجيش ، صاحب السلطة العليا
دون منازع ولا مدافع . ولم يكن الخليفة هشام المؤيد ، بعد ذلك ، سوى أداة
لينة في يد المتغاب القوى ، يوجهها كيف يشاء .

على أن ابن أبي عامر لم يقنع بما حققه لنفسه من الاستئثار بالسلطة الفعلية .
وعلى الرغم من أنه لم يفكر يومئذ في الافتئات على شيء من رسوم الخلافة الشرعية ،
فإنه اتجه إلى أن يتشج بحل الملك في صورة من صوره ، فتكون له ثوباً خلافاً ،
يتوج سلطانه الفعلي ، بمظاهر العظمة والأبهة الملوكية .

ولم يكن اتجاه ابن أبي عامر يقف عند تحقيق المظهر دون غيره ، ولكن
كانت لديه أسباب عملية قوية ، تدعو إلى التحوط من أخطار التآمر والغيلة ،
وقد أصبح يخشى على نفسه من الوجود في قصر الزهراء ، ومما قد يضمهر بعض
الحاقدین المتربصين^(١) ، ورأى أن يتخذ له مركزاً مستقلاً للإدارة والحكم ، يجمع
بين السلامة ومظاهر السلطان والعظمة . فوضع أسس مدينة ملوكية جديدة أسماها
الزاهرة (٣٦٨ هـ — ٩٧٨ م) . وقد اختلف في الموقع الذي كانت تحتله الزاهرة
لأن البحوث الأثرية الحديثة لم تكشف شيئاً من معالمها ، مثلاً فعلت بالنسبة لمدينة
الزهراء . ويقول البعض إنها كانت تحتل بسيطاً يقع جنوب شرق قرطبة في منحني
نهر الوادي الكبير ، وعلى قيد أميال قليلة منها . ويقول البعض الآخر إنها كانت
تحتل بقعة على مقربة من شرق قرطبة على الضفة الجنوبية لنهر الوادي الكبير^(٢) .
وأنشأ المنصور بالزاهرة قصراً ملوكياً فخماً ، ومسجداً ، ودواوين للإدارة
والحكم ، ومساكن للبطانة والحرس ، وأقام حولها سوراً ضخماً ، ونقل إليها
خزائن المال والسلاح ، وإدارات الحكم ؛ وتم بناء المدينة الجديدة في نحو عامين ،
وأقطع ما حولها للوزراء والقادة ، وأكابر رجال الدولة ، فابتنوا الدور العظيمة ،
وأنشئت الشوارع والأسواق الفسيحة ، واتصلت أرباضها بأرباض قرطبة ،

(١) البيان المنرب ج ٢ ص ٢٩٤ ، وأعمال الأعلام ٦٢ .

(٢) وهذا يستفاد من أقوال ابن حزم في « طرق الحماة » ص ١١٠ .

وأضحت تنافس المدينة الخليفة في الضخامة والرونق .

وفي أوائل سنة ٣٧٠ هـ (٩٨٠ م) ، انتقل محمد بن أبي عامر إلى مدينة الزاهرة ، واتخذ له حرساً خاصاً من الصقالبة والبربر ، وأحاط قصره بالحديد بالحراس والحاشية ، يرقبون كل حركة وسكنة في الداخل والخارج ، وأقفرت بذلك مدينة الزهراء الخليفة ، وهجر الوزراء والكبراء قصر الخليفة ، وساد الصمت حول مركز الخلافة الشرعي ، وأنشأ ابن أبي عامر في نفس الوقت حول القصر الخلفي سوراً وخندقاً ، وأحكم غلق أبوابه ، ووكل بها من يمنع دخول أى شخص أو نبأ إلى الخليفة دون علمه وإذنه . وبث عيوناً على هشام وحاشيته ، وأشاع أنه قد فوض إليه النظر في سائر شئون المملكة ، لكي يتفرغ لشئون العبادة . وهكذا أهمل شأن الخليفة الفتي ، وقطعت سائر علاقته مع الخارج ، ولبت محجوباً في أعماق قصره ، يغمره الحمول والنسيان (١) .

ماذا كان موقف صبح إزاء هذا الانقلاب الحاسم في مركز ولدها ومركز الخلافة ؟ لا ريب أنها كانت بموقفها وتصرفها ، أكبر معين لابن أبي عامر على إحداثه ، وكان حبها المضطرم لذلك الرجل الذي ملك عليها كل مشاعرها وعقلها ، يدفعها دائماً إلى مؤازرته والإذعان لرأيه ، وكان إعجابها الشديد بمقدرته وتوفيقه يضاعف ثقها به ، ويعمها دائماً عن إدراك الغاية الخطيرة التي يسعى إلى تحقيقها ، هذا إذا لم نفترض أن تلك البشكنسية المضطربة الجوانح ، كانت تذهب في حبها إلى حد الائتمار بولدها وتضحية حقوقه ومصالحه . والظاهر أن علاقتها بابن أبي عامر قد انتهت بالخروج عن كل تحفظ ، وغدت فضيحة قصر ذائعة ، شهر بها مجتمع قرطبة ، وتناولها بلاذع التعليق والهجو ، وظهرت بهذه المناسبة قصائد وأناشيد شعبية كثيرة ، في التشهير بحجر ابن أبي عامر على هشام وعلاقته بصبح ، فن ذلك ما قيل على لسان هشام في الشكوى من الحجر عليه :

أليس من العجائب أن مثلي يرى ما قل ممتنعاً عليه
وتملك باسمه الدنيا جميعاً وما من ذاك شيء في يديه (٢)
ومن ذلك ما قيل في هشام وأمه صبح ، وقاضيه ابن السليم :

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٩٥ و ٢٩٦ و ٢٩٧ و ٢٩٨ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٤٨ والحلة السيرة ص ١٤٩ ، ونفح الطيب ج ١ ص ٢٧٢ .
(٢) هذان البيتان ينسبان أيضاً إلى المقتدر العباسي .

اقرب الوعد وحان الهلاك وكل ما تحذره قد أتاك
خليفة يلعب في مكتب أمه حبلى وقاض . . . (١)
وهذه الأناشيد اللاذعة وأمثالها تعبر عن روح العصر ، وتدل على ما كان
يشعره موقف صبح وسمعتها ، من الحملات المرة . وتتفق الرواية الإسلامية في
الإشارة إلى هذه العلاقة الغرامية التي استطال أمدها ، بين صبح وابن أبي عامر ،
وإن كانت تؤثر التحفظ والاحتشام ، ولم نجد ما يعارضها سوى كلمة أوردها
المقرئ لكاتب مغربي يدافع فيها عن ابن أبي عامر ، ويدفع عن صبح تهمة
شغفها به ، ويرمى أولئك الشعراء بالتحامل والكذب (٢).

على أنه يبدو أن الحوادث قد بدأت تتطور من ذلك الحين ، وأن موقف
صبح قد بدأ يتخذ وجهة أخرى. فقد أدركت صبح أخيراً ما يرمى إليه ابن أبي عامر ،
وأدركت خطورته على مستقبل ولدها ، ومستقبل الأسرة والخلافة ، فثارت
نفسها سخطاً . وكانت صبح قد تجاوزت الأربعين يومئذ ، وقد تصرم ذلك الحب
القديم ، الذي شغفها بابن أبي عامر دهرآ ، وأضحى تبغض ذلك الرجل الذي
سلب ولدها ، وسلبها كل نفوذ وسلطة ، ومن ذلك الحين تنقلب صبح إلى خصومة
ابن أبي عامر ومقاومته . وقد كان من الصعب ، إزاء عزم ابن أبي عامر ويقظته ،
وسلطانه الشامل ، ان تستطيع صبح القيام بأية عمل مباشر ، فلجأت عندئذ إلى
العمل المستتر ، وأخذت تبت في نفس ولدها هشام ، بغض ابن أبي عامر والسعي
إلى مناوئته واسترداد سلطانه منه ، وتولى مقاليد الحكم بنفسه ، وشهرت بواسطة
أعوانها من الناقمين ، على ابن أبي عامر ، دعاية شديدة ، واتهمته بأنه يسجن
الخليفة الشرعي ويحكم رغم إرادته ويغتصب سلطته . والظاهر أن صبحاً لم تقف
عند هذا الحد من المقاومة الأدبية ، وأنها حاولت في نفس الوقت ، أن تقوم
بمحاولة عملية لمقاومة ابن أبي عامر وإسقاطه .

وربما كان لتدبير صبح وتحريضها ، أثر فيما وقع يومئذ بين ابن أبي عامر
وصهره القائد غالب ، صاحب مدينة سالم . وكان غالب بالرغم من تقلده خطة
الوزارة ، يقيم بالشعر بعيداً عن قرطبة . وكان يتمتع في قرطبة وسائر مدن الأندلس

(١) البيان المغرب عن ابن حبان ج ٢ ص ٣٠٠ ، ونفع الطيب ج ١ ص ٢٨١ .

(٢) راجع نفع الطيب ج ١ ص ٢٨٢ .

بسمعة عالية في ميدان الفروسية والقيادة ، وهو ما كان ينقمه ابن أبي عامر على صهره . وكان المعارضون يرون فيه الرجل الوحيد ، الذي يستطيع أن يقارع ابن أبي عامر ويقاومه . فرأى ابن أبي عامر أن يرفع إلى مرتبة الوزارة جعفر بن علي ابن حمدون المعروف بالأندلسي ، وكان من مشاهير الفرسان والقادة البربر من زناته ، وكان مقيماً بالعدوة ، فعبّر البحر إلى الأندلس ، واستقر في الوزارة ، يكتفه ابن أبي عامر بحبه وثقته ، ويستعين به على تأليف البربر وكسب محبتهم ، ولا سيما بعد أن غدوا يؤلفون معظم حرسه وحاشيته . وتقاطر البربر من العدوة ، وابن أبي عامر يستقبلهم بأوفر ضروب البذل والإحسان ، ويقوى بهم صفوفه وبطانته . وكان غالب يستشعر الوحشة والريبة من تصرفات صهره ، ويتوقع منها سوء العاقبة . ولم يمض قليل حتى ساء التفاهم بين غالب وصهره ، فعمد غالب إلى مصانعة ابن أبي عامر ، ودعاه أثناء غزوه بالصائفة في أراضي قشتالة ، إلى ولية أقامها بمدينة أنتيسة^(١) ، إحدى مدن الثغر التي تحت ولايته ، وجاء ابن أبي عامر إلى القلعة حيث أقيمت الوليمة ، في بعض أصحابه ، فانفرد به غالب وشرع في عتابه . ثم اشتد بينهما النقاش ، فشهّر غالب سيفه على صهره فجأة ، فأصابه في بعض أنامله وصدغه ، واستطاع ابن أبي عامر أن يفر ناجياً بنفسه ، من مأزق بالغ الخطورة . وامتنع غالب بالقلعة ، بينما سار ابن أبي عامر لفروره إلى مدينة سالم ، حيث دار غالب وأهله ، فاستولى عليها وعلى سائر أمواله ومتاعه ، وفرقها في الجيش ، وعاد إلى الحضرة ، وهو يضمّر لغالب أسوأ النيات .

وكان غالب أعظم قادة الأندلس وأبرعهم في ذلك العصر ، وكانت لديه في الثغر قوات يعتد بها ، فهض لقتال قوات ابن أبي عامر ، وغلب عليها ، في البداية غير مرة . ثم رأى أن يستعين براميرو الثالث ملك ليون ، فأمدّه ببعض قواته . وسار ابن أبي عامر لمقارعة خصمه في معركة حاسمة . ووقع اللقاء بين الفريقين أمام حصن شنت بجنت San Vicente على مقربة من أنتيسة ، ونشبت بينهما معركة شديدة ، أبلى فيها غالب وقواته بلاء حسناً وكاد يحرز النصر في البداية ، ولكنه ما لبث أن سقط ميتاً عن جواده خلال المعركة ، ولم يعرف سبب مصرعه لأنه لم يقتل بيد أحد ، وحملت رأسه في الحال إلى ابن أبي عامر ، فدب الوهن

(١) وهي بالإسبانية Atienza . وهي تقع شمال وادي الحجارة ، على مقربة من غربي مدينة سالم .

والدعر إلى قوائمه ، وطاردتها قوات الأندلس ، وأمعنت فيها قتلا وأسرا ، وهلك من الحند النصارى الذين كانوا يقاتلون إلى جانب غالب عدد جم . وكان بين القتلى أمير نصراني هو راميرو ابن سانشو أباركا من أمراء البشكنس (١) . وقتل كذلك في المعركة عدة من الكبراء والقادة المسلمين ، الذين كانوا مثل غالب يعارضون سياسة ابن أبي عامر . وكان ذلك في الرابع من محرم سنة ٣٧١ هـ (أغسطس سنة ٩٨١ م) (٢) .

وقد روى الفيلسوف ابن حزم عن أبيه الوزير ابن حزم ، وزير ابن أبي عامر ، وكان ممن صحبه في تلك الموقعة ، تفاصيل الموقعة حسبما شهدها . وهو يصف لنا هيئة القائد غالب خلال الموقعة في قوله : « وهو شيخ كبير قد قارب الثمانين عاماً وهو على فرسه ، وفي رأسه طرطور عال ، وقد عصب حاجبيه بعصابة » قال : وكان قد جمع جموعاً عظيمة من المسلمين والنصارى ، فبدأ بالهجوم على الميمنة ، وفيها جعفر بن علي وأخوه يحيى والبربر ، وحمل عليهم حملة ، أزاحتهم عن مواقعهم ، ومزقت صفوفهم ؛ ثم حمل على الميسرة ، وكان فيها الوزير ابن حزم مع غيره من الرؤساء ، ففعل بها كما فعل بالأولى . ثم أخذ يتأهب لمهاجمة القلب ، وهو تحت قيادة ابن أبي عامر نفسه ، وهو يقول : « اللهم إن كنت أصلح للمسلمين من ابن أبي عامر فانصرني ، وإن كان هو الأصلح لهم فانصره » . ثم يصف لنا ابن حزم مصرع غالب على النحو الآتي ، قال : « ثم هز فرسه ، وترك جهة القتال وأخذ ناحية إلى خندق كان في جانب عسكره ، فظن أصحابه أنه يريد الخلاء ، فلما أبطأ عليهم ركبت طائفة منهم نحوه ، فوجدوه قد سقط إلى الأرض ميتاً ، وقد فارق الدنيا بلا ضربة ولا رمية ولا أثر ، وفرسه واقف بجانبه يعلك لحامه ، ولا يعلم أحد سبب موته . فلما أدرك أصحابه سقط في أيديهم ، وطلبوا حظ أنفسهم ، فبادر مبادر منهم بالبشرى إلى ابن أبي عامر ، فلم يصدق حتى وافى مواف بخاتمه ، ووافاه آخر بيده ، ووافاه آخر برأسه » .

هذا وقد بلغت القسوة بابن أبي عامر ، أن أمر بالتمثيل بجثمان خصمه الصريح

(١) وهو الذي تسميه الرواية العربية برذمير بن شانجه ويعرف « برأي قرجة » .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٩٨ و ٢٩٩ ، وأعمال الأعلام ص ٦٢ و ٦٣ . وكذلك

الباسل ، فحشى جلده بالقطن ، و صلب على باب القصر بقرطبة ، و صلب رأسه على باب الزاهرة ، و لبث كذلك دهرآ ، حتى أدركه الفيلسوف ابن حزم نفسه ، وهو فتي ، وذلك عند إنزاله يوم هدم الزاهرة في سنة ٣٩٩ هـ (١٠٠٨ م) (١).

* * *

وهنا تبدأ سلسلة هذه الغزوات الشهيرة العديدة ، التي شهرها ابن أبي عامر على الممالك الإسبانية النصرانية ، واستمر يضطلع بها باستمرار ودون هوادة ، والتي خرج منها جميعاً متوجاً بغار الظفر ، ولم يهزم في أية واحدة منها .
وتتحدث معظم الروايات الإسلامية عن حروب ابن أبي عامر وغزواته بإفاضة ، وتعددها بأكثر من خمسين غزوة . ولكنها لا تقدم إلينا عنها تفاصيل واضحة ، ولا سيما عن الزمان والمكان (٢) ، ويحمل ابن خلدون ذكرها في قوله : « وردد الغزو بنفسه إلى دار الحرب ، فغرا اثنين وخمسين غزوة في سائر أيام ملكه ، لم ينكسر له فيها راية ولا فل له جيش ، ولا أصيب له بعث ولا هلكت سرية » (٣) .

وتجمل الرواية الإسلامية بواعث هذه الغزوات المستمرة في نزعة الجهاد . ولكن الحقيقة هي أن ابن أبي عامر ، كان باضطلاعاً بتلك الغزوات المتعاقبة يرمى إلى غاية سياسية بعيدة المدى ، لم يفكر فيها أحد قبله من أمراء الأندلس ، أو لم يجد لديه وسيلة أو مقدرة لتنفيذها . ذلك أنه فكر في أن يسحق الممالك الإسبانية النصرانية سحقاً تاماً ، وأن يقضى على استقلالها القومي ، وأن يخضعها جميعاً إلى سلطة الخلافة . وقد خالف ابن أبي عامر في غزواته ، سنن أسلافه من الأمراء والقادة ، فقد كان هؤلاء يحاربون في معظم الأحيان للدفاع ورد غارات النصارى ، ولكن ابن أبي عامر كان هو البادئ بالحرب دائماً ، ولم يقبل من أعدائه قط صلحاً أو مهادنة ، ولم يقنع إلا بالنصر الكامل .

(١) راجع رواية ابن حزم في رسالة « نقط العروس » (المنشورة في مجلة كلية الآداب بالقاهرة في عدد ديسمبر سنة ١٩٥١) ص ٨١ و ٨٢ .

(٢) ذكر ابن الأبار في الحلة السيرة أن المؤرخ الكبير أبو مروان ابن حيان قد استوعب هذه الغزوات وفصلها في كتابه الكبير الذي ألفه في أخبار الدولة العامية . ولكن هذا المؤلف لم يصل بعد إلينا (ص ١٤٩) .

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٨ . وكذلك ابن الأثير ج ٨ ص ٢٢٤ و ج ٩ ص ١٢ .

ولكن سوف نرى أن غزوات المنصور ، بالرغم من تحرى هذه الغاية البعيدة المدى ، وبالرغم مما كان يحالفها من الظفر المستمر ، لم تخرج في مجموعها عن أساليب الصوائف والغزوات الإسلامية المأثورة ، ولم تتجه بالفعل إلى تحرى هذه الغاية الكبرى .

سار ابن أبي عامر عقب الفراغ من أمر صهره غالب ، إلى مملكة ليون ، ليعاقب ملكها راميرو الثالث على معاونته لحصمه غالب ، وتدخله على هذا النحو في شئون الأندلس ، وقصد إلى مدينة سمورة الحصينة الواقعة شمالى شلمنقة ، وضرب حولها الحصار (أوائل سنة ٣٧١ هـ الموافقة ٩٨١ م) ولكنه لم يستطع الاستيلاء على قلعتها المنيعة بسرعة ، فتركها وعاث فيها حولها من السهول ، وأمعت قواته في التخريب والقتل ، وأحرقت مئاث القرى والضياع ، وهام النصارى على وجوههم في الجبال والوديان ألوفاً مؤلفة . وهرع راميرو الثالث إلى غرسية فرنانديز كونت قشتالة ، وسانشو ملك نافار ، وعقد الثلاثة تحالفاً لمحاربة ابن أبي عامر ، وسارت قواتهم المشتركة للقائه . ونشب القتال بين الفريقين في ظاهر بلدة « روضة » في جنوب غربى « شنت منكش »^(١) ، فهزم النصارى وقتل منهم عدد كبير ، واستولى المسلمون على قلعة شنت منكش الشهيرة ، ثم زحف ابن أبي عامر بعد ذلك شمالاً إلى مدينة ليون عاصمة المملكة ، وهناك وقف راميرو في قواته محاولاً اعتراضه ، وحاول المسلمون اقتحام المدينة ، ووصلوا في هجومهم بالفعل إلى أبوابها ، ولكن الشتاء كان قد دخل ، ونمرهم البرد والثاوج ، فاضطروا إلى وقف القتال ، وعاد ابن أبي عامر إلى قرطبة بعد غزوات دامت بضعة أشهر^(٢) .

وعلى أثر هذا النصر ، وفي أواسط سنة ٣٧١ هـ (أواخر ٩٨١ م) اتخذ ابن أبي عامر سمة الملك ، فتسمى بالحاجب المنصور ، وأمر بالدعاء له على المنابر ، ونفذت الكتب والأوامر باسمه عن « الحاجب المنصور أبي عامر محمد بن أبي عامر » ونقش اسمه في السكة ، وجرى الوزراء ورجال الدولة على تقبيل يده ، عند المثل لديه ، واجتمعت حول شخصه ، وحول داره ، مظاهر الجلالة الملكية ، وتم بذلك استئثاره بجميع السلطات والرسوم ، ولم يبق من الخلافة الأموية سوى

(١) روضة هي بالإسبانية Rueda ، وشنت منكش هي Simancas .

(٢) Dozy : Hist. Vol. II. p. 234—235 ; Recherches (3ème ed.) Vol. I. p. (٢)

الاسم (١). هذا وسوف نجرى منذ الآن فصاعداً على تسمية ابن أبي عامر باسمه الملكي : المنصور .

وكان المنصور حين استقدم جعفرأ بن علي الأندلسي ، ورفعته إلى خطة الوزارة ليعارض به نفوذ القائد غالب ، وليوثق بوجوده مودة البربر وتأييدهم ، يتوجس مع ذلك من وجوده وسلطانه ، ويخشى أطباعه ومشاريعه ، في الناحية الأخرى من البحر ، فهاكاد ينتهي من أمر غالب ، ومن ترتيب رسومه الملكية ، حتى قرر أمره ، فدعاه ذات مساء إلى مأدبة حافلة ، وأغرى به السقاة حتى فقد وعيه ، ثم دس عليه في طريقه إلى منزله من قتله ، وحمل إليه رأسه سرأ (٣٧٢ هـ) . فتظاهر المنصور بالحزن على ضحيته ، وكانت هذه الجريمة المثيرة ، عنواناً لبعض النواحي القائمة ، في خلاله وفي وسائله السياسية (٢) .

وفي ذلك الحين كانت الأحوال قد اضطربت في ليون ، وفقد راميرو الثالث من جراء هزائمه المتوالية كل عطف وتأييد ، وزاد الشعب نقمة عليه ، ومحاولاته في توسيع سلطانه ، وتمكين حكمه المطلق . وما لبثت جليقية أهم ولاياته ، أن اضطربت بالثورة ، وقرر أشرافها خلع راميرو ، وتولية ابن عمه برمودو (أو برمند) ماكاً مكانه . وفي أكتوبر سنة ٩٨٢ م ، توج هذا الأمير ملكاً على ليون في مدينة شنت ياقب . فسار راميرو إلى محاربته ونشبت بينهما موقعة شديدة غير حاسمة ، في بلدة بورتليا دي أريناس ، على حدود ليون وجليقية ، ثم عاد برمودو إلى جمع قواته ، وسار لمحاربة خبصمه مرة أخرى ، فهزمه واستولى على مدينة ليون في مارس سنة ٩٨٤ . فالتجأ راميرو إلى مدينة أسترقة ، والتمس مساعدة المنصور ، على أن يعترف بطاعته ؛ ولكنه توفي بعد ذلك بأشهر قلائل ، وحاولت أمه أن تحكم مكانه بمعاونة المنصور ، فأبى المنصور أن يستمع إليها وأدرك يرمودو من جهة أخرى أنه لن يستطيع مقاومة الأشراف المعارضين لحكمه إلا بمعاونة المسلمين ، فتقدم إلى المنصور ، وعرض أن يعترف بطاعته ، فقبل المنصور وأمدّه بجيش ، استطاع أن يخضع به سائر المملكة ، وأن يوطد حكمه . وبقيت بعد ذلك في مدينة ليون حامية كبيرة من المسلمين :

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ١٤٨ ، والبيان المغرب ج ٢ ص ٢٩٩ ، و ٣٠٠ .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠١ ، وأعمال الأعلام ص ٦٥ .

وهكذا غدت مملكة ليون الإسبانية النصرانية لأول مرة ، ولاية تابعة لحكومة قرطبة ، تؤدي لها الجزية ، وتأتمر بأوامرها ، وكانت هذه أول ثمرة لسياسة الغزو المنظم ، التي سار عليها المنصور .

وتحول اهتمام المنصور بعد ذلك إلى شمال شرق الأندلس ، فحشد جيشاً ضخماً استعداداً لغزوة هامة ، لم تخطر من قبل لأحد من أمراء الأندلس . وخرج في قواته من قرطبة في ذي الحجة سنة ٣٧٤ هـ (مايو ٩٨٥ م) ، ومعه عدة من الكتاب والشعراء ، يجتمعون في مجلسه خلال السير . وتوصف غزوة المنصور هذه بأنها الثالثة والعشرون . وسار المنصور جنوباً صوب البيرة (غرناطة) ، ثم اتجه شرقاً إلى بسطة ، فلورقة ، فتدمير ، فرسية ، وأقام في مرسية ثلاثة وعشرين يوماً في ضيافة أحمد بن عبد الرحمن المعروف بدجيم بن مروان بن خطاب وولده أبي الأصبح موسى . وكان ابن خطاب من أعظم رجالات الأندلس وجاهة وثراء وجوداً ، ومن المدهش حقاً ، ما تنقله إلينا الرواية ، من أنه استضاف المنصور وسائر حاشيته وجيشه خلال هذه المدة ، وتكفل بسائر النفقات ، وأبدى من ضروب الجود والبذخ ما يفوق قصص ألف ليلة وليلة ، وغدا بذلك من أعظم أصدقاء المنصور وأكثرهم حظوة لديه (١) .

وسار المنصور في جيشه بعد ذلك شمالاً . وكان يقصد ثغر برشلونة العظيم . وقد لبثت برشلونة منذ الفتح في أيدي المسلمين نحو قرن من الزمان ، وكانت أعظم ثغور الأندلس الشمالية الشرقية ، ثم افتتحها عاهل الفرنج شارلمان أو كارل الأكبر في سنة ٨٠١ م (١٨٥ هـ) أيام الحكم بن هشام ، بعد حصار طويل ، وبعد أن دافع المسلمون عنها أروع دفاع . واتخذ الفرنج من برشلونة قاعدة لولاية « الثغر القوطي » ، الذي نما فيما بعد ، واستطاع حكامه الكونتات القوط مع الزمن ، أن ينتزعوه من يد الفرنج ، وأن يجعلوا منه إمارة مستقلة ، هي إمارة قطلونية ، التي

(١) الحملة السيرة عن ابن حيان وابن الفياض ص ٢٥١ و ٢٥٢ و ٢٥٣ . هذا ويقدم إلينا العذري نسبة ابن خطاب كاملة ، فهو أحمد بن عبد الرحمن المعروف بدجيم بن مروان بن خطاب بن محمد بن مروان بن خطاب بن عبد الجبار الداخل . ويقول لنا إنه استضاف المنصور وجميع عسكره أياماً ، وصنع له فيما صنع نجماً كان ماء الحمام من ماء الورد الطيب الغاية وأهدى له قناطر من الفضة الخالصة . (العذري في كتاب ترصيع الأخبار السابق ذكره ص ١٥) .

حافظت عصراً على استقلالها ، ثم اندمجت بعد ذلك في مملكة أراجون القوية^(١). واخترق المنصور بجيشه قطلونية ، وهزم قوات أميرها الكونت بوريل ، في أواخر شهر يونيه ، وأشرف على ظاهر برشلونة في اليوم الأول من يولييه ، ولم تمض أيام قلائل حتى اقتحم المسلمون المدينة ، ودخلوها في يوم الاثنين منتصف صفر ، سنة ٣٧٥ هـ ، الموافق سادس يولييه سنة ٩٨٥ م^(٢) . ودمر المسلمون المدينة وأحرقوها ، وقتلوا معظم أهلها ، وتركوها قاعاً صفصفاً ، وكان بن الأسرى أودلرادو نائب كونت برشلونة ، فاقطع إلى قرطبة ، حيث قضى في الأسر أعواماً طويلة . والظاهر أن المنصور لم يحاول الاحتفاظ ببرشلونة ، ولم تكن لديه نية افتتاحها بصورة دائمة ، ولكنه قصد أن يدمر قوى النصارى في هذا الطرف النائي من شبه الجزيرة الإسبانية .

* * *

وما كاد المنصور يرتد بجيشه إلى قرطبة ، حتى استغرقت حوادث المغرب جل اهتمامه . وقد فصلنا فيما تقدم عند الكلام على عهد عبد الرحمن الناصر ، ثم عهد ولده الحكم المستنصر ، أدوار الصراع الذي نشب في المغرب الأقصى ، بين الفاطميين مذ قامت دولتهم في إفريقية ، وبين بني أمية ، ورأينا كيف استطاع الحكم المستنصر ، بعد سلسلة من الأحداث المثيرة ، والمعارك الطاحنة ، بينه وبين الفاطميين وحلفائهم الأدارسة بالمغرب ، أن يقضي على قوى الشيعة والأدارسة ، وكيف استسلم إليه الأدارسة وكبير زعمائهم الحسن بن كنون في سنة ٣٦٣ هـ ، واستقروا حيناً في كنفه في قرطبة ، ثم خرجوا منها بعد ذلك بعامين ، وساروا إلى مصر حيث استقروا بها في كنف خليفته الفاطمي العزيز بالله .

وكان العزيز قد شغل في أوائل ولايته ، برد خطر القرامطة عن مصر والشام ؛ فلما تمت هزيمة القرامطة ، وزال خطرهم (٣٦٨ هـ) ، عاد إلى الاهتمام بشئون المغرب ، وثاب له رأى في العمل على استعادة سلطان الدعوة الفاطمية ، وسحق

(١) راجع تفاصيل ذلك في القسم الأول من العصر الأول من « دولة الإسلام في الأندلس » ص ٢٣٤ - ٢٣٦ .

(٢) تتفق الروايات النصرانية مع الرواية الإسلامية في تحديد تاريخ دخول المسلمين لبرشلونة على هذا النحو . راجع الإحاطة لابن الخطيب (القاهرة) ج ٢ ص ٧١ . وكذلك Dozy : Hist. Vol. II. p. 239 والمراجع .

الدعوة المروانية في المغرب الأقصى ، فأوعز إلى نائبه على إفريقية (تونس) بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي ، أن يسير في قواته إلى المغرب ، فبدأ بلكين زحفه على المغرب سنة ٣٦٩ هـ ، فاستولى على مدينة فاس ، وهزم سائر الأمراء الذين تصدوا لمقاومته من زناتة وغيرهم ، وفر أولئك الأمراء المعارضون جميعاً إلى الشمال ، واعتصموا بسبته ، وبعثوا إلى المنصور يستغيثون به . فعهد المنصور يومئذ ، إلى جعفر بن علي بن حمدون المعروف بالأندلسي ، وهو من زعماء زناتة بمحاربة بلكين ، وأمدّه بالجنود والمال ، والتف حوله باقي الزعماء . ولكن بلكين استمر في تقدمه ، رغم كل معارضة ، حتى استولى على المغرب كله ، ولم يبق منه بيد خصوم الشيعة سوى القطا الشمالي .

وفي سنة ٣٧٣ هـ (٩٨٣ م) بعث العزيز بالله ، الحسن بن كنون زعيم الأدارسة ، من مصر إلى المغرب تحقيقاً لملتسمه ، ليسعى إلى استرجاع ملكه ، وقلده عهده ، وأمر نائبه على المغرب بلكين أن يمدّه بالقوات اللازمة ، وكان العزيز ، ووزيره ابن كلثوم تخالجهما أيضاً رغبة في التخلص من الحسن وصحبه ، والتخفف من مؤنتهم^(١) . فسار الحسن إلى المغرب ، في جيش صغير أمدّه به بلكين ، ودعا لنفسه ، فالتف حوله كثير من البربر ، ولاسيما بني يفرن ، وجاهروا بطاعته ، وعلم المنصور بخبره ، فبعث ابن عمه الوزير أبا الحكم عمرو بن عبد الله بن عامر المعروف بعسكلاجة ، في جيش كثيف ، إلى المغرب ، لقتاله والقضاء على دعوته ، فعبّر البحر إلى سبته لقتال الحسن ، وانضم إليه زعماء مغراوة في قواتهم ، وفي مقدمتهم كبيرهم زيري بن عطية بن خزر . ثم بعث المنصور لإمداده جيشاً آخر إلى المغرب بقيادة ولده عبد الملك . وطارد عسكلاجة الحسن ، ثم أحاطه بقواته ، وحاصره حتى أرهقه الحصار ، ولم يربداً من طلب الأمان والتسليم ، على أن يسير إلى الأندلس كسابق عهده ، فأجيب إلى طلبه ، وأرسل على عجل إلى قرطبة تحقيقاً لرغبة المنصور . ولما علم المنصور بمقدم الحسن ، أثر أن ينقض الأمان الذي منحه ابن عمه ، وأن يقضي على حياة ذلك الخصم العنيد ، الذي تكرر خروجه على حكومة قرطبة ، فأنفذ إليه من قتله في الطريق وأتاه برأسه ، وذلك في جمادى الأولى سنة ٣٧٥ هـ (أواخر سنة ٩٨٥ م) وانهارت بذلك دعوة الأدارسة .

(١) « نبد تاريخية في أخبار البربر » ص ١٩ .

بالمغرب الأقصى ، وتفرق أنصارهم ، وركدت ریحهم .

وعلى أثر ذلك ندب المنصور لحكم المغرب الوزير الحسن بن أحمد بن عبد الودود السلمى ، ومنحه السلطان المطلق ، وأمره أن يعمل على استمالة البربر فى تلك الأقطار ، إذ يجب أن لا ننسى أن البربر كانوا للمنصور ظهيراً ، وعوناً على إخضاع القبائل العربية بالأندلس ، ومنهم اتخذ المنصور حاشيته وجنده ، وكثيراً من رجالات حكومته وجيشه . فسار الوزير إلى المغرب (٣٧٦ هـ) ونزل بفاس ، وضبط شئون البلاد ، واجتمعت إليه أمراء زناته ومغراوة ، واتخذ من زعيم مغراوة زيرى بن عطية عوناً وحليفاً ، لما أبداه من إخلاص للدعوة المروانية وتأييدها . واستدعى المنصور زيرى للوفود عليه ، فسار إلى قرطبة ، واحتفى المنصور بمقدمه ، وأسبغ عليه كثيراً من مظاهر العطف والتكريم ، وأوعز إليه بمقاتلة بنى يفرن أولياء الفاطميين ؛ فلما عاد زيرى إلى المغرب سار مع الوزير الحسن إلى قتال بنى يفرن وزعيمهم يدو بن يعلى ، ولكنه هزم ، وجرح الوزير الحسن ، ثم توفى متأثراً بجراحه (سنة ٣٨١ هـ) . فلما علم المنصور بذلك عقد لزيرى على المغرب ، وندبه لحكمه ، وأمره بضبط الأمور ، والتعاون مع جيش الخلافة ، وأصحاب الحسن ، فاضطلع زيرى بمهام الحكم بمقدرة وكفاية ، وكان حازماً ، قوى النفس والعزم ، فقوى أمره وتوطد سلطانه ، ولكنه لبث مشغولاً بأمر خصومه من بنى يفرن وغيرهم ، ولبثت الحرب نبجلاً بينهم مدى حين (١) .

وفى سنة ٣٨٢ هـ (٩٩٢ م) استدعى المنصور زيرى بن عطية ، للقدوم عليه للمرة الثانية ، فاستخلف زيرى على المغرب ولده المعز ، وسا إلى قرطبة ، وقدم إلى المنصور هدية عظيمة منها طيور نادرة ، وحيوانات غريبة ، وأسود ؛ فأكرم المنصور وفادته ، وأنزله بقصر المصحفى ، وغمره بالمال والصلوات ، ومنحه لقب الوزارة ، وجلد له عهده على المغرب ، وعلى جميع ما غلب عليه ؛ ولكن زيرى لم يتنهج بلقب الوزارة ، بل بالعكس ساءه ذلك ، إذ كان يعتبر نفسه فى مرتبة الإمارة ، فعبر البحر إلى العدو وفى نفسه مرارة وخيبة أمل . وما كاد يصل إلى طنجة حتى نعى إليه أن خصومه الألداء بنى يفرن وأميرهم يدو

(١) راجع فى حوادث المغرب الأقصى ، ابن خلدون ج ٧ ص ٢٨ - ٣٠ ، والاستقصاء

ج ١ ص ٨٨ - ٩٢ ، و « نبذ تاريخية فى أخبار البربر » ص ١٧ - ٢١ .

ابن يعلى ، قد انتهزوا فرصة غيبته ، فزحفوا إلى فاس واستولوا عليها ، وقتلوا بها كثيراً من رجال مغراوة . فأسرع بالسير إلى فاس ، وهناك جمع قواته ، ونشبت بين مغراوة وبنى يفرن معارك عديدة متوالية ، قتل فيها كثير من الطائفتين وانتهت بهزيمة بنى يفرن ومقتل أميرهم يدو ، وبعث زيرى برأسه إلى المنصور (٣٨٣ هـ) .

وأصبح زيرى بعد هزيمة بنى يفرن وركود أمرهم ، أعظم أمراء الغرب قوة وبأساً ، واستقر سلطانه في سائر أنحاء المغرب ، واستمر في الظاهر على ولائه للمنصور ، وللدعوة الأموية . ولكن نفسه كانت تجهش بمشاريع أخرى . ولما كانت فاس بموقعها في الطرف الغربي للمغرب ، وعلى مقربة من مواطن القبائل الحصيمة ، أصبحت لا تصلح لمشاريعه ، فقد اعتزم أن ينشئ لنفسه قاعدة جديدة ، فأنشأ مدينة وجدة الواقعة جنوب شرق مليلة ، وعلى مقربة من جنوب غربي تلمسان ، وابتنى بها قصبة منيعة وقصراً ، وأحاطها بأسوار ضخمة ، ونقل إليها أمواله وذخائره ، وسكنها بأهله وحشمه ، واتخذها قاعدة الحكم (سنة ٣٨٦ هـ - ٩٩٦ م) لموقعها المتوسط بين المغربين الأوسط والأقصى (١) .

* * *

ولتقف الآن قليلاً في تتبع حواث المغرب ، لنعود إلى تتبع حوادث الأندلس ، ذلك أن المنصور سار على سنته من المضي في غزو الممالك النصرانية . وكانت الأحوال في ليون ما تزال بعيدة عن الاستقرار ، نظراً لما كان يضطرم بين حامية ليون المسلمة ، وبين النصارى من الشغب المستمر . وكان برمودو ملك ليون ، بعد أن استتب له الأمر ، يرقب الفرص لإخراج المسلمين من مملكته ، فجاء في جمع قواته ، وانقض ذات يوم على المسلمين ، وطاردهم إلى خارج حدوده ، فاضطر المنصور أن يرد بغزو ليون ، فسار في قواته نحو الشمال مخترباً أراضي ليون ، ثم سار غرباً إلى مدينة قلُمرية ، الواقعة في شمال البرتغال على مقربة من المحيط ، واستولى عليها في يونيو سنة ٩٨٧ م (٣٧٨ هـ) ، وأمعن في تخریبها حتى لبثت قاعاً صفصفاً مدى سبعة أعوام . وفي خلال ذلك كان البشكنس أو النافاريون قد أغاروا بقيادة ملكهم سانشو على أراضي الثغر الشمالى ، فسار المنصور إليه

قتلهم وطاردهم حتى مدينة بنبلونة عاصمة ناغار ؛ وهنا تقول الرواية النصرانية إن البشكنس انقلبوا إلى الهجوم ، وهزموا المسلمين (أواخر ٩٨٧ م) . ثم تزيد على ذلك أن جيشاً من الفرنسيين ، قد سار في نفس الوقت إلى برشلونة ، تعاونه سفن من البحر ، فاستولى عليها ، ولم تلبث طويلاً في يد المسلمين . وقد رأينا فيما تقدم أن المسلمين حين غزوا برشلونة ، لم يقصدوا إلى الاحتفاظ بها ، بل اكتفوا بتخريبها وإحراقها .

على أن الرواية الإسلامية تحدثنا عن غزوة ناغار هذه ، دون أن تشير أية إشارة إلى هزيمة المسلمين ، وهي تسميها بغزاة البياض ، وتضع تاريخها في سنة ٣٧٩ هـ (٩٨٩ م) ، وتقول لنا إن المنصور عاد بجيشه إلى سرقسطة ، حيث التقى هنالك بولده عبد الملك أثر عوده من حروب المغرب (١) .

وما كادت تمضي أشهر قلائل ، حتى عاد المنصور لاستئناف الغزو ؛ فخرج في ربيع سنة ٣٧٨ هـ (٩٨٨ م) في جيش ضخم ، وعبر نهر دويرة ، واخترق أراضي ليون شمالاً ، فربط برمودو في معظم قواته بمدينة سمورة ، اعتقاداً منه أن المنصور سيبدأ بمهاجمتها ، ولكن المنصور سار توطاً إلى مدينة ليون ، فقاومته حيناً لمناعة قلاعها ، ولكنه اقتحم أسوارها ، بعد قتال رائع ، قتل فيه قائدها الكونت جونزالفو كوثالث ، ودخلها المسلمون فحربوا صروحها ، وأبادوا سكانها ، وغادروها أطلالا دارسة . وسار المنصور بعد ذلك جنوباً إلى سمورة ، وأحرق في طريقه عدداً من الأديار ومنها ديرى إسلونزا وسهاجون العظيمين ، وضرب الحصار حول المدينة ، فغادرها برمودو سرّاً ، واضطر السكان إلى تسليمها إلى المنصور ، فأمر بنهبها ، واضطر معظم نبلاء المملكة (الكونتات) إلى الاعتراف بطاعته ، ولم يبق بيد برمودو من مملكته ، سوى الرقعة الجبلية الشمالية الغربية من جليقية (٢) .

وفي العام التالي وقعت بالثغر الأعلى حوادث هامة . وكان الثغر الأعلى وقاعدته سرقسطة ، لوقوعه في أقصى الشمال بعيداً عن قرطبة ، يغدو في فرص

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠٢ و ٣٠٣ .

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٨١ . وكذلك Crónica General ; ibid ; Vol. II. p. 446

و Dozy : Hist. Vol. II. p. 244 & 245

كثيرة مهدداً للقلاقل والثورات المتعاقبة . وكان حكامه بنو هشام التجيبون الذين غلبوا على بني قسي ، وانتزعوا سرقسطة لأنفسهم ، منذ أيام الأمير عبد الله ، يتمتعون بنوع من الإستقلال المحلي ، ويحرصون على سلطانهم ، بالرغم من اعترافهم بالإسمى بسلطان الحكومة المركزية . وكان حاكم الثغر الأعلى وهو يومئذ عبد الرحمن بن مطرف التجيبي ، يرقب سياسة المنصور ، في القضاء على سلطان الحكام المحليين ، بتوجس وحذر ، ويلتمس السبل لحماية سلطانه ، ولم يكن بعيداً عن التفكير في التحالف مع جيرانه من النصارى ، في ناغار ، وقشتالة ، كما فعل أسلافه أيام الناصر ؛ ولكن تطور الحوادث جعله يتجه اتجاه آخر . ذلك أن عبد الله ابن المنصور بن أبي عامر ، كان ناقماً على أبيه لأنه يؤثر أخاه عبد الملك عليه ويصطفيه دونه ، ويوليه كل عطفه وثقته . وكان عبد الله يومئذ فتي في الحادية والعشرين من عمره ، وكان يشعر أنه يتفوق في الشجاعة والخلال على أخيه الأكبر ، ولكن المنصور كان يشك في بنوة ولده عبد الله ، ويضن عليه بحبه وثقته ، ويخشى نياته ومشاريعه^(١) . وكان عبد الله قد ذهب إلى سرقسطة ، ونزل عند صاحبها عبد الرحمن ، وهو متغير النفس على أبيه . فانتهر التجيبي الفرصة ، واستمال عبد الله إليه ، وأذكى حقه على أبيه ، واثمر الإثنان على الوثوب بالمنصور في أول فرصة والقضاء عليه ، على أن يقتسما ملك الأندلس ، فيستولى عبد الله على قرطبة وما والاها ، ويستولى عبد الرحمن على الثغر وأحوازه ، وانضم إليهما في تلك المؤامرة بعض أكابر الحند ورجال الدولة ، من المعارضين للمنصور والناقمين عليه ، وفي مقدمتهم الوزير عبد الله بن عبد العزيز المرواني حاكم طليطلة المعروف بالربضي .

وترامت أخبار هذه المؤامرة الخطيرة إلى المنصور قبل نضجها ، فأعمل الحيلة في استدعاء ولده عبد الله من سرقسطة ، وأبدى له كثيراً من الرفق والعطف ، وصرف الوزير المرواني عن حكم طليطلة صرفاً جميلاً ، ثم أقاله بعد ذلك من الوزارة ، واعتقله بداره . ثم خرج بالصائفة غازياً إلى أراضى قشتالة ، واستدعى أمداد الثغور ، فتوافدت إلى لقائه ، وفيهم عبد الرحمن بن مطرف ورجاله . واجتمعت الحشود بقوات قرطبة في مدينة وادي الحجارة . وهناك أجمع أهل

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠٥ و ٣٠٦ .

الشغور بوحي المنصور ، على الشكوى من عبد الرحمن بدعوى احتباسه لأرزاقهم ، فقرر المنصور إقالته ، ولكنه رأى استمالة لبني هاشم ، أن يعين مكانه في حكم سرقسطة ، ولده يحيى الملقب «بسماحة» (نهاية صفر ٣٧٩ هـ) . ولم تمض على ذلك أيام قلائل ، حتى أمر المنصور بالقبض على عبد الرحمن ، ومحاسبته ، ثم أعدم بأمره فيما بعد إثر عوده إلى الزاهرة (١) .

واستدعى المنصور في نفس الوقت ولده عبد الله إلى معسكره خشية مما قد يقع منه . ثم سار في قواته شمالاً إلى شنت إشتين ، وبينما هو مشغول بحصارها ، إذ فر ولده عبد الله في نفر من غلمانه ، ولحق بغرسية فرنانديز كونت قشتالة ، فوعده بحمايته وتأيينه . فطالب المنصور غرسية بتسليم ولده ، وأقسم ألا يكف عن قتاله ، حتى ينزل على رغبته ، فأبى غرسية ، واضطرم القتال بين الفريقين ، وسار المنصور شرقاً ، واستولى على أوسمة (وخشمة) ووضع بها حامية إسلامية ، ثم استولى على «القبة» بعد ذلك بقليل ، وتوالت الهزائم على غرسية ، حتى اضطر أخيراً إلى أن يتضرع إلى المنصور أن يكف عنه ، وتعهد بإجابته إلى سائر مطالبه ؛ فقبل المنصور ضراعتة ، وبعث غرسية عبد الله ، في جماعة من القشتاليين ، فاستقبله سعد الخادم ، مع جماعة من الفرسان ، وقبل يده ولاطفه ، ثم تركه مع بعضهم ، فأنزلوه عن بغله ، وأخطروه أن يتأهب للموت ، فترجل عبد الله ، وقدم نفسه للموت هادئاً ، ثبت الحنان رائع الشجاعة ، فضرب عنقه عند غروب الشمس من يوم الأربعاء ١٤ جمادى الآخرة سنة ٣٨٠ هـ (٩ سبتمبر ٩٩٠ م) وأنفذ برأسه في الحال إلى والده المنصور ، فبعث به المنصور مع كتاب الفتح إلى الخليفة ، ودفن شلوه في مكان مصرعه ، وكان عمره يوم إعدامه ثلاثة وعشرين عاماً . وكانت غزوة المنصور التي وقعت خلالها تلك الحوادث هي غزوته الخامسة والأربعون (٢) .

وقد يبدو لنا المنصور ، بإقدامه على إزهاق ولده ، في أشنع الصور وأروعها . ولكن يجب علينا أن نذكر الظروف التي اضطرت فيها المنصور ، إلى اتخاذ تلك الخطوة المؤلمة ؛ فقد كان ائثار عبد الله بأبيه ، وتحالفه أولاً مع التجييين سادة الشغل ، وخصوم الحكومة المركزية منذ بعيد ، ثم التجاؤه بعد ذلك إلى أمير قشتالة

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٠٤ .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٠٤ و ٣٠٥ . وكذلك Dozy Hist.: Vol. II. p. 247 & 248

من أقطع الدلائل على مرض نفسه ، وخطورة مقصده ؛ ولو نجحت المؤامرة ،
لقضى على سلطان المنصور ، وانهارت دعائم الدولة الإسلامية العظيمة ، التي نجح
المنصور في إقامتها وتوطيدها ، ولكان المنصور نفسه حسباً كان يعتقد ، من أول
ضحاياها^(١) ، فما كان عبدالله ليتردد عندئذ في إزهاق أبيه ليفسح المجال لنفسه ،
ولقد كان تصرف المنصور قبل كل شيء تصرفاً سياسياً صارماً ، خلواً من كل
عاطفة ، إلا عاطفة الاحتفاظ بالنفس والسلطان ، وكان للمنصور في تصرفه المثير
أسوة في كل عصر ، وفي كل قطر ، بل كانت له أسوة في بني أمية أنفسهم من
أمراء وخلفاء ، فقد قام عبد الرحمن الداخل بإزهاق ابن أخيه وأبناء عمومته ،
وأقدم الأمير عبدالله على إزهاق إخوته الثلاثة ، وإزهاق ولديه ، ثم جاء الناصر
لدين الله ، فأقدم على إزهاق ولده وأبناء عمومته ، كل ذلك بتهمة التآمر ، وحرصاً
على السلطان . وقد كان القتل ، وما زال على كر العصور ، سلاح الطغاة الأقوياء ،
يجعلونه سياجاً لطغيانهم ودولتهم ؛ وهكذا جعل المنصور مقتل ولده سياجاً لطغيانه
فاهتز له الناس ، وملثوا وحشة وروعاً^(٢) .

هذا وأما عبدالله بن عبد العزيز المرواني ، أحد أركان المؤامرة ، فقد استطاع
الفرار في الوقت المناسب ، والتجأ إلى حماية برمودة ملك ليون .

وكان من ذيول المؤامرة أن قرر المنصور أن يعاقب غرسية فرنانديز كونت
قشتالة ، على ما ارتكبه في حقه ، باغراء ولده عبد الله وحمايته ، فحرض ولده
سانشو على الثورة عليه ، وأيده عدد كبير من الأشراف ، وانتهى سانشو بأن أعلن
الحرب على أبيه ، وجاهر المنصور بتأييده ، ثم انتهز فرصة اضطرام هذه الحرب
الأهلية ، وسار لمحاربة الكونت ، واستولى على شنت إشتين وكلونية . ثم ترك
جزءاً من قواته لمتابعة الصائفة وعاد إلى قرطبة .

وهنا تقدم الرواية الإسلامية إلينا قصة حادث مدهش ، يعتبر من أغرب
موافقات القدر ، وهو أن شاعر المنصور أبا العلاء صاعداً بن الحسن البغدادي ،
أهدى إليه أيتلاً في عنقه جبل ، وسماه غرسية باسم كونت قشتالة ، وبعث به إلى
القصر يوم السبت منتصف ربيع الثاني سنة ٣٨٥ هـ ، ومعه أبيات جاء فيها :

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠٦ .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠٥ .

يا حرز كل مخوف وأمان كل مشرد ومعز كل مسذل
عبد جذبت بضبعه ورفعت من مقداره أهدي إليك بأيّ
سميته غرسية وبعثته في حبله ليتاح فيه تفاؤلي

فكان من عجائب القدر ، أن تحققت نبوءة الشاعر . ففي نفس اليوم الذي قدم فيه الأيل والقصييدة إلى المنصور ، تمت الهزيمة على الكونت غرسية فرنانديز ، وجرح وأسر على ضفاف نهر دويرة ، على مقربة من بلدة «القصر» ، وذلك في يوم ٢٥ مايو سنة ٩٩٥ (منتصف ربيع الثاني ٣٨٥ هـ) . ثم توفي الكونت بعد أيام قلائل متأثراً بجراحه ، وتم الأمر لولده سانشو ، ولكنه اضطر أن يؤدي الجزية للمسلمين^(١).

وفي خريف هذا العام سار المنصور إلى غزو ليون ومعاقبة ملكها برمودو على حمايته لعبد الله بن عبد العزيز المرواني . وكانت الأحوال قد ساءت في ليون ، واستولى الأشراف الإقطاعيون على سائر أراضيها وضياعها ، ولم يبق للملكها سوى الاسم ، واضطر برمودو أن يغادر مدينة ليون عاصمة ملكه ، وأن يتخذ أسترقة عاصمة مكانها . فلما أرهقه المنصور بالحرب غادر أسترقة ، والتبس الصلح من المنصور ، وسلمه المتآمر عبد الله ، وتعهد بدفع الجزية ، فأجابه المنصور إلى ما طلب . واستولى فيما بعد على مدينة سمورة ، وأسكن بها المسلمين ، وولى عليها عاملاً من قبله هو أبو الأحوص معن بن عبد العزيز التجيبي . وهكذا عادت قشتالة وليون إلى دفع الجزية لحكومة قرطبة^(٢) . وأما عبد الله المرواني ، فقد ألقى به المنصور إلى السجن مصفداً ، وتركه يرزح في أصفاده ، بالرغم مما رفعه إليه من القصائد المؤثرة في طلب العفو والمغفرة^(٣) .

* * *

وقد تقدم أن ابن أبي عامر اتخذ سمة الملك منذ سنة ٣٧١ هـ (٩٨١ م) ، وتسمى بالحاجب المنصور ، وأمر بالدعاء له على المنابر ، وكانت هذه أول خطوة في اتخاذ ألقاب الملك بصفة رسمية ، بعد أن استأثر بكل سلطة فعلية .

(١) الذخيرة المجلد الرابع القسم الأول ص ٢٢ و ٢٣ ، وأعمال الأعلام ص ٦٨ و ٦٩ ، والمعجب لعبد الواحد (القاهرة ١٩١٤) ص ٢٠ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٨١ .

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٨١ . وراجع Dozy : Hist. Vol. II. p. 249

(٣) راجع الحلة السراء ص ١١٣ و ١١٤ .

وفي سنة ٣٨١ هـ (٩٩١ م) أي بعد ذلك بعشرة أعوام ، اتخذ المنصور خطوة أخرى في سبيل تدعيم صفته الملوكية . فرشح ولده عبد الملك للولاية من بعده ، وهو فتي لم يجاوز الثامنة عشرة ، ونزل له عن خطة الحجابة والقيادة العليا ، وسأثر الخطط الأخرى التي كان يتقلدها ، واقتصر على التسمي بالمنصور ، وأن تنفذ الكتب عنه « باسم المنصور أبي عامر وفقه الله » كما قلده ولده عبد الرحمن خطة الوزارة . ثم كانت الخطوة الثالثة بعد ذلك بخمسة أعوام ، حينما أصدر المنصور في سنة ٣٨٦ هـ (٩٩٦ م) أمره ، بأن يخص باللقاب السيادة من بين سائر الناس في الخطابات ، وأن يرفع ذلك عن سائر أهل الدولة ، ونفذت الكتب بذلك ، وخطوب المنصور من ذلك الوقت « بالملك الكريم » ، وبولغ في تكريمه وتعظيمه في سائر الخطابات ، واستمر ذلك بقية حياته (١) .

ولم يك ثمة شك فيما يرمى إليه ابن أبي عامر ، من وراء هذه الخطوات المتعاقبة في سبيل الاتشاح باللقاب الملك والسيادة . فهو قد حقق من الناحية العملية أمنيته الجوهرية ، بالاستيلاء على الدولة والاستئثار بكل سلطة فعلية . ولكنه كان يرمى إلى أبعد من ذلك . فهو قد أصبح أعظم وأقوى رجل في الدولة ، وقد جمع بين يديه سائر السلطات السياسية والعسكرية . وكان الجيش وهو عماد السلطان والدولة ، يتكون معظمه من البربر والنصارى المرتزقة ، ويدين للمنصور بمنتهى الولاء والإخلاص ، وهو الذي عني بإنشائه وتنظيمه ، وقاده إلى ميادين النصر عشرين عاماً . وإذا فقد كان يبدو من هذه الظروف كلها ، أنه لم يك ثمة ما يحول دون أن يحقق المنصور غايته الأخيرة ، فيتوج حكمه بالصفة الشرعية ، وينزع لنفسه ما بقي من رسوم الملك والخلافة ، ويؤسس بذلك لنفسه ولعقبه دولة جديدة ، تحل مكان الدولة الأموية المحتضرة .

وهناك ما يدل على أن المنصور ، كان يعتزم بالفعل أن يتخذ سمة الخلافة ؛ وهذا ما يقرره الفيلسوف ابن حزم ، ويروى تفاصيله نقلاً عن أبيه الوزير ابن حزم وزير المنصور . وملخص روايته أن المنصور جمع للمشورة في ذلك الأمر قوماً من خواصه منهم ابن حزم ، وابن عياش ، وابن فطيس من الوزراء ، وبعض الفقهاء ؛ وقد صوّب رأي ابن عياش وابن فطيس ، ولكن ابن حزم

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣١٥ و ٣١٦ .

عارض فيه ، وأعرب عن خوفه من أن يحرك ذلك ساكن الأحوال ، وأن المنصور ليس في حاجة إلى مثله ، وببيده سائر الأمور ؛ وتردد رأى الفقهاء بين الاعتراض والموافقة (١) .

على أنه يبدو من جهة أخرى ، من تراث المنصور وتمهله في اتخاذ الخطوات المذكورة ، أنه كان يخشى نتائج العنف والتسرع . فما الذى كان يخشاه المنصور إذاً ، وقد اجتمعت في يده كل السلطات ، وأضحى يسيطر على سائر القوى ؟ لقد كان نهوض المنصور وتقدمه في سبيل السلطان ، مقترناً بظروف لا تساعد على اكتساب محبة الشعب وتأييده الخالص . فقد وقع عن طريق اتصاله بصبح ، بالمرأة التي كانت تسيطر على الدولة ، والتي كانت علائقه بها تثير كثيراً من الهمس والتعليق اللاذع ، وقد وقع على حساب الخليفة الطفل هشام المؤيد ، الذى استلب ابن أبي عامر سلطانه وحقوقه تباعاً ، ثم حجر عليه بطريقة قاسية تشبه الموت المدنى ، وقطع علائقه مع العالم ، ولم يكن يسمح له بمقابلة أحد ، أو بالخروج من القصر ؛ وفي الفرص النادرة التي كان يسمح بخروجه فيها ، كان يسير في موكبه وعليه برنس يخفى شخصه ، ومن حوله صفوف كثيفة من الجند ، فلا يستطيع أحد أن يراه أو يقترب منه (٢) . وكان الشعب القرطبي يشهد أطوار هذه المأساة المؤلمة وإجماً ناقماً ، ويعتبر الخليفة الشرعى ضحية وشهيداً ، يستحق كل عطفه وراثته . ولم يكف كل ما حققه المنصور من مظاهر السلطان والمجد ، وما أحرزه من الظفر المتوالى ، وما أسبغه حكمه على الأندلس من أسباب السكينة والعزة والأمن والرخاء ، لم يكف ذلك كله لحمل الشعب على نسيان قضية خايفته الشرعى . أضف إلى ذلك كله ، تلك الوسائل الدموية المثيرة ، التي لجأ إليها ابن أبي عامر للتخلص من خصومه ومنافسيه ، فقد كانت تباعد بينه وبين الشعب ؛ ولم يكن الشعب ، إزاء هذه الظروف والعوامل كلها ، ليمنح ابن أبي عامر حبه وولاءه ، وإن كان من جهة أخرى يخشاه ويرهبه ، بل ويعجب بحزمه وعزمه وعبقريته في تسير الأمور ، وفي تأمين البلاد ، وإذلال العدو .

ومن ثم كان تراث ابن أبي عامر وتحوطه . فإنه لم يكن واثقاً من إغضاء

(١) راجع فقط العروس لابن حزم ص ٧٧ .

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ٤١ ، ولفح الطيب ج ١ ص ٢٧٦ .

الشعب ، عن انقلاب حاسم يقضى به على آخر مظاهر الخلافة الشرعية ، وينزع به تراث بنى أمية . ومن جهة أخرى ، فقد كانت هناك صبح أم الخليفة المعتقل ، المحروم من كل حقوقه وسلطانه ؛ وكانت صبح قد غدت بمضى الزمن ألد خصوم ابن أبي عامر وأخطرهم . وقد رأينا كيف بدأت تعمل لمقاومته ، مذ شعرت بخطورة مشاريعه ، على مركز ولدها ، وتحاول أن تجمع من حولها كلمة الناقمين والمعارضين لابن أبي عامر ، باسم حماية الخليفة الشرعى ، وإنقاذه من نير المتغلب ، وكيف وقعت أول محاولة حقيقية لمقاومة ابن أبي عامر ، فى انقلاب صهره القائد غالب عليه ومحاربتة إياه ، ولم تبذل من ذلك الحين أية محاولة أخرى فى هذا السبيل . هذا وسلطان المنصور على كر الأعوام يتوطد ، ومركز هشام المؤيد يزداد سوءاً وانحلالاً ، وتغيب ذكرىات الخلافة ورسومها شيئاً فشيئاً .

فلما عمد المنصور أخيراً إلى اتخاذ ألقاب السيادة والملك ، شعرت صبح بأن الضربة القاضية أضحت على وشك الوقوع ، واعتزمت ان تضاعف العمل فى سبيل حماية ولدها ، وتحريره من قبضة المتغلب . فكررت ضد المنصور دعايتها القديمة ، واتهمته على يد دعايتها وأعوانها ، باغتصاب سلطان الخلافة ، ومقاومة رغبة الخليفة فى تولى الحكم بنفسه ؛ وخطر لها فى نفس الوقت أن تتصل بـ زيرى ابن عطية حاكم المغرب ، وأن تدفعه إلى مناوأة المنصور ، فبعثت إليه رسلها ، وأنفذت إليه الأموال سرّاً ، ليحشد الحند ويتأهب للعبور إلى الأندلس . وكان زيرى من أولياء بنى أمية ومن أشد المخلصين لقضيتهم ، وكان ينقم على المنصور سياسته فى الحجر على هشام ؛ وفوق ذلك فقد كان غاضباً على المنصور ، لما أساء به فى حقه حين زيارته إلى قرطبة ؛ وإذاً فقد لبى زيرى دعوة صبح ، وأخذ يشهر بالمنصور وسياسته ، وحجره على الخليفة ، ويدعو إلى مقاومته ، ورد الأمر إلى الخليفة الشرعى^(١) .

وكان المنصور يقظاً ، فلم يفته شيء من خطط صبح وأعوانها . وكان أول همه أن يرفع يدها عن الأموال ، التى أخذت تفتن فى تهريبها بواسطة فتيان القصر ، وكان المنصور مريضاً ، فبعث ولده عبد الملك فى قوة من الجيش إلى قصر الخلافة بقرطبة ، ومعه جمهرة من الفقهاء والوزراء ، ثم دخل بهم إلى مجلس الخليفة ،

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠٢ ، و « نبذ تاريخية فى أخبار البربر » ص ٢٧ .

وخاطبه في الأمر ، فأنكر هشام ذلك ، وتبرأ من خصومة المنصور ، ووافق على نقل المال ، فنقل فوراً إلى الزاهرة ، ولم يبق منه في خزائن القصر شيء ، ولم تجد توسلات صبح ، ولا وعيدها ، وتطاولها على عبد الملك شيئاً ، ويقال إن ما حمله المنصور يومئذ من المال بلغ عدة ملايين^(١) .

ولما أبل المنصور من مرضه بعد ذلك بقليل ، سار إلى قصر قرطبة مع ابنه عبد الملك وسائر عظماء الدولة ، وانفرد بالخليفة في مجلسه ، فاعترف له هشام بالفضل ، وحمد اضطلاعه بشئون الدولة ، وأقره على سياسته . ثم عمد المنصور إلى اتخاذ خطوة جريئة أخرى ، فأخرج هشاماً من القصر ، وأركبه في زى الخلافة في موكب عظيم ، وركب إلى جانبه ، وأمامه ولده عبد الملك ، وسار الجيش أمام الموكب ومن خلفه ، وتبع الموكب جموع عظيمة من طوائف الحند والفتيان الصقالبة . وشق هذا الموكب الخليفي شوارع قرطبة ، بين جموع حاشدة مستبشرة من الشعب ، وكان يوماً عظيماً مشهوداً ، وكان آية الظفر للمنصور وسياسته^(٢) .

وهكذا فشلت صبح في محاولتها ، ولم يسفر ذلك الصراع المتأخر إلا عن توطيد سلطان المنصور ، وسحق البقية الباقية من خصومه ومعارضيه . ولم تك صبح في الواقع أهلاً لمقاومة ذلك الرجل القوى ، خصوصاً بعد أن مكن له في كل شيء ، ولم يبق للخليفة الأموي من السلطان سوى الاسم . ولما أيقنت صبح أن المقاومة عبث ، وأنه لا منقذ لولدها من ذلك النير الحديدي ، لحأت إلى السكينة والعزلة ، فلا نسمع عنها بعد ذلك في سير الحوادث ، ولا نعرف تاريخ وفاتها بالتحقيق ، ولا نعرف إن كانت وفاتها قبل وفاة المنصور أو بعدها ، وكل ما تقوله الرواية الإسلامية في ذلك ، هو أن وفاتها كانت أيام ولدها هشام . والظاهر أنها توفيت بعد ذلك بقليل قبل وفاة المنصور ، حوالى سنة ٣٩٠ هـ (١٠٠٠ م) ، لأننا لانعثر باسمها بعد ذلك في حوادث الأندلس . وقد نظم شاعر العصر أبو عمر محمد ابن دراج القسطلی ، قصيدة مؤثرة يرثي فيها صبحاً « أم هشام المؤيد بالله » ، ومما جاء فيها :

(١) الذخيرة (عن ابن حيان) المجلد الرابع القسم الأول ص ٥٢ - ٥٤ ، ونفح الطيب

ج ٢ ص ٩٥ .

(٢) الذخيرة المجلد الرابع القسم الأول ص ٥٤ .

هل الملك يملك ريب المنو ن أم العز يصرف صرف القضاء
 ألم نر كيف استباح يدا ه حريم الملوك وعلق النساء
 هو الرزء أودى بعزم الملو ك مصاباً وأودى بحسن العزاء
 لبيض أياديك في الصالحا ت تمسك وجه الضحى بالضياء
 فتلك مآثرها في التقى وبذل اللهى ما بها من خفاء
 جزاك بأعمالك الزاكيا ت خير المجازين خير الجزاء
 ولقيت من ضنك ذاك الضريح نسيم النعيم وطيب الثواء^(١)
 هذا وأما عن موقف زيرى بن عطية ، وتطاوله على المنصور ، فقد رد المنصور
 بأن قطع عنه رزق الوزارة ، ومحا اسمه من ديوانه ، واعتبره خارجاً عاصياً ؛
 ورد زيرى على ذلك بأن قطع ذكر المنصور من الخطبة ، وطرده عماله بالمغرب ،
 وأعلن الخروج والثورة . فجهز المنصور لقتاله جيشاً عظيماً بإمرة مولاة الفتى
 واضح ، وأمدته بالأمول والدخائر ؛ وعبر واضح البحر في قواته إلى طنجة ،
 وهناك انضمت إليه جموع غفيرة من بربر غمارة وصنهاجة ، وحالفتة على قتال
 زيرى . وخرج زيرى في قواته والتقى الجمعان بوادى زارات جنوبي طنجة ،
 ونشبت بينهما معارك شديدة متصلة مدى ثلاثة أشهر ، ثم انتهت بهزيمة واضح
 وتمزيق جيشه ، ففر في فله إلى طنجة ، وكتب إلى المنصور يستصرخ به .
 فخرج المنصور من قرطبة إلى الجزيرة الخضراء ، وتوافدت إليه الجيوش ،
 ثم أجاز ابنه عبد الملك بمعظم قوات الأندلس وقوادها ، وأمره بالتشدد في محاربة
 زيرى والقضاء عليه ؛ فعبر عبد الملك البحر في قواته إلى سبتة ، واتصل خبره
 بزيرى فتأهب للقائه ، وبعث إلى جميع بطون زناتة يستصرخهم لنصرته ، فهرعت
 إليه الوفود والقوات من سائر النواحي ، وسار لقتال عبد الملك في جموع عظيمة .
 وزحف عبد الملك من طنجة ، ومعه الفتى واضح في قوات لا تحصى ، والتقى
 الفريقان بوادى منى من أحواز طنجة ، ونشبت بينهما معارك هائلة هزم البربر
 في نهايتها شر هزيمة ، وقتل منهم عدد ضخم ، وجرح زيرى واستولى عبد الملك
 على معسكره ، ثم طارده حتى مكناسة ، ففر إلى الصحراء مع نفر من أصحابه ،

(١) وردت هذه القصيدة بأكملها في ديوان ابن دراج المنشور بعناية الدكتور محمود على مكي
 (ص ١١٩ - ١٢٣) ووردت كذلك في يتيمة الدهر (القاهرة ١٩٤٧) ج ٢ ص ١٠٩ و ١١٠ .
 ٣٦ - أندلس

وقد أشاد شاعر العصر ابن دراج القسطلی بعبقريّة المنصور وأهباته العسكريّة
ضد زيرى بن عطية في قصيدة طويلة هذا مطلعها :

| | |
|-----------------------------|---------------------------|
| لك الله بالنصر العزيز كفيل | أجد مقام أم أجد رحيل |
| هو الفتح أما يومه فمعجل | إليك وأما صنعه فجزيل |
| وآيات نصر ما تزال ولم تزل | بهن عمایات الضلال تزول |
| سيوف تثير الحق أنى انتصيتها | ونخيل يحول النصر حيث تجول |
| ومنها : | |

| | |
|-------------------------------|---|
| لئن صدت الباب قوم بيغيهم | فسيف الهدى في راحتك صقيل |
| فإن يحيي فيهم بغى جالوت جدهم | فأحجار داود لديك مثول |
| هدى وتقى يؤدى الظلام لديهما | وحق بدفع المبطلين كفيل |
| يجمع له منه قائد النصر عاجل | إليه ومن حسن اليقين دليل |
| تحمل منه البحر بحراً من القنا | يروع بها أمواجه ويهول |
| بكل معالاة الشراع كأنها | وقد حملت أسد الحقائق غيل ^(١) |

ودخل عبد الملك مدينة فاس ظافراً ، في نهاية شوال سنة ٣٨٧ هـ (نوفمبر ٩٩٧ م) وكتب إلى أبيه المنصور بالفتح ، فكتب إليه بعهدده على المغرب ، وعاد واضح بالخيخ إلى قرطبة . ولبت عبد الملك والياً للمغرب ستة أشهر فقط ، نظم خلالها شثونه ، ووطد أمره ، ثم عاد إلى الأندلس ، وخلفه على المغرب عيسى ابن سعيد صاحب الشرطة ، فلبث في ولايته حتى وائل سنة ٣٨٩ هـ . ثم أقبل وخلفه الفتى واضح .

وفي تلك الأثناء كان زيرى بن عطية قد جمع فلوله من قوات زناتة ، ووافته جموع كثيرة من مغراوة ، وكانت صنهاجة قد اختلفت على أمرها ، فانهز زيرى هذه الفرصة وزحف شرقاً على بلاد صنهاجة ، وأوغل فيها ، واستولى على تاهرت وتلمسان وبعض بلاد الزاب ، وأقام بها الدعوة لهشام المؤيد والمنصور ، ثم كتب إلى المنصور يتقرب إليه ويسترضيه ، ويؤكد حسن طاعته من جديد ، فعفا عنه المنصور ، وأعاد له ولاية المغرب ، بيد أنه لم يعيش طويلاً فتوفى في سنة ٣٩١ هـ (١٠٠١ م) ، متأثراً بجراحه التي أصابته في موقعة وادي منى . وخلفه في

(١) وردت هذه القصيدة في ديوان ابن دراج المشار إليه (ص ٣ - ٩) .

الولاية ولده المعز : فأقره المنصور ، ولبت المعز والياً للمنصور ، مقبلاً على دعوة بنى أمية ، يعمل على توطيدها بالمغرب ، إلى أن اضطرب جبل الخلافة بالأندلس (١).

* * *

وبينما كان عبد الملك المنصور بالمغرب يتم إخضاع زيرى وشيعته ، كان المنصور يتخذ الأبهة لأعظم غزاته . وكانت منطقة جليقية في قاصية اسبانيا الغربية ، تعتبر لنأيها ووعورتها ، أمتع مناطق اسبانيا النصرانية ، وأبعدها عن متناول الفاتحين . ولم يفكر أحد من الغزاة المسلمين ، منذ أيام طارق أن يقصد إلى تلك المنطقة الحبلية الوعرة ، لما يعترض الوصول إليها من الصعاب الهائلة . ولكن المنصور اعتزم أن يسير إلى جليقية لسببين : الأول أنها كانت ملاذاً ومأجاً للملك ليون ، يمتنعون به كلما أرهقهم الغزوات الإسلامية ، والثاني أنها كانت مستقراً لمدينة شنتياقب (أوشنت ياقب) الدينية ، كعبة إسبانيا النصرانية ومزارها المقدس ، ورمز زعامتها الروحية . وقد سبق أن عرضنا إلى نشأة هذه المدينة المقدسة ، وإلى أسطورة القديس ياقب (أو يعقوب الحواري) التي اتخذت أساساً لإنشائها ، وكيف زعمت الأسطورة أن قبر القديس يعقوب ، قد اكتشف بمعجزة وقعت في هذه المنطقة ، فأنشئت فوقه كنيسة ، وأنشئت حول الكنيسة مدينة مقدسة ، سميت باسم القديس ، وغدت عاصمة اسبانيا الدينية ، ومزاراً شهيراً يقصده النصارى من سائر الأنحاء (٢). وقد شاء المنصور أن يضرب اسبانيا النصرانية في صميم معقلها القاصي ، وفي صميم زعامتها الروحية ، بغزو جليقية ، واقتحام مدينتها المقدسة . فخرج من قرطبة في الثالث والعشرين من جمادى الآخرة سنة ٣٨٧ هـ (٣ يولييه ٩٩٧ م) على رأس قوى الفرسان ، وفي الوقت نفسه تحرك الأسطول الأندلسي ، الذي أعده المنصور لهذه الغزوة الكبرى ، من مرساه أمام قصر أبي دانس Alcacer do Sal في مياه البرتغال الغربية ، شمالاً بجذاء الشاطئ البرتغالي ، يحمل المشاة والأقوات والذخيرة ، واخترق المنصور اسبانيا الغربية شمالاً ، وهو يعبر الجبال والأنهار العظيمة تباعاً ، حتى وصل إلى مدينة

(١) راجع حوادث المغرب في البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠٢ ، وابن خلدون ج ٧ ص ٣٣ ، والإستقصاء ج ١ ص ٩٣ و ٩٤ ، و « نبد تاريخية في أخبار البربر » ص ٣٠ - ٣٥ .
(٢) راجع تفاصيل ذلك في القسم الأول من العصر الأول من « دولة الإسلام في الأندلس » ص ٢٢٠ و ٢٢١ .

قورية ؛ ثم زحف نحو الشمال الغربي ، واستولى في طريقه على مدينتي بازو وقلمرية^(١). وهنا وفد على المنصور ، عدد كبير من القوامس (الكونتات) النصارى المعترفين بطاعته ، وهم الواقعة أملاكهم في أراضي البرتغال ما بين نهري دويرة ومنيو ، وانضموا مع قواتهم إلى جيشه . ثم سار المنصور شمالاً حتى وصل إلى نهر دويرة ، وهناك وافاه الأسطول ، مخترقاً النهر من مصبه عند ثغر بورتو ، فجعل منه جسراً مريحاً لعبور جيشه وعدده وأقواته ، واتجه الجيش الإسلامي بعد ذلك صوب جليقية ، وهويقتحم السهل والوعر في شعب الجبال ، ثم عبر نهر منيو (منيو) ، وسار بجذاء شاطئ المحيط ، واستولى في طريقه على بعض الحصون ، وخرب عدداً من الأديرة التاريخية في تلك المنطقة . وكانت جموع كبيرة من النصارى ، قد فرت إلى الجزائر المقابلة للشاطئ ، فعبّر المسلمون إليهم من بعض المخاض وأسروا معظمهم ، واخترقوا مفاوز الجبال المجاورة للمحيط ، واستخرجوا من لجأ إليها من النصارى ، واستصفوا غنائمها ، ثم اقتحموا الجبال إلى السهل ، وخربوا بلدة إيليا (إيريا) ونهبوها ، وهي أيضاً من المزارات الدينية الشهيرة . وأشرف المسلمون على مدينة شنت ياقب في يوم الأربعاء الثاني من شعبان (١١ أغسطس) ، فوجدوها خالية من أهلها ، وكانوا قد غادروها حين اقتراب الغزاة ، فدخلها المسلمون ، وهدموا أسوارها وصروحها التاريخية ، وكنيستها العظمى ، واستولوا على سائر ما فيها من الذخائر والتحف ، وأمر المنصور بصون قبر القديس ياقب القائم وسط الكنيسة العظمى ، والحفاظة عليه . ولم يجد المنصور بالكنيسة إلا شيخاً من الرهبان يجلس على القبر فسأله عن مقامه ، فقال أوئانس يعقوب ، فتركه وأمر بالكف عنه . وأخذ المسلمون أبواب المدينة ، ونواقيس الكنيسة العظمى ، وحملها الأسرى النصارى على كواهلهم حتى قرطبة ، فوضعت الأبواب فيما بعد ، في سقف الزيادة التي أنشأها المنصور بالمسجد الجامع ، وعلقت به النواقيس رؤوساً للثريات الكبرى^(٢).

وسار المنصور بعد ذلك مخترقاً أراضي برمودو التي امتنع بها وعاث فيها.

(١) هما بالإفرنجية على التوالي Viseu و Coimbra

(٢) تتبعنا حوادث هذه الغزوة حسبما أوردها ابن مغازي في البيان المغرب ج ٢ ص ٣١٦

- ٣١٩ . وراجع ابن خلدون ج ٤ ص ١٨١ ، وأعمال الأعلام ص ٦٧ و ٦٨ ، ونفح الطيب

ج ١ ص ١٩٢ - ١٩٥ . وكذلك Crónica General ; ibid; Vol. II. p. 448 & 449

ولم يستطع أحد أن يقف في سبيله ، ووصل إلى شاطئ المحيط على مقربة من بلدة كرونية (قرجيطة) . ثم انحدر جنوباً حتى وصل إلى أراضي الزعماء النصاري (القوامس) المواليين له ، والذين صحبوه في غزوته ، فأمر بالكف عنها ، وتابع سيره حتى وصل إلى مدينة لاميجو في شمال البرتغال الحديثة (وتسميها الرواية الإسلامية لميقة) ، وهناك وزع الهدايا والكسي الفاخرة على الزعماء النصاري ، وصرفهم إلى بلادهم ، وكتب بالفتح إلى دار الخلافة ، ثم عبر نهر دويرة على النحو الذي تقدم وصفه ، وقفل راجعاً إلى قرطبة ، وفي ركبته عدد كبير من الأسرى ، ومقادير عظيمة من الغنائم . وكانت غزوة عظيمة ، استبشر بها المسلمون ، وقرت نفوسهم ، واهتزت لها اسبانيا النصرانية من أقصاها إلى أقصاها ، ولبت أثرها العميق أعواماً بعيدة ، وكانت غزوة المنصور الثامنة والأربعون .

ونظم ابن دارج القسطل في تهنئة المنصور بغزوة « شنتياقه » (شنت ياقب) قصيدة طويلة هذا مطلعها :

| | |
|---------------------------------------|--|
| اليوم أنكص إلبس ^١ على عقبه | مُبرّءاً سبب الغاوين من سببه |
| واستيقنت شيع الكفار حيث نأت | في الشرق والغرب أن الشرك من كذبه |
| بشنتياقه لما أن دلفت له | بالبیض كالبلدر يسرى في سنا شهبه |
| وجلة الدين والإسلام عاطفة | عليك كالفلك الحارى على قطبه ^(٢) |

وعلى أثر غزوة شنت ياقب اضطر برمودو ملك ليون ، بعد الذي أصاب بلاده من الهزائم والحن ، أن يسعى إلى طلب الصلح ، فبعث ولده بلايو صحبة معن بن عبد العزيز حاكم ستمورة المسلم ، إلى قرطبة طالباً عقد الصلح ، فأجابه المنصور إلى ما طلب ، وانصرف راجعاً إلى أبيه^(٣) . ولم يعش برمودو طويلاً بعد ذلك ، فتوفي سنة ٩٩٩ م : وخلفه في الملك ولده الطفل ألفونسو الخامس ، تحت وصاية أحد الأشراف ، ولزم مكانه في قاصية جلتيقية .

وقام المنصور بعد ذلك بعدة غزوات أخرى في أراضي النصاري ، بيد أننا لا نظفر في شأنها بتفاصيل دقيقة واضحة . والظاهر من إشارة أوردها صاحب

(١) وردت هذه القصيدة في ديوان ابن دارج المتقدم ذكره (ص ٤٤٠ - ٤٤٣) .
ويلاحظ أنه قد ورد بها اسم « شنت ياقب » ، « شنتياقه » وهو أقرب إلى رسمه الإسباني Santiago .
(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ١٨١ .

البيان المغرب ، أن المنصور قام بغزوة إلى ناغار في سنة ٣٨٩ هـ (٩٩٩ م) (١) . وفي العام التالي أعنى في سنة ٣٩٠ هـ (١٠٠٠ م) سار المنصور إلى أراضي قشتالة في جيش ضخم ، وذلك أن الملوك والأمراء والنصارى « من حيز بنبلونة إلى أستركة » ، اتفقوا جميعاً بزعماء سانشو غرسية كونت قشتالة ، على مقاومة المنصور والتفانى في قتاله ، وحشد سائر أمراء البشكنس وقشتالة وليون قواتهم ، وجمع سانشو غرسية سائر قواته في وسط قشتالة ، في وادى دويرة الأدنى خلف الحاجز الجبلى الوعر المسمى « صخرة جربيرة » Peña Cervera ، وتعاهد الملوك والأمراء النصارى على الثبات وعدم الفرار . ورأى المنصور كعادته أن يبادر أعداءه بالقتال ، فسار في قواته توأ إلى مدينة سالم ، ونفذ شمالاً إلى أراضي قشتالة حيث يربط أعداؤه ، فلما أشرف على صخرة جربيرة ، هاله ما رأى من وعورتها ، وحصانة المراكز التى يحتلها العدو ، ووفرة جموعه وعدده . ورأى سانشو أن يعجل بمهاجمة المسلمين ، قبل أن يوطدوا مراكزهم ، فاندفع النصارى في هجوم عنيف خاطف على المسلمين ، فاضطربت ميمنة المسلمين وميسرتهم ، ودب الخلل إليهم ، وعمد إلى الفرار كثير منهم ، وكادت تدور عليهم الدائرة . ولكن القلب ، وكان يقوده ابنا المنصور عبد الملك وعبد الرحمن ، ويتألف معظمه من فرق البربر القوية الباسلة ، صمد أمام الموجة الهائلة ، وهرع المنصور إلى رابية مشرفة على الموقعة ، ومن ورائه خاصته وحاشيته ، وهو يحث رجاله وقادته على الثبات ، فلم يمض سوى قليل حتى انقلبت الآية ، وارتد العدو في غير نظام ، وتمكن أحد الزعماء البربر من قتل أحد كونتات بنى غومس (٢) وجاء برأسه ، فضاعف المسلمون جهودهم ، وشددوا الوطأة على النصارى ، وأمعنوا فيهم قتلاً وأسراً ، وطاردهم إلى عدة مراحل حتى مزقهم شر ممزق . وكانت هذه الواقعة في اليوم الرابع والعشرين من شهر شعبان سنة ٣٩٠ هـ (٣٠ يولييه سنة ١٠٠٠ م) . وخسر المسلمون في الموقعة أكثر من سبعمائة قتيل . وتابع المنصور زحفه في أراضي قشتالة ، وهو يدمر كل شيء في طريقه ،

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٢١ .

(٢) بنى غومس يسمون كذلك في الرواية العربية ، وهم أبناء غومس دياث Gomez Diaz أحد زعماء ليون . وقد تزوج ابنة كونت قشتالة فرنان كوثالث ، وأصبحوا خلفاء له ، وكانت أملاكهم في سالدانيا وكريون وسمورة .

حتى اقتحم عاصمتها « برغش » وذلك في يوم عيد الفطر (٤ سبتمبر) ، ثم واصل سيره إلى سرقسطة ، وقام من هنالك بغزوة في أراضي ناغار ، حتى أشرف على عاصمتها بنبلونة . وكل ذلك دون أن يجراً أحد من النصارى على الوقوف في سبيله . ثم عاد إلى قرطبة وقد أنفق في هذه الغزوات مائة يوم وتسعة أيام . ووجه على أثر عودته إلى قواده ، كتاباً ليقرأوه في الجيش . وفيه ينحى المنصور باللائمة على جنده ، لما بدا منهم من التخاذل والنكوص ، ويذكرهم بأنه لولا شجاعة فئة قليلة ، منهم ، عاونت بثباتها على إحرار النصر ومحو العار ، لانهى بإقاتلهم جميعاً (١) . وكان لهذه الغزوة ، وما لابسها من الظروف الدقيقة ، أعظم وقع في الأندلس . وكان لنصر جربة مغزى أعمق من أى نصر أحرزه المنصور . وفيه يقول صاعد شاعر المنصور مهتماً ، من قصيدة تعتبر من غرر قصائده :

| | |
|------------------------------|------------------------------|
| جددت شكرى للهوى المتجدد | وعهدت عندك منه ما لم يعهد |
| اليوم عاش الدين وابتدأ الهدى | غضاً وعاد الملك عذب المورد |
| ووقفت في ثانی حنين وقفة | فرايت صنع الله يؤخذ باليد |
| من فاته بدر وأدرك عمره | جربير فهو من الرحيل الأسعد |
| خملت ميامنهم عليك نشيجه | كالسيل يحطم جلمداً عن جلمد |
| ما ناجزوك وفي الجوانح موضع | لتصبر ومكانة لتجلد |
| طال الشقاء عليهم وتبرموا | بالجيش في الدل المقيم المقعد |
| فتحالفوا لمحت وتجمعوا | لمفرق وتألفوا لمسد |

وفي ربيع سنة ٣٩٢ هـ (١٠٠٢ م) خرج المنصور إلى الغزو لآخر مرة ، فاخترق أراضي قشتالة شمالاً ، ووصل في زحفه حتى بلدة قناليش الواقعة جنوبي ناجرة ، ثم سار غرباً في اتجاه برغش وعاث في تلك المنطقة (٢) . ولا تقدم الرواية الإسلامية عن هذه الغزوة تفاصيل أخرى ، ولا تحدثنا بالأخص عن أية موقعة حاسمة ، وقعت بين المسلمين والنصارى . ولكن بعض الروايات النصرانية الإسبانية القديمة ، تذكر لنا في هذا الموطن ، أن القوات النصرانية المتحدة ، المكونة من جيوش برمودو ملك ليون ، وغرسي فرناندز كونت قشتالة ،

(١) راجع في تفاصيل هذه الموقعة للشهيرة : أعمال الأعلام ص ٦٩ - ٧٢ .

(٢) راجع الإساطة في أخبار غرناطة لابن الخطيب (طبعة القاهرة القديمة) ج ٢ ص ٧٢ .

وغرسية سانشيز ملك نافار ، وقفت في وجه المنصور في ظاهر بلدة صغيرة تسمى « قلعة النصور »^(١) ، وتقع في غربي مدينة سرية ، وأنه وقعت بين المسلمين والنصارى ، موقعة هزم فيها المسلمون ، وقتل منهم عدة آلاف ، وأن المنصور انسحب في قواته تحت جناح الظلام ، ثم توفي بعد ذلك بقليل حزناً ونعماً ، أو من الجراح التي أصابته في الموقعة^(٢) .

ولا بأس من أن نقدم هنا خلاصة لما تذكره الرواية النصرانية من تفاصيل الموقعة ، وإليك ما يقوله في ذلك المؤرخ لافونتي . ومما هو جدير بالذكر أنه يرجع بداية حوادثها إلى سنة ١٠٠١ م ، وفي هذا الوقت كان ملك ليون ألفونسو الخامس الطفل ولد برمودو الثاني ، وكان تحت وصاية مندو كونثال كونت جليقية وزوجته دونيا مايور ، وكان يحكم قشتالة الكونت سانشو غرسييس ولد غرسي فرناندز ، ويحكم نافار الملك سانشو غرسييس الكبير .

يقول لافونتي : إنه في هذه السنة أعنى سنة ١٠٠١ م ، بدت في قلب اسبانيا المسلمة طلائع استعدادات عظيمة ، وجمع ولاية شترين وبطليوس وماردة كل قواتهم ، وعبرت حشود عظيمة من الجند البربر إلى الجزيرة ، وكانت هي الأمداد التي وعد بإرسالها المعز بن زيري من المغرب إلى المنصور ، واجتمعت جيوش إفريقية والأندلس والبرتغال المسماة في طليطلة ، فهل كان المنصور يزمع أن يضرب قشتالة التي أتعبته مقاومتها الضربة الأخيرة ؟ لقد تفاهم سانشو أمير قشتالة مع قريبيه ملكي ليون ونافار على التعاون على مقاومة الجيش الإسلامي العظيم ، وأدرك الجميع ضرورة الاتحاد والتحالف . واجتمعت الجيوش النصرانية المتحدة في السهل الواقع جنوب مدينة سرية عند منابع دويرة ، قريباً من مدينة نوماثيا Numacia القديمة ؛ وكان يقود جيوش ليون وجليقية والأسترياس الكونت مندو وصي الملك الطفل ألفونسو الخامس ، ويقود قوات قشتالة ونافار ، كل ملكها .

وقدم المسلمون ، وقد انقسمت قواتهم إلى شطرين ، قوات الأندلس وقوات البربر ؛ وساروا تواء نحو ضفاف نهر دويرة ، حتي التقوا بالنصارى في

(١) وهي بالإسبانية Calatanazor

(٢) Crónica General ; Ibid ; Vol. II. p. 449

مكان يسمى « قلعة النور » . ثم وقعت بين الفريقين مناوشات ختمها مقدم الليل ، وفي فجر اليوم التالي تأهب كل فريق ، وحشد قواته ، واختلط ضجيج المسلمين بصيحات النصارى ، وأصوات الزمار بدوى الطبول . واشتبك الفريقان بعنف ، وأخذ زعماء كل فريق يحث رجاله ويشجعهم . وكان المنصور يثب هنا وهناك كأنه نمر ، وقد شقت فرسانه صفوف القشتاليين ، وساء ما لقي من مقاومة ، فاندفعت قواته إلى الهجوم بعنف ، واستمر القتال تحت جوقاتم من الغبار المتصاعد ، حتى دخل الليل ، فانفصل الجيشان دون أن يكتب النصر لأحدهما .

وأصيب المنصور خلال القتال بجراح عديدة ، فأوى إلى خيمته ، وقد علم أن كثيراً من قادته قتلوا ، وأدرك مبلغ الحسارة الفادحة التي حاقت بجيشه ، فأصدر أوامره قبل الصبح بالارتداد . وعبر نهر دويرة ، وهو على أهبة الحرب حتى لا يفكر النصارى في مطاردته . ثم شعر المنصور خلال السير بالإعياء والخور ، ولم يستطع أن يستمر فوق صهوة جواده لخطورة جراحه ، فحمل في محفة إلى مدينة سالم .

ثم يقول لافونتي : إن بعض مؤرخينا ومنهم ماريانا يحاول أن يرد هذه الواقعة إلى ما قبل ذلك بثلاثة أعوام ، وأنه يوجد منهم من يقرنها بأخطاء ومغامرات خرافية بل مضحكة .

تلك هي خلاصة التفاصيل التي تسبغها الرواية النصرانية على موقعة قلعة النور . ويلاحظ أن هذه الرواية ترجع الموقعة إلى سنة ١٠٠١ م ، وأن المؤرخ يتحدث هنا عن طبقة جديدة من الملوك النصارى ، وهم خلفاء أولئك الذين تزعم الروايات النصرانية الأخرى تحالفهم على قتال المنصور (١) :

وقد حاول بعض الباحثين الإسبان المحدثين ، مثل سافندرا وكوديرا التدليل على صحة هذه الرواية وقبولها . ولكن فريقاً آخر من أقطاب البحث الحديث وفي مقدمتهم دوزى ، يرون بطلان هذه الرواية ، ومخالفتها للحقائق التاريخية الثابتة . ذلك أن برمودو ملك ليون كان قد توفي في سنة ٩٩٩ م ، وتوفي غرسية فرناندز كونت قشتالة في سنة ٩٩٥ م ، وتوفي غرسية سانشيز ملك ناغار في سنة ١٠٠٠ م ،

فكيف تتحدث الرواية هنا عن تحالف الملوك الثلاثة ، وقد ماتوا جميعاً قبل الموقعة المزعومة ؟ هذا ومن جهة أخرى فإن الرواية الإسلامية لا تذكر شيئاً عن هذه الموقعة ، وهي لا تضمن علينا في مواطن كثيرة بالتحدث عن هزائم المسلمين ، وصمتها في هذا الموطن قرينة ، على أنه لم يلك ثمة موقعة ولا هزيمة^(١) . ويعلل مؤرخ إسباني معاصر هو الأستاذ منديث بيدال ، أصل هذه الأسطورة بكونه إنما يرجع إلى ما أحرزه سانشو غرسية كونت قشتالة ، من نجاح جزئي في بعض الوقائع ، وقد حرصت الأساطير القشتالية على تسجيل هذا النجاح ، وعمدت إلى المبالغة فيه شيئاً فشيئاً^(٢) .

وعلى أثر اختتام الغزوة ، ارتد المنصور بجيشه جنوباً ، وقد لحقه الإعياء ، واشتد به المرض ، فترك جواده ، وسار نحو أسبوعين محمولا على محفة ، حتى وصل إلى مدينة سالم ، وهي معقل الثغر المنيع ؛ وكان من أعز أمانى المنصور أن تدركه منيته خلال الغزو ، مجاهداً في سبيل الله ، وكان دائماً يحمل معه أكفانه حينما سار إلى الغزو ، وهي أكفان صنعت من غزل بناته ، واشترت من خالص ماله الموروث . وقد استجاب الله دعاءه ، فما كاد يحل بمدينة سالم ، حتى شعر بدنو أجله ، فاستدعى ولده عبد الملك ، وألقى إليه نصائحه الأخيرة . وفي ليلة الإثنين ٢٧ رمضان سنة ٣٩٢ ، الموافق ١١ أغسطس سنة ١٠٠٢ ، توفي المنصور محمد بن أبي عامر ، ودفن كـرغبته في صحن قصر مدينة سالم ، وذلك لسبعة وعشرين عاماً من حكمه ، وعمره أربعة وستون عاماً ، إذ كان مولده في سنة ٣٢٨ هـ ، ونقش على شاهد قبره هذان البيتان :

آثاره تنبيك عن أخباره حتى كأنك بالعيان تراه
تالله لا يأتي الزمان بمثله أبداً ولا يحصى الثغور سواه^(٣)
ولبت قبر المنصور بمدينة سالم عصوراً ، مزاراً معروفاً ، وذلك بالرغم من

(١) راجع : Dozy : Recherches : Vol. I, p. 198-202 ; Hist. V. II. p. 268

وقد نلخص العلامة المستشرق كوئثال بالانثيا آراء الفريقين في كتابه :
Historia de la Espana Musulmana (4a Ed.) p. 57 & 58

R.M. Pidal : Historia y Epopya p. 21 (٢)

(٣) الحلة السيرة ص ١٥١ .

استيلاء النصارى على المدينة ، منذ أواخر القرن الحادى عشر. ويروى لنا ابن الخطيب ، أنه عهد إلى بعض رسله ممن وجههم إلى قشتالة ، لتأكيد عقد الصلح مع ملكها ، بأن يزور فى طريقه مدينة سالم ، وأن يشاهد قبر المنصور ، وأن هذا الرسول قد أخبره عند عودده ، أن القبر ما يزال قائماً فى مكانه إلا أن رسومه من شعر منقوش ، وتاريخ مثبت ، قد عفت ومحيت آثارها ، وقد كان ذلك فيما يبلو فى وزارة ابن الخطيب الثانية فيما بين سنتى ١٣٦١ و ١٣٧٠ م^(١).

(١) أجمال الأعلام ص ٨١ .

الفصل الثاني

خلال المنصور وما أثره

الناصر والمنصور . المنصور يشق طريقه إلى السلطان . وسائله في ذلك . جيش المنصور وأهباته . شغفه بالجهاد . نتائج غزواته . الصوائف الإسلامية . عقمها وأثرها في إنهاك الجيوش الإسلامية . عبقرية المنصور الإدارية . استقرار الأمن والرخاء في عهده . وزراء المنصور وكتابه . أعماله الإنشائية . توسيعه للمسجد الجامع . تجديد قنطرة قرطبة وإنشاؤه لقنطرة إستجة . جوده وبذله . مفاخرته منشأته المتواضعة . صرامته في إقامة العدل . شغفه بالشراب . براعته العلمية والأدبية . رعايته للعلماء والأدباء . صاعد البغدادي شاعر المنصور . ديوان الندماء . مجالس المنصور الأدبية . شغفه بجمع الكتب . مقتنه للفلسفة والتنجيم . شعره ونثره . وصيته لابنه عبد الملك . وصيته لعلمائه . علائقه الدبلوماسية . مصاهرته لسانشو غرسية ملك قافار . وفود سانشو إلى الزاهرة . عبد الرحمن ولد المنصور وحفيد سانشو . إشادة الروايات الإسلامية بعظمة المنصور وخلالله . إشادة النقد الغربي بعبقريته السياسية والعسكرية .

كان المنصور بن أبي عامر عبقرية فذة ، تمثل ذروة النبوغ الشعبي ، والطموح الفردي ؛ فقد خرج المنصور من صفوف الطبقة الوسطى ، وشق طريقه بساعده وهمتته إلى السلطان والرياسة ، ولم تسعفه في ذلك نشأة ملوكية ، أو انقلاب حنيف ، ولم يكن عزمه في بلوغ ذلك أقل شأنًا من تألق طالعه ، وقد وصل المنصور إلى مرتبة من السلطان والقوة ، لم يصل إليها أحد قبله من أعظم أمراء الأندلس حتى ولا عبد الرحمن الناصر نفسه . ويمكننا أن نقول إنه إذا كان عهد الناصر ألمع صفحة في تاريخ اسبانيا المسلمة ، من النواحي السياسية والحضارية ، فإن عهد المنصور لا يقل عنه لمعانًا وتألقًا ، بل ربما امتاز على عهد الناصر ، بما أحرزته اسبانيا المسلمة خلاله ، من تفوق عظيم في السلطان والقوى العسكرية ، في شبه الجزيرة الإسبانية . فقد استطاعت إسبانيا النصرانية في عهد الناصر ، أن تنهز فرصة الفتن الداخلية بالأندلس ، وأن توطد قواها العسكرية ، وأن تغزو الأندلس غير مرة غزوات مخربة ، وقد لقي الناصر على يد النصاري غير هزيمة فادحة ؛ أما في عهد المنصور ، فقد انتهت اسبانيا النصرانية إلى حالة يرثى لها من التفكك والضعف ، واستمرت زهاء ثلث قرن تتلقى ضربات المسلمين الساحقة

المتوالية . وقد وصل المنصور في غزواته في شبه الجزيرة الإسبانية ، إلى مواطن لم يبلغها فاتح مسلم من قبل .

بدأ المنصور حياته في حلبة العلم والدرس ، ولكن سرعان ما تفتحت مواهبه الإدارية والسياسية ، فجاز مراتب المناصب السلطانية بسرعة ، وظهر في كل منها بفائق كفايته وحزمه . وما كاد يختفى الحكم المستنصر من الميدان ويقوم ولده الطفل هشام في الخلافة ، حتى تبلورت مطامع المنصور ، واتجهت توجهاً إلى غايتها البعيدة ، فكان الصراع مع الفتيان الصقالبة ، ثم مع الحاجب جعفر ، ولم يتح بعد ذلك لأية قوة معارضة أن تقف في سبيله . ولما اجتمعت سائر السلطات في يده ، اتشح بثوب الحاكم المطلق ، الذي لا يطيق أية مشاركة في سلطانه أو أى اعتراض لرأيه ، ولم يدخر وسعاً في أن يخذل أية نزعة للخروج أو الثورة على حكمه . وهنا تبرز النواحي القائمة في عبقرية المنصور ، فنراه يلجأ في تدعيم سلطانه وحمايته إلى نفس الوسائل المكيافيلية التي يلجأ إليها الطغاة دائماً في كل قطر ، وفي كل عصر : إلى القتل ، والغيلة ، والخديعة ، وكل ضروب العنف المثير ، ونراه يسير إلى تحقيق الغاية بأى الوسائل ، ولا يعف في ذلك السبيل عن ظلم يقع ، أو دم يسفك ، حتى ولو كان دم ولده بالذات .

على أن هذه الوسائل المثيرة التي كانت سياجاً لسلطان المنصور ، ودعامة لدولته ، والتي هي دائماً من لوازم الحكم المطلق ، يجب ألا تحول أنظارنا عن حقيقة ناصعة أخرى ، وهي أن المنصور لم يستخدم هذا السلطان إلا لخير دينه ، وخير الأمة التي نصب نفسه حاكماً عليها ، ومشرفاً على مصايرها ؛ ولعل الإسلام في شبه الجزيرة الإسبانية ، لم يظفر قط بمجاهد في بطولة المنصور ، وتفانيه في اللود عن دينه ، وإعلاء كلمته ، ولعل الأندلس لم تر قط مثل المنصور ، زعيماً أخلص في خدمتها ، وكرس جهوده ومواهبه في بناء قوتها وعظمتها ، وسحق عدوها ، وتحقيق أمنها ورخائها .

وقد أدرك المنصور منذ البداية ، أنه يجب لتحقيق سلام الأندلس وأمنها ، وردع الممالك النصرانية عن عدوانها المستمر ، أن يكون للأندلس قوة عسكرية عظيمة ، تكفى لإرهاب عدوها ، وإعزاز دينها ، ومن ثم فقد بذل جهده لإصلاح الجيش الأندلسي ، وتقويته ، وتزويده بأفضل العناصر المحاربة . وقد رأى

المنصور أن يعتمد على البربر بالأخص ، لما كانوا يتصفون به من البداوة والشجاعة ، فاستقدمهم من العدو ، ورغبهم بوفرة البذل والعطاء^(١). وكذلك استخدم المرتزقة من النصارى الإسبان ، ومنحهم الأجور والجزايات السخية ، وكان يجمع في جيشه الكثير منهم ، ومعظمهم من المستعربين ، وكان يحرص على رضائهم بتوسيع النفقة عليهم ، ومعاملتهم بالمساواة والرفق^(٢). واستطاع المنصور بما وضعه للجيش من أنظمة محكمة ، وما أفاض عليه من وافر النفقة والعدد ، أن ينشئ للأندلس قوة عسكرية عظيمة ، لم تعرفها في أية عهد آخر . وكانت هذه القوة فضلاً عن كونها دعامة سلطانه وحكمه ، دعامة الأندلس وأداتها للدفاع والغزو . ونستطيع أن نقدر أهمية الجيش الأندلسي وكفايته أيام المنصور ، متى ذكرنا أن المنصور لبث زهاء ربع قرن ، يقود قواته إلى الغزو المستمر ، في أراضي الممالك النصرانية ، كل ربيع وكل صيف ، وأنه في نفس الوقت كان يبعث الحملات العسكرية العظيمة إلى المغرب ، لتخوض سلسلة من الحروب الطاحنة . وقد بلغ من كثرة قوى الجيش النظامية وكفايتها ، أن أصدر المنصور في سنة ٥٣٨٨ (٩٩٨ م) أمره بإعفاء الناس من إجبارهم على الغزو ، اكتفاء بعدد الجيش المرباط ، وقرأ الخطباء ذلك المرسوم على الناس ، إثر قراءة كتب الفتح ، وعرفوا فيه « بأن من تطوع خيراً ، فهو خير ، ومن خف إليه ، فبرور ومأجور ، ومن ثاقل فعذور »^(٣).

وقد أورد لنا ابن الخطيب (عن التيجاني) بعض الإحصاءات الهامة عن جيش المنصور ، فذكر لنا أن الجيش المرباط (الثابت) بلغ في عهده من الفرسان اثني عشر ألف ومائة فارس من سائر الطبقات ، جميعهم مرتزقون في الديوان ، يصرف لهم السلاح والنفقة والعلوفة . وكان عدد الحرس الخاص ستمائة فارس غير الأتباع . وانتهى عدد الرجال في الجيش المرباط إلى ستة وعشرين ألف راجل . وكان عدد الجيش المرباط يتضاعف وقت الصوائف بما ينضم إليه من صفوف المتطوعة . وقد بلغ عدد الفرسان في بعض الصوائف ستة وأربعين ألفاً ، وكان عدد المشاة يتضاعف كذلك ، وقد يبلغ المائة ألف أو تزيد .

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٧٩٩ و ٧١٥ و ٢١٦ .

(٢) Simonet : Historia de los Mozarabes de Espana (Madrid 1897) p. 630

(٣) أعمال الأعلام ص ٦٨ .

وأورد لنا ابن الخطيب أيضاً بيانات مفصلة عما كان يقتنيه المنصور من عتاق الخيل برسم الجهاد ، ومطايا الركوب ، ودواب الحمل ، وقد بلغت وحدها أربعة آلاف جمل خصصت لحمل الأثقال .

وأما عن عُدّة الحرب ، فقد كان المنصور يحتفظ بكليات عظيمة من الخيام والسهام والدروع ، والتراس ، وعدد من المجانيق وغيرها من آلات الحصار^(١) . وكان المنصور يضطرم شغفاً بالجهاد في سبيل الله ، وكانت غزواته التي زادت على الخمسين ، فضلاً عن كونها عنوان هذا الجهاد المستمر ، ترمى إلى غاية عسكرية وسياسية فطنة ، هي تحطيم قوى اسبانيا النصرانية ، وردعها بذلك عن العدوان على أراضي المسلمين . وقد تحققت هذه الغاية في أواخر عهد المنصور على أكمل وجه . وقد عني مؤرخ الأندلس الكبير ابن حيان — وقد عاش قريباً من ذلك العصر — بتفصيل هذه الغزوات في مؤلف ضخيم سماه « بالملأثر العامرية » واستخرجه من تاريخه الكبير « المقتبس »^(٢) . وكان من نتائج هذه الغزوات أن امتلأت الأندلس في عصر المنصور بالغنائم والسبي من بنات الإيبان وأولادهم ونسائهم ، وتغالى الناس في تجهيز بناتهم بالثياب والحلى والمال ، وذلك لرخص بنات الإفرنج وركود سوق الزواج^(٣) .

وبلغ من شغف المنصور بالجهاد ، أنه كان يتولى القيادة بنفسه في سائر غزواته الصائفة والشتائية ، ولم يقعه شيء عن القيادة ، والإشتراك الفعلي في كثير من المعارك ، حتى أننا نراه في آخر غزواته يتولى القيادة بالرغم من مرضه ، ويسير محمولا على محفة ، ثم يقضى نحيبه عقب الغزو ، بين يدي جنده وفي معقل الثغر ، بعيداً عن قصوره ، ومهاد راحته ونعمائه . وكان يحرص في سائر غزواته ، على أن يستخلص ما يعلق بوجهه أو ثيابه من الغبار ، أثناء المعارك التي يخوضها ، فكان يمسحه بمناديل اجتمعت له منها رزمة كبيرة ، كان يحملها معه دائماً ، حتى

(١) أعمال الأعلام ص ٩٩ و ١٠١ و ١٠٢ .

(٢) جذوة المقتبس للحميدى (للقاهرة ١٩٥٢) ص ٧٤ ، والحلة السيرة ص ١٤٩ ، والمعجب لعبد الواحد المراكشى ص ٢١ . وذكر لنا ابن الخطيب اسم هذا المؤلف كاملاً وهو : « أخبار الدولة العامرية المنسوخة بالفتنة البربرية وما جرى فيها من الأحداث الشنيعة » كما ذكر لنا أنه يحتوي على أكثر من مائة سفر (أعمال الأعلام ص ٩٨) .

(٣) المعجب ص ٢١ .

إذا وافته المنية ضمت إلى أكفانه^١، ودفنت معه تنفيذاً لوصيته^(١).
ومما يؤثر عن علائق المنصور بجيشه ، أنه كان لقوة ذاكرته ، يعرف كثيراً
من جنده بالإسم ، أو يعرف على الأقل كثيراً ممن امتاز منهم خلال المعارك
بالإقدام والشجاعة ، ويدعوهم إلى مائدته في المآدب الكبيرة ، التي اعتاد أن يقيمها
لجنده عقب كل انتصار .

بيد أننا نستطيع أن نلاحظ بعد كل ذلك ، أن سياسة المنصور العسكرية
وغزواته المتوالية المظفرة ، وإن كانت في الأصل تنطوي على غاية عسكرية وسياسية
بعيدة المدى ، هي سحق اسبانيا النصرانية ، لم تؤت ثمارها إلا في حيز ضيق ، هو
ردع اسبانيا النصرانية ، وكف عدوانها عن الأراضي الإسلامية ، ولم تقصد بالفعل
إلى الغاية الحاسمة ، وهي القضاء على قوة اسبانيا النصرانية وتحقيقها بصورة نهائية ،
وهي غاية قصرت سياسة اسبانيا المسلمة عن العمل لها منذ البداية ، ومن ثم فقد
استطاعت الممالك الإسبانية النصرانية ، أن تعيش ، وأن تنمو قواها تبعاً ، وأن
تغلو بمضى الزمن ، مناوئاً خطراً لاسبانيا المسلمة ، يستغرق قواها باستمرار ،
ويشغلها في كفاح مدمر مستمر .

وهنا ، وعلى ضوء هذا الكفاح العقيم الذي استمر أجيالاً بين اسبانيا المسلمة
واسبانيا النصرانية ، لا نرى مندوحة ، من أن نحكم على سياسة الصوائف أو
الغزوات الإسلامية العارضة ، التي كانت تقليداً عسكرياً إسلامياً ، في معظم
الدول الإسلامية المتاخمة للدول النصرانية ، فنقول إنها كانت من الناحية العسكرية
تقوم على أسلوب خاطئ ، وقد كانت تهلك الجيوش الإسلامية بقدر ما تنهك
جيوش العدو ، ولم يكن لها غاية محدودة مستقرة . وليس أدل على ذلك من
تاريخ الصوائف أو الغزوات الإسلامية الموسمية أيام الدولة العباسية في أراضى
الدولة البيزنطية ، فقد كان معظمها حملات غازية تقصد إلى العيث في أرض
العدو ، وإلى إحراز الغنائم المؤقتة الإقليمية وغيرها ، ولم تنجح في تحطيم قوى
الدولة البيزنطية أو سحقها . وقد كان عقم هذه الغزوات العارضة أشد وأوضح في
الأندلس ، حيث لبثت الدولة الأندلسية ، إبان قوتها وتفوقها ، عصوراً ، تقتصر
على الصوائف وما إليها من الغزوات الموسمية برسم الجهاد أو الانتقام من العدو ،

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣١٠ ، والمعجب ص ٢١ .

ونتهك بذلك قوى الحيوش الإسلامية ومواردها بصورة مستمرة ، وذلك دون أن تحقق غاية ثابتة مستقرة ، أو توفق إلى القضاء على القوى الحصيمة بصورة حاسمة . ولقد اجتمعت لاسبانيا المسلمة في عصر المنصور أعظم القوى والموارد العسكرية التي اجتمعت لها في أى عصر سابق أو لاحق ، وكانت هذه القوى الزاخرة ، التي كان رائدها المنصور ، وهو أعظم شخصية سياسية وعسكرية ، أتيح لها أن تقود الأندلس ، وأن تسهر على مصايرها — كانت هذه القوى كفيلة بسحق الممالك الإسبانية النصرانية لو أنها وجهت نحو هذه الغاية توجيهاً صائباً . ويقدر النقد الإسباني الحديث نفسه هذه الحقيقة ، فيقول لنا إن غزوات المنصور ، ودفعه حدود النصراني إلى ما وراء نهر دويرة ، وافتتاحه لقلمرية وسمورة وليون وشنت ياقب وكويانسا وشنت منكش وأوسمة وبرشلونة ، دفع اسبانيا النصرانية إلى حافة الخراب تقريباً ، وقضى هذا البعث لقوة الإسلام على كل أمل في « الإسترداد » .. La Reconquista^(١) ..

ولكن غزوات المنصور على كثرتها ، وعلى ما أسبغ عليها من طابع النصر المستمر ، لم تخرج كثيراً عن حيز الصوائف والغزوات الإسلامية العارضة ، التي تحقق أية غاية مستقرة ثابتة .

وأما عن مقدرة المنصور في الإدارة والحكم ، فإن الكلام فيها حري بأن يطول ، فقد أبدى المنصور طوال حياته كفاية إدارية مدهشة ، وظهر في سائر المناصب التي أسندت إليه ، مذ تولى وكالة هشام ولى العهد ، فأمانة دارالسكة والخزانة ، ثم خطة المواريث ، فخطة القضاء ، ثم الشرطة ، فالإشراف على الحشم والخاص ؛ ظهر فيها جميعاً براعته وحصافته ، وحسن تصريفه ؛ ثم ظهرت هذه المقدرة على أتمها مذ ولى الحجابة ، واستأثر بسائر السلطات ، واحتمل فوق كاهله سائر المسؤوليات الكبرى . فقد غدا المنصور زعيم الأندلس ، وحاكمها الأوحده ، والمشرّف على مصايرها في الحرب والسلام ؛ وقد أبدى المنصور في اضطلاعه بتلك المهمة العظمى ، مقدرة فائقة ، لم يدها أحد من أسلافه . فلم تر الأندلس من قبل استقراراً كالذي رأته في عهد المنصور ، ولم تتمتع قط بمثل ما تمتعت به في عهد المنصور ، من الأمن والطمأنينة والدعة . وكانت أيام المنصور بالأندلس كلها

Simonei : Historia de los Mozarabes de Espana; p. 629 (١)

أيام فخار وظفر ورخاء ورغد ، لم تعان خلالها من غزوات العدو المحرقة ، ولم تصب فيها بأية هزيمة ذات شأن ، ولم تضطرم فيها أية ثورة أو فتنة ؛ وفيها ازدهرت الزراعة والتجارة والصناعة ، وزهت العلوم والآداب ، وعم الحصب والرخاء في جنبات الأندلس ، وفاضت خزائن قرطبة بالإموال ، ووصل محصل الجباية يومئذ إلى أربعة آلاف ألف دينار (أربعة ملايين) سوى رسوم الموارث ، وسوى مال السبي والغنائم ، وما ينتج من المصادرات وأمثالها مما لا يرجع إلى قانون . وكانت النفقات السلطانية تبلغ في الشهر نحو مائتي ألف دينار ، فاذا دخل شهر يونيه ، وحلت الصائفة ، تضاعفت النفقة بسبب الاستعداد للغزو ، ووصلت إلى خمسمائة ألف في الشهر أو أكثر (١).

وكانت حكومة المنصور تضم عدة من أقدر رجالات الأندلس في هذا العصر ما بين وزراء وكتاب . وكان من وزرائه ، أبو مروان عبد الملك بن شهيد ، ومحمد بن جهور ، وعيسى بن فطيس وأبو ، عبدالله بن عياش ، وأحمد بن محمد ابن حدير ، ومحمد بن حفص بن جابر ، وأحمد بن سعيد بن حزم والد الفيلسوف الشهير ، وكان من أقدر وزراء المنصور وآثرهم لديه ، وكان المنصور قد استوزره قبل سائر أصحابه في سنة ٣٨١ هـ ، وبلغ من ثقته به أن كان يستخلفه على المملكة في أوقات معينة ، ويعهد إليه بنخاته ، والظاهر أنه لما بلغ ذروة النفوذ والسلطان ، شمع بأنفه ، وبدرت منه بوادر الدالة والاعتداد ، فتغير عليه المنصور ، وأقصاه عن خدمة الوزارة ، وبعثه إلى كورة الغرب لينظر في شئونها ، ثم عاد بعد قليل فأعاده إلى حسن رأيه ، وردّه إلى منصبه في الوزارة ، وكان ابن حزم من أكابر أهل العلم والبلاغة (٢) . وكان من كتاب المنصور عيسى بن سعيد القطاع ، وهو من أقدم كتابه ، وكان من أنصاره ومعاونيه منذ أيام الحكم ، فبلغ في ظله وتحت كنفه أرفع مكانة ، وكان فوق ذلك من أخصائه وزفائه في مجالس أنسه ترتفع بينهما الكلفة ، وكان منهم ، أبو مروان عبد الملك بن إدريس الخولاني ، وخلف ابن حسين بن حيان والد المؤرخ ، وغيرهم . وكانت هذه الصفوة من الوزراء والكتاب ، الذين ينتمى معظمهم إلى أسر عريقة تعاقب أبناؤها في الوزارة ، مثل آل شهيد ، وآل عبدة ، وآل جهور ، وآل فطيس ، وآل حدير وغيرهم ،

(١) أعمال الأعلام ص ٨٩ .

(٢) كتاب « إمتاع الكتاب » لابن الأهار - مخطوط الإسكوريال - لوحة ٥٣ و ٥٤ .

من حملوا عهد الدولة الأموية ، وعملوا على توطيد دعائمها ، تعمل مع المنصور على تسير دفة الحكم بمقدرة فائقة . وكان من هؤلاء الوزراء من يتصل بالمنصور برباط المودة الشخصية الوثيقة ، ويشاطره شغفه بالشعر والأدب ، ويغشى مجالس أنسه وشرابه ، مثل عبد الملك بن شهيد ، وأبي عبد الله بن عياش ، وعيسى ابن سعيد . هذا وكان ممن اشترك مع المنصور في الحجابة في بداية عهده ، بعد المصحفي ، جعفر بن علي بن حمدون الأندلسي ، والقائد غالب بن عبد الرحمن ، الذي جمع بين القيادة والحجابة حيناً ، وقد رأينا كيف لقي كل منهما مصرعه بعد ذلك على النحو الذي تقدم ذكره (١) .

* * *

ولم يحل انشغال المنصور طوال عهده بالغزو المستمر ، عن القيام بأعمال الإنشاء العظيمة . فقد أنشأ مدينة الزاهرة ، وقصورها المنيفة ، وحدائقها الغناء ، واتخذها كما تقدم مركزاً للإدارة والحكم . ثم ابتنى إلى جانبها منية جميلة ذات قصر وحدائق رائعة ، يرتادها للاستجمام والتنزه ، وسماها «بالعامرية» . وقد كان جمال هاتين الضاحيتين العامريتين ، مستقى للأوصاف الشعرية والنثرية الرائعة . ومما قيل في العامرية أبيات لعمر بن أبي الحباب أنشدها ، وقد دخل يوماً على المنصور بقصر المنية ، والروض قد تفتحت أزهاره :

| | |
|------------------------------|-------------------------------|
| لا يوم كاليوم من أيامك الأول | بالعامرية ذات الماء والظلل |
| هواؤها في جميع الدهر معتدل | طيباً وأن حل فصل غير معتدل |
| ما إن يبالي الذي يحتل ساحتها | بالسعد ألا تحمل الشمس بالحمل |
| كأنما غرست في ساعة وبدا الس | وسان من حينه فيها على عجل (٢) |

وكان من أعظم وأجل أعمال المنصور زيادة المسجد الجامع . وكانت قرطبة قد اتسعت رقعتها اتساعاً عظيماً منذ أيام الناصر ، واضطرد هذا الاتساع في أيام المنصور حتى بلغت مبلغاً عظيماً ، وبلغت أرباض المدينة أعني أحيائها يومئذ .

(١) راجع في ذكر وزراء المنصور : البيان المغرب ج ٢ ص ٢٨٦ و ٢٨٧ و ٢٩٠ و ٢٩٩ ، وأعمال الأعلام ص ٧٠ و ٧٥ و ٨٠ ، ونفع الطيب ج ١ ص ٢٧٤ ، وللخيرة ، القسم الرابع ، المجلد الأول ص ١٧ و ٥٦ .

(٢) راجع بعض هذه القصائد والأوصاف في البيان المغرب ج ٢ ص ٢٩٦ و ٢٩٧ ، ونفع الطيب ج ١ ص ٢٧٢ و ٢٧٣ .

إحدى وعشرين ربضاً « كل ربض فيها يعد أكبر مدينة من مدائن الأندلس » .
وقد ذكر ابن الخطيب لنا أسماءها ومواقعها تفصيلاً ، وبلغ خندقها المحيط بها
ما عدا ناحية النهر سبعة وأربعين ألف وخمسمائة ذراع أى ستة عشر ميلاً^(١) ،
وزاد سكانها في نفس الوقت زيادة كبيرة ، ولاسيما منذ مقدم طوائف البربر
الكثيرة عليها ، في بداية عهد المنصور ، وضاعت رحبات المسجد الجامع برواده ،
ولا سيما في أيام الجمع . فرأى المنصور أن يقيم للجامع من ناحيته الشرقية جناحاً
جديداً ، لأن ناحيته الغربية كانت متصلة بالقصور الملكية . وشرع في إنشاء هذا
الجناح في سنة ٣٨٧ هـ (٩٨٧ م) ، فأقيم بحذاء الجامع من شماله إلى جنوبه ، على
رقعة شاسعة تكاد تعدل مساحته الأصلية ، وزوعيت في إنشائه البساطة والمتانة
قبل الزخرفة ، كما روعي التماثل والمطابقة للصرح القديم ، ونزعت من أجل
ذلك ملكية عدد كبير من الأماكن واللور ، حرص المنصور على أن ينصف
أصحابها فيما يستحقونه من ثمن أو معاوضة . وتضاعف حجم المسجد الجامع بهذه
الزيادة ، وأضحى يحتل رقعة عظيمة شاسعة تبلغ في الطول مائة وثمانين متراً ،
وفي العرض مائة وخمسة وثلاثين متراً . وكان يشغل فيه عدد كبير من الأسرى
النصارى ، الذين أخذوا في مختلف المعارك . وكان المنصور يشترك بنفسه أحياناً
في أعمال البناء . وبلغ عدد سواريه ما بين كبيرة وصغيرة ، ألف وأربعمائة وسبعة
عشرة ، وبنغت ثرياته ما بين صغيرة وكبيرة مائتان وثمانون ، وبلغ عدد المكلفين
بالخدمة به في عهد المنصور ، ما بين أئمة ومقرئين وأمناء ومؤذنين وسدنة وغيرهم
مائة وخمسون شخصاً ، وكان الجامع وما حوله يعتبر وحده ربضاً مستقلاً يتولاه
عريفه وحراسه على حدة^(٢) . وما زال جناح المنصور بمسجد قرطبة الجامع حتى
اليوم ، قائماً بسائر رحابه وعقوده وسواريه ، وذلك بالرغم من تحويل عقوده
الجانبية إلى كنائس وهياكل ، ويعرفه الأثريون « بمسجد المنصور »^(٣) .
وجدد المنصور قنطرة قرطبة القائمة على نهر الوادى الكبير ، وراء المسجد

(١) أعمال الأعلام ص ١٠٣ .

(٢) أعمال الأعلام ص ١٠٣ .

(٣) راجع في زيادة المنصور للمسجد الجامع ، البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠٦ - ٣٠٨ ،
ونفح الطيب ج ١ ص ٢٥٧ . وراجع كتابي « الآثار الأندلسية الباقية » حيث يوصف جامع قرطبة
بحالته الحاضرة تفصيلاً الطبعة الثانية (ص ٢٠ - ٣١) .

الجامع ، وكانت في الأصل قنطرة رومانية ، فجددها السمع بن مالك أمير الأندلس ثم جاء المنصور فجددها ، وأعاد بناءها ، وذلك في سنة ٥٣٧٨ (٩٨٨ م) ، وتم بناؤها في سنة ونصف ، وبلغت النفقة عليها مائة وأربعين ألف دينار ، وعظم بها نفع القرطبيين .

وابتني المنصور كذلك قنطرة لاستجة على نهر شنيل ، فرع الوادي الكبير ، واقتضى إنشاؤها كثيراً من الجهد والنفقة ، ولكنها حققت تسهيلات عظيمة ، في مواصلات قرطبة بالقواعد والولايات الغربية والجنوبية^(١) .

* * *

وكان المنصور ، على الرغم من صرامته ، وما لحأ إليه لتوطيد حكمه من الوسائل المثيرة ، يتسم بصفات عديدة مؤثرة ؛ فقد كان جواداً وافر الجود والبذل ، يصدق صلاته على من يستحقها من العاملين معه والمتصلين به ، وعلى الفقراء وذوي الحاجات ، وله في ذلك حكايات كثيرة .

وكان يفاخر بنشأته المتواضعة ، ويقلل من شأن نفسه . وذكر المؤرخ ابن حيان في كتابه في «أنخبار الدولة العامرية» عن والده خلف بن حيان كاتب المنصور ، أن المنصور لامه ذات يوم لأمر من الأمور ، فبدأ عليه الفزع ، فأشفق عليه المنصور وهدأ من روعه ، ثم خلا به بعد أيام وقال له : « رأيت من ذعرك ما استنكرت ، ومن وثق بالله برئ من الحول ، والقوة لله ، وإنما أنا آلة من آلاته أسطو بقدرته ، وأعمل عن إذنه ، ولا أملك لنفسي إلا ما أملك ، ... فطأ من جأشك ، فلنأنا أنا ابن امرأة من تميم طالما تقوت بثمر غزلها ، أغدوبه إلى السوق ، وأنا أفرح الناس بمكانه ، ثم جاء من أمر الله ما تراه ، ومن أنا عند الله لولا عطفي على المستضعف المظلوم ، وسيري لجهاد الطاغية »^(٢) .

وكان ورعاً ، شديد الإيمان واليقين ، يخشى ربه ، ويزدجر إذا ذكر الله وعقابه . وكانت هذه أعجب الخلال في رجل كالمنصور ، لم يعف عن سفك الدماء في سبيل تحقيق أطماعه . ولكنها حقيقة تنوه بها الرواية الإسلامية وتؤكددها ، ومن دلائلها أن المنصور ، كان يحمل معه في سائر غزواته وأسفاره مصحفاً

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠٩ ، ونفع الطيب ج ١ ص ١٩١ ، وأعمال الأعلام ص ٧٦ .

(٢) إعتاب الكتاب لابن الأبار - مخطوط الإسكوريال - لوحة ٥٦ .

خطه بيده ، يقرأ فيه ويتبرك به في كل مناسبة^(١). وكذلك تنوه الرواية بعدالة المنصور ، وصرايمته في إحقاق الحق ، والانتصاف لذوى المظالم . وقد أورد لنا صاحب البيان المغرب عدة أمثلة رفعت فيها الظلامات إلى المنصور ضد بعض أكابر خدمه وحاشيته ، ممن كانوا يظنون أن مراكزهم تحميهم من إجراء العدالة ، فأمر المنصور بالانتصاف منهم لذوى الظلامات . وكان يقرن بهذه الصفة ، خلة محمودة أخرى ، هي تدرعه بالحلم والصبر ، وضبط النفس في أمور كثيرة ، وذلك بالرغم مما كان عليه من الهيبة والرغبة والسلطان^(٢) ، ولكن الرواية تنعى على المنصور خلة سيئة ، هي شغفه بمعاقرة الخمر ، وقد لازمته هذه الرذيلة طوال حياته ، ولم يقلع عنها إلا قبل وفاته بعامين . ويصف لنا ابن الخطيب كيف كان المنصور يصل في العمل يومه بليله ، وهو عاكف على الشراب ، في تلك الفقرة البليغة : « وكانت الخزاة والرجولة ثوبه الذي لم تخلعه ، إلى أن وصل إلى ربه ، والحزم والحذر شعاره الذي لم يفارقه طول حياته ، والنصب والسهو شأنه في يومه وليله ، لا يفضل لذة على تدبيره ، وحلاوة نهيه وأمره ، فينفذ الأمور ، والكأس تدور ، والجبال للطرب تمور »^(٣).

* * *

بقيت من خلال المنصور ناحية ربما كانت ألمع خلاله جميعاً ، وتلك هي الناحية العلمية .

نشأ المنصور حسباً رأينا في بيت علم وأدب ، ودرس وفقاً لتقاليد أسرته دراسة حسنة ، وبرع في الشريعة والأدب ، وكان حرياً به أن يتبوأ مكانه بين علماء عصره ، لولا أن شاعت الأقذار أن تدفع به إلى معترك السياسة والسلطان . على أن المنصور لبث بالرغم من مشاغل هذا المعترك السياسي الخضم ، يحتفظ طول حياته بشغفه بالعلم والأدب ، ويوثق صلاته بالعلماء والأدباء والشعراء ويؤثرهم بحبه وعطفه ، ويجمعهم حوله في أوقات فراغه وسويعات لهوة وأنسه ، ويساجلهم بالبحث والمناظرة ، ويطارحهم قرض الشعر ، ذلك لأن المنصور كان شاعراً أيضاً ، وله نظم حسن سوف نورد شيئاً منه .

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٣٠٩ و ٣١٠ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٤٧ .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٣١٠ - ٣١٢ ، والحلة السيرة ص ١٥١ .

(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ٣١٠ ، وأعمال الأعلام ص ٧٥ .

وكان من أخص جلسائه الأدباء ، الكاتب البغدادي ، أبو العلا صاعده ابن الحسن . وكان قد وفد من المشرق على الأندلس سنة ٣٨٠ هـ ، والمنصور في أوج سلطانه ، فأراد المنصور أن يجعل منه قريناً لأبي علي القالي ، الوافد من قبل على الناصر والحكم ، فقربه وأذن له أن يجلس بجامع مدينة الزاهرة ، يملئ كتابه المسمى « بالفصوص » على أدباء قرطبة ، وهو كتاب في الآداب والأخبار والأشعار ، ولكن أدباء قرطبة أنكروا ما ورد فيه ، وكذبوه في كثير مما يلقيه ، وفضحوا كثيراً من سرقاته الأدبية والشعرية^(١). ومع ذلك فقد كان صاعده أديباً بارعاً ، خفيف الروح ، متوقد الذهن ، حاضر البديهة ، وكان يأتي بكثير من غريب الشعر بداهة ، فأعجب به المنصور ، وأولاه رعايته ، وألحقه بديوان الندماء ، وأجرى عليه راتباً حسناً ، وكان بهذا الديوان بعض أدباء العصر مثل زيادة الله بن مضر الطنبلي ، وابن العريف ، وابن التياني ، وغيرهم . وغدا صاعده شاعر المنصور ينظم له المدائح والطرث ، ويصطحبه المنصور في نزهاته برياض الزاهرة ، وينظمه في مجالس أدبه وأنسه . وقد أورد لنا ابن بسام وصفاً مسهباً لهذه المجالس الأدبية ، التي يجتمع فيها المنصور بخلائه وندمائهم ومنهم صاعده ، وأورد لنا كثيراً مما قيل فيها من النظم . وقد كان بعض الفتيان الصقلية من بطانة المنصور ، يأخذ بقسط حسن من الشعر والأدب ، ويغشى مجالس المنصور الأدبية ويشترك في المطارحات الشعرية ، وكان من أشهرهم الفتى فائن ، وكان من أبرع العارفين منهم باللغة والأدب . وقد كان للفتيان الصقلية في الواقع تراث من الشعر والأدب ، واشتهروا بذلك أيام المنصور خاصة ، وأصدر أحدهم في ذلك كتاباً سماه « الإستظهار والمغالبة على من أنكروا فضل الصقلية » ، ضمنه كثيراً من أشعارهم ونوادر أخبارهم^(٢).

ولبت صاعده على مكانته حتى وفاة المنصور ، ومن بعده حتى نهاية الدولة العامرية ، ثم أفل نجمه بعد ذلك ، وساءت أحواله عند ظهور الفتنة ، فغادر الأندلس متخفياً في سنة ٤٠٣ هـ ، وبجاز البحر إلى صقلية ، واتصل بأميرها فأولاه رعايته ، وحسنت حاله ، وكانت وفاته بها في سنة ٤١٠ هـ .

(١) الصلة لابن بشكوال (طبعة القاهرة) رقم ٤٠ .

(٢) راجع الذخيرة . القسم الرابع المجلد الأول ص ٧ - ٢٢ ، والمعجب ص ١٦ و ١٧ .

وكان للمنصور ، فضلاً عن مجالس الأدب والأنس العابرة ، مجلس أسبوعي يعقده للبحث والمناظرة ، ويشهده كثير من العلماء والأدباء^(١) . وكان في غزواته يستصحب بعض العلماء والأدباء من أصدقائه ، إذ كان شغف البحث والمناظرة ، يلزمه دائماً حتى في ميدان الحرب ؛ وإلى جانب هذا الشغف الشخصي بالحياة العقلية ، كان المنصور مولعاً بالعمل على نشر العلم والمعرفة بين طبقات الشعب ، فأنشأ كثيراً من دور العلم بقروطة ، وبالغ في الإنفاق عليها ، وكان يزور المدارس والمساجد ، ويجالس الطلاب أحياناً ، ويمنح المكافآت النفيسة لمن يستحقها .

وإلى جانب هذا الشغف بالآداب والعلوم ونشر الحياة العقلية ، كان المنصور يشغف أيضاً بجمع الكتب ، وكان أكابر المؤلفين يهدون إليه كتبهم ، على نحو ما كان متبعاً أيام الحكم ، ومن ذلك أن صاعداً البغدادي أهدى إليه كتاب « الفصوص » المتقدم ذكره ، فأثابه عنه بخمسمائة دينار^(٢) .

وكان المنصور يمتد الفلسفة وما إليها ، ويرى أنها مخالفة للدين ، ويكره التنجيم والمنجمين ، وقد أمر بأن يستخرج من المكتبة الأموية العظيمة (مكتبة الحكم المستنصر) سائر كتب الفلاسفة والدهريين ، وأن تحرق بمحض من كبار العلماء ، وفي مقدمتهم أبو العباس بن ذكوان ، وأبو بكر الزبيدي ، والأصيلي وغيرهم ، وكان ذلك بلا ريب عملاً غير موفق ، وكان خسارة علمية فادحة . وينعى المستشرق سيمونيت على المنصور هذا التصرف ، فيقول : إنه إذا كان الحكم الثاني قد استطاع لنزعته العلمية والأدبية أن يحمي الفلاسفة ، فقد جاء المنصور من بعده فقام بحرق كتب الفلسفة التي كانت بمكتبة الحكم ، وذلك لكي يرضى الفقهاء والدهماء^(٣) . واشتد المنصور أيضاً في مطاردة المنجمين ، وبلغه أن أحدهم وهو محمد بن أبي جمعة ، يهجس في تنبؤاته بانقراض دولته ، فأمر بقطع لسانه وقتله ، فخربت ألسن المنجمين جميعاً^(٤) .

(١) راجع جلدوة المقتبس للحميدى ص ٧٣ ، والمعجب ص ٢٠ .

(٢) الصلة لابن بشكوال رقم ٤٠ .

(٣) Simonet : Historia de los Mozarabes de Espana ; p. 351

(٤) البيان المغرب ج ٣ ص ٣١٥ ، وأعمال الأعلام ص ٧٧ .

وللمنصور شعر جيد ، نظمه في مختلف مناسبات حياته ، ومن ذلك قوله في الفخر :

| | |
|------------------------------------|-----------------------------|
| رميت بنفسى هول كل عزيمة | وخاطرت والحر الكريم يخاطر |
| وما صاحبي إلا جنان مشيع | وأسمر خطى وأبيض باتر |
| وإني لزجاء الحيوش إلى الوغى | أسود تلاقبها أسود خواد |
| فسدت بنفسى أهل كل سيادة | وفاخرت حتى لم أجد من أفاخر |
| وما شدت بنياناً ولكن زيادة | على ما بنى عبد المليك وعامر |
| رفعنا العوالى بالعوالى مثلها | وأورثناها في القديم معافر |
| وقوله يتهدد الفاطميين بمصر ، ويمنى | نفسه بفتح مصر والشام : |
| منع العين أن تلوق المناما | حبا أن ترى الصفاء والمقام |
| لى ديون بالشرق عند أناس | قد أدخلوا بالمشعرين الحراما |
| إن قضبوها نالوا الأمانى وإلا | جعلوا دونها رقاباً وهاماً |
| عن قريب ترى خيول هشام | يلبغ النيل خطوها والشاماً |

وأما عن نثر المنصور ، فقد رأينا أن نورد نموذجاً له ، وصيته لولده عبدالملك حينما حضرته الوفاة ، وقد نقلها إلينا ابن حيان عن أبيه خلف بن حسين ، وهذا نصها :

« يا بنى : لست تجد أنصح لك ، ولا أشفق عليك منى ، فلا تعدّين وصيتى ، فقد جردت لك رأيى ورويتى ، على حين اجتماع من ذهنى ، فاجعلها مثالا بين عيّنك . وقد وطأت لك مهاد الدولة ، وعدلت لك طبقات أوليائها ، وغايرت لك بين دخل المملكة وخرجها ، واستكثرت لك من أطعمتها وعددها ، وخلفت لك جباية تزيد على ما ينوبك بلحيشك ونفقتك ، فلا تطلق يدك في الإنفاق ، ولا تقيض لظلمة العمال ، فيختل أمرك سريعاً ، فكل سرف راجع إلى اختلال لا محالة ، فاقصد في أمرك جهدك ، واستثبت فيما يرفع أهل السعاية إليك ، والرعية قد استقصيت لك تقويمها ، وأعظم منها أن تأمن البادرة ، وتسكن إلى لن الحنية . وصاحب القصر قد علمت مذهبه ، وأنه لا يأتيك من قبله شيء تكرهه ، والآفة ممن يتولاه ويلتمس الوثوب باسمه ، فلا تنم عن هذه الطائفة جملة ، ولا ترفع عنها سوء ظن وتهمة ، وعاجل بها من خفته على أقل بادرة ، مع

قيامك بأسباب صاحب القصر على أتم وجه . فليس لك ولا لأصحابك شيء يقيم الخنث في يمين البيعة ، إلا ما تقيمه لوليها من هذه النفقة ، فأما الانفراد بالتدبير دونه ، مع ما بلوته من جهله وعجزه عنه ، فلاني أرجو أني وإياك منه في سعة ما تمسكنا بالكتاب والسنة . والمال المخزون عند والدتك ، هو ذخيرة مملكتك وعدة لحاجة تنزل بك ، فأقمه مقام الخارحة من جوارحك التي لا تبدلها إلا عند الشدة ، تخاف منها على سائر جسديك . ومادة الخراج غير منقطعة عنك بالحالة المعتدلة . وأخوك عبد الرحمن قد صيرت إليه في حياتي ما رجوت أني قد خرجت له فيه عن حقه من ميراثي ، وأخرجته عن ولاية الثغر ، لئلا يجد العدو مساعاً بينكما في خلاف وصيتي ، فيسرع ذلك في نقض أمري ، ويجلب الفاقة على دولتي . وقد كفيتك الحيرة فيه ، فأكفه الحيف منك عليه ، وكذلك سائر أهلك فيما صنعت فيهم ، بحسب مما قدرت به خلاص من مال الله الذي في يدي . وخلافتك بعدى أجدي عليهم مما صرفته ، فلا تضيع أمر جميعهم ، والحظهم بعيني فلانك أبوهم بعدى . فان انتقادت لك الأمور بالحضرة فهذا وجه العمل ، وسبيل السيرة ، وإن اعتاصت عليك ، فلا تلقين بيدك إلقاء الأمة ، ولا تبطر بك وأصحابك السلامة ، فتنسوا مالكم في نفوس بني أمية وشيعتهم بقرطبة . فإن قاومت من توثب عليك منهم ، فلا تذهل عن الحزم فيهم ، وإن خفت الضعف فانتبد بخاصتك وغلماذك ، إلى بعض الأطراف التي حصنتها لك ، واختبر غذك إن أنكرت يومك . وإياك أن تضع يدك في يد مرواني ما طوعتك بنانك ، فلاني أعرف ذنبي إليهم .

وهذه وصيته لغلماذه نقلها إلينا أيضاً ابن حيان عن أبيه :

«تنبهوا لأمركم واحفظوا نعمة الله عليكم ، في طاعة عبد الملك أخيك ومولاكم ولا تغرنكم بوارق بني أمية ومواعيد من يطلب منهم شتاتكم ، وقدروا ما في قلوبهم وقلوب شيعتهم بقرطبة من الحقد عليكم ، فليس برأسكم بعدى أشفق عليكم من ولدي . وملاك أمركم أن تنسوا الأحقاد ، وأن تكون جماعتكم كرجل واحد ، فإنه لا يقل فيكم» (١) .

(١) نقل إلينا ابن بسام (عن ابن حيان) هذين النصين في الذخيرة . القسم الرابع المجلد الأول ص ٥٦ - ٥٨ . ونقلهما ابن الخطيب أيضاً في أعمال الأعلام ص ٨١ و ٨٢ .

وفي وصية المنصور لولده وغلمايه ، يرسم برنامج سياسته كلها ، وتبدو بالأخص نواحي توجسه وتخوفه ، فهو لم يكن يأمن بجانب بني أمية قط ، وقد لبث يتوقع الشر منهم حتى وفاته . ثم توفي وهو يتوقع الشر منهم لبنيه ودولته ، وقد كان المنصور في ذلك صائب التقدير ، بعيد النظر .

* * *

هذا وأما علائق المنصور الدبلوماسية فإنه لم يتح له عقد الكثير منها ، ولم تقد إليه سفارات من ملوك النصارى على نحو ما حدث أيام الناصر والحكم المستنصر . ذلك لأن عهد المنصور كان كله عهد حروب مستمرة ، بين الأندلس وبين اسبانيا النصرانية ، ولم يقع بين الفريقين تهدن أو سلم طويل الأمد . وكل ما نستطيع أن نسجله من ذلك حادثان متشابهان ، أولهما قدوم برمودو الثاني ملك ليون إلى قرطبة في سنة ٩٨٥ م ، مستجيراً بالمنصور ليعاونه على مقاومة الأشراف الخارجين عليه وتوطيد عرشه . وقد أجابه المنصور إلى طلبه وبادر بمعاونته . ومما هو جدير بالذكر أن برمودو قدم ابنته تريسا Teresa بعد ذلك إلى المنصور عروساً له ، فقبلها المنصور وتزوجها أو اتخذها سرية له (١) .

والثاني ، وهو من أشهر الحوادث الشائقة التي وقعت أيام المنصور ، هو مقدم سانشو غرسية ملك ناغار على المنصور ، معتذراً إليه ، لائثاً بعفوه ومهادنته ، والوجه الشائق في ذلك هو أن سانشو غرسية هذا كان صهرراً للمنصور ، وكان تقرباً من المنصور ، واكتساباً لمودته قد قدم ابنته عروساً إليه (٩٨١ م) فتزوجها المنصور ، واعتنقت الإسلام ، وسميت باسم « عبدة » ، وكانت من أحظى نسائه لديه ، ورزق منها بولده عبد الرحمن الذي سمي أيضاً « شنجول » أو « سانشول » أي شانيجه (سانشو) الصغير نسبة لجدده ملك ناغار . ثم ساءت العلائق بين المنصور وصهره ، وتابع المنصور غزو ناغار مرة بعد مرة ، حتى اضطر سانشو إلى طلب الصلح ، وسار إلى قرطبة مستصرخاً المنصور ولائثاً بعفوه . ووصل سانشو إلى قرطبة في الثالث من رجب سنة ٣٨٢ هـ (٤ سبتمبر سنة ٩٩٢ م) فسر المنصور بمقدمه سروراً عظيماً ، وبعث القواد والكبراء وطوائف الخند في موكب فخيم ، وعلى رأسهم ولده عبد الرحمن وهو طفل في مهده ، لاستقباله ومرافقته

إلى قصر الزاهرة ، فلما وقعت عين سانشو على حفيده ، ترجل وقبل يده ورجله ، ثم رافق الركب إلى الزاهرة ، وقد اصطفت الجند على طول الطريق في صفوف كثيفة زاهية كاملة السلاح والعدة ، واصطف الوصفاء والصقالب من باب القصر إلى الداخل صفين . وسار سانشو ، وقد بهره كل ما رأى ، حتى وصل إلى مجلس المنصور في عصر ذلك اليوم ، وقد جلس المنصور في هيئة فخمة ، ومن حوله الوزراء وأعظم رجال الدولة ؛ فلما أبصره سانشو هوى إلى الأرض فقبلها مرات متوالية ، ثم قبل يدي المنصور ورجليه ، فأمره بالجلوس على كرسي مذهب خصص له ، ثم انصرف الناس واحتل الملك النصراني بالمنصور ، وأفضى كل إلى صاحبه بما أراد ، ثم خرج سانشو وفي أثره الخلع السلطانية ، وما انفض المجلس إلا عند دخول الليل .

وكان مقدم سانشو غرسية إلى قرطبة ، واستقبله بها ، من أيام الأندلس المشهودة ، وقد أعاد بروعته وما اقترن به من مغزى عميق بظفر الإسلام على أعدائه ، ذكرى أيام الناصر في وفود الملوك النصاري عليه ، ملتسبين منه الصلح والمودة^(١) ؛

• • •

وقد أجمعت الرواية الإسلامية ، الأندلسية والمشرقية ، على الإشادة بخلال المنصور وبأبهر صفاته . وهي جميعاً سواء أوجزت القول أو أفاضت ، ثم عن عميق التقدير والإعجاب : ثم هي مع ذلك لم تغفل التنويه بالجوانب القائمة في تلك العبقرية الفذة ، على أنها على العموم أكثر ميلاً إلى إبراز محاسن المنصور ومواهبه ، والإشادة بما أسبغته على الأمة الأندلسية من ضروب العظمة والبهاء .

قال ابن الأثير يصف المنصور : « وكان شجاعاً ، قوى النفس ، حسن التدبير ، وكان عالماً محباً للعلماء ، يكثر مجالستهم وينظرهم ، وقد أكثر العلماء ذكر مناقبه ، وصنفوا لها تصانيف كثيرة »^(٢) . وقال ابن خلدون : « وكان ذا عقل ورأى وشجاعة ، وبصر بالحروب ، ودين متين »^(٣) . ويصفه الفتح ابن خاقان في «المطمح» في تلك العبارات الشعرية : « وكان أمضاهم (يعنى من

(١) أورد لنا ابن الخطيب في «أعمال الأعلام» وصفاً شائقاً لهذا الحادث . ص ٧٦ و٧٣ و٧٤ .

(٢) ابن الأثير ج ٩ ص ٦١ .

(٣) ابن خلدون - ٤ ص ١٤٧ .

تقدمه) وأذكاهم جنائاً ، وأتمهم جلالاً ، وأعظمهم استقلالاً . قام بتدبير الخلافة ، وأقعد من كان له فيها إناقة . وساس الأمور أحسن سياسة ، وداس الخطوب بأحسن دياسة ، فانتظمت له الممالك ، واتضحت به المسالك ، وانتشر الأمن في كل طريق ، واستشعر اليمن كل فريق . وملك الأندلس بضعا وعشرين حجة ، لم تدحض لسعادتها حجة ، ولم تزخر لمكروه بها لجة ، وكانت أيامه أحمد أيام ، وسهام بأسه أشد سهام ^(١) .

ويجمل ابن حيان حياة المنصور في تلك الفقرة : « وامثل رسم المتغلبين على سلطان ولد العباس بالمشرق من أمراء الديلم في عصره . فنال بغيته ، وتها معيشته ، وأورثه عقبه بعده ، عن غير اقتدار عليه ، بجند خاص ، ولا صيال بعشيرة ، ولا مكابرة بمال وعدة ، بل رمى الدولة من كنانها ، وعدا عليها بأعضادها ، وانتضلها بمشاقصها ، وأنفق على ضبطها أموالها وعددها ، حتى حولها إليه وسبكها في قالبه ، وسلخ رجالها برجاله ، وعفى رسومها بما أوضح من رسومه ^(٢) .

هذا ، وقد أشاد ابن الخطيب بخلال المنصور في مواطن وفقرات عديدة نقتطف منها ما يلي :

قال مشيراً إلى ولاية هشام : « فاستقر الأمر لهشام ، يكتفه الحاجب المنصور أسعد أهل الأندلس مولداً ، وأشهرهم بأساً ونداءً ، وأبعدهم في حسن الذكر مداً ، الحازم العازم ، العظيم السياسة ، الشديد الصلابة ، القوى المنة ، الثبت الموقف ، معود الإقبال ، ومبلغ الآمال ، الذي صحبته ألطاف الله الخفية في الأزمات ، واضطرد له النصر العزيز في نحو سبع وخمسين من الغزوات ، ولم تفارقه السعادة حالتي المحيا والممات » .

وقال : « فقد أجمع الشيعة أنه نهض بجدا لا كفاء له ، وأصعب سعداً لا نحس بخالطه ، وأعطى إقبالا لا إدبار معه ، قد وثق بذلك فلم يلتفت إلى غيره ... » وكان مهيباً وقوراً ، فإذا خلا كان أحسن الناس مجلساً ، وأبرهم بمن يحضر منادماً وموانساً ، وكان شديد القلق من التبسط عليه ، والدالة ، والامتنان ،

(١) نقله البيان المغرب ج ٢ ص ٢٩٢ ، والمقرى في نفع الطيب ج ١ ص ١٨٩ .

(٢) نقله صاحب الذخيرة . القم الرابع المجلد الأول ص ٤٣ .

لا يغفرها زلة ، ولا يحلم عنها جريرة ، ولم يكن يسامح في نقصان الهيبة ، وحفظ الطاعة أحداً ، من ولد ولا ذى خاصة ، دعاه ذلك إلى قتل ولده عبد الله صبراً بالسيف بما هو معروف .

« وكانت الخزالة والرجولة ، ثوبه الذى لم يخلعه ، إلى أن وصل إلى ربه ، والحزم والحذر شعاره ، الذى لم يفارقه طول حياته ، والنصب والسهر شأنه في يومه وليله ، لا يفضل لذة على لذة تدبيره ، وحلاوة نهيه وأمره » (١) .

ولم يكن النقد الغربى أقل تقديراً لعظمة المنصور ، وقد أشاد بعبقريته ومواهبه كثير من المؤرخين والنقّدة الغربيين ، وهذه نماذج من أقوالهم :

قال المؤرخ الإسباني اليسوعى ماسديه مشيراً إلى المنصور : « وكان سياسياً كبيراً ، وقائداً عظيماً ، فقد أخذ نار الثورات التى كانت تعصف بالملكة ، واكتسب حب الشعب بجميع طبقاته ، وتفوق في شهرته وهيئته على أكبر القواد ، بما اجتمع في أحكامه من الصرامة واللين والقصاص والعفو ، وكان يهدم المدن التى تقاوم جيوشه ويبنيها ، ولكنه لم يسمح قط لجنده بأن تسيء معاملة مدينة سلمت طوعاً » (٢) .

ويقول المؤرخ الإسباني المعاصر الأستاذ منتديث بيدال معلقاً على عصر المنصور : « عاش الإسلام في اسبانيا أروع أيامه وأسطعها ، وانتهى نصارى الشمال إلى حالة دفاع كانت دائماً مقرونة بالحن ، ولاح كأنهم لم يعيشوا إلا لتأدية الجزية والسلاح والأسرى والمجد للخلافة الأموية » (٣) .

ويلاحظ الأستاذ بيدال في نفس الوقت أن عبقرية المنصور العسكرية والسياسية كانت من عوامل القضاء على الروح القومية النصرانية المستعربة ، وذلك لما أغدقه المنصور من عطفه ورعايته على كثير من النصارى والمستعربين (٤) .

ويختتم العلامة دوزى كلامه عن المنصور بالفقرة الآتية : « وعلى الحملة ، فإذا وجب أن نستنكر الوسائل التى لجأ إليها المنصور في اغتصاب السلطة ، فمن

(١) راجع أعمال الأعلام ص ٥٨ و ٧٤ و ٧٥ .

(٢) J. F. Masdeu : Historia critica de Espana y de la Cultura Espanola

R. M. Pidal : La Espana del Cld, p. 72 (٣)

R. M. Pidal : Origenes del Espanol, p. 423 (٤)

الواجب أيضاً أن نترف بأنه استخدمها بطريقة شريفة . وما كنا لنسرف في لومه لو أن القدر خلقه على أريكة العرش ، ولعله كان يعتبر عندئذ من أعظم الملوك الذين عرفهم التاريخ . ولكنه خلق في القرية ، واضطر لتحقيق أطباعه ، أن يشق لنفسه طريقاً تكتنفه آلاف الصعاب . ومن الأسف أنه من أجل تذليلها ، قلما راعى شرعية الوسطة . لقد كان المنصور رجلاً عظيماً من وجوه كثيرة ، ولكن يستحيل علينا ، متى رجعنا إلى مبادئ الأخلاق الخالدة أن نحبه ، ومن الصعب أن نعجب به « (١) .

الفصل الثالث

الممالك النصرانية الإسبانية

خلال القرن العاشر الميلادي

تهوى اسبانيا النصرانية في عهد الفتنة الأندلسية . وفاة أردونيو الثاني . الحرب الأهلية في ليون . استقرار راميرو في الملك . ولاية قشتالة . جهادها في سبيل الاستقلال . الكونت فرنان كوثالث . ثورته ضد راميرو الثاني . هزيمته وأسره . ثورة قشتالة . الإفراج عن الكونت . طاعته لملك ليون . استمراره في العمل لاستقلال قشتالة . وفاة راميرو . الحرب الأهلية بين ولديه أردونيو وسانشو . معاونة فرنان كوثالث لسانشو . انتصار أردونيو وفوزه بالملك . يعقد الصلح مع الناصر . وفاته وجلوس سانشو . موقف فرنان كوثالث . اضطراب الأحوال في ليون . فرار سانشو وجلوس أردونيو الرابع . التجاء سانشو وجدته طوطة إلى الناصر . سانشو يسترد العرش بمعاونة الناصر . نكثه لمهودة . فرنان كوثالث يعلن استقلال قشتالة . التجاء أردونيو إلى الحكم . اتحاد الأمراء النصراني . غزو الحكم لقشتالة وناثار . اضطرارهما لعقد الصلح . بداية الكفاح بين قشتالة والمملكة الإسلامية . الحكم يأذن بنقل رفات القديس بلايو . الثورة في جليقية . مصرع سانشو وجلوس ولده راميرو . وفاة فرنان كوثالث وصفاته . وفود الأمراء النصراني وسفاراتهم على قرطبة . حدوان النصراني على أراضي المسلمين وردمهم . النزاع بين راميرو وبرمودو على العرش . تدخل المنصور في ذلك . غزو المنصور لثنت ياقب . برمودو يلتصم الصلح . وفاته وجلوس ولده ألفونسو . ملكة ناثار . غرسية سانشيز وأمه طوطة . ولده سانشو غرسية . غزو المنصور لناثار . وفاة سانشو وجلوس ولده غرسية سانشيز . ولده سانشو الكبير . عناصر المجتمع في اسبانيا النصرانية . طبقة الأشراف والفرسان والملوك والزراع الأحرار . طبقة الأرقاء . رقيق الفضياع . التنظيم السياسي للمملكة النصرانية . السلطة الملكية . الأشراف . القضاء واشتراك الأشراف في مزاولة . رجال الدين وسلطانهم الإقطاعي . مقارنة بين هذا النظام ونظام المملكة الإسلامية .

لما بلغت الثورات والفتن الداخلية بالأندلس ، ذروتها في النصف الأخير ، من القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) ، فيما اصطلح على تسميته بالفتنة الكبرى ، وبددت قوى الأندلس ومواردها في ذلك الصراع الداخلي المدمر ، أخذت اسبانيا النصرانية ، وقد أمنت شر الغزوات الإسلامية طوال هذه الفترة ، تتنفس الصعداء ، فاشتد ساعدها ، ونمت مواردها ، وتوطدت حكوماتها . ولم تأت فاتحة القرن العاشر الميلادي ، حتى كانت مملكة ليون ، التي خلفت مملكة جليقية ، وبسطت سلطانها على ولاية قشتالة ، في أواسط اسبانيا الشمالية ، قد

بلغت مستوى من القوة والبأس ، يتيح لها أن تخوض مع المملكة الإسلامية صراعاً عنيفاً .

وقد رأينا كيف بلغ هذا الصراع ذروته في عهد الناصر ، وكيف أنه بالرغم مما حققه الناصر من إخماد الفتنة ، وإحياء قوة الأندلس ، استطاع النصارى بقيادة ملكهم أوردونيو الثانى ، أن يحرزوا على المسلمين نصرهم الخطير ، فى موقعة شنت إشتين فى سنة ٩١٧ م .

وكانت موقعة شنت إشتين ، وما تلاها من تكرر غزو النصارى للأراضي الإسلامية ، نذيراً خطيراً للحكومة قرطبة . ولكن وفاة أوردونيو الثانى فى سنة ٩٢٥ م وضع حداً مؤقتاً لتلك الفورة القومية ، التى جاشت بها اسبانيا النصرانية . ذلك أن أخاه وخلفه فرويلا ، لم يحكم سوى عام واحد ، ثم توفى ، فاضطرم النزاع على العرش بين سانشو ألفونسو ولدى أوردونيو ، وانتهى بأن فاز ألفونسو بالعرش بمعاونة صهره وحميه سانشو ملك ناغار . ولكن سانشو لم يأس ، فجمع جيشاً جديداً ، وتوج نفسه ملكاً فى شنت ياقب فى أقاصى جليقية ، ثم زحف على ليون فحاصرها واستولى عليها ، وارتقى العرش مكان أخيه . فعاد ملك ناغار إلى مؤازرة ألفونسو ومعاونته ، حتى استطاع أن يهزم أخاه ، وأن يستولى على مدينة ليون مرة أخرى . بيد أن أخاه سانشو لبث محتفظاً بجليقية ، مصراً على دعواه فى الملك .

واستمرت الحرب الأهلية بين النصارى أعواماً ، وانتهى طورها الأول ، حينما توفى سانشو ابن أوردونيو فى سنة ٩٢٩ م ، واستقر الملك لأخيه ألفونسو الرابع دون منازع . ثم بدأ طورها الثانى فى سنة ٩٣١ م ، وفى تلك السنة توفيت زوجة ألفونسو ، فحزن لفقدائها أما حزن ، وغلب عليه اليأس والزهد ، فتنازل عن العرش لأخيه راميرو ثانى ملوك ليون بهذا الاسم ، ولجأ إلى دير ساهاجون واعتنق الرهبانية ، ولكنه عافها بعد قليل ، فترك عزلة الدير ، ونادى بنفسه ملكاً فى حصن شنت منكش Simancas ، وكان عمله فى نظر الرهبان عاراً كبيراً ، فأثاروا عليه دعاية شديدة ، حتى اضطروا أن يعود إلى الرهبانية . وقد كان ألفونسو فى الواقع « أميراً أصلح لقلنسوة الراهب منه لتاج الملك ، وأشد شغفاً بالمقدس منه بميدان الحرب » ، ولكنه ما لبث أن انتهز فرصة مسير أخيه راميرو إلى نجدة

ثوار طليطلة ، فغادر الدير ، وزحف في بعض أنصاره على مدينة ليون واستولى عليها ، فعاد راميرو مسرعاً ، وحاصر أخاه في ليون واستولى عليها بدوره . ثم أراد أن يضع حداً لمساعي ألفونسو ومحاولته فسمّل عينيه ، وسمّل كذلك أعين أبناء عمه الثلاثة ، وهم أولاد فرويلا الذين اشتركوا في الثورة عليه .

ويعلق النقد الإسباني الحديث على تلك القسوة بقوله : « وإنه ليروعنا ذكرى العقوبة التي أنزلها راميرو الثاني بأخيه ألفونسو ، وبأبناء عمه الثلاثة ، وإنه لن يكنى من القرون لمحو ذكرى عقوبة سمل العينين التي ورثت عن التشريع القوطي ، قبل أن نراها تطبق بكثرة من جانب ملوكنا نحو ذوى قرباهم » (١) .

وهكذا استقر الملك لراميرو بعد صراع عائلي عنيف . وكان راميرو الثاني أو رذمير كما تسميه الرواية الإسلامية ، ملكاً شجاعاً مقداماً ، نذر نفسه للكفاح ضد المسلمين ، ومقارعتهم بكل الوسائل ، فتارة يغير على الأراضي الإسلامية ، وتارة يحرّض الثوار على حكومة قرطبة ، أو يسير إلى إيجادهم بالفعل ، كما حدث حينما سار لمعاونة طليطلة على مقاومة الناصر (٩٣٠ م) ، وتارة يشتبك مع المسلمين في معارك طاحنة . وقد سبق أن فصلنا أدوار ذلك الصراع العنيف ، الذي اضطرم بين راميرو وبين الناصر ، والذي بلغ ذروته في موقعة الخندق المشثومة ، التي دارت فيها الدائرة على المسلمين ، تحت أسوار مدينة سمورة في سنة ٣٢٧ هـ (٩٣٩ م) .

١ — نشأة مملكة قشتالة

لم يكن اضطراب الأمور في مملكة ليون ، قاصراً على قسمها الغربي في جليقية ، حيث كان الزعماء (الكونتات) الجلالقة ، يشورون على العرش من آن لآخر ، بغية توطيد سلطانهم المحلي ، بل كان يشمل أيضاً قسمها الشرقي ، في منطقة قشتالة ، التي كانت تسمى يومئذ « بردوليا » ثم سميت فيما بعد « قشتالة Castilla » (٢) ، وذلك لكثرة الحصون التي كانت تقام بها . وكانت هذه المنطقة ، التي استحوّلت فيما بعد إلى مملكة قشتالة ، تمتد شرقاً حتى هضاب نافار ، ومن

(١) M. Latuente : Historia general de Espana (Barcelona 1889) T. II, p. 860

(٢) كلمة Castillo الإسبانية معناها الحصن . وقد كانت تسمى في الجغرافية العربية القلاع قبل أن تنتظم إلى مملكة قشتالة . وتسمى بالإضافة إلى ولاية « ألبه » Alava « ألبه والقلاع » .

ولاية ريونخا جنوباً ، حتى الأراضي التي سميت فيما بعد أراجون وسورابي ، وكان سكانها الأصليون من البشكنس وأهل ألبه . وكان ملوك الجلالقة أو ملوك أوبييلو قد غزوها وأضافوها إلى أملاكهم ، وكانت عاصمتها يومئذ مدينة برغش . وأبدى زعماء قشتالة منذ البداية ، مقاومة عنيفة للملوك الجلالقة ، وبذلوا جهودهم للمحافظة على استقلالهم المحلي ، وثاروا بالفعل في عهد أردونيو الثاني في أوائل القرن العاشر . فحاربهم أردونيو وأخضعهم ، وقبض على كثير منهم وأعدمهم ، واضطر الباقون إلى الالتزام بطاعته ، وكانوا يتمتعون بسلطات محدودة تحت سلطان زعيم محلي ، مقره في « برغش » . وهو يخضع بدوره لملك ليون . ولكن هذا النظام المهين ، لم يرق لكونتات قشتالة ، فلبثوا يتحينون الفرص للثورة ، وتحقيق استقلالهم المنشود .

وعرضت هذه الفرصة ، وألفت قشتالة بطل ثورتها التحريرية ، في شخص زعيمها الكونت فرنان كوثالث (وفي الرواية الإسلامية فرآن غنصالس) ، الذي غدت حياته مستقى للملاحم الشعرية ، والقصاص الإسباني في العصور الوسطى ، فحشد الكونت أنصاره وقواته ، وأعلن الحرب على راميرو الثاني ملك ليون ، وولد أردونيو ؛ وكان راميرو يومئذ في أوج قوته ، بعد انتصاره على المسلمين في موقعة الخندق ، فلم يلق مشقة في هزيمة الكونت وسحق قواته ، وأسر فرنان كوثالث ، وزجه راميرو إلى ظلام السجن في مدينة ليون ، وعين لحكم قشتالة آسور فرناندز كونت مونزون ، ثم عين بعد ذلك لحكمها ولده سانشو ، وأمره أن يعامل القشتاليين بالرفق والحسنى ؛ ولكن ذلك لم يخدم جذوة الوطنية القشتالية . ولبت القشتاليون مخلصين لأمرهم المأسور ، واستمروا في الثورة والقتال ، وزحفت جموعهم بالفعل على ليون ، فخشى راميرو العاقبة ، وأطلق سراح فرنان كوثالث ، ولكن بشروط فادحة ، هي أن يقسم يمين الطاعة لملك ليون ، وأن يتنازل عن كل أملاكه ، وأن يزوج ابنته أوراكا لأردونيو ولد راميرو الأكبر . وقبل فرنان كوثالث هذه الشروط مرغماً . وظل أهل قشتالة على بغضهم لملك ليون ، وولائهم لأمرهم . وفقد راميرو بذلك عون الزعماء القشتاليين ومساهماتهم المخلصة في الدفاع عن البلاد ، واستطاع المسلمون خلال ذلك الإغارة مرراً على أراضي ليون والعيث فيها ، وقام الناصر بتجديد مدينة سالم ، ثغر

الجلود بين أراضي قشتالة والأراضي الإسلامية ، وتحصينها (سنة ٩٤٦ م) . واضطر راميرو أن يلتزم خطة الدفاع ، إزاء الغزوات الإسلامية المتوالية . وكان فرنان كوثالث ، يعمل أثناء ذلك ، على توطيد مركزه ، وضم كوثليات قشتالة كلها تحت لوائه ، ليجعل منها وحدة سياسية ، أو بالحرى إمارة مستقلة ، يغلو عرشها من بعده وراثياً في أسرته . وقد استطاع غير بعيد أن يحقق هذه الغاية (١) .

٢ — مملكة ليون

وفي أوائل سنة ٩٥٠ م توفي راميرو الثاني ملك ليون ، ففشبت الحرب الأهلية مرة أخرى بسبب وراثة العرش . وذلك أن راميرو ترك ولدين أولهم أردونيو ، وهو ولد زوجه الأولى تاراسيا ، وسانشو وهو ولد زوجه الثانية أورাকা أخت غرسية ملك نافار . فادعى أردونيو أنه أحق بالعرش باعتباره أكبر الأخوين ، ولكن سانشو نازعه في ذلك ، معتمداً على عون أخواله النافاريين ، وجدته طوطة ملكة نافار ، وكذلك على عون الكونت فرنان كوثالث وأهل قشتالة . وكان الكونت غير مبال إلى معاونة أردونيو ، بالرغم من كونه زوج ابنته ، إذ كان قد أرغم على تلك المصاهرة كما تقدم ، وقد آثر أن يقف إلى جانب سانشو ، إذ وعد به بأن يرد إليه أملاكه ، وأن يحقق أمانيه في الاستقلال ، ومن ثم فقد كان من الطبيعي أن يعمل على إضعاف مملكة ليون لكي يدعم بذلك استقلاله . وهكذا نشبت الحرب بين أردونيو وبين جيش متحد من قوات سانشو ، ونافار ، وقشتالة . ولكن أردونيو هزم أعداءه ، وأخضع سائر الخارجين عليه واستقر في العرش ، ورأى انتقاماً لخيانة فرنان كوثالث أن يطلق زوجه الملكة ابنة الكونت ، وبذلك كفرت هذه الأميرة عن خصومة أبيها للمملكة ليون .

وانتهز المسلمون فرصة الحرب الأهلية ، فتوالت غزواتهم لأراضي ليون ، ومن جهة أخرى فقد كان أشراف ليون في تمرد مستمر على ملكهم ، وخشى أردونيو العاقبة ، فبعث سفيراً إلى قرطبة في أوائل سنة ٩٥٥ م يطلب عقد الصلح مع الناصر ، فأجابته الناصر إلى طلبه ، وبعث إليه سفيره محمد بن الحسين ، فعقد معه

R. M. Pidal : La España del Cid p. 70 ; Altamira : Historia de (١)

España, Vol. I. p. 244—245.

معاهدة صلح ، تعهد فيها أردونيو بأن يصلح بعض القلاع الواقعة على الحدود ، وأن يهدم البعض الآخر . ثم توفي أردونيو بعد ذلك بقليل ، وخلفه أخوه سانشو في الملك ؛ وكان أول ما عمل أن رفض تنفيذ المعاهدة التي عقدها أخوه مع الناصر ، فاضطر الناصر إلى إعلان الحرب ، وبعث حاكم طليطلة أحمد بن يعلى في الجيش إلى ليون ، فغزاها ، وتوغل في أراضيها ، واضطر سانشو أن يعقد الصلح ، وأن يقر ما سبق أن تعهد به أخوه . وبذلك استقرت علائق السلم بين الفريقين .

ومن جهة أخرى فإن فرنان كوثالث لم يتحول عن سياسة العداء نحو ليون ؛ وقد كان قبل أن يرتقي سانشو العرش ، يؤازره ويناصره ضد أخيه أردونيو ، فلما تولى أردونيو عرش ليون ، انقلب إلى خصومه وفقاً لسياسته الماثورة ضد ليون ، وكان ينبغي في الوقت نفسه أن تعود ابنته أوراسكا مطلقة أردونيو الثالث إلى العرش ، بعد أن تزوجت من ابن عمه الأمير أردونيو ، وقد عاونه القدر غير بعيد على تحقيق بغيته .

ذلك أن الأحوال ما لبثت أن ساءت في مملكة ليون ، فقد ثار الأشراف بسانشو ونزعوه عن العرش ، واحتجوا نخلعه بهزيمته أمام المسلمين في بعض المعارك التي خاضها ، وبأن بدائته الفاتكة تمنعه من ركوب الخيل ، ومن تولى القيادة ، ففر سانشو إلى بنبلونة ، إلى جانب جدته طوطة ملكة نافار ، وقام الأشراف في ليون وقشتالة ، باختيار ملك جديد هو أردونيو الرابع ، وهو ابن ألفونسو الرابع ، عم الملك المخلوع وصهر الكونت فرنان كوثالث ، وكان أحداً دميماً سيئ الحلال ، حتى لقب بالردىء El Malo . ولجأ سانشو إلى عون الناصر ، فأرسل إليه طبيباً يهودياً من قرطبة ، يتولى علاجه من بدائته ؛ وفي سنة ٩٥٨ م (٣٤٧ هـ) قصدت طوطة إلى قرطبة ، ومعها ولدها الفتى غرسية سانشيز ، الذي كانت تحكم نافار باسمه ، وسانشو ملك ليون المخلوع ، فاستقبلهم الناصر استقبالا حافلا ، وعقد السلم مع طوطة ، وأقر ولدها ملكاً على نافار ، ووعد سانشو بالعون على استرداد عرشه ، وذلك مقابل تعهده بأن يسلم للمسلمين ، بعض الحصون الواقعة على الحدود ، وأن يهدم البعض الآخر ؛ ثم أمده الناصر بالمال والجند ، فغزا ليون ، وغزا النافاريون في الوقت نفسه ولاية قشتالة من ناحية الشرق ، وانتهت هذه الحرب الأهلية الحديده ، بانتصار سانشو وجلوسه على العرش مرة أخرى ، وفر أردونيو إلى برغش ٥

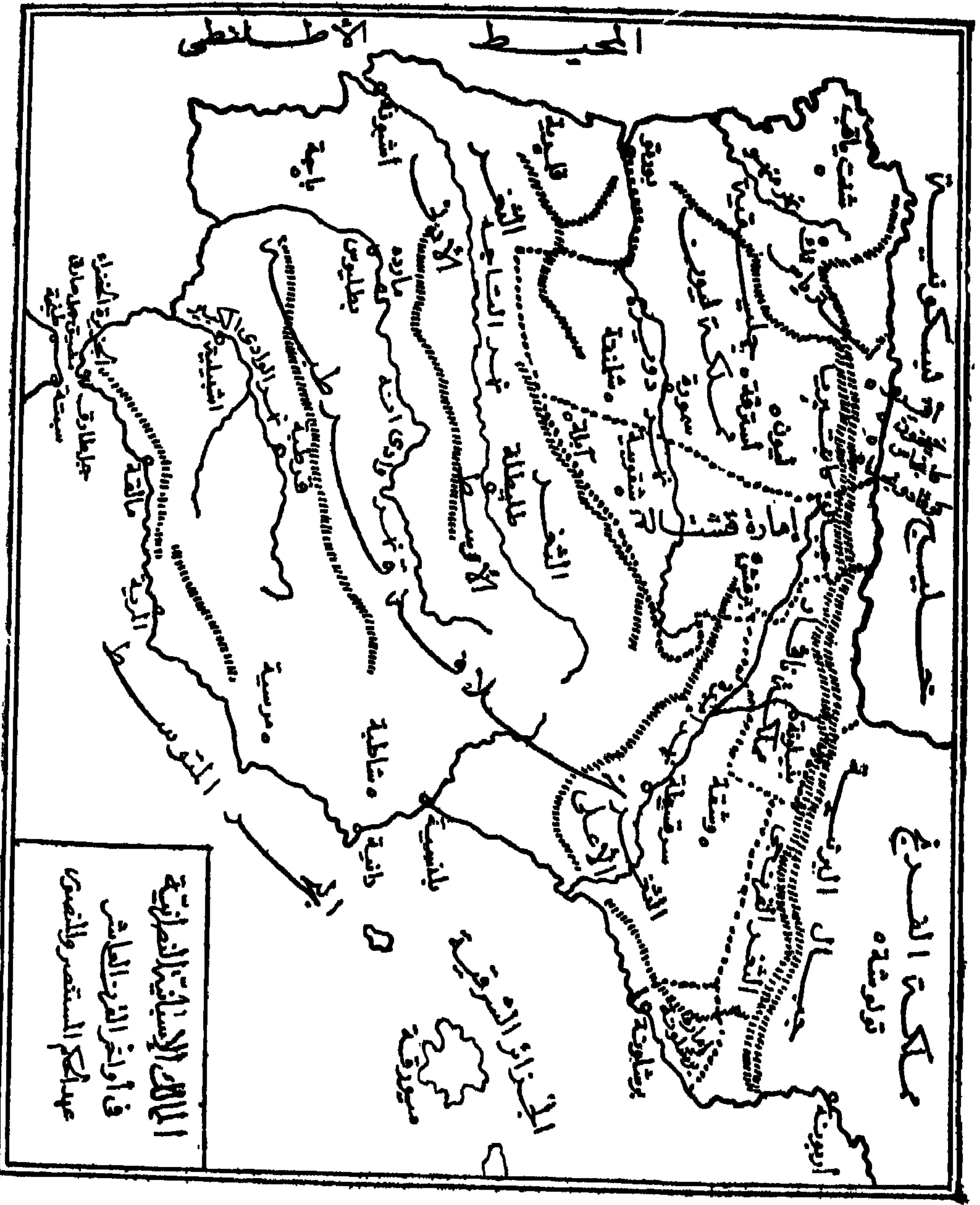
ولكن سانشو نكث بعهده للمسلمين ، وأبى تنفيذ ما تعهد به ، ثم توفي الناصر بعد ذلك بقليل ، ولزمت ليون ونافار السكينة حيناً . ولكن فرنان كوثالث اتجه وجهة أخرى . وكان قد انتهز فرصة الحرب الأهلية ، وأعلن استقلال قشتالة ، ونصب نفسه أميراً مستقلاً عليها ، وأخذ يسعى إلى توسيع أملاكه بالإغارة على الأراضي الإسلامية . وكان يرى في نزول ميدان الكفاح ضد المسلمين ، وسيلة لتدعيم هيئته في نفوس النصارى المتعصبين ، فأخذ يغير على الأراضي الإسلامية مرة بعد أخرى .

وكان فرنان كوثالث ، على قول المؤرخ الإسباني « ذا عبقرية تمازجها الغطرسة ، وروح تمازجها العجرفة ، معتدلاً بنفسه ، وعالماً بما يمكن أن يجنيه من قلبه وساعده ، محباً للاستقلال ، تملؤه فكرة تحرير بلاده قشتالة من نير ليون ، وأن يقيم لها سيادة خاصة » (١) .

وقد رأينا فيما تقدم ، كيف لجأ أردونيو الرابع ملك ليون، المخلوع إلى الحكم ، وكيف استقبله الخليفة بقصر الزهراء في حفل مشهود ، ووعدته بأن يعاونه على استرداد عرشه ، لقاء عهود قطعها على نفسه ، وكيف خشي سانشو عاقبة هذا المسعى ، فبعث إلى الحكم يعرض عليه أن يعترف بطاعته ، وأن ينفذ ما تعهد به للناصر ، وكيف عاد بعد ذلك إلى نكثه السابق حينما توفي خصمه أردونيو .

وعندئذ لم يجد الحكم بدأ من الحرب ، ولم يجد الأمراء النصارى بدأ من الاتحاد . وقد فصلنا فيما تقدم كيف اجتاحت الجيوش الإسلامية ، أراضي قشتالة ، ومزقت جيوش أميرها فرنان كوثالث ، في موقعة شنت إشتين ، وأرغمته هو وحليفه سانشو ملك ليون على طلب الصلح ، وكيف اجتاحت غربي نافار عقاباً لأمرها غرسية سانشيز على نكثه ، وإغارته على أراضي المسلمين ، وكيف توالى غزوات المسلمين لأراضي قشتالة ، ما بين سنتي ٩٦٣ ، و ٩٦٧ م .

وهنا نقف قليلاً أمام تلك الحقيقة التاريخية الهامة ، وهي أننا نجد قشتالة إحدى ولايات مملكة ليون القديمة ، تحارب المسلمين لأول مرة كإمارة مستقلة . ومن ذلك التاريخ تحتل قشتالة مكانتها في تاريخ الكفاح ، بين إسبانيا النصرانية



واسبانيا المسلمة ، وتغلبوا بالرغم من نشأتها المتواضعة شيئاً فشيئاً ، أعظم الممالك النصرانية رقعة ، وأوفرها قوة ومنعة ، وأشدّها مراساً في محاربة المسلمين ، وإنهاك قوى المملكة الإسلامية .

واستمر سانشو حيناً يحكم في ظروف صعبة من جراء ثورات الزعماء والأشراف الخارجين عليه ، وكان بعد أن عقد الصلح مع الحكم ، قد أرسل إليه تحقيقاً لرغبة زوجته تريسا ، وأخته الراهبة إلبيرة ، سفارة يطلب إليه الإذن بنقل رفات القديس بلايو إلى ليون . وكان نصارى قرطبة قد عنوا بنقل رفات هذا القديس من الوادي الكبير ، فأجاب الخليفة سؤله ، ونقلت الرفات في العام التالي في حفل فخيم ، وأودعت ليون بكنيسة خاصة أقامها الملك ، وسماها دير سان بلايو . ولم يحضر سانشو هذا الحفل لانشغاله بمقاومة الخوارج عليه . وكان من أشد خصومه والمحرضين عليه الحبر سسناندو أسقف شنت ياقب ؛ وكان هذا الأسقف قد حصن مدينته وقصره الأسقي ، بحجة حمايتها وحماية مزار القديس ياقب من غارات النورمان ، ولكنه أعلن العصيان ، وعبثاً حاول سانشو استرضاءه ، بيد أنه اضطر أخيراً أن يفتح مدينته للملك حينما رأى فشل الزعماء الخارجين في مقاومته .

وكان بين الزعماء الخارجين عليه من الأشراف وأشدّهم مراساً ، الكونت جونديسالفو (غندشلب) سانشيز حاكم جليقية ، وكان قد استطاع أن يوطد استقلاله في المنطقة الواقعة بين نهري منيو ودويرة ، وأن ييسط حكمه على لاميجو وبازو وقلمرية ، الواقعة فيما وراء دويرة شمالي ولاية البرتغال ، فسار سانشو لقتاله ، ولكنه حينما عبر نهر منيو بقواته ، ألقي رسل الزعيم الثائر يعرضون عليه التسليم والطاعة ، مع رجاء واحد فقط هو أن يأذن الملك بمقابلة الكونت ، فقبل سانشو . وكان الكونت قد دبر مشروعاً دنيئاً لاغتياله . فدعاه إلى مأدبة أقامها وقدم إليه فاكهة مسمومة تناولها سانشو دون أن يخامرہ الريب ، وسرعان ما شعر بدبيب الموت يسرى إلى أحشائه ، فحمل في الحال إلى ليون وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة ، ودفن بها تحقيقاً لرغبته . وكان ذلك في سنة ٩٦٦ م (١) .

وهكذا توفي سانشو ملك ليون مسموماً ، بعد أن حكم اثنتي عشرة سنة ، فخلفه والده راميرو الثالث ، طفلاً في الخامسة من عمره تحت وصاية عمته الراهبة

إلبيرة . ولكن معظم الأشراف أبوا الاعتراف بسلطانهم . ونشبت في ليون طائفة من الثورات المحلية ، ولا سيما في ولايات جليقية ، وحاول كثير من الزعماء الأقوياء الانفصال عن العرش ، وتوطيد سلطانهم المحلي . وكان مثل فرنان كوثالث في الاستقلال بولاية قشتالة ، أقوى مشجع لهم ، ولبثت أخطر حركة من ذلك النوع ، هي ثورة جونديسالفو سانشير (قاتل مليكه) حيث استمر على استقلاله بحكم المنطقة الواقعة بين نهري منيو ودويرة ، وحكم القواعد الثلاثة الهامة لاميجو وبازو وقلمرية ، الواقعة فيما وراء نهر دويرة .

وفي خلال ذلك ، توفي الكونت فرنان كوثالث أمير قشتالة في سنة ٩٧٠ م وخلفه في الإمارة ولده غرسية فرناندز ، كما توفي غرسية سانشير ملك نافار وخلفه ولده سانشو غرسية الثاني .

ويعلق المؤرخ لافونتي على عمل فرنان كوثالث مؤسس استقلال قشتالة وسياسته بقوله : « إن جميع الوسائل التي تذرع بها الكونت لتحقيق غايته لا تبدو مستحسنة في نظرنا ، فإن معاملته للملك ليون وأمير والثاني ، وأردوني والثالث ، وسانشو الأول ، وأردوني والرديء ، وكذلك معاملته لغرسية ملك نافار ، حليفاً وخصماً بالتوالي لهؤلاء وهؤلاء ، وساعياً في تولية وعزل هؤلاء وهؤلاء ، ومقسماً للولاء وناقضاً له ، ولقد كانت مقتضيات السياسة وملابساتها في صالحه ، وإن كان ذلك لا يطابق حكم الأخلاق الصارم . بيد أننا نلاحظ أنه من مفاخر الكونت أنه لم يحالف المسلمين قط ، ولم يتهاون قط مع أعداء وطنه أو دينه . أما عن بدء عهد استقلال قشتالة ، فيمكن أن نضعه في منتصف القرن العاشر (الميلادي) ، وهو الوقت الذي رأينا فيه الكونت يعمل لحسابه دون خضوع للملك ليون^(١) . وأدركت الممالك النصرانية يومئذ ، وفي مقدمتها مملكة ليون ، التي شغلت بحوادثها الداخلية ، أنه لا مجال للعدوان على أراضي المسامين ، ولزمت السكينة حيناً .

واتجه الملوك والأمراء النصارى إلى تحسين علاقتهم مع بلاط قرطبة ، فتوالت زياراتهم وسفاراتهم على الحكم ، يسألون الصلح والمهادنة . وكان من الوافدين بأنفسهم على قرطبة أمير جليقية ، والراهبة إلبيرة الوصية على عرش ليون . وقد فصلنا من قبل قصة هذه الزيارات والسفارات في موضعها .

ولما توفي الحكم المستنصر ، وشغل المسلمون بعض الوقت بشئونهم الداخلية ، اعتقد النصارى أن الفرصة قد عرضت مرة أخرى لغزو أراضي المسلمين ، فأغار القشتاليون على الأراضي الإسلامية ، وتوغلوا فيها جنوباً وعاثوا فيها ، وهنا نهض محمد بن أبي عامر لرد عدوانهم ، فغزا أراضي قشتالة في أوائل سنة ٩٧٧ م (٣٦٦ هـ) ثم غزاها ثانية ، واقتحم مدينة شلمنقة في العام التالي . وبدأت بذلك سلسلة الغزوات الشهيرة المتوالية ، التي شهرها المنصور بن أبي عامر ، على الممالك الإسبانية النصرانية ، واستغرقت طيلة حياته ، والتي فصلنا أخبارها فيما تقدم .

ونستطيع أن نشير هنا فيما يتعلق بمملكة ليون ، إلى ما وقع من إقدام راميرو الثالث ملك ليون ، على معاونة القائد غالب الناصري ببعض قواته ، في حربه مع المنصور ، فلما سار المنصور بعد ذلك لمحاربة راميرو ومعاقبته على هذا التحدي ، استغاث راميرو بغرسية فرناندز أمير قشتالة ، وسانشو غرسية ملك نافار ، فسار المنصور ، لمقاتلة القوات النصرانية المتحدة ، وهزمها في موقعة شنت منكش في سنة ٩٨١ م (٣٧١ هـ) .

وعلى أثر ذلك ، رأى أشرف ليون ، أن راميرو لم يعد صالحاً لحكم المملكة ، فقرروا خلعه ، وتولية ابن عمه برمودو ملكاً عليهم (٩٨٢ م) . ولكن راميرو لم يذعن لهذا القرار ، فجمع أنصاره واستعد للحرب ، واضطرت بين برمودو وراميرو حرب أهلية ، انتهت بهزيمة راميرو ، وفراره إلى مدينة أستورقة ، وامتناعه بها . وحاول راميرو بعد ذلك ، أن يلجأ إلى المنصور ، وأن يستمد عونه لاسترداد عرشه . ولكنه توفي بعد ذلك بقليل ، وتخلص برمودو بذلك من منافسته .

بيد أن برمودو ، لم يشعر مع ذلك بالطمأنينة . فقد لبث فريق كبير من الأشراف على معارضتهم لحكمه ، ولبث النضال الداخلي مؤذناً بالخطر . وعندئذ قرر برمودو أن يلجأ إلى المنصور ، فالتمس منه التأييد والعون ، على أن يعترف بطاعته ، فأجابه المنصور إلى طلبه ، وبعث إليه بقوة من جنده ، حلت بمدينة ليون عاصمة المماكة ، وبذلك أصبحت ليون مملكة تابعة تؤدي الجزية ، ولكن برمودو حينما شعر بتوطد مركزه ، واشتداد ساعده ، قرر أن يتخلص

من نير المنصور ، فهاجم الحامية الإسلامية ، واستخلص مدينة ليون من يدها .
فنهض المنصور لمحاربته ، وسار إلى مدينة ليون فاقتحمها وخرّبها ، ومزق قوى
النصارى ، ثم استمر يغزو أراضي ليون تباعاً ، ويوقع الهزائم المتوالية برمودو ،
حتى اضطر برمودو إلى طلب الصلح ، والعودة إلى الاعتراف بالطاعة (٩٩٥ م) ،
وقد رأينا كيف سار المنصور بعد ذلك ، إلى غزو مدينة شنت ياقب عاصمة
إسبانيا النصرانية الروحية (٩٩٧ م) ، وكيف انضم إليه في تلك الغزوة معظم
أشراف جليقية . وعندئذ لم ير برمودو مناصاً في النهاية ، من العود إلى التماس
الصلح ، والاعتراف بالطاعة ، ونبذ كل مقاومة . فأجابه المنصور إلى طلبه .
وعاش برمودو بعد ذلك عامين آخرين ، قضاهما في إصلاح الكنائس والأديار
والقلاع ، التي هدمت خلال الحرب . ثم توفي سنة ٩٩٩ م ، فخلفه ولده ألفونسو
الخامس طفلاً . وقام بالوصاية عايه الكونت مننديث كوثالث أحد أشراف
المملكة^(١) .

٣ - مملكة نافار

أشرنا فيما تقدم إلى نشأة مملكة نافار المستقلة ، في أواخر القرن التاسع الميلادي ،
وكيف تولى عرشها سانشو غرسية (الأول) ، عقب اعتزال أخيه فرتون الملك في
سنة ٩٠٥ م . وقد عمل سانشو على توسيع أطراف مملكته الصغيرة ، واستطاع
أن يدفع حدودها جنوباً حتى ناجرة ، وخاض مع المسلمين حروباً عديدة ، أيام
الأمير عبد الله ، وفي أوائل عهد الناصر . وقد غزا الناصر نافار سنة ٩٢٠ م ،
ثم بعد ذلك في صائفة ٩٢٤ م ، ودخل عاصمتها بنبلونة وخرّبها ، وسحق قوى
نافار ، وقضى على كل مقاومة من جانبها وكل نزعة للعدوان .

ولما توفي سانشو في سنة ٩١٦ م ، خلفه ولده غرسية سانشو طفلاً ، وحكم
أولاً تحت وصاية عمه خمينو غرسييس ، ثم بعد ذلك تحت وصاية أمه الملكة طوطة ،
التي لبثت تحكم باسمه طويلاً ، حتى بعد أن بلغ سن الفتوة والنضج . وكانت نافار
خلال ذلك ترتبط برباط المصاهرة ، مع المملكتين النصرانيتين الأخريين . فقد
كان أردونيو الثالث ملك ليون متزوجاً من أوراكا ابنة الملكة طوطة وأخت
غرسيية . وكان فرنان كوثالث كونت قشتالة متزوجاً من ابنة أخرى لطوطة هي

(١) ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ١٨١ ؛ وكذلك Altamira : ibid, Vol. I, p. 246

سانشو : وكانت طوطة تحتل بذلك مقاماً ملحوظاً في الممالك الثلاث . ولما توفي رامبرو الثاني ملك ليون في سنة ٩٥٠ م ، واضطربت الحرب الأهلية حول وراثته العرش بين ولديه أردونيو وسانشو ، وقفت ناغار إلى جانب سانشو ، ولد الملكة أورাকা النافارية ، ثم وقفت بعد ذلك إلى جانبه مرة أخرى ، بعد أن تولى العرش عقب وفاة أخيه ، وقام أشرف ليون بخلعها ، ولجأت الملكة طوطة في معاونته إلى الناصر حسبما تقدم .

ثم اضطربت العلاقات بين ناغار وبين جارتها قشتالة ، ونشبت الحرب بينهما ، فهزم الكونت فرنان كوثالث أمير قشتالة ، وأسر في موقعة نشبت بين الفريقين على مقربة من ناجرة ، واعتقل في ناغار مدة طويلة ضعفت فيها شوكة قشتالة ولزمت السكينة حيناً .

ولما توفي الناصر ، وتولى مكانه ولده الحكم المستنصر ، طالب ملك ليون بتسليم الحصون التي تعهد بتسليمها إلى أبيه ، وطالب ملك ناغار بأن يسلمه أسيره فرنان كوثالث أمير قشتالة ، فرفض الملكان مطالب الحكم ، وأطلق غرسية أسيره فرنان كوثالث ، فهرع إلى برغش عاصمته ، وقبض على صهره أردونيو الرابع ، وأرسله مخفوراً إلى الحدود الإسلامية ، وهناك التجأ إلى القائد غالب حاكم الثغر ، ثم سار معه إلى الحكم مستجيراً به ، واستقبله الحكم كما تقدم في احتفال مشهود .

واستطال حكم غرسية سانشيز حتى سنة ٩٧٠ م ، واستمرت أمه الملكة العجوز طوطة ، محتفظة بإشرافها عليه ، ومشاركتها الفعلية في الحكم ، حتى وفاتها في سنة ٩٦٠ م .

ولما توفي غرسية سانشيز ، خلفه في عرش ناغار ولده سانشو غرسية الثاني ، وكانت مملكة ناغار قد اتسعت رقعتها عندئذ ، وأصبحت تشمل عدا ولاية ناغار الأصلية ، ولايات كانتبريا ، وسوبرابي ، ورباجورسا ، ونمت مواردها وقواها ، حتى أن سانشو لم يحجم عن الإغارة على الأراضي الإسلامية ، ورد المنصور على هذه المرأة ، فغزا ناغار ، وتوغل فيها حتى اقتحم عاصمتها بنبلونة ، وذلك في سنة ٩٨٧ م .

وخلف سانشو في الحكم ولده غرسية سانشيز الثالث ، فلم يدم حكمه سوى

خمس أعوام ، وفي عهده غزا المنصور نفاً مرة أخرى (٩٩٩ م) . ثم توفي غرسية في العام التالي ، فخلفه ولده سانشو الثالث الملقب بالكبير .

٤ - عناصر المجتمع في اسبانيا النصرانية

سبق أن تحدثنا فيما تقدم عن عناصر المجتمع في اسبانيا المسلمة ، ويجدر بنا أن نتحدث هنا عن عناصر المجتمع في اسبانيا النصرانية .

لم يكن في اسبانيا النصرانية بعد الفتح الإسلامي ، ما يمكن أن يسمى بالحياة القومية العامة . وكانت كل ولاية أو مملكة ، تعيش وفق ظروفها ونظمها الخاصة ، وكان هذا التباين ذاته ، يقوم في الداخل ، ويتفاقم أحياناً بما يحدث إلى جانبه من خلافات أخرى ، تصيب النظم والحياة الاجتماعية .

وقد بقي تكوين المجتمع النصراني الإسباني عقب الفتح ، على ما كان عليه أيام القوط ، فكان يتكون من عنصرين رئيسيين ، هما الأحرار ، والعبيد ؛ وكان الأحرار وهم الذين يستطيعون التصرف في أشخاصهم ، والتنقل بحرية من مكان إلى آخر ، ينقسمون بدورهم إلى أشرف وعامة .

وكانت طبقة الأشرف ، تتكون أولاً من الحكام ومن خاصة الملك ، وتتوقف في تكوينها على الملك ، يمنحها الألقاب والأراضي والوظائف . ويلحق بهذه الطائفة كبار الملاك ، الذين يحصلون على أملاكهم سواء بالمراث أو الهبة . وكان للأشراف امتيازات كثيرة ، سواء بالنسبة لأشخاصهم أو أملاكهم ، فكانوا داخل أراضيهم سادة بكل معنى الكلمة ، لهم مطلق الحرية والتصرف ، بل كان لهم أن يتركوا خدمة الملك ، وأن ينتقلوا إلى مملكة أخرى ، إذا غضبوا منه لسبب من الأسباب . وكان من جراء ذلك ، أن كثيراً من الأشراف النصاري ، كانوا ينتقلون إلى الأراضي الإسلامية ، وينضوون تحت لواء الأمراء والخلفاء ، ويحاربون معهم ضد مواطنيهم وأبناء دينهم ؛

وكان هؤلاء الأشراف يعفون من الضرائب ، خلافاً لما كان عليه الأمراء في عهد القوط ، وكانوا ملزمين فقط بمساعدة الملك وقت الحرب ، فينتظمون مع أتباعهم في الجيش المحارب على نفقة الملك ؛

وكان يلحق بهذه الطبقة من الأشراف ، بعض طوائف أخرى أقل أهمية من الناحية الاجتماعية ، مثل الفرسان والمحاربين ، وهم الأشخاص الذين يستطيعون

أن يقتنوا لأنفسهم خيلاً وسلاحاً ، ليشاركوا في الحرب ، ثم يمنحون نظير هذا الاشتراك بعض الإمتيازات . وقد نمت هذه الطبقة فيما بعد . وكذلك كان ينتمى إلى الأشراف ، وينضوى تحت حمايتهم ، بعض الطوائف الميسورة ، مثل صغار الملاك ، وأصحاب الصناعات . ولم تكن هذه الحماية تقف عند الأشخاص أو الأسر المعينة فقط ، ولكنها كانت تشمل أحياناً بعض القرى والضيايع ، فينضوى أهل القرية أو الضيعة ، تحت حماية الشريف بشروط معينة ، وكان هؤلاء يقدمون جزءاً من أملاكهم إلى السيد المتولى حمايتهم ، ويؤدون إليه إتاوات معينة ، وأعطية شخصية . بيد أنهم كانوا في حل من تركه إذا قصر في حمايتهم ، والانضواء تحت حماية سيد آخر .

ويلحق أخيراً بهذه الطبقة الشعبية الزراع الأحرار ، وهم الأشخاص الأحرار الذين لا يملكون أرضاً ، ولكن يتلقون من الملاك أرضاً لزراعتها . وكذلك الأحرار الذين كانوا من قبل رقيقاً ، ثم وفقوا إلى تحقيق حرياتهم ، وكان هؤلاء عليهم أن يؤدوا إلى السيد أو المالك ضرائب وإتاوات عينية فادحة ، بيد أنه كان في وسعهم أن يتركوه متى شاءوا .

إلى جانب هذه الطبقات الحرة من المجتمع النصراني ، كانت توجد الطبقة المستعبدة أو طبقة الأرقاء ، وقد بقيت أحوالها على ما كانت عليه أيام القوط تقريباً . وكانت تتكون من عناصر عدة ، فمنهم عبيد الدولة ، وعبيد الملك ، وعبيد الكنيسة والأديار (عبيد رجال الدين) ، ثم عبيد الأفراد وعبيد الأرض المملوكة بها . وكان عبيد الأفراد على الأغلب من أسرى الحرب ، ومنهم الأسرى المسلمون . وقد استمرت هذه الطوائف من الرقيق ، قائمة حتى القرن الثاني عشر ، ثم اندمجت بعد ذلك في طائفة واحدة من الأرقاء ، هم رقيق الضيايع .

وكان رقيق الضيايع يعتبرون من مرافق الأرض ، وينتقلون معها بانتقال الملكية . وكانوا يزرعون الأرض على نفقتهم ، ويؤدون إلى السيد ، سواء أكان هو الملك ، أو الأشراف أو الكنيسة ، جزءاً من المحصول ، وإتاوات أخرى ، ويقدمون إلى جانب ذلك خدمات شخصية كثيرة ، مثل القيام بحرث أرض السيد ، أو ضم محاصيله وعصر نبيذه وزيته ، أو المعاونة في بناء داره ، وتنحصر حقوقهم في التمتع بالسكن ، والعيش في الضيعة . وكان بيع الضيعة يغدو في معظم

الأحيان بالنسبة لهم محنة أليمة ، إذ يفرق أحياناً بين الرجل وزوجه ، أو بينه وبين أولاده .

وكانت هذه الطبقة من الأرقاء تتكون من أبناء العبيد ، ومن المحكوم عليهم بالرق ، في قضية مدنية أو جنائية ، ومن أسرى الحرب ، وقد كانوا أسوأ طوائف الرقيق حظاً .

وكان تحرير الرقيق ، يقع إما بالعتق أو بالفرار أو الثورة . على أن ثورات العبيد كانت قليلة ، وكان الأغلب أن يظفر العبيد بحرياتهم ، في أعقاب الثورات التي يشتركون فيها . أما العتق فكان يجري وفقاً لتعاليم الكنيسة . على أن هذه الطائفة من المتحررين ، لم تكن تتمتع بكامل حقوق الطوائف الحرة الأخرى ، فكان السيد يحتفظ لنفسه أحياناً قبل المعتوقين ببعض الخدمات أو الإتاوات . وقد استمرت الطبقة الوسطى ، تنمو على كثر الزمن ، بزيادة عدد المعتوقين أو الأحرار الأصائل ، حتى إذا كان القرن العاشر ، كانت هذه الطبقة ، تكون الجزء الأعظم من السكان ، وتتمتع بظروف وأحوال أفضل بكثير مما كانت عليه من قبل (١) .

هـ — تنظيم السلطات السياسية

أما من حيث التنظيم الأساسي ، وتوزيع السلطات السياسية ، في الممالك الإسبانية النصرانية ، فقد كانت هذه السلطات موزعة ، بين ثلاث جهات رئيسية ، هي الملك ، والأشراف ، ورجال الدين .

وقد كان المفروض أن تكون السلطة الملكية ، هي أعلى السلطات وأشملها ، وقد كانت كذلك من الوجهة النظرية . فقد كان الملك ، هو رئيس الدولة الأعلى ، وله الولاية على كل فرد تضمه أرض المملكة . وكان الملك مصدر التشريع ، ومنه وباسمه تصدر القوانين العامة ، وكذا كان له حق الموافقة على القوانين المحلية ، التي يصدرها الأشراف بالنسبة للمنتتمين إليهم ، وله أن يدعو رعاياه إلى الحرب ، وأن يرغمهم على الخدمة فيها ، وأن يصدر السكّة ، وأن يباشر العدالة . وهو الذي يعين الأساقفة وقيصلهم ، ويؤسس الكنائس والأديار ، وهو الذي يقود الجيش ، وعلى الحملة فهو الذي يتولى سائر الوظائف السياسية والعسكرية والدينية والمدنية .

على أن هذه السلطات لم تكن متساوية في جميع الأحوال والعصور ، وقد تعدلت بمضى الزمن ، وانتقصت أطرافها ، أحياناً بطريق التنازل من جانب الملوك ، وبخاصة لأن الملك لم يكن يزاول هذه السلطات بطريق مباشر :

وكان الأشراف يتمتعون داخل أملاكهم ، بقدر كبير من الاستقلال ، ويبسطون حكمهم على طائفة كبيرة من الأراضى والقرى والضيايع والحصون ، وكان السيد يعيش في حصنه ، وهو يقع عادة في موقع إستراتيجى حصين ، ويحيط به عدد من المساكن المحصنة ، ويخضع لسلطته سائر سكان المنطقة ، بعضهم كعبيد ، والبعض الآخر من المشمولين بحمايته . وكان يجبى منهم الضرائب ، والإتاوات العينية ، ويدعوهم للخدمة العسكرية متى دعاه الملك إلى الحرب ، ويباشر القضاء بينهم ، وله أن يوقع عليهم بعض الأحكام الجنائية التى تتصل بالقانون العام . وعلى الحملة فقد كان للشريف على سكان منطقته ، السيادة المطلقة ، وهو الذى يوزع بينهم مختلف المناصب والأعمال .

وأما القضاء قبل الأشراف أنفسهم ، فقد كان يزاوله بالنسبة للسيد ، أشراف من طبقته ، ولا يزاوله قضاة الملك ، لأنهم لم يكونوا من الأشراف . وكان للشريف أن يشهر الحرب على زملائه الأشراف ، إذا أصابه منهم حيف أو إهانة ، وله أن يترك خدمة الملك دون أن يخسر شيئاً من أملاكه ، بل كان له أن يشهر الثورة ضد الملك . ولم يكن يحسد من هذه السلطة ، التى يمنحها الملك لإياه سوى أمرين ، الأول الخيانة ، وفى هذه الحالة يجرى الشريف من أملاكه وامتيازاته ، والثانى متى ضمت لأملاكه أراض جديدة ، فإنه لا يستطيع أن يبسط عليها سلطته وامتيازاته إلا بموافقة الملك .

وكان الأشراف يشاركون فى مزاولة القضاء مشاركة فعلية ، فقد كانوا يؤلفون جزءاً من المحاكم العادية ، ويشتركون فى تشكيل المحاكم الملكية كلما اجتمعت ، ويحتلون كذلك بعض المناصب الإدارية الهامة . وكان لهذه المساهمة الخطيرة ، أثرها فى إذكاء شهوتهم إلى الاستئثار بالسلطة ، وتوطيد استقلالهم المحلى ، وكثيراً ما كانوا يلجأون إلى الثورة ، لفرض إرادتهم على العرش ، أو يتدخلون فى وراثة العرش بالقوة القاهرة .

ومع ذلك فقد كان الملوك ، يعتمدون إلى الإغضاء فى أحيان كثيرة ، ولو كان

في ذلك إضرار بالسلطة الملكية . ذلك أن ضعف الملوكية ، وضرورات الحرب ، ثم الحاجة إلى معاونة الأشراف أيام الحرب الأهلية حول وراثة العرش ، كانت ترغم الملوك على التسامح ، بل وأحياناً على زيادة المنح والامتيازات للأشراف ، وذلك حرصاً على استتباب الأمن والسكينة ، إذ كان الأشراف في تلك العصور قوة يخشى بأسها .

وقد كانت طائفة الأشراف هذه ، بالرغم من مركزها الاجتماعي الممتاز ، تنطوي على عيوب ومثالب كثيرة ، فقد كانت تجنح إلى استغلال الرعايا ، وانتزاع ما في أيديهم ، بل وقد كانت ترتكب الجرائم جهاراً ، فتعتمد إلى نهب التجار والمسافرين ، وكان الأشراف يقتتلون فيما بينهم للفوز بثمار أمثال هذه الجرائم . وقد استمر هذا النظام الإجرامي الجائر عصوراً ، بالرغم من تدخل الملك . والأساقفة ، لحفظ الأمن في كثير من الأحيان .

وإلى جانب الأشراف ، كان رجال الدين من الأساقفة والرهبان ومن إليهم ، يتمتعون كذلك في أراضيهم بسلطان مستقل . وكان للكنائس والأديار أراض شاسعة خاصة ، ترجع إلى الهبات والנדور وغيرها ، وفيها تزاول السلطة بطريق مطلق ، وفقاً لروح هذا العصر الإقطاعي . وكان لها أيضاً كثير من العبيد والزراع تتمتع قبلهم كالأشراف ، بالحق في تحصيل الجباية والمحاصيل وغيرها . وكان الملوك في أحيان كثيرة يهبون بدافع الورع والحماسة الدينية ، إلى الكنائس والأديار ، رقاعاً شاسعة من الأرض ، فتبسط سلطانها على سكان المنطقة ، وتحصل منهم الإتاوات ، وتزاول بينهم القضاء . وكانت الكنائس والأديار ، تدفع هذه السلطات أحياناً إلى حدود مرهقة ، اجتناباً لافتتات الأشراف المجاورين . وكان رجال الدين ، على مثل الأشراف ، يلبون دعوة الملك إلى الحرب هم ورجالهم ، ويحشدون الصفوف من بين رعاياهم من الأحرار والزراع والأرقاء ، أو يعهدون بذلك إلى رئيس من غير رجال الدين . والحلاصة أن الأساقفة والرهبان كانوا كالأشراف ، سادة بكل معاني الكلمة ، وكانوا يمتازون في ذلك على الأشراف ، بأن كان الملك يصدر الوثائق والمراسيم المكتوبة بامتيازاتهم ، وكان يتبع الكنيسة أحياناً مناطق كثيفة من السكان ، كما كان الشأن في شنت ياقب ، حيث قامت حول الكنيسة مدينة عظيمة ، صارت تابعة لها هي وما حولها من الأراضي الشاسعة .

وكانت سلطة الأسقف تتخذ في أحيان كثيرة صورة مطلقة في المدينة وفي الحقل ،
يزاولها على يد كونتات وموظفين وغيرهم . وكان له جيشه أو جنده الخاص ،
يحمون أراضيه من الأجانب أو الأشراف المغيرين^(١) .

ونلاحظ أن هذا التنظيم السياسي ، الذي تطبعه روح إقطاعية عميقة ، والذي
ينطوي على توزيع السلطة بين مختلف الطوائف والعصبيات ، بصورة تجعل دولا
عديدة داخل الدولة ، يتنافى في جملته وتفصيله مع التنظيم السياسي للدولة الأندلسية
الإسلامية . فقد رأينا فيما تقدم ، كيف كان العرش يحرص منذ البداية على سلامة
السلطة المركزية ، وكيف بذل أمراء بني أمية ، منذ عبد الرحمن الداخل جهودهم ،
لإخماد النزعة القبلية ، وتحطيم رياستها ؛ ثم جاء الناصر فحطم العصبية العربية ،
وقضى على رئاسة القبائل العربية بصورة نهائية ، واستخلص السلطة كلها للعرش ،
ولم يكن العرش يتسامح بعد ذلك ، مع أية رئاسة محلية تنزع إلى الاستقلال ،
إلا ما كان بالنسبة لبعض الثغور النائية ، مثل طليطلة وسرقسطة ، وذلك لأسباب
عملية واستراتيجية .

الفصل الرابع

عبد الملك المظفر بالله

عبد الملك بن المنصور يتولى الحجابة وتدبير المملكة . إشادة الرواية الإسلامية بمهده وبخلاله . يخلو حلو أبيه في سياسته نحو المغرب . يتابع سنته في الغزو . خروجه إلى الغزو ومسيره إلى الشحر . الأمل . ميته في أراضي برشلونة . عوده إلى قرطبة واستقبال هشام له . جلوسه في الزاهرة . سفارة أمير برشلونة . إحكام أمير قشتالة وجليقية إليه . غضب سانشو غرسية وعدوانه . مسير عبد الملك لغزو قشتالة . غزوه لمملكة ليون . غزوة بنبلونة . استقباله لسفير القيصر في مدينة سالم . غزوة قلوئية أو غزاة النصر . إتخاذ عبد الملك لقب المظفر بالله . قصة هذا اللقب ومرسومه . استثنائه للغزو واختراقه لقشتالة . الغزوة السابعة أو غزاة العلة . مرضه وتفرق جيشه . وفاته . ما قيل عن اغتياله بالسم . موقفه من الخليفة هشام . إنهماكه في الشراب واهتمامه على الغلمان والوزراء . الوزير عيسى ابن القطاع . المنافسة بينه وبين الفتيان . تغلب الفتي طرفه واستثنائه بالسلطة . تغير عبد الملك عليه . القبض عليه وإعدامه . ابن القطاع يسترد نفوذه وسلطانه . كبرياؤه وتعسفه . الواقعة في حقه . استظهار عبد الملك بالصقالة والبربر . سحق الأسر العربية لذلك . تأمر ابن القطاع على إزالة بني عامر . وقوف عبد الملك على المؤامرة . بطشه بالوزير وأصحابه . استرداده لسائر السلطات . صفات عبد الملك وخلاله .

لما توفي المنصور بن أبي عامر بمدينة سيالم ، في السابع والعشرين من رمضان سنة ٣٩٢ هـ ، بعد أن ألقى إلى ولده عبد الملك ، وصيته ونصائحه الأخيرة ، بادر عبد الملك بالعودة إلى قرطبة ، تاركاً لأخيه الأصغر عبد الرحمن ، أمر العناية بمواراة أبيه ، والعودة بالجيش . وما كاد يصل إلى العاصمة ، حتى بادر بروية الخليفة هشام المؤيد ، واستصدر منه المرسوم بتوليته الحجابة ، وجلس في الحكم مكان أبيه بالزاهرة . وتلى نص المرسوم بالمسجد الجامع ، وأنفذت الكتب إلى الجهات ، وإلى عدوة المغرب ، معرفة بوفاة المنصور وتولية ابنه عبد الملك تدبير المملكة مكانه . وكان لوفاة المنصور وقع عظيم بقرطبة ، فحزن الناس لفقده أمما حزن ، وأدرك العقلاء أن رزءاً فادحاً نزل بالإسلام وبالأندلس . واعتقد فريق من الفتيان المروانيين بالقصر ، وبعض الناقمين من العناصر الأخرى ، أن الفرصة قد سنحت ، لتحرر من نير الحكم القائم ، والعود إلى النظام الخلافي ، ولكن السلطات العامرية كانت ساهرة . فقبض في الحال على عدد من المحرضين ،

وأبعدوا إلى العلوة ، واستتب الأمر لعبد الملك ، دون ما جهد أو اضطراب ، واستقبل الناس حكمه بالاستبشار والرضى .

وكان عبد الملك ، حينما خلف أباه المنصور في الحكم ، في الثامنة والعشرين من عمره ، إذ كان مولده بقرطبة في سنة ٣٦٤ هـ ، ويكنى أبا مروان ويلقب بسيف الدولة وبالمظفر بالله ، وأمه حرة تدعى الذلفاء ، وقد رأينا كيف تمس عبد الملك في شئون الحكم أيام أبيه ، وكيف تولى القيادة ، واشترك معه في كثير من غزواته ، ومن ثم فقد قبض عبد الملك على زمام الأمور بحزم وكفاية ، واعتزم أن يسير على خطى أبيه ، سواء في تدبير الشئون الداخلية ، أو الاستمرار في غزو الممالك النصرانية .

وتشيد الرواية الإسلامية بعهد عبد الملك على قصره ، وما بلغته الأندلس فيه من الرخاء والنماء ، وتقدمه إلينا في صور طيبة لامعة . فيقول لنا ابن حيان في قوة وحجاسة : « انصب منه الإقبال والتأييد على دولته انصباباً ، ما عهد مثله في دولة . وسكن الناس منه إلى عفاف ، ونزاهة ، ونقى سريرة ، ووثوق في بعد همته ، اطمأنوا بها إلى جنبه ، في السر والعلانية ، فباحوا بالنعم ، واستثاروا الكنوز ، وتناهوا في الأحوال ، وتناغوا في المكاسب ، وتحاسدوا في اقتناء الأصول ، وابتناء القصور ، وغالوا في الفرش والأمتعة ، واستفروها المراكب والغلمان ، وغالوا في الجوارى والقيان ، فسمت أثمان ذلك في تلك المدة ، وبلغت الأندلس فيها الحد الذي فاق الكمال ، فهد تلك الدولة في احتشاد النعم عندها ، وارتفاع حوادث الغير عنها ... في كنف ملك مقتبل السعد ، ميمون الطائر ، غافل عن الأيام ، مسرور بما تتنافس فيه رعيته من زخرف دنياها . فاجتمع الناس على حبه . ولم يدهنوا في طاعته ، ورضى بالعافية منهم ، وآتوه إياها فصنى عيشه ، وانشرح قلبه ، ونخلصه الله من الفتنة » .

ويشيد ابن حيان بعد ذلك ، بعفة عبد الملك ، وورعه وتواضعه وشجاعته وحيائه ، وتورعه عما يشين الملك من المحون والاستهتار ، وبره بوالديه ، وثباته على عهد أبيه . كل ذلك في عبارات تنم عن عميق تأثره وإعجابه^(١) .

بيد أن هذه الصور المشرقة التي تقدم إلينا عن خلال عبد الملك ، تغشاها

(١) نقله أعمال الأعلام ص ٨٤ و ٨٥ ، والبيان المغرب ج ٣ ص ٣ .

من الناحية الأخرى خلة قائمة ، هي شغفه بمعاقرة الشراب وانهماكه في لذاته^(١) .
افتتح عبد الملك المنصور عهده ، بإجراء كان له في نفوس الناس أطيب وقع ؛
وذلك أنه أسقط سدس الحباية عن سائر الناس ، في سائر بلاد الأندلس . فكان
لذلك أثره في التخفيف عن الناس ، والرفق بهم ، وبث شعور الرضى والاستبشار
بالعهد الجديد .

وحذا عبد الملك حذو أبيه المنصور نحو المغرب ، في تأييد زناتة ومغراوة ،
والإبقاء على ولائهم . وكان المنصور حينما توفي زيرى بن عطية زعيم مغراوة ،
في سنة ٣٩١ هـ ، قد أقر ولده المعز حاكماً على المغرب حسبما قدمنا . فلما تولى
عبد الملك الحباية ، أعلن المعز طاعته له ، ودعى له على منابر المغرب ، فكتب
إليه عبد الملك بعهدده ، على سائر ما يملكه من أقطار المغرب (سنة ٣٩٣ هـ) على
أن يؤدي إلى حكومة قرطبة ، مقادير معينة من المال والخيل والدرق . واستمر
المعز على الوفاء بعهوده ، أيام عبد الملك وأخيه عبد الرحمن من بعده^(٢) .

واعتزم عبد الملك أن يسير على سنن أبيه في متابعة غزو الممالك النصرانية ،
وأن يترك لها فرصة لتذوق السلم والدعة . وكان الملوك النصارى قد تنفسوا الصعداء
عند وفاة المنصور ، واعتقدوا أن الظروف قد تتغير ، وأن أخطار الغزوات
الإسلامية قد تخبو ، ولكن سرعان ما تبدد هذا الأمل . ذلك أنه لم تمض أشهر
قليل على تولية عبد الملك ، حتى اتخذ الأبهة لغزوته الأولى ، واستعد لها استعداداً
خاصاً ، ووفدت على قرطبة طوائف كبيرة ، من الزعماء والمتطوعة من العدو ،
للاشتراك فيها ، وأجزل لهم عبد الملك الصلات والأرزاق ، ووزع فيهم ما كان
مخزوناً من السلاح .

وخرج عبد الملك بالخييش من مدينة الزاهرة ، في شعبان سنة ٣٩٣ هـ (يونيو
١٠٠٣ م) . وتصف لنا الرواية مشهد خروجه فتقول : « لنا إنه » خرج على الناس
شاكى السلاح ، في درع جديد سابغة ، وعلى رأسه بيضة جديدة مثمرة الشكل
مذهبة ، شديدة الشعاع ، وقد اصطفت القواد والموالي والغلمان الخاصة ، في
أحسن تعبئة ، فساروا أمامه ، وقد تكتفه الوزراء الغازون معه^(٣) . وسار عبد الملك

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٣ .

(٢) نفع الطيب ج ٢ ص ١٩٨ ، والاستقصاء ج ١ ص ٩٥ .

(٣) البيان المغرب ج ٣ ص ٥ .

أولاً إلى مدينة طليطلة ، ثم ارتد منها إلى مدينة سالم ، وهناك انضم إليه الفتي واضح في قواته ، ووفد عليه في نفس الوقت قوة من النصاري ، أرسلها الكونت سانشو غرسية أمير قشتالة ، وفقاً لمعاهدته مع المنصور .

وتابع الحاجب عبد الملك سيره بعد ذلك نحو الثغر الأعلى ، واستراح أياماً في سرقسطة ، ثم غادرها قاصداً إلى الثغر الإسباني أو بعبارة أخرى إلى إمارة برشلونة التي بدت من أمراتها منذ أيام المنصور نزعة إلى العدوان ؛ وأشرف على سلسلة من الحصون القوية الواقعة جنوبي جبال مونسيس ، واستولت قوات الفتي واضح على حصن مدنيش^(١) ، وحاصر الحاجب بقواته حصن ممقصر أو ممقصره^(٢) ، واستولى عليه بعد قتال عنيف ، وأباد حاميته ، وعاث المسلمون بعد ذلك في بسائط برشلونة ، وخرّبوا كثيراً من حصون العدو ، واستولوا على كثير من الغنائم والسبي .

وقضى الحاجب وجيشه عيد الفطر في بسائط برشلونة ، واحتفل بالعيد احتفالاً فخماً ، واستقبل طبقات الأجناد مهتئين ومسلمين . وبعث من معسكره رسالتين إلى قرطبة من إنشاء كاتبه أحمد بن برد يصف فيهما الفتح ، إحداهما برسم الخليفة هشام المؤيد ، والثانية لتقرأ على الكافة في جامع قرطبة .

ثم قفل عبد الملك بجيشه عن طريق مدينة لاردة . واخترق الثغر الأعلى جنوبياً إلى قرطبة ، فدخلها في الخامس من ذي القعدة . وهناك تلقاه الأكابر والعلماء مهتئين مستبشرين ؛ وقصد الحاجب من فوره إلى الخليفة هشام ، فاستقبله أحسن استقبال ، وأكرم منزله ، وخلع عليه من ثيابه وسلاحه ، فشكره الحاجب وقبل يده . وفي اليوم التالي جلس بقصر الزاهرة ، واستقبل مختلف الوفود ، وكان يوماً مشهوداً^(٣) .

وقد نظم ابن دراج القسطلي في التهئة بهذه الغزوة قصيدة هذا مطلعها :
بدا ريح السعد واستقبل النجح فبالله فاستفتح فقد جاءك الفتح

(١) هو باسمه الإسباني حصن Meya .

(٢) هو باسمه الإسباني حصن Monmagastre ؛ ويسميه ابن الخطيب حصن منحص (أعمال الأعلام ص ٨٧) .

(٣) راجع في أخبار هذه الغزوة : البيان المغرب ، ج ٣ ص ٥ - ٩ ، وأعمال الأعلام ص ٨٧ .

وقد قدّم النصر العزيز لواءه وقبل طلوع الشمس ينبلج الصبح
فقد في سبيل الله جيشاً كأنه من الليل قطع طبق الأرض أوجنح
كتائب في أقدامها النجح والهدى وألوية في عقدها اليمن والنجح^(١)
ولم يمض قليل على ذلك ، حتى أرسل أمير برشلونة الكونت رامون بوريل
الثالث ، سفارة إلى قرطبة يطلب عقد الصالح والمهادنة ، فاستقبل السفراء الفرنج
استقبالا حافلا ، على نمط أسلافهم من السفراء النصارى . وكانت هذه آخر فرصة
من نوعها أبديت فيها أبهة الخلافة وفخامتها^(٢) .

وكان من أثر هيبة عبد الملك في نفوس الملوك النصارى ، أن احتكم إليه
أمير قشتالة الكونت سانشو غرسية ، ومننديث كوثالث زعيم جليقية ، والوصى
على ملك ليون الطفل . وكان ملك ليون وهو ألفونسو الخامس ، يومئذ ما يزال
حدثاً في العاشرة من عمره ، وكانت أمه إلبيرة أختاً لسانشو غرسية ، وكان سانشو
يرى بذلك أنه أحق بالوصاية على ابن أخته الملك الطفل ، من مننديث كوثالث .
فلما احتكم الطرفان إلى عبد الملك ، ندب قاضى النصارى أصبغ بن سلمة ،
لبحث النزاع والفصل فيه ، ف قضى لمننديث كوثالث بأحقية الوصاية ، واستمر
بالفعل وصياً على ملك ليون حتى قتل غيلة في سنة ٣٩٨ هـ (١٠٠٨ م)^(٣) .

والظاهر أن سانشو غرسية لم يرضه هذا الحكم ، فبدت منه أعراض العدوان
على أرض المسلمين ، أو هو قد اعتدى عليها بالفعل . ومن ثم فلما نجد عبد الملك
يخرج بقوته في صيف سنة ٣٩٤ هـ (١٠٠٤ م) ويقصد إلى أراضى قشتالة ويعيث
فيها ، ولم يبد سانشو أية مقاومة ، ففعل عبد الملك إلى قرطبة ، واضطر سانشو إلى
طلب الصلح ، وقصد بنفسه إلى قرطبة ، فاستقبله عبد الملك أحسن استقبال ،
وأعيد عقد الصلح والتهادن بين الفريقين ، وتعهد سانشو أن يعاون عبد الملك في
غزواته ضد مملكة ليون ، وضد خصومه من بنى غومس وغيرهم .
وفي العام التالى (٣٩٥ هـ — ١٠٠٥ م) خرج عبد الملك في قواته وسار

(١) تراجع هذه القصيدة بأكلها في ديوان ابن دراج القسطللى الذى سبقت الإشارة
إليه ص ٤٦٦ و ٤٦٧ .

(٢) الأخيرة . القسم الرابع ، المجلد الأول ، ص ٦٤ .

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٨١ هـ والبيان المغرب ج ٣ ص ١٠ .

صوب طليطلة ؛ وهناك لحق به الفتي وإضح وسانشو غرسية في بعض قواته ، ثم سار شمالاً نحو أراضي ليون ، وبعث واضحاً في قواته إلى مدينة سمورة ، وكانت قد خربت منذ أيام المنصور ، وليس بها سوى قليل من النصارى يقيمون في بعض أبراجها ، فقتل الرجال ، وسبي النساء . وعاش عبد الملك بعد ذلك في أراضي ليون ، وإلى جانبه سانشو غرسية ، واقتحم أملاك بني غومس ، ووصل في زحفه في جلّيقية ، إلى بلدة لونة الحصينة ، واستولى في هذه الغزوات على كثير من الغنائم والسبي . ولكنه لم يحقق خلالها نتائج حربية ذات شأن^(١) .

وفي أواخر سنة ٣٩٦ هـ (صيف سنة ١٠٠٦ م) خرج عبد الملك إلى غزوته الرابعة . وتصف الرواية الإسلامية هذه الغزوة بأنها غزوة « بنبلونة » ، وبعبارة أخرى « بنبلونة » عاصمة نافار . وتقول لنا إن عبد الملك سار بجيشه إلى سرقسطة ثم إلى وشقة ، ثم إلى بربشتر ، ومنها نفذ إلى أرض العدو . ولكن هذا الاتجاه الذي اتخذته الجيش الإسلامي ، لا يحمل على الاعتقاد بأنه كان يقصد إلى نافار أو بلاد البشكنس ، وإنما يبدو بالعكس أنه اتجه شمالاً إلى أراضي ولاية « ريباجرسا » الصغيرة الواقعة شمال شرقي بربشتر ، وهي إحدى ولايات البرنيه الفرنجية . وتقول الرواية الإسلامية إن المسلمين اقتحموا في هذه الغزوة بسيطاً بنيونش وشدت يوانش ، (سان خوان) وعاثوا في أرض العدو قتلاً وسبياً وحرقاً ، ثم تقول لنا إن الجيش الإسلامي قد انقضت عليه يومئذ عاصفة مروعة من رعد وبرق ومطر غزير . تخللها قصف مفرع وبرد قارس ، وخشى أن تكون سبياً في نكبته . ولكن تداركه لطف الله . وقفل عبد الملك راجعاً بجيشه إلى قرطبة . ولكن الشعب لم يبد في استقباله شيئاً من الحماسة ، لضآلة النتائج التي ترتبت على هذه الغزوة ، ولكونها لم تسفر عن شيء من الغنائم والسبي ، التي كانت تملأ أسواق قرطبة أيام أبيه المنصور^(٢) .

ومما يتصل بأخبار هذه الغزوة ، أن عبد الملك عرج في طريق العودة على مدينة سالم ، وقضى بها عيد الأضحى ، وهناك وافاه سفير من قبل قيصر

(١) راجع أخبار هذه الغزوة في الذخيرة . القسم الرابع ، المجلد الأول ص ٦٥ ؛ والبيان

المغرب ج ٣ ص ١١ و ١٢ .

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ١٢ و ١٣ ؛ وأعمال الأعلام ص ٨٧ .

قسطنطينية ، الإمبراطور بسيل الثاني ، ومعه كتاب مكتوب بالذهب يطلب فيه قيصر استئناف المودة والصداقة ، التي كانت قائمة بين ملوك بني أمية ، وبين القياصرة ، ومعه كذلك هدية وعدد من الأسرى المسلمين الذين أسروا في أطراف الجزائر التابعة لقيصر ، فسر عبد الملك لذلك ، وصرف السفير أجمل صرف^(١). ونمى إلى عبد الملك في تلك الأثناء ، ما كان يجيش به أمير قشتالة سانشو غرسية من قصد إلى العدوان ، فرأى أن يعالجه بالغزو . فخرج من قرطبة في صيف سنة ٣٩٧ هـ (١٠٠٧ م) في غزوته الخامسة ، وهي المعروفة بغزوة قلونية ، أو غزوة النصر ، وسار مخترقاً أراضي قشتالة . ويبدو من أقوال الرواية الإسلامية أن عبد الملك لم يكن يواجه يومئذ أمير قشتالة فحسب ، ولكنه كان يواجه جهة متحالفة من الملوكة النصارى ، يشترك فيها سانشو غرسية ، وألفونسو الخامس ملك ليون ، وسانشو الثالث ملك نافار ، وعدد من الزعماء النصارى في مقدمتهم بنو غومس^(٢) . ويشير صاحب البيان المغرب إلى هذه الغزوة بقوله « غزاة النصر التي لقي فيها (أى عبد الملك) شأنجه بجميع النصرانية على اختلافها »^(٣). ولا تقدم إلينا الرواية الإسلامية بعد ذلك شيئاً من التفاصيل ، سوى قولها إن الحاجب عبد الملك ، قد هزم النصارى في تلك الموقعة هزيمة عظيمة في ظاهر مدينة قلونية (كلونية) ، الواقعة شمال نهر دويرة على مقربة من شنت إشتين ، وأحرز عليهم نصراً مبيناً ، وافتتح الحصن صلحاً . ووصل كتاب الفتح إلى قرطبة ، وقرئ على الكافة كالعادة ، فكان له وقع عظيم ، وكان أهل قرطبة ينجشون سوء العاقبة من اجتماع الجيوش النصرانية لقتال المسلمين . وفقل عبد الملك بالجيوش إلى قرطبة ، فوصل إليها في أواخر ذى الحجة من تلك السنة ، واتخذ على أثر ذلك لقبه « المظفر بالله » تنويهاً بما أحرزه من النصر العظيم^(٤) .

وقد ساق لنا المؤرخ الفقيه أبو المطرف ابن عون الله ، وهو من معاصري هذه الحوادث ، قصة هذا اللقب ، فذكر أن عبد الملك كان مثل أبيه يسمو إلى

(١) الذخيرة ، القسم الرابع ، المجلد الأول ، ص ٦٥ و ٦٦ .

(٢) راجع ابن خلدون ج ٤ ص ١٨٢ .

(٣) البيان المغرب ج ٣ ص ١٤ .

(٤) ابن خلدون ج ٤ ص ١٨٢ ؛ والبيان المغرب ج ٣ ص ١٤ ؛ والذخيرة ، القسم

الرابع ، المجلد الأول ص ٦٦ .

الألقاب السلطانية ، فتقدم إلى الخليفة هشام ، على أثر عوده من غزوة قلونية ،
والتمس إليه إخراج الأمر له ، بأن يتسمى « بالمظفر » وهو اللقب الذى اختاره
وآثره ، وأن يكنى فى سائر ما يذكر عنه « بأبى مراون » ، وأن ينعم على ابنه الغلام
محمد ، الذى منح لقب الوزارة ، بألقب « ذى الوزارتين » ، ويعلى بذلك مرتبته
على سائر الوزراء ، وأن يكنى بأبى عامر ، كنية جده ، وكان الخليفة يقيم يومئذ
عند الحاجب بقصر الزاهرة ، فى الجناح الفخم الذى أنشئ وقتها . فى منتصف
الحرم سنة ٣٩٨ هـ ، تحرك الخليفة خفية إلى قصر ناصح من قصور الزاهرة ،
واستدعى حاجبه ، وفأوضه فيما أراد . ولما انصرف من لدنه ، اتبعه فى الحال
بمرسوم التكريم الذى التمس ، فأذاع عبد الملك نص المرسوم ، وبعث بالكتب
للعمل به ، وإليك نص هذا المرسوم ، وقد زعم البعض أنه كان بخط الخليفة
هشام نفسه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من الخليفة هشام بن الحكم المؤيد بالله ، أتم الله
عليك نعمه ، وألبسك عفوه وعافيته ، إنا أريناك ... من صنع الله الجسيم ،
وفضله العظيم ، لنا عليك ما شئنا الصبور ، وأقر العيون ، فاستخرنا الله سبحانه
فى أن سميناك المظفر ؛ فنسأل الله تعالى سؤال الخاف وضراعة وابتهاال ، أن يعرفنا
وإياك بركة هذا الاسم ، ويحليك معناه ، ويعطينا وإياك وكافة المسلمين ، فضل
ما خلت منه ، وأن نخير لنا ولهم فى جميع أفضيته ، ويقرنه بيمينه وسعادته ، بمنه
ونحنى لطفه ، وكذلك أبحنا التكنى فى مجالسنا ومحافلنا ، وفى الكتب الحاربية
منك وإليك ، فى أعمال سلطاننا ، وسائر ما يجرى فيه اسمك معنا ودوننا ، إنافة
بمحلك لدينا ، ودلالة على مكانك منا ، وكذلك ما شرفنا به فتاك أبا عامر ، محمد
ابن المظفر تلادنا ، أسعده الله ، بالإنفاض إلى خطة الوزارتين ، وجمعناه بها فى
التكنى على المشيخة والترتيب ، وآثرنا فى الدولة ، وأنت الحقيق منا بذلك كله ،
وبجميل المزيد عليه ، لأنك تربيتنا ، وسيف دولتنا ، وولى دعوتنا ، ونشئ
نعمتنا ، وخريج أدبنا ، فأظهر ما حددناه لك فى الموالى ، وأهل الخدمة ، واكتب
بها إلى أقطار المملكة ، وتصدقه بشكر النعمة ، أحسن الله توفيقك ، وأمتعنا طويلا
بمعافاتك ، وأنسنا ملياً بدوام سلامتك ، إنه ولى قادر عزيز قاهر » .

وكانت الكتب تخرج من قبل عبد الملك على النحو الآتى : « من الحاجب

المظفر سيف الدولة أبي مروان عبد الملك بن المنصور». فكان بذلك أول من اجتمع له لقبان ملوكيان من حكام الأندلس^(١). وكان صدور هذا المرسوم حادثاً مشهوداً ، أطلق عبد الملك على أثره الصلات والكسي ، وكثرت تهناني الشعراء ومدائحهم .

والظاهر أن عبد الملك لم يكن من هذا النصر ما كان يؤمل من إرغام أمير قشتالة على التزام السلم والهدوء ، وأن سانشو غرسية بالعكس استمر في عدوانه . ومن ثم فإنه لم يمض سوى قليل ، حتى تاهب عبد الملك لاستئناف الغزو ، فخرج من قرطبة في أوائل شهر صفر سنة ٣٩٨ هـ (أكتوبر ١٠٠٧ م) واخترق قشتالة الوسطى ، حتى ضفاف نهر دويرة ، وقصد إلى حصن شنت مرتين المنيع ، الواقع على مقربة من غربي قلونية على الضفة اليمنى من النهر ، فحاول النصاري في البداية أن يردوا المسلمين في ظاهر الحصن ، ولكن المسلمين صدوهم بعنف ، فالتجأوا إلى الحصن ، وحاولوا الدفاع من وراء الأسوار ، فهاجم المسلمون الحصن بشدة وثلّموا أسواره بالمحانيق والنار ، واضطر النصاري إلى التسليم ، فأمر عبد الملك بقتل الجند وسبي النساء والذرية ، وإصلاح ما تهدم من الحصن ، وقفل راجعاً إلى قرطبة فوصلها في أوائل شهر ربيع الآخر .

وفي شوال من نفس العام (صيف ١٠٠٨ م) ، خرج عبد الملك بالجيش ، وكانت غزوته السابعة والأخيرة ، وتعرف «بغزاة العلة» . ذلك أنه ما كاد يصل إلى مدينة سالم حتى اشتد به المرض ، فاستقر بها حيناً يرقب البرء . وفي أثناء ذلك دب الخلل إلى الجيش ، وتفرق عنه أكثر المتطوعة ، وأخفق مشروع الغزو ، واضطر عبد الملك أن يعود أدراجه إلى قرطبة ، عليلًا ضعيفاً ، وذلك في منتصف المحرم سنة ٣٩٩ هـ . ومع ذلك فما كاد عبد الملك يشعر بقليل من التحسن ، حتى عقد العزم على التاهب لاستئناف الغزو ، وخرج بالفعل من قرطبة في منتصف شهر صفر ، ولكن أصابته عندئذ نكسة شديدة ، صحبتها نوبة سعال عنيف ، فحمل إلى قصر الزاهرة في محفة ، ومن حوله خاصة غلماناه ، وتوفي على الأثر ، وكان أخوه عبد الرحمن حاضراً مع أكابر رجال الدولة ، وقيل إنه توفي مسموماً من شربة دست له بتحريض أخيه عبد الرحمن . وكانت وفاته في ١٦ صفر سنة ٣٩٩ هـ

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ١٥ - ١٧ ، وأعمال الأعلام ص ٨٨ و ٨٩ .

(٢١) أكتوبر سنة ١٠٠٨ م^(١)، ولم يكن قد جاوز الرابعة والثلاثين من عمره .

* * *

حكم عبد الملك المظفر ستة أعوام وبضعة أشهر ، قضى معظمها في متابعة الغزو ، ولم يكن لديه سعة من الوقت ليتناول تدبير الأمور بنفسه . وكانت الدولة قد توطدت منذ أيام أبيه المنصور ، ولم يقع تبدل في طرق الحكم ، فكان الخليفة هشام ، كعهده أيام المنصور محجوباً في قصره ، وكان عبد الملك يحرص على حجبه وإخفائه بين صفوف الحند ، كلما سنحت فرصة خروجه في موكبه ، بيد أنه يبدو أن عبد الملك كان أكثر تودداً للخليفة ، ورفقاً به من أبيه ، فقد كان يدعوه إلى قصوره بالزاهرة للتريض والاستجمام ، وكان هشام ينفق أوقاتاً في ضيافته^(٢) . وكان عبد الملك لانهماكه في الشراب واللهو ، قد اعتمد في تدبير شئون الدولة ، على خاصته من أكابر الفتيان العامرين أمثال طرفة ، وواضح ، وزهير ، ونخيران ، ومجاهد ، وعلى عيسى بن سعيد اليحصبي المعروف بابن القطاع ، وزيره ووزير أبيه من قبل . وكان عبد الملك لأول ولايته ، قد فوض أمره إليه ومنحه سائر السلطات العليا ، ثقة منه بإخلاصه ، واعتماداً على كفايته . ووطد حسن ظنه فيه ، ما أبداه عيسى من البراعة والحزم في تدبير الأمور ، وتوطيد النظام والأمن . وكان الفتيان الصقالبة ، ولاسيما زعيمهم طرفة ، نخادم عبد الملك الأكبر ، ينقمون على عيسى ، حظوته واستثنائه بالسلطة ، ويعملون ما وسعوا للنيل من مكانته . واضطربت المنافسة بالأخص بينه وبين طرفة ، وبذل طرفة جهوداً عنيفة لإفساد الجو بينه وبين الحاجب ، واستطاع مع استمرار الواقعة والدس أن يززع ثقة عبد الملك فيه ، وأن يصرفه عن الاعتماد عليه ، وانتهى الأمر بأن تغلب طرفة على الوزير ، وحل محله في تدبير الأمور ، واجتمعت السلطة في يده شيئاً فشيئاً ، حتى غدا كل شيء في القصر وفي الدولة ، وسما شأن الفتيان

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٣٧ ، والذخيرة القيم الرابع المجلد الأول ص ٦٦ ، وأعمال الأعلام ص ٨٩ . وذكر الممرى أن وفاة عبد الملك كانت في الحرم سنة ٣٩٩ (ج ١ ص ١٩٨) . ويؤيد ابن الأثير رواية وفاة عبد الملك بالمم ويقول لنا إن أخاه عبد الرحمن سمه في تفاحة قطعها بسكين كان قد سم أحد جانبيها فتناول أخاه مما يلى الجانب المسموم ، وأخذ مما يلى الجانب الصحيح فأكله بحضرته ، فاطمأن المظفر وأكل ما بيده منها فأت (ج ٨ ص ٢٢٥) .

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ١٦ .

الصقالبة ، وغلبوا على من عداهم من الكبراء وأصحاب المناصب . ومرض الحاجب في أوائل سنة ٣٩٦ هـ ، واستبد طرفة بالأمر ، وأمضى كثيراً من الأمور دون علم الحاجب أو موافقته ، وأبدى كثيراً من الاستهتار والتبذل والطيش ، فلما أبل الحاجب من مرضه ، كانت نفسه قد تغيرت على طرفة ، ولما خرج إلى الغزو في شهر رمضان من هذا العام ، خرج معه الوزير عيسى ، واستطاع خلال الطريق أن يقنع عبد الملك بسوء مسلك طرفة وخطر مشاريعه ، وكان من المقرر أن يلتقي طرفة بسيدته في سرقسطة ، فقدم إليها في بعض القوات في نفس اليوم الذي وصل فيه الحاجب مع جيشه ؛ وما كاد يدخل إلى عبد الملك في قصره ، حتى قبض عليه ، وصُفد بالأغلال ، وحمل إلى إحدى جزر الشاطئ ، واعتقل حتى انتهى عبد الملك من غزوته ، فأمر بقتله ، وهو في طريق العودة ، وأمر الحاجب في نفس الوقت بقتل عبد الملك بن إدريس الحزيري الكاتب البليغ أمين البلاط ، وكان من خاصة طرفة ، وكان الوزير عيسى قد حذر عبد الملك من ممالأته لطرفة ومعاونته على إفساد أمور الدولة (١).

وأضحى عيسى بن سعيد ، بعد قتل طرفة ، رجل الدولة الأول ، واسترد كامل حظوته وسلطانه ، على أنه لم ينعم طويلاً بظفره . وكان هذا الوزير قد تقلب في مناصب الدولة منذ أيام المنصور ، وحظى لديه ، وسما شأنه ، حسباً رأينا ، ثم تضاعف شأنه ، واستأثر بتدبير الأمور منذ بداية عهد عبد الملك ، وجمع الأموال الطائلة ، وزاد في توطد سلطانه ونفوذه مصاهرته للحاجب ، حيث تزوج ابنه عبد الملك المكنى أبا عامر ، أخت عبد الملك الصغرى ، إحدى بنات المنصور ، وهكذا بلغ الوزير أقصى مراتب النفوذ والثقة ، وكثر بذلك حساده والوشاة في حقه . وكان عيسى يذكي من حوله عواطف الخصومة والنقمة . بما كان ينجح إليه من الصاف والحشونة والكبرياء ، والنكول عن قضاء حاجات الناس ، والنظر في مظالمهم ، والتعالي عليهم ، وكان حجابهم وعماله ، على شاكلته من الغلظة والتعسف في معاملة الناس . فكان ذلك كله سبباً في تسمم الجو حول الوزير ، وحول تصرفاته . أضف إلى ذلك أن الوزير ، لم يكن يشارك الحاجب في مجالس شرابه وأنسه إلا في القليل النادر ، لأنه كان مقللاً للشراب ، فكان تخلفه يمهّد

لخصومه المقربين من الحاجب ، سبل الدس والوقية في حقه . وقد كانت الذلفاء والدة الحاجب في الوقت نفسه تبغض الوزير ، لأنه أيد ولدها عبد الملك في الزواج من قينة حسناء من جواريه هام بها ، وكانت تعارضه في ذلك . والخلاصة أن عبد الملك أخذ يفقد ثقته في وزيره بسرعة ، وقد كان فيما يبدو كثير التأثر بالوشاية ، سريع القلب والغدر ، وأخذ الوزير من جانبه يشعر بهذا النقص في حظوته ويتوجس من عواقبه .

والظاهر أن عيسى بن سعيد ، كانت تحدوه في نفس الوقت أطماع ومشاريع أخرى . فقد كان يشعر أنه غدا باجتماع سائر السلطات في يده ، ومشايعة رؤساء الحند له ، أقوى رجل في الدولة ، وأنه يستطيع أن يقف في وجه بني عامر ، وأن يغدو بطل المناهضة لحكمهم . والواقع أن حكم العامريين كانت تشتد وطأته على الناس يوماً بعد يوم . وكان عبد الملك جرياً على سنة أبيه المنصور ، قد مضى في الاستظهار بالفتيان الصقالبة والبربر ، وبلغ الفتيان في عهده نحو ألفي غلام ، ووفد عليه كثير من البربر ، وكان أهم من وفد إليه من زعمائهم زاوى بن زيرى بن مناد الصنهاجى ، عم أبي المعز بن باديس صاحب إفريقية ، وزعيم الفرقة الخارجة عليه ، وفد عليه مع إخوته ، فاستقبلهم عبد الملك ، وغمرهم بصلاته ، واستمروا بقرطبة حتى وقعت الفتنة ، وكان لهم في حوادثها شأن يذكر (١) . وفي رواية أخرى أن وفود زاوى وقومه على الأندلس ، كان في أواخر أيام المنصور ، وأنه هو الذى أذن لهم في الجواز (٢) . وكانت الأرستقراطية العربية تمتعت هذا الإيثار للصقالبة والبربر ، والاستظهار بهم ، وترى فيه افتئاتاً على حقوقها ومكانتها ، وكان كثير من الأسر العربية الكبيرة مثل آل حدير ، وآل فطيس ، وآل شهيد ، وغيرهم ، يتوقون إلى انتهاء حكم العامريين ، ورد الأمر إلى بني أمية ، وكان عيسى بن سعيد ، وهو أيضاً من البطون العربية ، يعتنق فكرتهم ، ويعتقد أنه يستطيع أن يعمل على تحقيقها .

واعترز عيسى بالفعل أن يعمل في هذا السبيل ، واتجه ببصره إلى سليل من

(١) الذخيرة عن ابن حيان القسم الرابع المجلد الأول ص ٦١ .

(٢) كتاب البيان أو مذكرات الأمير عبد الله بن بلقين (القاهرة ١٩٥٥) ص ١٧ ، وابن

خلدون ج ٦ ص ١٥٧ و ١٥٨ .

المروانية هو هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر ، وكان بينهما مودة وصداقة . وكاشف عيسى هشاماً بمشروعه ، في إزالة بني عامر ، وإزالة الخليفة هشام المؤيد لعجزه وعقمه ، وإقامته مكانه في الخلافة ، ورد الأمر بذلك إلى بني أمية . فاستجاب هشام إلى دعوته ، وجرت بينهما المفاوضة بمنتهى التكرم والحذر . وكانت خطة عيسى ، تتلخص في أن يدعو عبد الملك وأخاه عبد الرحمن وصحبه ، إلى حفل عظيم يقيمه بالمنية التي وهبه عبد الملك إياها بقرب قصر الزاهرة ، وذلك تيمناً بمولود رزق به ولده عبد الملك بن عيسى ، وأن يحيط المنية بطوائف من رجاله المسلحين ، فإذا حضر عبد الملك وأخوه وصحبه ، انقض عليهم أولئك الرجال وقضوا عليهم جميعاً ، وعندئذ يسير عيسى بصاحبه هشام إلى قصر الزاهرة فيجلسه فيه ، ويأخذ له البيعة بالخلافة ، وقد تقدم عيسى بالفعل بدعوته إلى عبد الملك فقبل الدعوة ، وحدد بالفعل يوم الحفل .

ولكن سرعان ما اتصل خبر المؤامرة بعبد الملك ، نقله رجل من ثقات عيسى إلى نظيف الفتى الصقلي ، فأبلغه فوراً إلى سيده . وفي رواية أن عبد الملك بادر في الحال فقتل عيسى . ولكن الرواية الراجحة هي أن عبد الملك وأخاه عبد الرحمن اتفقا على تدبير قتله ، في مجلس شراب ينظم لهذا الغرض ، ونظم المجلس بالفعل في بهو القصر الكبير المشرف على النهر ، وذلك في ٢٠ ربيع الأول سنة ٣٩٧ هـ . واستدعى الحاجب وزيره عيسى إليه ؛ ومن غرائب القدر أن كان الوزير أيضاً يجلس مع بعض خاصته على الشراب ، ومنهم الكاتب أبو حفص ابن برد ، فبادر عيسى بالركوب إلى عبد الملك ، ومعه بعض خاصته ، فاستقبله عبد الملك بظاهر من الحفاوة . ثم أخذ بعد قليل في عتابه ومحاسبته على ما عزي إليه ، ثم أغلظ له القول ، وعيسى يعتذر ويحتج ببطلان ما نسب إليه ، ويشدد القسم على ذلك ، ويناشد حقن دمه . وفجأة جذب عبد الملك سيفه من جانب الفراش وشهره على عيسى ، وطعنه في وجهه ، فسقط على الأرض ، فأنهال عليه الجماعة طعناً بسيوفهم ، ثم احتز رأسه ووضع جانباً ؛ وقتل الجماعة أيضاً صاحبيه خلف ابن خليفة ، وحسن بن فتح ، وألقيت جثث الثلاثة في النهر ، بعد أن وضعت في زناجيل مثقلة بالحجارة ، وأمر عبد الملك بأن ينصب رأس عيسى على باب مدينة الزاهرة ، عبرة للناس . وتركت معلقة في مكانها حتى انقضت الدولة العامية ،

ونفذ الخند في الحال إلى منازل عيسى وأصحابه ، وصودر ما فيها ، وقبض على أبناء عيسى وزجوا إلى السجن ، وأرغم ولده عبد الملك على طلاق زوجته أخت الحاجب ؛ وجدت الشرطة في أثر هشام بن عبد الجبار ، حتى قبض عليه ، ثم حمل إلى الزاهرة فأمر الحاجب باعتقاله في سجن أعد له ، وهناك قتل خفية ، ولم يسدح له خبر بعد ذلك قط .

وكان لمقتل الوزير عيسى بن سعيد أعمق وقع في قرطبة ، لما كان له من رفيع المنزلة والسلطان ، ولبثت الوفود أياماً تحضر إلى الزاهرة لمشاهدة رأسه^(١) .

وثاب المظفر بعد مقتل وزيره إلى نفسه ، وعمل على جمع السلطة في يده ، والحد من سلطة الوزراء والكتاب ، ومراقبتهم ومحاسبتهم ، وواظب على الجلوس بنفسه ، وهجر اللهو والراحة ؛ وكانت الأحوال المالية قد ساءت ، مما أسرف فيه من النفقة والصلوات ، وبما أسقطه للناس من سدس الحباية ، فاقصد في النفقة ، واجتهد في توفير المال ، وتنمية الموارد ، فنجحت المحاولة ، وتحسنت الأحوال المالية في أواخر عهده^(٢) .

وقد أشرنا من قبل إلى طرف من اخلاق عبد الملك ، وما جمعت من الصفات المشرقة والقائمة معاً . ونزيد هنا ما رواه صاحب الذخيرة عن ابن حيان ، من أن عبد الملك كان عرياً عن العلم والمعرفة والأدب ، ولم يكن يجتمع في مجالسه سوى الأعاجم من الحلالقة والبربر ومن إليهم ، ولم يكن يؤمها أحد من أهل المعرفة ، من الأدباء والعلماء . بيد أنه مع ذلك لبث يسبغ رعايته على من كان يتصل منهم بأبيه من العلماء والأدباء والندماء وغيرهم ، وأبقى لهم أرزاقهم ورواتبهم كما كانت أيام أبيه^(٣) . وكان يستمع إلى الشعر ، ويصل الشعراء ، وقد أبقى بالأخص على شاعر أبيه صاعد البغدادي ، وجعله شاعراً وندماً له . وكان من خواص شعرائه أيضاً أبو عمر بن دراج القسطلی ، والكاتب الشاعر أبو حفص ابن برد . وقد أورد لنا صاحب البيان المغرب نبذاً من الشعر ، نظمها صاعد وابن دراج تحقيقاً لرغبة

(١) راجع تفاصيل هذه المؤامرة وذيولها في الذخيرة ، القسم الأول المجلد الأول ص ١٠٣ - ١٠٧ ، والبيان المغرب ج ١ ص ٢٧ - ٣٥ .
(٢) البياى المغرب ج ٣ ص ٣٦ ، وأعمال الأعلام ص ٨٩ .
(٣) الذخيرة - القسم الأول المجلد الأول ص ٦٠ .

المظفر ، في وصف مختلف صنوف الزهر ، من الآس ، والترجس ، والبنفسج ،
والورد والسوسن . ومما جاء في قصيدة ابن دراج في وصف السوسن ومديح
الحاجب عبد الملك تلك الأبيات (١) :

| | |
|---------------------------|--------------------------|
| إن كان وجه الربيع مبتسماً | فالسوسن المحتسبلى ثناياه |
| يا حسنه بين ضاحك عبق | يطيب ريح الحبيب رياه |
| يا حاجباً مذ يراه خالقه | توجه بالعللى وحلاه |
| إذا رآه الزمان مبتهجاً | فقد رأى كل ما تمناه |
| وإن رآه الهلال مطلعاً | يقول ربى وربك الله |

ونظم بعضهم في وصف عهد عبد الملك الأبيات الآتية :

| | |
|-----------------------|---------------------------|
| زمان جديد وصنع جديد | ودنيا تروق ونعمى تزيد |
| وغيث يصوب وعيش يطيب | وعز يدوم وعيسد يعود |
| ودهر ينير بعبد الملوك | كشمس الضحى ساعدتها السعود |

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ١٨ - ٢١ . وكذلك الروض المعطار ص ١٦٠ .

الفصل الخامس

عبد الرحمن بن المنصور

وسقوط الدولة العامرية

نظام الطغيان العامري . كيف كانت تطلقه صبقرية المنصور . ظهور مثالبه في عهد عبد الملك . عبد الرحمن المنصور يخلف أخاه . يتقلد الحجابة . تلقيبه بشنجول أو شانجه الصغير . إنحرافه وسوء حاله . تودده للخليفة هشام . تلقيبه بالمأمون وناصر الدولة . شروعه في اغتصاب ولاية العهد . ضغفه على هشام لتحقيق ذلك . مرسوم ولاية العهد ونصه . جلوس عبد الرحمن في الزاهرة . عكوفه على الشراب واللهو . إرغامه الكبراء على لبس العمامة . عروجه إلى الغزو . يخرق أراضى ليون . إعتصام النصاري بالحبال . إرتداد عبد الرحمن . أقباء الانقلاب في قرطبة . الاضطراب في الجيش . سيره إلى قلعة رباح . سحق أهل قرطبة على بني عامر . المؤامرة وعناصرها . الدلفاء والدة عبد الملك ودورها . ترشيح محمد بن هشام للخلافة . نضج المؤامرة وتبني الظروف لتنفيذها . مهاجمة المتآمرين للقصر . مصرع عبد الله بن أبي عامر . موقف الخليفة هشام وتصرفه . إقتحام العامة للقصر . الزاهرة وتسليمها . إقتحام الجموع لها ونهبها . إستيلاء المهدي على أموالها ونفائسها ثم تدميرها . نبوءة المنصور بخراب الزاهرة . وقوف شنجول على خبر الانقلاب وحيرته . يناشد أهل الثغر تأييد هشام . تخلى زعماء الجند عن نصرته . شنجول وصديقه ابن غومس . مسيره صوب قرطبة . قرار البربر تحت جنح الظلام . مسيره إلى أرملاط . التجاؤه وابن غومس إلى الدير . وقوعهما في يد فرسان المهدي . القبض على حشم شنجول ونسائه . مقتل شنجول وابن غومس . ما يقوله شاهد عيان عن هذه الحوادث . تأملات عن انهيار الدولة العامرية .

كانت وفاة عبد الملك المظفر ، فاتحة لفترة من أعجب فترات التاريخ الأندلسي وأشدّها غموضاً واضطراباً ، وكانت نذيراً بانقلاب من أعنف ما عرفت الأندلس وأشدّها تقويضاً لبنائها وسلامها ورخائها .

مضت خمسة وثلاثون عاماً على حكم الطغيان المطبق ، الذي فرضه المنصور ابن أبي عامر على الشعب الأندلسي ، وقضى في ظله على سلطان الخليفة الشرعي ، ومحيت رسوم الخلافة ، وسحقت العصبية العربية ، وطوقت أعناق الشعب بأغلال خانقة . وبالرغم مما نعمت به الأندلس أيام المنصور من الاستقرار والعزة والرخاء ، فإن الشعب لم يكن يرى في المنصور ، سوى مغتصب للسلطة الشرعية ، وكان يتوق إلى التحرر من هذا الطغيان الذريع ، والتخلص من وطأة الصقالية والبربر ، والعود

إلى الأوضاع الطبيعية المألوفة. وكانت شخصية المنصور العظيمة ، وعزمه الصارم ، وهمته البعيدة ، وخلاله الرفيعة ، وتفانيه في الجهاد ، والعمل على إعزاز الأندلس وإسعادها : كانت تفرض نفسها على الناس ، وتخفف نوعاً من وطأة النظام وحدته ، وتبث في نفوس الشعب نوعاً من الإعجاب المقرون بالإغضاء والتسامح . فلما توفي المنصور ، ونهض ولده عبد الملك بأعباء الحكم ، بدأ ينقشع هذا الشعور اللطيف ، وبدأت مثالب الحكم المطلق على أشدها ، وزاد إحساس الشعب بمآيعة من ضروب الإرهاق والضغط ، وظهرت شخصية عبد الملك ضئيلة باهتة بالنسبة لشخصية أبيه العظيم ، وبدأت بالرغم مما اضطلع به من الغزوات ، وما تمتعت به البلاد في ظله من السلام والرخاء ، لا تحمل سوى الأوزار الظاهرة ، من عكوف على الشراب ، وانهماك في الملاذ ، والمضي في اغتصاب السلطة الشرعية ، وتمكين لنير الصقالبة والبربر ، والتطلع إلى ألقاب الملك ، بصورة تكشف عما وراءها من الأطماع الخطرة .

وجاء عبد الرحمن ابن المنصور إثر أخيه عبد الملك ، وقد كان أضعف منه شخصية ، وأسوأ خللاً ، ليتابع حكم الإرهاب والطغيان ، وجلس غداة وفاة أخيه بقصر الزاهرة ، كما يجلس خليفة العرش مكان سلفه ، في السابع عشر من صفر سنة ٣٩٩ هـ (٢٢ أكتوبر سنة ١٠٠٨ م) . ومثل في نفس اليوم لدى الخليفة هشام ، فخلع عليه الخلع السلطانية ، وقلده الحجابة ، ثم أقبل إليه الأكابر والأعيان بتمصر الزاهرة ، مهنتين مبايعين .

وكان عبد الرحمن وكنيته أبو المطرف ، حينما تولى الحكم ، فتي في الخامسة والعشرين من عمره . وكان يلقب منذ حداثة « بشنجول » (سانشول) أو شانجه الصغير ، وذلك لأنه حسباً تقدم كان حفيداً لسانشو غرسية ملك نافار ، وكانت أمه الأميرة النافارية ، حينما تزوجت المنصور ، قد اعتنقت الإسلام ، وتسمت باسم « عبدة » ، وكان ولدها عبد الرحمن « أشبه الناس بجده » . وكان لهذه الأرومة الفرنجية الواضحة ، أثرها في انصراف الناس عن محبته والعطف عليه ، وكان يزيد في هذه الوحشة بين عبد الرحمن وبين الشعب ، إنحرافه وخلاله السيئة ، فقد كان فاجراً كثير الإستهتار والمجون ، يقضي معظم وقته في الشراب واللهو « يخرج من منية إلى منية ، ومن منزله إلى منزله ، مع الخياليين والمغنين

والمضحكين ، مجاهراً بالفتك ، وشرب الخمر ،^(١) .
وجرى عبد الرحمن على سنة أبيه وأخيه ، في الحجر على الخليفة هشام وحجبه ،
وفي الاستبداد بالرأى والحكم^(٢) ، ولكنه نهج في معاملة الخليفة نهجاً جديداً ،
فأكثر من الإتصال به ، والتقرب إليه ، وبالغ في إرضائه وإرضاء حاشيته ،
وتحقيق رغباتهم ؛ هذا في حين أن المنصور كان يقتصر في الاتصال بالخليفة على
المواقف الضرورية ، ويقتصد في رؤيته ، ويؤثر التظاهر بتوقيره مع البعد عنه ،
ويحرص على عدم تدليله ، وكبح جماح حاشيته ؛ وجرى ولده المظفر على هذه
السياسة . ولكن عبد الرحمن بالغ في التودد لهشام ومخالطته ؛ ومن ذلك أنه استأذنه
في أن يقوم بالتنزه مع أهله في قصور الملك بقرطبة ، ويكون الخليفة هنالك مع
خاصته وجواريه . فأذن هشام بذلك ، وخرج مع الحاجب في موكبته مستخفياً ،
وقد ارتدى برنساً كالذي يرتديه الحواري ، حتى لا يعرفه أحد ، واخترق الموكب
شوارع قرطبة المقفرة ومن حوله الجند ، ونزل بقصر ناصح . وهناك عرض
عليه الحاجب شئون المملكة ، والتمس إليه أن يأذن له في التلقب بالمأمون ، وأن
يضاف إلى اسمه ناصر الدولة ، فخرجت رقعة الخليفة بذلك إلى الوزير الكاتب
جيهنور بن محمد ، وتسمية عنوانها « الحاجب المأمون ناصر الدولة أبو المطرف
حفظه الله » وأبلغت بعد ذلك إلى الجهات والكافة . وكان ذلك لعشرة أيام فقط
من ولاية عبد الرحمن . فعجب الناس لهذه الجرأة ، وأنكر الناس على الحاجب
هذا التسمي باللقاب الملك والخلافة ، واعتبروها افتئاتاً وغروراً ، ممن لا تؤهله
خلاله لمثل هذا التكريم . ولكن سوف نرى أنها لم تكن سوى مقدمة لما هو أخطر
وأبعد أثراً^(٣) .

ذلك أنه لم تمض على هذا الإجراء فترة يسيرة ، حتى غادر الخليفة هشام
قصر ناصح بقرطبة ، إلى القصر الخليلي بمدينة الزهراء مستخفياً كعادته ، بتقديم
موكب الحاجب عبد الرحمن ، ونزل عبد الرحمن بمدينة الزاهرة . وأقام الخليفة
بالزهراء يومين . وفي اليوم الثالث الموافق ١٤ ربيع الأول سنة ٣٩٩ هـ ، غادر
القصر الخليلي في أهله ، إلى منية جعفر المجاورة ، ومعه الحاجب . وكان عبد الرحمن

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٣٩ .

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ١٤٨ .

(٣) البيان المغرب ج ٣ ص ٤٠ - ٤٢ ؛ وأعمال الأعلام ص ٩٠ .

بعد أن حصل على ألقاب الملك ، يجيش بمشروع ضخم ، هو أن ينتزع ولاية العهد من الخليفة الضعيف الساذج ، وأن يقضى بذلك نهائياً على تراث بنى أمية ، وينقل رسوم الخلافة جملة إلى أسرة بنى عامر ، فتخلف أسرة بنى أمية في ملك الأندلس . وقد رأينا فيما تقدم كيف أن أياه المنصور ، بالرغم من قوة نفسه ، وعريض سلطانه ، كان ينأى عن المغامرة بمثل هذه المشاريع الدقيقة ، لأنه كان يدرك بذكائه ، وبعد نظره ، أنها تنطوي على أخطر العواقب ، وأنه لم يقدم على اتخاذ ألقاب الملك إلا بعد طول روية وأناة ، وأنه كان أبداً حريصاً على الإبقاء على رسوم الخلافة وأوضاعها . وقد حذا ولده عبد الملك المظفر حذوه في حرصه وتعقله . ولكن عبد الرحمن لم يكن إلا فتى طائشاً ، متعجلاً ، كثير الغرور ، قصير النظر . وقد وصف لنا ابن حيان موقفه من المشروع في تلك العبارات القوية : « وقد تقدم القول في سبب تعلق هذا الجاهل بدعوى الخلافة ، عجزية من غير تأويل ولا عقيدة ، وكيف استهواه كيد الشيطان ، وغرته قوة السلطان إلى أن ركبها عمياء مظلمة ، لم يشاور فيها نصيحاً ، ولا فكر في عاقبة ، بل جبرها بالعجلة » (١) .

وخلا عبد الرحمن بالخليفة ، وأطال التقرب منه ، وعرض عليه مشروعه ، ويقال إنه أقنعه بأنهما على صلة رحم من ناحية الخوالة ، إذ ولد كلاهما من أم يشكنسية (ناقارية) (٢) . ويقال من جهة أخرى ، إن عبد الرحمن دس إلى الخليفة من هدهد بالويل ، وأنذره بأن عبد الرحمن قد اعتزم الفتك به ، إذا لم يمنحه ولاية عهده (٣) . ويقال أيضاً إن هشاماً استفتى في ذلك فقهاء قرطبة وعلماءها ، فأقروه على ما طلب . وكان أشد الساعين لتأييد عبد الرحمن ، قاضي الجماعة أبو العباس ابن ذكوان ، وكاتب الإنشاء أبو حفص بن برد (٤) . وعلى أي حال فقد استجاب هشام المؤيد إلى طلب عبد الرحمن . وخرج أصحابه عشية ذلك اليوم ، يذيعون الخبر على الملأ ، ويقولون إن الخليفة قد اختاره وائياً لعهد ، إذ ليس له ولد يؤمل خلافته ، وكثر الإرجاف لذلك .

(١) أعمال الأعلام ص ٩١ ؛ والبيان المغرب ج ٣ ص ٤٣ .

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ٤٢ .

(٣) البيان المغرب ج ٣ ص ٣٩ .

(٤) ابن الأبار في الحلة السيرة ص ١٥٠ .

وفي صباح اليوم التالي ، وهو اليوم الخامس عشر من ربيع الأول سنة ٣٩٩ هـ (نوفمبر ١٠٠٨ م) ، أحيط قصر الخليفة بصفوف كثيفة من الحند ، وأخرج عبد الرحمن هشاماً ، وأجلسه في الساحة الكبرى ، وجلس من حوله الوزراء والقضاة والقادة وأكابر رجال الدولة ، فكان يوماً مشهوداً ، وصدر مرسوم ولاية العهد وهو من إنشاء كاتب الرسائل أبي حفص أحمد بن برد ، وذيل بشهادة قاضي الجماعة أحمد بن عبد الله بن ذكوان ، وشهادة الوزراء وهم تسعة وعشرون وزيراً ، ويليهم شهادة مائة وثمانين رجلاً ، من أكابر أهل الدولة والحكام ، والفقهاء ، وغيرهم . وإليك نص هذا المرسوم الشهير :

« هذا ما عهد به أمير المؤمنين هشام المؤيد بالله — أطال الله بقاءه — إلى الناس عامة ، وعاهد الله عليه من نفسه خاصة ، وأعطى عليه صفقة يمينه ببيعة تامة ، بعد أن أمعن النظر وأطال الاستخارة ، وأهمه ما جعله الله إليه من إمامة المسلمين ، ونخصه به من إمرة المؤمنين ، واتق حلول القدر بما لا يؤمن ، وخاف نزول القضاء ، بما لا يصرف ، ونحش أن هجم محتوم ذلك عليه ، ونزل مقدور ذلك به ، ولم يرفع لهذه الأمة علماً تأوى إليه ، ولم يوردها ملجأ تنعطف عليه ، أن يكون يلتق الله مفراطاً فيها ، ساهياً عن أداء الحق إليها . ونقض عند ذلك طبقات الرجال من أحياء قریش وغيرهم ، ممن يستحق أن يسند الأمر إليه ، ويعول في القيام به عليه ، ممن يستوجبه بدينه وأمانته وهديه وورعه ، يعد أطراح الموادة ، والتبرئ من الهوى ، والتحرى للحق ، والزلنى إلى الله عز وجل بما يرضيه . وبعد أن قطع الأواصر ، وأسخط الأقارب ، عالماً بأن لا شفاعة عنده أعلى من العمل الصالح ، وموقناً أن لا وسيلة إليه أرضى من الدين الخالص ، فلم يجد أحداً أجدر أن يوليه عهده ، ويفوض إليه النظر في أمر الخلافة بعده ، لفضل نفسه ، وكرم نخيمه ، وشرف همته ، وعلو منصبه ، مع تقواه وعفافه ومعرفته وحزمه ، من المأمون الغيب ، الناصح الحبيب ، النازح عن كل عيب ، ناصر الدولة أبي المطرف عبد الرحمن بن المنصور أبي عامر محمد بن أبي عامر وفقه الله ، إذ كان أمير المؤمنين قد ابتلاه واختبره ، ونظر في شأنه واعتبره ، فرآه مسارعاً في الخيرات ، مستولياً على الغايات ، جامعاً للمأثرات ، وارثاً للمكرمات ، يجذب بضبيعية إلى أرفع منازل الطاعة ، وينمو بعينيه إلى أعلا درج النصيحة ،

أب منقطع القرين ، وصنو معدوم الغريم ، ومن كان المنصور أباه ، والمظفر أخاه ، فلا غرو أن يبلغ في سبيل الخير مداه ، ويحوى من حبل المجد ما حواه ، مع أن أمير المؤمنين أكرمه الله بما طالعه من مكنون العلم ، ووعاه من مخزون الأثر ، أمل أن يكون ولي عهده القحطاني ، الذي حدث عنه عبد الله بن عمرو ابن العاص ، وأن يتحقق به ما أسنده أبوهريرة إلى النبي — صلى الله عليه وسلم — ألا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه . فلما استوى له الاختبار ، وتقابلت عنده فيه الآثار ، ولم يجد عنه مذهباً ، ولا إلى غيره معدلاً ، خرج إليه من تدبير الأمر في حياته ، وفوض إليه النظر في الخلافة بعد مماته ، طائعاً راضياً ، ومجتهداً متخيراً ، غير محاب له ، ولا مائل له بهواه ، ولا مترك نصيح الإسلام وأهله فيه . وجعل إليه الاختيار لهذه الأمة بولاية عهده فيها ، وأمضى أمير المؤمنين أعزه الله ، عهده هذا ، وأنفذه ، وأجازته ، وبتله ، لم يشترط فيه مثنوية ولا خياراً ، وأعطى على الوفاء بذلك في سره وجهره ، وقوله وفعله ، عهد الله وميثاقه وذمة نبيه — صلى الله عليه وسلم — وذمة الخلفاء الراشدين من آله وآبائه ، وذمة نفسه ، بأن لا يبدل ولا يغير ، ولا يحول ولا يتأول . وأشهد على ذلك الله وملائكته ، وكفى بالله شهيداً . وأشهد عليه من أوقع اسمه في هذا الكتاب . وهو — أعزه الله — جائر الأمر ، ماضى القول والفعل ، بمحضر من ولي عهده المأمون ناصر الدولة أبي المطرف عبد الرحمن بن المنصور — وفقه الله — وقبوله لما قلده ، والتزامه ما ألزمه ، وذلك في شهر ربيع الأول سنة ٣٩٩ هـ^(١)

• • •

وعلى أثر صدور هذا المرسوم القذ في تاريخ الخلافة الإسلامية ، خرج عبد الرحمن في موكب عظيم من الوزراء والقادة وأكابر أهل الدولة ، إلى قصر الزاهرة وهو «مختال في ثوب الخلافة ، يحسب أنها له نحلة ، وأنه مستحق لها ، وخلق بها»^(٢) . وأقبل عليه المهنتون من الوزراء ورجال الدولة ، يتكلفون البشر ، والدعاء له بما أكرمه الله به ، وقلوبهم تفيض إنكاراً وسخطاً ، وأنفذت

(١) ورد نص هذا المرسوم في أعمال الأعلام ص ٩١ - ٩٣ ؛ ونفح الطيب ج ١ ص ١٩٨ و ١٩٩ ؛ وابن خلدون ج ٤ ص ١٤٩ ؛ والبيان المغرب ج ٣ ص ٤٤ - ٤٦ ؛ وقد اتبعنا نحن بالأخص النص الوارد في أعمال الأعلام لأنه أوفاه وأصحها .
(٢) البيان المغرب من ابن هون الله ج ٣ ص ٤٦ .

الكتب في الحال إلى سائر نواحي الأندلس والعدوة ، بوجوب إذاعة المرسوم ، والدعاء لولى العهد على المنابر بعد الخليفة .

وفي اليوم التالى جلس عبد الرحمن بقصر الزاهرة في هيئة الملك ، واصطف من حوله رجال الدولة وفق مراتبهم ، وأقبل وجوه قرطبة لتهنئته ، وفي مقدمتهم طائفة من المروانية المبعدين عن الخلافة ، وغيرهم من بطون قريش . يقول المؤرخ : « وخرجوا من عنده ، وقلوبهم ذوتوبة عليه ، موقدة ببغضه » . وبادر الشعراء وفي مقدمتهم أبو العلاء صاعد البغدادي ، برفع قصائد التهانى . وقد أورد لنا ابن حيان طرفاً مما قاله الشعراء في ذلك (١) .

يبد أن شاعراً آخر ، هو ابن أبى يزيد المصرى ، نظم في ذم ابن ذكوان وابن برد وهما المسئولان عن تحرير مرسوم البيعة هذين البيتين :

إن ابن ذكوان وابن برد قد ناقضا الدين عين عهد
وعاندا الحق إذ أقاما حفيد شنجئه ولى عهد (٢)

وذهب عبد الرحمن في غروره واختياله إلى أبعد مدى ، فعين ابنه الطفل عبد العزيز في خطة الحجابة ، وأسبغ عليه لقب سيف الدولة ، وهو لقب عمه المظفر . واعتقد عبد الرحمن أنه حقق بذلك مشروعه العظيم ، في تخليد ملك الدولة العامرية ، وأن الأمور قد دانت كلها له ، فأطلق العنان لأهوائه ، وانكب على لهوه وشرابه ، يحيط به نفر من البطانة السيئة ، والندماء الأسافل ، يصورون له الأحوال في أبدع الصور وأحبها إلى نفسه .

وكان من الحوادث البارزة في تلك الآونة ، حادث ظاهر البساطة في ذاته ، ولكنه أذكى موجة جديدة من السخط . وذلك أن عبد الرحمن أصدر أمره إلى رجال الدولة وأكابر أهل الخدمة ، بأن يتركوا قلائسهم الطويلة ، المبرقشة الملونة ، التي كانوا يضعونها على رؤوسهم ، ويمتازون بها على باقي الطوائف ، وأن يستبدلوها فوراً بالعمائم . وقد كانت العمائم هي غطاء الرأس عند البربر . فأنف الكبراء لذلك ، ولكنهم رضخوا للأمر كارهين ، وحضروا إلى قصر الزاهرة بالعمائم لأول مرة في يوم ١٤ جمادى الأولى ، وعلق جمهور الشعب على ذلك بمختلف الأقوال والتأويلات .

(١) راجع البيان المغرب ج ٣ ص ٤٦ و ٤٧ ؛ وأعمال الأعلام ص ٩٤ - ٩٦ .

(٢) ابن الأثير في الحلة السيرة ص ١٥٠ .

وكان عبد الرحمن أثناء ذلك قد فكر في أن يشغل الناس بحديث الغزو أسوة بأبيه وأخيه ، وكان سانشو غرسية أمير قشتالة من جهة أخرى قد أبدى أنه لا يزمع احترام السلم المعقود ، وأخذ بالفعل يغير على الحدود الإسلامية . ولم تكن أخبار قرطبة ، وما يسودها من اضطراب الأحوال ، خافية على الملوك النصارى . واعتزم عبد الرحمن أن يسير إلى الغزو ، وأن يقصد إلى جليقية ، فاعترضه كبير الفتيان الصقالبة ، وحذره من مغادرة قرطبة في هذا الوقت ، وأوضح له أن المروانية (بنى أمية) يأترون به ، ويدبرون انقلاباً ينتزعون به الحكم ، وأن كثيراً من الحند يميلون إليهم ، فلم يصغ إلى قوله ، وأمر بالخروج إلى الغزو^(١) ، وعهد بإدارة الحكومة في غيبته إلى ابن عم أبيه عبدالله بن أبي عامر المعروف بعسكلاجة . وكان خروجه من قرطبة في ١٦ جمادى الأولى سنة ٣٩٩ هـ (يناير سنة ١٠٠٩ م) أعنى في أعماق الشتاء ، وسار بالخييش صوب طابطية في طريقه إلى جليقية والأمطار تنهمر والبرد يهراً الأجسام ، وهو على سجيته من اللهو والشراب . ثم اخترق حدود مملكة ليون ، ودخل جليقية . ولكن ملك ليون ألفونسو الخامس تحصن بقواته في رؤوس الجبال ، ولم يتقدم لقتال المسلمين ، ولم يجد عبد الرحمن سبيلاً لقتاله لفيضان الأنهار وكثرة الثلوج ، فقرر العودة بجيشه ، فارتد راجعاً أدراجه . وبالرغم من أنه لم يحقق في غزوته هذه أية نتائج ذات شأن ، فقد نظم ابن دراج القسطلى ، على سجيته ، في تلك الغزوة قصيدة طويلة ، يشيد فيها بعبد الرحمن ، وهذا مطلعها :

هو البدر في فلك المحمد دارا فما غسق الخطب إلا أنارا
تجلى لنا فأرتنا السعود غيوب المنى في سناه جهارا
وأوفى فكادت صوادي القلوب تفوت العيون إليه بدارا
وحل فحلت جسام الفتو ح تبأى اختيالا وتزهى افتخارا^(٢)
وما كاد عبد الرحمن يصل إلى طليطلة ، حتى وافته الأنباء بأن انقلاباً حدث في قرطبة ، وأن الثوار قد استولوا على مدينة الزاهرة ، ونهبوا ذخائرهما ، وأضرموا النار في صروحها . وتسربت الأنباء إلى الحند ، فوقع الاضطراب في الخييش ،

(١) أعمال الأعلام ص ٩٦ .

(٢) وردت هذه القصيدة ماملة في ديوان ابن دراج (ص ٤٥٩ - ٤٦٣) .

واضطرب عبد الرحمن أن يسير لفوره بالجيش إلى قلعة رباح ، في طريقه إلى قرطبة .

لم يكن ذلك الهدوء الظاهر ، الذى ساد قرطبة خلال هذه الأشهر القلائل التى اضطلع فيها عبد الرحمن بالأمر ، سوى الهدوء الذى يسبق العاصفة . وكان حكم الطغيان الذى فرضه بنو عامر على الأندلس قد أخذ منذ أيام عبد الملك ، يحدث آثاره المادية والأدبية ، فى نفوس الشعب ، ويبدو لهم بغيضاً مرهقاً . ولم يكن يستر هذه الآثار سوى سياج خفيف من الحذر والترقب . ذلك أن سلطان بنى عامر كان يستند دائماً إلى قوة عسكرية يخشى بأسها ، قوامها البربر والصقالبة ؛ فلما جاء عبد الرحمن ، وكشف عن نيته فى الاستئثار برسوم الملك ، واغتصاب ولاية العهد ، ألفت العناصر الناقمة ، وفى مقدمتها بنو أمية أصحاب الولاية الشرعية ، فى ذلك مادة جديدة ، للتنديد بحكم بنى عامر وطغيانهم واجترائهم ، وفى تلمس الوسائل الكفيلة بسحق دولتهم ؛ وكانت شخصية عبد الرحمن الهزيلة ، وأرومته الأجنبية ، وما أبداه من ضروب الاستهتار والمجون ، تذكى عاطفة السخط عليه ، سواء بين الخاصة أو الكافة ، وتمهد السبيل إلى الانقلاب المنشود .

وكانت خيوط المؤامرة التى اجتمعت حولها العناصر الناقمة ، تتوثق شيئاً فشيئاً ، وكان أهم مدبريها شخصيتين ، الأولى الذلفاء والددة عبد الملك المصور ، وقد كانت تعتقد اعتقاداً جازماً بأن ولدها قد توفى غيلة بالسهم ، وأن قاتله هو أخوه عبد الرحمن ، وكانت لذلك تتوق إلى الانتقام ، والثانية هى شخصية فتى من بنى أمية هو محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر ، وكان عبد الملك قد أمر بإعدام أبيه هشام بتهمة التآمر مع الوزير عيسى بن سعيد كما تقدم .

وكانت الذلفاء امرأة ذكية قوية العزم ، كثيرة المال والوجاهة ، وكانت بالرغم مما أسبغه عبد الرحمن عليها وعلى أسرة ولدها وأخيه عبد الملك ، من ضروب الرعاية والإكرام ، تسعى دائبة للإيقاع به . فلما شعرت بأن الحوقد تهباً للسعى ، بما ثار حول تصرفات عبد الرحمن من ضروب الإنكار والسخط ، اتصلت بوجوه بنى أمية ، وأخذت تحثهم على التحرك والقيام لاسترجاع دولتهم ، والانتقام من بنى عامر ، وكان صلة الوصل بينها وبينهم فتى من صقالبة العامرين يدعى بشرى

وكان من قبل من فتيان المراونة ، ثم انتقل إلى العامريين فيمن انتقل من فتيان القصر ، ولكنه بقي على ولائه لساتته الأقدمين . وتعهدت الدلفاء بأن تعاون المتآمرين بالمال والتدبير ؛ وسرعان ما استجاب بنو أمية للدعوة واختاروا من بينهم زعيماً هو محمد بن هشام بن عبد الجبار . وكان فتي جريئاً مغامراً في الثالثة والثلاثين من عمره إذ كان مولده في سنة ٣٦٦ هـ ، وأمه أم ولد تدعى مزنة^(١) ، وكان مذ قتل أبوه هشام ، يتحرز على نفسه ، ويختفي في أحواز قرطبة وكهوفها ، ويجتمع حوله الصاحب من المغامرين . فلما أجمع بنو أمية أمرهم على اختياره ، بايعوه سرّاً بالولاية والخلافة ، وكان له ولأبيه من قبل دعاة من أهل قرطبة من المروانية وغيرهم ، يدعون له ؛ واشتدت هذه الدعاية مذ أجمع المتآمرون رأيهم على اختياره . وكان خروج عبد الرحمن المنصور أو شنجول إلى الغزو فرصة سانحة للعمل ، فأخذ محمد بن هشام يحشد أنصاره ، ويجتمع بهم سرّاً في كهوف جبل قرطبة . وكثر إرجاف دعائه في المدينة أن دولة بني عامر قد قضى عليها ، وأن الأمر سيعود إلى المروانية ، وكثر تشهيرهم بعبد الرحمن وقبيح تصرفاته . وكانت هذه الدعاية تجد لدى جمهور الكافة أذناً صاغية ، لما وقر في نفوسهم من بغض عبد الرحمن وازدراؤه . وإليك كيف يصف لنا ابن الخطيب موقف الشعب القرطبي ، وحالته النفسية إزاء العامريين ، وإزاء عبد الرحمن :

« وقد جبل الله أهل قرطبة على ملل ملوكها ، والقلق بذوى أمرها ، والإرجاف بما يتوقع لها . وكان سفهاؤهم بالأسواق والمجامع غير المحتشمة ، تؤثر عنهم في العامريين نواذر حارة ، واستراحات عنهم ؛ كان المنصور وولده المظفر يستحضر لذلك مشيختهم ، ويأمرهم بإنهاء وعيده ، ويشافهم بإنكاره ، ولا يزال حكامه يبلغون في تغيير ذلك وإنكاره أقصى المبالغ ضرباً للظهور ، وقطعاً للألسنة . فلما ذهب عبد الرحمن هذا المذهب ، وأطاع هذا الخرق ، كثر الحمل وشهرت البغضة »^(٢) .

ولم يكن المروانية ، وحدهم في هذا التدبير الذي قصد به إلى سحق نير العامريين ودولتهم ، فقد كان إلى جانبهم سائر العناصر الناقمة من قریش ، ومن المضربة

(١) جذوة المقتبس ص ١٩ .

(٢) أعمال الأعلام ص ٩٠ .

وايمنية ، أو بعبارة أخرى من البيوت العربية ، التي عمل المنصور وآله على سحق رياستها ومكانتها الاجتماعية ، وإخضاعها لنفوذ البربر والصقالبة . وقد رأينا فيما تقدم أن هذه لم تكن أول مؤامرة أو محاولة من نوعها لتحطيم نير بني عامر ، وأن المنصور وولده عبد الملك ، استطاعا أن يقضيا على بعض المؤامرات الخطيرة ، التي دبرت لتحقيق هذه الغاية .

كانت الظروف قد تهيأت إذاً أمام المتآمرين للعمل . فقد خرجت معظم وحدات الجيش مع عبد الرحمن إلى الغزو ، ولم يبق منه سوى فرق قليلة ترابط في قرطبة والزاهرة ، وجمهور الشعب متأهب بعواطفه ونفسيته الضجيرة المتدمرة لتأييد أى انقلاب .

ولما نصجت المؤامرة ، واتسع نطاق الدعوة لمحمد بن هشام ، وكثر الإرجاف بالانقلاب المنشود ، شعر الوزراء العامريون بالخطر ، وضاعفوا الأبهة والحرس حول قصور الزاهرة . وكان محمد بن هشام وأعوانه خلال ذلك يجتمعون سرّاً وينظمون خططهم الأخيرة . وكان محمد هذا الذي اختاره بنو أمية زعيماً لهم ، قد فطر منذ نشأته على الشر والمغامرة ، لا يخالط سوى الزعانف والأشرار . وقد وصفه ابن الخطيب في قوله : « جرار جسور ، ثائر مخاطر ، خليع ، مداخل للصقورة والفتاك ، لا يدري في أى واد يهلك » (١) .

وفي يوم ١٦ جمادى الأولى سنة ٣٩٩ هـ (١٥ فبراير ١٠٠٩ م) جاءت الأنباء إلى قصر الزاهرة بأن عبد الرحمن قد عبر بجيشه إلى أرض النصارى ، فأدرك المتآمرون في الحال أن الفرصة قد سنحت للعمل ، واعتزم محمد بن هشام لفوره أن ينزل الضربة المنشودة . وكان قد بث نفراً من رجاله حول قصر قرطبة ، وقد تسلحوا تحت ثيابهم خفية . ففي عصر هذا اليوم ، كان محمد يكمن في الضفة الأخرى من النهر (نهر الوادي الكبير) قبالة القصر . وكانت خطة المتآمرين أن يسددوا الضربة الأولى لقصر قرطبة ، وهو يومئذ المقام الشتوى للخليفة هشام المؤيد ، وحوله قلة من الحرس ، ولأن ظروف العمل في قرطبة ، كانت أدعى إلى النجاح نظراً لعطف الكافة والدهماء وتأييدهم . وفي الوقت المحدد عبر محمد النهر ، والتف حوله من أصحابه اثنا عشر فتي ، منهم طرسوس المجوسى ، وهو أشدهم

(١) أعمال الأعلام ص ١٠٩ ، وراجع البيان المغرب ج ٣ ص ٥٢ .

جرأة وفتكاً ؛ فساروا حذرين حتى باب القصر ، ثم شهر طرسوس سيفه ، وهجم في الحال على صاحب المدينة عبدالله بن أبي عامر (عسكلاجة) وانتزعه من مجلسه ، وكان يحتسى الخمر مع قينتين من جواريه ، وجيء به مخموراً إلى محمد بن هشام ، فأمر بضرب عنقه ، ورفع رأسه على رمح ، فلما أبصرت العامة رأسه مرفوعاً ، هرعت إلى محمد بن هشام ، والتف حوله منهم جمهرة كبيرة من السفلة والغوغاء ، فقويت بذلك عصبته ، ثم بادر باقتحام سجن العامرية ، وأفرج عمن فيه من القتلة واللصوص ، وتلاحق عليه أقاربه المروانية من كل صوب ، واستنهبوا الناس لنصرته ، حتى اجتمع حوله منهم طوائف غفيرة .

ونمى الخبر إلى الخليفة هشام المؤيد ، فأمر بإغلاق أبواب القصر ، وصعد إلى السطح ، ومن حوله خادمان يحمل كل منهما مصحفاً ، وحاول مخاطبة العامة ، فأسكتوه وأغلظوا له القول ، فانصرف عنهم إلى داخل القصر ، وأمر الخدم بالكف عن كل مقاومة حتى يقضى الله أمره . فأمر محمد بن هشام العامة بنقب أسوار القصر ، واقتحام أبوابه ، وبذل العامة في ذلك جهوداً فادحة ، وأتوا بالسلام ، وصعدوا إلى أعلا الأسوار ، وسيطروا على عدة نواح من سطح القصر ، وارتد الخدم أمامهم ، ووصلوا إلى خزائن السلاح فهبوها واشتد ساعدهم . ولما سمع الخليفة بذلك ، خشى البادرة على نفسه وأهله ، فبعث إلى محمد بن هشام يعرض عليه أن يقصى بني عامر عن الحكم ، وأن يشركه في أمره ، فرفض محمد ذلك ، وطلب إلى فاتن محافظ القصر أن يفتح الأبواب ، فأذعن ودخل محمد القصر ، واحتل مجلسه ، ومن حوله خاصة أصحابه ، واعتزم أن يقضى ليله بين الشموع المضئية . ثم قام بطرد العامة عن القصر وأجلاهم عن سطحه ، وكفهم عن انتهاك حرمة ، وعين ابن عمه محمداً بن المغيرة في كرسي الشرطة ، وابن عمه الآخر عبد الجبار بن المغيرة في خطة الحجابة ، ودعا سليمان بن هشام من قرابته فسماه ولي عهده ، وبعث إلى الخليفة هشام يعاتبه على إثارة بني عامر ، ويدعوه إلى خلع نفسه ، منذراً مهدداً ، فارتاع هشام وبادر بالقبول ، واستدعى محمد في الحال بني عمومته ، وأكابر بيته ، ونفراً من الأعيان والوزراء والقضاة في جوف الليل ، وأعلن هشام خلع نفسه بمحض من بعضهم ، وقدم إلى محمد بعض حله الخلافية الفاخرة ، فتم الخلع ، وذلك بعد أن مكث هشام في الخلافة ثلاثة وثلاثين عاماً

وبضعة أشهر ، وآلت الخلافة في تلك الليلة إلى محمد بن هشام بن عبد الجبار ابن عبد الرحمن الناصر ، وتلقب بالمهدى . وكان ذلك صبيحة يوم الأربعاء ١٧ جمادى الآخرة سنة ٣٩٩ هـ (١٦ فبراير سنة ١٠٠٩ م) .

وهرعت الجموع من سائر أنحاء قرطبة إلى محمد بن هشام ، ملتفة حوله ، مؤيدة لبيعته ، واعتبروه بطلاً منقذاً ، إذ كان أول من استطاع أن يثور في وجه بنى عامر ، وأن يعمل لإزالة ملكهم ، وشعروا أن كابوس الإرهاب العامري قد تقلص ، وأن عهداً جديداً سوف يبدأ ، ولم يخطر ببالهم قط ، أن هذا التحول كان نذير المحنة الغامرة ، التي سوف تطيح بكل مانعوا به في ظل الدولة العامرية من السكينة والأمن والرخاء .

وفي الوقت نفسه كانت مدينة الزاهرة ، معقل بنى عامر ، عرضة لهجوم مماثل . وكان القائمون على أمرها قد نوى إليهم ما وقع بقرطبة ، وبادر محافظ الزاهرة عبد الله بن مسامة إلى ضبط أسوارها وأبوابها ، وحشد ما لديه من الجنود ، فبلغوا سبعمائة ، وتأهب للدفاع وبعث محمد بن هشام إلى الزاهرة جمهوراً غفيراً من العامة مع طائفة من أصحابه . فأحاطوا بها وحاولوا اقتحامها ، ولكن نظيفاً الخادم ، ونصراً المظفرى ، وهما من الفتيان العامريين ، استطاعوا في قوة من الغلمان إجلاء العامة عن الأسوار ، ثم دخل الليل فحال بين الفريقين .

وفي صباح اليوم التالى ، ١٨ جمادى الأولى ، ندب محمد بن هشام أوالخليفة المهدى ، ابن عمه عبد الجبار بن المغيرة لمهاجمة الزاهرة ، فسار إليها على رأس قوة كبيرة من العامة ، الذين أقبلوا على التطوع فرساناً ومشاة ، ووزعت عليهم الأسلحة ، وأمامهم رأس عبد الله بن أبى عامر مرفوعاً فوق رمح ، وهاجموا قصر عبد الملك المظفر ، وكان خارج الأسوار ، وكان فيه أهله وأمه الذلفاء ، فهبوه وتحاطفوا متاعه وذخائره ، وذلك بالرغم من أن الذلفاء هي التي أمدت محمداً بن هشام بعونها ومالها . فلما شعر أهل الزاهرة ، بأنه من العيث مقاومة هذه الجموع الهائلة ، عرضوا التسليم على أن يصدر لهم المهدى الأمان ، فبعث إليهم المهدى الأمان المنشود مكتوباً بخطه ، وكان ذلك وقت الظهر ، ففتحوا أبواب المدينة وسلموها ، ودخل عبد الجبار لفوره قصر الزاهرة ، واقتحمته الجموع ، ونهبت منه من المتاع والنفائس ما لا يقدر ولا يوصف ، واستأثر عبد الجبار

وصحبه المقربين من ذلك بأعظم نصيب ، واستولت العامة على خزائن الكسوة والمتاع والسلاح والخلي ، ولم يكف النهب إلا في مساء اليوم التالي . وحرص عبد الجبار على أن يحيط بقواته بيوت الحرم والمال ونخاص المتاع والجوهر ، وأن يبعد العامة عنها ، وقد استولى المهدي على جميع محتوياتها ونقلها إلى قصر الخلافة بقرطبة . ويقال إنه حصل من أموال الزاهرة المنهوبة خمسة آلاف وخمسمائة ألف دينار من النقود ، ومن الذهب ما قيمته ألف ألف وخمسمائة ألف ، وأطلق المهدي الحرائر من بني عامر ، واصطفى الخواري لنفسه ، ووهب منهن لوزرائه وأصحابه ، وأذن للذلفاء أن تنتقل وأسرة ولدها عبد الملك وولده الصغير محمد ، مطلقا السراح إلى دورها بالمدينة ، وكانت لحرصها قد نقلت إليها معظم خزائن المال والمتاع .

ولم يكتف المهدي بذلك كله ، بل عمد بعد أن استصفى سائر ما في الزاهرة من الخزائن والأموال الطائلة ، إلى هدم صروحها وأسوارها ، واستطالت الأيدي إلى كل نفيس من مرمر قصورها وطرائفها وأنقاضها وأبوابها ، فلم تمض أيام قلائل على ذلك السيل المدمر ، حتى اختفت صروح الزاهرة ومعالمها الضاحكة ، وغدت أطلالا دارسة ، وخرائب موحشة . وكان المهدي يتعجل إزالة رسوم بني عامر بكل ما وسع ، خشية أن يعود عبد الرحمن المنصور ، قبل أن يتم لإحكام ضربته وتوطيد مركزه .

وقد ذكرت لنا الرواية أن المنصور بن أبي عامر ، كان يتوقع ذهاب دولته وخراب الزاهرة ، وكان هذا الخاطر ينتابه من آن لآخر ، ويفضي به إلى خاصته ، وقد نقل إلينا الوزير أحمد بن حزم ، والد الفيلسوف الشهير ، أن المنصور كان يقول : « ويحاً لك يا زاهرة الحسن ، لقد حسن مرآك ، وعبق ثراك ، وراق منظرك ، وفاق مخبرك ، وطاب تربك ، وعذب شربك ، فياليت شعري من الذي يهدمك ، ويوهن جسمك ويعدمك » ، وأنه كان يؤكد لأصحابه صحة هذه النبوءة في مناسبات كثيرة (١) .

لما وصلت أنباء هذا الانقلاب الخطير الذي وقع في قرطبة ، إلى عبد الرحمن

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ٦٥ .

المنصور أو شنجول ، وهو في طليطلة ، بادر بالسير في قواته إلى قلعة رباح ،
والخيرة تغلب عليه ، والاضطراب يسود صفوف الجنود ، وهناك تمهل قليلا ،
وأعلن في الحال أنه ينزل عن ولاية العهد ، ويقتصر على الحجابة ، وبعث كتبه
بذلك إلى طليطلة وأعمالها ، وفيها يناشد الناس أن يهرعوا إلى نصرة الخليفة المظلوم
هشام ، وإلى التمسك بطاعته ، ويصف لهم ما ارتكبه محمد المهدي ودهماء قرطبة
من العيث والسفك . فلم يعبأ أحد بدعوته ، وكان أول الخارجين عليه الفتى واضح
مولى أبيه ، وهو يومئذ والى طليطلة . وحاول شنجول في الوقت نفسه ، أن يأخذ
العهد على زعماء الحند بتصرته والقتال معه ، ولا سيما زعماء البربر الذين يؤلفون
سواد الجيش ، فتظاهروا بموافقته ، ولكنهم تعاقدوا فيما بينهم ، وعلى رأسهم
كبيرهم محمد بن يعلى الزناتي زعيم زناتة ، أن يتخلوا عن شنجول وألا يغامروا
بمحاربة أهل قرطبة ، وفيها أسرهم وأموالهم ، وخصوصاً بعد الذي تراهي إليهم
عن التفاف الناس حول محمد بن هشام ، وتفانيهم في نصرته ؛ وقوى هذا العزم
لديهم ما أفضى إليهم القاضي أبو العباس بن ذكوان — وكان قد صحب شنجول
في غزاته — من أنه يتبرأ من شنجول ويقضى بفسقه ، وينكر عليه ما يدعو إليه من
قتال المسلمين بقرطبة ، وفيهم العلماء والصالحون ، والنسوة والأطفال . ومما تجدر
ملاحظته أن القاضي ابن ذكوان هذا ، كان من قبل من أخص رجال الدولة
العامرية ، وكان من أشد المعاونين لعبد الرحمن المنصور على انتزاع ولاية العهد
من هشام .

وكان إلى جانب شنجول في معسكره ، زعيم من زعماء بني غومس سادة
مقاطعة كريون في جليقية ، وكان قد صحبه يربجو عونه على بعض خصومه من
الزعماء المجاورين ، فلما رأى اضطراب أحوال الحند ، نصح شنجول بأن يعدل
عن السير إلى قرطبة ، وأن يعود في أصحابه إلى طليطلة فيتفق مع واضح ، فأبى
شنجول نصحه ، وزعم أنه متى اقترب من قرطبة ، سارع الناس إلى نصرته .
وقد بقي هذا الزعيم النصراني إلى جانب شنجول حتى النهاية (١).

وعلى أي حال فقد سار شنجول في قواته صوب قرطبة ، حتى انتهى إلى
«منزل هاني» ، وهي أقرب محلاته إلى المدينة . وما كاد الليل يرخي سدوله ،

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٧٠ .

حتى غادر معظم الجند البربر أمكنتهم تحت جنح الظلام ، وأسفر الصبح وهو صبح نهاية شهر جمادى الآخرة سنة ٣٩٩ هـ (نهاية فبراير سنة ١٠٩٩ م) فلم يبق إلى جانب عبد الرحمن سوى خاصته وحرمة وحشمه وجمع يسير من غلمانته ، وابن غومس في نفر من أصحابه ، وغادر المعسكر تبعاً زعماء البربر ، والفتيان الصقالبة ووجوه الأندلسيين ، وهنا نصحه ابن غومس مرة أخرى بأن ينجو بنفسه وصحبه ، فأبى .

وسار شنجول في أهله حتى وصل إلى أرملاط من مشارف قرطبة ، وقد تركه النفر القليل الذي بقي معه ، فاستولى عليه اليأس ، وأدخل حرمة قصر أرملاط ، ثم خرج مودعاً والصراخ يتبعه ، وسار ومعه ابن غومس ، وقد عول على الفرار ، فالتجأ ليلاً إلى الدير القريب . وكان محمد بن هشام في تلك الأثناء يتتبع أخباره وحركاته ، فلما نعى إليه أنه يزعم الفرار ، بعث في الحال الحاجب ابن ذرى في طائفة من الفرسان ، فصار مسرعاً إلى أرملاط ودهم الدير ، وقبض على شنجول وابن غومس . وأخذ نساء شنجول من القصر ، وهن سبعون جارية ، فبعث بهن إلى قرطبة . ولما شعر شنجول بأنه هالك أعلن أمام معتقله أنه يعترف بطاعة المهدي ، فاستأقه ابن ذرى هو وابن غومس ، ثم أمر بتوثيق يديه بالرغم من احتجاجه ، وفي خلال الطريق طلب شنجول أن يفك وثاق يديه قليلاً ليسترى ، فأجيب إلى طلبه ، وعندئذ أخرج من خفه سكيناً بسرعة البرق ، وحاول أن يغمده في صدره ، فتداركه الجند ، وأوثقوا يديه ، وأمر الحاجب بقتله ، فذبح في الحال ، وفصل رأسه عن جسمه ، وقتل ابن غومس ، وحمل رأس شنجول إلى المهدي في نفس المساء ، وحمل جسده معروضاً على بغل ، وأمر المهدي فحنطت الحثة ، وركب عليها الرأس ، وألبست كسوتها ، ونصبت على خشبة طويلة على باب السدة ، ونصبت رأس ابن غومس على سارية إلى جانبها . وكان مقتل عبد الرحمن المنصور في اليوم الثالث من رجب سنة ٣٩٩ هـ (٣ مارس سنة ١٠٠٩ م) .

وقد انتهت إلينا من تعليقات المعاصرين على تلك الحوادث المتوالية المدهشة تعليق شاهد عيان يقول فيه :

« ومن أعجب ما رأيت من عبر الدنيا ، أنه تم من نصف نهار يوم الثلاثاء

لأربع عشرة ليلة بقيت من جمادى الآخرة المؤرخ إلى نصف نهار يوم الأربعاء ثمة الشهر ، وفي مثل ساعته فتح مدينة قرطبة ، وهدم مدينة الزاهرة ، وخلع خليفة قديم الولاية وهو هشام بن الحكم ، ونصب خليفة جديد لم يتقدم له عهد ، ولا وقع عليه اختيار ، وهو محمد بن هشام بن عبد الجبار ، وزوال دولة آل عامر ، وكرور دولة بني أمية ، وإقامة جنود من العامة المحشودة عورض بها أجناد السلطان أهل الدربة والتجربة ، ونكوب وزراء بجلة ، ونصب ضدادهم ، تقتحمهم العين هجئة وقماء . وجرى هذا كله على يد بضعة عشر رجلا من أراذل العامة ، حجامين وخرازين ، وكنافين ، وزبالين ، تجاسروا عليه ، وقد تكفل المقدور بوقوعه ، فم منه ما لم يكن في حسابان مخلوق تمامه (١) .

• • •

وهكذا انهارت الدولة العامرية بسرعة مدهشة لم يكن يتوقعها أحد ؛ فقد تولى عبد الرحمن المنصور الحكم عقب وفاة أخيه عبد الملك في ١٧ صفر سنة ٣٩٩ هـ والدولة محكمة النظام موطدة الدعائم ، والجيش على ولائه للدولة العامرية ، فلم تمض سوى ثلاثة أشهر حتى انهار ذلك الصرح الشامخ ، الذي شاده المنصور ابن أبي عامر ، والذي لبث خمسة وثلاثين عاماً معقد النظام والسلامة والأمن والرخاء للأندلس ، واستطاعت جموع يسيرة من الدهماء ، أن تحقق بسرعة البرق ما لم يجروا على تصوره أو محاولته من قبل ، أحد من أكابر خصوم الدولة العامرية والمتربصين بها . ومن الواضح أن الأسباب الجوهرية لمثل هذا الانقلاب الصاعق ، ترجع قبل كل شيء إلى العوامل الأدبية والنفسية ، فقد كان نظام الطغيان المطبق الذي فرضه المنصور على الأمة الأندلسية ، بالرغم من كل ما حققه للأندلس من السؤدد والرخاء ، يبدو كالكابوس المرهق ، وكان الشعب يتوق إلى التخلص من هذا النير ، الذي سلبه كل مظاهر الحرية . فلما تولى عبد الرحمن المنصور ، كانت النفوس قد أشبعت ببغض هذا النظام والرغبة في زواله ، وكان سلوك عبد الرحمن وتصرفاته ومجونه واستهتاره ، عاملاً جديداً في إذكاء هذا البغض وهذه الرغبة . وكان لاجترائه على اغتصاب ولاية العهد ، أسوأ وقع في نفوس قوم جبلوا على تقديس شعائر الخلافة وحقوقها الشرعية . فلما خرج عبد الرحمن إلى الغزو ، كان

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٧٤ .

الشعب يضطرم سخطاً وبغضاً وازدراء ، وكان يرقب أول بادرة للانفجار . فلما وقعت هذه البادرة بوثوب محمد بن هشام ، لبي الشعب لفوره دعوة الخروج والثورة ، ولم يفكر في شيء من العواقب ، ولم يفكر إلا في تحطيم هذا النير البغيض — نير بني عامر — بأية وسيلة . وكان له ما أراد ، وقد حقق رغبته بأيسر أمر .

على أن الأمة الأندلسية لم تجن خيراً من هذا الانقلاب ، الذي حققه الشعب القرطبي دون تدبر ودون تحوط . ذلك لأنه لم يقف عند القضاء على دولة بني عامر ، بل بالعكس كان نذيراً بانهيار دعائم النظام والأمن ، اللذين تمتعت بهما الأندلس في ظل الدولة المنقضية ، ودفع الأمة الأندلسية إلى معترك مروع من الفتن المضطربة ، والفوضى الشاملة ، التي انتهت بانهيار حكومتها المركزية ، وتمزيق وحدتها ، وواجهتها لأخطر مصير عرفته منذ قيامها في شبه الجزيرة .

الكتاب الرابع

سقوط الخلافة الأندلسية
ودولة بني حمود

٣٩٩ - ٤٢٢ هـ : ١٠٠٩ - ١٠٣١ م

الفصل الأول

الخلافة في معترك الفتنة والفوضى

غداة الانقلاب . اقتسام السلطان . الشعب القرطبي . شخصية المهدي . اضطهاده للبربر . تحامل العامة عليهم . نفي المهدي للفتيان العامين . إخفاؤه للخليفة هشام وادعاؤه بوفاته . عيته وطفليانه . هشام بن سليمان . سعيه إلى خلع المهدي . القتال بين الفريقين . هزيمة هشام ومصرعه . تحريض المهدي على البربر والفتك بهم . مسيرهم إلى قلعة رباح . يرشحون سليمان بن الحكم للخلافة . استنصارهم بسائشو غرسية أمير قشتالة . الحرب بينهم وبين الفتي واضح . هزيمته وفراره . تأهب المهدي للدفاع . مسير البربر وحلفائهم النصاري إلى قرطبة . موقعة قننش . هزيمة القرطبيين وتمزيق جوعهم . المهدي يظهر الخليفة هشام . فشل محاولته وفراره . مبايعة سليمان بن الحكم . المهدي وواضح يدبران محاولة جديدة . استنصارهما بأمرى برشلونة وأورقلة . مسير المهدي وحلفائه للفرنج إلى قرطبة . اللقاء بينهم وبين البربر . هزيمة البربر وفرار سليمان . تجديد البيعة للمهدي . مسيره لمطاردة البربر . هزيمته وارتداده إلى قرطبة . استعداده للدفاع . الوحشة بينه وبين واضح . ائثار الفتيان به ومقتله . عود هشام المؤيد إلى الخلافة . واضح يتولى الحجابة . تمسك البربر بولاية سليمان . مسير البربر إلى الزهراء واحتلالها . عيشتهم بأراضي قرطبة . هشام يقدم الحصون الأمامية لأمير قشتالة . حصار البربر لقرطبة . واضح يحاول الفرار . ضبطه ومقتله . ابن وداعة وابن مناو . هشام يحاول استرضاء البربر وسليمان . فشل المحاولة . اشتداد الحصار على قرطبة . مقتل حباسة بن ماكسن . هياج البربر . القتال بينهم وبين أهل قرطبة . هزيمة القرطبيين . اقتحام البربر للمدينة والفتك بأهلها . سليمان المستعين يسترد الخلافة . مصير هشام المؤيد . سليمان يطلق بالظافر . تفكك عرى الدولة . توزيع الكور بين زعماء البربر . خلال سليمان وشعره .

توزيع محمد بن هشام الملقب بالمهدي على كوسى الخلافة ، مكان الخليفة هشام المؤيد ، في ١٧ جمادى الآخرة سنة ٣٩٩ هـ (١٦ فبراير سنة ١٠٠٩ م) ، وانقضى عهد السلطة الثنائية — سلطة الخليفة الشرعي الإسمية ، وسلطة حاجبه والمتغلب عليه الفعلية — ليفسح مجالا لعود السلطة الموحدة . ولكن الظروف التي وقع فيها هذا الانقلاب الحاسم ، الذي أودى بين عشية وضحاها ، بسلطان دولة من أعظم الدول الأندلسية ، لم تكن تسمح لأية سلطة نظامية أن تثبت وأن تستقر ؛ فقد كان الخليفة الجديد ، شخصية مغامرة رخوة ، تحركها النزعات الوضيعة ، ولا تحدها أية غاية مثلى ، وقد أطلقت سائر الأهواء المتوثبة من عقالها ، وأخذ كل حزب وكل فريق وكل طائفة ، تحاول أن تحصل نصيبها من

أسياب الدولة المنهارة . فقد كان هناك المروانية أو بنو أمية ، يرون أنهم أصحاب السلطة الشرعية ، وأصحاب التراث المتخلف عن مقتضياتها ، بنو عامر ، وكان هناك الفتيان العامريون ، وأنصارهم من الصقالبة ، ومن إليهم من الجند المرتزقة ، وقد كانوا أولياء الدولة العامرية ، وكانوا من حيث العدد والعصبية قوة يعتد بها ، وكان هناك البربر ، وقد كانوا عماد الجيش العامري ، وكان عددهم قد تضاعف في أواخر أيام المنصور وبنيه ، وتوافد كثير من زعمائهم إلى شبه الجزيرة ؛ ثم كان هناك أخيراً الشعب القرطبي ، أو بغارة أخرى كتلة العامة والدهماء الذين آزرُوا الخليفة الحديد والتفوا حوله ، وقد كانوا قوة خطيرة متقلبة ، كثيرة الأهواء والنزعات ، لا تؤمن عواقبها .

استقبل الشعب القرطبي ، ولاية الخليفة الحديد ، بمظاهر السرور والرضى ، وأقاموا الحفلات والولائم ، وظنوا أنهم قد أفلتوا من أغلال النظام العامري المرهق ، ليستقبلوا عهداً أكثر تسامحاً ، وأوسع آفاقاً ، وما دورا أن القدر يتربص بهم ، وأن الأندلس سوف تجوز من تلك الساعة ، عهداً مليئاً بالحن والأحداث المؤلمة .

والواقع أن الخليفة الحديد لم يكن رجل الموقف ، ولم تكن جرأته التي تذرع بها لانتزاع السلطة من هشام المؤيد ، والقضاء على سلطان بنو عامر ، جرأة زعيم مقدام يقدر المسئوليات التي أجدها على عاتقه ، ولكن جرأة مغامر متهور ، وزعيم عصابة غير مسئولة ، التفت حوله جموع الدهماء الصاخبة ، دون وعي ولا تدبر ، شأنها دائماً في كل انقلاب وكل حدث جديد . ومن ثم فإنه ما كاد يشعر باستقرار أمره ، وتمكن سلطانه ، حتى أطلق العنان لطغيانه وأهوائه ، وجمع حوله بطانة سوء ، أخذت تنكر للناس ، وتضطهدهم ، وتسومهم سوء الخسف ؛ وأبدى الموكلون بالقصر من رجاله نحو البربر بنوع خاص منتهى الشدة والفظاظة ، وكان المهدي ورجاله يخصون البربر بالبغض والزرارية ، لأنهم كانوا عضد المنصور ، وسند نظامه الحديدي ، وكان أهل قرطبة ينساقون مع المهدي في هذه العاطفة ضد البربر ، وينظرون إليهم شزراً .

وبدا سخط المهدي نحو البربر في سوء معاملتهم ، والتشدد في دخولهم القصر ، فكانوا يمنعون من الركوب عند الدخول ، وينزع سلاحهم ، ويوجه إليهم قارص

الكلام ، ولم يفرق في ذلك بين أصاغرهم وزعمائهم ، حتى أن كبيرهم زعيم قبيلة صنهاجة ، زاوى بن زيرى بن مناد ، عند مقدمه إلى القصر ، مع جماعة من رجاله ، ردوا عند الباب بفظاظته ، وأهينوا ، فانصرفوا وقلوبهم تضطرم سخطاً . وسرت إلى العامة عندئذ ، موجة من التحامل ضد البربر ، فهاجمت بعض جموعهم دور البربر في ضاحية الرصافة ، ونهبوا بعضها ، وبادر صاحب المدينة بضبط الحال ورد الغوغاء ، وقتل ثلاثة منهم . وأسرع زاوى بن زيرى ، وحبوس بن ماكسن ، وأبو الفتوح بن ناصر ، وغيرهم من زعماء البربر بالدخول على محمد بن هشام ، وأخبروه بما وقع ، فاعتذر لهم ، ووعدهم برد ما نهب ، وقتل عدد من الغوغاء ، ولكن البربر لم تهدأ ثأرتهم ، وبقيت نفوسهم على اضطرامها .

وكان من أعمال العنف التي قام بها محمد بن هشام ، أن نفى عدداً من الفتيان الصقالبة العامرين . فغادروا قرطبة ، ولجأوا إلى أطراف الأندلس الشرقية ، وكان من تملكهم لبعض نواحيها ومدنها ما سذكروا في موضعه . ولم يقبل منهم على مسالمة محمد بن هشام ومصادقته ، سوى الفتى واضح صاحب مدينة سالم والثغر الأوسط ، فإنه بعث إليه كتاباً يؤكد فيه طاعته ، ويبدى ابتهاجه بمصرع عبد الرحمن المنصور ، فرد عليه المهدي بالشكر ، وبعث إليه أموالاً ومتاعاً ، ومرسوماً بولاية الثغر كله .

وعمد محمد بن هشام بعد ذلك إلى مطاردة الخليفة هشام المؤيد ، فحبسه في القصر أولاً ، وأخرج جواريه وفتيانه ، ودوابه المحبوبة ، ثم أخرجه بعد ذلك من القصر ، وأخفاه في بعض منازل قرطبة . وتوفي في ذلك الوقت رجل نصراني أو يهودي ، قيل إنه كان يشبه هشاماً شَبهاً قوياً ، فأعلن محمد بن هشام ، وفاة الخليفة ، وأحضر الوزراء والفتهاء فشهدوا بأنه هو الخليفة هشام المؤيد حقاً . ودفن هذا الخليفة المزعوم في اليوم السابع والعشرين من شعبان سنة ٣٩٩ هـ (١) . ولما شعر محمد بن هشام أن الأمر قد استتب له ، أطلق العنان لأهوائه ، وشهواته الوضيعة ، وانكب على معاقرة الخمر ، وبالغ في الاستهتار والمجون ، والمجاهرة بالفسق والفجور ، بصورة مثيرة أفقدته عطف الكثيرين واحترامهم ،

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٧٧ ؛ وابن الأثير ج ٨ ص ٢٥٢ .

وبطش بكثير من الناس ، وفي مقدمتهم ولى عهده سليمان بن هشام ، فقد سجنه وسجن معه جماعة من قریش ، وأخرج من الجيش نحو سبعة آلاف جندي ، أقيلا وقطعت أرزاقهم ، وأضحوا عنصراً من عناصر التوتّر والشغب ؛ وزاد في التحامل على البربر ، والتعريض بهم والطعن فيهم ، في كل فرصة وموطن ، حتى أصبح بغضه لهم ، وتربصه بهم ، من الأمور الدائغة ، وأخذ كل فريق يحتز من صاحبه ، ويتوقع منه الشر والغدر .

وكان هشام بن سليمان بن الناصر ، وهو والد سليمان ولى العهد المعتقل ، قد وجد على محمد بن هشام من جراء انحرافه وطغيانه ومجونه ، ونخشي سوء العاقبة على بني أمية ، وانهيار أمرهم ، فأخذ يسعى في خلع محمد بن هشام ، وانضم إليه جماعة من الناقمين عليه ، وفي مقدمتهم جماعة العبيد العامريين ، وطوائف البربر ، ومن تغيرت نفوسهم على محمد بن هشام ، وحاصر الثوار محمد بن هشام في قصره ، فبعث إلى هشام القاضي ابن ذكوان ، وأبا عمر بن حزم ، يعاتبانه على تصرفه ، وأمر بالإفراج عن سليمان بن هشام ، ووقع بين الرسولين وبين هشام حوار شديد ، أعلن فيه أنه أحق من محمد بالعرش ، فانصرفا عنه . والتفت العامة من الربض الغربي حول محمد ؛ وخرج محمد المهدي في جموعه لمقاتلة خصومه ، ودار القتال بينهما يومين متواليين ، ثم أسفرت المعركة عن هزيمة هشام وجموعه من البربر والعامريين ، وأسر هشام وابنه وأخوه أبو بكر ونفر من الزعماء ، قتلهم المهدي جميعاً (١) . وانشأت الدهماء على دور البربر ، فأعملت فيها التدمير والنهب حتى دخل الليل ، وكان ذلك في أواخر شوال سنة ٣٩٩ هـ (يونيه سنة ١٠٠٩ م) .

ودافع البربر عن أنفسهم ، ثم انسحب معظمهم إلى أرملاط (٢) ضاحية قرطبة ، ووقع القتال بقرطبة بين من تبقى منهم وبين العامة ، وحرص المهدي على قتلهم ، وجعل لرؤوسهم أثمناً ، ففتك العامة بكثير منهم ، ومن بينهم عدة من الزعماء ، ونهبوا دورهم ، واغتصبوا النساء وسبوهن ، كل ذلك في مناظر مثيرة من السفك والاعتداء الغاشم ؛ واختفى كثير من زعمائهم . وتوجس المهدي من العواقب ، فأصدر للبربر أمناً ، ونادى الكف عنهم ، ونصحهم بتغيير زيهم اتقاء

(١) البيان المغرب عن ابن حبان ج ٣ ص ٨٤ .

(٢) وهي بالإسبانية Quadimellato

الأذى ، وكتب إلى البربر في أرملاط أماناً ، فلم يلتفتوا إليه ، وغادروا أرملاط وساروا شمالاً إلى قلعة رباح ، وهناك أخلوا ينظمون أنفسهم، ويتدبرون أمرهم . وكان ممن فر من بني أمية عقب هزيمة هشام بن سليمان ومصرعه ، ولد أخيه سليمان بن الحكم بن عبد الرحمن الناصر ، وكان إماماً للبربر ، فسار معهم ، ورشحوه منذ البداية لتولى الأمر مكان المهدي ، ولقبوه بالمستعين . وكان سانشو غرسية أمير قشتالة يرقب تطور الحوادث في قرطبة باهتمام ، متأهباً لمظاهرة الفريق الخارج على الآخر ، ففاوضه سليمان وزعماء البربر في طليطلة على أن يمدّهم بالخند ، وتعهدوا إليه بتسليم بعض الحصون الواقعة على الحدود ، فقبل معاونتهم ؛ وفي أثناء ذلك حاول الفتى واضح صاحب مدينة سالم أن يعرقل مسير البربر ، فأمر مدن الثغر أن تمنع المؤن عن البربر ، ولقوا من جراء ذلك شدة وإرهاقاً . وأمدّه المهدي ببعض قواته بصحبة غلامه بليق ، فجمع جموعه وسار لقتال البربر ، ولجأ البربر من جانبهم إلى حليفهم سانشو ، فأمدّهم بالخند والمؤن الوفيرة . والتقى البربر وجيش واضح في مكان يسمى شرنبة على مقربة من قلعة النهر أو قلعة هنارس الحالية Alcalá de Henares فهزم واضح هزيمة شنيعة ، واستولى البربر على محلته وسلاحه ، وفرت فلوله صوب قرطبة . وكان ذلك في شهر ذي الحجة سنة ٣٩٩ هـ (١) .

وارتاع المهدي لتلك الهزيمة ، وأخذ في تحصين قرطبة ، وحفر حول فحص السرادق ، وهو محلة البربر خندقاً ، ورتب الرجال على الأبواب والأسوار ، وأخذ ينظم قواته النظامية ومن العامة . وكان واضح قد أتاح منهزماً في أربعمئة فارس من الثغر ، انضمت إلى قواته . وسار سليمان بن الحكم من جهة أخرى في جموع البربر ، ومعها القوات القشتالية بقيادة سانشو غرسية ، صوب قرطبة ، وعسكروا بشرقها في سفح جبل يعرف بجبل قنتج أو قنتش وذلك في يوم ١١ ربيع الأول سنة ٤٠٠ هـ . وبرز واضح في جموعه من أهل قرطبة والثغر ، واشتبك الفريقان في القتال يوم السبت ١٣ ربيع الأول (٥ نوفمبر ١٠٠٩ م) ، واضطربت بينهما معركة شديدة ، وسرعان ما دب الخلل إلى جيش قرطبة ، فارتد منهزماً إلى الوادي ، وتبعه البربر بعنف . فضاقت بهم المسالك ، وقتل منهم عدد جم

يقدره البعض بعشرة آلاف ، بينهم عدد كبير من العلماء والأئمة ، وقتل النصاري وحدهم نيفاً وثلاثة آلاف رجل ، وثبت واضح في رجاله حتى دخل الليل ، فانسحل تحت جناح الظلام وفر هارباً إلى الشجر (١) .

ولما رأى المهدي هزيمة جنده ، سقط في يده ، وحاول أن ينقذ نفسه بحيلة سخيفة ، يدفع بها دعوى سليمان ، فأظهر الخليفة هشاماً المويّد ، وكان قد أخفاه حسباً تقدم ، وزعم أنه مات ، وأجلسه في مكان بارز في شرفة القصر ، وبعث القاضي ابن ذكوان إلى البربر ، يخبرهم أن الخليفة هشاماً ما زال على قيد الحياة ، وأنه الإمام الشرعي ، وليس المهدي سوى نائبه وصاحبه ، فرده البربر بحفاوة وسخريّة ، وأبدوا تمسكهم بولاية سليمان . ولم ير المهدي أمامه سوى الفرار والنجاة بحياته ، فغادر القصر سراً ، واخترق قرطبة متنكراً ، ولحق بطليطلة . ودخل زاوي بن زيري زعيم البربر القصر ، ودخل سليمان بن الحكم في أثره في يوم الإثنين الخامس عشر من ربيع الأول سنة أربعمائة ، وبايعه الناس بالخلافة ، وتلقب بالمستعين بالله ، واستقبله الشعب القرطبي القلّب بحفاوة ، شأنه مع كل متغلب وظافر (٢) . ووكل سليمان بعض الفتيان الصقالية بالمحافظة على هشام المويّد في بعض أجنحة القصر ، ونزل البربر في الزهراء اتقاء للاحتكاك مع العامة . ومع ذلك فقد كانت حوادث الاعتداء تتوالى عليهم في دروب قرطبة وأزقتها . وكان من أول أعمال سليمان أن أمر بإزالة جثة عبد الرحمن بن المنصور عن خشبتها ، فغسلت ودفن في دار أبيه ، ووفد سانشو غرسية إلى القصر ، فاستقبل بحفاوة وخلع عليه وعلى أصحابه ، ثم عاد إلى معسكره ، ووعد البربر بتسليم الحصون التي تعهدوا بتسليمها متى استقر سلطانهم ، ثم غادر قرطبة بعد أن ترك من جنده مائة أنزلوا في ربض منية العقاب .

أما محمد المهدي فما كاد يصل إلى طليطلة ، حتى أخذ يدبر أمره من جديد ، وكانت الثغور ما تزال باقية على طاعته ودعوته ، وانضم إليه واضح وأخذ الأمر بيده . ولما علم سليمان بما يدبره المهدي وواضح ، خرج في قواته من قرطبة ،

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٩٠ ، ويقول ابن الخطيب إن النصاري قتلوا من أهل قرطبة ثلاثين ألفاً ، وهو رقم يحمل طابع المبالغة (أعمال الأعلام ص ١١٣) .

(٢) الذخيرة لابن بسام . المجلد الأول القسم الأول ، ص ٣٠ و ٣١ ، والبيان المغرب ج ٣ ص ٨٩ و ٩٠ .

وصار صوب طليطلة ، ثم دعا أهلها إلى طاعته ، فأبوا . وانصرف سليمان بقواته إلى مدينة سالم ، فلقى نفس الفشل في استمالة أهلها ، فارتد عندئذ إلى قرطبة اتقاء لأهوال الشتاء (أواخر شعبان سنة ٤٠٠ هـ) . وفي خلال ذلك كله كان الفتي واضح قد سار إلى طرطوشة من ثغور الثغر الأعلى ، واتصل بأمر برشلونة الكونت رامون بوريل وزميله أمير أورقلة الكونت أرمنجو ، واتفق معهما على أن يمداه بجيش لمقاتلة البربر في قرطبة ، فقبلا معاونته بشروط باهظة ، من تقديم الطعام والشراب ، وأن يتناول كل منهما في اليوم مائة دينار ، وأن يتناول كل جندي دينارين في اليوم ، وأن يستولى الجند النصارى على ما يغنمون من سلاح البربر وأموالهم ، وأخيراً أن يستواوا على مدينة سالم ، وقد احتلوها بالفعل في طريقهم إلى طليطلة ، بعد أن أخلاها واضح من المسلمين (١) .

وسار الجيش الفرنجي برفقة واضح إلى طليطلة ، حيث انضم إليه المهدي في قواته ، وسارت القوات المتحدة صوب قرطبة . وكان سليمان المستعين قد وقف على أهبة خصومه ، ووفرة القوات الزاحفة عليه ، فاستنفر الناس لنصرته ، فلقبت دعوته فتوراً ، فحشد ما استطاع من جموعه ، وخرج مع البربر للملاقاة خصومه . وكان اللقاء على قيد نحو عشرين كيلومتراً من شمالي قرطبة في مكان يعرف « بعقبة البقر » ، وذلك في منتصف شوال سنة ٤٠٠ هـ (أواخر مايو سنة ١٠١٠ م) ، واحتل البربر بقيادة زعيمهم زاوى بن زيرى المقدمة ، ورابط سليمان بقواته في المؤخرة . واقتتل البربر مع الفرنج قتالاً شديداً ، قتل فيه كثير منهم ، وفي مقدمتهم الكونت أرمنجو (وتسميه الرواية العربية أرمقند) ، ولكن جانباً من فرسان الفرنج اخترقوا صفوف البربر ، فظن سليمان أن الهزيمة وقعت بهم فارتد منهزماً وكشف بذلك مؤخرة البربر ، فلما رأى البربر فرار سليمان بقواته ، ارتدوا لفورهم نحو الزهراء ، فأخذوا أهلهم وأموالهم وغادروها إلى الجنوب مسرعين ، وفر سليمان في بقية من صحبه شرقاً صوب شاطبة . وفي اليوم التالي دخل واضح ومحمد المهدي قرطبة ، وجدد المهدي البيعة لنفسه وعين واضحاً لحجابه (٢) .

واعتزم المهدي أن يقضى على البربر قبل أن يعودوا لمقارعتة . فجمع الأموال

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٩٤ .

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ٩٤ و ٩٥ ؛ والذخيرة القسم الأول المجلد الأول ص ٣٢ .

من أهل قرطبة ، وأعطى الفرنج أعطيائهم ، وحشد كل ما استطاع من قواته ، وخرج لمطاردة البربر . وكان البربر قد وصلوا عندئذ إلى « وادي آره » أو وادي يارو^(١) . على مقربة من مربلة في طريقهم إلى الجزيرة الخضراء . وكان جيش المهدي يتكون من نحو ثلاثين ألف من المسلمين ، وتسعة آلاف من الفرنج . وهناك التقى الجمعان ، واشتبكا في معركة طاحنة ، دارت فيها الهزيمة على المهدي وحلفائه ، وقتل من الفرنج نحو ثلاثة آلاف ، وغرق منهم عدد جهم ، واستولى البربر على كثير من أسلحتهم ونخيلهم ومتاعهم^(٢) ، ووقعت هذه الموقعة ، في شهر ذي القعدة سنة ٤٠٠ هـ (يونيه ١٠١٠ م) ، وعلى أثرها ارتد المهدي إلى قرطبة ، وهناك غادره حلفاؤه النصاري عائدون إلى بلادهم . وسار البربر جنوباً إلى ناحية ريث ، وهناك لحق بهم سليمان المستعين بمن معه . وأخذ الفريقان يدبران معاً استئناف الصراع للاستيلاء على قرطبة .

وعكف المهدي على تحصين قرطبة ، وحفر حولها خندقاً ، أقيم وراءه سور ، وأخذ يستعد للدفاع ، ويحشد الجند توقعاً لمعاودة البربر الكرة . وكانت جموع من البربر في أثناء ذلك تغير على نواحي قرطبة من آن لآخر . وفي أثناء ذلك كان واضح قد ضاق ذرعاً بتصرفات المهدي وحقايقه ، وسوء خلقه من عكوف على الشراب والمجون . وكان الفتيان العامريون وفي مقدمتهم واضح جميعاً ينقمون على المهدي ما فعله بهشام المؤيد ، وبني عامر ؛ وكان قد وصل إلى قرطبة حملة منهم من شاطبة ، وفيهم بعض الفتيان البارزين مثل خيران وعنبر ، فأتمروا على الغدر بالمهدي ، وأخرجوا هشاماً من محبسه بالقصر ، وأجلسوه للخلافة ونادوا بولايته ، وأتوا بالمهدي بين يديه ، فضرب عنقه ، واحتز رأسه ، وألقى بجسده من أعلى السطح ، ورفعوا رأسه على قناة طيف بها في الشوارع ، ووقعت هذه الجريمة في الثامن من ذي الحجة سنة ٤٠٠ هـ (٢٣ يوليه ١٠١٠ م)^(٣) .

وهكذا استرد هشام المؤيد الخلافة ، بعد سلسلة من الخطوب والأحداث المثيرة ، وكان يومئذ كهلاً في نحو السابعة والأربعين من عمره ، وكان قد مضى

(١) وبالإسبانية Quadiaro

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ٩٦ ؛ وأعمال الأعلام ص ١١٣ .

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ١٥٠ ؛ وابن الأثير ج ٨ ص ٢٢٦ ؛ والذخيرة القسم الأول ،

المجلد الأول ص ٣٢ ؛ والبيان المغرب ج ٣ ص ٩٦ و ٩٩ و ١٠٠ .

عليه مذولى الخلافة صبيها لأول مرة أربعة وثلاثون عاماً ، وفى تلك الفترة شهدت الأندلس طائفة من الأحداث الجسام ، لم تشهد مثلها من قبل : شهدت قيام الحاجب المنصور ودولته العامرية ، واختفاء سلطة الخلافة ، فى ظل نظام الطغيان المرقى الذى فرضه بنو عامر ، ثم شهدت الثورة الغامرة التى أطاحت بالدولة العامرية وعود الخلافة الأموية فى ثوبها الباهت المهلهل ، على يد مغامرين مثل محمد بن هشام المهدي ، وسليمان المستعين ، وشهدت وفاة هشام المزعومة ، ثم بعثه ، وعوده إلى تولى الخلافة ، شبحاً من أشباح الماضى ، وألحوبة فى يد واضح وزملائه الفتيان العامريين ، أصحاب الحول والسلطان ، بعد ابتعاد البربر ومصرع المهدي .

وتولى واضح بالطبع منصب الحجابة للخليفة الذى اصطنعه ، وسكنت الفتنة ، وهدأت الخواطر نوعاً ، وبعث الخليفة برأس المهدي إلى سليمان المستعين وحلفائه البربر ، وكتب إليهم يدعوهم إلى طاعته ، وأخذ يظهر فى شوارع قرطبة خلافاً لما كان عليه فيما مضى ، إظهاراً لهيبة الخلافة وسلطانها . ولكن البربر لم يقبلوا دعوته ، وأبدوا تمسكهم بولاية سليمان ، وكان البربر فى الواقع يضطرمون حقداً على أهل قرطبة لما أصابهم منهم من أنواع النكال ، ويزمعون الانتقام منهم بكل وسيلة . وحاول سليمان والبربر أن يحصلوا مرة أخرى على معاونة سانشو غرسيه أمير قشتالة ، وعرضوا أن يسلموه سائر الحصون الأمامية التى افتتحها الحكم والمنصور ، إذا ارتضى مخالفتهم ومعاونتهم على استعادة قرطبة ، وخلع المؤيد ، ولكن سانشو لم يصنع إليهم فى تلك المرة ، معتزماً أن يوجه مطالبه إلى الخليفة القائم . وعندئذ عول البربر على السير إلى قرطبة ، فسارت جموعهم حتى وصلت إلى الزهراء غربى قرطبة ، فهاجموا وقتلوا معظم الجند الذين بها ، واحتلوها وذلك فى شهر ربيع الأول سنة ٤٠١ هـ (نوفمبر سنة ١٠١٠ م) ، واستمروا بها بضعة أشهر حتى أواخر شعبان من تلك السنة ، ثم زحفت جموعهم على أرباض قرطبة ، يعيشون فيها تخريباً ونهباً وقتلاً ، ويحتنبون الاشتباك مع جند واضح ، وضج أهل قرطبة لهذا الاعتداء ، وزادت نفوسهم حقداً على البربر ، وتحرقاً للانتقام منهم ، وانتشرت جموع البربر فى نفس الوقت جنوباً ، حتى وصلت إلى أحواز غرناطة ومالقة وهى تنشر الخراب والدمار أينما حلت .

وفي تلك الأثناء وصل سفراء سانشو غرسية أمير قشتالة إلى قرطبة ، يطالبون بالحصون الواقعة على الحدود ، والتي افتتحها المسلمون منذ أيام الحكم حتى نهاية عهد بني عامر . ولم ير هشام وواضح بدأ من إجابة سانشو إلى طلبه ، اتقاء لعدوانه من جهة ، واتقاء لتحالفه مع البربر من جهة أخرى . وعقد مجلس من الفقهاء والقضاة ، وكتب محضر رسمي بتسليم عدد كبير من الحصون إلى النصارى ، يقال إنها أربت على المائتين (١) ، ومنها معاقل هامة ، كانت قواعد أمامية للمسلمين ، مثل شنت إشتين ، وقلونية ، وأوسمة ، وغرماج وغيرها ، وخسرت الأندلس بذلك خط دفاعها الأول ، وتركت حدودها الشمالية مفتوحة لغزوات النصارى . واستمر البربر على حصارهم لقرطبة ، وعيشهم في أرباضها الخارجية ، وكانت الحالة تسوء من يوم إلى يوم ، وكان الناس في قرطبة ، جيشاً وشعباً ، يزمعون مقارعة البربر ، والقضاء عليهم بكل ما وسعوا ، ويرفضون كل رأى أو مسعى يتجه إلى مسألتهم أو التفاهم معهم ، ولم يجد المؤيد وواضح بدأ من الانسياق مع التيار العام ، واتخاذ كل وسيلة ممكنة للدفاع عن المدينة ، ولكن الموارد كانت تقل يوماً عن يوم ، حتى اضطر المؤيد إلى إخراج سائر نفائس القصر وتحفه ورياشه ، ليقتنى بشمها الخيل والسلاح ، وفضلاً عن ذلك فقد أرهاق القرطبيون بالمطالب والمغارم حتى ضاقوا ذرعاً ؛ وأخيراً شعر وواضح بأنه يواجه حالة مستحيلة ، واعتزم أن يغادر قرطبة سراً ، إلى بعض نواحي الثغر ، ولكن بعض أكابر الجند وقفوا على مشروعه ، فنهض أحدهم ، وهو على بن وداعة مع نفر من زملائه ، فعاتبوه على ما بدد من الأموال ، وما أساء من تصرف ، ثم قتلوه واحتزوا رأسه ، وطيف بها في الشوارع ، ونهبت دوره ودور أصحابه ، فوجد بها مال كثير معبأ كان يعتزم الفرار به . وهكذا كفر وواضح بدمه عن جريمته في اغتيال المهدي ، وهكذا أضحت الجريمة وسيلة ذائعة في بلاط قرطبة ، لاقتناص السلطان أو التخلص من صاحبه (٢) .

وعلى أثر ذلك ولي المؤيد ابن وداعة شرطة المدينة ، فاستعمل الحزم والشدة ، في قمع الشغب وحصون النظام والأمن ، فهابته العامة ، وقلت حوادث الشغب ، وتولى تدبير الأمور للمؤيد رجل من موالى العامرين يسمى ابن مناو ؛ ثم جاءت

(١) أعمال الأعلام ص ١١٧ .

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ١٠٣ و ١٠٤ ؛ وأعمال الأعلام ص ١١٧ و ١١٨ .

إلى قرطبة كتب من أهل الثغور يعتذرون فيها عن عجزهم عن إرسال الأمداد ، وينصحون المؤيد إما بمصالحة البربر ، أو التفاوض مع أمير قشتالة ؛ فكتب هشام إلى زاوى بن زيرى يحثه على عقد الصلح ، ويَعِدُه بما شاء من مال أو ولاية ، فرد زاوى بأنه لا يستطيع مخالفة أصحابه ، وأنه مع ذلك لا يدخر وسعاً في العمل لتأليف كلمة المسلمين وحقن الدماء^(١) .

ثم بذلت محاولة مماثلة لدى سليمان بن الحكم والبربر ، إذ كتب أهل قرطبة على لسان هشام وابن مناو كتابين ، وجه أحدهما من هشام إلى سليمان ، وفيه يرجو العمل على إخماد الفتنة ، وتسليم الأمر إليه ، وعلى أن يغدو سليمان ولي عهده والقائم بأعباء الخلافة عنه ، ووجه الثاني من وزراء قرطبة إلى وزراء البربر ، فلم يحفل سليمان بكتاب هشام ، وقال للرسول بل إنه هو أمير المؤمنين والخليفة ، وأنه لا يعترف لهشام بصفة ما .

كل ذلك والأمر يشتد على أهل قرطبة . ودخل الوزراء ووجوه الجند والفتيان على هشام ، وكشفوا له خطورة الحالة ، واشتداد ضغط البربر على المدينة وأرباضها ، وتفاقم الضيق والغلاء ، وقصور الثغور عن إنجاد المدينة ، وكون الشعب منقسم على نفسه ما بين راغب في الكفاح ، وراغب في الصلح ، فبكى هشام فيما قيل ، واعتذر لعجزه وقصوره ، وقال لهم افعلوا ما ترون .

وعجل باضطرام النار حادث وقع في آخر ذي الحجة سنة ٤٠٢ هـ ، إذ تقدم جماعه من وجوه البربر وفي مقدمتهم حباسة بن ماكسن ابن أخى زاوى ، وكان من أشجع قادة البربر ، ومعه جماعة قليلة من الفرسان ، ونزلوا في بقعه قريبة من الأسوار ، فرآهم أهل قرطبة من وراء الخندق ، فاجتمع منهم عدد عظيم ، وانقضوا على حباسة وصحبه ، فدافعوا عن أنفسهم دفاعاً عظيماً ، ولكنهم غلبوا في النهاية على أمرهم ، وأسر حباسة ، فلما عرفه القوم قتلوه بوحشية ، وقطعوا جسده إرباً لعظيم حقدهم عليه ، ولما قاسوه من شدة قتاله ونكايته ، فلما وقف أخوه حبوس وعمه زاوى على الخبر ، اضطرب البربر ، واستعدوا للقتال ، وفي اليوم التالي اشتبكوا مع أهل قرطبة في عدة معارك ، وفتكوا بكثير منهم .

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ١٠٧ و ١٠٨ .

واستمرت المعارك من ذلك الحين بين الفريقين سجالاً ، وأهل قرطبة يخرجون من المدينة مرة بعد أخرى ، ويقاتلون البربر محاولين تحطيم الحصار المرهق ، والبربر من جانبهم ينزلون بهم أشد الضربات . وفي ٢٦ شوال سنة ٤٠٣ هـ (مايو سنة ١٠١٣ م) نشبت بين الفريقين معركة عامة ، وقاتل أهل قرطبة قتالاً شديداً ، ولكنهم هزموا بعد معارك طاحنة ، وقتل منهم عدد جم ، وساد الاضطراب أرجاء المدينة ، وفتحت أبوابها ، وخرج القاضي ابن ذكوان مع جماعة من الفقهاء وساروا إلى معسكر البربر ، وطلبوا الأمان من سليمان وزعماء القبائل البربرية ، فمنح الأمان لقاء مبالغ عظيمة فرضت على المدينة ، ودخل البربر المدينة دخول الوحوش المفترسة ، فقتلوا كثيراً من سكانها ، ولم يفروا الأطفال والشيوخ ، وأوقعوا بها السلب والنهب ، وأحرقوا الدور ، واغتصبوا النساء والبنات ، وارتكبوا أشنع ضروب السفك والإثم ، وكانت محنة من أروع ما قاسته عاصمة الخلافة . وفي اليوم التالي دخل سليمان المستعين قصر قرطبة ، واستدعى هشاماً المؤيد وعنفه على موقفه ، فاعتذر بأنه مغلوب على أمره . وهنا تختلف الرواية في مصير هشام ، فالبعض يقول إن سليمان أخفاه حيناً ، ثم قتله ولده محمد بن سليمان ، والبعض الآخر بأنه فر من محبسه ، وقصد إلى ألمرية حيث عاش حيناً في خمول وبؤس حتى توفي . بيد أننا نرجح الرواية الأولى ، وإن كان اسم هشام سوف يظهر بعد ذلك على مسرح الحوادث .

ولما استتب الأمر لسليمان ، وهدأت الخواطر نوعاً ، تلقب بالظافر بحول الله مضافاً إلى المستعين ، وانتقل إلى مدينة الزهراء بحاشيته وقواد البربر وجندهم ، فاحتلوها وما حولها ، ونزل على والقاسم ابنا حمود قائدا فرقة العلوية بشقندة ضاحية قرطبة ، وأخذ سليمان ينظم شئون الحكومة المضطربة . وكانت الفوضى قد سرت إلى جميع النواحي ، وتفككت عرى الدولة ، وقصر نفوذ الحكومة إلا عن قرطبة وما يجاورها ، وقبض البربر الذين رفعوا سليمان إلى العرش ، على السلطة الحقيقية ، فتولوا مناصب الحجابة والوزارة ، وسائر المناصب الهامة ، ورأى سليمان لإرضاء لهم من جهة ، لهم وإبعاداً عن قرطبة من جهة أخرى ، أن

(١) راجع في سقوط قرطبة ومصير هشام ، ابن خلدون ج ٤ ص ١٥١ ؛ وابن الأثير ، ج ٩ ص ٧٥ والمراكشي ص ٢٢ - ٢٥ ؛ وأبو الفدا ج ٢ ص ١٣٩ ؛ والبيان المغرب ج ٣ ص ١١٢ و ١١٣ ؛ وأعمال الأعلام ص ١١٨ - ١٢٠ .

يقطعهم كور الأندلس ، وكانوا ست قبائل رئيسية ، فأعطى قبيلة صنهاجة وزعمائها بني زيري ، ولاية البيرة (غرناطة) ، وأعطى مغراوة جوفى البلاد ، وبني برزال وبني يفرن ولاية جيان ومتعلقاتها ، وبني دُمّر وازداجة منطقة شدونة ومورور ، وأقر المنذر بن يحيى التجيبي على ولاية سرقسطة والثغر الأعلى ، وكان قد انضم إلى سليمان ، وحارب مع البربر من أجل قضيته ، وولى بني حمود الأدارسة ثغور المغرب ، فولى علياً بن حمود على ثغرسبته ، وأخاه القاسم بن حمود على ثغور الجزيرة الخضراء ، وطنجة وأصيلا ، وهكذا سيطر البربر على ولايات الأندلس الجنوبية والوسطى ، وأخذوا يحتلون في شئونها مكانة لها خطرها (١) .

وكان الفتيان العامريون لما رأوا غلبة البربر على حكومة قرطبة الجديدة ، قد توجسوا من غدرهم ، وفر معظمهم إلى شرقى الأندلس ، بعيداً عن سلطان الحكومة المركزية ، وأنشأوا هنالك في القواعد الشرقية ، حكومات محلية حسبما نذكر بعد .

وقضى سليمان المستعين في الحكم للمرة الثانية نحو ثلاثة أعوام ، استمرت خلالها حال الاضطراب والفوضى في قرطبة وسائر أنحاء الأندلس . ولم تهدأ الخواطر ولم تطمئن النفوس . وغلب سلطان البربر ، واشتد طغيانهم وتحكمهم ، ولبثت الأهواء المتوثبة تجيش في صدور الطامعين من زعمائهم ، حتى تمخضت غير بعيد عن انقلاب جديد في مصائر الخلافة .

وكان من أبرز صفات سليمان ، مواهبه الأدبية الرفيعة ، فقد كان أديباً متمكناً ، وشاعراً مطبوعاً ، قال فيه ابن بسام إنه «أحد من شرف الشعر باسمه ، وتصرف على حكمه» وأورد له القصيدة الآتية ، وهي الوحيدة التي عثر بها من نظمه ، وفيها يعارض قطعة الرشيد «ملك الثلاث الأنسات عناني» وفيها تلبو براعته ورقة خياله :

| | |
|-------------------------------|---------------------------|
| عجباً يهاب الاليت حدّ سناني | وأهاب لحظ فواتر الأجفان |
| فأقارع الأهوال لا منهيباً | منها سوى الإعراض والهجران |
| وتملك نفسي ثلاث كالدمى | زهر الوجوه نواعم الأبدان |
| ككواكب الظلماء لُحْن لناظري | من فوق أغصان على كُثبان |
| هذى الهلال ، وتلك بنت المشتري | حسناً وهذى أخت غصن البان |

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ١١٣ - ١١٥ ؛ وأعمال الأعلام ص ١١٩ .

| | |
|---|--|
| حَاكَمْتُ فِيهِنَّ السُّلُوَ إِلَى الصَّبَا | فَقَضَى بِسُلْطَانٍ عَلَى سُلْطَانِي |
| فَأَبْجَنَ مِنْ قَلْبِي الْحَمَى وَتَرَكْنِي | فِي عِزِّ مَلِكِي كَالْأَسِيرِ الْعَانِي |
| لَا تَعْدِلُوا مَلِكًا تَذَلُّ لِلْهَنَى | ذَلَّ الْهُوَى عِزًّا وَمَلِكٌ ثَانِي |
| مَا ضُرَّ أَنِي عِبْدُهُنَّ صَبَابَةً | وَبَنُو الزَّمَانِ وَهْنٌ مِنْ عِبْدَانِي |
| إِنْ لَمْ أَصْعَ فِيهِنَّ سُلْطَانُ الْهُوَى | كَلْفًا بَيْنَ فَلَسْتُ مِنْ مَرْوَانِ |
| وَإِذَا الْكَرِيمُ أَحَبَّ أَمَّنَ لِنَفْسِهِ | نَخَطَبُ الْقَلَى وَحَوَادِثُ السُّلْوَانِ |
| وَإِذَا تَجَارَى فِي الْهُوَى أَهْلُ الْهُوَى | عَاشَ الْهُوَى فِي غِبْطَةٍ وَأَمَانِ ^(١) |

(١) ابن بسام في الذخيرة . المجلد الأول القسم الأول ص ٣٣ و ٣٤ و المراكشي ص ٢٥ .

الفصل الثاني

دولة بني حمود

ظهور البربر في الميدان . على والقاسم ابنا حمود . بنو حمود ونسبتهم . ولاية الثغور بين البربر والفتيان العامريين . استيلاء البربر على قرطبة باسم سليمان . خير ان العامري ينتزع المرية ويدعو للمؤيد . حل بن حمود يزعم أنه تلقى ولاية العهد من هشام . تحالفه مع خيران وعبوره إلى الجزيرة . مسير القوات المتحالفة إلى قرطبة . القتال بينها وبين البربر . هزيمة البربر وسليمان . على بن حمود يدخل القصر . اشتداده في معاملة البربر . خيران يخرج عليه ويدعو لعبد الرحمن المرتضى . انضمام الثغور الشرقية وسرقسطة لهذه الدعوة . القتال بين المرتضى وصنهاجة . انتصار البربر ومقتل المرتضى . اضطهاد حل لأهل قرطبة . مصرعه . أخوه القاسم يخلفه . جنوحه إلى سياسة اللين والتفاهم . غلبة البربر عليه . خروج يحيى بن على واستيلاؤه على الخلافة . التجاء القاسم إلى إشبيلية . خلع المعتل وعود القاسم . اصطفاؤه للبربر . سحق أهل قرطبة . محاربتهم وهزيمتهم للبربر . مسير القاسم إلى إشبيلية ثم إلى شريش . يحيى المعتل يطارده ويأسره . استقرار المعتل في الثغور الجنوبية . رد الأمر لبني أمية . خلافة عبد الرحمن المستظهر . وصف ابن حيان لبطله . عطفه على البربر . فتك القرطبيين بهم . فرار المستظهر ومصرعه . خلافة المستكني . اضطهاده للزعماء . تخلفه وفراره . يحيى بن حمود يحتل قرطبة . فتك القرطبيين بالحامية البربرية . رد الأمر لبني أمية . بيعة هشام المعتد بالله . وزيره حكم بن سعيد . سوء مسلكه ومصرعه . خلع هشام ومصرعه . الإجماع على إبطال الخلافة والتخلص من بني أمية . استيلاء يحيى المعتل على قرمونة . الحرب بينه وبين ابن عباد . هزيمة يحيى ومصرعه . خلافة إدريس المتأيد بالله . غزو إدريس وحلفائه لأحواز إشبيلية . الحرب بين زهير العامري وباديس أمير غرناطة . مصرع زهير . الحرب بين ابن عباد والبربر . هزيمة ابن عباد ومقتل ولده إسماعيل . وفاة إدريس وخلافة ولده يحيى . خروج حسن بن يحيى ومبايعته بالخلافة . مقتل الوزير ابن بقره . مصرع حسن . محاولة الحاجب نجما ومصرعه . خلافة إدريس العالي . الثورة عليه وخلعه . خلفه محمد بن إدريس المهدي . طغيانه والسخط عليه . مصرعه . خلافة إدريس السامي . عودة إدريس العالي . خلافة المستعل . استيلاء باديس على مالقة . حكومة بني القاسم بن حمود بالجزيرة . استيلاء ابن عباد على الجزيرة . إنقراض دولة بني حمود . تفكك الأندلس وانقسامها .

لما قضى على دولة الأدرسة بالمغرب الأقصى أيام الحكم المستنصر ، ثم بعد ذلك أيام المنصور بن أبي عامر ، وأصبح المغرب ولاية أندلسية تخضع لحكومة قرطبة ، تفرق كثير من زعمائه في مختلف الجهات ، ولاذوا بالاختفاء ، بعيداً عن بطش السلطة الجديدة ، وأخذوا يرقبون الفرص لاستعادة سلطانهم ؛ وهاجر

عدد كبير منهم إلى الأندلس ، من البربر والمغاربة ، وانضووا تحت لواء الدولة العامرية في أواخر عهدها ، وعاونوا في توطيد سلطانها وتدعيم جيشها .
ولما انهارت الدولة العامرية ، وعم الاضطراب والفوضى في قرطبة ، ظهر البربر طرفاً بارزاً من أطراف المعركة ، التي اضطرت حول السلطان والخلافة ؛ ولما نجح بنو أمية في تحقيق ضربتهم الأولى على يد محمد بن هشام المهدي ، انحاز البربر للفريق المعارض ، لما نالهم من مطاردته واضطهاده ، وكانت الحصومة تضطرم في الواقع منذ بعيد بين الأمويين والبربر ، لاعتقاد الأمويين أن البربر كانوا أكبر عصب للمنصور ، في اغتصاب السلطة والقضاء على سلطان بني أمية . ولما فشل البربر في محاولتهم الأولى للقضاء على رياسة المهدي ، التفوا حول خصيمه سليمان المستعين ، ليكون مرشحهم الشرعي ، ووسيلتهم إلى انتزاع السلطة ، وانتهى الصراع بين الفريقين ، آخر الأمر بانتصار البربر ، واستيلاء مرشحهم سليمان على الخلافة ، وحصولهم على نصيبهم من أسلاب السلطة ، بتولى رياسة الولايات والثغور الجنوبية .
وكان من بين الزعماء المغاربة ، الذين قادوا جموع البربر في معركة قرطبة المظفرة ، رجلا من عقب الأدارسة ، هما علي والقاسم ابنا حمود بن ميمون ابن حمود . ونحن نعرف أن الأدارسة يرجعون نسبهم إلى الحسن بن علي بن أبي طالب ؛ وإذا ، فقد كان علي والقاسم ، وفقاً لهذا القول ، علويين من سلالة آل البيت . وهذا ما يقوله العلامة النسابة ابن حزم ، إذ يرجع نسبة علي والقاسم ، إلى إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي^(١) ، ويقول أيضاً عبد الواحد المراكشي وابن عذاري ، وابن الخطيب^(٢) .

بيد أنه بالرغم من هذه النسبة العلوية ، وهذه الأرومة العربية العريقة ، التي ينتحلها بنو حمود ، فإنهم ، إذا تركنا مسألة النسبة والسلالة جانباً ، كانوا ينتمون في الواقع من حيث النشأة والعصبية والمصير ، إلى البربر ، وكان الطابع البربري غالباً عليهم ، حتى أنهم لم يكونوا يتكلمون العربية ، وإنما كانوا يتكلمون باللغة البربرية ، وقد أشار ابن الخطيب إلى ذلك في حديثه عن علي بن حمود^(٣) .

(١) راجع جمهرة أنساب العرب (القاهرة) ص ٤٣ و ٤٤ .

(٢) المراكشي في المعجب ص ٢٤ ؛ وابن عذاري في البيان المغرب ج ٣ ص ١١٩ ؛ وابن

الخطيب في أعمال الأعلام ص ١٢٨ .

(٣) أعمال الأعلام ص ١٢١ .

وقد رأينا أن سليمان المستعين حينما استرد الخلافة ، عقب انتصار البربر على أهل قرطبة ، نخص علياً والقاسم ، بولاية الثغور المغربية ، وندب علياً لحكم سبتة ، وندب القاسم لحكم الجزيرة الخضراء وطنجة وأصيلا ، وذلك في أوائل سنة ٤٠٤ هـ (١٠١٣ م) .

وفي الوقت الذي استولى فيه البربر ، على الولايات والثغور الجنوبية ، كان الفتيان العامريون ، منذ اضطرام الفتنة ، قد استقروا بشرق الأندلس ، واستولى كثير منهم على الثغور الشرقية ، وفي مقدمتهم مجاهد الذي استولى على دانية والجزائر الشرقية فيما بعد ، وخيران ، الذي استولى على ألمرية ومرسية . وكان خيران حينما استولى محمد بن هشام المهدي على الخلافة للمرة الثانية ، بموازرة واضح والحمد النصاري ، وتولى واضح منصب حجابته ، قد عاد إلى قرطبة مع نفر من الفتيان العامريين ، وانضدوا إلى واضح ثم اشتركوا معه في تدبير اغتيال المهدي ، وإعادة هشام المؤيد إلى كرسي الخلافة حسبما تقدم . وكان أولئك الفتيان يعتبرون هشاماً إمام دولتهم بعد ذهاب المنصور . فلما قتل واضح واستولى البربر على قرطبة ، وانتزع سليمان المستعين الخلافة من هشام المؤيد ، غادر خيران ومعه عدة كبيرة من الفتيان قرطبة ، اتقاء بطش البربر ، وسار إلى شرق الأندلس ، وانضم إليه حال سيره كثير من الناقمين من بني أمية وغيرهم ، ثم زحف على ألمرية ، وكانت بيد أفلح الصقلي ، فانزعها منه ، واستولى على كثير من الأماكن المجاورة ، واشتد بأسه في تلك الناحية ، ودعا لهشام المؤيد .

وكان تمزق الأندلس على تلك الصورة ، وانتثار السلطة بين الأمويين والبربر ، والفتيان العامريين ، مما يفسح المجال لأطماع الطامعين والمتغلبين ، وكانت تلك الأطماع تجيش في الواقع ، في صدور أولئك الذين رأوا في ضعف السلطة المركزية ، وذيوع الخلاف والفوضى ، فرصة يمكن انتهازها . وكان على ابن حمود الحسني ، قد ولي حكم سبتة ، وولي أخوه الأكبر القاسم ، حكم الجزيرة الخضراء ، لا يفصلهما سوى مضيق جبل طارق . وكان على يطمح إلى أكثر من حكم مدينة ، ويتطلع إلى الوثوب بحكومة قرطبة المضطربة المتداعية . وكان يرى في الفتيان العامريين خصوم سليمان المستعين حلفاءه الطبيعيين ، فكاتب كبيرهم خيران صاحب ألمرية ، وأظهر كتاباً زعم أنه تلقاه من الخليفة هشام المؤيد يوليه

فيه ولاية عهده ، ويطلب إليه أن ينقذه من أسر البربر وسليمان ؛ ويقول لنا ابن حيان ، إن هشاماً المؤيد لما رأى اضطراب أمره وتصرم دولته ، قد منح على ابن حمود ولاية عهده ، وأوصى إليه بالخلافة من بعده ، وأرسل إليه ذلك بسبته سرّاً ، وولاه طلب دمه ، واستكتمه السر حتى يحين الأوان لذلك^(١) . فذاغت دعوة على ، ولباها بعض حكام الثغور الجنوبية مثل ، عامر بن فتوح الفائق مولى الحكم المستنصر ووزير ولده المؤيد ، وكان يومئذ حاكماً لمالقة . وكتب إليه خير أن يعبر إليهم . فعبر على من سبته إلى الجزيرة الخضراء في أواخر سنة ٤٠٦ هـ (١٠١٦ م) وسار في أشياعه من البربر إلى مالقة ، فسلمها إليه عامر ابن فتوح ، ودعا له بولاية عهد المؤيد حالة ظهوره حياً ، وسار خيران في قواته والتقى بعلى في ثغر المنكب الصغير ، ما بين مالقة وألمرية ، فجمع الزعيمان قواتهما ونظما خططهما للزحف على قرطبة ، وبويع على بن حمود على طاعة المؤيد . ثم سارت القوات المتحدة صوب قرطبة ، وانضم إليها خلال السير زاوى بن زيرى وحبوس الصنهاجى في قوة من بربر غرناطة . وكان سليمان المستعين ، قد ترامت إليه أنباء أولئك الحوارج عليه ، وزحفهم لقتاله ، فخرج من قرطبة للقائهم في جند البربر ، والتقى الفريقان في ظاهر قرطبة على قيد عشرة فراسخ منها ، ونشبت بينهما معركة شديدة ، انتهت بهزيمة سليمان ، وقتل عدد جم من أنصاره ، وكان سليمان وأبوه الحكم ، وأخوه عبد الرحمن ، بين الأسرى . ودخل على بن حمود قصر قرطبة في الثامن والعشرين من محرم سنة ٤٠٧ هـ (أول يولييه سنة ١٠١٦ م) وبحث عن هشام المؤيد فلم يجده ، وكان لا اعتقاد سائداً بأن سليمان أخفاه ولم يقتله ، فلما علم بأنه قُتِل ، أتى بسليمان وأبيه وأخيه وقتلهم بنفسه انتقاماً للمؤيد . ثم أعلن وفاة المؤيد ، ودعا إلى البيعة لنفسه ، فبويع بالخلافة وتلقب بالناصر لدين الله ، وكانت مدة خلافة سليمان الثانية مذ دخل قرطبة إلى أن قتل ثلاثة أعوام وبضعة أشهر ، وكانت أمه أوم لد تدعى ظبية ومولده في سنة ٣٥٤ هـ^(٢) .

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ١١٤ و ١١٦ .

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ١١٦ و ١١٧ و ١١٩ و ١٢٠ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٢١ وج ٤ ص ١٥٣ ، والمراكشى ص ٢٤ ، وأعمال الأعلام ص ١٢٩ ؛ ونفح الطيب ج ٩ ص ٢٢٤ ، وجذوة المقتبس ص ٢٠ .

وهكذا اختتمت الدولة الأموية حياتها بالأندلس بعد أن عاشت منذ عصر الإمارة حتى نهاية عصر الخلافة مائتين وثمانية وستين عاماً ، وانهارت دعائم الخلافة الأموية نهائياً ، بعد أن لبثت منذ عصر هشام المؤيد أربعين عاماً ، ستاراً للمتغلبين من بني عامر ، ثم شبحاً هزيعاً يضطرب في غمر الفتنة والفوضى .

ولما قبض على بن حمود على زمام الحكم ، اشتد في معاملة البربر ، وإخماد تمردهم وشغبهم ، وحماية السلطة المركزية من عدوانهم ، فهابوه ولزموا السكينة ، وقضى بمنتهى الشدة على كل نزعة إلى الخروج والعصيان ، وفلك بالمعارضين له ، سواء في ذلك العرب أو البربر ، وأذل الزعماء واستأثر بالسلطة . وحاول من جهة أخرى أن يحسن معاملة القرطبيين ، وأن يقيم العدل ، ويقمع الفوضى ، وكان من معاونيه في الحكم ، جماعة من أولياء الخلافة السابقين مثل أبي الحزم بن جهور ، وأحمد بن برد وغيرهما .

على أن الحوادث ما لبثت أن تطورت بسرعة . ذلك أن خيران العامري ، لما دخل قرطبة مع على بن حمود ولم يجد الخليفة هشاماً المؤيد على قيد الحياة ، خشى سطوة الناصر وغدره ، فغادر قرطبة ، معلناً الخلاف ، وسار إلى شرقي الأندلس حيث يحتشد معظم الزعماء العامريين وأنصارهم ، وأعاد الدعوة لبني أمية في شخص مرشح جديد منهم ، هو عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله ابن عبد الرحمن الناصر ، باعتباره أصح من بقي منهم ، وكان قد فر خفية من قرطبة إلى جيان ، فاستدعاه خيران وبايعه وجمع كبير من أصحابه بالخلافة ، ولقبوه بالمرتضى ، وانضم إليهم في تلك الحركة المنذر بن يحيى التجيبي وإلى سرقسطة والثغر الأعلى ومعه قوة من المرتزقة النصارى ، وكذلك ولاية شاطبة وبلنسية وطرطوشة وألبونت وغيرها . وأعلن المرتضى الخلاف على الناصر ، وسار في جموعه أولاً إلى غرناطة ليحارب جيش صنهاجة القوي ، فلقبه أميرها زاوى بن زري في قواته ونشبت بينهما معركة طاحنة استمرت أياماً ، وانتهت بهزيمة أهل الأندلس ، ومقتل المرتضى ، وتمزق جموعه ، وسقوط معسكره في أيدي البربر . وفي رواية أخرى أن المرتضى استطاع الفرار ناجياً بحياته ، فبعث خيران في أثره بعض أعوانه فقتلوه على مقربة من وادي آش ، وحملوا رأسه إلى خيران . وكان خيران والمنذر قد حقدوا عليه لما رأيا من حذته وصرامة نفسه ، وخشياً من غدره (١) .

وسار خيران وللمنذر فيمن بقي من أصحابهما ولحقا بالمرية . وسار الإفرنج المرتزقة حلفاء المنذر إلى الشمال . قال ابن حيان « فحل بهذه الواقعة على جماعة الأندلس مصيبة أنست ما قبلها ، ولم يجتمع لهم جمع بعد ، وأقروا بالإدبار ، وباؤا بالصغار » واستطاع أخ المرتضى ، وهو أبو بكر هشام بن محمد ، أن ينجو من الواقعة ، في بعض أصحابه إلى البوننت ، حيث دعا لنفسه بالخلافة ، وأقام بها يرقب الحوادث (١) .

وتغفل معظم الروايات الإسلامية تاريخ هذه الواقعة ، ولكن الظاهر من سياق الحوادث ، ومما ذكره صاحب البيان المغرب ، أن سير المرتضى من شرقي الأندلس صوب قرطبة ، كان في سنة ٤٠٩ هـ (٢) ، وأن الواقعة حدثت في أواسط هذا العام ، وفي خلافة القاسم بن حمود ، بعد مقتل أخيه على حسب ما يجيء . وكان على بن حمود ، حينما ترامت إليه أنباء خروج المرتضى ومسيره لقتاله ، قد انقلب على أهل قرطبة خشية من غدرهم ، ولما آنسه من ميلهم إلى المرتضى ، وعاد فأطلق يد البربر ، واشتد على أهل قرطبة ، ونزع سلاحهم ، واعتقل كثيراً من أعيانهم ، وفي مقدمتهم وزيره أبو الحزم بن جهور ، وصادر أموالهم ، وهبت على القرطبيين ريح من الإرهاب والروع فازموا السكينة حيناً (٣) .

ولكن القدر كان يتربص بعلي بن حمود ؛ ذلك أنه بينما كان يتأهب لقتال خصومه ، اجتمعين يومئذ في منطقة جيان حول راية المرتضى ، إذ ائتمر به نفر من فتيان القصر الصقلية من موالى بنى أمية ، وتسأل ثلاثة منهم إليه وهو في الحمام وقتلوه ، وذلك في الثاني من ذي القعدة سنة ٤٠٨ هـ (٢٣ مارس سنة ١٠١٨ م) ، وكان سنه وقت مقتله خمس وخمسون سنة ، ولم يمكث في الخلافة سوى عام وتسعة أشهر .

فبعث زعماء زناتة إلى أخيه القاسم نبأ موته ، وكان يكبره ببضعة أعوام ، وكان يومئذ والياً لإشبيلية ، فحضر مسرعاً ، وبويع بالخلافة في الثامن من ذي القعدة ، أعني لسته أيام من مقتل أخيه ، وتلقب بالمأمون ، وقبض على الفتيان

(١) البهان المغرب ج ٣ ص ١٢٥ و ١٢٦ و ١٢٧ .

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ١٢٥ . وذكر ابن الخطيب وحده أن الواقعة حدثت بالفعل في سنة ٤٠٩ هـ (أعمال الأعلام ص ١٣١) .

(٣) البيان المغرب ج ٣ ص ١٢٣ ؛ وأعمال الأعلام ص ١٢٩ .

الثلاثة الذين قتلوا أخاه وأعدمهم لوقته . وكان يحيى بن علي ، ولد الخليفة القتييل والياً على سبته ، وولده الآخر إدريس والياً على مالقة ، فاختلف البربر في البداية على مسألة الخلافة ، ولكن أكثرهم انضم إلى جانب القاسم لأنه غبن أولاً ، وقدم عليه أخوه الأصغر .

وهكذا استتب الأمر للقاسم ، فعدل عن سياسة الشدة إلى سياسة اللين والمسالمة ، وأحسن إلى الناس ونادى بالأمان وبراءة الذمة ممن تسور على أحد ، وأسقط كثيراً من المكوس . فهدأت الخواطر ، واطمأن الناس نوعاً ، وكانت حركة المرتضى قد وصلت خلال ذلك إلى ذروتها ، ووقعت الحرب بين جموع المرتضى وحليفه خيران والمنذر بن يحيى التجيبي ، وبين قوى صنهاجة على مقربة من غرناطة ، وانهزم أهل الأندلس وقتل المرتضى ، وبعث زاوي بن زيري إلى القاسم بما وقع مع سهمه من الغنائم ، ومنها سرادق المرتضى ، فسر القاسم لذلك ، وعرض سرادق المرتضى على نهر قرطبة ليراه الناس^(١) . وعمد القاسم إلى استمالة خيران واستعطافه ، ولكنه بقي معتصماً بالمرية ، وأقطع زميله زهيراً العامري ولاية جيان وقلعة رباح ، محاولاً بذلك أن يعقد السلم مع الفتيان العامريين ، وأن يأمن خصومهم وكيدهم .

واتخذ القاسم بطانة من السود ، وأسند إليهم مناصب الرياسة والقيادة ، ولكنه لم يتخلص من قبضة البربر وسيطرتهم عليه ، فضعف أمره وتكاثرت الصعاب من حوله . وكان ابن أخيه يحيى بن علي والي سبته ، يرقب الفرصة للخروج عليه ، فاتفق مع أخيه إدريس والي مالقة ، على أن يتركها له ، لتكون قاعدة للعمل ، وأن يستقر إدريس مكانه في سبته . وأخذ يحيى يحشد أنصاره تبعاً في مالقة حتى اجتمع له جيش قوى . وفي أثناء ذلك كان عمه القاسم يشكو أمره إلى زعماء البربر ، ولكنهم عجزوا عن التوفيق بينهما ؛ وزحف يحيى في قواته على قرطبة ، وخشى القاسم العاقبة فآثر الانسحاب على الحرب ، وغادر قرطبة إلى إشبيلية في ٢٣ ربيع الثاني سنة ٤١٢ هـ (أغسطس سنة ١٠٢٢ م) ، وضبط البربر القصر حتى مقدم أخيه يحيى .

ودخل يحيى بن علي بن حمود قرطبة بعد ذلك بأيام قلائل ، في مستهل جمادى

(١) أعمال الأعلام ص ١٣١ .

الأولى سنة ٤١٢ هـ . وبويع بالخلافة ، وتلقب بالمعتلى بالله ، وكان في الثانية والأربعين من عمره . واستقبل البربر والأندلسيون معاً رياسته بالاستبشار والرضى ، وكان المعتلى فارساً بارعاً يتحلى بخلال الفروسية ، ويجانب العصبية ، ويؤثر العدل ، ويجزل العطاء لمن وفد عليه ، أو مدحه بشعره ، فأحبه الناس ؛ وكان من وزرائه أبو العباس أحمد بن برد ، والكاتب محمد بن الفرضي ، ولكنه وقع مثل عمه القاسم تحت نفوذ البربر وإمرتهم ، فاستبدوا به ، وضيقوا عليه .

وكان القاسم بن حمود أثناء ذلك قد استقر في إشبيلية ، وتسمى بالخلافة ، وتلقب بالمستعلی ، وأخذ يرقب سير الحوادث . ومن الغريب أن القاسم وابن أخيه يحيى ، تهادنا واتفقا على أن يعترف كلاهما بصفة صاحبه . ويعلق الفيلسوف ابن حزم على ذلك بأنه لم يسمع تخليفتين تصالحا « وهو أمر ، لم يسمع في الدنيا بأشنع منه ، ولا أدل على إدبار الأمور » (١) .

على أن هذا الوضع الشاذ لم يدم طويلاً . ذلك أن البربر أعلنوا خلع يحيى المعتلى في الثاني عشر من ذي القعدة سنة ٤١٣ هـ ، ولم يكن قد مضى على خلافته سوى عام ونصف ، فبادر يحيى بمغادرة قرطبة إلى مالقة . وفي الحال تحرك عمه القاسم من إشبيلية تلبية لدعوة البربر ، ودخل قرطبة في الثامن عشر من ذي القعدة المذكور ، وجددت له البيعة وتسمى بأمر المؤمنين ،

ولكن القاسم لم يوفق في سياسته أيضاً في تلك المرة . ذلك أنه اصطفى البربر ، ومكنهم من أهل قرطبة ، فاشتدوا في معاملتهم ومطاردتهم ، وضاق أهل قرطبة في النهاية ذرعاً بتلك الحالة ، فثاروا بالبربر ، واستعدوا لقتالهم ، وأعلنوا خلع القاسم ، واستمرت المعارك حيناً حتى استطاع القرطبيون إرغام القاسم على مغادرة القصر ، وذلك في جمادى الثانية سنة ٤١٤ هـ (سبتمبر سنة ١٠٢٣ م) . فانقلب البربر إلى محاصرة المدينة بعد أن أغلق القرطبيون أبوابها . واستمر الحصار خمسين يوماً ، والمعارك في كل يوم تتجدد ، وأخيراً خرج القرطبيون واشتبكوا مع البربر في معركة كبيرة حاسمة ، وقاتلوا قتال الياثسين ، حتى هزموا البربر ومزقوا جموعهم ، وتفرقت بقايا البربر وانفضت عن القاسم ، فسار القاسم في نفر من صحبه إلى إشبيلية ، وكان بها إبنه محمد والحسن ، فأغلقت المدينة أبوابها دونه ،

(١) واجع نقط العروس ص ٨٠ ، والبيان المغرب ج ٣ ص ١٢٢ و ١٢٣ .

وأخرج منها إبنه ومن معهم من البربر ، وقام أعيان المدينة ، وعلى رأسهم قاضها محمد بن إسماعيل بن عباد ، بضبط الأمور فيها ، وسار القاسم وصحبه إلى بلدة شريش (١) . وفي تلك الأثناء كان يحيى المعتلى ، قد سار من مالقة إلى الجزيرة الخضراء ، وكانت بها أموال عمه القاسم وأسرتة فاستولى عليها ، واستولى أخوه إدريس وإلى سبته ، على ثغر طنجة ، وكانت أيضاً من أعمال القاسم ، وكان يعدها ملجأ له وملاذاً يحمى به إذا ما ذهب سلطانه بقرطبة ؛ ولما انقلب القاسم في فلوله إلى شريش سار يحيى المعتلى لقتاله ، وحاصر شريش حتى سلمت ، وقبض على عمه وبنيه ، وحملهم في الأصفاد إلى مالقة ، وهناك أودعهم السجن ، وانفرد يحيى برياسة البربر ، وبسط سيادته على شريش ومالقة ، وسبته وطنجة من ثغور المغرب ، وبإيعه البربر بالخلافة ، وسموه المعتلى بالله ، وبقي القاسم يرسف في سجنه ردىاً طويلاً من الزمن ، حتى قتل خنقاً في سنة ٤٣١ هـ ، وهو في نحو الثمانين من عمره (٢) . وكان أهل قرطبة قد سئموا عندئذ حكم البربر وأشياهم ، وأجمعوا على رد الأمر إلى بنى أمية . وكان ثمة ثلاثة من المرشحين الذين اعتبروا أصلح من بقى من بنى أمية لتولى الخلافة ، هم سليمان بن المرتضى ، ومحمد بن العراقى ، وعبد الرحمن ابن هشام بن عبد الجبار بن الناصر لدين الله ، فقرّر القرطبيون أن يختاروا أحدهم بطريق الشورى ، وعقدت لذلك جلسة كبرى بالمسجد الجامع ، حضرها الوزراء والأكابر والخاصة والعامة . وحضر سليمان المرتضى ومحمد العراقى في البداية ، وكاد الاختيار يقع على أولهما ، وبدئ بالفعل في تحرير مرسوم البيعة ، لولا أن حضر عندئذ عبد الرحمن بن هشام في كبكبة عظيمة ، ومن حوله طائفة كبيرة من الجند شاهرة السلاح ، فدخل المقصورة ، وعقدت له البيعة في الحال ، بين دهشة الحضور واضطرابهم . وذلك في السادس عشر من رمضان سنة ٤١٤ هـ (ديسمبر سنة ١٠٢٣ م) . ثم خرج من المسجد إلى القصر وقد اصطحب معه ابنى عمه سليمان والعراقى ، فاعتقلهما لديه . ويصف لنا ابن حيان هذا الحفل الشهير ، وكان من شهوده ، بإفاضة ممتعة (٣) .

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ١٣٤ و ١٣٥ ؛ وأعمال الأعلام ص ١٣٣ .

(٢) راجع البيان المغرب ج ٣ ص ١٣٥ و ١٤٤ ؛ والمراكشى ص ٢٩ .

(٣) راجع اللخيرة ، القسم الأول المجلد الأول ص ٣٥ و ٣٦ . ويقول لنا ابن حيان إن الحفل عقد في الرابع من رمضان ، والظاهر أن هناك تحريفاً ، لأنه يقول لنا بعد ذلك عند مقتل =

واتخذ عبد الرحمن لقب المستظهر بالله، وكان يوم جلوسه فتي في الثالثة والعشرين من عمره ، وندب لوزارة بعض القدامى من وزراء بني أمية السابقين مثل أحمد ابن برد ، وجماعة من الفتيان الطامحين الأعمار ، مثل أبي عامر بن شهيد ، وأبي محمد ابن حزم (وهو الفياسوف المستقبل) ، وابن عمه عبد الوهاب بن حزم ، وقد كانا على قول ابن حيان « من أكمل فتیان الزمان فهماً ومعرفة ، ونفاذاً في العلوم الرفيعة » . فقدمهم على سائر رجاله ، وأولاهم منتهى النفوذ والثقة ؛ ويورد لنا ابن حيان ثبت المناصب الوزارية والرئيسية يومئذ على النحو الآتي :

خدمة المدينتين ، الزهراء والزاهرة ، وخدمة كتابة التعقب والمحاسبة ، وخدمة الحشم ، وخدمة القطع بالناض والطعام ، وخدمة موارد الخزانة الخاصة ، وخدمة الطراز . وخدمة المباني ، وخدمة الأسلحة وما يجري مجراها ، وخدمة الخزانة القبض والنفقة . وخدمة الوثائق ورفع كتب المظالم ، وخدمة خزانة الطب والحكمة . وخدمة الأنزال والنزائل ، وخدمة أحكام السوق .

ثم يعلق ابن حيان على ذلك بقوله : « وهذا زخرف من التسطير وضع على غير حاصل ، ومراتب نصبت لغير طائل ، تنافسها طالبوها يومئذ بالأمل ، فلم يتحناوا منها بنائل ، ولا قبضوا منها مرتزقاً ، ولا نالوا بها مرتفقاً ، وغرهم بارق الطمع وسط بلد محصور ، وعمل معصوب ، وخراب مستول ، ومع سلطان فقير ، لا يقع بيده درهم إلا من صباية ، مستغل جوف المدينة ، أو نهب مغول ممن تقلقل عنها ، يقيم منها رmqه ، ويفرق جملة على من تكفنه من جنده ودائره ، ويتطرق إلى ما يقبح من ظلم رعيته ، فلم يلث الأمر أن تفرى به فسفك دمه ، وانحسم الأمل من دولته » (١) .

تلك هي الصورة القوية التي يقدمها لإينا المؤرخ الأندلسي المعاصر عن بلاط المستظهر ، وظروف ولايته . والواقع أن هذا الخليفة الفتي كان يتمتع بخلاف باهرة ، وكان ممكناً أن يكون معقد الآمال ، لو أتيح له من السلطان وحرية التصرف ما طاب ، ولكن الظروف عاجلته وغلبته على أمره ؛ وكان قد بدأ ولايته بأن أرسل إلى المدن والثغور يدعو إلى تأييد بيعته ، فلم تثمر دعوته أو لم يتسع

= المستظهر إن خلافته كانت سبعة وأربعين يوماً ، ومقتله في الثالث من ذي القعدة . وهو ما يرد

تاريخ البيعة إلى السادس عشر من رمضان (راجع البيان المغرب ج ٣ ص ١٣٥) .

(١) نقله في اللخيرة . القسم الأول المجلد الأول ص ٣٦ و ٣٧ .

الوقت لذلك ، وقبض على عدد من الوزراء والأكابر وصادر أموالهم ، وكان يرجو بإزالتهم تمكين نفوذه وسلطانه ، ثم قبض على عدد من أبناء عمه المروانية ، واعتقلهم بالقصر مع ابني عمه سليمان والعراقي ، وكانت هذه البوادر المكدرية تقضى على هيئته بسرعة ، وتذكى السخط عليه في صدور الخاصة والعامة معاً . ثم وقع حادث كان نذير الاضطرام . وذلك أنه استقبل عدة من الفرسان البربر فأكرم وفادتهم وأنزلهم بالقصر ، فغضب لذلك الكبراء ، وأوغروا صدور العامة قائلين لهم : إننا حاربنا البربر وقهرناهم ، وهذا الرجل يسعى في ردهم إلينا ، وتمكينهم من أمرنا . فهاجت العامة ، وزحفت جموعهم على القصر ، واقتحموه على غرة ، وقتلوا البربر حيث وجدوا ، وفتحوا المطبق وأخرجوا من كان به من المعتقلين ، ووثبوا إلى جناح الحرم ، وأدرك عبدالرحمن المستظهر أنه هالك ، فاختبأ في أتون الحمام ، واعتدى الثوار على آل عبد الرحمن وحريمه ، وسبوا أكثرهن ، وكانت مناظر شنيعة مروعة (١) .

ولما اختفى المستظهر بالله ، ظهر ابن عمه محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله ابن الناصر ، وكان مخفياً خشية البطش به ، فأخذ إلى القصر ، وأجلس في مجلس الملك ، وبويع بالخلافة في اليوم الثالث من ذي القعدة سنة ٤١٤ هـ (١٧ يناير ١٠٢٤ م) ، وتلقب بالمستكنى بالله . وبحث عن المستظهر حتى عثر به في أتون الحمام في حالة مزرية ، فأخذ إلى حضرة الخليفة الحديد ، وأعدم أمامه ، وكانت إمارته مذولى حتى قتل سبعة وأربعين يوماً ، لم يحدث فيها حدث هام ، ولم يجاوز سلطانه مدينة قرطبة .

وكان عبد الرحمن المستظهر أديباً شاعراً من الطراز الأول ، وقد نوه ابن بسام بمواهبه الأدبية الرفيعة ، وأورد له طائفة من القصائد الحميدة (٢) . ومن شعره من قصيدة طويلة قالها في ذكر ابنة عمه أم الحكم بنت المستعين أيام خطبته لها :

حمامة بنت العبشميين رفرفت فطرت إليها من سراتهم صقرا
تقل الثريا أن تكون لها يدا ويرجو الصباح أن يكون لها نحرا

(١) الذخيرة القسم الأول المجلد الأول ص ٣٨ و ٣٩ ، والبيان المغرب ج ٣ ص ١٤٨ و ١٣٩ .

(٢) راجع الذخيرة . القسم الأول المجلد الأول ص ٤٠ - ٤٣ .

وإني لطعان إذا الخيل أقبلت جوانبها حتى ترى جوانبها شقرا
ومكرم ضيفي حين ينزل ساحتي وجاعل وفدى عند سائله وفرا
وكان المستكني يوم ولايته في الثانية والأربعين من عمره إذ كان مولده في
سنة ٣٦٦ هـ ، وأمه أم ولد تسمى حوراء . وكان عاطلا من الحلال الحسنة ،
ميالا إلى البطالة ، شغوفاً بالمجون والشراب ، عاجزاً سيئ الرأي ، وقد شبهه
ابن حزم ، في سوء خلاله ، وفي مجونه وفسقه ، وفي خضوعه لغانية خبيثة ،
بسميه المستكني العباسي ، وقد كان كلاهما في نفس السن ، وحكم كل منهما
نحو سنة وخمسة أشهر (١) .

ولم تقع خلال ولاية المستكني القصيرة ، أحداث ذات شأن ، وكان مما عمله
أن أمر بنحنيق ابن عمه محمد العراقي ، ونعاه للناس ، وندب لولاية عهده ابن عمه
سليمان بن هشام بن عبيد الله بن الناصر . وفي أيامه هدمت القصور الناصرية ،
وخربت قصور المنصور بالزاهرة ، فسادتها الوحشة والخراب .
واضطهد المستكني معظم الرجال البارزين من الساسة القدماء ، ومن المفكرين ،
وغادر كثير منهم قرطبة ، ولجأوا إلى بلاط يحيى بن حمود بمالقة ، وكان من
هؤلاء الوزير السابق والشاعر اللامع أبو عامر بن شهيد ؛ ووصف هؤلاء ليحيى
ابن حمود سوء الأحوال في قرطبة . ومع أن يحيى لم يكن متحمساً لفكرة السير
إلى قرطبة ، فإن الأنباء ترامت إلى القرطبيين بأنه يتخذ أهباته لاسترداد عاصمة
الخلافة ؛ وعلى أي حال فقد سئم القرطبيون ولاية المستكني العاطلة الماجنة الفاسدة
ونادوا بخلعه . فدخل عليه الوزراء والكبراء ، وأغلظوا له في القول ، وطلبوا
إليه التخلي ، فاستعطفهم بلين القول ، ثم غادر قرطبة في نفس اليوم متكرراً في
زى امرأة . وكان ذلك في اليوم الخامس والعشرين من ربيع الأول سنة ٤١٦ هـ
(مايو سنة ١٠٢٥ م) . وسار المستكني صوب الثغر في نفر من صحبه ، ووصل
إلى إقليج من أحواز قرطبة ، وهناك اغتاله بعض مرافقيه ، لاعتقادهم أنه يحمل
مالاً . وكان مقتله لسبعة عشر يوماً فقط من خلعه (٢) .

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ١٤١ ، وأعمال الأعلام ص ١٣٦ .

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ١٤٢ و ١٤٣ ؛ وأعمال الأعلام ص ١٣٦ .

ومما هو جدير بالذكر أن محمد بن عبد الرحمن المستكني هو والد الأديبة والشاعرة الأندلسية
الكبيرة « ولادة » التي اشتهرت بروعة أدبها وشعرها ، والتي أوحى إلى الوزير الشاعر ابن زيدون =

ومضت بضعة أشهر ؛ والحكومة في قرطبة فوضى لا ضابط لها . وأخيراً قرر يحيى بن حمود أن يسير إلى العاصمة ، فقصده إليها في قواته ودخل القصر في الخامس عشر من رمضان من نفس العام (٩ نوفمبر سنة ١٠٢٥ م) ، وبقي بها إلى نهاية هذا العام ، ثم غادرها في أوائل المحرم سنة ٤١٧ هـ قاصداً إلى مالقة ، وترك بها وزيره أحمد بن موسى ، ودوناس بن أبي روح ، يدبران شئونها ، ومعهما حامية صغيرة من البربر ، بيد أنه لم يمض زهاء شهرين حتى تجهمت الحوادث كرة أخرى .

ذلك أن خيران وزهير الفتيين العامريين ، قصدا إلى قرطبة ، وأوعزا إلى القرطبيين بالتخلص من البربر ، فثار القرطبيون فجأة ، وفتكوا بالحامية البربرية ، وكانت زهاء ألف رجل ، وفر أحمد بن موسى وزميله دوناس إلى مالقة ، وكان ذلك في العشرين من ربيع الأول من سنة ٤١٧ هـ .

وأجمع القرطبيون على أثر ذلك على رد الأمر لبني أمية ، وكان عميدهم في ذلك الوزير أبو الحزم جتهـور بن محمد بن جهور ، واتفقوا على مبايعة هشام بن محمد ابن عبد الله بن عبد الرحمن الناصر ، أخى عبد الرحمن المرتضى . وكان عند مقتل أخيه في سنة ٤٠٩ هـ ، قد فر من قرطبة في نفر من صحبه ، ولجأ إلى مدينة البوننت في شمال شرقي الأندلس ، واستظل من ذلك الحين بحماية واليها عبد الله بن قاسم الفهرى . وبعث إليه أهل قرطبة بالبيعة ، وهو بمقره بمحصن البوننت ، فتأقماها في ٢٥ ربيع الآخر سنة ٤١٨ هـ ، وتلقب بالمعتد بالله ، وبقي بمقره بالبوننت مدة سنتين وسبعة أشهر ، وهو يحطّب له بقرطبة ، ثم قدم إليها في شهر ذي الحجة سنة ٤٢٠ هـ (١) فجددت له البيعة ، واستمر في كرسى الخلافة عامين آخرين . وسر القرطبيون لمقدمه في البداية ، ولكنه ألقى زمام الأمور إلى رجل من الموالي يسمى حكم بن سعيد القزاز ، فاستأثر بكل سلطة ، وأطلقت يده في الأموال ، وكان أخرق عسوفاً ، فجمع حوله نفراً من السفهاء العاطلين عن كل إخلاص وحزم ، وأطلق العنان لغوايته وأهوائه ، فاضطربت الشئون وامتعض العقلاء ،

المقيم بها طائفة من غرر قصائده . وقد لبثت ولادة عصره تخلب بجمالها وأدبها وشعرها الباب المجتمع للقرطبي الرفيع . وتوفيت في سنة ٤٨٤ هـ (١٠٩١ م) (راجع الصلة لابن بشكوال رقم ١٥٤٠ ؛ وقلائد العقيان ص ٧٠ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٤٤٧ - ٤٤٩) .

(١) جلوة المقتبس ص ٢٦ و ٢٧ .

وزعماء البيوتات الكبيرة ، وشعروا بما نالهم على يده من ضروب الإهانة والنيل ؛ وأحاط هذا الوزير المستبد الماكن الخليفة برجاله ، وأبعد عنه الصحب وذوى الحجى ، ودفعه بالرغم من شيخوخته ، إلى تيار الشراب والمجون ، حتى ساءت الأمور إلى الذروة ، وفقدت الخلافة والحكومة ، كل عطف وهيبة ، وتهامس الناس في وجوب إزالة هذه الحالة ، والتخلص من أوزارها وعواقبها . والتفت جماعة الناقمين حول فتى من أبناء عمومة هشام ، هو أمية بن عبد الرحمن العراقي ، من أحفاد الناصر ، وكان فتى شديد التهور والجهالة ، ولكن بعيد الأطماع ؛ وفي ذات يوم تربصت تلك الجماعة الناقمة بالوزير حكيم بن سعيد وفتكت به ، وطافت برأسه في المدينة ، وتركوا بجثته في الغراء (ذو القعدة سنة ٤٢٢ هـ - نوفمبر سنة ١٠٣١ م) . ثم سار أمية في جموعه إلى القصر ، والخليفة هشام عاكف على شرابه ونسائه ، فنهبت العامة بعض أجنحة القصر ، ولولا أن زجرهم الوزير الشيخ ابن جهور ونصحهم بالكف عنه ، لما أبتوا على شيء . وخشى هشام المعتد على نفسه ، فبادر إلى الخروج من القصر مع ولده ونسائه ، وهو يناشد الجماعة أن يحقنوا دمه ، ولجأ إلى ساباط الجامع واجتمع رأى الناس جميعاً كباراً وصغاراً على نخاعه ، والتخلص حملة من بنى أمية ، وإبطال رسم الخلافة ، وعلى نبي بنى أمية وإجلالهم جميعاً عن المدينة ، وكان رائد الجماعة وناصحهم في ذلك أبو الحزم ابن جهور ، وكان هذا الوزير النابه يستأثر نظراً لماضيه التالد ، وأسرت العريقة ، ورأيه الناضج ، بمحبة الشعب وثقته وتأيينه ، وسرى فيما بعد أى دور خطير يلعبه ابن جهور في مصائر قرطبة .

وانتهى القوم إلى خلع هشام المعتد ، وإبعاده وأهله إلى أحد الحصون القريبة ، ثم غادره بعد أيام قلائل ، وسار إلى الثغر ، حيث التجأ إلى سليمان بن هود صاحب لاردة من أعمال الثغر الأعلى ، وقضى هنالك بقية أيامه حتى توفي في سنة ٤٢٨ هـ دون عقب ؛ وأبعد أمية بن عبد الرحمن عن القصر ، وكان يهجس بتولى كرسى الخلافة مكان المعتد ، فلما رأى وعيد القوم ، اختفى وغادر قرطبة إلى حيث لا يعلم أحد . ونودى في سائر أحياء قرطبة وأرباضها بأن لا يبقى بها أحد من بنى أمية ، ولا يأويهم أحد ، وتولى ابن جهور تنفيذ هذا الأمر بمنتهى الحزم ، حتى أجلأهم عن المدينة ومحا رسومهم^(١) .

(١) راجع البيان المغرب ج ٢ ص ١٤٥ - ١٥٢ ؛ وأعمال الأعلام ص ١٣٨ - ١٤٠ .

وبخلع هشام المعتد ، تنهى رسوم الدعوة الأموية بصورة نهائية ، وينقطع ذكرها إلى الأبد من منابر الأندلس والمغرب الأقصى .

* * *

ولنعد الآن قليلا إلى الوراء لنتتبع مصاير دولة بني حمود في جنوبي الأندلس ، وقد رأينا أن يحيى بن علي بن حمود الملقب بيحيى المعتلى ، بعد أن خلع عمه القاسم من الخلافة ، وأرغم على مغادرة قرطبة في سنة ٤١٤ هـ ، سار إلى بلدة شريش ، فسار يحيى في أثره ، وما زال به حتى هزمه وقبض عليه ، ثم قتل في سجنه فيما بعد ، واستولى يحيى على سائر ما كان بيده من البلاد والثغور ، وانفرد برياسة البربر في الأندلس . ثم عاد فدخل قرطبة مرة أخرى على أثر خلع المستكنفى في سنة ٤١٦ هـ . ولكنه غادرها بعد ذلك إلى مالقة ، التي غدت من ذلك الحين معقله وعاصمة ملكه ، في أوائل سنة ٤١٧ هـ ، واستمر بها مدى حين .

وكان يحيى المعتلى يخشى بالأخص على مملكته الفتية ، من مطامع القاضي محمد بن إسماعيل بن عباد ، الذى استقل برياسة إشبيلية ، حسبا تقدم . فسار بقواته إلى قرمونة حصن إشبيلية من الشمال الشرقى ، وانتزعها من يد حاكمها محمد ابن عبد الله البرزالي كبير بني برزال ، واستقر بها يرقب الفرصة لاوثوب بابن عباد وتحطيمه ، فسار البرزالي إلى ابن عباد وتحالف معه على قتال يحيى . وكان يحيى قد استسلم إلى لهوه وملأذه ، وعكف على معاقرة الشراب والمجون المستمر ، وجنوده تغير على إشبيلية من آن لآخر . ورأى القاضي ابن عباد أن يدهض دعوى المعتلى في الخلافة أولا ، فأظهر في أواخر سنة ٤٢٦ هـ شخصا زعم أنه هشام المؤيد ، وأنه كان مختفيا ولم يمت ، وبايعه بالخلافة ، ودعا الناس إلى الدخول في طاعته . ثم سار ابن عباد إلى قرمونة بعض قواته مع ابنه إسماعيل ، ومعها طائفة من قوات البربر المتحالفة معه ، فطوقت المدينة ليلا ، وكمن معظمها في أماكن مستورة ، ووقف يحيى على الخبر فخرج في قواته وهو ثمل ، واشتبك مع الهاجيين في معركة حامية وكاد يوقع بهم الهزيمة ، لولا أن ظهرت قوات ابن عباد من كمينها ، وأطبقت عليه ، فانهمزم أصحابه ، وقتل في المعركة واحتز رأسه ، وحمل سريعا إلى ابن عباد في إشبيلية (المحرم سنة ٤٢٧ هـ — نوفمبر سنة ١٠٣٥ م) ، واستمر فتك جند ابن عباد بالبربر أمام أسوار قرمونة ، ولم يقف إلا حينما تدخل محمد بن عبد الله

البرزالى ، وقد ساءه هذا الفتك الذريع بقومه ، فكف ابن عباد مرغماً ، ودخل البرزالى قرمونة ، واستولى على ما فيها من مال ومتاع ، وسبى نساء يحيى وجواريه (١) .

ولما قتل يحيى المعتلى على هذا النحو ، سارع وزيراه أبو الفوز نجا الصقلي ، وأبو جعفر أحمد بن موسى بن بقنة البربرى ، باستدعاء أخيه إدريس لتولى الملك مكانه ، وكان واليا لسبته . وكان ليحيى ولدان حدثان هما إدريس وحسن ؛ وفي رواية أنه كان قد أوصى بولاية عهده أولده حسن ، ولكن حداثة سنه حالت دون ولايته . وهكذا بويج إدريس بالخلافة فى مالقة ، قاعدة المملكة الحمودية وتلقب بالمتأيد بالله ، وعين ابن أخيه حسناً لحكم سبته وأعمالها ، وندب لمعاونته الحاجب نجا ، واحترمت بولايته رندة والجزيرة ، وكان من حلفائه المعترفين ببيعته الفتى زهير العامرى صاحب ألمرية ، وحبوس بن ماكسن زعيم صنهاجة وصاحب غرناطة ؛ وقد سارا فى قواتهما لمعاونة إدريس على محاربة ابن عباد ، وانضم إليهما البرزالى صاحب قرمونة . وفى شهر ذى القعدة سنة ٤٢٧ هـ (١٠٣٦ م) سارت القوات المتحالفة إلى أحواز إشبيلية وعاثت فيها ، واحتلوا قرية طشانة ، ثم احتلوا «القلعة» ، الواقعة شرق إشبيلية ، وأحرقوا طريانة الواقعة فى جنوبها ، ثم احتلوا حصن القصر ، وانصرف زهير بعد ذلك إلى ألمرية .

وفى العام التالى توفى حبوس بن ماكسن ، وخلفه فى حكم غرناطة ولده باديس ، وبعث باديس وأخوه بلقين إلى زهير يطلبان تجديد التحالف الذى كان بينه وبين أبيهما ، ولكن زهيراً سار فى قواته إلى غرناطة ، والتقى بباديس وأخيه فى قرية من أحواز غرناطة تسمى «ألفنت» (٢) . والظاهر أنه وقع بين الفريقين نوع من سوء التفاهم ، واعتبر باديس أن زهيراً توغل فى أرضه بةواته أكثر مما يجب ؛ أو أن باديس وأخاه بلقين ، قد وضعوا خطة للغدر بزهير . وعلى أى حال فقد عمل باديس على قطع طريق الرجعة على زهير ، ووضع له الكمائن فى المضائق . ووقع القتال بين زهير والبربر ، فهزم زهير وقتل ، ولم يعثر على بجته ، واحتوى باديس على معسكره ، واستولى على غنائم هائلة من الخيل والسلاح والمتاع ، وقبض باديس على كاتب

(١) البيان المغرب ج ٢ ص ١٨٨ و ١٨٩ و ١٩٠ ؛ وأعمال الأعلام ص ١٣٧ .
(٢) وهى بالإسبانية Daifontes ، وهى تقع على قيد نحو خمسة كيلو مترات من شمال غرناطة .

زهير أحمد بن عباس ثم قتله بعد ذلك . وحدثت هذه الواقعة في أواخر سنة ٤٢٩ هـ (١٠٣٨ م) (١) .

وكان القاضي ابن عباد ، المتغلب على إشبيلية ، بعد قتل منافسه يحيى المعتلى قد خلا له الحو ، واشتد بأسه ، وأخذ يطمح إلى التغلب على ما يجاور إشبيلية من المدن والمقاطعات . فبدأ بأن سير ولده إسماعيل في جيش زحف على قرمونة حصن إشبيلية ، من الشمال الشرقي ، وكان بها محمد بن عبد الله البرزالي ، فاستولى عليها ، واستولى كذلك على إستجة الواقعة في شرقها . فاستغاث البرزالي بإدريس المتأيد ، وبأديس أمير غرناطة ، وهرعت الجند البربر من مالقة وغرناطة استجابة لدعوته . ونشبت بين البربر وبين جند ابن عباد الأندلسيين وقائع عديدة ، انتهت بهزيمة الأندلسيين ومقتل إسماعيل بن عباد ، وذلك في أوائل المحرم سنة ٤٣١ هـ (أواخر سنة ١٠٣٩ م) (٢) .

ولم تمض على ذلك أيام قلائل حتى توفي إدريس المتأيد في قلعة ببشتر ، وكان قد نقل إليها مريضاً من مالقة . وكانت وفاته في السادس عشر من محرم سنة ٤٣١ هـ .

وعلى أثر وفاته بويغ ولده يحيى بالخلافة في مالقة ، وذلك بترتيب وزيره أبي جعفر ابن بقة وسعيه . وتلقب يحيى بالقاسم بأمر الله ، وكان فتي حداثاً قليل الخبرة والحزم ، ولكن ابن بقة سارع برفعه إلى العرش استبقاء لسلطانه الذي تأثل في ظل أبيه . بيد أن الحوادث ما لبثت أن تطورت بسرعة . ذلك أن نجما الحاجب الصقلي ، وكان يومئذ بسبته ، لم يرقه هذا الاختيار ، فبادر بالدعوة إلى حسن بن يحيى المعتلى (ابن أخى إدريس) . وكان إدريس قد اختاره لولاية عهده ، وكان وقت وفاة عمه حاكماً لسبته والثغور المغربية ، فبويغ حسن بالخلافة ، وجهز الحاجب جيشاً ، وسار بقواته مع حسن في أسطول يمم شطر مالقة ، ونزلت القوات إلى البر ، وحاصرت مالقة من البر والبحر ، ولم تمض أسابيع قلائل حتى اضطر يحيى إلى التسليم والتنازل عن الخلافة ، ثم سار إلى قمارش ، وأقام بها .

(١) راجع في تفصيل هذه الحوادث : البيان المغرب ج ٣ ص ١٩٠ و ١٩١ و ٢٩٣ ، والإحاطة في أخبار غرناطة لابن الخطيب (القاهرة ١٩٥٦) ج ١ ص ٢٦٩ و ٢٧٧ و ٥٢٨ .

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ١٩٩ .

وبويع حسن بن يحيى بالخلافة في مالقة في جمادى الثانية سنة ٤٣١ هـ ، وتلقب بالمستنصر بالله ، واعترفت بطاعته غرناطة وغيرها ، وعهد بتدبير الأمور إلى الوزير أبي جعفر بن بقنة ، وعهد إلى الحاجب نجا بحكم الثغور المغربية . وكان حسن أميراً حازماً ، قوى النفس ، فنظم الإدارة ، واستكثر من الجند ، وجبى الأموال . واستراب بوزيره أبي جعفر ، وكان يسر له نصرته ليحيى ، فدبر مقتله ، وذلك في يوم عيد الفطر سنة ٤٣٣ هـ (١) ، ثم أمر بقتل يحيى القاسم ، فقتل في ربيع الثاني سنة ٤٣٤ هـ . وكانت أخته زوجة للمستنصر ، فلما لبثت أن دبرت مقتله انتقاماً لأخيها ، وهلك حسن بالسهم في جمادى الأولى سنة ٤٣٤ هـ (ديسمبر سنة ١٠٤٢ م) .

والروايات بعد ذلك متضاربة ، فمنها ما يقول بأن الحسن لم يعقب ذرية (٢) ومنها ما يقول إنه ترك ولداً صغيراً بسبته . وعلى أى فقد نهض الحاجب نجا على أثر وفاة المستنصر ، وعبر البحر في قواته من سبته إلى الجزيرة ، وهنا يقال إنه نهض ليؤيد دعوة ولد الخليفة المتوفى ، ويقال من جهة أخرى إنه نهض ليستخلص تراث الحموديين لنفسه ، بعد أن اضطربت شئونهم . وسار نجا إلى الجزيرة وفيها ابنا القاسم بن حمود ، فخرجت إليه أمهما سبيعة ، وعنفته على مسلكه وعدم ولائه لساتته ، فاستحى منها ، وغادر الجزيرة ميمماً شطر مالقة . وكان معظم جنده من قبيلة برغواطة البربرية ، أخوال حسن بن يحيى ، فاستراىوا منه ومن مقاصده واثتمروا به ، وقتلوه في الطريق . ثم ساروا إلى مالقة ، وكان حسن بن يحيى أيام خلافته قد قبض على أخيه إدريس ، وزجه إلى السجن ليأمن منافسته . فأخرجته الجند من سجنه وبويع بالخلافة . وتلقب بالعالى ، وذلك في جمادى الثانية سنة ٤٣٤ هـ (يناير سنة ١٠٤٣ م) ، وأطاعته البربر في غرناطة وقرمونة وجيان وغيرها . وهو الممدوح بالقصيدة المشهورة ، التى نظمها عبد الرحمن بن ميقانا القبداني الأشبوني في مديحه ومطلعها :

البرق لائح من أندرين ذرفت عينك بالماء المعين
لعبت أسيفه عارية كخاريق بأيدي اللاعبين

(١) البيان المغرب ج ٣ ص ٢٩٠ ؛ والمراكشى ص ٣٦ .

(٢) المراكشى ص ٣٧ .

واصوت الرعد زجر وحنين وبقلبي زفرات وأنين
وأناجى فى الدجى عاذلتى ويك لا أسمع قول العاذلين^(١)
ومنها :

عيرتنى بسقام وضئى إن هذين لدين العاشقين
قد بدا لى وضح الصبح المبين فاسقنيها قبل تكبير الأذنين
لأسقنيها مرة مشمولة لبثت فى دنها بضع سنين
مع فتيان كرام نجب يتهادون رياحين المحبون^(١)
وكان العالى أميراً رقيق الخلال ، جواداً كثير الصلوات ، أديباً ينظم الشعر ،
ومع ذلك فقد كان يجمع حوله بطانة سيئة ، وصحاباً من أراذل القوم . وكان ضعيف
الرأى ، متهاوناً فى شئون الحكم ، فسرى التفكك إلى سلطانه ، وفى أواخر
سنة ٤٣٨ هـ (١٠٤٦ م) ، ثار عليه ابن عمه محمد بن إدريس بن على بن حمود ،
فخرج إدريس فى صحبه من مالقة إلى حصن بيشتر ، وعاونه باديس بن حبوس
أمير غرناطة بجنده ليسترد سلطانه . فغزا مالقة ولكنه لم يفز بطائل ، فارتد مع
أهله وصحبه إلى سبتة .

وبويع محمد بن إدريس فى شعبان سنة ٤٣٨ هـ . وتلقب بالمهدى ، وتوطد
أمره بمالقة ، ولكن بعض النواحي نكلت عن تأييده ، ولا سيما غرناطة ، وكان
أمرها باديس من أشد معارضيه . وكان يشعر أنه أحق من غيره بزعامة البربر ،
وأبدى المهدى عزماً فى تنظيم الحكومة وإصلاح الأمور ، ولكنه كان طاغية
سفكاً للدماء يسرف فى قتل مواطنيه البربر ، حتى كرهه معظمهم ، واجتمع
رأى معارضيه من الزعماء وعلى رأسهم باديس على وجوب خلعهم ، والاعتراف
بطاعة محمد بن القاسم بن حمود صاحب الجزيرة الخضراء ، واتفق رأى البعض
الآخر ومنهم أبونور بن أبى قررة اليفرى صاحب رندة ، على الاعتراف بطاعة
إدريس بن يحيى العالى . وهكذا ادعى الخلافة ثلاثة من أمراء بنى حمود فى وقت
واحد ، وفى مناطق صغيرة متقاربة ، وهذا إلى الخليفة المزعوم الذى أقامه
ابن عباد صاحب إشبيلية باسم هشام المؤيد ، ويستعرض الفيلسوف ابن حزم هذه
الحالة وهو معاصر لها فى مرارة وتهكم ، ويصفها بأنها « فضيحة لم يقع فى العالم

(١) راجع هذه القصيدة بأكملها فى نفع الطيب ج ١ ص ٢٠٢ و ٢٠٣ .

إلى يومنا مثلها: أربعة رجال في مسافة ثلاثة أيام في مثلها ، كلهم يتسمى بأمر المؤمنين ، ويخطب لهم في زمن واحد» (١) .

واستمر محمد بن إدريس المهدي في كرسى الخلافة زهاء ستة أعوام . ولما لم يرخصومه وسيلة للتغلب عليه ، لجأوا إلى الغيلة ، فدسوا عليه من قتله بالسهم ، وذلك في أواخر سنة ٤٤٤ هـ (أوائل سنة ١٠٥٣ م) .

فبويج من بعده ولد أخيه وهو إدريس بن يحيى بن إدريس بن علي بن حمود ، وتلقب بالسامى ، وأقام حيناً بمالقة ، ثم أصابته فيما يظهر لوثة ، فغادر مالقة ، وهام على وجهه في صفة تاجر ، وغادر البحر إلى شاطئ العدو ، فأخذ إلى سبتة ، حيث قتله حاكمها سواجات البرغواطي (٢) .

وكان إدريس بن يحيى العالى ، قد لجأ على أثر خلعها إلى سبتة ، فأقام بها في كنف سواجات ، وأقام كذلك حيناً في رندة ، في كنف حاكمها أبي نور بن أبي قررة ، فلما هلك السامى ، سار إلى مالقة واستقبله أهلها بحماسة ، ودعى له بالخلافة مرة أخرى ، واستمر في الحكم حتى توفي سنة ٤٤٦ هـ (١٠٥٤ م) بعد أن عهد بالخلافة لابنه محمد .

فخلفه ولده محمد ، وتلقب بالمستعلى ، وأقرت بيعته ألمرية ورندة ، ولكن معظم الزعماء البربر ، وفي مقدمتهم باديس صاحب غرناطة نكلوا عن طاعته . وفي سنة ٤٤٩ هـ (١٠٥٧ م) ، سار باديس في قواته إلى مالقة ، واستولى عليها وضمها إلى إمارته ، وغادرها المستعلى ، وسار إلى ألمرية ، ثم عبر منها البحر إلى مليلة فقبله أهلها حاكماً عليهم ، واستمر بها حتى توفي سنة ٤٥٦ هـ (١٠٦٤ م) والمستعلى هو آخر من حكم في مالقة من أمراء بني حمود .

وفي أثناء ذلك كان رأى الزعماء البربر ، وفي مقدمتهم باديس صاحب غرناطة وإسحاق بن محمد بن عبد الله البرزالي صاحب قرمونة ، ومحمد بن نوح صاحب مورور ، وعبدون بن خزرون صاحب أركش ، قد اجتمع على البيعة لبني محمد بن القاسم بن حمود صاحب الجزيرة الخضراء . وكان يحيى المعتلى حينما خلع

(١) ابن حزم في رسالته « نطق العروس » ص ٨٣ . وراجع البيان المغرب ج ٣ ص ٢١٧ و ٢٤٤ ؛ وأعمال الأعلام ص ١٤١ .

(٢) البيان المغرب ج ٢ ص ٢١٧ ؛ وأعمال الأعلام ص ١٤٢ .

عمه القاسم بن حمود، قد قبض على ولديه محمد وحسن، واعتقلهما بالجزيرة، فلما توفي يحيى، أفرج عنهما. وتولى محمد حكم الجزيرة، وذلك في الوقت الذي قامت فيه دولة المهدي في مالقة. ثم حاول محمد أن ينتزع الخلافة لنفسه، فسار في أنصاره إلى مالقة محاول انتزاعها من يد المهدي، ولكنه أخفق في محاولته، فارتد إلى الجزيرة، وتوفي بها في سنة ٤٤٠ هـ.

فخلفه محمد ولده وحكم الجزيرة فترة قصيرة؛ ثم خلفه ولده القاسم، وتلقب بالواثق، وكانت خلافته هزيلة ضيقة الرقعة والموارد، ولم يتح لها من البقاء سوى فترة يسيرة. ذلك أن ابن عباد صاحب إشبيلية اعتزم أن يقضى على خلافة الحموديين بصفة نهائية، فبعث قواته إلى الجزيرة الخضراء فطوقها من البر والبحر واضطر القاسم سراعاً إلى التسليم، وغادر الجزيرة بالأمان مع أهله وصحبه (٤٤٦ هـ - ١٠٥٥ م) وسار إلى ألمرية حيث التجأ إلى حماية صاحبها المعتصم ابن صمادح، ولبت بها حتى توفي سنة ٤٥٠ هـ (١٠٥٨ م).

وفي نفس الوقت كان باديس أمير غرناطة قد استولى على مالقة من يد المستعلي (٤٤٩ هـ)، وانهار بها سلطان الحموديين، وهكذا انقرضت دولة بني حمود من مالقة والجزيرة معاً، وانتهى بذلك سلطانهم بالأندلس بعد أن حكموا المثلث الإسباني الجنوبي، وثور العدو الشمالية، زهاء نصف قرن^(١).

* * *

وهكذا انحدرت إسبانيا المسلمة، في النصف الأول من القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) عقب انهيار دعائم الخلافة الأموية والدولة العامرية، إلى معترك مروع من التمزق والفوضى، واستحالت الأندلس بعد أن كانت كتلة موحدة، تمتد من ضفاف دويرة شمالاً إلى مضيق جبل طارق جنوباً، ومن شاطئ البحر المتوسط منذ طركونة شرقاً حتى شاطئ المحيط الأطلنطي غرباً، إلى أشلاء ممزقة، ورقاع متناثرة، وولايات ومدن متباعدة متخاضمة، يسيطر على كل منها حاكم سابق استطاع أن يحافظ على سلطته المحلية خلال الانهيار،

(١) راجع في تفاصيل الحوادث المتقدمة، البيان المغرب ج ٣ ص ٢٨٨ و ٢٩١ و ٢٩٢؛ وابن خلدون ج ٤ ص ١٥٤ و ١٥٥؛ وابن الأثير ج ٩ ص ٩٦ و ٩٧؛ والمراكشي ص ٣٧ - ٣٩، وأعمال الأعلام ص ١٤٢ و ١٤٣. وراجع بحثاً بالإسبانية للأستاذ المستشرق الفرنسي بيكودي لوثينا عن دولة بني حمود عنوانه: *Los Hammudies, Senores de Málaga y Algeciras, p. 47-53*

أو متغلب من الفتيان الصقالبة أو القادة ذوى السلطان السابق ، أو زعيم أسرة محلى من ذوى الحاه والعصبية . وسيطر البربر من بجانبهم على أراضى المثلث الإسباني الجنوبي ، وما كان منه بيد الدولة الحمودية ، وأنشأوا هنالك إمارات عدة ، ما لبثت أن نزلت إلى ميدان الصراع العام ، الذى شمل هذه المنطقة . وهكذا قامت على أنقاض الدولة الأندلسية الكبرى دول عديدة هي دول « الطوائف » ، وذلك منذ أوائل الربع الأول من القرن الخامس ، حتى الفتح المرابطى ، زهاء سبعين عاماً ، قضتها جميعاً فى سلسلة لا نهاية لها من المنازعات الصغيرة ، والحصومات والحروب الأهلية الانتحارية ، وكادت بتنايذها وتفرقها ومنافساتها ، تمهد لسقوط الأندلس النهائى . وقد كان من رحمة القدر ، أن إسبانيا النصرانية ، كانت فى نفس الوقت الذى انثرت فيه وحدة الأندلس على هذا النحو الخطر ، تعاني من انقسام الكلمة ، وتعصف بها رياح الخلاف والتفريق ، فلم تتح لها فرصة للوثوب بالأندلس الممزقة ، إلى أن كان الوقت الذى بلغ فيه تنايذ الطوائف ذروته ، واشتد ساعد إسبانيا النصرانية كرة أخرى ، واستطاعت أن تضرب ضربتها القوية بانتزاع طليطلة ، أول قاعدة إسلامية كبيرة (٥٤٧٨ هـ - ١٠٨٥ م) ؛ وعندئذ تطورت الحوادث بسرعة واتجهت الأندلس الحريح ، فى توجسها وانزعاجها ، إلى إخوانها المسلمين فيما وراء البحر ، بعدوة المغرب ، تستدعيهم لنصرتها . وكان أن تدفقت الحيوش المرابطية من المغرب على شبه الجزيرة الإسبانية ، وكان أن أنقذت دولة الإسلام فى الأندلس .

الكتاب الخامس

النظم الإدارية والحركة الفكرية
في عصرى الإمارة والخلافة

الفصل الأول

نظم الحكم

والأوضاع السياسية والإدارية والعسكرية والاقتصادية

في عصرى الإمارة والخلافة

- ١ -

تعاقت خلال هذه الفترة الطويلة التي سردناها من تاريخ الأندلس ، على الأمة الأندلسية ، أنواع من نظم الحكم ، ومن الأوضاع السياسية والإدارية ، كانت تسير طوراً بعد طور مع مختلف الحوادث ، والحروب والانقلابات المتوالية . وبالرغم من أنه لم يفتننا أن نشير في مختلف المواطن إلى تلك التغييرات المتوالية ، التي شهدتها الأمة الأندلسية ، فإنه يجدر بنا أن نتحدث عنها حديثاً خاصاً ، وأن نقدم منها إلى القارئ صورة مجتمعة متماسكة .

كانت الأندلس عقب الفتح ولاية تتبع إفريقية ، ويقوم باختيار حاكمها والى إفريقية . وقد استمر هذا الوضع نحو ثمانية أعوام فقط ، تعاقت فيها على ولاية الأندلس ثلاثة من الولاة هم عبد العزيز بن موسى ، وأيوب بن حبيب اللخمي ، ثم الحر بن عبد الرحمن الثقفي . غير أنه كان من الواضح أن هذا النظام لم يكن يلائم قطراً ضخماً كالقطر الأندلسي ، وخصوصاً بعد ما بدأت الغزوات الإسلامية لغاليس (جنوب فرنسا) ، وبدأت الأندلس تخوض الصراع مع مملكة الفرنج فيما وراء البرنيه ، ومع نصارى الشمال . ومن ثم فقد رأت خلافة دمشق أن تكون الأندلس ولاية مستقلة تتبع الخلافة مباشرة ، ويقوم الخليفة بتعيين واليها . وكان الخليفة عمر بن عبد العزيز هو الذي أصدر هذا القرار شعوراً منه بأهمية الأندلس السياسية والعسكرية والاجتماعية .

وكان أول ولاة الأندلس من قبل الخلافة ، هو السمع بن مالك الحولاني ، وقد ندبه عمر بن عبد العزيز لولايتها في سنة مائة من الهجرة (٧١٩م) . بيد أنه

لما توفي عمر بن عبد العزيز (١٠١هـ) عاد الأمر في تعيين ولاية الأندلس إلى ولاية إفريقية ، ولكن بمصادقة الخليفة . وكان الوالى عادة هو قائد الجيش العام ، وإليه يرجع أمر الغزو في الشمال . ولما وقعت نكبة بلاط الشهداء في سنة ١١٤هـ (٧٣٢م) ، أخذت الخلافة مرة أخرى بيدها تعيين والى الأندلس ، واختار الخليفة هشام بن عبد الملك لولايتها عبد الملك بن قطن . واستمر الأمر بعد ذلك حيناً يرجع إلى والى إفريقية ، وأحياناً إلى اختيار الجماعة ، أعني جماعة الزعماء والقادة في شبه الجزيرة ، وكان ذلك يحدث بالأخص حين تضطرب الأمور ، ويقع الخلاف بين مختلف القبائل والزعامات . ولما اضطربت الفتنة بين الشاميين والبلديين ، وأخذ الفريقان يتبادلان الرياسة ، ضعف أمر السلطة المركزية ، ولم تهدأ الأمور حتى عين أبو الخطار الكلبي والياً للأندلس (١٢٥هـ) . ولكن أبا الخطار كان يمينياً فمال إلى اليمينية ، واضطربت الفتنة بين اليمينية والمضرية ، ولما تفاقم الأمر ، وخشى الزعماء عاقبة الفتنة والحرب الأهلية ، اتفقوا على تعيين يوسف بن عبد الرحمن الفهري من المضرية للولاية ، وذلك دون موافقة أو مصادقة لا من والى إفريقية ، ولا من الخلافة ، وكان ذلك في سنة ١٢٩هـ (٧٤٧م) . واستمر يوسف بن عبد الرحمن الفهري والياً للأندلس زهاء عشرة أعوام ، وهو يزاول سلطة شبه مطلقة . وقد استطاع بعزمه وحزمه ، أن يعيد إلى الأندلس نوعاً من الاستقرار والسكينة . ولكن القدر كان يدخر للأندلس مصيراً آخر ، في ظل سلطة أخرى ، لم تكن تخطر ليوسف أو غيره من الزعماء المتطلعين إلى الرياسة . وذلك أن عبد الرحمن الأموي عبر إلى الأندلس في ربيع الآخر سنة ١٣٨هـ (سبتمبر سنة ٧٥٥م) ، وهرع في الحال إلى لوائه جمع من الصحب والأنصار ، ووقع الحدث الحسم في موقعة المسارة في العاشر من ذي الحجة سنة ١٣٨هـ (١٣ مايو سنة ٧٥٦م) فهزم يوسف الفهري وصحبه ، وأنهت رياسته للسلطة ، وكتب النصر لسلي بن أمية ، فبويع عبد الرحمن الأموي في الحال بالإمارة ، وبعثت من ذلك التاريخ دولة بني أمية بالأندلس ، بعد أن سقطت بالشرق قبل ذلك ببضعة أعوام .

ومن ذلك التاريخ تقوم الدولة الأموية في الأندلس ، وتستقر قواعدها تبعاً ، بعد معارك طويلة متعددة ، بينها وبين الزعامات المحلية والعناصر الثائرة . وقد

بقيت الدولة الأموية عصراً تتشعّ يثوب الإمارة ، وذلك وفقاً لما قرره مؤسسها عبد الرحمن الداخل . وبالرغم من أن بلاط قرطبة ، بلغ في عصر أمراء مثل الحكم ابن هشام ، وولده عبد الرحمن ، مبلغاً عظيماً من القوة والبهاء ، وأضحى ينافس بلاط بني العباس في الأخذ بزعامة الإسلام ، فإن أمراء بني أمية لبثوا على مبدئهم من الاكتفاء بلقب الإمارة ، إلى أن كان عهد عبد الرحمن الثالث (الناصر) فعندئذ تغيرت أوضاع الغرب الإسلامي بقيام الخلافة الفاطمية في الضفة الأخرى من البحر ، على مقربة من الأندلس . وكان هذا الحدث الخطير في ذاته أول حافز للناصر على اتخاذ سمة الخلافة ، وصدر مرسومه بذلك في اليوم الثاني من شهر ذي الحجة سنة ٣١٦ هـ (يناير ٩٢٩ م) وبذا تحولت الدولة الأموية من إمارة إلى خلافة ، وكان عبد الرحمن الناصر أول من تلقب من أمرائها «بأمير المؤمنين» .

وقد تميزت الخلافة الأموية بعدة خصائص ، أولها الاعتماد في توطيد سلطاتها على الموالى والصقالب ، وهي سياسة بدأت في عهد الإمارة منذ عبد الرحمن الداخل ، ووصلت إلى ذروتها في عهد الناصر ، وذلك حسبما فصلناه في موضعه ، وثانيها الاسترابة بالقبائل والزعامات العربية ، والعمل المستمر على إخضاعها ، والقضاء على سلطاتها ونفوذها ، وذلك لما لقيه بنو أمية منذ البداية من معارضة هذه القبائل والزعامات ، وانتفاضها المتوالى ، وثوراتها المتعددة ، وثالثاً عطنها الواضح على أهل الذمة وهم النصارى واليهود ، وكفالة حرياتهم الدينية والاجتماعية ، وهذه السياسة أيضاً ترجع إلى عصر الإمارة ، حيث أنشئ منذ عهد الحكم بن هشام أو قبله بقرطبة ، منصب خاص لإدارة شئون أهل الذمة يعرف صاحبه «بالقومس» ، وقد كان للنصارى المعاهدين ، فوق ذلك قاض خاص ، وقد يكون أسبقهم في نفس الوقت ؛ وعين بعد ذلك للنصارى مطران خاص ، مركزه بمدينة إشبيلية . وقد استمر هذا التسامح نحو النصارى المعاهدين عصوراً ، وذلك بالرغم مما كانوا يدبرونه في بعض الأحيان ضد الحكومة المسلمة من الدسائس والمؤامرات ويعقدون من الصلات المريبة مع نصارى الشمال .

وبلغت الخلافة الأموية بالأندلس ذروة قوتها ونفوذها السياسى والأدبى في عهد الناصر وولده الحكم المستنصر . بيد أنه بوفاة المستنصر (٣٦٦ — ٩٧٦ م) وولاية ولده الحدث الضعيف هشام المؤيد ، تبدو طلائع ذلك الانقلاب الحاسم

الذى كان يدخره القدر لمصير الخلافة الأموية . ذلك أن محمد بن أبي عامر ، الذى أخذ يبرز نجمه منذ أواخر أيام الحكم ، ما كاد يلى منصب الوزارة ، حتى أخذ يستجمع أزمة السلطة فى يده تباعاً ، ويحطم كل معارضة لسلطانه ، وانتهى الأمر بأن فرض ابن أبي عامر نفسه حاكماً مطلقاً للأندلس ، وأنشأ مدينة الزاهرة ، لتكون له قاعدة جديدة للحكم ، واتخذ سمة الملك ، وتسمى بالحاجب المنصور (٣٧١هـ — ٩٨١م) ، وبالرغم من أنه لم يتعرض بشئ للخلافة الأموية أورسومها ، فإن الخلافة لم تكن فى ظل حكمه سوى شبح باهت ، واسم بلا مسمى . وهكذا قامت الدولة العامرية واستمرت فى ظل المنصور . ثم ولده عبد الملك المظفر ، فأخيه عبد الرحمن زهاء ثلاثين عاماً ، ثم انتهت بمصرع عبد الرحمن المنصور فى رجب سنة ٣٩٩ هـ (١٠٠٩ م) .

وهنا استعادت الخلافة الأموية سلطانها بتميام محمد بن هشام الملقب بالمهدى ، وتربعه فى كرسي الخلافة مكان الخليفة هشام المؤيد ، وانتهى بذلك عهد السلطة الثنائية ، سلطة الخلافة الأموية الإسمية ، وسلطة بنى عامر الفعلية ، ولكن عودة الخلافة الأموية على هذا النحو لم يكن سوى بداية مأساة مروعة ، استمرت زهاء أربعين عاماً ، اضطرت الأندلس فيها بالفتن المدمرة ، وغدت الخلافة الإسمية ، والسلطة الفعلية ، غنماً متداولاً بين بنى أمية ، والفتيان العامريين ، والبربر ، وبنى حمود ، وانتحل بنو حمود ألقاب الخلافة ، وقامت فى وقت واحد بالأندلس أكثر من خلافة فى قرطبة ، ومالقة ، وإشبيلية ، وغدت قرطبة والأندلس كلها مسرحاً لمعارك وحروب أهلية متوالية ، ودمرت خلال ذلك مدينة الزهراء الخلافة ، وعدة من أحياء قرطبة ، وسادت الفوضى كل جنابات ، الأندلس ، واستمرت هذه المحنة زهاء أربعين عاماً ، ثم تمخضت فى النهاية عن مأساة جديدة . وهى تمزق الأندلس إلى ولايات ومدن عديدة مستقلة . يحكم كل منها زعيم أو أمير مستقل ، وبدأ بذلك عهد الطوائف .

تلك خلاصة وجيزة للأوضاع النظامية ، وأنواع الحكم المتوالية ، التى عاشت فى ظلها الأمة الأندلسية زهاء ثلاثة قرون منذ فتح الأندلس فى سنة ٩٢ هـ (٧١١ م) حتى قيام دول الطوائف ، فى الربع الثانى من القرن الرابع الهجرى .

الحجابه والوزارة

كانت حكومة الأندلس في عصر الولاة ، هيئة إدارية محلية قوامها الحاكم (الوالى) وقادة الجيش . ولم تكن ثمة مناصب وزارية بالمعنى المعروف ، إذ لم يكن الوالى سوى رئيس مؤقت لإدارة الإقليم ، وقد كان الوالى في معظم الأحيان هو قائد الجيش العام . ولم تظهر المناصب الوزارية إلا في بداية عصر الإمارة مد قامت الدولة الأموية بالأندلس ، على يد مؤسسها عبد الرحمن الداخل . وقد اقتبس الداخل لنظام حكومته ، من أنظمة الحكومة الأموية بالشرق ، وأنشأ منصب الحجابه ، ولكنه لم ينشئ مناصب الوزارة ، بل اكتفى بتعيين نفر من أخلص أنصاره كمعاونين ومستشارين ، يعاونونه في القيام بأعباء الحكم ، ويبدلون له النصيح في مهام الأمور . وعين للجيش أيضا قائده العام . بيد أنه كان يقود الجيش بنفسه في مواطن كثيرة . وقد امتازت حكومة الداخل بالاعتماد على الموالى والاستراية بالعرب ، لما لقيه الداخل من خصومتهم ومناوأتهم . وقد غدت هذه الظاهرة فيما بعد ، ظاهرة الاستراية بالعرب ، من مميزات الحكومة الأموية بالأندلس ، سواء في عهد الإمارة أو عهد الخلافة ، واتخذت أسطع مظاهرها في عهد عبد الرحمن الناصر .

واتجهت الحكومة الأموية ، إلى جانب الاعتماد على الموالى ، إلى اصطناع الصقالبة ، واتخذ هذا الاتجاه طابعه القوى منذ عهد الحكم بن هشام ، وظهر الصقالبة لأول مرة بكثرة في البلاط الأموى ، واحتلوا معظم مناصب القصر والخاص . غير أن الاعتماد على الصقالبة لم يمنع قيام الحجابه والوزارات القوية . فكان منصب الحجابه في الواقع هو أهم المناصب التنفيذية ، وكان يليه في معظم الأحيان رجال من الطراز الأول ، أحياناً من رجال السيف ، مثل عبد الكريم ابن عبد الواحد بن مغيث وعبد العزيز بن أبي عبدة حاجبا الحكم ، وأحياناً من رجال القلم مثل عيسى بن شهيد حاجب عبد الرحمن بن الحكم ، والحاجب جعفر المصحفى ، حاجب الحكم المستنصر ، وأحياناً يجمع الحاجب بين السيف والقلم مثل الحاجب عبد الكريم ، وهاشم بن عبد العزيز حاجب الأمير محمد بن عبد الرحمن .

وكان يعاون الحاجب ، وهو بمثابة رئيس الوزارة ، عدة من الوزراء ، يتولون مختلف المناصب الوزارية . وقد بلغت الوزارة في ظل الحكومة الأموية الأندلسية شأواً بعيداً ، وتعاقب في ولايتها جمهرة من أعظم الرجال ، وألمعهم خللاً ، وكانت تضم عدة من أخطر مناصب الدولة ، مثل منصب كبير الخالص . وكان يشغله على الأغلب فتيان الصقالبة . وخطه الخيل . وخطه الكتابة أو الكتابة العليا ، وكان يتولاها وزير من الكتاب النابيين . وخطه صاحب المدينة أو حاكم قرطبة ، وصاحب المدينة بالزهراء ، وكانت من أهم المناصب الوزارية . وخطه المظالم ، وكانت قبل عهد الناصر خطه مفردة تتضمن العرض والمظالم ، ولكنها في عهد الناصر ، قسمت إلى خطتين (٥٣٢٥ هـ) ، وجعل العرض خطه مستقلة بذاتها ، وكذلك المظالم أضحت خطه مستقلة ، وكان أول من وليها مستقلة محمد بن قاسم بن طملس ، وكان يتولى المظالم وزير ، وقد وليها قبله أيام الناصر جماعة من الوزراء النابيين مثل أحمد بن حدير . وعبد الملك بن جهور . وخطه الشؤون المالية . وخطه الشرطة ، وكانت من أهم المناصب الإدارية المتعلقة بضبط النظام والأمن ، وكانت قبل عهد الناصر تنقسم إلى مرتبتين ، الشرطة العليا ، والشرطة الصغرى ، ولكنها منذ سنة ٣١٧ هـ في عهد الناصر لدين الله ، قسمت بحسب أهميتها إلى ثلاث مراتب : الشرطة العليا ، والشرطة الوسطى ، والشرطة الصغرى ؛ وقد رتب رزق الشرطة الوسطى ، وسطاً بين رزق العليا والصغرى ، وكان أول من تقلدها سعيد بن سعيد بن حدير . وخطه القضاء ، وتبعها خطه الموارد ، وكذلك خطه السوق أو الحسبة . وخطه الشورى ، وكانت من الخطط العارضة ، ومن المناصب ذات النفوذ العلمى والأدبى قبل كل شىء ، وتسند عادة إلى من يعتبر في وقته عميد العلماء وشيوخهم ، وكان أشهر من وليها رجال مثل بقى بن مخلد . وفي أيام المنصور بن أبى عامر ، كان ثمة ديوان يسمى ديوان الندماء ، كان يلحق به كل أديب وشاعر ممن يوثقهم الأمير بصحبته ومجالسته . وفي أواخر الدولة العامرية ، غلب الصقالبة في تولى الخطط الكبرى من حجابة ووزارة ، وبدأ ذلك بنوع خاص في عهد عبد الملك المنصور . ولما انهارت الدولة العامرية استمرت هذه الظاهرة حيناً ، وتولى أولئك الفتيان الحجابة للخلفاء الآخرين من بى أمية ، وغلبوهم على أمرهم ، ثم استبدوا فيما

بعد ، عند انهيار الدولة ، برياسة طائفة من المدن والولايات ، وكان من هؤلاء أمراء للطوائف ، مثل مجاهد العامري صاحب دانية ، وخيران العامري صاحب ألمرية . وظهرت في الدولة العامرية بدعة أخرى ، هي إسناد منصب الحجابة إلى الأطفال . فقد استصدر عبد الملك المنصور من الخليفة المحجور هشام المؤيد ، مرسوماً بتعيين ولده الطفل محمد في منصب الحجابة ، ولقب بذي الوزارتين ، وعين عبد الرحمن المنصور ولده الطفل عبد العزيز في منصب الحجابة ، وأسبغ عليه لقب سيف الدولة . وكانت هذه المهازل وأمثالها دليلاً على تصدع ذلك الصرح الإداري المحكم الذي شاده الأمراء والخلفاء من بني أمية ، خلال قرنين من الجهود المتوالية . وفي أيام الخليفة المستظهر العابد (رمضان — ذو القعدة ٤١٤ هـ) استحدثت بالوزارة عدة خطط جديدة مثل : خطة خدمة المدينتين الزهراء والزاهرة ، وخدمة كتابة التعقب والمحاسبة ، وخدمة الحشم ، وخدمة موارد الخاصة ، وخدمة الطراز ، وخدمة المعالي ، وخدمة الأسلحة ، وخدمة الخزائن ، وخدمة الوثائق ، ورفع كتب المظالم ، وخدمة خزانة الطب والحكمة ، وخدمة أحكام السوق ، وهي خطط يصفها ابن حيان بأنها عبث وزخرف من التسطير وضع على غير حاصل ، ومراتب نصبت لغير طائل .

الجيش ، نظامه وتكوينه

كان أول جيش إسلامي عبر إلى شبه الجزيرة لفتح الأندلس ، مكوناً من العرب والبربر ، وكان قائد الجيش الفاتح ، طارق بن زياد ، فيما يرجح بربرياً من قبيلة نفزة . وقد لعب البربر منذ البداية في تكوين قوى الأندلس الغازية والدفاعية أعظم دور ، وكان تدفقهم من الضفة الأخرى من البحر — من المغرب على شبه الجزيرة أسرع وأغزر من تدفق المتطوعة العرب ، وكانوا يؤلفون الكثرة في جيش الغزو . ولما نظم عبد الرحمن الغافقي جيشه الضخم لغزو بلاد الفرنج ، كان البربر من عناصره المختارة الغالبة ، وكانت القيادة دائماً بيد الضباط العرب ، وكان الخلاف الذي اضطرم منذ بداية الفتح بين العرب والبربر ، يعمل عمله المقوض بين صفوف الجيش ، وقد بدأ تكوين الحيوش الغازية الضخمة ، منذ عهد السموح بن مالك الحولاني وإلى الأندلس ، وكان أعظم هذه

الجيش ، الجيش الضخم الذي حشده عبدالرحمن الغافقي لغزو مملكة الفرنج . وبالرغم من أن البربر كان لهم في إنجاح معظم الغزوات الشمالية أثر فعال ، فإنهم كانوا أيضاً في بعض الأحيان عنصراً خطراً على سلامة الجيش ، لما كان يسودهم في بعض الأحيان من البغض وعدم التعاون لقادتهم العرب . وكان أسطع مثل ذلك الخلاف المدمر ، ما حدث في موقعة بلاط الشهداء (٨١٤ - ٧٣٢ م) من تحاذل البربر وتخليهم عن القتال أمام الفرنج ، وإرغامهم هيئة الجيش على الانسحاب بعد مقتل قائده البطل عبد الرحمن الغافقي . ولما قامت ثورة البربر في المغرب ، وهزم العرب في منطقة طنجة ، وعبرت فلول الجيش المهزم وهم من الشاميين بقيادة بلج بن بشر القشيري إلى الأندلس ، وذلك بدعوة الوالي ابن قطن ، ليستعين بهم على مغالبة البربر في الأندلس ، رجحت كفة العناصر العربية في الجيش مدى حين . ولكن جيش الأندلس ما لبث أن انقسم إلى قسمين ، معسكر الشاميين وهم أنصار بلج ، ومعسكر العرب والبربر المحليين . ولبثت الحرب الأهلية تضطرم حيناً ، حتى قام يوسف بن عبد الرحمن الفهري فاستقر في ولاية الأندلس ، وقام بإصلاح الجيش وتنظيمه ، ليعود كما كان جيشاً أندلسياً ، يضطلع بالغزو ورد هجمات نصارى الشمال .

وعنى عبد الرحمن الداخل بتنظيم الجيش أشد عناية ، وحشد له المتطوعة والمرتزة من سائر الطوائف . وبلغت قواته يومئذ نحو مائة ألف مقاتل . وهذا عدا الحرس الخاص ، الذي يتكون من الموالى والبربر والرقيق ، وقد بلغت قواته نحو أربعين ألفاً . ووضع عبد الرحمن الداخل أيضاً نواة الأسطول الأندلسي بما أنشأ من قواعد لبناء السفن في بعض الثغور النهرية والبحرية . ولكن بداية قيام الأسطول الأندلسي الفعلية ترجع إلى ما بعد ذلك بنحو نصف قرن ، حينما فاجأ النورمانيون الأندلس بغزو الثغور الغربية ، ثم بغزو إشبيلية ، والفتك بأهلها . وكان ذلك في سنة ٨٢٣ هـ (٨٤٣ م) في عهد عبد الرحمن بن الحكم ، فعندئذ أدركت الحكومة الأندلسية وجوب العناية بأمر الأسطول والتحصينات البحرية وبدى بإنشاء السفن الحربية . وكانت أكبر دور الصناعة لإنشاء السفن في مياه الوادي الكبير تجاه إشبيلية . ومن ذلك الحين يقوم الأسطول الأندلسي بدوره في شئون

الغزو والدفاع ، وقد بلغت وحداته في عهد عبد الرحمن الناصر زهاء مائتي سفينة .

ومما تجدر ملاحظته أن الجيش الأندلسي ، قد تلقى خلال عهد الفتنة الكبرى التي شملت سائر نواحي الأندلس ، ولاسيما المنطقة الجنوبية ، واستمرت تضطرم زهاء ستين عاما ، منذ عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن (٢٣٨-٢٧٣هـ) كثيراً من الدربة والتجارب المريرة في معاركه المستمرة مع جيوش الثوار ، وأضحى في أواخر هذه الحقبة في عهد عبد الرحمن الناصر ، من حيث العدد والكفاية قوة لها خطرهما . وقد بذل الناصر جهوداً عظيمة لإصلاح الجيش وتقويته ، ومنه بالأسلحة والعتاد الوفير . وعنى في الوقت نفسه بأمر الأسطول ، فأنشأ له وحدات جديدة ، وجعل مركزه الرئيسي ثغر ألمرية ، وأنشأ بها أعظم دار للصناعة ، وبلغ الأسطول الأندلسي في عهد الناصر ، حسباً تقدم ، زهاء مائتي سفينة مختلفة الأنواع والأحجام ، وهذا عدا أسطول آخر خصص لشئون المغرب البحرية ، وكان الأسطول الأندلسي يومئذ من أقوى الأساطيل ، وكان يسيطر على مياه إسبانيا الشرقية والجنوبية .

وفي عهد المنصور بن أبي عامر ، بلغ الجيش الأندلسي الم رابط ذروة القوة وال ضخامة ، وقد رأى المنصور أن يعتمد بالأخص في تكوين الجيش على حشود البربر ، فاستقدمهم من العدو ، وبذل لهم الأعطية السخية ، وكذلك حشد في جيشه كثيراً من المرتزقة النصارى ، ومعظمهم من المستعربين رعايا الحكومة الأندلسية ، واستطاع المنصور ، بما بذله من جهود عنيفة متوالية ، ومن أموال وفيرة ، أن ينشئ للأندلس قوة عسكرية هائلة لم تعرفها الأندلس في أى عصر سابق ، أو لاحق . وقد نقلت إلينا الرواية بعض أرقام عن الجيش الأندلسي الم رابط في عهد المنصور ، من ذلك أن الفرسان بلغ عددهم إثني عشر ألف ومائة فارس من سائر الطبقات ، تصرف لهم النفقة والسلاح والعلافة ، وبلغ عدد الرجال (المشاة) في الجيش الم رابط ستة وعشرين ألف مقاتل . وكان عدد الجيش الم رابط ، يتضاعف وقت الصوائف مراراً بما ينضم إليه من صفوف المتطوعة ، وقد بلغ عدد الفرسان في بعض الصوائف ، ستة وأربعين ألفاً ، وكان عدد المشاة يتضاعف أيضاً ، وقد يعدو المائة ألف أو تزيد .

الموارد الاقتصادية

وصنوف الحـبـابة

لما افتتح المسلمون الأندلس ، كان الشعب الإسباني المغلوب ، ما يزال يعيش فى ظل بقايا النظم الرومانية ، التى اتخذها القوط أساساً لتشريعاتهم ونظمهم الإدارية . وكان عبء الضرائب يقع معظمه على طبقات الشعب الدنيا ، ولا يكاد يقع شئ منه على عاتق الأشراف ورجال الدين ، ومن إليهم من الطبقات الممتازة . فلما افتتح المسلمون شبه الجزيرة ، فرضت الضرائب على قاعدة المساواة دون تمييز بين طبقة وأخرى ، وفرضت الجزية على من لم يعتنق الإسلام من أبناء الشعب المغلوب . وفى خلال الحقبة الأولى ، التى تميزت باستمرار الغزوات الإسلامية ، وما تقتضيه من حشد الجيوش المستمرة ، لم تكن موارد القطر المفتوح قد حققت كلها واستغلت . وقد كان من الواضح منذ البداية أن القطر المفتوح قطر زراعى قبل كل شئ . وكان خراج الأرض الزراعية ، والجزية ، وأخماس الغنائم ، هى المصادر الرئيسية للدخل ، وقد ازدهرت الزراعة بالأخص عقب الفتح لما حدث من توزيع أفضل للأرض ، وتحسين أحوال العاملين فيها . وكان يوسف الفهرى آخر الولاة ، أول من عدل نظام الضرائب القديم ، ففرض على كل ولاية ، أن تقدم ثلث الدخل ، ورفع الجزية عمن توفوا من النصارى ، وقسم الأندلس من الناحية الإدارية إلى خمس ولايات حسبما أسلفنا ذلك فى موضعه . وكانت حكومة قرطبة الإسلامية تسيطر على أخصب وأغنى وديان شبه الجزيرة الإسبانية ، وكان أهم المحاصيل الزراعية هى القمح والزيتون والفاكهة وغابات الأشجار الخشبية ، وما تزال هذه المحاصيل إلى اليوم هى أهم موارد إسبانيا الزراعية . وكذا كان تربية الماشية مورداً من أهم موارد الدخل القومى . ولما استقرت الأمور ، واستطاع الفاتحون أن يضعوا أيديهم على موارد البلاد وثرواتها الطبيعية ، وأن يستغلوها بمقدرة وذكاء ، لم تبقى الزراعة هى المورد الوحيد ، وإن لبثت دائماً هى المورد الرئيسى . ذلك أن شبه الجزيرة الإسبانية ، تضم ثروات متنوعة من المعادن ، كانت تستغل منذ أيام الرومان ، فكان يستخرج

بها الفضة والرصاص والحديد والذهب والزئبق ، والقصدير من أنحاء مختلفة ، في الشمال والجنوب ، فكانت الفضة والنحاس تستخرج في الشمال ، وفي جهة قرطبة ، وكورة تدمير ، وكان الزئبق يستخرج من جبال البرانس ، والقصدير بجهة أكشونة من ولاية الغرب ، وكان البلاور يستخرج في منطقة لورقة ، والرخام من جبل قرطبة وباجة ومن جبال سيرا مورينا . وكانت تقوم إلى جانب الزراعة صناعات هامة ، مثل صناعة النسيج والملابس والأثاث والفخار والزجاج والورق^(١) ، وكانت التجارة تزدهر في نفس الوقت داخل شبه الجزيرة ، وخلال موانئها الشرقية والجنوبية ولاسيما مالقة وألمرية ، وتجي الدولة من المكوس التجارية ، سواء على التجارة الداخلية أو الخارجية أو على السفن الصادرة والواردة مقادير عظيمة . ولم تأت أوائل القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) ، في عصر عبد الرحمن ابن الحكم ، حتى كانت إسبانيا المسلمة ، قد بلغت مبلغاً عظيماً من الرخاء ، وتضاعفت مواردها من الدخل القومي ، وبلغت حصيلة الجباية من المكوس وحدها زهاء ألف ألف دينار في السنة ، وبلغت في عهد عبد الرحمن الناصر من الكور والقرى خمسة آلاف وأربعمائة ألف وثمانين ألف دينار . وبلغت من المستخلص (وهي الأملاك السلطانية) سبعمائة ألف وخمسة وستين ألف دينار ، وقد ذكرنا فيما تقدم ، في موضعه ، أن الناصر خلف عند وفاته في بيت المال عشرين مليوناً من الذهب ، هذا عدا ما أنفقه من الأموال الطائلة في مختلف الغزوات ، وفي مختلف المنشآت الباذخة التي أقامها ، وفي مقدمتها مدينة الزهراء الملوكية ، وهي مما يدل على ضخامة الموارد المالية للأندلس في عصر الخلافة . وفي أيام المنصور بن أبي عامر ، في أواخر عصر الخلافة ، حققت موارد الدخل زيادة عظيمة ، ووصل محصل الجباية وحده إلى أربعة آلاف ألف دينار (أربعة ملايين) ، سوى رسوم الموارث وسوى مال السبي والغنائم ، واستمرت هذه الزيادة في عهد ولده عبد الملك . ثم كان انهيار الدولة العامية ، وانهيار الخلافة الأموية ، واضطرام الفتنة في كل مكان ، فتحطمت موارد الدخل ، وكسدت التجارة والصناعة ، وغاضت أسباب الرخاء .

(١) راجع كتاب الأستاذ ليث بررغنس : *L'Espagne Musulmane aux xème Siècle* ;

p. 176, 183 & 184 ، وكذلك نفح الطيب ج ١ ص ٧٨ و ٩٣ .

الفصل الثاني

الحركة الفكرية الأندلسية

في عصرى الإمارة والخلافة

— ١ —

لبث الأندلس عقب الفتح، رديحاً من الزمن، بعيدة عن أن تكون مهداً لنشوء الحركة الفكرية. ذلك أنه خلال عصر الولاية، لم تكن الأمور قد استقرت بعد، ولم تترك مشاغل الغزو، والخلافات الحزبية، والانقلابات المتوالية في الرياسة، كبير مجال لاتجاه الأذهان إلى التفكير والأدب، ومن ثم فإننا لا نجد في هذا العصر كتاباً أو شعراً أو مفكرين ذوي خطر، وإن كنا نجد بعض الآثار الشعرية القليلة، التي ترد على ألسنة بعض الولاة أو الزعماء.

ويمكننا أن نرجع الحركة الفكرية الأندلسية، إلى عصر عبد الرحمن الداخل المتوفى سنة ١٧٢ هـ. ذلك أن هذا الأمير القوي اللامع، منشئ الدولة الأموية بالأندلس، كان أول شخصية بارزة ظهرت في ميدان التفكير والأدب والشعر، ويمكن أن نعتبره بحق رائد النهضة الأدبية النظرية والشعرية، التي تفتحت فيما بعد، وازدهرت في عهد خلفائه، ولنا فيما أوردناه من نماذج قليلة، من نثره، ومن نظمه، ما يدل على براعته وتفوقه في هذا الميدان.

ومن بين أمراء بني أمية بالأندلس، كان الرواد الأوائل في الحديث والفقه، فقد كان الداخل، فوق براعته الأدبية عالماً بالشرعية، وكان ولده هشام بن عبد الرحمن المتوفى سنة ١٨٠ هـ (٧٩٦ م) مبرزاً في الحديث والفقه. وفي عصر هذا الأمير ظهرت طلائع النهضة الأولى في ميدان التفكير والأدب، وكان يغلب على هذه النهضة في البداية، الطابع الديني قبل كل شيء، وكان قد رحل في عصر الداخل جماعة من فقهاء الأندلس إلى المشرق، ودرسوا بالمدينة على الإمام مالك وغيره من أقطاب المشرق، واستقوا من علم مالك واجتهاده، ونقلوا عنه كتابه (الموطأ)، وكان في مقدمة هؤلاء فقهاء مبرزون، مثل زياد بن عبد الرحمن،

وعيسى بن دينار ، ويحيى بن يحيى الليثي ، وكان زياد بن عبد الرحمن عميد فقهاء الأندلس في وقته ، وكان الأمير هشام بن عبد الرحمن يوقره ويحله لعلمه وورعه وزهده ، وتوفي في سنة ٢٠٤ هـ (١) . وكذا كان عيسى بن دينار ، وأصله من طليطلة ، وسكن قرطبة ، عالماً راسخاً ، وكان أستاذ الفتيا في وقته لا يتقدمه فيها أحد ، وكان ممن اتجهت إليهم الريبة في ثورة الربض فهرب واستخفى حيناً ، ثم عفا عنه الأمير الحكم وأمنه ، فعاد إلى قرطبة وتوفي سنة ٢١٢ هـ (٢) . وأما يحيى بن يحيى الليثي فقد رحل كزيميله إلى المشرق ، وسمع من مالك ، والليث ابن سعد ، وعبد الله بن وهب وغيرهم ، وعاد إلى الأندلس ليشغل بين فقهاء مركز الصدارة ، وكان ذهنًا حراً يعتز بحريته واستقلاله ، فلم يل قضاءً ، ورفض كل دعوة إلى توليه ، وتوفي في سنة ٢٣٤ هـ (٣) . وعلى يد أولئك الفقهاء والرواد ، ذاع مذهب مالك بالأندلس منذ عصر هشام . وكان هشام نفسه كثير الإجلال لمالك ومذهبه ، فزاد ذلك في ذبوع المذهب ، وفي تمكين مكانته بالأندلس . وكان هذا بداية لنفوذ الفقهاء في شئون الدولة ، وهو نفوذ اشتد فيما بعد ، وكان له أثر عميق في تحريك القوى المعارضة ، التي انتهت باضطرام ثورة الربض ضد الحكم بن هشام ، في سنة ٢٠٢ هـ (٨١٨ م) ، وذلك حسباً أوضحنا في موضعه . وفي عصر الحكم بالذات ، تتخذ الحركة الفكرية طابعاً أوسع أفقاً ، وتظهر طوال النزعة الأدبية إلى بجانب العلوم الدينية ، ويظهر الأدباء والشعراء إلى جانب الفقهاء والمحدثين . وكان في مقدمة من ظهوروا في تلك الفترة عبد الملك ابن حبيب بن سليمان السلمى ، وأصله من البيرة وسكن قرطبة ، ثم رحل إلى المشرق وسمع الكثير من علمائه . ولما عاد إلى الأندلس عمل مشاوراً مع يحيى ابن يحيى ، وسعيد بن حسان ، وكان حافظاً للفقه على مذهب المدنيين ، بيد أنه كان إلى جانب الفقه ، بارعاً في النحو والعروض والشعر ، حافظاً للأخبار والأنساب والأشعار ، متصرفاً في عدة فنون . وكتب عدة مؤلفات في الفقه والتاريخ منها « الواضحة » و « الجوامع » وكتاب في « فضائل الصحابة » ، وكتاب في « غريب الحديث » ، وكتاب « حروب الإسلام » ، وكتاب « طبقات

(١) راجع علماء الأندلس لابن الفرضي (مصر) رقم ٤٥٨ .

(٢) راجع علماء الأندلس رقم ٩٧٥ .

(٣) جدوة المقتبس للحميدى (مصر) رقم ٩٠٨ .

الفقهاء والتابعين « و « مصابيح الهدى » وغيرها ، وكان محمد بن عمر بن لبابة يقول فيه : عبد الملك بن حبيب عالم الأندلس ، ويحيى بن يحيى عاقلها ، وعيسى ابن دينار فقيها . وتوفي عبد الملك بن حبيب في سنة ٢٣٨ هـ (١) .

وفي عصر الحكم بن هشام تتخذ الحركة الفكرية ، التي غلب عليها الطابع الديني ، حتى ذلك الوقت ، طابعاً أدبياً واضحاً ، ويبدأ ظهور الكتاب والشعراء المبرزين ، وكان الحكم نفسه في مقدمة شعراء عصره وأدبائه ، وكان له نظم بارع أوردنا فيما تقدم طرفاً منه . ومن شعراء هذا العصر ، عباس بن ناصح الخزيري المصمودي ، وهو من أهل الجزيرة ، وقد رحل إلى مصر والحجاز والعراق ، وتلقى على علمائها ، ودرس الفقه ، ولقي الأصمعي وغيره ببغداد ، ثم عاد إلى الأندلس ، ومدح الأمير الحكم فندبه لقضاء الجزيرة ، وكان بارعاً في اللغة وشاعراً جزلاً ، يسلك في شعره مسلك العرب القديمة ، وكان له أيضاً حظ من الفقه (٢) . وكان ولده عبد الوهاب بن عباس بن ناصح أيضاً ، فقيهاً وشاعراً محسناً (٣) ، وكان من الكتاب والشعراء أيضاً حاجب الحكم وقائده عبد الكريم ابن عبد الواحد بن مغيث ، ومؤمن بن سعيد . وكان مؤمن شاعراً مبرزاً كثير الشعر . وكان حاد النكتة والنادرة ، ومن شعره قوله :

حرمته ما عدا نظراً مضراً بقلب بين أضلاعي مقسيم
فعيني منك في جنات عدن مخلدة وقلبي في الجحيم (٤)

وبلغ الشعر في عصر الحكم ذروته ، على يد شاعرين كبيرين ، هما العلامة عباس بن فرناس ويحيى الغزال الحيتاني . وكان أولهما عالماً بالفلسفة والفلك والكيمياء الصناعية والموسيقى . وقد أشرنا فيما تقدم إلى مختصراته العلمية ، وإلى محاولته اختراع طريقة لطيران الإنسان . وكان ثانيهما كذلك عالماً بالفلسفة والفلك ، وقد عاش كلاهما طويلاً بعد عصر الحكم ، وفيما أوردناه فيما تقدم من شعرهما دليل على براعتهما في هذا الميدان .

(١) راجع ابن الفرضي ، علماء الأندلس ، رقم ٨١٦ .

(٢) راجع ابن الفرضي رقم ٨٨١ .

(٣) ابن الفرضي رقم ٨٨١ .

(٤) راجع جدوة المقتبس للحميسدي رقم ٨٢٦ ، وقضاة قرطبة للخشني (مصر)

وفي عصر عبد الرحمن بن الحكم ، بلغت الحركة الفكرية الأندلسية الأولى ذروتها ، ففي ميدان الكتابة احتشد في بلاط الحكم عدة من أكابر الكتاب المبرزين ، وفي مقدمتهم الخاجب عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث ، ومحمد ابن سليمان الزجاجي ، وفي ميدان العلوم الدينية ظهر في عهد عبد الرحمن ، جمهرة من أكابر الفقهاء ، مثل محمد بن يوسف بن مطروح ، ومحمد بن حارث ، وعبد الأعلى بن وهب ، وبقى بن مخلد ، ومحمد بن وضاح ، وغيرهم ، وكان عميد هذه الجمهرة من الفقهاء بقى بن مخلد ، وهو من أهل قرطبة ، ودرس على علماء الأندلس وإفريقية ، وبرع في الحديث والرواية ، وبمكنتنا أن نعتبره رائد علم الحديث في الأندلس . وقد أنكر عليه بعض خصومه ما أدخله من كتب الاختلاف وغريب الحديث بالأندلس ، ووشوا به للأمير محمد بن عبد الرحمن . وقد أشرنا فيما تقدم إلى ما كان من مناظرتة لخصومه ، وإلزامهم بالحجة ، وإلى ما حباه به الأمير من عطفه وحمايته ، وقد كان ذلك من أسباب انتشار الحديث بالأندلس . ولبقى بن مخلد عدة مؤلفات فقهية . وله تفسير للقرآن ومسند للنبي ، وينوه العلامة ابن حزم في رسالته بعلم بقى وأهمية كتبه ، ويقول لنا إن تفسيره للقرآن لم يؤلف في الإسلام مثله^(١) . وسمع على بقى جمهرة من فقهاء الأندلس ، وكان ورعاً زاهداً ، وتوفي سنة ٢٧٦ هـ^(٢) .

وكان من أعلام الفقهاء في هذا العصر ، محمد بن عبد السلام الحشني وهو من أهل قرطبة ، ورحل إلى المشرق وسمع ، في البصرة وبغداد ومصر ، وكان فصيحاً بجزل البيان ، بارعاً في اللغة ، ورواية الحديث ، وكان أنوفاً منقبضاً عن السلطان ، وقد رفض أن يتولى القضاء الأمير محمد بن عبد الرحمن ، وتوفي في سنة ٢٨٦ هـ^(٣) .

وقد سبق أن أشرنا إلى ما كان يتمتع به الأمير عبد الرحمن بن الحكم من المواهب الأدبية والشعرية ، وأوردنا فيما تقدم طرفاً من شعره . وكان من ألمع شعراء عصره ، صديقه وشاعره عبد الله بن الشمر بن نمر ، وهو من أهل وشقة ، وكان

(١) راجع رسالة ابن حزم من علماء الأندلس في نفح الطيب ج ٢ ص ١٣١ .

(٢) راجع ابن الفرضي رقم ٢٨٣ .

(٣) ترجمته في ابن الفرضي رقم ١١٣٤ . وهو غير محمد بن حارث الحشني صاحب « قضاة

قرطبة » المتوفى سنة ٣٦١ هـ

عالماً متمكناً وشاعراً محسناً . وله شعر جيد كثير وقد أخذ الناس من شعره (١) . وكان من أبرز الظواهر الأدبية في هذا العصر ، انتشار اللغة العربية وآدابها بين طائفة المستعربين أو النصاري المعاهدين ، ونبوغ الكثير منهم فيها ، وبلوغهم مرتبة البراعة في كتابتها ، ويمكننا أن نذكر من كتابهم المبرزين في هذا العصر ، الأسقف جومث بن أنتيان ، قومس أهل الذمة ، وكان أديباً بارعاً ، وكاتباً مقتدرأ ، ومن كتاب الأمير عبد الرحمن .

وكانت الفتنة الكبرى في عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن (٢٢٨ - ٢٧٣ هـ) وولده الأمير عبد الله (٢٧٥ - ٣٠٠ هـ) عاملاً هاماً في اضطرام النهضة الأدبية ، والشعرية بنوع خاص . وكان من أبرز شعراء عهد الفتنة الأول عباس ابن فرناس ، وقد أوردنا قصيدته في موقعة طليطلة ، التي سحق فيها الثوار . وفي أواسط عهد الفتنة ظهر شاعر من أعظم شعراء الأندلس ، وأديب من أعظم أدبائها ، هو الفقيه أبو عمر أحمد بن عبد ربه (٢٤٦ - ٣٢٨ هـ) صاحب كتاب « العقد الفريد » الذي يعتبر من أعظم آثار الأدب الأندلسي . ويمكننا أن نعتبر ابن عبد ربه شاعر الدولة المروانية ، منذ عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن حتى عهد عبد الرحمن الناصر ، وقد ظهر بشعره في موقعة إستجة التي سحق فيها الناصر عمر بن حفصون ، وذلك في سنة ٢٧٨ هـ (٨٩١ م) ، وظهر بمدايحها للأمير عبد الله ، ثم حفيده عبد الرحمن الناصر ، وقد كان معلمه في صباه ، وبأرجوزته في غزوات الناصر ومآثره . وقد أوردنا من نظمه فيما تقدم عدة من قصائده . وأما كتابه « العقد الفريد » فإنه يعتبر بمحتوياته وتنوعه ، من أمتع الكتب في الأدب العربي ، وبالرغم من أن موضوعاته ، يغلب عليها طابع الأدب المشرقي ، فإنه يعتبر عنواناً بارزاً للأدب الأندلسي في مرحلته الأولى . وقد انتقد بعضهم العقد الفريد لأنه « لم يجعل فضائل بلده ، واسطة عقده ، ومناقب ملوكه يتيمة ملكه » (٢) ويعتبر العقد الفريد بطابعه المشرقي ، على النقيض من كتاب « الذخيرة » لابن إسحاق الشنتريني ، المتوفى سنة ٥٤٢ هـ ، والذي يعتبر بمحتوياته وروحه ، مثلاً ساطعاً للأدب الأندلسي .

(١) ابن الفرضي رقم ٦٩١ .

(٢) راجع نفح الطيب ج ٣ ص ١٢٦ .

ومن شعراء عهد الفتنة وأدبائها البارزين سوار بن حمدون القيسي ، وسعيد ابن سليمان بن جودي ، وهما من زعماء الفتنة العرب ، وكان كلاهما إلى جانب فروسيته من أعلام البيان والنظم في وقته ، وقد نقل إلينا ابن الأبار نماذج من نظمهما (١) .

وكان من أعلام الأدب في تلك الفترة أيضاً محمد بن أضحى الهمداني ، وهو من زعماء العرب بكورة البيرة . وكان بارعاً في الأدب ، خطيباً مفوهاً ، يخطب بين يدي الأمراء في المحافل ، وكان خلال الفتنة قد انضوى تحت لواء الأمير عبد الله ، ثم انضوى بعد ذلك تحت طاعة الناصر فيمن خضع من ثوار النواحي (٢) .

وكان الأمير عبد الله نفسه من ألمع شعراء عصره . وكان بارعاً في العربية ، حافظاً للغريب من الأخبار ، وقد نوه المؤرخ ابن حيان بشاعريته ، ورفيع أدبه ، وأوردنا نحن فيما تقدم نماذج رقيقة من شعره .

— ٢ —

وكان عصر عبد الرحمن الناصر ، من ألمع عصور الدولة الأموية بالأندلس ، وفيه زهت العلوم والآداب ، وظهرت جمهرة من أكابر الشعراء والعلماء . وكان من أعلام تلك الفترة ، إلى جانب عميدهم ابن عبد ربه ، صاحب العقد الفريد ، محمد بن عمر بن لبابة ، وهو من أهل قرطبة . وكان إماماً في الفقه ، متمكناً من حفظ الرأي ، والبصر بالفتيا ، وكان مشاوراً أيام الأمير عبد الله ، ثم انفرد بالفتيا أيام الناصر ، فلم يكن يشاركه أحد في الرياسة والقيام بالشورى ، وكان حافظاً لأخبار الأندلس ، وله حظ من النحو والشعر . وقد ولى الصلاة بالمسجد الجامع ، وتوفي في سنة ٣١٤ هـ . ومن مؤلفاته كتاب المنتخب في روايات مذهب مالك (٣) .

وقد حدثنا ابن حيان في المقتبس عن شعراء عصر الناصر الذين التفوا حول بلاطه ، وأشادوا بمدحهم ، فقال : إن « في مقدمتهم معلمه في الصبا أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه ، يليه من نمطه عبيد الله بن يحيى بن إدريس ، وعبد الملك بن سعيد المرادي ، وإسماعيل بن بدر ، وأغلب بن شعيب ، وحسان بن

(١) راجع الحلة السيرة (طبعة دوزي) ص ٨٠ - ٨٧ .

(٢) الحلة السيرة ص ٩٨ .

(٣) ابن الفرضي رقم ١١٨٩ .

حسان [السناط] وغيره ، ومن كبار الطارئين عليه من المشرق ، طاهر بن محمد المهند البغدادي ، ومحمد بن حسين الطنبى الإفريقى ، وغيرهما ، أسافوا فى الناصر لدين الله إحساناً كثيراً .

فمن قول أبى عثمان عبيد الله يحيى بن إدريس فى الناصر لدين الله ، وقد غزا الروم فى شهر رمضان ، وأدركه الفطر فى بلاد العدو ، فلم يتورع ، وصمد إلى لقاءهم ، وقد اجتمعوا :

| | |
|----------------------------|---------------------------|
| يبنى الخلافة سعى خير إمام | لله مسعاه والإسلام |
| ملك تمكن فى المكارم والعلى | كتمكن الأرواح فى الأجسام |
| عزم الرحيل مصمماً فى عيده | لشفاء غلة سيفه الصمصام |
| يصل الترحل بالترحل دائباً | فى الحل يحكمه وفى الإبرام |
| ليعز دين الله فى كنف العلى | ويذب عن حرم الهدى ويحام |
| مستنجزاً وعد الإله بنصره | فى شيعه الإشراك والإحرام |

وقوله حينما نزل الناصر بجيوشه طليطلة ، وارتياح الخلافة لمقدمه ، من قصيدة :

على أى فتح تقداً أتت لك فتوح الثغر فذاً وتوئما
تباشير ترى من فتوح تواترت كما تابع النثر الجمان المنظما
ومن نظم أبى الحسن جعفر بن عثمان المعروف بالمصحفى كاتب ولى العهد الحكيم بن الناصر لدين الله ، السامى المحل فى الاشتمال على متن البلاغة ، من النثر والنظم بالتبريز ، ما نظمته وقت انتقال الناصر لدين الله عن سرقسطة :

| | |
|--------------------------------|--------------------------------|
| على أيمن الأوقات كان ارتحالكا | وفى أيمن الساعات كان احتلالكا |
| تنقلت عن دار الشقاق مظفراً | وقد صال بالخذول فيها صيالكا |
| وحاربت ذا السيف العريض بميتة | أرت مستعجيش الشرك كيف اغتيالكا |
| وأقفلت عنهم والمنايا صوايب | تسيل بها فى ساحتهم سجالكا |
| إذا ما القرى رام اغتلاق جفونهم | فخطفه بالخوف عنها خيالكا |
| وإن ذهبوا لاسير فى الأرض مذهبا | ترأى لهم فى كل أفق مثالكا |
| هل الأجل المرهوب إلا صيالكا | أم الأمل المرغوب إلا نوالكا |
| بقيت أمير المؤمنين مملوكاً | فما الروضة الزهراء إلا جلالكا |

وقال إسماعيل بن بدير في مديح الناصر وذكر غزوته للجزيرة الخضراء :
 تطوى المراحل إدلاجاً وتنحيراً مشمراً في رضى الرحمن شميراً
 بدير الملوك الذى إشراق سنته تجلو عن الدين والدنيا الدياجير
 من قد قضى الله فى ماضى شبيبته لا يزال على الأعداء منصوراً
 قال ابن حيان : « والشعر فى الناصر لدين الله رحمة الله عليه ، كثير جداً ،
 محمول عن فحول يقدمهم ابن عبدربه ، وابن إدريس ، ومهند والطبى ونمطهم...
 فى تجويد صناعتهم بفضل ما ألفوا لديه من التوسعة عليهم ، والإحسان إليهم ،
 فكل منهم كمل فيما صاغه فيه ديواناً بديعاً ، غنى رسومها ، وغنى معانيها من
 اللبالي وانصرام الدولة ، وتسلب الفتن البربرية ، والمطاولة على التواريخ الملوكية ،
 التى كانت له قاصمة وجامعة ، حتى مزقت كل ممزق بأيدي الجهال ، فهل من
 باقية » (١) .

وكان بين وزراء الناصر وحجابه ، عدة من أكابر الكتاب والأدباء ، مثل
 الحاجب موسى بن محمد بن حدير ، وقد كان من أهل الأدب والشعر ، فضلاً
 عن كونه من بيت رياسة وجمالة (٢) وعبد الملك بن جهور ، وقد كان وزيراً
 جليلاً ، وأديباً وشاعراً محسناً ، ومن شعره :

إن كانت الأبدان نائمة فنفس أهل الظرف تأتلف
 يارب مفترقين قد جمعت قلوبهما الأقلام والصحف (٣)
 وكان من أعلام تلك الفترة أيضاً القاضى منذر بن سعيد البلوطى (٢٦٥ هـ -
 ٣٥٥ هـ) ، وكان بارعاً فى علوم القرآن والسنة ، وظهر فوق ذلك بفصاحته
 وجرالة شعره . وقد أشرنا فيما تقدم إلى موقفه الخطابى الرائع ، فى حفل استقبال
 سفارة قيصر الروم ، وما حباه به الناصر من أجل ذلك ، من عطف ،
 وتقدير ، وتولييه للخطابة والقضاء . ومن مؤلفاته « كتاب الإبانة عن حقائق
 أصول الديانة » .

وفى عصر الناصر ظهرت حركة دينية ، على رأسها أبى عبد الله محمد بن
 عبد الله بن مسرة الجبلى من أهل قرطبة . وكان مولده بها فى سنة ٢٦٩ هـ . وقد

(١) ابن حيان فى المقتبس - السفر الخامس - مخطوط الخزانة الملكية - لوحات ٢٧ و ٣١ هـ

(٢) جلدوة المقتبس رقم ٧٨٧ هـ

(٣) جلدوة المقتبس رقم ٦٢٦ هـ

برع ابن مسرة في العلوم الدينية ، ولكنه جاهر ببعض الآراء المغرقة ، في التأويل والقدر وغيرها ، فاتهم بالزندقة وغادر الأندلس . فارأى إلى المشرق وذلك في سنة ٢٩٨ هـ ، ودرس هنالك على أيدى المعتزلة ، والكلاميين وأهل الجدل . ثم عاد إلى الأندلس وهو يخفى نحلته وآراءه الحقيقية ، تحت ستار من النسك والزهد . وكان يتخذ لنفسه غاراً يتعبد فيه على مقربة من جبل قرطبة ، حتى سمى بالجبلي . واختلف إليه الطلاب من كل صوب . وكان يستهويهم بتخزين علمه وجزالة بليانه ، حتى ذاعت شهرته ، وتبعه الكثيرون من الصحب والتلاميذ . وقد اختلف في أمر ابن مسرة ، فبعضهم يسمو به إلى مرتبة الإمامة في العلم والزهد والورع ، ومنهم من كان يرميه بالزندقة وترويج البدع . وتوفي ابن مسرة بقرطبة سنة ٣١٩ هـ (٩٣١ م)^(١) . على أن تعاليم ابن مسرة لبثت بعد ذلك حية ذائعة ، طوال عهد الناصر ، وقام جمهرة من أهل السنة ، بمعارضة تعاليمه وإنكارها ، ووصل صوته في ذلك إلى الخلافة ، واضطر الناصر إلى أن يصدر باسمه بياناً في سنة ٣٤٠ هـ ، يستنكر فيه تعاليم ابن مسرة وتلاميذه ، ويرميهم بالمروق ، والخروج عن تعاليم السنة الحقيقية ، وقد أورد لنا ابن حيان هذا البيان الفريد في المقتبس^(٢) ، وقد تحدثنا فيما تقدم عن ابن مسرة وحركته ، ولخصنا كتاب الناصر في شأنها .

وفي عصر الناصر بالذات ظهر شاعر من أعظم شعراء الأندلس ، هو أبو القاسم محمد بن هانيء الأزدي الإشبيلي ، وقد ولد بإشبيلية في سنة ٣٢٦ هـ ، وظهر منذ حداثة بهراة شعره وروعة افتنانه ، ولكنه اتهم بالكفر والزندقة . فغادر الأندلس ، ولحق بالبلاط الفاطمي بالمهدية ، والخليفة المعز لدين الله يتأهب عندئذ لفتح مصر ، فأغدى عليه المعز عظمه ورعايته . ولما سار المعز إلى مصر ، سار ابن هانيء للحاق به ، ولكنه توفي في طريقه في سنة ٣٦٢ هـ . وقد شبه ابن هانيء بالمتنبي في رصانة شعره ، وروعة افتنائه ، ومن أشهر قصائده قصيدته التي يصف فيها جيش المعز الذاهب إلى فتح مصر ، بتميادة جواهر الصقلي ، والتي يقول فيها :

(١) ابن الفرضي رقم ٦٤٢ .

(٢) وذلك في النسخة الخطية من السفر الخامس من المقتبس المحفوظة بخزانة القصر الملكي ، بالرباط بالمغرب وقد نقلناه منه ، ونشرناه في آخر الكتاب .

رأيت بعيني فوق ما كنت أسمع
غداة كان الأفق سد بمثله
فلم أدر إذ ودعت كيف أودع
ألا إن هذا حشد من لم يذق له
إذا حل في أرض بناها مدائننا
تحل بيوت المسال حيث محله
رحلت إلى القسطنطين أول رحلة
فإن يك في مصر ظمأ لمورد
ويعلمهم من لا بغار بنعمة
وكان من أعلام الشعر في عصر الناصر أيضاً الوزير جعفر بن عثمان المصحفي،
الذي تولى الحجابة فيما بعد لولده الحكم المستنصر، وتوفي في سنة ٣٧٢هـ في سجن
الزهراء، ضحية لمنافسه القوى محمد بن أبي عامر المنصور. وقد أوردنا من شعره
فيما تقدم في غير موطن.

وظهر في عصر الناصر عدد من أكابر الكتاب البلغاء، في مقدمتهم كاتب
الناصر الأثير عبد الله بن محمد الزجالي، وهو الذي أنشأ عن لسانه البيان الخاص
بمروق ابن مسرة الذي سبقت الإشارة إليه.

وكان الناصر نفسه عالماً أديباً، بهوى الشعر وينظمه، ويقرب الأدباء
والشعراء. وكان في مقدمة شعراء دولته وآثرهم لديه الفقيه ابن عبد ربه صاحب
العقد الفريد، وذلك حسبما أشرنا في موضعه.

وظهر في عهد الناصر عدة من أعلام المؤرخين الذين وضعوا أسس الرواية
الأندلسية. أولهم أحمد بن محمد بن موسى الرازي، وقد ولد الرازي سنة ٢٧٤هـ
وتوفي سنة ٣٤٤هـ. ومن تصانيفه «أخبار ملوك الأندلس وخدمتهم وغزواتهم
ونكباتهم»، وكتاب «الإستيعاب في أنساب أهل الأندلس»، وكتاب في «صفة
قرطبة وخططها ومنازل الأعيان بها». وقد كانت رواية الرازي مستقى خصباً
لمؤرخي الأندلس، وفي مقدمتهم عميدهم ابن حيان.

وظهر قرينه ومعاصره ابن القوطية، وهو أبو بكر محمد بن عمر بن عبد
العزیز بن عيسى بن مزاحم، ويعرف بابن القوطية لانتسابه بطريق النسب إلى

سارة القوطية ابنة وتزنا ملك القوط . وقد ولد بقرطبة وتوفي بها سنة ٣٦٧ هـ (٩٧٧ م) ، وكان راوية متمكناً حافظاً لأخبار الأندلس . وسير أمراثا وأخبار علمائها وفقهاها وشعراها . وقد كتب تاريخه المسمى « تاريخ افتتاح الأندلس » . وكان فوق ذلك من أئمة عصره في اللغة والنحو ، وله في ذلك مؤلفات قيمة ، وكانت كتب اللغة أكثر ما تقرأ عليه ، وتؤخذ عنه .

ومن أعلام المؤرخين في ذلك العصر أيضاً أحمد بن موسى العروى المتوفى سنة ٣٨٨ هـ ، وقد ألف كتاباً عنوانه « تاريخ الأندلس » .

واستمرت النهضة الفكرية ، التي ازدهرت في عصر الناصر ، وفي عهد ولده الحكم المستنصر (٣٥٠ — ٣٦٦ هـ) وازدادت قوة وازدهاراً . وكان الحكم ، وهو الخليفة الأديب العالم ، رائد هذه الحركة الفكرية العظيمة . وكان من ظواهرها قيام جامعة قرطبة العظيمة ، واحتشاد أكابر الأستاتذة بين عقودها ، وإنشاء المكتبة الأموية الكبرى ، التي بذل الحكم في إنشائها من الجهود العظيمة والأموال الزاخرة ما لم يسمع بمثله ، حتى بلغت محتويات هذه المكتبة الفريدة زهاء أربعائة ألف مجلد ، من مختلف أصناف العلوم والفنون . وكثرت المكتبات العامة والخاصة ، وبلغ شغف اقتناء الكتب أشده في ذلك العصر ، واحتشد حول بلاط الحكم ، جمهرة من أكار العلماء ، في مقدمتهم الحافظ أبو بكر بن معاوية القرشي ، وأبو علي القالي ضيف الأندلس يومئذ ، والأديب المؤرخ محمد بن يوسف الحجاري ، وإمام النحو والرواية ابن القوطية ، وربيع بن زيد الفيلسوف والعلامة الفلكي النصراني ، وغيرهم . وظهر في تلك الفترة جمهرة من الشعراء المبرزين ، وكان في مقدمتهم طاهر ابن محمد البغدادي ، الوافد من المشرق إلى الأندلس ، وكان يعرف بالمهند . وكان شاعراً محسناً ، مدح الحكم المستنصر ، ثم مدح المنصور بن أبي عامر بعد ذلك ، وحظي لديه ، وقد اتهم بالغلو في بعض الآراء الدينية . ومن شعره قوله :

| | |
|------------------------------|---|
| متى أشكر النعمى التي هي جنتي | ففي ظلها أمسى وفي ضوئها أضحى |
| إذا قلت قد جازيت بالشكر نعمة | شفعت بأخري منك دائمة السفح |
| فحمدى لا ينأى وفضلك لا ينئى | وأرضى لاتصلى وأفلك لا يضحى ^(١) |

ومنهم محمد بن مطرف بن شخيص ، وكان من أهل الأدب البارع ، ومن

(١) راجع جلدوة المقتبس للحميدى (مصر) رقم ٥١٥ ، وبغية الملتبس رقم ٨٥٩ .

أعيان الشعراء المجيدين ، كان متصرفاً في القول ، متقناً لأساليب الجدل والهلل ، وكان من أخص شعراء بلاط الحكم ، وله شعر كثير ، ومن شعره في تهنئة الحكم بوفود جعفر ويحيى ابني حمدون ، وتقديم طاعتهم إليه ، قصيدة طويلة ، هذا مطلعها :

بأيمن إقبال وأسعد طائر تباشير محتوم من الأمر واقع
توافت بملك من معد مقوض لملك إلى مهدي مروان راجع
فيا لك من بشرى سرور تضمنت بلوغ الأمانى عن سعود الطوالع
ومن قوله في الغزل :

فهل من شفيح عند ليلي إلى الكرى لعل إذا ما نمت ألقى خيالها
يقولون لي صبراً على مطل وعدّها وما عدت ليلي فأشكو مطالها
وما كان ذنبى غير حفظ عهدّها وطى هواها واحتمالى دلالها (١)
ومنهم محمد بن الحسين التميمي الطنبى ، أصله من طنبه ، بلد بأرض الزاب بالمغرب ، وكان شاعراً محسناً ، وأديباً بارعاً من بيت أدب وجلالة ورياسة ، وكان من شعراء الحكم الأثريين . ومن شعره يهنيء الحكم بحلول عيد الأضحى :

بخلت بجوهر لفظها أن يلقطها لما رأته من الجواهر أبسطا
يا أيها الملك المتوج بالهدى نوراً على غسق الظلام مسلطا
صل عيدك البهيج السنا في غبطة وازدد من الأعياد ألفاً مغبسطا (٢)
ومنهم يحيى بن هذيل ، وكان من أهل العلم والأدب والشعر الجيد ، وتوفى سنة ٣٨٦ هـ ، ومن شعره :

لم يرحلوا إلا وفوق رحالهم غم حكى غبش الظلام المقبل
وعلت مطارفهم بمجاجات الندى فكأنما مطرت بدر مرسل
لما تحركت الحمول تناثرت من فوقهم في الأرض تحت الأرجل
فبكيت لو عرفوا دموعى بينها لكنّها اختلطت بشكل مشكل (٣)
ومنهم ، ومن أشهرهم يوسف بن هارون الرمادى القرطبي المعروف بأبي جنيش ، كان من أشهر شعراء الأندلس في وقته ، واشتهر بالأنخص بشعره

(١) جذوة المقتبس رقم ١٤٤ . وبغية الملتبس رقم ٢٧٦ ، والمقتبس ، قطعة أكاديمية التاريخ ص ٥٤ و ٦٠ .

(٢) جذوة المقتبس رقم ٣٨ ، والمقتبس — قطعة أكاديمية التاريخ ص ٩٤ .

(٣) جذوة المقتبس رقم ٩٠٧ ، وبغية الملتبس رقم ١٤٩٤ .

الهجائي ، وكان سريع البديهة مشهوراً عند العامة والخاصة ، لسلوكه في فنون مختلفة من المنظوم . ومدح الرمادى الحكم المستنصر ، ولكنه وقع تحت طائلة غضبه لما صدر منه من شعر قاذف في حقه ، وأمر باعتقاله مع باقى الشعراء الهجائين ، حماية للناس من ألسنتهم ، وزج الرمادى إلى السجن مدة ، وكتب خلال اعتقاله . كتاباً سماه « كتاب الطير » وصف فيه كل طائر معروف . ثم عفا عنه الحكم وأطلقه مع باقى إخوانه . وتوفى الرمادى فقيراً معدماً أيام الفتنة في سنة ٤٠٣ هـ . ومن شعره قوله :

لا تنكروا غرر الدموع فكل ما ينحل من جسمي يصير دموعاً
والعبد قد يعصى وأحلف، أننى ما كنت إلا سامعاً ومطيعاً
قولوا لمن أخذ الفؤاد مسلماً بمنن على برده مصلوفاً^(١)
ونبغ في تلك الفترة عالم من أعظم علماء اللغة بالأندلس ، هو أبو بكر محمد ابن الحسن الزبيدى النحوى الإشبيلي . وقد وضع في اللغة والنحو عدة كتب مشهورة منها « الواضح » و « لحن العامة » « وأخبار النحويين » ، كما وضع مختصراً لكتاب « العين » ، إلى غير ذلك . وكان في نفس الوقت أديباً بارعاً ، وشاعراً محسناً ، وقد أورد لنا الحميدى شيئاً من نظمه ، وندبه الخليفة الحكم ، حسماً أسلفنا في موضعه لتدريس اللغة لولده هشام ، وألزمه بالبقاء في قرطبة ، ولم يأذن له بالرجوع إلى وطنه إشبيلية . وتوفى الزبيدى قرابة سنة ٣٨٠ هـ .^(٢)
وكان الخليفة الحكم المستنصر نفسه ، فوق تمكنه من العلوم الشرعية وتحقيق الأنساب ، أديباً ينظم الشعر الرائق . وقد أوردنا من قبل في موضعه شيئاً من نظمه . ثم كان الانقلاب العظيم ، في مصاير الخلافة الأموية ، وتغلب محمد بن أبى عامر أو الحاجب المنصور على الدولة ، وكان من حسن الطالع أن المنصور بنشأته وخلال له العلمية اللامعة ، كان من أعظم رواد الحركة الفكرية ، وكان المنصور عالماً متمكناً من الشريعة والأدب ، بارعاً في النثر والنظم . وقد ذكرنا فيما تقدم شيئاً من نثره ونظمه . وكان يعشق مجالس العلماء والأدباء ، حتى أنه كان خلال الغزو ، يصطحب معه طائفة من الكتاب والشعراء ، ينتظمون في مجلسه خلال

(١) العلة لابن بشكوال رقم ١٤٩١ ، وجدوة المقتبس رقم ٨٧٨ -

(٢) جدوة المقتبس رقم ٣٤ .

السير ، وكان شاعره الأثير أبو العلاء صاعد بن حسن البغدادي المتوفى سنة ٤١٧ هـ ، وكان قد وفد من المشرق على الأندلس ، في أوائل عهد المنصور ، وكان عالماً باللغة والأدب والتواريخ ، فقربه المنصور ، وأغدق عليه عطفه ، وجمع له صاعد كتاباً سماه « بالفصوص في الآداب والأشعار والأخبار » فأثابه عنه المنصور بخمسة آلاف دينار ، وأمر أن يقرأه على الناس بمسجد الزاهرة (١) .

بيد أن المنصور ، بالرغم من شغفه بالعلم والأدب ، لم يبد تسامحاً إزاء الفلسفة والفلاسفة ، أو بعبارة أخرى إزاء الأفكار الحرة . وقد كانت هذه النزعة الضيقة الأفق ، تمثل نفس التيار الذي يندفع فيه كل حاكم مطلق . وقد رأينا فيما تقدم كيف طورد عباس بن فرناس ، في عهد عبد الرحمن بن الحكم ، واتهم بالزندقة لما أبداه من براعة علمية وفنية خارقة ، وكيف طورد تلاميذ ابن مسرة وطوردت تعاليمه في عهد الناصر ، وأصدر الناصر منشوره بتكفيره وتكفير تلاميذه ، وقد استمر هذا التيار الرجعي فيما بعد في عهد الطوائف ، حيث أحرقت كتب ابن حزم ، وفيما تلا بعد ذلك من عهود ، وذلك حسبما نذكره في موضعه .

وكان من أعظم شعراء الأندلس في عصر المنصور أبو عمر أحمد بن محمد ابن دراج القسطلی . وكان كاتباً بليغاً من كتاب ديوان الإنشاء ، وشاعراً لامعاً في نفس الوقت . وقد نبغ في ميدان الشعر نبوغاً جعله عمدة شعراء عصره . وكان من شعراء المنصور المقربين ، وله فيه مدائح رائعة ، نقلنا بعضها فيما تقدم ، ولما توفي المنصور في سنة ٣٩٢ هـ ، تجول ابن دراج في أنحاء الأندلس ، ومدح بعض أمراء الطوائف ، مثل خيران العامري صاحب ألمرية ، ومبارك ومظفر صاحب بلنسية ، والمنذر بن هود صاحب سرقسطة . وقد قال العلامة ابن حزم في حقه ، إنه لم يكن بالأندلس أشعر من ابن دراج ، وتوفي ابن دراج في سنة ٤٢٠ هـ (١٠٢٩ م) (٢) .

وكان من أكابر الفقهاء والحفاظ في عصر المنصور ، عبد الرحمن بن فطيس قاضي الجماعة بقرطبة ، وكان من أئمة المحدثين وكبار العلماء ، حافظاً متمكناً من الحديث ، عارفاً بأسماء الرجال ، وله مشاركة في مختلف العلوم ، وتقدم في

(١) كتاب الصلة لابن بشكوال (مضر) رقم ٥٤٠ .

(٢) راجع جلدوة المقتبس للحميدى رقم ١٨٦ ، وبغية الملتبس للضبى رقم ٣٤٢ .

معرفة الآثار والسير والأخبار ، وكان جماعة للكتب ، وقد جمع منها ما لم يجمعه أحد من أهل عصره بالأندلس . تقلد قضاء الجماعة بقرطبة سنة ٣٩٤ هـ ، مقرّوناً بولاية الصلاة والخطبة ، وذلك إلى جانب عمله في الوزارة ، وذلك أيام المظفر عبد الملك المنصور ، وكان مشهوراً في أحكامه بالنزاهة والصلابة في الحق ، ونصرة المظلوم ، وله مؤلفات كثيرة منها كتاب « أسباب نزول القرآن » و « كتاب في فضائل الصحابة » و « أعلام النبوة ودلالات الرسالة » و « مسند حديث محمد بن فطيس » وغيرها ، وتوفي ابن فطيس أثناء الفتنة البربرية في سنة ٤٠٢ هـ (١) .

* * *

ولما انقضى عهد الدولة العامرية ، وانهارت الخلافة الأموية ، واضطربت الفتنة بالأندلس ، انكمشت الحركة الفكرية ، وشغلت الأمة الأندلسية بما دهاها من أمر الفتن المتوالية ، وتعاقب الرياسات ، ومع ذلك ففي غضون الفتنة ، نجد من الخلفاء من يتذوق الشعر وينظمه . فقد كان الخليفة سليمان المستعين ، أديباً متمكناً ، وشاعراً مطبوعاً ، أشاد ابن بسام بأدبه وشاعريته . وقد أوردنا له فيما تقدم قصيدته الرائعة التي بعارض فيها شعر الخليفة الرشيد . وكذلك كان الخليفة المستظهر أديباً شاعراً من الطراز الأول ، وقد نوه ابن بسام بمواهبه الأدبية ، وأورد له طائفة من القصائد الجيدة .

وحتى في ظل الخلافة الحمودية البربرية ، كان للأدب والشعر دولة ومكانة ، وكان الخليفة العالي خليفة مألقة أديباً ينظم الشعر . وكان من شعراء دولته الشاعر الكبير ، عبد الرحمن بن مقانا الأشبوني ، وكان أديباً بارعاً ، وشاعراً متقناً ، وهو الذي مدح العالي بقصيدته الشهيرة التي مطلعها :

البرق لائح من أندرين ذرفت عيناك بالماء المعين

ونكتفي بتلك الصورة الموجزة ، عن سير الحركة الفكرية الأندلسية ، في عهد الإمارة ، وعهد الخلافة . وقد ذكرنا فيما تقدم أثناء استعراضنا لتاريخ هذين العهدين كثيراً من تفاصيلها ، وأشرنا إلى كثير من أعلام الفكر والأدب ، ممن لم نر أن نعود إلى ذكره في هذا الفصل .

(١) الصلة لابن بشكوال رقم ٦٨٢ .

الوثائق والملحقات

وثائق تاريخية

- ١ -

كتاب الخليفة الناصر لدين الله

بشأن حركة ابن مسرة

(منقول عن السفر الخامس من كتاب « المقتبس » لابن حيان ، وهو المخطوط المحفوظ بالخزانة الملكية بالرباط لוחات ١٣ و ١٤ و ١٥) .

« وأنفذ الخليفة الناصر لدين الله إلى آفاق مملكته بشأن هؤلاء المبتدعة (يعنى تلاميذ ابن مسرة) كتاباً طويلاً قرئ عليهم بأمصارهم ، من إنشاء الوزير الكاتب عبد الرحمن بن عبد الله الزجالي ، نسخته :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد ، فإن الله تعالى جده ، وعز ذكره ، جعل دين الإسلام أفضل الأديان ، فأظهره وأعلاه ، ولم يقبل من عباده غيره ، ولا رضى منهم سواه ، فقال فى محكم تنزيله : « ومن يتبع غير الإسلام ديناً ، فلن يقبل منه ... » الآية ، وقضى فى محتوم أمره ، ونفاذ حكمه ، أن تنسخ به الديانات ، ويختتم برسالته الرسالات ، فبعث محمداً خاتم النبيين ، وأكرم الأكرمين ، وأعز الخلائق على رب العالمين ، بأن كتب الصلاة والسلام عليه فى عرشه قبل أن يخلقه ، واصطفاه لأمانته قبل أن يكونه ، وأرسله بأفضل دهن سماه حنيفاً إلى خير أمة اختارها ... كما قال عز من قائل ، إذ عرفنا فضل ما هدانا إليه من الدين ، وكرمنا به على سائر الأمم : « كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر ... الآية » . فله جل جلاله ، وتقدست أسماؤه ، الشكر على خصائص هذه الفضيلة ، والحمد بالمنة الجليلة ، فقد استنقذ من الغواية وهدى ، فأحسن الهداية ، وأبان الحجة ، وكفانا بواضح المناهج مؤنة الفكرة ، ونظم زمام الأمة ، وجمع وجوه السعادة العاجلة ، والنجاة الآجلة فى تأليف الجماعة ، واجتبا فيهم رعاية الفرقة ، حيث يقول عز وجهه ، لنبيه صلى الله عليه وسلم .. به وعباده المخصوص بهداه ، ورأفة بسطها على خير .. وإعلاما لهم ... بتواصل الدين من قبله لأنبيائه ... وكراسته لاختلافهم بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً ، والذي أوحينا

إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى ، أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ... الآية . فخوف وحذر ، ونهى عن افتراق الكلمة ، ونبه على البعد ، ونفى الله الخبيث عنها ، وفضلها على سائر البلدان ، واستقر فيها الدين ، كهيئته يوم أكمله الله لعباده . ولما استوسقت الطاعة ، وشملت النعمة ، وعم الأقطار ، بعدل أمير المؤمنين ، السكون والدعة ، طلعت فرقة لا تبتغي خيراً ، ولا تأتمر رشداً ، من طغام السواد ، ومن ضعف آراهم ، ومن خشونة الأوغاد ، كتباً لم يعرفوها ، ضلت فيها حلومهم ، وقصرت عنها عقولهم ، وظنوا أنهم فهموا ما جهلوا ، وتفقهوا فيما لم يدركوا ، واستولى عليهم الخذلان ، وأحال عليهم بخيله ورجله الشيطان ، فزينوا لمن لا تحصيل لهم ، ولقوم آمنين لا علم عندهم ، فقالوا بخلق القرآن ، واستئثسوا ، وآيسوا من روح الله ، ولا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ، وأكثروا الجدل في آيات الله ، وحرموا التأويل في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فريت منهم الذمة بقوله تقدست أسماؤه : « ألم تر إلى الذين يجادلون في آيات الله أنى يصرفون ، الذين كذبوا بالكتاب ، وما أرسلنا به رسلاً فسوف يعلمون ، إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون . في الحميم ثم في النار يُسجرون . فهذا أبلغ الوعيد ، وأفظع النكال ، لمن جادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ثانی عطفه : ليضل عن سبيل الله له في الدنيا خزي ، ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق ... » ثم تجاوزوا في البهتان ، وسدوا على أنفسهم ألوان الغفران ، فأكذبوا التوبة ، وأبطلوا الشفاعة ، ونالوا محكم التنزيل ، وغامض متن التأويل ، بتقدير عقولهم : فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة ، وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله ، والراسخون في العلم ، يقولون آمنا به ، كل من عند ربنا ، وما يذكر إلا أولو الأبواب . فصاروا بجهل الآثار ، وسوء حمل الأخبار إلى القدح في الحديث ، وترك نبح السبيل ، فأساءوا الفهم عن العوام ، وأقدموا بمكروه القول في السلف الصالح ، واستبدلوا على نقلة الحديث ، ووضعوا من الكتب لوضعها ، وتابعوا شهواتهم فيها ، وتتابعوا فيما ... وورطهم ، ورأوا لتخضع وحشة بحثها لازم الضلالة ، وداعية الهلكة ، والشذوذ عن مذهب الجماعة ، من غير نظر نافذ في دين ، ولا رسوخ في علم ، حتى تركوا رد السلام على المسلمين ، وهى التحية التى نسخت تحية الجاهلين . خلافاً على أدب الله تعالى ، وقوله جل جلاله : وإذا حييتم

بتحية ، فحيوا بأحسن منها أوردوها ، وقالوا بالاعتزال عن العامة وشذوا ...
وكشفوا بتكرارهم الذين يستمعون القول ، فيتبعون أحسنه ، فلجوا في جهالتهم ،
وتأهوا في غيهم ، ونكسوا على رؤوسهم ، حقداً على الأمة الخليفة ، واعتقاداً
لبغضتها ، واستحلالاً لدمائها ، وزرعاً إلى انتهاك حرمتها ، وسبى ذراريتها ، قد
بدت البغضاء من أفواههم وما تحق صدورهم أكبر ، لولا أن سيف أمير المؤمنين
من ورأهم ، ونظره محيط . ولما صار غيهم فاشياً ، وجهلهم شائعاً ، واتصل
بأمر المؤمنين من قدحهم في الديانة ، وخروجهم عن الحادة ، فأشغل نفسه ،
وأقضى مضجعه ، وأسهد ليله ، أغلظ أمير المؤمنين في الأخذ فوق أيديهم ،
وأوعز إيعازاً شديداً ، وأنذر إنذاراً قظيماً ، وعهد عهداً مؤكداً شافياً كافياً ،
نظر به لوجهه تبارك اسمه ، وقدم فيه بين يدي العقاب الشديد ، وأمر بقراءة
كتابه هذا على المنبر الأعظم بحضرته ، ليفزع قلب الجاهل ، ويفت كبه المستهتر
الحار ، وينقض عزم العائد المعاجل ، ويضطر الغواة إلى الإثابة الصحيحة ،
التي يتقبلها الله منهم ، أو يكشف عن الأذهان سراريهم فيكون عليهم شهيداً ،
ويأتهم عذاب غير مردود . ورأى أمير المؤمنين أن يشمل بنظره أقطار كوره ،
ويرسله في بلوه وحضره ، وأن ينفذ عهوده إليك ، وإلى سائر قواده ، وجميع
عماله بها ، يقرأ على منابر المسلمين ، ولا يحرم القاصي ما عم الداني من تطهير
هذا الرجز وتمحيصه ، وكفاية المسلمين شبهته وفتنته ، فلم يحل الديار ، ولا تعقب
الآثار ، ولا استحق البلا على قوم ، ولا أهلك الله أمة من الأمم ، إلا بمثل ما
تكشف هذه الطغمة الخبيثة ، من التبديل للسنة ، والاعتداء في القرآن العظيم ،
وأحاديث الرسول الأمين ، صلوات الله عليه وسلم ، هذا عند وروده عليك في
قبلك ، ونشره في سماع رعيتك ، وتتبع هذه الطائفة بجميع أعمالك ، وابث
فيهم عيونك ، وطالب فيهم غورهم جهدك ، فمن تحلى منهم بما انتسب إليهم ،
وقامت عليه البيئات بذلك عندك ، فاكتب إلى أمير المؤمنين بأسمائهم ومواضعهم ،
وأسماء الشهود عاينهم ، ونصوص شهاداتهم ، لنعهد باستجلابهم إلى باب سدته ،
لينكلوا بحضرته ، فيذهب غيظ نفسه ، وبشفي حنين صدره ، وإياك أن تهون من
أهل الريبة ، وتتخطاهم إلى ذوى السلامة والأحوال الصالحة ، فإن فرطت في
أحد الأمرين أو كليهما . فقد برى الله منك ، وأحل دمك ، ومالك ، فاعلمه ،
واعتمد به لإنشاء الله تعالى .

كتاب الخليفة الناصر لدين الله عن غزوة الخندق

(منقول من السفر الخامس من كتاب «المقتبس» لابن حيان ، وهو المخطوط المحفوظ بالخزانة الملكية بالرباط ، في حوادث سنة ٣٢٧ هـ) .

قال ابن حيان : وأما لفظ كتاب الفتح الوارد من قبل الناصر لدين الله إلى الحضرة بنجر هذه الغزوة من إنشاء عيسى بن فطيس الكاتب ، فإن الفصل الذي رفع فيه خبر هذه الواقعة ، وقع كما أثبتته هاهنا :

« واستعزم الله أمير المؤمنين ليلته ، واستخاره عن رحمته في النهوض إلى مدينة شنت مانكش دار الكفرة ومجمع النصرانية ، إلى إلهيا استركن عدو الله ، وضائق الحيل عليهم ، ووثقوا بحصانته ، ليعلمهم أن كلمة الله هي إظهار دينه ، ونصر أوليائه ، وإعزاز خلقايه ، في مشارق الأرض ومغاربها ، ولو كره المشركون ، فضم صاحب المقدمة عمال الثغور عندهم وفرسانهم وخيلهم ، واكتنف الجمع في مجنتي العسكر مع من والاهم ، وجرد الرجال من الخيول بأسلحتهم ، وصمد لجمع المشركين ، فاستقبلهم بنية صادقة ، ونفس صابرة ، وجموع كثيفة ، وكتائب تملأ القضا ، ومغائب تضيق عنها الشعاب ، وبصير في سهل الأرض كالأكام ، تتألق عليهم سوابغ الدروع ، فإذا تداعوا ، قلت موج تراكم ، وإذا وقفوا فكأنما النقع عليهم ليل مظلم . فلما قربت العساكر من محل الخنازير ، ثابوا فيما بينهم ، وثاروا إلى خيولهم ، وعلوا الشرايين ، ينظرون إلى كتائب دين الله ، بقلوب قد خلعها الذعر ، وقبضهم عن التقدم الوجل ، وجعلوا بينهم وبين المسلمين وادى بشرقه ، ثقة بوعورته ، وقلة مخاوضه ، فلم ترعهم إلا مقدمة الجيش ورائه ، قد سهل الله عليهم جوازه ، وتبعهم الأثقال ، وتحيز أمير المؤمنين كدية سامية ، يتطلع منها على عسكر المسلمين ، فأمر بالاضطراب فيها للعسكر ، وتقدمت الخيول بين يديه ، وقد تلاحقت جموع الكفرة ، وقدموا صلبانهم ، ووثقوا بشيطانهم الذي غرهم . وكان المسلمون على نشطة إلى لقاءهم ، فلم ينتظر أولهم إلى أن توافى آخرهم ، ولا قارسهم أن يتمتع براجلهم ، وتخطوا

الرماح إلى السيوف ، والطعن إلى الضرب ، وكروا في حومة المنايا ، كرم من يحمى حليله ، ويخشى بعد ساعة أن تسبي ذريته ، فلم ير المسلمون حرباً مثلها ، ولا شهدوا يوم وغى أطول من يومهم ذلك . ونصر الله تعالى يهون عليهم ما هم فيه ، حتى فضوا جموع المشركين (لوحة ١٤٣ أ) ، وزلزلوا ردوهم التي كانت أكاليل الجبال ، وردم الشعب ، وضمهم إلى معسكرهم ، وأثارت سنابل الخيل من القتام ، ما غيب من كان في القلب عن يليه من يمين الحرب ويسارها . وكان محمد بن هاشم في وقتها حاثاً سعيره قد طال به مدامها ، واستدارت حوله رحامها ، فكبا به فرسه ، ولم يعلم أحد بمصرعه ، فصار في أيدي الخنازير أسيراً ، فاستشفوا به الحياة بعد اليأس منها ، فجالدوا بنفوس قد عاودتها رمقها ، وانحاز المسلمون إلى معسكرهم ، قد قتلوا من أعلام المشركين وقوامسهم وأهل البأس من فرسان الحرب ، ومن صبر لوقع السيف ، فكانت مصيبتهم بمن قتل منهم عظيمة ، فلما أصبح أمير المؤمنين ليلته ، أمر بحمل من عقر فرسه ، وصلة من أغنى في حربه ، وتعرض المشركون للحرب تعرض من قد تنخل لعدو قله أصابهم ، ونكايته قد فلقت قلوبهم . فلما كان في اليوم الثالث من احتلاله ، عهد أمير المؤمنين إلى صاحب العسكر بمصاحبتهم بالحرب ، وقد تلاحقت بهم المدود من أقصى بنبلونة وألبه والقلاع ، وأهل قشتيلة ، إلى مشركي قلمرية ، وكل صنف من أصناف العجم معهم ، وهتف على المسلمين بالخروج تحت راياتهم ، والتأهب للقاء عدوهم ، وأغدوا في نهوضهم ، ونزل صاحب العسكر ، فرتب تعيينهم ، فكثف الردء ، وضم إليها الرجال ، وألزم القلب بنفسه ، وميز فيه نخيل الميمنة والميسرة ، وقدم إليهم المقاتلة ، وأقام بين يديه جملة الخيل عدة ، فإذا رأى في جهة من جهات الحرب خلا سده واستدركه ، أو فتق رتقه ، حتى كانت أيدي المسلمين في الماقط عالية ، فتلظت الحرب واحتدمت ، وكان المنايا إنما قصدت فيها أحلام الكفرة وقوامسهم ، فصرع قومس غرماج ، وابن أخى الخنزير ابن فرذلند ، وشيخ النصرانية وعميدها ابن دنخبر ، إلى العدد الجم من فرسانهم ، وأهل الصبر منهم ، وانجلت الحرب عن هزيمتهم ، وانكشف أجبل قد كانوا علوها ، وسدوا بالنخيل والرجال ما بينها ، وظنوا أن لا غالب لهم ، فزلزلوا زلزالاً شديداً ، وانصرف المسلمون بعد الظفر والسلامة في المنقلب ،

فباتوا بأنعم بال ، وأسكن حال . فلما ظن أعداء الله أن قد ملوا حربهم ، وتجددت لهم مدودهم ، رفعوا معسكرهم ، وقدموا صلبانهم ، وخرجوا بفارسهم وراجلهم فألقوا إلى ما يلي منهم العسكر ، سراع خيولهم ، فبادر المسلمون إليهم تبادر الأسود الضاربة ، فغادروا موقفهم ، وجالدوا بسيوفهم ، حتى انفرج الموقف عن قتل عظيم من عظمائهم ، أعولوا عليه ، واستداروا حواليه ، وانصرفوا قد أذلم الله ، ووهنهم ، وهون عليهم جمعهم ، ووفور مددهم ، في ضبط المعيشة ، وقلة التبسط ، ومصاحبة الحرب ومماساتها ، حتى كأنهم أهل حصن حوصروا فيه ، أو فل جيش لا يستطيعون الرجوع إليه . وأقام أمير المؤمنين ومن معه من جيوشه وحشده ، وأهل البصائر والحفايظ ، وبلغ أمير المؤمنين أقصى أمله من إذلال جميع المشركين ، والاحتلال بساحتهم ، وانحياز طاغيتهم في أعلى شاهق ، يرجو النجاة بنفسه ، فأمر بالرحيل وقد ضاعف النظر ، والعدو في ضبط ساقة جيشه لما توقع خروج الكفرة في أثره . وأصبح منتقلا ، فما أقدم أعداء الله أن ينظروا من الجيش إلا من بعد على رأس جبل ، ونهض يطأ بلادهم وطأة متناقل ، حتى انصرف إلى نهر دويرة ، واستقبل عمارته من حصن مانكش التي اتصلت بنكاية أهله ، فلم يدع في جليقية حصناً إلا هدمه ، ولا معاشاً إلا انتسفه ، حتى انتهى إلى مدينة روضة ، وهي خالية على عروشها ، فأقام على هدمها ، وهدم حصن ديبيلش معها ، يومين كانا أطول على أعداء الله من عامين ، لما غير فيهما من نعمهم ، وهدم من مساكنهم ، وقطع من شجرهم . وكان أمير المؤمنين يترّ التقدّم على نهر دويرة إلى شنت إشتين وغرماج لنقص الزروع اديه وضيق (١٤٣ ب) العلف بإفساده . فرفع إليه من حضره من أهل مدينة الفرّج وحصونها ، يشكون ما يلقونه من مشركى وادى أبينه ، ومعاقلها ، وترددوا عليه ضارعين إليه ، أن يجعل ممر الجيش المؤيد على حصونهم وعمارتهم ، وذكروا أن ذلك أنفع لهم ولأهل الثغور معهم ، من الإيغال في بلاد المشركين ، ونكاية من لا ينالهم بغارة ، ولا ينهض إليهم بقوة ، فصرف الجيوش عند ذلك إلى وادى أبينه ، فلم يدع فيها حصناً إلا هدم ، ولا قرية إلا هدمت ، ولا معاشاً إلا استقصى جميعه . فلما صار في آخره ولم يبق موضع يقوم الجيش بالتردد عليه ، أمر الأدلاء بالكشف عن أفضل الطرق إلى حصن أنتيشه ، وأرفقها بالمسلمين في منصرفهم برازح ظهورهم ، وأحوط عليهم في

طريقهم ، وأجمعوا على قصد حصن قشرب ، وأياسوا من الخروج على غيره ، فلما استقبل أمير المؤمنين لأمه ، وقطع بعض محلته ، استقبل شعراء لا يتخللها المتفرد بحمده ، ولا يتخلص منها المخف ، لو لم يكن أحد يعترضه . ثم أشرف على خنادق قفرة ومهاو تتقاذفه ، وأجراف منقطعة قد عرفها المشركون وقدموا إليها ، وألقوا إلى ساقه الجيش فرسانهم ، فدارت عليهم الحرب ، وصرع فيها من جلة فرسانهم ، ومتقدمي رجالهم جملة ، لو أصيبت بحيث يترأى الجمعان لكانت سبب هزيمتهم ، ولا كنهم وثقوا بالوعد ، وانتظروا تقدم الحماة وترادف الأثقال ، فحاضى أمير المؤمنين برجاله وخاصته عن المسلمين ساعات من النهار ، حتى تقدم أكثرهم ، وجازت الخندق لقتالهم ، إلا من ضعفت دابته ، أو ضعفت تعبته عن استنفارها . فلما رأوا الخلل تصابحوا من قنن الجبال ، وانخطوا من أعاليها انحطاط الأوعال ، فأصابوا من الأمتعة والدواب المثقلة ، ما لو أصابوا مثله في مجال حرب أو سهل من الأرض ، لما أنكر مثله عند مقارعة الرجال ، وتصرف الأحوال . وحاضى صاحب العسكر عن كل من أجاز الخندق وخلص من مضايقة ، حتى أسهلوا ، واجتمع الأمير المؤمنين جيوشه وانتظمت جموعه ، وسلم الله رجاله ، فلم يصب منهم أحد . وفي ذلك دليل للسامع عن الواقعة أنها لم تدر بغلبة ، ولا ظفر المشركون أظفروا به فيها عن مساواة ولا كثرة ، ولكن ضيق المسالك ، ووعر الطريق ، وسوء فهم الدليل ، نخل لما بجلبه إلى أقدار الله تعالى التي لا تصرف ، ومحنة التي لم يزل يمتحن بها أوليائه ، ليعظهم ، ويبتلى عبيده ليرهبهم ، وأمير المؤمنين ، شاكر لله تعالى على عظيم نعمه ، وواقف على تصرف محنته ، مستسهل ما اختص به في حب طاعته ، ضارع إلى الله في التقبل لقوله وفعله . وكتابه إليك ، وهو قافل بالمسلمين على أحسن أحوالهم ، وأسهل طريقهم ، وأجمعه بمعايشهم ، إن شاء الله . فأمر بقراءة كتاب أمير المؤمنين على الناس قبلك أثر صلاة الجمعة لبشكروا الله على ما أنعم به من نصر إمامهم ، وسلامة إخوانهم ، والصنيع الذي عملهم ، فإنه يحب الشاكرين ، ويزيد الحامدين . واعهد نسخته إلى عمال الكور حولك لإنشاء الله تعالى ، والله المستعان . وكتب يوم الإثنين لثمان خلون من ذى القعدة سنة سبع وعشرين وثلاث مائة .

ثبت المراجع

١ - مراجع أندلسية وإسلامية عامة

- تاريخ ابن خلدون المسمى « كتاب العبر » (بولاق) .
- تاريخ الكامل لابن الأثير (الطبعة الأهلية ١٣٠٣ هـ) .
- تاريخ الطبري المسمى « تاريخ الأمم والملوك » (الطبعة الأهلية) .
- تاريخ أبي الفدا المسمى « المختصر في أخبار البشر » (الطبعة الأهلية) .
- فتوح البلدان للبلاذري (القاهرة ١٩٣٢) .
- مروج الذهب للمسعودي (بولاق) .
- نهاية الأرب للنويري (القسم التاريخي ومعظمه ما زال مخطوطاً) .
- وفيات الأعيان لابن خلكان (بولاق) .
- كتاب الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة (القاهرة ١٣٢٥ هـ) .
- كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار لتي الدين المقرئزي (الطبعة الأهلية ١٣٢٤ هـ) .
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لابن تغري بردي (طبعة دار الكتب) .
- فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم المصري (طبع لجنة ذكرى جب) .
- يتمية الدهر في محاسن أهل العصر للثعالبي (القاهرة ١٩٤٧) .
- فتح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقرئ (القاهرة ١٣٠٢ هـ) .
- أخبار مجموعة في فتح الأندلس لمؤلف مجهول (مدريد ١٨٦٧) .
- تاريخ افتتاح الأندلس لأبي بكر بن القوطية (مدريد ١٨٦٨) .
- البيان المغرب في أخبار ملوك الأندلس والمغرب لابن عذارى المراكشي (الجزء الأول الخاص بإفريقية والثاني الخاص بالأندلس المنشوران بعناية العلامة دوزي (ليدن ١٨٤٨ - ١٨٤٩) والثالث المنشور بعناية الأستاذ ليث بروغنسال .
- بغية الملتبس في تاريخ رجال أهل الأندلس لابن عميرة الضبي (ضمن المكتبة الأندلسية) .
- كتاب الصلة لابن بشكوال (ضمن المكتبة الأندلسية ، والقاهرة سنة ١٩٥٥)
- قضاة قرطبة لأبي عبد الله الحشني المنشور بعناية الأستاذ ريرا (مدريد ١٩١٤) .

المقتبس في تاريخ رجال الأندلس لابن حيان ، السفر الثالث المنشور بعناية
الأب ملشور أنتونيا (باريس ١٩٣٧) .

الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام الشنتريني (المجلدات الثلاثة
المطبوعة بعناية جامعة القاهرة) .

الحلة السراء لابن الأبار القضاعي (القسم المطبوع بعناية العلامة دوزي) ،
المعجب في تلخيص أخبار المغرب لعبد الواحد المراكشي (القاهرة ١٣٣٢ هـ) ،
جذوة المقتبس للحميدى (طبع القاهرة) .

العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي (طبع القاهرة ١٩٢٨) ، وكذلك طبعة
لجنة التأليف والترجمة .

المطرب من أشعار أهل المغرب لابن دحية البلنسى (المطبوع بعناية وزارة
التربية المصرية) .

أعمال الأعلام لابن الخطيب (طبع بيروت ١٩٥٦) .

الإحاطة في أخبار غرناطة لابن الخطيب (القاهرة ١٩٠٤ و ١٩٥٦) .

الإستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى للسلاوى (القاهرة ١٣٠٦ هـ) .

نبذ تاريخية في أخبار البربر في القرون الوسطى (الرباط ١٩٣٤) .

جهاز أنساب العرب لابن حزم (القاهرة ١٩٤٨) .

رسالة نقط العروس لابن حزم (المنشور بمجلة كلية الآداب بالقاهرة في

عدد ديسمبر سنة ١٩٥١) .

نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار لأحمد بن

عمر العلوى (منشور بعناية الدكتور عبد العزيز الأهواني — مدريد سنة ١٩٦٥) ،

طوق الحمامة لابن حزم (دمشق ١٣٤٩ هـ) .

معجم البلدان لياقوت الحموى (القاهرة ١٣٢٣ — ١٣٢٥ هـ) .

الروض المعطار (صفة جزيرة الأندلس) لأبي عبد الله محمد بن عبد المنعم

الحميرى (القاهرة ١٩٤٨) .

مختصر نزهة المشتاق في اختراق الآفاق للشرىف الإدريسي (طبع رومة ١٥٩٢) .

وصف الأندلس للإدريسي (المطبوع بعناية المستشرق سافدرا) .

المسالك والممالك لابن حوقل (المكتبة الجغرافية) .

المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب المستخرج من كتاب المسالك والممالك
للأبي عبيد البكري والمنشور بعناية المستشرق دي سلان .

مصادر مخطوطة

تاريخ ابن حيان : « المقتبس في تاريخ أهل الأندلس » ، مجموعة أوراق
مخطوطة من « السفر الأول » تشمل حوادث سنة ١٨٠ - ٢٣١ هـ ، عثر بها المرحوم
الأستاذ ليثي بروفسال ، ونقلت منها وقد ضاعت الآن .

تاريخ ابن حيان : « السفر الثاني » من المقتبس وهو يشمل حوادث سني
٢٣٣ - ٢٦٧ هـ قطعة مخطوطة محفوظة بمكتبة جامع القرويين بفاس .

قطعة ثالثة مخطوطة من تاريخ ابن حيان محفوظة بمكتبة أكاديمية التاريخ
بمليد تتعلق بحوادث سنة ٣٦٠ - ٣٦٤ هـ . وقد نشرت أخيراً ببيروت (١٩٦٥)
بعناية الأستاذ عبد الرحمن الحجى .

السفر الخامس من « المقتبس » وهو مخطوط الخزانة الملكية بالرباط ويتعلق
بعهد عبد الرحمن الناصر ، ويسرد حوادث الأندلس من سنة ٣٠٢ إلى سنة ٣٢٩ هـ
ويحمل رقم 87 .

إعتاب الكتاب لابن الأبار (مخطوط محفوظ بمكتبة الإسكوريال رقم ١٧٣١
الغزيري) .

كتاب تحفة الأنفس وشعار أهل الأندلس لعلي عبد الرحمن الهذيل (مخطوط
محفوظ بمكتبة الإسكوريال رقم ١٦٥٢ الغزيري) .

شذور مخطوطة لابن حزم نشرها الأستاذ ميغل آسين بلاثيوس في مجلة
الأندلس (سنة ١٩٣٤) .

٢- المراجع الأوربية

رجعنا فيما يتعلق بالروايات الإسبانية اللاتينية إلى موسوعة الأب Enrique Florez الكنسية الكبرى وهي :

España Sagrada (Madrid 1747—1886, 51 Tomos)

وقد تضمنت الروايات التاريخية الآتية :

Isidorus Pacensis Crónicon

رواية إيزيدور الباجي

Chrónicon Compostellanus

رواية كومبستيل (اشنت ياقب)

Annales Toledanes

الأخبار الطليطلية

Chronicon Lusitanum

الرواية اللوسيتانية البرتغالية

Chronicon Adefonsi

الرواية الأدفونشية

Rodericus Toletanus : Historia Arabum.

رواية رoderيك الطليطلي (تاريخ العرب)

Lucas Tudensis : Chronicon Mundi.

رواية لوقا التطيل (تاريخ العرب)

Crónica General de España- (Ed. Pidal)

تاريخ أسبانيا العام لألفونسو العالم

Padre Mariana : Historia General de Espana (Madrid 1855).

Conde : Historia de la Dominación de los Arabes en Espana.

F.J. Simonet : Historia de los Mozárabes de España (Madrid 1897).

Modesto Lafuente : Historia General de Espana (Barcelona 1889).

Julian Ribera : Disertaciones y Opúsculos (Madrid 1928).

R. Altamira : Historia de España y de la Civilización Española (Barcelona 1900).

R.M. Pidal : La España del Cid (Madrid 1947).

” ” : **La Chanson de Roland y el Neotradicionalismo (Madrid 1959).**

” ” : **Origenes del Español.**

” ” : **Historia y Epopya.**

Una Crónica anonima de Abd Al-Rahman Al-Nasir (Madrid-Granada 1950).

F. Codera : Embajadas de Principes cristianos en Córdoba en los ultimos anos de Al-Haquam II (B.R.A.H. XIII, 1886).

F. Codera : Embajadores de Castilla encarcelados en Córdoba en los ultimos anos de Al-Haquam II (B.R.A.N., XIV, 1887).

A.G. Palencia : Historia de la España Musulmana.

- L.S. de Lucena : Los Hammudies Senores de Málaga y Algeciras.
(Málaga 1955).
- Cardonne : Histoire de l'Afrique et de l'Espagne sous la Domi-
nation des Arabes.
- Camille Julian : Histoire de la Gaule.
- Dom Vissette : Histoire de Languedoc.
- Reinaud : Histoire des Invasions des Sarrazins en France,
- Dozy : Histoire des Musulmans d'Espagne jusqu'à la Coquête des
Almoravides (Ed. Lévy-Provençal 1932).
- Dozy : Recherches sur l'Histoire et Littérature de l'Espagne pendant
le moyen-âge. (3e Ed).
- Zeller : Histoire de l'Allemagne.
- Aschbach : Geschichte der Omajaden in Spanien.
- Schlegel : Philosophie der Geschichte.
- Gibbon : Decline and Fall of the Roman Empire.
- Lane-Poole : The Moors in Spain.
- Scott : Moorish Empire in Europe.
- H. Ch. Lea : History of the Inquisition of Spain.
- Creasy : Decisive Battles of the World.
- Finlay : Byzantine Empire.
- Hodgkin : Charles the Great.
- Casiri : Bibliotheca Arabico-Hispana Escorialensis.
- [Encyclopédie de l'Islam.
- Bayle : Dictionnaire Historique et Critique.
- Bouquet : Recueil des Historiens de la Gaule et de la France.

فهرست الوثائق التاريخية

للقسمين الأول والثاني

صفحة

| | |
|---|-----------|
| الخطبة المنسوبة لطارق بن زياد... | ٤٦ |
| معاهدة الصلح بين عبد العزيز بن موسى وتيودمير... | ٥٥ |
| خطاب يوسف الفهرى إلى عبد الرحمن الأموى... | ١٥٣ |
| الأمان الذى أصدره عبد الرحمن الداخل للنصارى... | ١٩٩ |
| كتاب الحكم بن هشام عن ثورة الربض... | ٢٤٥ |
| وصية الحكم بن هشام لابنه عبد الرحمن... | ٢٤٨ |
| كتاب عبد الرحمن بن الحكم إلى قيصر قسطنطينية... | ٢٨٣ |
| عهد الناصر لا بن حفصون... | ٣٨١ |
| كتاب الناصر عن فتح بيشتر... | ٣٨٧ |
| أمان الناصر لمحمد بن هاشم التجيبى... | ٤١٠ |
| كتاب الناصر عن اتخاذه سمة الخلافة... | ٤٣٠ |
| كتاب الناصر عن موقعة الخندق... | ٧١١ و ٤١٦ |
| كتاب الناصر إلى العمال بعمل الاستسقاء... | ٤٢٣ |
| كتاب الناصر عن فتنة ابن مسرة... | ٧٠٨ و ٤٣٣ |
| كتاب القيصر قسطنطين السابع إلى الناصر... | ٤٥٣ |
| كتاب الحكم المستنصر عن انتصاره على الأدارسة... | ٤٩٨ |
| وصية المنصور بن أبى عامر لابنه عبد الملك... | ٥٨١ |
| وصية المنصور بن أبى عامر لغلماه... | ٥٨٢ |
| مرسوم الخليفة هشام المؤيد لعبد الملك المنصور بتسميته بالمظفر... | ٦١٤ |
| مرسوم الخليفة هشام المؤيد بالله إلى عبد الرحمن المنصور بولاية عهده... | ٦٢٦ |

فهرست الشعر والشعراء

صفحة

| | |
|-----|--|
| | نصر بن سيار |
| ١٤٤ | أرى تحت الرماد وميض نار عبد الرحمن بن أمية (الداخل) |
| ٢٠٢ | سعدى وحزمى والمهند والقنا |
| ٢٠٢ | شتان من قام ذا امتعاض |
| ٢٠٢ | أيها الركب الميمم أرضى |
| ٢٠٣ | تبدت لنا وسط الرصافة نخلة |
| | عباس بن ناصح الخزيري |
| ٢٤٢ | نكد الزمان فآمنت أيامه |
| | الحكم بن هشام |
| ٢٤٦ | رأيت صدوع الأرض بالسيف واقعا |
| ٢٥٠ | غناء صليل البيض أشهى إلى الأذن |
| ٢٥٠ | قضب من البان ماست فوق كئيبان |
| | غريب بن عبد الله |
| ٢٤٧ | يا أهل قرطبة الذين تواكلوا |
| | موثمن بن سعيد |
| ٢٥٢ | يطم على العنقاء في طيراتها |
| ٦٩٣ | حرمك ما عدا نظرا مضرا |
| | يحيى الغزال الجياني |
| ٢٥٣ | لست تلقى الفقيه إلا غنيا |
| ٢٥٣ | يأليت شعري أي شيء محصل |
| ٢٥٣ | كأن الملوك الغاب عندك خضعا |
| ٢٨٣ | وأغيد لين الأطراف رخص |
| ٢٨٥ | يانود يارود الشباب التي |

| صفحة | |
|------|--------------------------------|
| | عبد الرحمن بن الحكم |
| ٢٧٨ | إذا ما بدت لى شمس النهار |
| ٢٨٠ | ولقد تعارض أوجهم لأوامر |
| ٢٨٠ | فكم قد تخطيت من سبب |
| ٢٨٠ | قتلتنى بهواكا |
| | عباس بن فرناس |
| ٢٩٣ | ومؤتلف الأصوات مختلف الزحف |
| ٣١٤ | كأن قصور الأرض بعد تمامه |
| | أبو عمر ابن عبد ربه |
| ٣١٥ | ألما على قصر الخليفة فانظرا |
| ٣٢٦ | نجا مستكناً تحت جناح من الدجى |
| ٣٣٤ | ألا إن إبراهيم بلحة ساحل |
| ٣٧٤ | بدا الهلال جديداً |
| ٣٧٨ | هلال نماء البدر واختاره الفجر |
| ٣٨٠ | خليفة الله وابن عم رسول الله |
| ٤٠٨ | يا ابن الخلايف والصيد الصناديد |
| ٤٦٢ | قد أوضح الله للإسلام منهاجاً |
| | هاشم بن عبد العزيز |
| ٣١٨ | سأرضى بحكم الله فيما ينوبنى |
| | سعيد بن جودى |
| ٣٢٩ | يابنى مروان جلدوا فى الهرب |
| | الأمير عبد الله بن محمد |
| ٣٥٠ | يامهجة المشتاق ما أوجعك |
| ٣٥١ | ويحى على شادن كحل |
| ٣٥١ | يا من يراوغه الأجل |

صفحة

| | |
|-----|---|
| ٣٨٦ | أحمد بن محمد الرازي تبدى لمراى العين مجسماً إسماعيل بن بدر |
| ٤٠٢ | وقيدت زعيمتهم إليه |
| ٦٩٨ | تطوى المراحل إدلاجاً وتنحيراً أبو عثمان عبيد الله بن يحيى بن إدريس |
| ٤٢٤ | نعم الشفييع إلى الرحمن فى المطر |
| ٦٩٧ | يهى الخلافة سعى خير إمام |
| ٦٩٧ | على أى فتح بعد فتح تتهدما عبد الرحمن الناصر |
| ٤٣٦ | همم الملوك إذا ما أرادوا ذكرها أبو الوليد بن زيدون |
| ٤٤٠ | خليلى لا فطر يسر ولا أضحى محى الدين بن عربى (نقلا عنه) |
| ٤٤١ | ديار بأكناف الملاعب تلمع منذر بن سعيد البلوطى |
| ٤٥٥ | مقالى كحده السيف وسط المحافل عبد الملك بن سعيد المرادى |
| ٤٨٦ | ملك الخليفة آية الإقبال جعفر بن عثمان المصحنى |
| ٤٦٣ | إلا أن أياماً هفت بإمامها |
| ٥٠٣ | أطلع البدر فى صحابه |
| ٥٣٠ | صبرت على الأيام لما تولت |
| ٦٩٧ | على أمن الأوقات كان ارتحالك الحكم المستنصر |
| ٥١٢ | إلى الله أشكو من شمائل مسرف |
| ٥١٣ | عجبت وقد ودعتها كيف لم أمت |

صفحة

| | |
|-----|--------------------------------|
| ٥٣١ | أبني أمية أين أقمار الدجى |
| ٥٣٦ | أليس من العجائب أن مثلى |
| ٥٣٧ | أقرب الوعد وحن الهلاك |
| ٥٥٢ | أبو العلا صاعد بن حسن البغدادى |
| ٥٦٣ | يا حرز كل مخوف وأمان كل |
| | جددت شكرى للهوى المتجدد |
| ٥٥٧ | أبو عمر بن دراج القسطلى |
| ٥٥٨ | هل الملك يملك ريب المنون |
| ٥٦١ | لك الله بالنصر العزيز كفيل |
| ٦١٠ | اليوم أنكص أبليس على عقبه |
| ٦٢١ | بدا ريح السعد واستقبل النجح |
| ٦٢٩ | إن كان وجه الربيع مبتسما |
| | هو البدر فى فلك المجد دارا |
| ٥٦٦ | ما نقش على قبر المنصور |
| | آثاره تنبيك عن أخباره |
| ٥٧٥ | عمرو بن أبى الحباب |
| | لا يوم كاليوم من أيامك الأول |
| ٥٨١ | المنصور بن أبى عامر |
| ٥٨١ | رمىته بنفسى هول كل عظيمة |
| ٦٢١ | منع العين أن تذوق المناما |
| | زمان جديد وصنع جديد |
| ٦٢٨ | ابن أبى يزيد المصرى |
| | إن ابن ذكوان وابن برد |

- سليمان المستعين
٦٥٤ عجباً يهاب الليث حد سناني
عبد الرحمن بن مقانا
٦٧٣ البرق لائح من أندرين
عبد الملك بن جهور
٦٩٨ إن كانت الأبدان نائمة
محمد بن خانيء الإشبيلي
٧٠٠ رأيت بعيني فوق ما كنت أسمع
طاهر بن محمد البغدادى
٧٠١ متى أشكر النعمى التى هى بجنتى
محمد بن مطرف بن شخيص
٧٠٢ بأيمن إقبال وأسعد طائر
٧٠٢ فهل من شفيع عند ليلى إلى الكرى
محمد بن الحسين التيمى الطبى
٧٠٢ بخلت بجوهر لفظها أن يلقطا
يحيى بن هذيل
٧٠٢ لم يرحلوا إلا وفوق رحالهم
يوسف بن هارون الرمادى^١
٧٠٣ لا تنكروا غزر الدموع فكل ما

فهرست الأعلام الجغرافية والتاريخية الأندلسية ومقابلها الإفرنجي

| | | | |
|--------------------------|-----------------------|------------------|---------------------------------|
| Alava | ألبه | Aquitaine | أكوتين |
| | ألبه والقلاع | | بلاد أرغن . أرغن . الثغر الأعلى |
| Alava et Castella Vetula | | Aragon | |
| Albacete | البسيط | Astorga | أستورقة |
| | شنتمرية الشرق | Asturias | أشتوريش |
| Albarracin | | Avenpace | ابن بابجة |
| | شنتمرية ابن رزين | Avignon | صخرة أبنيون |
| Alcacer do Sal | قصر أبي دانس | Avila | آبله |
| Alcalá de Henares | قلعة النهر | Badajoz | بطاليوس |
| Alcántra | القنطرة | Baeza | بياسة |
| Alcázar | القصر | Baleares | الجزائر الشرقية |
| Alfonso Raimundez | | Barcelona | برشلونة — برشنونة |
| | أدفنش بن رمند | Beja | بابجة |
| Algarve | كورة الغرب | Berbastro | بربستر |
| Algeciras | الجزيرة الخضراء | Bermudo | برمنسد |
| Alicante | لقنت | | بسكونية — بسكونس |
| Almeria | ألمرية | Bicsay — Viscaya | |
| Almodavar | المدور | Bobastro | ببشتر |
| Almodavar del Rio | حصن المدور | Burgos | برغش |
| Almoravides | المرابطون | Cabra | قبرة |
| Almunecar | المنكب | Calahorra | قلهرة |
| Alphonso - Alfonso | | Calatayud | قلعة أيوب |
| | أدفنش ، أدفنش ، ألفنش | Calatrava | |
| Alpujurras | البشرات البشرة | | |
| Alpuxarras | | | |

| | | | |
|-------------------|------------------|----------------------|------------------------------|
| Calatanazor | قلعة النصور | Fernando - Ferdinand | فرذلند |
| Carcassone | قرقشونة | Fernan Gonzales | فرنان غنصالص |
| Carmona | قرمونة | Froila | فرويلة |
| Carthage | قرطاجنة القديمة | La Frontera | ألفرنتيره |
| Cartagena | قرطاجنة الأندلس | Galicia | جليقية |
| Castellon | قسطلونة | Garcia | غرسية |
| Castile— Castilla | قشتالة | Gaule | غاليس |
| Catalonia | قطلونية | Gerona | جير ندة |
| Cataluna | | Gibraltar | جبل طارق — جبل الفتح |
| Cardegna— Cerdana | شرطانية | Goths— Godos | القوط — الغوط |
| Ceuta | سبته | Granada | غرناطة |
| Charlemagne | قارله — شارلمان | Gregorius | جر جبر |
| Karl— Charles | | Guadalajara | وادي الحجارة |
| Cintra | شنتره | Guadalete | وادي لكه |
| Colmbra | قلمرية — قلنبرية | Guadalquivir | |
| Cordova Córdoba | قرطبة | | الوادي الكبير — النهر الأعظم |
| Coria | قورية | Guadarrama | وادي الرملة |
| Corsica | قورسقة | Guadiana | وادي يانة — وادي أنة |
| Cuenca | قونقة — كونكة | Guadix | وادي آش |
| Daroca | دروقة | Huesca | وشقة |
| Denia | دانية | Ivica-Ibiza | جزيرة يابسة |
| Duero·Douro | نهر دويره | Jaca | چاكة |
| Ebro | نهر إبره | Jaen | جيان |
| Ecija | إستجة | Jódar | شودر |
| Elvira | إلبيرة | Lamigo | لميقة |
| Evora | يبرة — يافورة | Lausitania | البرتغال القديمة |
| Favila | فافالة | León | ليون (جليقية) |

| | | | |
|------------------|---------------------------------|------------------------|----------------------------------|
| Lerida | لاردة | Navarra | بلاد البشكنس — نبرة |
| Lisbon-Lisboa | أشبونة — لشبونة | Niebla | لبلة |
| Lombardy | بلاد اللنبرد — أنكبردية | Normans | الأردمانيون — المجوس |
| Lopez | لب | Ocsonoba | أكشونية |
| Lorca | لورقة | Orellus | أورالى |
| Lugo | لوك | Oria | أورية |
| Lyon | لوذون — لوطون | Orihuela | أوريوله |
| Madelin | حصن مادلين | Pallares | بليارش |
| Magerit | مجریط | Pamplona | بنبلونة |
| Majorca-Mallorca | جزيرة ميورقة | Pedro | بيطره |
| Málaga | مالقة | Pelagius-Pelayo | بلاى — بلايو |
| Martos | مرتش | Priego | باغة |
| Mauretania | المغرب الأقصى | Pyrenees | جبال البرنيه أو البرت أو البرتات |
| Medinaceli | مدينة سالم | Pirineos | |
| Medina-Sidonia | شدونة | Poley | بلاى — بلى |
| Mérlda | ماردة | Rejio | ريه (كورة) |
| Mertola | مارتلة — ميرتلة | Ramiro | ردمير — رذمير |
| Minorca | جزيرة منورقة | Ramon Berenguer | رمند |
| Monzon | منتشون | Rhône | نهر (وادی) رذونة |
| Montimayor | متميور | Roderic | لذريق — رذريق |
| Montileon | متلون | Roncesvalles | باب شزروا — باب الشزرى |
| Morón | مورور | Ronda | رندة |
| Mozárabes | المستعربون أو النصارى المعاهدون | Rueda | حصن روطة |
| Mula | مولة | Salmanca | شلمنقة |
| Murcia | مرسية | Sancho | شانجه |
| Narbonne | أربونة | San Esteban | شنت إشتين |
| | | Santa Maria de Algarve | شتمرية الغرب |

| | | | |
|--------------------|----------------------|---------------|------------|
| Santarein-Santarem | شترين | Toulouse | تولوشة |
| Santaver | شنت برية | Trujillo | ترجاله |
| Santiago | شنت ياقب | Tudela | تطيلة |
| Saragossa-Zaragoza | سرقسطة | Tudmir | تدمير |
| Sardegna | جزيرة سردانية | Ubeda | أبدة |
| Sicilia | صقلية | Urgel | أرقلة |
| Ségovia | شقوبية | Vacasorra | بقسرة |
| Seville-Sevilla | إشبيلية | Valencia | بلنسية |
| Sierra de Almaden | جبال البرانس | Valtierra | بلتيرة |
| Sierra Morena | جبل الشارات | Valladolid | بلد الوليد |
| Sierra Nevada | جبل شلير - جبل الثلج | Viguera | بقيرة |
| Tagus-Tajo | نهر التاجه أو التاجو | Villanueva | بلدة نوبه |
| Tanger — Tangier | طنجة | Viseu | بازو |
| Tarifa | جزيرة طريف — طريف | Xativa-Jativa | شاطبة |
| Tarragona | طركونة | Xenil-Genil | نهر شنيل |
| Toledo | طليطلة | Xeres-Jerez | شريش |
| Torrox | طرش | Xecunda | شقندة |
| Tortosa | طراطوشة | Zamora | سمورة |

فهرست الموضوعات (للقسم الثاني من الكتاب)

الكتاب الثاني

الدولة الأموية في الأندلس

القسم الثالث — عبد الرحمن الناصر وقيام الخلافة الأندلسية

| | |
|---|-----|
| الفصل الأول : ولاية عبد الرحمن الناصر وقيام الخلافة الأندلسية.. | ٣٧٢ |
| الفصل الثاني : خلال الناصر وما أثره | ٤٣٥ |
| الفصل الثالث : غزوات المسلمين في غاليس وشمال إيطاليا وسويسره... | ٤٦٤ |

الكتاب الثاني

الدولة الأموية في الأندلس

القسم الرابع — ربيع الخلافة الأندلسية

| | |
|--|-----|
| الفصل الأول : الحكم المستنصر بالله | ٤٨٢ |
| الفصل الثاني : هشام المؤيد بالله | ٥١٧ |

الكتاب الثالث

الدولة العامرية

| | |
|--|-----|
| الفصل الأول : الحاجب المنصور | ٥٣٤ |
| الفصل الثاني : خلال المنصور وما أثره | ٥٦٨ |
| الفصل الثالث : الممالك النصرانية الإسبانية خلال القرن العاشر الميلادي... | ٥٨٨ |
| ١ — نشأة مملكة قشتالة | ٥٩٠ |
| ٢ — مملكة ليون | ٥٩٢ |
| ٣ — مملكة نافار | ٥٩٩ |

صفحة

- ٤ — عناصر المجتمع في اسبانيا النصرانية... ٦٠١
 ٥ — تنظيم السلاطات السياسية... ٦٠٣
 الفصل الرابع : عبد الملك المظفر بالله... ٦٠٧
 الفصل الخامس : عبد الرحمن بن المنصور وسقوط الدولة العامرية... ٦٢٢

الكتاب الرابع

سقوط الخلافة الأندلسية ودولة بني حمود

- الفصل الأول : الخلافة في معترك الفتنة والفوضى... ٦٤٢
 الفصل الثاني : دولة بني حمود... ٦٥٦

الكتاب الخامس

النظم الإدارية والحركة الفكرية
 في عصرى الإمارة والخلافة

الفصل الأول : النظم الدستورية والعسكرية الاقتصادية في عصرى

- الإمارة والخلافة... ٦٨٠
 الفصل الثاني : الحركة الفكرية الأندلسية في عصرى الإمارة والخلافة... ٦٩١
 وثائق تاريخية

- ١ — كتاب الناصر بشأن فتنة ابن مسرة... ٧٠٨
 ٢ — كتاب الناصر عن موقعة الخندق... ٧١١
 ثبت المراجع... ٧١٥
 فهرست الوثائق التاريخية... ٧٢٠
 فهرست الشعراء والشعراء... ٧٢١
 فهرست الأعلام الجغرافية والتاريخية الأندلسية... ٧٢٦
 فهرست الخرائط

- ١ — خريطة قرطبة الإسلامية... ٤٤٩
 ٢ — الممالك الإسبانية النصرانية في القرن الحادى عشر الميلادى... ٥٩٥

فهرست الكتب

- الرواية - الروايات اللاتينية - ١٦٩ ، ١٧٢ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٨٠ ، ١٨٣
صفحة قرطبة وخطوطها ومنازل الأعيان فيها ، لأحمد
ابن موسى الرازي ؛ ٧٠٠
العقد الفريد ، لأبي عمر بن عبد ربه ؛ ٢٢٤ ، ٣١٥ ، ٣٢١ ، ٣٥١ ، ٦٩٥ ، ٦٩٦ ، ٧٠٠
كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني - ٥٠٥
كتاب الحشائش الطبية ، لديسقوريدس - ٤٢٣ ، ٤٥٤
كتاب الحكم المستنصر في الأنساب - ٥٠٤
كتاب الطير ليوسف بن هارون الرمادي ؛ ٧٠٣
كتاب «الفصوص» في الآداب والأشعار والأخبار
لصاعد بن الحسن البغدادي ؛ ٥٧٩ ، ٥٨٠ ، ٧٠٤
كتاب في فضائل الصحابة لعبد الرحمن بن فضيل ؛ ٧٠٥
كتاب قضية قرطبة ، لأبي عبد الله الحشفي ؛ ٥٠٥
المآثر العامة ، أو أخبار الدولة العمارية ،
لابن حيان ؛ ٥٧١ ، ٥٧٧
مختصر ابن عبد الحكم ، للقاضي الأبهري ؛ ٦٠٥
لحن الدامة لأبي بكر الزبيدي ؛ ٧٠٣
مسند النبي لبق بن مخلد ؛ ٦٩٤
مسند حديث محمد بن فضال ؛ ٧٠٥
المنتخب في روايات مذهب مالك لمحمد بن عمر بن
لبابة ؛ ٦٩٦
مطمح الأنفس للفتح بن خاقان ؛ ٥٠٤
المقتبس في تاريخ رجال الأندلس ؛ لابن حيان ؛
٧ ، ٨ ، ٤١٥ ، ٥١١ ، ٥٧١ ، ٦٩٦ ، ٦٩٩
منظومة الشاعر سوزي عن رديك ؛ ٩٧
موطأ مالك ؛ ٢٢٩
نزهة المشتاق ، في اختراق الآفاق ، للإدريسي ؛
٤٨
نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب - ٩ ، ١٠
الواضح لأبي بكر الزبيدي ؛ ٧٠٣
- الإحاطة في أخبار غرناطة ، لابن الخطيب ؛ ٩
أخبار كورة البيرة لمطرف بن عيسى الفسافي ؛
٥٠٥
أخبار ملوك الأندلس وخدمتهم وغزواتهم ونكباتهم
لأحمد بن موسى الرازي ؛ ٧٠٠
أخبار النحويين لأبي بكر الزبيدي ؛ ٧٠٣
أسباب نزول القرآن لعبد الرحمن بن فطيس ؛
٧٠٥
الاستظهار المغالبة ، على من أنكر فضل الصغلبة ؛
٥٧٩
الإستيعاب في أنساب أهل الأندلس لأحمد بن موسى
الرازي ؛ ٧٠٠
أعلام النبوة ودلالات الرسالة ، لعبد الرحمن بن
فطيس ؛ ٧٠٥
أعمال الأعلام لابن الخطيب - ٩ ، ١٩٤
الإمامة والسياسة لابن قتيبة الدينوري - ٢٤
أنساب بني أمية لأبي الفرج الأصفهاني ؛ ٥٠٥
أنشودة رولان ؛ ١٧٨ ، ١٨١ ، ١٨٢
البيان المغرب لابن عذاري المراكشي ؛ ٩ ، ٨٥ ،
٥١١ ، ٥٧٨ ، ٦١٣ ، ٦٢٠ ، ٦٦١
تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية ؛ ٧٠١
تاريخ الأندلس لأحمد بن موسى العمري ؛ ٧٠١
تاريخ أورسيوس ؛ ٤٥٣ ، ٤٥٤
تاريخ ألفونسو الحكيم ؛ ٤١٩
تاريخ الله أرى المعاهددين للمستشرق سيمونيت ؛
٢٦٨ ، ٣٨٣
تفسير القرآن لبق بن مخلد ؛ ٦٩٤
جمهرة أنساب العرب ، لابن حزم القرطبي ؛
٥٠٤
الجوامع - حروب الإسلام - غريب الحديث -
فضائل الصحابة - طبقات الفقهاء والمحدثين -
مصابيح الهدى - الواضحة ؛ لعبد الله بن
حبیب السلمی ؛ ٦٩٢
الذخيرة في أسن أهل الجزيرة ، لابن بسام ؛
٩ ، ٦٢٠ ، ٦٩٥
رواية إيزيدور الباجي ؛ ٣٤ ، ٦٣ ، ٧٦ ،
٨٢ ، ٢٠٩

فهرست القبائل والطوائف والدول

ا - ب - ت

الإباضية ؛ ٦٩ ، ١١٨ ، ٥٠١
 الإدارة ؛ ٤٢٦ ، ٤٩٢ ، ٤٩٦ - ٤٩٨ ،
 ٥٠١ ، ٥٤٤ ، ٥٤٥ ، ٦٥٦ ، ٦٥٧
 الأرمنانيون ؛ انظر النورمانيون
 الأسالة ، المسالة ؛ انظر التصاري المعاهدون
 الإسبان ؛ ٢٠٦ ، ٢١٠ ، ٢٣٨ ، ٤٤٢
 الأسرة الكارلية ؛ ٧٩ ، ٨٠ ، ١٧١
 الأسرة الميروفنجية ؛ ٧٨ ، ٧٩ ، ٨١ ، ١١٦
 الإسلام ؛ ١٨ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٣ ، ٢٥ ،
 ٣١ ، ٣٦ ، ٤٠ ، ٤٤ ، ٤٦ ، ٤٨ ، ٥٤
 ٥٥ ، ٦٠ ، ٦٢ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٧ - ٦٩ ،
 ٨٣ ، ٩٢ - ٩٤ ، ٩٦ ، ٩٩ ، ١٠٦ ،
 ١٠٨ - ١١٤ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٤٢ ،
 ١٤٧ ، ١٥٥ ، ١٧٠ - ١٧٢ ، ١٨٧ ، ١٩٧ ،
 ٢٠٨ ، ٢١٤ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ، ٢٣٣ ،
 ٢٣٤ ، ٢٣٦ ، ٢٣٨ ، ٢٧٣ ، ٣٠٥ ،
 ٣٣٧ ، ٣٨٢ ، ٣٨٤ ، ٣٨٦ ، ٣٨٧ ، ٤٢١ ،
 ٤٣٣ ، ٤٣٥ ، ٤٤٢ ، ٤٥٠ - ٤٥٢ ،
 ٤٥٤ ، ٤٥٦ ، ٤٥٧ - ٤٥٩ ، ٤٧٢ ،
 ٤٨٥ ، ٥٠٥ ، ٥٠٧ ، ٥١٥ ، ٥١٩ ،
 ٥٦٩ ، ٥٧٣ ، ٥٨٤ ، ٦٠٧
 الأشراف ؛ ٦٠١ - ٦٠٥
 الآثار ؛ ١٧٢
 إفرنجة ؛ انظر الفرنج
 الآلان ؛ ٢٩ ، ٩٤
 آل البيت ؛ ١٤١ ، ١٤٤ ، ١٤٦ ، ٤٢٩ ،
 ٦٥٧
 الألمان ؛ ٤٥٠
 الألمان ، قبائل ؛ ٧٨
 إمارة جليقية ؛ انظر مملكة جليقية
 إمارة قرطبة ؛ ١٨٤ ، ٢١٤ ، ٢٩٠ ، وانظر
 الخلافة الأندلسية

الإمامية ؛ ١٤٢
 إمارة قطلونية (وبرشلونة) ؛ ٥٤٣ ، ٦٠٩
 الإمبراطورية الجرمانية ؛ ٤٥٠
 الإمبراطورية الرومانية ؛ انظر الدولة الرومانية
 الأمويون ؛ انظر بنو أمية
 الأندلسيون ؛ ٢٤٥ ، ٢٩٠ ، ٤٩٥ ، ٦٦٣
 الأوس ؛ ٦٨
 إيباد ؛ ٦٨
 الإيضاليون ؛ ٤٥٠
 البابوية ؛ ٣٥٩ ، ٤٧٢
 البرانس ، قبيلة ؛ ٢٠٥ ، ٣٩٣
 البربر ؛ ١٧ - ٢٢ ، ٢٥ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٩ ،
 ٦٦ ، ٦٩ ، ٧١ ، ٧٣ ، ٧٥ ، ٨٤ ،
 ٨٦ ، ٨٧ ، ١٠٠ ، ١١٧ - ١٢٥ ، ١٣٥ ،
 ١٤٢ ، ١٥٥ ، ١٥٨ ، ١٦٠ ، ١٦٤ ،
 ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٨ ، ١٨٥ ، ١٩٤ ،
 ١٩٨ ، ٢٠٠ ، ٢٠٣ - ٢٠٦ ، ٢١٢ ،
 ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٣٠ ، ٢٣٣ ، ٢٣٧ ،
 ٢٣٨ ، ٢٥٧ - ٢٥٩ ، ٢٦٩ ، ٢٧٥ ،
 ٢٩٠ ، ٣١٨ ، ٣١٩ ، ٣٢٣ ، ٣٣١ ،
 ٣٣٩ ، ٣٤٠ ، ٣٤٤ ، ٣٤٥ ، ٣٦٠ ،
 ٣٧٥ ، ٣٩١ ، ٣٩٤ ، ٤٢٦ ، ٤٤٠ ،
 ٤٤٥ ، ٤٤٨ ، ٤٩٥ ، ٤٩٦ ، ٥٠١ ،
 ٥٠٩ ، ٥١٠ ، ٥١٣ ، ٥١٨ ، ٥٣١ ،
 ٥٣٦ ، ٥٣٨ ، ٥٣٩ ، ٥٤٢ ، ٥٤٥ ،
 ٥٤٦ ، ٥٥٣ ، ٥٥٧ ، ٥٦٢ ، ٥٦٤ ،
 ٥٧٠ ، ٥٧٦ ، ٦١٨ ، ٦٢٠ ، ٦٢٢ ،
 ٦٢٨ ، ٦٣٠ ، ٦٣٢ ، ٦٣٧ ، ٦٤٣ -
 ٦٥٧ ، ٦٦٤ ، ٦٦٦ ، ٦٦٨ ، ٦٧٠ -
 ٦٧٤ ، ٦٨٣ ، ٦٨٦ - ٦٨٨
 البرجونيون ؛ ١١٥
 برغواطة ؛ ٦٧٣

| | |
|--|---------------------------------------|
| بنو حفصون ؛ ٣٢٠ | البريطانيون ؛ ١٠٩ |
| بنو حمدان ؛ ٤٤٧ | البشكنس ؛ ٨٣ ، ١٣٣ ، ١٤٦ ، ١٧٣ ، |
| بنو حمود ؛ ٦٧٣ ، ٦٥٤ ، ٦٧٤ ، ٦٧٦ ، ٦٨٣ | ، ١٧٨ ، ١٨٠ ، ١٨٢ ، ٢١٤ ، ٢١٨ ، |
| بنو خزر ؛ ٤٩٣ ، ٤٩٤ | ، ٢٢٠ ، ٢٢٦ ، ٢٣٥ ، ٢٤٢ ، ٢٥٦ ، |
| بنو خلدون ؛ ٣٣١ ، ٣٣٢ | ، ٢٦٠ ، ٢٦٦ ، ٢٦٦ ، ٣٥٤ ، ٣٥٥ ، |
| بنو دانس ؛ ٣٠٥ | ، ٣٥٧ ، ٣٦١ ، ٣٦٢ ، ٤٠٥ ، ٤٠٨ ، |
| بنو دمر ؛ ٦٥٤ | ، ٥٠١ ، ٥٣٩ ، ٥٤٧ ، ٥٤٨ ، ٥٩١ ، |
| بنو ذوالنون ؛ ٣٠٧ ، ٣٣٩ ، ٣٤٠ ، ٣٩٠ ، | البلديون ؛ ٦٧ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ٢٠٤ ، |
| ، ٣٩٨ ، ٤٠٠ ، ٤٣٦ | ٦٨١ ، وانظر المولدون |
| بنو رزين ؛ ٤٢٦ | البيزنطيون ؛ ٢٤٥ ، ٤٥٦ |
| بنو رستم ؛ ٣١٤ | بنو أبي ضبة ؛ ٢٠٥ ، ٣١٢ ، ٣٣١ ، ٣٣٢ ، |
| بنو زروال ؛ ٤٢٦ | ٣٤٧ ، ٥٧٤ |
| بنو شريط (بنو الطويل) ؛ ٣١٩ ، ٣٤٢ ، | بنو أسد ؛ ٦٨ |
| ٤٢٦ | بنو إسرائيل ، انظر اليهود |
| بنو شهيد ؛ ٢٠٥ ، ٣١٢ ، ٣١٨ ، ٥٧٤ ، ٦١٨ | بنو أمية ؛ ٦٩ ، ١٣٠ ، ١٣٦ ، ١٤٠ ، |
| بنو عامر ؛ ٦٣٠ ، ٦٣٢ ، ٦٣٤ ، ٦٣٩ ، | ، ١٤١ ، ١٤٣ ، ١٤٦ ، ١٤٨ ، ١٥١ ، |
| ٦٤٣ ، ٦٤٩ ، ٦٥١ ، ٦٦٠ ، ٦٨٣ | ، ١٥٣ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٧٠ ، ١٨٦ ، |
| بنو العباس ؛ ١٣٠ ، ١٤٦ ، ١٤٨ ، ١٥٠ ، | ١٨٩ ، ١٩٤ ، ١٩٦ ، ١٩٨ ، ٢٠٠ ، |
| ١٦٢ ، ١٨٥ ، ١٩٧ ، ٢٢٩ ، ٣١٤ ، | ٢٠٢ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٣٦ ، ٢٤٨ ، |
| ٣١٨ ، ٤٢٩ ، ٦٨٢ | ٢٧٥ ، ٢٨٢ ، ٢٨٩ ، ٢٩١ ، ٣٠٧ ، |
| بنو عصام ؛ ٤٢٥ | ٣١٠ ، ٣٢٢ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٣٤٤ ، |
| بنو عمروس ؛ ٣٠١ ، ٣١٩ | ٣٤٧ ، ٣٥٠ ، ٣٧٣ ، ٣٨٣ ، ٤٢٨ ، |
| بنو عمريل بن تيمالت ؛ ٤٩٩ | ٤٢٩ ، ٤٣٠ ، ٤٣٩ ، ٤٤٠ ، ٤٨٢ ، |
| بنو غزوال ؛ ٤٢٦ | ٤٩٢ ، ٤٩٣ ، ٤٩٤ ، ٤٩٦ ، ٥٠٥ ، |
| بنو غومس ؛ ٥٦٢ ، ٦١١ ، ٦١٢ ، ٦٣٦ | ٥٠٨ ، ٥٠٩ ، ٥٣١ ، ٥٤٤ ، ٥٥١ ، |
| بنو فطيس ؛ ٥٧٤ ، ٦١٨ | ٥٥٥ ، ٥٥٩ ، ٥٨٢ ، ٥٨٣ ، ٦٠٦ ، |
| بنو قسي ؛ ٢٣٨ ، ٢٥٦ ، ٣٠٠ ، ٣٠٢ ، | ٦١٣ ، ٦١٨ ، ٦١٩ ، ٦٢٥ ، ٦٢٨ ، |
| ٣١٤ ، ٣١٩ ، ٣٣٦ ، ٣٣٧ ، ٣٤٠ ، | ٦٣٣ ، ٦٤٣ ، ٦٤٥ ، ٦٤٦ ، ٦٥٧ ، |
| ٣٤١ ، ٣٤٣ ، ٣٤٦ ، ٣٥٧ ، ٣٥٩ ، | ٦٥٨ ، ٦٦٠ ، ٦٦١ ، ٦٦٤ ، ٦٦٦ ، |
| ٣٦٠ ، ٣٦٣ ، ٤٦٧ ، ٥٤٥ | ٦٦٨ ، ٦٦٩ ، ٦٨١ ، ٦٨٦ ، ٦٩١ ، |
| بنو كلاب ؛ ١٣٥ | بنو برزال ؛ ٥٠١ ، ٥١٨ ، ٥٢٦ ، ٦٥٤ ، |
| بنو كنانة ؛ ٦٨ | ٦٧٠ |
| بنو لحم ؛ انظر لحم | بنو بسيل ؛ ٢٠٥ |
| بنو مدرار ؛ ٣١٤ | بنو مجيب ؛ انظر بنو داهم |
| بنو مطروح ؛ ٣٢٠ | بنو جفنة ؛ ٦٨ |
| بنو مغيث ؛ ٢٠٥ | بنو الحلقي ؛ ٣٠٤ ، ٣٣٩ ، ٣٨٩ ، |
| بنو المنذر ؛ ٦٨ | بنو جهور ؛ ٢٠٥ ، ٥٧٤ |
| بنو هاشم التميميون ؛ ٣٤٠ ، ٣٤١ ، ٣٩٩ ، | بنو حجاج ؛ ٣٣١ ، ٣٣٣ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧ ، |
| ٤٠٥ ، ٤٠٦ ، ٤٠٨ ، ٤١٢ ، ٤٢٦ ، | بنو حدير ؛ ٥٧٤ ، ٦١٨ ، |
| ٥٤٩ ، ٥٥٠ | |

٣٥١ ، ٤٤٠ ، ٤٤٧ ، ٤٤٨ ، ٤٦٠ ،
٤٦٢ ، ٤٦٥ ، ٥١٩ ، ٥٧٥ ، ٦٣٨ ،
٦٥٩ ، ٦٦٠ ، ٦٨١ ، ٦٨٤ ، ٦٩١ ، ٦٩٥ ،
الدولة البيزنطية ؛ ٥٤ ، ٢٨٢ ، ٤٢٦ ،
٥٧٢ ، ٤٥٦

الدولة الرومانية الشرقية ؛ ١٤ ، ١٦ — ١٩ ،
٢٩ ، ٩٣

الدولة الرومانية الغربية ؛ ١٧ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٦ ،
الدولة العامرية ؛ ٤٤٠ ، ٥٧٩ ، ٦١٩ ، ٦٢٨ ،

٦٣٤ ، ٦٣٦ — ٦٣٨ ، ٦٤٣ ، ٦٥٠ ،
٦٥٧ ، ٦٧٦ ، ٦٨٣ ، ٦٨٥ ، ٦٩٠ ،

الدولة العباسية ؛ ١٤٦ ، ٢٣٤ ، ٢٨٢ ، ٤٢٩ ،
٤٥١ ، ٤٥٦ ، ٥٧٢ ،

الدولة الفاطمية ؛ ٤٢٦ ، ٤٥١ ، ٤٥٦ ،

دولة الفرس ؛ ٩٢

الذميون ؛ ٢٠٦

ربيعة ؛ ٦٨

الرقائق ؛ ٦٤ ، ٦٠٢ ، ٦٠٣ ، ٦٨٧ ،

الروم ؛ ١٥ ، ١٦ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٥ ،
٦٨ ، ١٠٧ ، ٤٥٣ ، ٤٥٤ — وانظر

الرومان .

الرومان ؛ ٥١ ، ٥٦ ، ٧٠ ، ٩٥٠ ، ١٧٧ ،
٣٨٣ ، ٦٨٩

زفانة ، قبيلة ؛ ٢٥ ، ١١٩ ، ١٥١ ، ٢٠٥ ،
٤٢٦ ، ٤٢٨ ، ٤٩٣ ، ٤٩٤ ، ٥٣١ ،

٥٣٨ ، ٥٤٥ ، ٥٤٦ ، ٥٥٧ ، ٥٥٨ ،

٦٠٩ ، ٦٣٦ ، ٦٦١

زويلة ، قبيلة ؛ ١٦

س — غ

السكسون ؛ ١١٦ ، ١٦٥ ، ١٧٠ ، ١٧٥ ،
١٨٣ ، ١٨٨

السوابيون ؛ ٢٩ ، ٩٤

الشاميون ؛ ١٢٠ ، ١٢٣ — ١٢٦ ، ١٥١ ،
٢٠٤ ، ٦٨١ ، ٦٨٧

الشيعة ؛ ١٤١ — ١٤٦ ، ٣٨٨ ، ٤٢٧ ، ٤٩٣ ،
٤٩٤ ، ٤٩٨ ، ٥٠٠ ، ٥٤٤ ، ٥٤٥

الصفورية ؛ ٦٩ ، ١١٨

الصمالية ؛ ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٤٩ ، ٢٧٩ ،

بنو يفرن ؛ ٥٤٥ — ٥٤٧ ، ٦٥٤

التابعون ؛ ٥٣ ، ١٠٦ ، ١٠٧

تبع ؛ ٦٨

النروبادور ؛ ٤٧٨

تميم ؛ ٦٨ ، ٥٧٧

ثقيف ؛ ٦٨

ج — ز

جدام ؛ ٦٨

جراوة ؛ ٢٢

الجرمان ؛ ٦٣ ، ١٧٣

الخلافة ؛ ٢١٠ ، ٢١٣ ، ٢٢١ ، ٢٢٦ ،

٢٢٨ ، ٢٤٢ ، ٢٥٩ ، ٣٥٤ ، ٤٠٩ ،

٤٥٠ ، ٥٠١ ، ٦٢٠ ، ٦٩٧

الحبشة (الأحباش) ؛ ٦٨

الحجازيون ؛ ٧١

الحرورية ؛ ١١٨

حير ؛ ٦٧ ، ٦٨ ، ٨٥ ، ١٤٢

خشم ؛ ٨٧

نخاعة ؛ ٦٨

الخزرج ؛ ٦٨

الخلافة (العامة) ؛ ١٨ ، ١٩ ، ٢١ ، ٢٣ ،

٥٩ ، ٦٠ ، ٧٢ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٨٢ ،

٩٣ ، ٩٦ ، ١٠٦ ، ١٠٩ ، ١١٢ ، ١١٧ ،

١١٩ ، ١٣٠ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٢ ،

١٩٦ ، ١٩٧ ، ٤٢٩ ، ٤٣٥ ، ٤٤٠ ،

٤٥٤ ، ٥٤٠ ، ٥٤٦ ، ٥٥٥ ، ٦١٧ ،

٦٢٢ ، ٦٢٥ ، ٦٢٧ ، ٦٣٤ ، ٦٥٠ ،

٦٥٨ ، ٦٦٩

الخلافة الأموية ؛ ١٢٨ ، ١٣٤ ، ١٤١ ،

١٤٢ ، ١٥٠ ، ١٥٥ ، ١٩٦ ، ٤٢٩ ،

٤٤٠ ، ٥١٦ ، ٥٢٤ ، ٥٤١ ، ٦٥٠ ،

٦٦٠ ، ٦٧٦ ، ٦٨٠ ، ٦٨٢ — ٦٨٤ ، ٦٩٠

الخلافة الأندلسية ؛ ٤١٢ ، ٤٤٢ ، ٤٥٢ ،

٤٨٢ ، ٤٩١ ، ٥١٥ ، ٥١٩

الخلافة العباسية ؛ ١٧٠ ، ١٩٧ ، ٢٣٣ ، ٢٣٤ ،

الخلافة الفاطمية ؛ ٤٢٩ ، ٤٩٤ ، ٦٨٢ ،

الخوارج ؛ ٦٩ ، ١١٧

الدولة الأموية ؛ ١٤٠ — ١٤٢ ، ١٤٦ ، ١٩٠ ،

١٩٣ ، ٢٠٤ ، ٢٢٤ ، ٢٨١ ، ٣٤٤ ،

فـ قـ كـ

الفاطميون ؛ ٤٠١ ، ٤٠٩ ، ٤٢٥ — ٤٢٧ ، ٤٨٨ ، ٤٩٢ ، ٥٤٤ ، ٥٤٦

الفتيان الصقالبة (والعامريون) ؛ ٣٤٨ ،

٤٣٩ ، ٦١٦ ، ٦١٨ ، ٦٣٧ ، ٦٤٣ ،

٦٤٤ ، ٦٤٧ ، ٦٤٩ ، ٦٥٠ ، ٦٥٤ ،

٦٥٨ ، ٦٦٢ ، ٦٧٧ ، ٦٨٣ ، ٦٨٥

الفرس ؛ ٦٨ ، ٧٠

الفروسية الأندلسية ؛ ٢٧٤

الفرنج ؛ ٢٩ ، ٥٣ ، ٦٣ ، ٧٦ —

٨٣ ، ٨٩ ، ٩٣ — ٩٦ ، ٩٨ —

١٠٤ ، ١٠٦ — ١٠٨ ، ١١٠ ، ١١٣ —

١١٦ ، ١٣٣ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٤٧ ،

١٥٥ ، ١٧٠ — ١٧٦ ، ١٧٨ ، ١٨٠ ،

١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٦ ، ٢٠٥ ، ٢٠٩ ،

٢١٢ ، ٢٢٦ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٣٥ ،

٢٣٦ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧ ،

٢٥٩ ، ٣٦١ ، ٤٠٤ ، ٤٠٦ ، ٤٦٤ ،

٤٦٥ ، ٥٤٣ ، ٦٤٨ ، ٦٨٧

الفرنسيون ؛ ٤٥٠ ، ٥٤٨

الفهرية ؛ ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٦٢ ، ١٨٦ ،

١٩٠ ، ١٩١

الفيكنج ؛ ٢٦١

القرامطة ؛ ٥٤٤

قريش ؛ ٦٨ ، ٦٢٦ ، ٦٢٨ ، ٦٣١ ، ٦٤٥

القشتاليون ؛ ٤٨٧ ، ٥٠٠ ، ٥٠١ ، ٥٢٧ ،

٥٦٥ ، ٥٩١ ، ٥٩٨

قضاة ؛ ١٦٨

القنوط ؛ ٢١ ، ٢٦ — ٢٩ ، ٣١ ، ٣٣ ،

٣٥ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٤ — ٤٧ ، ٤٩ ،

٥١ — ٥٣ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٧٠ ، ٧٥ ،

٧٨ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٩ ، ٩٤ ،

١١٦ ، ١٢٦ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٧ ،

١٧٣ ، ٢٠٩ ، ٢٢٦ ، ٢٣٧ — ٢٣٩ ،

٢٣٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦٨ ، ٢٩٥ ، ٣١٥ ،

٦٠١ ، ٦٠٢ ، ٦٨٩

القيسية ؛ ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٩٠

كتامة ؛ ٣٣٩ ، ٤٩٧

٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٣١٢ ، ٤١٣ ، ٤٤٨ ،

٤٥٠ ، ٤٥١ ، ٤٥٦ ، ٤٥٨ ، ٤٦١ ،

٤٨٣ ، ٤٩٨ ، ٥١٤ ، ٥١٧ ، ٥١٨ ،

٥٢٤ ، ٥٢٦ ، ٥٢٧ ، ٥٣١ ، ٥٣٦ ،

٥٥٦ ، ٥٦٩ ، ٥٧٩ ، ٥٨٤ ، ٦١٨ ،

٦٢٢ ، ٦٣٠ ، ٦٣٢ ، ٦٤٣ ، ٦٨٤ ، ٦٨٥

الصليبيون ؛ ٤٧٩

صنهاجة ؛ ٢٥ ، ٤٩٣ ، ٤٩٤ ، ٥٣١ ،

٥٥٧ ، ٥٥٨ ، ٦٤٤ ، ٦٥٤ ، ٦٦٠ ،

٦٦٢ ، ٦٧١

الطوائف ، ملوك ودول ؛ ٢٠٥ ، ٢٨١ ،

٣٠٧ ، ٣٤٠ ، ٤٧٥ ، ٥١٦ ، ٦٧٧ ،

٦٨٣ ، ٦٨٦ ، ٧٠٤

العبيديون ؛ أنظر الفاطميون

المعجم ؛ ٦٨

المراقبون ؛ ٧٠

المغرب ؛ ١٤ — ١٦ ، ٢٠ — ٢٢ ، ٢٥ — ٢٧ ،

٣٣ — ٣٨ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٧ — ٤٩ ،

٥٢ — ٥٤ ، ٦٠ ، ٦٢ ، ٦٣ — ٦٩ ،

٧١ ، ٧٣ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٨١ ، ٨٧ ،

٨٨ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦ ،

٩٨ ، ٩٩ ، ١٠١ — ١٠٣ ، ١٠٥ ،

١٠٩ — ١١١ ، ١١٤ — ١١٩ ، ١٢١ —

١٢٣ ، ١٢٥ ، ١٣٣ ، ١٣٥ ، ١٤٢ ،

١٥٨ ، ١٦٤ ، ١٦٦ ، ١٧١ ، ١٧٢ ،

١٧٧ ، ١٨١ ، ١٩٤ ، ١٩٨ ، ٢٠٣ —

٢٠٦ ، ٢٠٨ ، ٢١٢ ، ٢٢٧ ، ٢٣٠ ،

٢٣٨ ، ٢٤٩ ، ٢٦٩ ، ٢٧١ ، ٢٩٢ ،

٣١٩ ، ٣٢٣ ، ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٣٣١ ،

٣٣٢ ، ٣٣٥ ، ٣٤٤ ، ٣٧٦ ، ٣٨٢ ،

٣٩١ ، ٤٢٩ ، ٤٤٨ ، ٤٥١ ، ٤٥٤ ،

٤٦٤ ، ٤٦٩ ، ٤٧٣ ، ٤٧٤ ، ٤٧٧ ،

٤٧٨ ، ٤٧٩ ، ٤٨٢ ، ٥٠٤ ، ٥٠٧ ،

٥٠٨ ، ٥٣١ ، ٦٦٠ ، ٦٨٤ ، ٦٨٦ ،

٦٨٧ ، ٦٩٦

الغاليون ؛ ٩٥ ، ١٠٩

غسان ؛ ٦٨

الغسقونيون ؛ ٢٦٦

غطفان ؛ ٦٨

غبارة ، قبيلة ؛ ٤٩٦ ، ٥٥٧

١٢٨ ، ١٣٠ ، ١٣٥ ، ١٤٤ ، ١٥٣ ،
 ١٥٧ ، ٢٠٤ ، ٢٢٥ ، ٢٥٥ ، ٢٦٠ ،
 ٦٨١ ، ٦٣١
 المعتزلة ؛ ٤٣١
 مغراوة ، قبيلة ؛ ٥٤٥ — ٥٤٧ ، ٥٥٨ ،
 ٦٥٤ ، ٦٠٩
 مكناسة ، قبيلة ؛ ٢٠٥
 ملكة أراجون ؛ ٢٣٦ ، ٥٤٤
 ملكة آزل ؛ ٤٦٨
 المملكة الإسبانية النصرانية ؛ ٨٣ ، ٥٥ ، ٢٠٨ ،
 ٢٠٩ ، ٢١٣ — ٢١٥ ، ٢٢٠ — ٢٢٢ ،
 ٢٣٦ ، ٢٦١ ، ٣٥٣ — ٣٥٨ ، ٣٦٠ —
 ٤٦٥ ، ٣٦٢
 ملكة أشتوريش ؛ ٣٦١
 ملكة أكرتين ؛ ٢٠٩
 ملكة جليلة ؛ ١٧٣ ، ٢٠٩ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ،
 ٢١٨ ، ٣١١ ، ٣٥٤ ، ٣٥٧ ، ٣٨٨
 ملكة غرناطة البربرية ؛ ٢٠٦
 ملكة الفرنج ؛ ٥٣ ، ٥٤ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٨٠ ،
 ٨١ ، ٩٣ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ١٧١ ، ١٨٣ ، ٢٠٩ ،
 ٢٣٤ ، ٣٦١ ، ٤٥١ ، ٤٦٥ ، ٦٨٠ ،
 المملكة القوطية ؛ ٣٠ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٧٢ ،
 ٧٤ ، ٢٠٨ ،
 ملكة ليون ؛ ٢٦١ ، ٢٨٥ ، ٣٠٣ ، ٣٦١ ،
 ٣٦٢ ، ٣٩١ ، ٣٩٤ ، ٣٩٥ ، ٤١٣ ،
 ٤٨٤ ، ٤٨٩ ، ٥٢٩ ، ٥٤١ ، ٥٤٣ ،
 ٥٤٨ ، ٥٨٨ ، ٥٩٠ ، ٥٩٢ ، ٥٩٣ ،
 ٥٩٤ ، ٥٩٦ ، ٥٩٨ ، ٦١١ ، ٦١٢ ،
 ٦٢٩ ،
 ملكة نافار (نبره) ؛ ٣٦٢ ، ٣٦٣ ، ٣٩١ ،
 ٥٩٩ ، ٦٠٠ ،
 الموال ؛ ١٢١ ، ١٩٨ ، ٢٠٥ ، ٢٠٤ ،
 ٢٤٩ ، ٢٧٩ ، ٣٢٨ ، ٤٤٨ ، ٤٥٠ ،
 ٤٦١ ، ٥١٤ ، ٦٨٤ ، ٦٨٧ ،
 المولدون ؛ ٦٧ ، ٢٠٣ ، ٢٠٦ ، ٢٣٠ ،
 ٢٣٩ ، ٢٤٣ ، ٢٦٠ ، ٢٦٩ ، ٢٩٢ ،
 ٢٩٤ ، ٣٠٠ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٨ ،
 ٣١٩ ، ٣٢٣ ، ٣٢٨ — ٣٣٠ ، ٣٣٢ ،
 ٣٣٥ ، ٣٤٢ ، ٣٥٦ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧ ،

الكرسى الرسولى ؛ ٣٥٩
 الكلاميون ؛ ٤٣١

ل — ي

لحم ؛ ٢٣ ، ٢٧ ، ١٢٣ ، ٣٣١
 اللومبارد ؛ ١١٦ ، ١٧٣ ، ٤٥٠
 الحجر ؛ ٤٧٩ ، ٤٧١
 المحجوس ؛ انظر النورمان
 مدغرة ، قبيلة ؛ ٢٠٥
 مديونة ، قبيلة ؛ ٢٠٥
 المروانية ؛ انظر بنو أمية
 المستعربون ؛ انظر النصارى المعاهدون
 المسلمون ؛ ١٦ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٣٩ ، ٤٢ ،
 ٤٧ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٤ ، ٦٢ ،
 ٦٦ ، ٦٧ ، ٧١ — ٧٥ ، ٨٠ — ٨٣ ،
 ٨٦ ، ٨٩ ، ٩٦ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٣ —
 ١٠٨ ، ١١٤ — ١١٦ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ،
 ١٣٦ ، ١٣٨ ، ١٧٠ ، ١٧٣ ، ١٧٦ —
 ١٧٨ ، ١٨٠ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ٢٠٥ ،
 ٢١٠ — ٢١٦ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢١ ،
 ٢٢٧ ، ٢٢٩ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٤٠ —
 ٢٤٢ ، ٢٤٥ ، ٢٦٠ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ،
 ٢٦٦ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٩٢ ، ٢٩٦ ،
 ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٤٤ ،
 ٣٥٣ — ٣٥٤ ، ٣٥٧ ، ٣٥٩ ، ٣٦١ —
 ٣٦٣ ، ٣٨٣ ، ٣٨٨ ، ٣٩١ — ٤٠١ ،
 ٤٠٣ — ٤٠٦ ، ٤١٢ ، ٤١٤ ، ٤١٦ ،
 ٤١٧ ، ٤١٩ ، ٤٢٠ ، ٤٢٢ ، ٤٢٣ ،
 ٤٦٥ ، ٤٦٨ — ٤٧٤ ، ٤٧٧ ، ٤٧٨ ،
 ٤٨٤ ، ٤٨٦ — ٤٩٠ ، ٤٩٨ ، ٥٠٢ ،
 ٥١٥ ، ٥٢٧ ، ٥٣٩ ، ٥٤٣ ، ٥٤٤ ،
 ٥٤٧ ، ٥٤٨ ، ٥٥٢ ، ٥٦٠ — ٥٦٦ ،
 ٥٦٨ ، ٥٧١ ، ٥٩٠ ، ٥٩٦ ، ٥٩٨ ،
 ٥٩٩ ، ٦١٠ ، ٦١٢ ، ٦١٣ ، ٦١٦ ،
 ٦٢٩ ، ٦٤٨ ، ٦٥١ ، ٦٥٢ ، ٦٨٩ ،
 المصريون ؛ ٧٦
 مسودة ؛ ٣٥٧ ، ٣٧٦ ، ٣٠٥ ، ٣٣٩ ،
 ٣٩٣
 مصر ، المصرية ؛ ٦٨ ، ٨٥ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ،

| | |
|--|--------------------------------|
| ٤ ٦٨٢ ٤ ٥٧٠ ٤ ٥١٥ ٤ ٣٨٣ ٤ ٣٨٢ | ٤ ٥١٤ ٤ ٤٨٢ ٤ ٤٥٨ ٤ ٣٨٩ ٤ ٣٨٢ |
| ٦٩٥ ٤ ٦٨٨ | ٥١٥ |
| ٤ ٤٤ ٤ ٣٢ ٤ ٣١ ٤ ٢٨ ٤ ١٧ ٤ ١٧٣ ٤ ١٧٦ ٤ ٥٩٣ | النصارى |
| ٤ ١٠٦ ٤ ١٠١ ٤ ٩٦ ٤ ٩٣ ٤ ٩٢ ٤ ٦٤ | ٤ ٥٤ ٤ ٥١ ٤ ٥٠ ٤ ٣٦ ٤ ٢٥ |
| ٤ ١٧١ ٤ ١٦٩ ٤ ١٣٧ ٤ ١١١ ٤ ١١٠ | ٤ ١٠٥ ٤ ٨٩ ٤ ٨٥ ٤ ٨١ ٤ ٦٦ ٤ ٦٢ |
| ٤ ٣٠٥ ٤ ٢٦٧ ٤ ٢٣٤ ٤ ٢٢١ ٤ ٢٠٦ | ٤ ١٣٦ ٤ ١٣٥ ٤ ١٣٣ ٤ ١٣٢ ٤ ١١٩ |
| ٤ ٤٥٩ — ٤٥٧ ٤ ٤٥٢ ٤ ٣٨١ ٤ ٣٣٧ | ٤ ٢٢١ ٤ ٢١٦ — ٢١١ ٤ ١٩٨ ٤ ١٨٧ |
| ٤٧٤ | ٤ ٢٤٢ ٤ ٢٣٤ ٤ ٢٢٩ ٤ ٢٢٨ ٤ ٢٢٦ |
| ٢٧٦ ٤ ٢٠٥ ٤ ١٥٠ ٤ ١٥٠ ٤ ٢٧٦ | — ٢٧٠ ٤ ٢٦٩ ٤ ٢٦٧ ٤ ٢٥٩ ٤ ٢٤٩ |
| ٤ ٢٧٧ ٤ ٢٦٤ ٤ ٢٦٣ ٤ ٢٦١ ٤ ٢٧٣ | ٤ ٢٩٦ ٤ ٢٩٤ — ٢٩٢ ٤ ٢٨٨ ٤ ٢٧٣ |
| ٤ ٢٩٨ — ٢٩٦ ٤ ٢٨٨ ٤ ٢٨٤ ٤ ٢٧٩ | ٤ ٣٠٦ ٤ ٣٠٥ ٤ ٣٠٣ ٤ ٢٩٩ ٤ ٢٩٨ |
| ٤ ٤٨٩ ٤ ٤٨٨ ٤ ٤٧٩ ٤ ٣٥٦ ٤ ٣٥٥ | ٤ ٣٤٢ ٤ ٣٣٠ ٤ ٣٢٨ ٤ ٣١٦ ٤ ٣١٠ |
| ٦٨٧ ٤ ٥٩٥ | ٤ ٣٥٧ ٤ ٣٥٦ ٤ ٣٥٤ ٤ ٣٤٦ ٤ ٣٤٤ |
| ٣٣٩ ٤ ٢٠٥ ٤ ٢٠٥ ٤ ٣٣٩ | — ٣٩١ ٤ ٣٨٤ — ٣٨٢ ٤ ٣٧٩ ٤ ٣٥٩ |
| ٣٢٩ ٤ ٢٠٥ ٤ ٢٠٥ ٤ ٣٢٩ | ٤ ٤١٢ ٤ ٤٠٧ — ٤٠٥ ٤ ٤٠٣ ٤ ٤٠٠ |
| ٢٨ ٤ ٢٨ ٤ ٢٨ ٤ ٢٨ ٤ ٢٨ | ٤ ٤٢٥ — ٤٢٠ ٤ ٤١٧ ٤ ٤١٥ ٤ ٤١٤ |
| ١٧ ٤ ١٧ ٤ ١٧ ٤ ١٧ ٤ ١٧ | ٤ ٤٨٢ ٤ ٤٧٩ ٤ ٤٧٨ ٤ ٤٧٤ ٤ ٤٦٨ |
| ١٧ ٤ ١٧ ٤ ١٧ ٤ ١٧ ٤ ١٧ | — ٥٠٠ ٤ ٤٩٨ ٤ ٤٩٠ ٤ ٤٨٧ ٤ ٤٨٤ |
| ١٧ ٤ ١٧ ٤ ١٧ ٤ ١٧ ٤ ١٧ | ٤ ٥٤٠ ٤ ٥٣٩ ٤ ٥٢٨ ٤ ٥٠٦ ٤ ٥٠٢ |
| ١٧ ٤ ١٧ ٤ ١٧ ٤ ١٧ ٤ ١٧ | ٤ ٥٦٠ ٤ ٥٤٩ ٤ ٥٤٧ ٤ ٥٤٤ ٤ ٥٤١ |
| ١٧ ٤ ١٧ ٤ ١٧ ٤ ١٧ ٤ ١٧ | ٤ ٥٧٣ ٤ ٥٦٨ ٤ ٥٦٧ ٤ ٥٦٥ — ٥٦٣ |
| ١٧ ٤ ١٧ ٤ ١٧ ٤ ١٧ ٤ ١٧ | ٤ ٦١٦ ٤ ٦١٣ ٤ ٥٩٨ ٤ ٥٩٤ ٤ ٥٨٩ |
| ١٧ ٤ ١٧ ٤ ١٧ ٤ ١٧ ٤ ١٧ | ٦٩٧ ٤ ٦٨٩ ٤ ٦٨٢ ٤ ٦٥١ ٤ ٦٤٩ |
| ١٧ ٤ ١٧ ٤ ١٧ ٤ ١٧ ٤ ١٧ | ٢٤١ ٤ ٢٣٩ ٤ ١٩٩ ٤ ١٩٨ ٤ ١٩٨ |
| ١٧ ٤ ١٧ ٤ ١٧ ٤ ١٧ ٤ ١٧ | ٦٨٧ ٤ ٦٨٠ ٤ ٢٩٥ ٤ ٢٦١ |
| ١٧ ٤ ١٧ ٤ ١٧ ٤ ١٧ ٤ ١٧ | ٢٠٦ ٤ ١٩٨ ٤ ٦٦ ٤ ٦٦ ٤ ٢٠٦ |
| ١٧ ٤ ١٧ ٤ ١٧ ٤ ١٧ ٤ ١٧ | ٢٩٥ ٤ ٢٧٠ — ٢٦٨ ٤ ٢٣٩ ٤ ٢٣٨ |

٤ ٧٩ ٤ ٧٤ ٤ ٧١ — ٥٥ ٤ ٥٢ — ٤٩
 ٤ ٨٦ ٤ ٨٤ — ٨١ ٤ ٧٥ — ٧٣ ٤ ٧٠
 ٤ ١١٢ ٤ ١٠٩ — ١٠٦ ٤ ٩٨ ٤ ٨٧
 ٤ ١٢٥ — ١٢٢ ٤ ١١٧ ٤ ١١٦ ٤ ١١٣
 ٤ ١٤٠ ٤ ١٣٨ — ١٣٤ ٤ ١٣٠ — ١٢٧
 ٤ ١٥٣ — ١٥٠ ٤ ١٤٨ ٤ ١٤٧ ٤ ١٤٢
 ٤ ١٦٢ ٤ ١٥٩ ٤ ١٥٦ ٤ ١٥٥
 — ١٨٣ ٤ ١٧١ ٤ ١٧٠ ٤ ١٦٦ ٤ ١٦٣
 — ١٩٩ ٤ ١٩٧ ٤ ١٩٦ ٤ ١٩٢ ٤ ١٨٥
 — ٢١٢ ٤ ٢٠٨ ٤ ٢٠٥ ٤ ٢٠٤ ٤ ٢٠١
 ٤ ٢٣٤ — ٢٢٨ ٤ ٢٢٦ ٤ ٢٢٤ ٤ ٢١٤
 ٤ ٢٥٢ ٤ ٢٤٩ ٤ ٢٤٨ ٤ ٢٤١ ٤ ٢٣٦
 ٤ ٢٨١ ٤ ٢٧٩ ٤ ٢٦٥ — ٢٦١ ٤ ٢٥٧
 ٤ ٢٩١ ٤ ٢٩٠ ٤ ٢٨٨ ٤ ٢٨٥ ٤ ٢٨٤
 ٤ ٣٠٧ ٤ ٣٠٣ ٤ ٣٠٢ ٤ ٢٩٧ ٤ ٢٩٦
 ٤ ٣١٨ ٤ ٣١٦ ٤ ٣١٥ ٤ ٣١٢ — ٣٠٩
 ٤ ٣٣٨ ٤ ٣٣٧ ٤ ٣٢٨ ٤ ٣٢٣ — ٣٢١
 ٤ ٣٥٩ — ٣٥٤ ٤ ٣٤٩ ٤ ٣٤٦ ٤ ٣٤٤
 ٤ ٣٨٠ — ٣٧٨ ٤ ٣٧٥ ٤ ٣٧٣ ٤ ٣٦٢
 ٤ ٤٠٤ ٤ ٣٩٨ ٤ ٣٩٢ ٤ ٣٩١ ٤ ٣٨٢
 ٤ ٤٣١ — ٤٢٧ ٤ ٤٢٥ ٤ ٤٢٢ ٤ ٤٢٠
 ٤ ٤٤٨ — ٤٤٦ ٤ ٤٤٢ ٤ ٤٤٠ ٤ ٤٣٥
 ٤ ٤٥٨ ٤ ٤٥٦ ٤ ٤٥٤ ٤ ٤٥٢ ٤ ٤٥١
 ٤ ٤٧٤ ٤ ٤٦٧ ٤ ٤٦٥ ٤ ٤٦٤ ٤ ٤٦٠
 ٤ ٤٩٣ ٤ ٤٩٢ ٤ ٤٨٩ ٤ ٤٨٨ ٤ ٤٨٢
 ٤ ٥٠٩ ٤ ٥٠٦ — ٥٠١ ٤ ٤٩٩ — ٤٩٧
 ٤ ٥٤٠ ٤ ٥٣٨ ٤ ٥٣٨ ٤ ٥٣١ ٤ ٥١٢
 ٤ ٥٤٩ ٤ ٥٤٧ ٤ ٥٤٦ ٤ ٥٤٥ ٤ ٥٤٣
 — ٥٦٨ ٤ ٥٦٤ ٤ ٥٦٣ ٤ ٥٥٩ — ٥٥٤
 ٤ ٥٨٨ ٤ ٥٨٤ ٤ ٥٧٩ ٤ ٥٧٦ ٤ ٥٧٤
 ٤ ٦١٨ ٤ ٦١٥ ٤ ٦٠٩ ٤ ٦٠٨ ٤ ٥٨٩
 ٤ ٦٣٠ ٤ ٦٢٨ ٤ ٦٢٥ ٤ ٦٢٣ ٤ ٦٢٢
 ٤ ٦٥١ ٤ ٦٥٠ ٤ ٦٤٣ ٤ ٦٣٩ ٤ ٦٣٨
 ٤ ٦٧٠ ٤ ٦٦٠ ٤ ٦٥٨ ٤ ٦٥٧ ٤ ٦٥٤
 — ٦٨٦ ٤ ٦٨٤ — ٦٨٠ ٤ ٦٧٧ ٤ ٦٧٦
 ٧٠٤ ٤ ٧٠١ ٤ ٦٩٩ ٤ ٦٩٦ — ٦٩١ ٤ ٦٨٩

أنة ٥٥

أنيسون ١٠٥

٤ ٢٣١ ٤ ٢٠٠ ٤ ١٨٥ ٤ ١٥٠ ٤ ١٤٢
 ٤ ٣٩٥ ٤ ٣١٨ ٤ ٣١٥ ٤ ٣١٤ ٤ ٢٤١
 ٤ ٤٧٨ ٤ ٤٧٤ ٤ ٤٥٩ ٤ ٤٢٨ — ٤٢٥
 ٤ ٥٤٥ ٤ ٥٤٤ ٤ ٤٩٤ — ٤٩٢ ٤ ٤٧٩
 ٦٩٤ ٤ ٦٨١ ٤ ٦٨٠ ٤ ٦١٨ ٤ ٥٦٤

أفنيون ١١٦ ٤ ١١٥

إقريطش ٤٧٦ ٤ ٢٨٢ ٤ ٢٤٢

إفليش ٣٤٠

أكشونية ٣٣٩ ٤ ٣٠٦ ٤ ٢٥٧ ٤ ١٢٦

٦٩٠ ٤ ٣٩٣ ٤ ٣٩٠

أكسفورد ٩١

أكوتين ٨٨ ٤ ٨٦ ٤ ٨١ — ٧٩ ٤ ٧٦

٤ ١١٥ ٤ ١١٣ ٤ ٩٨ — ٩٥ ٤ ٩٤ ٤ ٩٠

٤ ٢٢٧ ٤ ٢٠٩ ٤ ١٧٣ ٤ ١٣٧ ٤ ١٣٣

٤٧٦

آكي ٤٦٩

آلانديجا ٤ انظر الخندق ٤ وموقعة الخندق

آلبة والقلاع ٢٣١ ٤ ٢٢٦ ٤ ٢١٩ ٤ ٢١٦

٤ ٢٩٤ ٤ ٢٥٩ ٤ ٢٥٦ ٤ ٢٥٥ ٤ ٢٤١

— ٣٥٦ ٤ ٣٥٤ ٤ ٣٠٣ ٤ ٢٩٩ ٤ ٢٩٨

٤ ٤٠٩ ٤ ٤٠٨ ٤ ٤٠٣ ٤ ٣٩٦ ٤ ٣٥٩

٤٨٧ ٤ ٤١٧ ٤ ٤١٢ ٤ ٤١١

آلبونت ٦٦٨ ٤ ٦٦١ ٤ ٦٦٠

آلبيرة ٤ وكورة ٤ ١٣٢ ٤ ١٢٦ ٤ ٧٠ ٤ ٥٠

٤ ١٥٨ ٤ ١٥٦ ٤ ١٥٣ — ١٥١ ٤ ١٣٦

٤ ٣٢٨ ٤ ٣٢٣ ٤ ٣١١ ٤ ١٩٤ ٤ ١٨٦

٤ ٣٧٥ ٤ ٣٣٨ ٤ ٣٣٦ ٤ ٣٣٥ ٤ ٣٢٩

٦٩٦ ٤ ٦٩٢ ٤ ٦٥٤ ٤ ٥٤٣ ٤ ٥٠٢ ٤ ٣٧٦

آلحامة ٣٧٩ ٤ ٣٢٩ ٤ ٣١٠ ٤ ٣٠٩

آلفونت ٦٧١

آلمانيا ٤ ٤٥٦ ٤ ٢٨٤ ٤ ٢٦١ ٤ ٩٤ ٤ ٧٨

٤٥٨

آلمرية ٤ ٤٤٦ ٤ ٤٣٧ ٤ ٤٢٧ ٤ ٤٢٦

٤ ٦٥٨ ٤ ٦٥٣ ٤ ٤٩٩ ٤ ٤٨٩ ٤ ٤٨٨

٤ ٦٧٦ ٤ ٦٧٥ ٤ ٦٧١ ٤ ٦٦٢ ٤ ٦٦١

٧٠٤ ٤ ٦٩٠ ٤ ٦٨٨

آنتيب ٤٧٤

آنتيسة وحصن ٤٨٦ ٤ ٤١٧ ٤ ٣٩٨ ٤ ٣٩٥

٥٣٨

الأندلس ٤ ٤٨ ٤ ٤٦ ٤ ٤١ — ٣٨ ٤ ١٧

| | |
|----------------------------------|-----------------------------------|
| باب قرطبة ٣٨٥ | أوييدو ٢١٨ ، ٣٠٣ ، ٣٠٦ ، ٣٥٤ |
| باب القنطرة ٤٤٨ | ٣٥٥ ، ٣٥٨ ، ٣٥٩ ، ٥٩١ |
| باب الملك ٤٤٨ | أوتون ٨٢ ، ٨٤ |
| باب النخيل ٤٤٥ ، ٢٧٩ | أوربا ٢٨ ، ٥٣ ، ٥٩ ، ٦٤ ، ٩٣ |
| باب اليهود ٤٤٨ | ١١٠ ، ٢٦٦ ، ٤٢٠ ، ٤٥٢ ، ٤٧٢ |
| واجة ٧٠ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٣١ ، ١٣٢ | ٤٧٩ |
| ١٣٤ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٥ ، ١٦٦ | أوريولة ٥٠ ، ٥٥ ، ١٣٢ ، ٢٠٤ ، ٢٩٧ |
| ١٨٦ ، ٢٠٩ ، ٢٤٢ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ | أوزوند ٢٣٥ |
| ٢٦٣ ، ٢٩٦ ، ٣٠٦ ، ٣٢٣ ، ٣٣٠ | أوستراسيا ٧٩ ، ٩٦ ، ١٠٢ |
| ٣٣٥ ، ٣٣٩ ، ٣٨٩ ، ٣٩٠ ، ٣٩٢ | أوستريا ٨٠ |
| ٣٩٣ | أوسمة ، وادي ٣٩٦ ، ٤٠١ ، ٤٠٣ |
| بادربورن ١٦٩ ، ١٧٤ | ٥٥٠ ، ٥٧٣ ، ٦٥١ |
| باري ٤٧٦ | أوسيز ١١٥ |
| باريس ٧٨ ، ٩٠ | إنج مورت ٤٦٨ |
| بازو ٣٥٨ ، ٥٦٠ ، ٥٩٦ ، ٥٩٧ | إيريا ٢٢٠ ، ٥٦٠ |
| باطقة ١٣٢ | إيطاليا ٢٨ ، ٥٣ ، ٧٨ ، ٩٤ ، ١١٠ |
| باغة ٣١١ ، ٣٢٠ ، ٣٣٠ ، ٣٣٧ ، ٦٩٠ | ٢٦٦ ، ٤٢٧ ، ٤٥٨ ، ٤٦٦ ، ٤٦٨ — |
| باقاريا ٧٨ ، ٨٠ | ٤٧٠ ، ٤٧٣ ، ٤٧٦ — ٤٧٩ |
| بالش ٤٠٤ | إيكس ٤٦٨ |
| ببشتر ٣٠٩ ، ٣٢٠ — ٣٢٥ ، ٣٣٦ | إيكسلا شابل ٢٣١ |
| ٣٣٨ ، ٣٨٠ ، ٣٨٣ — ٣٨٨ | |
| بجاية ٤٩٤ | |
| بحر الزقاق ٤٢٧ ، ٤٩٢ | |
| البحيرة ٢٩٧ | |
| بحيرة جنيف ٤٦٩ | |
| بحيرة خندة ٤٢ ، ٤٤ | |
| بحيرة كونستانس ٤٧٢ | |
| البراجلة ٣٢٨ | |
| براقيا ٢١٩ | |
| بربشتر ٣٤٢ ، ٦١٢ | |
| البرتغال (وبرتغال) ٤٥ ، ٧٠ ، ٧١ | |
| ٢١٥ ، ٣٠٤ ، ٤٨٨ ، ٥٤٧ ، ٥٥٩ | |
| ٥٦٠ ، ٥٦٤ ، ٥٩٦ | |
| برجة ٢٦٥ | |
| برجونية ٧٨ ، ٨٢ ، ٨٤ ، ٩٠ ، ٩٤ | |
| ٩٦ ، ١١٠ ، ١١٥ ، ٤٦٩ — ٤٧١ | |
| ٤٧٣ | |
| بردال ، انظر يوردو | |
| بردوليا ٣٥٦ ، ٣٥٥ | |
| برشلهنة ٥٣ ، ٧٠ ، ١٣٣ ، ١٦٨ | |
| | باب الجنان ٤٤٨ ، ٤٨٥ |
| | باب الجوند ٤٤٨ |
| | باب الاهرة : ٥٤٠ |
| | باب السباط ٤٤٨ |
| | باب السدة ٣٧٥ ، ٣٨٥ ، ٣٨٦ ، ٤١٦ |
| | ٤٤٨ ، ٤٨٣ ، ٤٨٥ ، ٤٩٨ ، ٥٢٦ |
| | ٦٣٧ |
| | باب شيزروا (الشري) ١٧٧ ، ١٧٨ |
| | ٢٢٧ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٥٦ |
| | باب الشري ، موقمة ١٨٣ ، ١٨٦ |
| | ١٨٧ ، ٢٥٦ |
| | باب الصناعة ٤٤٨ |
| | باب طليطلة ٤٤٨ |
| | باب عامر ٤٤٨ |
| | باب عبد الجبار ٤٤٨ |
| | باب العدل ٤٤٨ |
| | باب العطارين ٤٤٨ |

| | |
|---------------------------------------|---|
| بلتيرة ؛ ٣٩٥ | ١٦٩ ، ١٧٤ ، ١٨٦ ، ٢٢٦ ، ٢٣٥ ، |
| بلد الوليد ؛ ٧٠ | ٢٣٦ ، ٢٤١ ، ٢٥٧ ، ٢٦٥ ، ٢٩٤ ، |
| البلدة ، موقعة ؛ ٣٦٢ | ٣٤٣ ، ٤٠٤ ، ٤٠٦ ، ٤١١ ، ٤٢٣ ، |
| البلقان ؛ ٢٧ | ٤٦٥ ، ٥٤٣ ، ٥٤٤ ، ٥٤٨ ، ٦١٠ ، |
| بلنتلة ؛ ٥٥ | برغش ؛ ٣٦٠ ، ٣٦١ ، ٤٠٣ ، ٤٨٤ ، |
| بلنسية ، وكورة ؛ ٥٥ ، ٧٠ ، ١٣٣ ، | ٥٦٣ ، ٥٧٣ ، ٥٩١ ، ٥٩٣ ، ٦٠٠ ، |
| ٢٠٤ ، ٢٣٣ ، ٣٧٩ ، ٣٩٠ ، ٣٩٩ ، | البرنيه ؛ انظر جبال البرنيه |
| ٧٠٤ ، ٦٦٠ | بروقانس ؛ ١١٥ ، ١٦٦ ، ٢٦٦ ، ٢٩٧ ، |
| بله نوبه ؛ ١٥٤ | ٤٦٦ — ٤٦٨ ، ٤٧٠ — ٤٧٤ ، ٤٧٧ ، |
| البليار ؛ انظر الجزائر الشرقية | ٤٧٨ |
| بليارش ؛ ٣٤٣ ، ٣٤٢ | بريتانيا ؛ ١٧٣ ، ١٧٥ ، |
| بنبلونة ؛ ٩٠ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٦ — | بريجور ؛ ٩٩ |
| ١٧٨ ، ١٨٠ ، ١٨٧ ، ٢٥٦ ، ٢٦٠ ، | بزيبه ؛ ٧٠ ، ٧٤ ، ١١٥ ، ١٣٣ ، |
| ٢٦١ ، ٢٦٤ ، ٢٦٦ ، ٢٨٩ ، ٢٩٧ ، | بسطة ؛ ٧٠ ، ٥٤٣ ، |
| ٢٩٨ ، ٣٠٢ ، ٣٤٢ ، ٣٥٥ ، ٣٥٧ ، | بسكرة ؛ ٤٩٤ |
| ٣٦١ ، ٣٦٢ ، ٣٩٠ ، ٣٩٧ ، ٣٩٨ ، | بسكونية ؛ انظر بلاد البشكنس |
| ٣٩٩ ، ٤٠٠ ، ٤٠٢ ، ٤٠٨ ، ٤١١ ، | البصرة (بالمراق) ؛ ٢٣ ، ٢٤ ، ٦٩٤ ، |
| ٤١٧ ، ٤٤٨ ، ٥٦٢ ، ٥٩٣ ، ٥٩٩ ، | البصرة (بالمغرب) ؛ ٤٢٦ ، ٤٩٤ ، ٤٩٦ ، |
| ٦٠٠ | ٤٩٧ |
| البحر الذهبي ؛ ٤٨٣ | بطليوس ؛ ٧١ ، ٢٥٧ ، ٣٠٣ — ٣٠٧ ، |
| بواتو ؛ ٩٩ | ٣٢٣ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٨٩ ، ٣٩٢ ، |
| بواتييه ؛ ٩٩ ، ١٠٢ ، ١٠٩ ، ١١١ ، | ٣٩٣ ، ٤٠٩ ، ٥٦٤ ، |
| بورتو ؛ ٥٦٠ | بغداد ؛ ١٧١ ، ٢٨١ ، ٤٣٥ ، ٤٣٧ ، ٥٠٥ ، |
| بورتيلادي آرناس ؛ ٥٤٢ | ٦٩٣ |
| بورديو ؛ ٩٠ ، ١٠٢ ، ١٠٤ ، ١١٤ ، ١٧٣ ، | بقسرة ؛ ٥٥ |
| بوسير ؛ ١٤٦ | بقيرة ؛ ١٨٧ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٣٩٨ ، ٣٩٩ ، |
| بولونيا ؛ ٩١ | بلاد البشكنس ؛ ٧٤ ، ١١٣ ، ١٣٣ ، ١٧٣ ، |
| بون ؛ ٨٤ | ١٧٤ ، ١٧٦ ، ١٨٧ ، ٢١٠ — ٢١٣ ، |
| بونتومو ، موقعة ؛ ٢١٦ | ٢١٦ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٢ ، ٢٣٠ ، |
| بياسة ؛ ٣٧٦ ، ٥٢٦ | ٢٥٦ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٣٥٤ — ٣٥٦ ، |
| البيت الحرام ؛ ١٤١ | بلاد الفرنج ؛ انظر فرنسا |
| بيت المقدس ؛ ٢٢٠ | بلاد اللوتبارد ؛ ٢٤٥ ، ٤٧٠ ، ٤٧١ ، |
| بيرانصون ؛ ٩٠ | ٤٧٣ ، ٤٧٥ ، |
| بيزنطية ؛ ٩٣ ، ٢٨٢ | بلاد المجوس ؛ ٢٨٤ |
| البيضاء ، موقعة ؛ ٢٦٧ | بلاط الشهداء ، موقعة ؛ ٥٩ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، |
| بيطارالته ؛ ٣٩٩ | ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١١١ — ١١٤ ، ٢١٢ ، |
| بييمون ؛ ٤٦٨ — ٤٧١ | ٤٦٤ ، ٤٧٧ ، ٦٨١ ، ٦٨٧ ، |
| تارنت ؛ ٤٧٦ | بلای ، موقعة ؛ ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٣٠ ، |
| تارانثير ؛ ٤٦٩ | ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٤٧ ، |

جليقية : ٢٩ ، ٥١ ، ٥٣ — ٥٥ ، ٧٠
٧٥ ، ٨٣ ، ٨٩ ، ١١٤ ، ١٢٣ ،
١٣٢ ، ١٣٦ ، ١٣٨ ، ٢٠٨ ، ٢١٠ —
٢١٣ ، ٢١٦ ، ٢١٩ — ٢٢١ ، ٢٢٨ ،
٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٥٥ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ ،
٢٦٥ ، ٢٩٦ ، ٣٠٤ ، ٣٤٥ ، ٣٥٤ —
٣٥٦ ، ٣٥٨ ، ٣٦٠ ، ٣٦٢ ، ٣٩٢ ،
٤٠٥ ، ٤١١ ، ٤١٢ ، ٥٤٢ ، ٥٤٨ ،
٥٥٩ — ٥٦١ ، ٥٦٤ ، ٥٨٩ ، ٥٩٧ ،

٦١٢

جليقية الغربية : ٢١٨ ، ٢١٩

جنوة : ٤٦٩

جورزني : ٤٥٦

جويان : ٩٩

جيان ، وكورة : ٧٠ ، ١٢٦ ، ١٣٢ ،

١٥٤ ، ١٥٧ ، ١٩٠ ، ٢٥٣ ، ٢٩٢ ،

٣١١ ، ٣١٨ ، ٣٢٠ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤ ،

٣٣٠ ، ٣٣٨ ، ٣٤٠ ، ٣٧٥ ، ٣٧٧ ،

٦٥٤ ، ٦٦٠ — ٦٦٢ ، ٦٧٣

جيرلدة (جيرونه) : ١٣٣ ، ١٧٤ ، ٢٢٧ ،

٢٣١ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٥٧ ، ٢٦٥ ،

٤٢٢

جيرونه ، مقاطعة : ١٠٢

الجيزة : ١٤٦

الحجاز : ٢٣ ، ٥٨ ، ٦٨ ، ٤٢٩ ، ٦٩٣

الحرّة ، موقعة : ١٢٣

الحرمين : ١٩٧ ، ٤٢٩

حصن الأجم : ١٩

حصن أرنيط : ٣٩٧

حصن أشرس : ٣٢٠

حصن أشكر : ٤١٥

حصن أشكفيرش : ٤٠٣

حصن أطلّة : ٤١٥

حصن أنتيسة : ١٤٧

حصن أندة : ٢٩٢

حصن أنة : ٤٠٣

حصن أوريولة : ٣٧٩

حصن إيلاس : ٣٤٢

حصن يالحش : ٣٩٩

حصن ييشتر : ٦٧٤

جبال كافنديش : ٢١٦

جبال المعد : ٢٠٥

جبال مونشيس : ٦١٠

جبال وادي الحجارة : ١٣٢

جبال وادي الرملة : ٤٨٦

جبل الأخوين : ٢٩١

جبل أشيروغرة : ٣٠٧

جبل أوراس : ١٧ ، ٢٢

جبل بيشتر : ٣٠٧ — ٣٠٩ ، ٣٨٥

جبل الشارات : ٥١ ، ٣٥٩ ، ٦٩٠

جبل شمتان : ٣٣٠

جبل طارق والنضيق : ٤١ ، ٤٩١ ، ٥٢١ ،

٦٥٨ ، ٦٧٦

جبل العروس : ٣٧

جبل قرطبة : ١٣٢ ، ٦٣١ ، ٦٩٠

جبل قنتش : ٦٤٦

جراوة : ٤٢٦

جربيره : ٤١٦ ، ٥٦٢ ، ٥٦٣

جرمانيا : ١١٠

جريزون : ٤٦٩

جريزيقودان : ٤٧٠ ، ٤٧٣

جوينوبيل : ٤٧٠ ، ٤٧٣

الجزائر الشرقية : ٢٥ ، ٣٩ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ،

٢٩٧ ، ٣٤٦ ، ٤٢٢ ، ٤٦٥ ، ٤٦٦ ،

٤٧٥ ، ٦٥٨

الجزر البريطانية : ٢٦٢

الجزيرة (العراق) : ٢٣ ، ٤٤٧ ، ٦٩٣

الجزيرة : ٢٩٧

الجزيرة الخضراء : ٤٠ ، ٤١ ، ٥٢ ، ٧٠ ،

١٢٣ ، ١٢٦ ، ١٣٥ ، ١٦٠ ، ١٨٧ ،

٢٥٢ ، ٢٥٦ ، ٢٩٦ ، ٣٠٨ ، ٣١١ ،

٣٢٥ ، ٣٣٦ ، ٣٧٧ ، ٤٢٥ ، ٤٢٨ ،

٤٩٥ ، ٤٩٦ ، ٤٩٧ ، ٥٢١ ، ٥٥٧ ،

٥٦٤ ، ٦٤٩ ، ٦٥٤ ، ٦٥٨ ، ٦٥٩ ،

٦٦٤ ، ٦٧١ ، ٦٧٣ — ٦٧٥ ، ٦٩٨

جزيرة طريف : ٤٠

الجزيرة العربية : ١٨ ، ٢٠٥

جزيرة كاماراج : ٤٦٧

جزيرة ليران : ٤٧٤

جزيرة ميورقة : ٤٠٤

| | |
|---|---|
| حصن مجريط ، وقلعة ؛ ١٦١ ، ٤٠١ ، ٤٠٧ ، ٥٢٨ | حصن برتيل ؛ ٤١٥ |
| حصن مدلين ؛ ٣٩٣ | حصن بطرسه ؛ ٣٠٦ |
| حصن مدنيش ؛ ٦١٠ | حصن بقيرة ؛ ٣٩٨ |
| حصن المدور ؛ ١٥٩ | حصن بلاي ؛ ٣٢٤ |
| حصن مرتش ؛ ٣٧٥ ، ٣٧٢ | حصن البلدة ؛ ٢٩٢ |
| حصن مسرة ؛ ٤٠٠ | حصن حالولا ؛ ١٩ |
| حصن المنار ؛ ٤٠٣ | حصن الحامة ؛ ٥٢٧ |
| حصن منت بطروش ؛ ٣٤٣ | حصن دسة ؛ ٤٩٩ |
| حصن مقصر ؛ ٦١٠ | حصن روطه ؛ ٣٠٢ ، ٣٤٣ ، ٤٠٢ ، ٤١٢ |
| حصن منت سلود ؛ ٣٠٦ ، ٣٠٥ | حصن سمسطا ؛ ٢٥٨ |
| حصن منت شقند ؛ ٣٢٨ | حصن شبطران ؛ ١٦٦ ، ٤١٦ |
| حصن منتشون ؛ ٣٤٢ | حصن الشط ؛ ٣٨٥ |
| حصن المتلون ؛ ٣٣٨ ، ٣٧٥ | حصن شلويانية ؛ ٣٣٦ |
| حصن منيشة ؛ ٣٢٣ ، ٣٣٠ ، ٣٦٧ | حصن شمستان ؛ ٣٧٦ |
| حصن مورور ؛ ١٨٦ | حصن شنت إشتين ، وقلعة ؛ ٣١١ ، ٣٧٦ ، ٣٩٤ - ٣٩٦ ، ٤٠٠ - ٤٠٢ ، ٤١٧ ، ٤٨٦ ، ٤٨٧ ، ٥٥٠ ، ٥٥١ ، ٦١٣ ، ٦٥١ |
| حصن موله ؛ ٥٥ ، ٣٤٢ ، ٥٢٨ | حصن شنت بجنث ؛ ٥٣٨ |
| حصن موفت ميور ؛ ٣٨٥ | حصن شنت بريه ؛ ٢٩١ |
| حصن يبة ؛ ٤٨٧ | حصن شنت مرتين ؛ ٦١٥ |
| حضر موت ؛ ٣٣١ | حصن شنت منكش ؛ ٤١٣ ، ٤١٥ ، ٤١٧ ، ٥٨٩ |
| الحضرة ، موقعة ؛ ٢٤٠ ، ٢٤٢ ، ٣٠١ | حصن شندلة ؛ ٣٩٢ |
| حلب ؛ ٤٤٧ | حصن طرش ؛ ٣٨٤ ، ٣٨٥ ، ٥٢١ |
| حصص ؛ ٧٠ ، ١٢٦ | حصن طلمنكة ؛ ٣١١ |
| الحيرة ؛ ٦٨ | حصن غرمانج ؛ ٤٠٣ ، ٤٨٧ ، ٥٠١ ، ٥٠٢ ، ٥١٢ ، ٦٥١ |
| حي العرب ؛ ٤٧٠ | حصن فراكسنيه ؛ ٤٦٧ ، ٤٦٩ - ٤٧٤ |
| خراسان ؛ ١٤٠ ، ١٤٢ ، ١٤٤ ، ١٤٥ | حصن فرانكش ؛ ٢٥٧ |
| خليج بسكوانية ؛ ٥١ ، ٢١٣ | حصن قرقشتال ؛ ٣٩٩ |
| خليج سانت تروبيه ؛ ٤٦٧ ، ٤٧٠ | حصن قسطلوثة ؛ ٣٣٠ ، ٣٤٠ |
| خليج قنادس ؛ ٤٢ | حصن قشتيل ؛ ٣٤٢ |
| الخنديق ، موقعة ؛ ٣٤٠ ، ٤١٤ ، ٤١٥ ، ٤١٩ | حصن القصم ؛ ٤٠٣ ، ٦٧١ |
| ٤٤٢ - ٤٥١ ، ٤٦٠ ، ٥٩٠ ، ٥٩١ | حصن قلقرة (وقلعة) ؛ ٣٩٧ ، ٣٩٩ |
| خندق شنت منكش ؛ ٤١٧ - ٤٢٠ | حصن قلهرة ؛ ٣٩٩ |
| خونكيرا ؛ ٣٩٧ | حصن كركبوليه ؛ ٣٣٠ |
| خيخون ؛ ٥١ ، ٨٥ | حصن كركي ؛ ٣٠٥ |
| د - ز | حصن لورة ؛ ٣٧٧ |
| دار الروضة ؛ ٤٣٦ | حصن ماومندة ؛ ٤٠٢ |
| دار السكة ؛ ٤٤٧ | |
| دار الناعورة ؛ ٤٨٥ | |
| داسيا ؛ ٢٨ | |

ريوخا ؛ ٥٩١
الزباب ، بلاد ؛ ٥٥٧
الزاهرة ؛ ٤٣٩ ، ٥٣٥ ، ٥٣٦ ، ٥٤٠
٥٥٦ ، ٥٧٥ ، ٥٧٩ ، ٥٨٤ ، ٦٠٧
٦٠٩ ، ٦١٤ ، ٦١٩ ، ٦٢٠ ، ٦٢٤
٦٢٩ ، ٦٣٢ ، ٦٣٤ ، ٦٣٥ ، ٦٣٨
٦٦٦ ، ٦٦٧ ، ٦٨٣
نهر مراد ، مدينة ؛ ٤٣٥ — ٤٤٦ ، ٤٥١
٤٩٨ ، ٥٠٦ ، ٥١٣ ، ٥٣٥ ، ٥٣٦
٦٢٤ ، ٦٤٧ ، ٦٤٨ ، ٦٥٠ ، ٦٥٣
٦٨٣ ، ٦٨٥ ، ٦٩٠
زويلة ؛ ١٦

س - غ

الساباط ؛ ٣٥٢
ساقوا ؛ ٤٦٩ ، ٤٧٠ ، ٤٧٢
سان برنار ؛ ٤٧٠ ، ٤٧٢
سانتويج ؛ ٩٩
سان جان ؛ ٤٧٢
سبتاليا ؛ ٥٣ ، ٧٤ — ٧٨ ، ٨٠ — ٨٢
٨٤ ، ٨٦ ، ٩٤ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ١٠١
١١٥ ، ١٣٣ ، ١٣٦ ، ٢١٢ ، ٢١٥
٢٢٧ ، ٢٣٣ ، ٣١٤ ، ٤٦٤ — ٤٦٦ ، ٤٧٧
سبتة ؛ ٢٦ ، ٣٣ — ٣٨ ، ٤١ — ٤٩
٦٠ ، ١٢٣ ، ١٢٠ ، ٤٠٤ ، ٤٢٥ —
٤٢٨ ، ٤٩٢ ، ٤٩٥ ، ٥٤٥ ، ٥٥٧
٦٥٤ ، ٦٥٨ ، ٦٥٩ ، ٦٦٢ ، ٦٦٤
٦٧١ ، ٦٧٣ — ٦٧٥
سبيللة ؛ ١٦
سجلماصة ؛ ٣١٤
سردانية ؛ ٢٦ ، ٣٩ ، ١١٩ ، ١٣٠ ، ١٦٦
٤٦٦ ، ٤٧٥
سرقسطة ؛ ٥٣ ، ٧٠ ، ١٢٤ ، ١٣١ ، ١٣٦
١٥١ ، ١٥٢ ، ١٦٩ ، ١٧٤ — ١٧٦
١٧٨ ، ١٨٧ ، ١٩٨ ، ٢٠٠ ، ٢١٨
٢٢٦ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٦٠ ، ٢٦٥
٢٨٩ ، ٢٩٨ ، ٣٠٠ ، ٣٠٣ ، ٣١٨

للدانماركة ؛ ٢٨٤ ، ٤٨٨
حدانية ؛ ٧٠ ، ١٣٢ ، ٤٧٥ ، ٦٥٨ ، ٦٨٦
حدنة ؛ ٢٤
حدروقة ؛ ٣٤١
دمشق ؛ ٢١ ، ٥٤ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٦٠ ، ٦١
٧٠ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ١١٢ ، ١٢٨ ، ١٤٦
٢١٠ ، ٥٠٥
حوفية ؛ ٤٦٧ ، ٤٦٨ ، ٤٧٠ ، ٤٧٢ ، ٤٧٣
دير أجون ؛ ٤٦٩
دير إسلونزا ؛ ٥٤٨
دير بالمودي ؛ ٤٦٨
دير ديزنتي ؛ ٤٦٩
دير خنان ؛ ١٤٩
دير سانتا روفينا ؛ ٧٢
دير سان خيريمو ؛ ٤٤٢
دير ساهاجون ؛ ٥٤٨ ، ٥٨٩
دير كلوني ؛ ٤٧٣
دير نوقاليس ؛ ٤٦٨ ، ٤٧١
دياجورسا ؛ ٦٠٠ ، ٦١٢
رباط الشجر ؛ ٢٣٥
الريض ، قعة ؛ ٢٤٥ — ٢٤٧ ، ٢٥٠ ، ٢٥١
ريض قرطبة ، الريض ؛ ١٥٨ ، ١٧٣ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ٤٥٢
الرصافة ؛ ٢٠٠ ، ٢٠٣ ، ٣١٤ ، ٤٣٦ ، ٥٢٣ ، ٥٣٠ ، ٦٤٤
رندة ؛ ٢٢٧ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣١٠
٣٨٢ ، ٦٧١ ، ٦٧٥
دورية ؛ ٢٥٨
دوسيون ؛ ٧٥
دوضة ؛ ٥٤١
دومة ؛ ١٧ ، ٢٧ — ٢٩ ، ٣١ ، ٥٣ ، ٩٤ — ٩٦ ، ١٠٨ ، ٤٣٩ ، ٤٦٨ ، ٤٧٣
دونسقال ؛ ١٧٣ ، ١٧٦ ، ١٧٧
الريف ، بلاد ؛ ٤٩٢ ، ٤٩٧
الريفييرا ؛ ٤٧٨
ريه ، وكورة ؛ ٧٠ ، ١٢٦ ، ١٣١ ، ١٥٢
١٥٣ ، ٢٣٨ ، ٣٠٨ — ٣١١ ، ٣١٨
٣٢٠ ، ٣٢٣ ، ٣٣٦ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧
٤٣٠ ، ٦٤٩

| | |
|-------------------------------------|--------------------------------------|
| شرفية ؛ ٦٤٦ | ٣٩٩ ، ٣٥٩ ، ٣٤٤ ، ٣٤٢ — ٣٤٠ |
| شريش ؛ ٤٣ ، ٧٠ ، ٣١١ ، ٦٦٤ ، ٦٧٠ | ٤٢٢ ، ٤١٨ ، ٤١٣ — ٤٠٥ ، ٤٠٢ |
| شريش ، مرقعة ؛ ٣٠٨ ، ٢١٠ | ٤٦٦ ، ٥٤٨ ، ٥٤٩ ، ٥٦٣ ، ٦٠٦ |
| شقندة ؛ ١٣١ ، ١٣٥ ، ٢٤٣ ، ٣٢٤ ، ٦٥٣ | ٦١٠ ، ٦١٢ ، ٦١٧ ، ٦٥٤ ، ٦٦٠ |
| شقوبية ؛ ٧٠ ، ١٣٢ ، ٢١٥ ، ٢٩١ | ٧٠٤ ، ٦٩٧ |
| شلب ؛ ٢٨٤ | سرية ؛ ٣٩٠ ، ٣٢٨ ، ٥٦٤ |
| شاحنة ؛ ٧٠ ، ١٣٢ ، ٢١٥ ، ٣٥٧ | سكسونية ؛ ٨٠ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١٧٣ |
| ٣٥٨ ، ٢٩١ ، ٤٢٠ ، ٥٢٧ ، ٥٢٩ | سمرقند ؛ ١٤٥ |
| ٥٩٨ ، ٥٤١ | سمورة ؛ ١٣٢ ، ٢١٥ ، ٣٤٥ ، ٣٥٨ |
| شميط ؛ ٣٤١ | ٣٦٠ ، ٣٦١ ، ٣٩١ ، ٤١٤ ، ٤١٩ |
| شنت إشتين ، موقعة ؛ ٢٩٥ ، ٥٨٩ ، ٥٩٤ | ٤٢٠ ، ٥٤١ ، ٥٤٨ ، ٥٥٢ ، ٥٦١ |
| شنت بركة ؛ ١٦٤ ، ١٦٦ ، ٢٥٦ ، ٢٥٨ | ٥٧٣ ، ٥٩٠ ، ٦١٢ |
| ٣٠٧ ، ٣٤٠ ، ٣٩٠ ، ٤٠٠ | السند ؛ ٩٢ ، ٩٦ ، ١٤٠ ، ١٤٣ |
| شترين ؛ ٤٠٩ ، ٥٠٣ ، ٥٦٤ | الدوس ؛ ١١٩ |
| شتمرية الغرب ؛ ٣٣٠ ، ٣٣٩ | سوسة ؛ ١٩ |
| شنت منكش ، وموقعة ؛ ٣٦١ ، ٤١٨ — ٤٢٠ | سوق المطارين ؛ ٤٢٥ |
| ٥٩٨ ، ٥٧٣ ، ٥٤١ | سولسونة ؛ ٢٣٥ |
| شنت ياقب ؛ ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٥٨ ، ٢٨٥ | السلمة ؛ ٧١ ، ٢٠٥ |
| ٥٤٢ ، ٥٥٩ ، ٥٦٠ ، ٥٧٣ ، ٥٨٩ | سوبراني ؛ ٣٤٢ ، ٥٩١ ، ٦٠٠ |
| ٦٠٥ ، ٥٩٩ | سويسرة ؛ ٤٥٧ ، ٤٥٨ ، ٤٦٥ ، ٤٦٩ — |
| شنت ياقب ، غزوة ؛ ٥٦١ | ٤٧٢ ، ٤٧٤ ، ٤٧٥ |
| شنت يوانش ؛ ٦١٢ | سيرا مورينا ؛ انظر جبل الشارات |
| صانص ؛ ٨٢ ، ٩٠ | سيرا نقادا ؛ ٣٧٦ |
| الصخرة ؛ ١١٤ ، ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢٢٨ | شاطبة ؛ ٧١ ، ١٣٢ ، ٣٩٠ ، ٦٤٨ ، ٦٤٩ |
| الصخرة ، موقعة ؛ ٣٥٤ | ٦٦٠ |
| صقلية ؛ ٢١ ، ٢٦ ، ٣٩ ، ١١٩ ، ١٣٠ | شالون ، موقعة ؛ ٢٩ ، ٨٤ |
| ٣٥٩ | النشام ؛ ١٤ ، ١٥ ، ١٧ ، ١٨ ، ٢٤ ، ٥٧ |
| طبنة ؛ ٧٠٢ | ٧٢ ، ٩٣ ، ١٢٣ ، ١٢٧ ، ١٣٠ |
| طرابلس ؛ ١٥ ، ١٦ ، ١١٩ ، ١٥٠ | ١٤٦ ، ١٤٨ ، ٢٠٠ ، ٢٠٢ ، ٢٠٥ |
| طرسونة ؛ ٢٦٥ ، ٣٤١ ، ٤٠٢ | ٢٣٠ ، ٢٦٠ ، ٣١٤ ، ٤٣٧ ، ٤٣٨ |
| طرش ؛ ١٥٢ ، ١٥٣ ، ٣٧٧ | ٥٤٤ |
| طرطوشة ؛ ٧٠ ، ١٣٣ ، ٢٠٠ ، ٢٢٥ | شبه الجزيرة الإسبانية ، انظر إسبانيا |
| ٢٢٦ ، ٢٤٠ ، ٢٤١ ، ٢٦٥ ، ٢٩٩ | شبه الجزيرة العربية ؛ ٦٩ ، ١٤١ ، ٢٠٥ |
| ٤٠٤ ، ٤٦٥ ، ٤٦٨ ، ٦٦٠ | شدونة ؛ ٤٢ ، ٥٢ ، ٧٠ ، ٧١ ، ١٢٣ |
| طرف الغار ؛ ٤٤ | ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٣٢ ، ١٥٣ ، ١٦٠ |
| طر كوفة ؛ ٧٠ ، ١٣٣ ، ٢٠٠ ، ٢٣٥ | ١٦٢ — ١٦٤ ، ٢٦٣ ، ٣١١ ، ٣٣٠ |
| ٢٦٦ ، ٤٦٦ ، ٦٧٦ | ٣٣٧ ، ٦٥٤ |
| طريافة ؛ ٦٧١ | شدونة ، موقعة ؛ ٤٦ |
| طشانة ؛ ٦٧١ | شرطانية ؛ ١٨٦ ، ٤١٧ |
| طليبرة ؛ ١٢٣ ، ٢٣٩ ، ٢٩٤ ، ٣١٨ | الشرق ؛ ٩٩ ، ١١١ ، ٢٣٤ |
| ٣٤٥ ، ٣٩٤ ، ٤٠٧ | |

٤٥٩ ، ٤٥٢ ، ٤٠٩ ، ٣٩٢ ، ٣٨٩ ، ٣٢٨
 الغرب ، ولاية ؛ ٤٨٩ ، ٤٨٨
 غرناطة ؛ ٥٠ ، ٢٠٤ ، ٢١٣ ، ٣٢٨
 ٦٧٢ ، ٦٧١ ، ٦٦٢ ، ٦٦٠ ، ٣٧٦ ، ٣٢٩
 ٦٧٦ ، ٦٧٤ ، ٦٧٣

ف - ك - ق

فارس ؛ ٧٢ ، ١٤٠ ، ١٤٥
 فاس ؛ ٤٢٧ ، ٤٩٢ ، ٤٩٧ ، ٥٤٥ - ٥٤٧
 ٥٥٨

فولانس ؛ ١١٥ ، ٢٩٧

قاليه ؛ ٤٦٩ ، ٤٧٠

فج سراج ؛ ٤١٦

فج المراكور ؛ ٢٩٩

فحص أندوجر ؛ ٢٩٢

فحص البلوط ؛ ٣١١

فحص سراج ؛ ٤١٦

فحص السراوق ؛ ٦٤٦

فحص مهران ؛ ٤٩٥

فحص النادورة ؛ ٥٩٨

فراشنديلوم ؛ ٤٧١

فرتش ؛ ٣٤١

فرنسا ؛ ١٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٧٨ ، ٨٢ ، ٨٥

٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ - ١٠٤ ، ١٠٨

١١٢ ، ١٧٠ - ١٧٢ ، ١٨٣ ، ٢٠٩

٢١٠ ، ٢٣٥ ، ٢٦٦ ، ٣١٤ ، ٣٥٧

٤٥٧ ، ٤٦٥ ، ٤٦٦ ، ٤٦٨ ، ٤٦٩

٤٧٤ ، ٤٧٧ - ٤٧٩

الفرنسية ؛ ٤١ ، ٤٢ ، ٧١ ، ٢٠٦

فريجوس ؛ ٤٦٩

فريزيا ؛ ٨٠ ، ١١٤

الفسطاط ؛ ٥٧

فقييه ؛ ١١٥

فولندر ؛ ٧٧

فلسطين ؛ ٧٠ ، ١٢٦ ، ١٤٦ ، ١٥٠

فناء النارنج ؛ ٢٧٩

فنجييط ؛ ٢٣٣

فيل دني ؛ ٢٢٧

قابس ؛ ٢٢ ، ١٢٠

قادس ؛ ٢٦٣

طاجير ؛ ٣٨٧

طلياطة ؛ ٢٦٣

طليطلة ؛ ٢٩ ، ٣١ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٤١

٥٠ - ٥٢ ، ٦٠ ، ٦٤ ، ٧٠ ، ٧١

١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٣٦ ، ١٥١ ، ١٥٢

١٥٤ ، ١٥٧ - ١٦١ ، ١٦٣ ، ١٨٧

١٩٠ ، ٢٠٦ ، ٢٢٣ ، ٢٢٥ ، ٢٣٧

٢٠٢ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٥٤ ، ٢٥٦

٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٢٦٩ ، ٢٧١ ، ٢٨٥

٢٩١ ، ٢٩٣ - ٢٩٦ ، ٣٠١ ، ٣٠٧

٣١١ ، ٣١٨ ، ٣٣٩ ، ٣٤٥ ، ٣٥٦

٣٨٩ ، ٣٩٦ ، ٤٠١ ، ٤٠٧ ، ٤١٤

٤١٥ ، ٤١٦ ، ٤٨٦ ، ٥٢٩ ، ٥٤٩

٥٦٤ ، ٥٩٠ ، ٦٠٦ ، ٦٠٩ ، ٦١٢

٦٢٩ ، ٦٣٦ ، ٦٤٦ - ٦٤٨ ، ٦٧٦

٦٧٧ ، ٦٩٢ ، ٦٩٧

طنجة ؛ ١٦ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٣٨ ، ٤٠

٤١ ، ٤٩ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢٣

٤٠٤ ، ٤٢٥ ، ٤٩٥ ، ٤٩٧ ، ٥٤٦

٥٥٧ ، ٦٥٤ ، ٦٥٨ ، ٦٦٤ ، ٦٨٧

طولون ؛ ٤٦٩

العامرية ؛ ٥٧٥

عدوة المغرب ، العدوة ؛ ٢٣١ ، ٢٤٥ ، ٢٦٤

٢٩٠ ، ٢٩٧ ، ٣٧٧ ، ٤٠٤ ، ٤٠٩

٤٢٥ ، ٤٢٦ ، ٤٢٨ ، ٤٩٢ ، ٤٩٦ -

٤٩٩ ، ٥٠٢ ، ٥٣٨ ، ٥٤٦ ، ٥٧٠

٦٠٧ - ٦٠٩ ، ٦٢٨ ، ٦٧٥ - ٦٧٧

٦٨٨

العراق ؛ ٢٤ ، ٦٩ ، ٧٢ ، ١١٨ ، ١٤٥

٤٥٤ ، ٥٠٥ ، ٦٩٣ ، ٦٩٤

هقبة البقر ؛ ٦٤٨

الحايا ؛ ١٤٩

عين التمر ، موقعة ؛ ٢٣

غاليس (غاليا) ؛ ١٧ ، ٢٩ ، ٣٦ ، ٧٦

٧٨ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٩٠ ، ٩٤ ، ١١٠

١١٤ ، ١٣٣ ، ١٣٧ ، ١٧٢ ، ١٧٧

٢٣٣ ، ٢٣٥ ، ٤٥٨ ، ٤٦٤ ، ٤٦٧

٤٧٠ ، ٤٧٤ - ٤٧٦ ، ٦٨٠

الغرب ؛ ٩٩ ، ١٠٩ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١١٦

١٦١ ، ١٩٠ ، ٢٢٥ ، ٢٣٤ ، ٣٠٦

٦١٣ ، ٦١٥ ، ٦١٨ ، ٦٢٠ ، ٦٢٤ ،
٦٢٥ ، ٦٢٩ — ٦٣٢ ، ٦٣٤ ، ٦٣٦ —
٦٣٨ ، ٦٤٣ — ٦٥٤ ، ٦٥٧ — ٦٦٤ ،
٦٦٧ — ٦٨٢ ، ٦٨٥ — ٦٨٩ ،
٦٩٤ ، ٦٩٦ — ٦٩٩ ، ٧٠١ ، ٧٠٣

قرطبة القديمة ؛ ٤٤٢

قرقشونة ؛ ٥٣ ، ٧٠ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٨٢ ،
١٠٤ ، ١٣٣ ، ٢٢٧

قرونة ؛ ٥٢ ، ١١٦ ، ١٦٢ ، ٢٧٧ ،
٣١١ ، ٣٢٣ ، ٣٣٧ ، ٣٧٧ ، ٣٨١ ،
٦٧٠ — ٦٧٢ ، ٦٧٣ ، ٦٧٥

قسطلمونة ؛ ١٩٠

قسططنينية ؛ ١٦ ، ١٧ ، ٢٨ ، ٥٤ ، ٥٧ ،
٥٩ ، ٩٣ ، ١٠٩ ، ١١١ ، ١١٢ ،
٢٨٢ ، ٤٣٦ ، ٤٣٧ ، ٤٥١ ، ٤٥٢ ،
٤٥٦ ، ٤٥٧

قشتالة ؛ ٥١ ، ٢١٣ ، ٢١٥ ، ٢٦٤ ،
٣٩٤ ، ٤٠٠ ، ٤٠١ ، ٤٠٣ ، ٤١٥ ،
٤١٧ ، ٤٨٤ ، ٤٨٦ ، ٤٨٧ ، ٤٩٩ ،
٥٠٢ ، ٥٢٧ ، ٥٢٨ ، ٥٣١ ، ٥٣٨ ،
٥٤٩ ، ٥٥٢ ، ٥٦٢ — ٥٦٤ ، ٥٦٧ ،
٥٨٨ ، ٥٩٠ ، ٥٩١ ، ٥٩٢ — ٥٩٤ ،
٥٩٧ ، ٥٩٨ ، ٦٠٠ ، ٦١١ ، ٦١٣ ، ٦١٥

قصر أبي دانس ؛ ٤٨٨ ، ٥٥٩

القصر الزاهر ؛ ٤٣٥

قصر الزاهرة ؛ ٥٣٥ ، ٥٣٦ ، ٥٨٤ ، ٦١٠ ،
٦١٤ ، ٦١٥ ، ٦١٩ ، ٦٢٣ ، ٦٢٨ ، ٦٣٢

قصر الزهراء ؛ ٤٣٨ ، ٤٤٠ ، ٤٤٢ ، ٤٥٢ ،
٤٥٥ ، ٤٥٩ ، ٤٨٣ ، ٤٨٥ ، ٤٩٠ ،
٤٩٨ ، ٥٠٣ ، ٥٠٩ ، ٥٣٥ ، ٥٣٦ ،
٥٩٤

قصر القاتيكان ؛ ٤٣٩

قصر قرطبة ؛ ١٥٤ ، ١٥٨ ، ١٦٤ ، ٢٤٤ ،
٢٤٧ ، ٢٤٩ ، ٢٥٥ ، ٢٧٥ ، ٢٧٧ ،
٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٣٠٢ ، ٣٣٣ ، ٣٥٢ ،
٣٧٤ ، ٣٩٠ ، ٣٩٨ ، ٤٠٠ ، ٤٠٢ ، ٤١٣ ،
٤١٦ ، ٤٣٧ ، ٤٤٨ ، ٤٥٣ ، ٤٥٨ ،
٤٨٥ ، ٤٨٦ ، ٥٠٦ ، ٥٠٩ ، ٥١٣ ، ٥١٧ ،
٥١٨ ، ٥٢٢ ، ٥٢٦ ، ٥٢٧ ، ٥٤٠ ،

قاسترو مورش ؛ انظر حسن شنت اشتين

القاهرة ؛ ٥٠٥

قبرس ؛ ٢٣

القبر المقدس ؛ ٢٣٤

قبر القديس ياقب ؛ ٥٦٠

قبر المنصور ؛ ٥٦٧

قبره ؛ ٣١١ ، ٣٢٠ ، ٣٢٤ ، ٣٣٨

قرطبة ؛ ٥٦١

قرطبة القديمة ؛ ١٦ ، ٢١ ، ٢٥ ، ٤٣٧ ،
قرطبة الأندلس ؛ ١٠ ، ١٣٢ ، ٢٠٠

قرطبة ؛ ٣٣ ، ٥٠ ، ٥٢ ، ٥٩ ، ٦٣ ،

٦٤ ، ٧٠ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٨٩ ، ١١٣ ،

١١٦ ، ١٢٣ — ١٢٥ ، ١٢٧ ، ١٣١ ،

١٣٢ ، ١٣٦ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٧ —

١٦٧ ، ١٧٠ ، ١٨١ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ،

١٩٠ ، ١٩٤ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠٤ ،

٢٠٦ ، ٢٢٤ — ٢٢٧ ، ٢٣٠ ، ٢٣٣ ،

٢٣٥ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٤٢ — ٢٤٤ ،

٢٤٧ ، ٢٥٥ — ٢٥٧ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ ،

٢٦٧ — ٢٧٠ ، ٢٧٣ ، ٢٧٥ ، ٢٧٩ ،

٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٢٨٥ ، ٢٩١ ، ٢٩٥ —

٢٩٦ ، ٢٩٨ ، ٣٠٠ ، ٣٠١ — ٣٠٥ ،

٣٠٧ ، ٣١٠ ، ٣١٥ ، ٣١٧ ، ٣٢٠ —

٣٢٢ ، ٣٢٤ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٣٦ —

٣٣٩ ، ٣٥٥ ، ٣٦٢ ، ٣٧٥ ، ٣٧٧ ،

٣٧٨ ، ٣٨٠ ، ٣٨٤ — ٣٨٦ ، ٣٨٩ ،

٣٩١ ، ٣٩٥ ، ٣٩٦ ، ٣٩٨ ، ٣٩٩ ،

٤٠٢ ، ٤٠٥ ، ٤٠٧ ، ٤١٣ ، ٤١٨ ،

٤٢٠ — ٤٢٢ ، ٤٢٥ ، ٤٣١ ، ٤٣٢ ،

٤٣٥ — ٤٣٨ ، ٤٤٠ — ٤٤٢ ، ٤٤٧ ،

٤٤٨ ، ٤٥٠ ، ٤٥٤ ، ٤٥٦ ، ٤٥٧ ،

٤٥٩ ، ٤٦٦ ، ٤٦٧ ، ٤٨٠ ، ٤٨٥ ،

٤٨٧ ، ٤٨٨ — ٤٩٠ ، ٤٩٨ — ٥٠٠ ،

٥٠٢ — ٥٠٦ ، ٥٠٩ ، ٥١٣ — ٥١٦ ،

٥٢٣ ، ٥٢٤ ، ٥٢٦ ، ٥٢٩ ، ٥٣٥ —

٥٣٧ ، ٥٤٣ ، ٥٤٦ ، ٥٤٩ ، ٥٥١ ،

٥٥٢ ، ٥٥٥ — ٥٥٧ ، ٥٥٩ — ٥٦١ ،

٥٦٧ ، ٥٧٤ ، ٥٧٥ ، ٥٧٧ ، ٥٨٠ ،

٥٨٣ ، ٥٨٤ ، ٥٩٣ ، ٥٩٧ ، ٦٠٧ —

قورية ؛ ١٢٣ ، ١٣٢ ، ١٦٤ ، ١٦٦ ،
 ١٩٠ ، ٣٥٨ ، ٣٥٧ ، ٥٦٠
 قوزنة ؛ ٧٠ ، ٧١ ، ٣٠٧
 القيروان ؛ ٢٠ - ٢٢ ، ٨٧ ، ١٢٠ ، ١٣٠ ،
 ١٦٢ ، ٤٩٩
 كاماراج ؛ ٤٧٨
 كانتابريا ؛ ١٣٢ ، ٢٠٨ ، ٢١٠ ، ٢١٣ ،
 ٢١٤ ، ٣٦١ ، ٧٠٠
 كانجاس ؛ ٢١٨
 كندراية شنت ياقب ؛ ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٣٦١ ،
 ٥٦٠
 كربلاء ؛ ١٢٧
 كروانية ؛ ٥٦١
 كلافينجو ؛ ٣٥٦
 كلونية ؛ ٨٠
 كوفانجا ؛ ٢١٠ ، ٢١١
 الكونة ؛ ١٢٧ ، ١٤٣ - ١٤٥
 كويانسا ؛ ٥٧٣

ل - ي

لاردة ؛ ١٣٣ ، ٢٣٥ ، ٣٠٢ ، ٣٤٢ ،
 ٤١٠ ، ٦١٠ ، ٦٦٨
 لامبجو ؛ ٥٦١ ، ٥٩٦ ، ٥٩٧
 لبلبة ؛ ١٢٦ ، ١٣٢ ، ١٦٥ ، ٣٣٠ ، ٣٧٩ ،
 ٣٨٠ ، ٥٢٢ ، ٦٦٩
 لزمة ؛ ٤٠٣
 لقنت ؛ ٥٥ ، ٧٠ ، ٧١ ، ١٣٢ ، ١٦٠
 لك ؛ ٧٠ ، ٢١٥ ، ٣٥٥
 لوجدانيا ؛ ١٣٢
 لوديف ؛ ٧٠
 لورقة ؛ ٥٥ ، ٧٠ ، ١٣٢ ، ٣٢٣ ، ٣٣٠ ،
 ٣٩٩ ، ٥٤٣ ، ٦٩٠
 لوزيتانيا ؛ ٧٠ ، وانظر البرتغال
 لوس بانيسوس ؛ ٥٢٧
 لوشة ؛ ٣٢٠
 لوطون (ليون فرنسا) ؛ ٥٣ ، ٨٤ ، ٩٠ ،
 ١٠٥ ، ١١٥
 لوزة ؛ ٦١٢
 ليجوريا ؛ ٤٦٦ ، ٤٦٩ ، ٤٧١
 ليون ، مدينة ؛ ٣٥٤ ، ٣٥٦ ، ٣٥٨ ،

٥٥٦ ، ٦٣٢ ، ٦٣٥ ، ٦٤٤ ، ٦٤٧ ،
 ٦٥٣ ، ٦٥٩ ، ٦٦٢ ، ٦٦٣ ، ٦٦٦ ،
 ٦٦٩ ، ٦٦٨
 قصر مدينة سالم ؛ ٥٦٦
 قصر مصمودة ؛ ٤٩٦
 القصر المؤنس ؛ ٤٤٣
 قصر ناصح ؛ ٦١٤ ، ٦٢٤
 قطاوية ؛ ٢٢٦ ، ٢٤١ ، ٢٥٧ ، ٣٤٣ ،
 ٤٥٧ ، ٥٤٤
 قنسمة ؛ ١٦
 قلعة ألانية (الخش) ؛ ٣٠٤ ، ٣٩٣
 قلعة أريبيدو ؛ ٣٥٩
 قلعة أيوب ؛ ٣٤١ ، ٤٠٦ - ٤٠٨
 قلعة ببشتر ؛ ٦٧٢
 قلعة حلمانية ؛ ٣٠٤
 قلعة حجر النسر ؛ ٤٩٢ ، ٤٩٦ ، ٤٩٧
 قلعة رباح ؛ ١٩٠ ، ٢٥٩ ، ٢٩٢ ، ٢٩٤ ،
 ٣٢٨ ، ٣٣٩ ، ٣٧٥ ، ٦٣٠ ، ٦٣٦ ،
 ٦٦٢ ، ٦٤٦
 قلعة رعويا ؛ ١٦٣
 قلعة شنت منكش ؛ ٥٤١
 قلعة ماردة ؛ ١٢٥
 قلعة مزورقة ؛ ٤٠٣
 قلعة مويس ؛ ٣٩٧
 قلعة النسور ، رموقة ؛ ٥٦٤ ، ٥٦٥
 قلعة هنارس ؛ ٦٤٦
 قلورية ؛ ٧٠ ، ٧٥ ، ٢٤١ ، ٣٠٥ ، ٣٥٤ ،
 ٣٥٨ ، ٤١٧ ، ٥٤٧ ، ٥٦٠ ، ٥٧٣ ،
 ٥٩٧
 قلهرة ؛ ٢٣١ ، ٢٩٨ ، ٣٥٦ ، ٣٩٧ ،
 ٣٩٩ ، ٤٠٠ ، ٤٠٢ ، ٤٨٧
 قلورية ؛ ٤٢٧
 قلونية ؛ ٣٩٦ ، ٤٠٣ ، ٥٥١ ، ٦١٥ ، ٦٥١
 قليانة ؛ ٤١٦
 قمارش ؛ ٦٧٢
 قناليش ؛ ٥٦٣
 قنسرين ؛ ٧٠ ، ١٤٩
 قنطرة أستجة ؛ ٥٧٧
 قنطرة قرطبة ؛ ٧٥ ، ٢٢٨ ، ٢٧٨ ، ٥١١ ،
 ٥٧٦
 قورسنة ؛ ٢٦٦ ، ٤٦٦ ، ٤٧٥

| | |
|---|--------------------------------------|
| مرو ؛ ١٤٤ ، ١٤٥ | ٣٦١ ، ٥٣١ ، ٥٤١ ، ٥٤٢ ، ٥٤٨ |
| المسارة ، موقعة ؛ ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٧ ، ١٦٠ | ٥٥٢ ، ٥٥٩ ، ٥٦٤ ، ٥٧٣ ، ٥٨٩ |
| ١٦٤ ، ١٩٨ ، ٢٠٢ ، ٦٨١ | ٥٩٠ ، ٥٩١ ، ٥٩٦ ، ٥٩٨ ، ٥٩٩ |
| مسجد أبي هرون ؛ ٤٢٥ | ليون ، القطر ؛ ٥١ ، ٧٥ ، ١٦٩ ، ٢٦٥ |
| مسجد ببشتر ؛ ٢٨٦ | ٣٠٤ ، ٣٠٦ ، ٣٩٦ ، ٤٠٣ ، ٤٠٥ |
| مسجد الزادرة ؛ ٥٢٥ ، ٥٧٩ ، ٧٠٤ | ٤٠٦ ، ٤١٣ ، ٤٢٠ ، ٤٢٢ ، ٤٥٩ |
| مسجد الزهراء ؛ ٤٢٨ — ٤٤٠ | ٥٤٢ ، ٥٤٧ ، ٥٥٢ ، ٥٩١ ، ٥٩٢ |
| مسجد سرقسطة ؛ ٤١١ | ٥٩٧ |
| مسنيط ؛ ٤٠٤ | ماجبلون ؛ ٧٠ ، ١١٥ ، ١٣٣ |
| المسألة ؛ ٤٩٣ ، ٤٩٤ | ساردة ؛ ٥٢ ، ٧٠ ، ٧١ ، ١٢٣ ، ١٢٥ |
| المشرق ؛ ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٦ ، ٧١ ، ٧٢ | ١٣٢ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ |
| ٩٣ ، ١٣١ ، ١٤٢ ، ١٤٦ — ١٤٨ | ٢٣٣ ، ٢٣٧ ، ٢٥٧ ، ٢٥٩ ، ٢٨٢ |
| ١٦٦ ، ١٧٠ ، ١٨٧ ، ١٩٧ ، ٢٠٠ | ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٠٦ ، ٣٢٩ ، ٣٥٨ |
| ٢٣٠ ، ٢٧٦ ، ٢٧٩ ، ٢٨١ — ٢٨٣ | ٣٩٣ ، ٥٦٤ |
| ٢١٥ ، ٤٣١ ، ٤٣٥ ، ٤٧٨ ، ٤٩٩ | ماسون ؛ ٨٤ ، ٨٥ |
| ٥٧٩ ، ٦٨١ ، ٦٨٤ ، ٦٩٢ ، ٦٩٤ | مالقة ؛ ٥٠ ، ٥٥ ، ٧٠ ، ١٣٢ ، ٣٠٧ |
| ٦٩٩ ، ٧٠١ ، ٧٠٤ | ٣٠٨ ، ٣١٨ ، ٦٥٠ ، ٦٥٨ ، ٦٥٩ |
| مصر ؛ ١٤ ، ١٥ ، ٢٠ ، ٢٣ — ٢٥ | ٦٦٢ — ٦٦٤ ، ٦٦٧ ، ٦٦٨ ، ٦٧٠ |
| ٧٢ ، ١٠٦ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢٦ | ٦٧١ ، ٦٧٢ — ٦٧٦ ، ٦٨٣ ، ٦٩٠ |
| ١٤٦ ، ١٥٠ ، ٢٤٥ ، ٤٩٤ ، ٤٩٩ | متر ؛ ١٧١ |
| ٥٤٤ ، ٥٤٥ ، ٦١٣ ، ٦٩٤ ، ٦٩٩ | المجلس الزاهر ؛ ٤٥٣ |
| مطوانية ؛ ٣٩٦ | المجلس الشرق ؛ ٤٨٥ ، ٤٩٠ ، ٤٩٨ ، ٥١٣ |
| المغرب ؛ ٢٠ — ٢٢ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٤١ | مخارس ؛ ٤١٦ |
| ٥٤ ، ٩٣ ، ٩٦ ، ١٢٢ ، ١٣١ | مخاضة الفتح ؛ ١٩٠ |
| ١٤٢ ، ١٥٠ ، ١٧٠ ، ٢٤١ ، ٢٨١ | مدلين ؛ ١٦٥ |
| ٣١٤ ، ٣٣٧ ، ٤٢٥ ، ٤٢٧ ، ٤٢٨ | مدينة الباب ؛ ٨٨ |
| ٤٣٩ ، ٤٩٢ — ٤٩٤ ، ٤٩٤ ، ٤٩٦ — ٤٩٩ | المدينة ، موقعة ؛ ٣٢٨ |
| ٥٠٦ ، ٥٠٩ ، ٥٤٤ — ٥٤٨ ، ٥٥٥ | مدينة سالم ؛ ٢٥٦ ، ٣١١ ، ٣٢٣ ، ٣٥٤ |
| ٥٥٧ — ٥٥٩ ، ٥٧٠ ، ٦٠٩ ، ٦٥٦ | ٣٥٦ ، ٣٩٦ ، ٣٩٧ ، ٤٢٢ ، ٤٨٥ |
| ٦٦٤ ، ٦٧٧ ، ٦٨٧ ، ٦٨٨ ، ٧٠٢ | ٤٩٩ ، ٥٠٢ ، ٥١٢ ، ٥٢٨ ، ٥٣٧ |
| المغرب الأقصى ؛ ١٩ ، ٢٢ ، ٢٥ ، ٣٨ | ٥٣٨ ، ٥٦٢ ، ٥٦٥ — ٥٦٧ ، ٦٠٧ |
| ٤١ ، ٦٦ ، ١١٨ — ١٢٠ ، ١٥١ | ٦٠٩ ، ٦١٢ ، ٦٤٤ ، ٦٤٦ ، ٦٤٨ |
| ٤٠١ ، ٤٢٩ ، ٤٣٠ ، ٤٥٦ ، ٤٨٨ | مدينة الفرع ؛ انظر وادي الحجارة |
| ٤٩٣ ، ٤٩٤ ، ٥١٢ ، ٥١٩ ، ٥٤٤ — | المدينة المنورة ؛ ١٤١ ، ٢٢٩ |
| ٥٤٧ ، ٦٥٦ ، ٦٦٨ ، ٦٧٠ | موبلة ؛ ٦٤٩ |
| المغرب الأوسط ؛ ٤٩٣ ، ٤٩٤ ، ٥٤٧ | مرتش ؛ ٢٧٢ |
| المكتبة الأموية ؛ ٢٨٢ ، ٥٠٤ — ٥٠٦ | مرج راهط ، موقعة ؛ ١٥٤ |
| ٥٠٨ ، ٥٠٩ ، ٥٨٠ ، ٧٠١ | مرسيايا ؛ ٢٦٦ ، ٤٦٦ ، ٤٦٨ ، ٤٧٤ |
| مكناسة ؛ ١٦٤ ، ٥٥٧ | مرسية ؛ ٥٠ ، ٧٠ ، ١٣٢ ، ٣٢٣ ، ٣٩٩ |
| مكة ؛ ٦٨ ، ١٤١ ، ١٤٣ ، ١٦٣ | ٤٣٠ ، ٥٤٣ ، ٦٥٨ |
| ملقون ؛ ٤١٦ | |

| | |
|--------------------------------------|---|
| نهر دويرة ؛ ٧٠ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ٢١٣ — | مليلة ؛ ٤٢٦ ، ٥٤٧ ، ٦٧٥ |
| ٢١٥ ، ٢٢٢ ، ٢٤١ ، ٣٠٦ ، ٣٥٤ | منزل هاني ؛ ٦٣٦ |
| ٣٥٧ ، ٣٥٨ ، ٣٩١ ، ٣٩٣ ، ٣٩٦ | المنكب ؛ ١٥٢ ، ١٥٣ ، ٦٥٩ |
| ٤١١ ، ٤١٧ ، ٤٢٠ ، ٤٨٧ ، ٥٠١ | منورقة ، جزيرة ؛ ٢٥ ، ٢٦٢ |
| ٥٤٨ ، ٥٥٢ ، ٥٦٠ ، ٥٦١ ، ٥٦٤ | منية جعفر ؛ ٦٢٤ |
| ٥٦٥ ، ٥٧٣ ، ٥٩٦ ، ٥٩٧ ، ٦١٣ | منية العقاب ؛ ٦٤٧ |
| ٦١٥ ، ٦٧٦ | منية كنتش ؛ ٣١٥ |
| نهر الرون ؛ ٥٣ ، ٩٠ ، ٩٣ ، ٩٦ ، ١١٤ | منية ناصح ؛ ٥٠٩ |
| ١١٦ ، ١٣٣ ، ٢٩٧ ، ٤٥٧ ، ٤٦٥ — ٤٦٧ | منية الناعورة ؛ ٥٠٩ |
| نهر الرين ؛ ٧٧ ، ٧٨ ، ٩١ ، ٩٥ ، ١٧١ | منية نصر ؛ ٤١٦ |
| ١٧٦ | مورور ؛ ٣١١ ، ٦٥٤ |
| نهر الزاب ؛ ١٤٥ | الموصل ؛ ١٤٥ |
| نهر شلب ؛ ٤٨٨ | مون سني ؛ ٤٦٨ |
| نهر شنت مانكش ؛ ٤١٥ | مونسراتو ؛ ٤٦٩ |
| نهر شيل ؛ ٣٢٣ ، ٣٣٧ ، ٣٧٧ | المهدية ؛ ٦٩٩ |
| نهر الفرات ؛ ٩١ ، ١٤٥ ، ١٥٠ | ميرالده ؛ ٣٩١ |
| نهر الفوشكة ؛ ٣٢٥ | ميرتلة ؛ ٣٣٠ |
| نهر التمين ؛ ٩٩ ، ١٠٠ | ميزيا ؛ ٢٨ |
| نهر الكريز ؛ ٩٩ | ميورقة ، جزيرة ؛ ٢٥ ، ٢٦٥ ، ٥١١ |
| نهر الكاين ؛ ٩٩ ، ١٠٠ ، ١١٥ | خاجرة ؛ ٣٩٥ ، ٣٩٨ ، ٥٦٣ ، ٥٩٩ |
| نهر اللوار ؛ ٢٩ ، ٧٨ ، ٨١ ، ٩٠ ، ٩٩ | فافار (نبرة) ؛ ٧٤ ، ٢١٠ ، ٣٠١ ، ٣٤٢ ، ٣٤٣ |
| ١٠٠ ، ١٠٤ ، ٢٦٢ ، ٢٦٦ | ٣٥٤ ، ٣٦١ — ٣٦٣ ، ٣٩٩ |
| نهر الموزل ؛ ٧٧ | ٤٠٠ ، ٤٠٢ ، ٤٨٧ ، ٤٩٠ ، ٥٣١ |
| نهر منبو ؛ ٣١١ ، ٥٦٠ ، ٥٩٦ ، ٥٩٧ | ٥٤٨ ، ٥٤٩ ، ٥٦٢ ، ٥٦٣ ، ٥٦٤ |
| نهر النيل ؛ ٩١ | ٥٨٣ ، ٥٩٠ ، ٥٩٩ ، ٦٠٠ ، ٦٠١ |
| نهر نيني ؛ ٢٢ | ٦١٢ |
| نهر الوادي الكبير ؛ ٧٠ ، ٧٥ ، ١٥٤ | تكور ؛ ٤٢٦ |
| ١٥٩ ، ١٦٦ ، ١٩٠ ، ٢٦٣ ، ٢٧٨ | نهر ارون ؛ ٢٤٢ |
| ٢٩٢ ، ٢٩٦ ، ٣٢٥ ، ٤٤٢ ، ٤٨٨ | نهر الايزر ؛ ٤٧٠ |
| ٤٨٩ ، ٥١١ ، ٥٣٥ ، ٥٧٦ ، ٦٣٢ | نهر بارباتي ؛ ٤٤ ، ٤٢ |
| ٦٨٧ | نهر بارسباس ؛ ٣٥٥ |
| نهر وادي لكه ؛ ٤٢ ، ٤٤ ، ١٢٧ | نهر بو ؛ ٤٧١ |
| نهر وادي ياره ؛ ٥٢١ ، ٦٤٩ | نهر التاجه ؛ ٧٠ ، ٧١ ، ١٣٢ ، ١٦٥ |
| نهر وادي يانة ؛ ٧٠ ، ١٣٢ ، ١٦٥ ، ٦٥٨ | ٢٤١ ، ٢٩٣ ، ٢٩٥ ، ٣٤٦ ، ٣٥٨ |
| نوسنريا ؛ ٧٩ ، ٨٠ ، ٩٦ | ٣٩٣ ، ٤١٣ |
| نيس ؛ ٤٧٠ | نهر التيمز ؛ ٩١ |
| نيسابور ؛ ١٤٥ | نهر الجارون ؛ ٢٩ ، ٧٤ ، ٩٠ ، ٩٣ |
| نوماثيا ؛ ٥٦٤ | ١٠٢ ، ١٠٣ ، ٢٦٢ |
| نيمية ؛ ٧٠ ، ٧٤ ، ١١٥ ، ١٣٣ ، ٦٩٧ | نهر الدالوب ؛ ٢٨ ، ٣٠ ، ٥٣ ، ٢٤٩ |
| هلمان ؛ ٤٠ | نهر دجلة ؛ ١٤٥ |

| | |
|-----------------------------------|--|
| وادی منبس ؛ ١٦٦ | وادی الأحمر ؛ ١٩٠ |
| وادی منی ؛ ٥٥٨ ، ٥٥٧ | وادی آتش ؛ ٢٠٤ ، ٣٣٦ ، ٣٧٦ ، ٦٦٠ |
| وېلة ؛ ٣٤٠ | وادی بلون ؛ ٣٣٨ |
| وعدة ؛ ٥٤٧ | وادی الحجارة ؛ ١٣٢ ، ٢٠٦ ، ٢٩٩ ، ٣١١ ، ٣٥٤ ، ٣٩٦ ، ٤٠١ ، ٤٠٧ ، ٤١٦ ، ٤١٨ ، ٥٢٨ ، ٥٤٩ |
| وشقة ؛ ٧٠ ، ١٣٣ ، ١٧٤ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ | وادی الرون ؛ ٨٢ ، ٨٤ ، ٩٧ ، ١٠٥ |
| ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٩ ، ٢٩٨ ، ٣٠٦ ، ٣٠٢ | وادی زارات ؛ ٥٥٧ |
| ٢١٢ ، ٢٨٧ ، ٣٤٢ ، ٤٠٧ | وادی سبسر ؛ ١٢٠ |
| وستفاليا ؛ ١٦٩ | وادی سلف ؛ ١١٩ |
| یابرة ؛ ٧٠ ، ٣٩٢ | وادی سلیط ، وموقة ؛ ١٢٤ ، ٢٩٣ ، ٣٥٦ |
| الیمن ؛ ٧٠ | وادی قیس ؛ ١٦٠ |
| الیوکرین ؛ ٢٨ | وادی ملویة ؛ ٤٩٣ |
| الیونان ؛ ٢٨ | |

فهرست الأعلام

— ١ —

ابن حزم ، أحمد بن سعيد الوزير ؛ ٤٣٨ ،
٥٣٩ ، ٥٥٣ ، ٥٧٤ ، ٦٣٥
ابن حزم . الفيلسوف ؛ ١٢٩ ، ٢٥١ ،
٢٦٠ ، ٢٧٨ ، ٣٢١ ، ٣٤٩ ، ٥٠٤ ،
٥٠٦ ، ٥٣٩ ، ٥٤٠ ، ٥٥٣ ، ٦٥٧ ،
٦٦٣ ، ٦٦٥ ، ٦٦٧ ، ٦٩٤ ، ٧٠٤
ابن حمدون ؛ ٣٠٩
ابن حوقل ؛ ٤٣٩ ، ٤٤٧
ابن حيان ؛ ١٠٨ ، ١٢٩ ، ١٩٩ ، ٢٤١ ،
٢٦٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٧ ، ٢٩٩ ، ٣٠٨ ،
٣١٠ ، ٣٢٥ ، ٣٤١ ، ٣٤٩ — ٣٥١ ،
٣٧٨ ، ٣٩٥ ، ٤١٥ ، ٤١٦ ، ٤١٨ ،
٤٢١ ، ٤٢٤ ، ٤٢٥ ، ٤٢٧ ، ٤٣١ ،
٤٣٢ ، ٤٣٤ ، ٤٣٨ ، ٤٦١ ، ٤٦٢ ،
٤٨٩ ، ٤٩٧ ، ٤٩٨ ، ٥٠٤ ، ٥٠٥ ،
٥١٠ ، ٥١١ ، ٥١٣ ، ٥١٩ ، ٥٢٢ ،
٥٢٧ ، ٥٣٠ ، ٥٧١ ، ٥٨١ ، ٥٨٢ ،
٥٨٥ ، ٦٠٨ ، ٦٢٠ ، ٦٢٥ ، ٦٢٨ ،
٦٥٩ ، ٦٦١ ، ٦٦٤ ، ٦٦٥ ، ٦٨٦
ابن خطاب (أحمد بن عبد الرحمن) ؛ ٥٤٣
ابن خلدون ؛ ١٧ ، ٤٨ ، ٥٣ ، ٦٨٩ ،
٦٩ ، ٨٣ ، ١٠٦ ، ١١٧ ، ١٤٩ ، ١٩٧ ،
٢١٠ ، ٢١٥ ، ٣٣١ ، ٤٦١ ، ٤٨٧ ،
٥٣١ ، ٥٤٠
ابن خلكان ؛ ١٠٥ ، ١٠٧ ، ١٤٩
ابن دحية البلنسى ؛ ٢٨٤ ، ٢٨٥
ابن دراج القسطلی ؛ ٥٥٦ ، ٥٥٨ ، ٥٦١ ،
٦١٠ ، ٦٢٠ ، ٦٢١ ، ٦٢٩ ، ٧٠٤
ابن ذكوان ، أبو العباس ؛ ٥٨٠ ، ٦٢٥ ،
٦٢٦ ، ٦٢٨ ، ٦٣٦ ، ٦٤٥ ، ٦٤٧ ،
٦٥٣
ابن راشد ؛ ٣٩٣
ابن ذری الحاجب ؛ ٦٣٧
ابن زيان ؛ ٨٨
ابن زيدون ؛ ٤٤٠

أبان بن عبد الله ؛ ٣٢٦ ، ٣٣٨
أبدال ؛ ١٧٢ ، ١٧٥
إبراهيم الإمام ؛ ١٤٣ — ١٤٥
إبراهيم بن حجاج ؛ ٣٣١ — ٣٣٤ ، ٣٣٧ ،
٣٧٧
إبراهيم بن شجرة ؛ ١٨٦
إبراهيم بن عثمان بن بشار ؛ انظر أبو مسلم .
أبلو . الكونت ؛ ٢٥٦
ابن الأبار القضاعى ؛ ٤٦٠ ، ٥١١ ، ٦٩٦
ابن أبي عمرو العريف ؛ ٥١٢
ابن أبي يزيد المصر ؛ ٦٢٨
ابن الأثير ؛ ٤٨ ، ١٠٦ ، ١٤٩ ، ٢١٥ ،
٣٢٢ ، ٤٦٣ ، ٥٨٤
ابن الأغلب ؛ ٢٣١ ، ٣١٨
ابن التيان النديم ؛ ٥٧٩
ابن الحجاج ، عبيد الله ؛ ١٠٦ — ١٠٨ ،
١١٣ ، ١١٧ — ١١٩
ابن الخطيب ، لسان الدين ؛ ٣٤٤ ، ٤١٥ ،
٤١٩ ، ٤٢٠ ، ٤٥١ ، ٥٠٤ ، ٥١٠ ،
٥١٩ ، ٥٢٥ ، ٥٦٧ ، ٥٧٠ ، ٥٧١ ،
٥٧٦ ، ٥٧٨ ، ٥٨٥ ، ٦٣١ ، ٦٣٢ ،
٦٥٧
ابن الزبير ، عبد الله ؛ ١٩ ، ٢١ ، ١٥٤
ابن الطريشة ؛ ٣٤٠
ابن العراف النديم ؛ ٥٧٩
ابن الفرضی ؛ ١٢٩
ابن القط ، أحمد بن معاوية ؛ ٣٤٥ ، ٣٦٠
ابن القوطية ، أبو بكر ؛ ٦١ ، ١٢٩ ، ٢٤٣ ،
٢٧٥ ، ٣٢١ ، ٥٠٧ ، ٥٢١ ، ٧٠٠ ، ٧٠١
ابن بسام ؛ ٦٥٤ ، ٦٦٦ ، ٦٩٥
ابن بشكوال ؛ ١٠٨
ابن بقملة . أبو جعفر ؛ ٦٧١ ، ٦٧٢ ، ٦٧٣
ابن جلجل ، سليمان بن حسان ؛ ٤٥٣ ، ٤٥٤

أبو بكر الأبهري ؛ ٥٠٥
 أبو بكر الزبيدي ؛ ٥٠٣ ، ٥٨٠
 أبو بكر بن معاوية القرشي ؛ ٧٠١ ، ٥٢١ ، ٥٠٧
 أبو ثور بن قسي ؛ ١٧٤ ، ٢٢٧
 أبو جعفر المنصور ؛ ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٤٦ ،
 ١٦١ - ١٦٣ ، ١٧١ ، ١٩٤ ، ١٩٧ ،
 ٢٣٤ ، ٢٥٠
 أبو حفص البلوطي ؛ ٢٨٢ ، ٢٤٥
 أبو صفوان ، حاكم سرقسطة ؛ ٢٣٢
 أبو عامر بن شهيد ؛ ٦٦٥
 أبو عثمان ؛ أنظر عبيد الله بن عثمان
 أبو علي القالي ؛ ٤٥٤ ، ٥٠٥ ، ٥٠٧ ، ٥٢١ ،
 ٥٧٩ ، ٧٠١
 أبو عمر بن أبي عمر ؛ ٤٠٧
 أبو عون عبد الملك بن يزيد ؛ ١٤٥
 أبو كعب بن عبد البر ؛ ٢٣٦
 أبو مسلم الخراساني ؛ ١٤٣ - ١٤٦
 أبو نصر الرازي ؛ ٣٨٥
 أبو نور بن أبي قرة اليفرنى ؛ ٦٧٤ ، ٦٧٥
 أبو هاشم عبد الله ؛ ١٤٣
 أبو يحيى التميمي (الأنقر) ؛ ٣٤٠ ، ٣٤١
 أنا ناجد بن تيودمير ؛ ١٢٦
 أتيلو القنري ؛ ٢٩
 أجنهارت ؛ ١٧٢ ، ١٨١
 أجيكا ؛ ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣
 أحمد بن أحمد بن بتي بن مخلد ؛ ٤٢٩
 أحمد بن اسحاق القرشي ؛ ٣٨٩ ، ٤٠٨ ، ٤٠٩
 أحمد بن الأسعد ؛ ٤٩١
 أحمد بن البراء ؛ ٣٤١
 أحمد بن برد (أبو حفص) ؛ ٦١٠ ، ٦١٩ ،
 ٦٢٠ ، ٦٢٥ ، ٦٢٦ ، ٦٢٨ ، ٦٦٠ ،
 ٦٦٣ ، ٦٦٥
 أحمد بن خالد بن أمية بن عيسى بن شهيد ؛ ٤٦١
 أحمد بن زياد اللخمي ؛ ٣٧٤
 أحمد بن سهل بن محمد ؛ ٤٦١
 أحمد بن عباس ؛ ٦٧٢
 أحمد بن عبد الله (عم الناصر) ؛ ٣٨٤
 أحمد بن عبد الله (عامل ريه) ؛ ٣٠٨

ابن سالم ؛ ٢٩٩
 ابن شاذكر ؛ ٣٠٠
 ابن شكوح ، أمير البحر ؛ ٢٩٦
 ابن عبد البر ؛ ٢٩١
 ابن عبد الحكم ؛ ٤٧ ، ٥٧ ، ٥٠٧
 ابن عبد ربه ، أبو عمر ؛ ٢٢٤ ، ٣١٥ ،
 ٣٢١ ، ٣٢٦ ، ٣٣٤ ، ٣٥١ ، ٣٧٤ ،
 ٣٧٨ ، ٣٨٠ ، ٤٠٧ ، ٤٠٨ ، ٤٦٢ ،
 ٦٩٥ ، ٦٩٦ ، ٧٠٠
 ابن عربي ، محيي الدين ؛ ٤٤١
 ابن عذارى المراكشي ؛ ١٠٧ ، ٦٥٧
 ابن عطف ؛ ٣٧٦
 ابن عياش ، أبو عبد الله ؛ ٥٥٣ ، ٥٧٤ ،
 ٥٧٥
 ابن غالب ؛ ٢٠٤
 ابن غومس ؛ ٦٣٧
 ابن محمد القاضي ؛ ٤٥٠
 ابن مسرة الجبلي ؛ ٤٣٠ - ٤٣٢ ، ٤٣٤ ، ٦٩٨ -
 ٧٠٠ ، ٧٠٤
 ابن مناو ؛ ٦٥١ ، ٦٥٢
 ابن ميمون ؛ ٢٠٦
 ابن هيرة ؛ ١٤٥
 ابن وضاح ؛ ٤٣١
 ابن وليد الكلبي ؛ ٤٧٤
 ابن يحيى أمير سرقسطة ؛ ٤١٩ ، ٤٢٠
 ابن يصل ؛ ٤٢٦
 أبو الاصغ موسى بن خطاب ؛ ٥٤٣
 أبو الخطار انكليسي (حسام بن ضرار) ؛ ٦١ ،
 ١٢٥ - ١٢٧ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ٦٨١
 أبو الشماخ زعيم اليمنية ؛ ٢٥٤
 أبو الصباح بن يحيى اليحصبي ؛ ١٥٣ ، ١٦٤ -
 ١٦٦ ، ١٩٤
 أبو العيش بن أيوب ؛ ٤٩٧
 أبو العيش الحسني ؛ ٤٢٦
 أبو الفتوح بن ناصر ؛ ٦٤٤
 أبو الفرج الأصفهاني ؛ ٥٠٥
 أبو القاسم بن يوسف الفهري ؛ ١٥٩ ، ١٦٠ ،
 ١٩٠
 أبو المطرف بن عون الله ؛ ٦١٣
 أبو المهاجر الأنصاري ؛ ٢٠

- أحمد بن عبد ربه ؛ أنظر ابن عبد ربه
أحمد بن عبد الملك بن شهيد ؛ ٤٦١ ، ٤٦٢ ، ٥١١
أحمد بن عبد الوهاب بن عبد الرؤوف ؛ ٤٦٢
أحمد بن عيسى بن أبي عبدة ؛ ٣٨٦ ، ٣٤٧
أحمد بن محمد بن أبي عبدة ؛ ٣٢٤ ، ٣٣٦ -
٣٣٨ ، ٣٧٩ ، ٣٩٤ ، ٤١٥ ، ٤٦٠
أحمد بن محمد بن إلياس ؛ ٤٠٦ ، ٤٠٧ ،
٤٠٩ ، ٤٢٤ ، ٤٦١ ، ٤٦٢
أحمد بن محمد بن حدير ؛ ٣٧٤ ، ٣٨٦ - ٣٨٨ ،
٣٩٩ ، ٤٤٧ ، ٤٦٠ ، ٤٦٢ ، ٥٢٣ ،
٥٢٩ ، ٥٧٤ ، ٦٨٥
أحمد بن محمد الرازي ؛ ٣٨٦ ، ٣٨٨ ، ٧٠٠
أحمد بن محمد بن زياد ؛ ٣٧٨ ، ٤٦١
أحمد بن محمد بن عيسى ؛ ٤٦١
أحمد بن محمد القسطلي ؛ ٥٠٣
أحمد بن مسلمة ؛ ٣٧٧
أحمد بن موسى ؛ ٦٦٨
أحمد بن موسى العروى ؛ ٧٠١
أحمد بن هاشم بن عبد العزيز ؛ ٣٣٢ ، ٣٣٨
أحمد بن يعلى ؛ ٤٢٣ ، ٤٢٧ ، ٥٩٣
أدريان ، الإمبراطور ؛ ٥٠٨
إدريس بن إدريس الحسني ؛ ٢٤١
إدريس بن عبد الله بن الحسن ؛ ٦٥٧
إدريس بن علي بن حمود المتأيد ؛ ٦٦٢ ،
٦٦٤ ، ٦٧١ ، ٦٧٢
إدريس بن يحيى المعتلى (العالي) ؛ ٦٧١ ، ٦٧٣ - ٦٧٥
إدريس بن يحيى بن إدريس (السامي) ؛ ٦٧٥
الإدريسي ، الشريف ؛ ٤٨ ، ٤٩ ، ٤٤١
أدلبرت ؛ ٤٧٣
إديكو ؛ ٤١
أرخنتا بنت عمر بن حفصون ؛ ٣٨٣ ، ٢٨٧
أرد ، نيو الأزل (ملك ليون) ؛ ٢٩٢ ، ٢٩٧ -
٢٩٩ ، ٣٤٥ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ ، ٣٦٢
أردونيوف الثاني ؛ ٢٩٢ - ٢٩٨ ، ٤٠٠ ،
٥٨٩ ، ٥٩١
أردونيوف الثالث ؛ ٤٥٩ ، ٤٨٤ - ٤٨٦ ،
٥٩٣ ، ٥٩٧ ، ٥٩٩ ، ٦٠٠
أرد نيو الرابع ؛ ٥٩٣ ، ٥٩٤ ، ٥٩٧
أرذبلش الوياحي ؛ ٣٧٥
أرمانيوس (ومانوس) ، القيصر ؛ ٤٥٣ ،
٤٥٤
أرموزندة ؛ ٢١٣
أرمنجو ، الكونت ؛ ٦٤٨
أرميخو الأسقف ؛ ٣٩٧
أرنولد ؛ ١١٠
أروزندا ؛ ٢١٨ ، ٢١٩
أزنا ؛ ٢٥٦
ازوار ؛ ٣٦٢
اسحاق الموصل ؛ ٢٨١
اسحاق بن إبراهيم ؛ ٣٣٠
اسحاق بن محمد البرزالي ؛ ٦٧٥
اسحاق بن محمد القرشي ؛ ٣٧٩
اسحاق بن المنذر ؛ ٢٥١
أسد بن الحرث ؛ ٣٠٧
اسكندر سيفروس ، الإمبراطور ؛ ٢٨
أسلم بن عبد الميز بن هشام ؛ ٤٦١
أسماء بنت غالب ؛ ٥٢٩
إسماعيل بن بدر ؛ ٤٠٢ ، ٤٦٠ ، ٤٦١ ، ٦٩٦ ،
٦٩٨
إسماعيل بن الحبج ؛ ١١٩
إسماعيل بن عباد ؛ ٦٧٠ ، ٦٧٢
إسماعيل بن عبيد الله ؛ ١١٩
إسماعيل بن لب ؛ ٢٩٩
إسماعيل بن موسى بن ذى النون ؛ ٢٦٥ ، ٢٩٩ ،
٣٠١ - ٣٠٣
أسنار ، الكونت ؛ ٣٤٣
آسورفرماندز ؛ ٥٩١
أصبح بن سلمة ؛ ٦١١
أصبح بن عبد الله بن وائسوس ؛ ٢٣٧
الأصمعي ؛ ٦٩٣
الأصيلي ؛ ٥٨٠
أغلب بن شعيب ؛ ٦٩٦
أفلق الصقلبي ، الوصيف ؛ ٣٤٨
أفلق صاحب الخليل ؛ ٤٥١ ، ٥٠٠
أفلق الفتي ، حاكم المرية ؛ ٦٥٨
الآريك ؛ ٢٨ - ٣٠ ، ٤٤ ، ٧٨
أبرو القرطبي ؛ ٢٦٩ ، ٢٧١
إلبيرة ، الراهبة ؛ ٤٨٩ - ٤٩١ ، ٥٩٦ ،
٥٩٧

- إلييرة ، والدة ألفونسو الخامس ؛ ٢١١
ألتاميرا ، أفانيل ؛ ٦٦ ، ٧٤ ، ٢١٢ ،
٢٢١ ، ٢٧٠
ألفايدة ؛ ٨٠
ألفونسو ، أمير ليون ؛ ١٦٩
ألفونسو الأول ، دوق كانتبريا ؛ ١٣٨ ،
١٦٩ ، ٢١٣ - ٢١٥ ، ٢١٨ - ٢٢٠ ،
٣٥٤
ألفونسو الثاني ، العفيف ؛ ٢١٨ ، ٢٢٠ ،
٢٢٦ ، ٢٢٨ ، ٢٣٥ ، ٢٤١ ، ٢٥٥ ،
٢٥٨ ، ٢٦١ ، ٣٥٣ - ٣٥٥
ألفونسو الثالث الكبير ؛ ٢٩٩ ، ٣٠٢ -
٣٠٤ ، ٣٠٦ ، ٣٢٧ ، ٣٤٢ ، ٣٤٥ ،
٣٤٦ ، ٣٥٨ - ٣٦١ ، ٣٩١
ألفونسو الرابع ؛ ٥٨٩ ، ٥٩٠ ، ٥٩٣ ،
ألفونسو الخامس ؛ ٥٦١ ، ٥٦٤ ، ٥٩٩ ،
٦١١ ، ٦١٣ ، ٦٢٩
ألفونسو العالم (العاشر) ؛ ٣٤ ، ٣٧ ، ٤٩٩
ألفونسو القس (جد ابن حفصون) ٣٠٨
الإقطاع ؛ ١٩٤
أم الأصغ أخت عبد الرحمن ؛ ١٥٠
أم الحكم بنت المستعين ؛ ٦٦٦
أمية بن اسحاق ؛ ٤٠٨ ، ٤٠٩ ، ٤١٣ ،
٤٢٠ ، ٤٢١
أمية بن الحكم ؛ ٢٥٨
أمية بن عبد الرحمن ؛ ٢٣٧
أمية بن عبد الرحمن العراقي ؛ ٦٦٩
أمية بن عبد الغافر بن أبي عبدة ؛ ٣٣١ ، ٣٣٢
أمية بن عبد الملك بن قطن ؛ ١٢٣ - ١٢٦ ، ١٦٢
أمية بن عيسى بن شهيد ؛ ٣١٣
أمية بن معاوية بن هشام ؛ ٢٥٦
آنزيموند ، الكونت ؛ ١٣٣ ، ١٣٧
أنسلم ؛ ١٨١
أشودة رولان ؛ ١٧٨ ، ١٨٠ - ١٨٢
أنجه الفرنجي ؛ ٤٢١
أنيجو أريستا ؛ ٣٦٢
أوباس ؛ ٣٤ ، ٤٥ ، ٥١ ، ٦٠ ، ٢١١
أوتو الأكبر ؛ ٤٥٦ - ٤٥٨ ، ٤٧٢ ،
٤٩١ ، ٤٧٣
- أوتو الثاني ؛ ٤٩١
أودلرادو ؛ ٥٤٤
أودو ، أمير أكوئين ؛ ٨٠ ، ٨١ ، ٨٦ -
٩٠ ، ٩٦ - ٩٨ ، ١٠١ - ١٠٣ ، ١٠٣ ،
١٠٨ ، ١١٣ - ١١٥ ، ١٣٧
أوراكا ابنة طوطة ملكة ناغار ؛ ٥٩٢ ، ٥٩٩ ،
٦٠٠
أوراكا بنت فرنان كونثال ؛ ٥٩١ ، ٥٩٣ ،
أورسيوس المورخ ؛ ٤٥٣ ، ٤٥٤ ، ٥٠٥ ،
أورليوس ؛ ٢١٨ ، ٢٢٠
أورية بنت موسى القسوى ؛ ٣٠٠
الاوزاعي ، الإمام ؛ ٢٢٩
أوغسطوس ، الإمبراطور ؛ ٥٠٨
أوليشر ؛ ١٨١ ، ١٨٢
أولونخيو ، سان ؛ ٢٧٠ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ ،
٢٧٩ ، ٢٩٣ ، ٢٩٦ ، ٣٠٣
إيجلونا ؛ ٧١ ، ٧٢
إيجهارد ؛ ١٨١
إيزيدور الباجي ؛ ٣٤ ، ٣٧ ، ٤٥ ، ٦٣ ،
٧٦ ، ٨٢ ، ٩٠ ، ٢٠٩
إيضا ؛ ٣٤ ، ٤٤ ، ٦٠ ، ٦١
إيمون ؛ ٤٧١
أيوب بن حبيب اللخمي ؛ ٧٣ ، ٦٨٠
أيوب بن عمر بن حفصون ؛ ٣٨٣
- ب - ت - ث
- باديس بن حبوس ؛ ٥٠٧ ، ٦٧١ ، ٦٧٢ ،
٦٧٤ - ٦٧٦
باسيه ، المستشرق ؛ ١٨٢
ببين القصير ، الملك ؛ ١٣٣ ، ١٧٠ ، ١٧١ ،
١٧٤ ، ٢٣٤ ، ٢٦٦
ببين دي هرشتال ، محافظ القصر ؛ ٨٠
ببين بن شارلمان ؛ ٤٦٦
بتروس ، الدوق ؛ ٢٠٨ ، ٢١٠ ، ٢١٣ ،
بدر الصقلبي ؛ ٣٤٧
بدو القائد ؛ ٢١٨
بدر مولى عبد الرحمن الداخل ؛ ١٥٠ - ١٥٢ ،
١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٨٧ ،
١٩٣ ، ١٩٨ ، ٢٠١ ، ٢١٦

| | |
|---|--|
| بوسون ؛ ٤٦٧ ، ٤٦٨ ؛ بون فيلي ؛ ٤٩٢ بيدال ، المؤرخ ؛ ١٧٢ ، ١٧٥ ، ١٧٨ ، ١٨٤ ، ٤٩١ ، ٥٦٥ ، ٥٨٦ بيرانجيه ؛ ٤٧٠ ، ٤٧٣ تاسيتوس ؛ ٢٨ تدفيليا بن أدفونش ؛ ٢١٥ تراچان ، الإمبراطور ؛ ٥٠٨ التروبادور ؛ ٤٧٨ تريسا بنت برمودو زوجة المنصور ؛ ٥٨٣ تريما زوجة سانشو ملك ليون ؛ ٥٩٦ تليد الفتي ؛ ٥٠٦ تمام الفتي ؛ ٤٥١ ، ٤٥٢ تمام بن عامر الثقفي ؛ ٣١٣ تمام بن علقمة اللخمي ؛ ١٥٢ ، ١٥٨ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٦ ، ١٩٨ ، ٢١٦ تميم بن معبد الفهري ؛ ١٣٥ تود فالد ؛ ٨٠ التيجاني ؛ ٥٧٠ تيودورا ، القيصرية ؛ ٢٨٣ تيودريك الأول ؛ ٢٩ تيودريك الثاني ؛ ٢٩ تيودريك الرابع ؛ ٩٨ تيودوفرد ، دوق ؛ ٣٣ تيودمير القوطي ؛ ٣٣ ، ٤١ ، ٥٠ ، ٥٥ ، ١٢٦ تيودمير ، أسقف إيريا ؛ ٢٤٠ تيودوسيوس ، الإمبراطور ؛ ١٧ تيوفيلوس ، القيصر ؛ ٢٨٢ ثعلبة بن سلامة الجذامي ؛ ١٢٠ ، ١٢٤ ، ١٢٦ ثعلبة بن عبيد الجذامي ؛ ١٦٨ ، ١٧٠ ، ١٧٥ ، ١٨٣ ، ١٨٨ ، ١٩٨ ثوابة بن سلامة الجذامي ؛ ١٢٧ | بدر بن أحمد الحاجب ؛ ٣٧٧ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٣٨١ ، ٣٩٥ ، ٤٦٠ ، ٤٦١ برت ، ملكة برجونية ؛ ٤٦٥ برمودو بن فرويلا ؛ ٢٢٠ ، ٢٢٦ برمودو الثاني ؛ ٥٤٢ ، ٥٤٧ ، ٥٤٨ ، ٥٥١ ، ٥٥٢ ، ٥٦٠ ، ٥٦١ ، ٥٦٣ - ٥٦٥ ، ٥٨٣ ، ٥٩٨ برنار ، القديس ؛ ٤٧٣ برنهارت ؛ ٢٥٧ بريهة بنت يحيى ، أم المنصور ؛ ٥٢١ بسيل الثاني ، القيصر ؛ ٦١٣ بشر بن صفوان الكلبي ؛ ٨٢ ، ٨٣ بشر بن مروان ؛ ٢٣ ، ٢٤ بشرى العامري ، الفتي ؛ ٦٣٠ بطرس ، ملك الصقلية ؛ ٤٥٦ بق بن مخلد ؛ ٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣٥١ ، ٦٨٥ ، ٦٩٤ بكر بن وائل ؛ ٢٣ بكر بن يحيى بن بكر ؛ ٣٣٠ بكير بن ماهان ؛ ١٤٣ بلاجيوس ، دوق كانتبريا ؛ ٣٣ البلاذري ؛ ٤٨ ، ١٠٦ بلايو (أو بلاجيوس) ؛ ٨٣ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ١١٤ ، ١٣٨ ، ٢٠٨ - ٢١٣ بلايو بن برمودو ؛ ٥٦١ بلايو ، القديس ؛ ٥٩٦ بلج بن بشر القشيري ؛ ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢٣ ، ١٢٥ ، ١٢٧ ، ١٣٠ ، ٦٨٧ بلقين بن جيجوس ؛ ٦٧١ بلكتروود ؛ ٨٠ بلكين بن زيري بن مناد ؛ ٤٩٣ ، ٤٩٤ ، ٤٩٩ ، ٥٤٥ بليزار يوس ؛ ١٨ بليط الفرنجي ؛ ٤٠٤ بليق الغلام ؛ ٦٤٦ بهار ، الجارية ؛ ٣٢٢ بهلول بن مروان ؛ ٢٣١ بهير ، الجارية ؛ ٢٨٩ بويون ؛ ٤٧٣ يوريل بن سوفيير ، الكونت ؛ ٤٩١ ، ٤٩١ ، ٥٤٤ |
|---|--|

ج - ح - خ

جانلون ؛ ١٨١ ، ١٨٢
جاينجوس ، المستشرق ؛ ١٠ ، ٦٤

- جدار بن عمرو المذحجي ؛ ١٥٢ ، ١٩٨
جريجوري الثاني ، البابا ؛ ١٠٨
جريجوريوس (جرجير) ؛ ١٦
جريمولد ؛ ٨٠
الجزية ؛ ٦٣ ، ٦٥ ، ٧٥ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٩٠
جعد بن عبد الخافر ؛ ٣٢٨ ، ٣٢٩
جعفر ، أم المؤيد ؛ راجع صبح أم المؤيد
جعفر بن دميان ؛ ٣٠٨
جعفر بن عبد الرحمن الصقلبي ؛ ٥١١
جعفر بن عثمان المصحق ؛ ٤٦٣ ، ٤٩٧ -
٤٩٩ ، ٥٠٣ ، ٥١٠ - ٥١٢ ، ٥١٧ -
٥٢٣ ، ٥٢٦ - ٥٣١ ، ٥٦٩ ، ٦٨٤ ،
٦٩٧ ، ٧٠٠
جعفر بن علي بن حمدون الأندلسي ؛ ٤٩٣ ،
٥٠٠ ، ٥٠١ ، ٥٣٨ ، ٥٣٩ ، ٥٤٢ ،
٥٤٥ ، ٥٧٥ ، ٧٠٢
جعفر بن عمر بن حفصون ؛ ٣٣٠ ، ٣٨٣ ،
٣٨٤
جعفر بن مقسم ؛ ٣٨٠
جميلة العذراء ؛ ٢٥٧ ، ٢٥٨
جند سالقوس بن ألفونسو الثالث ؛ ٣٦٠
جنسريك ؛ ١٧
جهور بن عبد الله بن أبي عبدة ؛ ٤٦١
جهور بن عبد الملك البخقي ؛ ٤٦٠ ، ٤٦١
جهور بن محمد بن جهور ، أبو الحزم ؛ ٦٦٠ ،
٦٦١ ، ٦٦٨ ، ٦١٩
جوذر الفقي ؛ ٥١٧ ، ٥١٨ ، ٥٢٦
جوث بن أنطوليان ؛ ٢٧٠ ، ٢٧٦ ، ٣١٦ ، ٦٩٥
جوزد سالقوسانشيز ؛ ٥٩٦ ، ٥٩٧
جوزالفوكوثالث ؛ ٥٤٨
جوهر الصملي ؛ ٤٩٢ ، ٦٩٩
جيون ، إدوارد ؛ ٤٤ ، ٩١ ، ١٠٩
جيرولدوس ؛ ٤٧٣
جيوم ؛ ٤٧٣
جيوم دي تولوز ؛ ٢٢٧ ، ٢٣٥ ، ٢٥٧
جين دي تولوز ؛ ٢٦٥
الحاجب المنصور ؛ أنظر محمد بن أبي عامر
حارث بن زيفم ؛ ٢٩١ ، ٢٩٢
الحباب بن رواحة الزهري ؛ ١٣٥ ، ١٣٦ ،
١٥٢
حباسة بن ماكسن ؛ ٦٥٢
حبوس بن ماكسن ؛ ٦٤٤ ، ٦٥٢ ، ٦٥٩ ،
٦٧٣
حبيب الخصى ؛ ٢٩٠
حبيب بن أبي عبدة الفهري ؛ ٧٢ ، ١١٨ - ١٢٠ ،
١٢٩ ،
حبيب بن سودة ؛ ٣٧٧ ، ٣٨١
حبيب بن عبد الملك ، ١٦١ ، ١٨٧
الحجاج الثقفي ؛ ٢٤
حليفة بن الأحوص القيسي ؛ ٨٣
الحمر بن عبد الرحمن الثقفي ؛ ٦٠ ، ٧٣ - ٧٥ ،
١٥٨ ، ٢١١ ، ٦٨٠
حزم بن وهب ؛ ٢٤٢
حسان بن حسان ؛ ٦٩٦
حسان بن مالك الكلبي ؛ ١٥٢ ، ١٩٨
حسان بن النعمان الفسافي ؛ ٢١ - ٢٥
حمداي بن اسحاق ؛ ٤٢٢
حمداي بن شبروت ؛ ٥٠٦ ، ٥١٥
الحسن بن أحمد بن عبد الودود السلمي ؛ ٥٤٦
حسن بن عبد الغافر بن أبي عبدة ؛ ٢٧٤
الحسن بن القاسم بن حمود ؛ ٦٦٣ ، ٦٧٦
الحسن بن كنون ؛ ٤٩٢ ، ٤٩٤ ، ٤٩٥ -
٤٩٩ ، ٥٤٤ ، ٥٤٥
الحسن بن علي بن أبي طالب ؛ ٦٥٧
حسن بن فتح ؛ ٦١٩
حسن بن يحيى المعتلي ؛ ٦٧١ ، ٦٧٢ ، ٦٧٣ ،
الحسين بن علي بن أبي طالب ؛ ١٢٧ ، ١٤١ ،
١٤٣ ، ١٦٤
الحسين بن يحيى الأنصاري ؛ ١٧٤ - ١٧٦ ،
١٨٧ ، ١٨٨
حشاش ، أمير البحر ؛ ٢٩٦
الحصين الثقفي ؛ ١٣٣ ، ١٣٤
الحصين بن الدحن ؛ ٢١٤
حفص بن عمر بن حفصون ؛ ٣٨٣ ، ٣٨٥ - ٣٨٨
حفص بن المرة ؛ ٣٢٩ ، ٣٣٦
حكم بن حفصون ؛ ٣٨٦
حكم بن سعيد القزاز ؛ ٦٦٨ ، ٦٦٩

خير بن شاكر ؛ ٣٢٤
خيران العامري ؛ ٦١٦ ، ٦٤٩ ، ٦٥٨ —
٦٦٢ ، ٦٦٨ ، ٦٨٦ ، ٧٠٤

د — ز

داجوبيرت ؛ ٧٨ ، ٧٩
داود بن هلال ؛ ١٦٧
دحية النساني ؛ ١٦٨
دري بن عبد الرحمن الصقلبي ؛ ٣٩٠ ، ٤٠٧ ،
٤٥١ ، ٥١٤ ، ٥٢٦
دوزي ، المستشرق ؛ ٦٣ ، ١١٨ ، ١٩٤ ،
٢٦٧ ، ٣٨٣ ، ٤٤٧ ، ٤٦٣ ، ٥٠٧ ،
٥٦٥ ، ٥٨٦
دواشديو الأسقف ؛ ٣٩٧
دوناس بن أبي روح ؛ ٦٦٨
ديبل الزعيم الشعبي ؛ ٢٣٧
ديسقوريدس ؛ ٤٥٣ ، ٤٥٤ ، ٥٠٥ ، ٥١٥
ديسم بن إسحاق ؛ ٣٣٠
ديسيوس ، الإمبراطور ؛ ٢٨
ذكاء الفقي ؛ ٥٠٣
الذلفاء ، أم عبد الملك المنصور ؛ ٦٠٨ ، ٦١٨ ،
٦٣٠ ، ٦٣١ ، ٦٣٤ ، ٦٣٥
ذو النون بن سليمان الهواري ؛ ٣٠٧
راتبود ، زعيم فريزيا ؛ ٧٩
راجنفرد ؛ ٨٠
الرازي ، عيسى بن أحمد ؛ ١١٧ ، ١٢٩ ،
٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٧٨ ، ٢٩٤ ، ٣١٠ ،
٣٧٨ ، ٣٨١ ، ٣٨٤ ، ٣٩٢ ، ٤١٥ ،
٤١٦
رامون بوريل الثالث ؛ ٦١١ ، ٦٤٨
راميرو الأول (رذمير) ؛ ٢٦١ ، ٢٦٢ ،
٣٥٤ — ٣٥٦
راميرو الثاني ؛ ٤٠١ ، ٤٠٣ ، ٤٠٥ — ٤٠٧ ،
٤٠٩ ، ٤١٣ ، ٤١٨ — ٤٢٠ ، ٤٢٢ ،
٤٢٣ ، ٥٨٩ ، ٥٩٠ ، ٥٩١ ، ٥٩٢ ،
٥٩٧ ، ٦٠٠
راميرو الثالث ؛ ٤٨٩ ، ٤٩٠ ، ٥٣٨ ،
٥٤١ ، ٥٤٢ ، ٥٩٦ ، ٥٩٨
راميرو أباركا ؛ ٥٣٩

الحكم بن محمد ؛ ٢٩٩ ، ٣٠٠
الحكم بن عبد الرحمن بن الحكم ؛ ٢٩٢
الحكم المستنصر ؛ ٣٧٨ ، ٣٨٥ ، ٣٨٦ ،
٣٩٩ ، ٤٠٢ ، ٤٣٧ ، ٤٣٩ ، ٤٥٠ ،
٤٥٢ ، ٤٥٣ ، ٤٨٣ — ٤٩٠ ، ٤٩٢ —
٤٩٤ ، ٤٩٦ ، ٤٩٨ ، ٤٩٩ ، ٥٠٠ ،
٥٠٢ ، ٥٠٣ ، ٥٠٥ ، ٥٠٧ ، ٥٠٨ ،
٥١٠ ، ٥١٢ — ٥٢٤ ، ٥٢٧ ، ٥٢٩ ،
٥٤٤ ، ٥٦٩ ، ٥٧٨ ، ٥٨٣ ، ٥٩٤ ،
٥٩٧ ، ٥٩٨ ، ٦٠٠ ، ٦٥٠ ، ٦٥٦ ،
٦٨٢ — ٦٨٤ ، ٦٩٧ ، ٧٠٠ — ٧٠٣
حكم بن منذر ؛ ٤٠٨
الحكم بن هشام ؛ ٢٣٠ — ٢٣٣ ، ٢٣٥ —
٢٣٧ ، ٢٣٩ — ٢٤٣ ، ٢٤٥ ، ٢٤٧ —
٢٥٢ ، ٢٥٤ ، ٢٧٠ ، ٢٧٦ ، ٢٨١ ،
٣١٣ ، ٣٥٤ ، ٤٢٩ ، ٤٣٨ ، ٤٤٨ ،
٤٦٥ ، ٥٤٣ ، ٦٨٢ ، ٦٨٤ ، ٦٩٢ ، ٦٩٣
حلاوة ، الحارثية ؛ ٢٥٤
حلل ، الحارثية ؛ ٢٢٤
حلورية أر حلورية ؛ أنظر إلبيرة الراحبة
حدرن بن بسيل ؛ ٣١٢
الحميدى ، أبو عبد الله ؛ ١٠٧
حتظلة بن صفوان الكلبي ؛ ١٢٠ ، ١٢١ ،
١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٣٠
حنون بن أحمد بن عيسى ؛ ٤٩٨٠
حيوة بن ملامس الحضرمي ؛ ١٦٠ ، ١٦١ ،
١٦٦
خالد بن أمية بن شهيد ؛ ٤٦١ ، ٤٦٢
خالد بن حبيب ؛ ١١٩
خالد بن حيد الزناتي ؛ ١١٩
خالد بن عثمان بن خلدون ؛ ٣٣١ — ٣٣٣
خالد بن الوليد ؛ ٢٣
الحشني ، أبو عبد الله ؛ ٣١٥ ، ٤٣١ ، ٥٠٥
خلف بن بكر ؛ ٣٩٠
خلف بن حسين بن حيان ؛ ٥٧٤ ، ٥٨١
خلف بن خليفة ؛ ٦١٩
خليفة بن مروان ؛ ١٦٣
خمين ، الملكة ؛ ٣٦٠
خمينو غرسييس ؛ ٥٩٩

- رائكة المورخ ؛ ٩١٠
ربيع بن تديف القومس ؛ ٢٥٩
ربيع بن زيد الأسقف ؛ ٢٤٣ ، ٢٥٥ ، ٤٣٨ ،
٤٥٦ ، ٤٥٧ ، ٥٠٧
رتشارد ملك النورمان ؛ ٤٨٨
روحيك ملك القوط ؛ ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٧ ،
٣٩ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٧١ ،
٩٧ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩
ردريك الطليطلي ؛ ٣٣ ، ٣٥ ، ٣٧
وزق بن النعمان القسافي ؛ ١٦
للرشيد ، هارون ؛ ٩٧٤ ، ٢٣٤ ، ٢٨٩
للرواحس بن عبد العزيز الكتافي ؛ ٩٨٧
روتيبالدس الكونت ؛ ٤٧٠
رولان ؛ ١٨١ ، ١٨٢
ووللو ملك النورمان ، ٤٨٨
رومانوس الثاني ، لاتيصر ؛ ٤٨٤
ريان الفتي ؛ ٣٤٨
الرياحي (ارذيلش) ؛ ٣٧٥
ويشموندو الإلبيري ؛ أنظر ربيع بن زيد
ويكافود ؛ ٢٧١
وينو ، المستشرق ؛ ٤٧٩
ريوتيانوس ، الكونت ؛ ٣٥٥
زاو بن زيري بن مناد ؛ ٦١٨ ، ٦٤٤ ،
٦٤٧ ، ٦٤٨ ، ٦٥٣ ، ٦٥٩ ، ٦٦٠ ،
٦٦٢
زخرف ، الجارية ؛ ٢٣٠
زروال بن عمري ؛ ٤٩٩ ، ٥٠١
زرياب (أبو الحسن علي بن نافع) ؛ ٢٨١
زكريا بن عمرو ؛ ٣٠١
للزهراء (جارية الناصر) ؛ ٤٣٦
زهير العامر ؛ ٦١٦ ، ٦٦٢ ، ٦٦٨ ، ٦٧١ ،
٦٧٢
زهير بن قيس البذو ؛ ٢٠ ، ٢١
زياد بن أفلح ؛ ٤٨٩ ، ٥٩٧
زياد بن عبد الرحمن ؛ ٢٢٩ ، ٦٩١ ، ٦٩٢
زيادة الله بن مضر الطيني ؛ ٥٧٩
زيري بن عطية ؛ ٥٤٥ - ٥٤٧ ، ٥٥٧ - ٥٥٩ ،
٦٠٩
- زيري بن مناد الصنهاجي ؛ ٤٩٣ ، ٥٠١
زيلير ، المورخ ؛ ١١٠
س — ط
سابور الفتي ؛ ٥٠٧
ساجيتوس ؛ ٤٦٨
سارة القوطية ؛ ٦١ ، ٣٣١ ، ٧٠٠
ساقدر ، المستشرق ؛ ٥٦٥
سالم ، مولى عبد الرحمن ؛ ١٥٠
سانشا ، دونيا ؛ ٣٤٣
سانشا ابنة طوطة ملكة نافار ؛ ٦٠٠
سانشو زعيم نافار ؛ ٣٦٢
سانشو الأول ملك نافار ؛ ٣٤٢ ، ٣٤٣ ،
٣٦٢ ، ٣٩٤ ، ٣٩٦ - ٤٠٠ ، ٤٠٢
سانشو الثاني ملك نافار ؛ ٥٤١ ، ٥٤٧
سانشو الكبير ، ملك نافار ؛ ٦٠١
سانشو الأول ملك ليون ؛ ٤٢٣ ، ٤٥٩ ،
٤٨٤ - ٤٨٧ ، ٤٨٩ ، ٥٩٣ ، ٥٩٤ ،
٥٩٦ ، ٥٩٧ ، ٦٠٠
سانشو غرسية بن فرتون ؛ ٣٦٢ ، ٣٦٣ ،
٥٩٩
سانشو غرسية ملك نافار ؛ ٤٩٠ ، ٤٩١ ،
٥٨٣ ، ٥٨٤ ، ٥٨٩ ، ٥٩٧ ، ٥٩٨ ،
٦٠٠ ، ٦٢٣
سانشو غرسية ، أمير قشتالة ؛ ٥٥١ ، ٥٥٢ ،
٥٦٢ ، ٥٦٤ ، ٥٦٦ ، ٦١٠ - ٦١٣ ،
٥١٥ ، ٦٢٩ ، ٦٤٦ ، ٦٤٧ ، ٦٥٠ ،
٦٥١
سانشو غرسيس ملك نافار ؛ ٥٦٤
سباحريوس ؛ ٧٧
سترايون الجفرائي ؛ ١٧٣
سيبعة ، زوجة القائم بن حمود ؛ ٦٧٣
السري بن الحكم ؛ ٢٤٥
سسموند ، المورخ ؛ ١١٠
سستاندو ، الأسقف ؛ ٥٩٦
سعد الخادم ؛ ٥٥٠
سعد بن عبادة ؛ ١٦٨
سعدون الرعيني ؛ ٢٣٥

سعدون بن عامر السرقباني ؛ ٣٠٥ ، ٣٠٤ ، ٣٠٦
 سعيد بن أبي هند ؛ ٢٢٩
 سعيد اليحصبي (المطري) ؛ ١٦٣
 سعيد بن الحسين الأنصاري ؛ ١٨٧ ، ١٨٨ ، ٢٢٥
 سعيد بن الحكم الجعفي ؛ ٥١٢
 سعيد بن أيوب ؛ ٤٤٦
 سعيد بن حسان ؛ ٦٩٢
 سعيد بن سعيد بن حدير ؛ ٦٨٥
 سعيد بن سليمان بن جودي ؛ ٣٢٩ ، ٦٩٦
 سعيد بن عباس القرشي ؛ ٣٠٠
 سعيد بن عبد ربه ؛ ٣٥١
 سعيد بن عمرو العكي ؛ ٣٥١
 سعيد بن الأمير محمد ؛ ٢٩١ ، ٢٩٢
 سعيد بن محمد بن أبي السليم ؛ ٣٤٧
 سعيد بن مسنن ؛ ٣٣٠ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨
 سعيد بن المنذر القرشي ؛ ٣٨٦ ، ٣٩٦ ، ٤٠٧ ، ٤٦١ ، ٤٦٢
 سعيد بن هذيل ؛ ٣٧٥
 سعيد بن يونس بن سعديل ؛ ٢٤٤
 السفاح ؛ أنظر عبد الله بن محمد بن علي
 سفيان بن عبد ربه ؛ ٢٧٥
 سكوت ، المؤرخ ؛ ٦٤
 سلمة بن علي بن أبي عبدة ؛ ٣٤٧
 السلمي القتال ؛ ١٨٧
 سليط بن عبد الله بن عباس ؛ ١٤٤
 سليمان بن الحكم المستعين ؛ ٤٤٠ ، ٦٤٦ ، ٦٥٠ ، ٦٥٢ ، ٦٥٤ ، ٦٥٧ ، ٦٥٩
 سليمان بن المرقضي ؛ ٦٦٤ ، ٦٦٦
 سليمان بن شهاب ؛ ١٣٣ ، ١٣٤ ، ٢١٤
 سليمان بن عبد الرحمن بن معاوية ؛ ٢٠٠ ، ٢٢٣ ، ٢٢٥ ، ٢٣١ ، ٢٣٣ ، ٤٦٥
 سليمان بن عبد الملك ؛ ٥٧ ، ٥٩ ، ٧١ ، ٧٣ ، ٩٣ ، ١١١ ، ١٤٠ ، ١٤٣
 سليمان بن عبدوس ؛ ٣٠٠
 سليمان بن عثمان ؛ ١٦٥
 سليمان بن عمر بن حفصون ؛ ٣٨٣ ، ٣٨٦ ، ٣٩٨
 سليمان بن مرتين ؛ ٢٥٧ ، ٢٥٩
 سليمان بن هشام ؛ ٦٣٣ ، ٦٤٥
 سليمان بن هشام بن عبد الله بن الناصر ؛ ٦٦٧
 سليمان بن هود ؛ ٦٦٩
 سليمان بن وائسوس ؛ ٣١٣ ، ٣٤٧
 سليمان بن يقظان الكلبي ؛ ١٦٨ ، ١٧٠ ، ١٧٢ ، ١٧٤ ، ١٧٨ ، ١٨٠ ، ١٨٦ ، ١٨٧
 السمع بن مالك الخولاني ؛ ٧٤ ، ٧٦ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٩ ، ٩٧ ، ٢٢٨ ، ٥٧٧ ، ٦٨٠ ، ٦٨٦
 سواجات البرغواطى ؛ ٦٧٥
 سوار بن حدون القيسي ؛ ٣٢٨ ، ٣٢٩ ، ٦٩٦
 سوزي الشاعر ؛ ٥٧
 سيزيوت ابن وتيزا ؛ ٣١ ، ٣٤ ، ٤٤ ، ٦٠ ، ٦١
 سيلو ، ملك جليقية ؛ ٣١٨
 سيمونيت ، المستشرق ؛ ٦٦ ، ٧١ ، ٢٠٨ ، ٢٣٨ ، ٢٦٧ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧٢ ، ٢٧٩ ، ٣٨٣ ، ٥٧٠
 شارل الأصابع ؛ ٢٦٥ ، ٣١٤ ، ٣٥٧ ، ٤٦٦
 شارلمان (كارل الأكبر) ؛ ١٧١ ، ١٧٦ ، ١٧٨ ، ١٨٠ ، ١٨٤ ، ٢١٨ ، ٢٢٧ ، ٢٣١ ، ٢٣٣ ، ٢٣٥ ، ٢٤٢ ، ٢٥٦ ، ٤٦٥
 شريط ؛ ٣٤٢
 شفاء ، البخارية ؛ ٢٧٨
 شقنا بن عبد الواحد (الفاطمي) ؛ ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٧ ، ١٦٨
 شلبراند ؛ ١١٥ ، ١١٦
 شلدريك الثالث ؛ ١٣٣
 شمر بن ذي الجوشن ؛ ١٢٧
 شنجول ؛ أنظر عبد الرحمن المنصور
 شنير ، الكنت ؛ ٣٤٣
 شنير بن منفرد ؛ ٤٢٢
 شهيد بن عيسى بن شهيد ؛ ١٩٨
 صاعد بن الحسن البغدادي ؛ ٥٥١ ، ٥٥٢ ، ٥٦٣ ، ٥٧٩ ، ٥٨٠ ، ٦٢٠ ، ٦٢٨ ، ٧٠٤
 صالح بن علي ؛ ١٤٦
 صبح أم المؤيد ؛ ٥٠٢ ، ٥٠٣ ، ٥٢٠ ، ٥٢٥

سعدون بن عامر السرقباني ؛ ٣٠٥ ، ٣٠٤ ، ٣٠٦
 سعيد بن أبي هند ؛ ٢٢٩
 سعيد اليحصبي (المطري) ؛ ١٦٣
 سعيد بن الحسين الأنصاري ؛ ١٨٧ ، ١٨٨ ، ٢٢٥
 سعيد بن الحكم الجعفي ؛ ٥١٢
 سعيد بن أيوب ؛ ٤٤٦
 سعيد بن حسان ؛ ٦٩٢
 سعيد بن سعيد بن حدير ؛ ٦٨٥
 سعيد بن سليمان بن جودي ؛ ٣٢٩ ، ٦٩٦
 سعيد بن عباس القرشي ؛ ٣٠٠
 سعيد بن عبد ربه ؛ ٣٥١
 سعيد بن عمرو العكي ؛ ٣٥١
 سعيد بن الأمير محمد ؛ ٢٩١ ، ٢٩٢
 سعيد بن محمد بن أبي السليم ؛ ٣٤٧
 سعيد بن مسنن ؛ ٣٣٠ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨
 سعيد بن المنذر القرشي ؛ ٣٨٦ ، ٣٩٦ ، ٤٠٧ ، ٤٦١ ، ٤٦٢
 سعيد بن هذيل ؛ ٣٧٥
 سعيد بن يونس بن سعديل ؛ ٢٤٤
 السفاح ؛ أنظر عبد الله بن محمد بن علي
 سفيان بن عبد ربه ؛ ٢٧٥
 سكوت ، المؤرخ ؛ ٦٤
 سلمة بن علي بن أبي عبدة ؛ ٣٤٧
 السلمي القتال ؛ ١٨٧
 سليط بن عبد الله بن عباس ؛ ١٤٤
 سليمان بن الحكم المستعين ؛ ٤٤٠ ، ٦٤٦ ، ٦٥٠ ، ٦٥٢ ، ٦٥٤ ، ٦٥٧ ، ٦٥٩
 سليمان بن المرقضي ؛ ٦٦٤ ، ٦٦٦
 سليمان بن شهاب ؛ ١٣٣ ، ١٣٤ ، ٢١٤
 سليمان بن عبد الرحمن بن معاوية ؛ ٢٠٠ ، ٢٢٣ ، ٢٢٥ ، ٢٣١ ، ٢٣٣ ، ٤٦٥
 سليمان بن عبد الملك ؛ ٥٧ ، ٥٩ ، ٧١ ، ٧٣ ، ٩٣ ، ١١١ ، ١٤٠ ، ١٤٣
 سليمان بن عبدوس ؛ ٣٠٠
 سليمان بن عثمان ؛ ١٦٥
 سليمان بن عمر بن حفصون ؛ ٣٨٣ ، ٣٨٦ ، ٣٩٨
 سليمان بن مرتين ؛ ٢٥٧ ، ٢٥٩

- عبد الجبار بن المغيرة ؛ ٦٣٣ - ٦٣٥
عبد الحميد بن بسيل ؛ ٣٨٥ ، ٣٩٠ ، ٣٩٩ ،
٤٠٦ ، ٤٠٩ ، ٤٦١ ، ٤٦٢
عبد الحميد بن ميث ؛ ٣١١
عبد الرحمن الناصر ؛ ١٩٧ ، ١٩٨ ، ٢٠٤ ،
٢٩٥ ، ٢٦٤ ، ٢٧٤ ، ٢٧٩ ، ٣٢٩ -
٣٣١ ، ٣٣٤ ، ٣٣٩ ، ٣٤١ ، ٣٤٣ ،
٣٤٨ ، ٣٤٩ ، ٣٥١ ، ٣٦٣ ، ٣٧٣ -
٣٨١ ، ٣٨٤ ، ٣٨٦ ، ٣٩٠ - ٣٩٢ ،
٣٩٤ ، ٣٩٦ - ٣٩٩ ، ٤٠٨ ،
٤٠٩ - ٤١٢ ، ٤١٧ - ٤٢٩ ، ٤٣١ -
٤٣٩ ، ٤٤٦ - ٤٤٨ ، ٤٥٠ ، ٤٦٣ ،
٤٧٢ ، ٤٨٢ - ٤٨٧ ، ٤٩١ ، ٤٩٢ ،
٥٠٤ ، ٥٠٥ ، ٥١١ - ٥١٦ ، ٥٣١ ،
٥٤٤ ، ٥٤٩ ، ٥٥١ ، ٥٧٩ ، ٥٨٣ ،
٥٨٤ ، ٥٨٩ ، ٥٩٠ - ٥٩٣ ، ٥٩٩ ،
٦٠٠ ، ٦٠٦ ، ٦٦٩ ، ٦٨٢ ، ٦٨٤ ،
٦٨٥ ، ٦٨٨ ، ٦٩٠ ، ٦٩٥ - ٧٠١
عبد الرحمن بن إبراهيم بن حجاج ؛ ٣٣٤ ،
٣٣٨ ، ٣٧٧
عبد الرحمن بن أحمد بن زكريا ؛ ٤٦١
عبد الرحمن بن يدر ؛ ٤٦٠
عبد الرحمن بن الحكم ؛ ١٩٧ ، ٢٣٨ - ٢٤٠ ،
٢٤٤ ، ٢٤٧ ، ٢٥١ - ٢٥٥ ، ٢٥٧ -
٢٦٥ ، ٢٦٧ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ - ٢٨٤ ،
٢٨٩ ، ٢٨٩ ، ٢٩١ ، ٢٩٤ ، ٢٩٦ ،
٣٠٤ ، ٣١٢ - ٣١٤ ، ٣١٦ ، ٣٤٦ ،
٣٥٤ - ٣٥٦ ، ٣٧٣ ، ٤٢٩ ، ٤٥٦ ،
٤٦٥ ، ٤٦٦ ، ٤٨٤ ، ٤٨٨ ، ٥١٥ ،
٦٨٢ ، ٦٨٤ ، ٦٨٧ ، ٦٩٠ ، ٦٩٤ ،
٦٩٥ ، ٧٠٤
عبد الرحمن بن الحكم المستنصر (الطفل) ؛ ٥٠٢ ،
٥٢٠ ، ٥٢١
عبد الرحمن بن المنصور ؛ ٥٥٣ ، ٥٦٢ ، ٥٨٣ ،
٦٠٧ ، ٦٠٩ ، ٦١٥ ، ٥١٩ ، ٦٢٣ -
٦٣٢ ، ٦٣٥ - ٦٣٨ ، ٦٤٤ ، ٦٤٧ ،
٦٨٣ ، ٦٨٦
عبد الرحمن بن أمية بن شهيد ؛ ٣١٨ ، ٣٤٧
عبد الرحمن بن حبيب الفهر ؛ ١٢٠ ، ١٢٤ -
- ٥٢٩ ، ٥٣٦ ، ٥٣٧ ، ٥٥٤ - ٥٥٦
صهقر قریش ؛ ١٩٥ ، ١٩٦
صمويل ، اسم ابن حنصون النصراني ؛ ٣٣٧
الصميل بن حاتم ؛ ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٣٠ ،
١٣١ ، ١٣٤ - ١٣٦ ، ١٥١ - ١٥٤ ،
١٥٦ - ١٦٠
الغبي ، أحمد بن يحيى ؛ ١٠٧
الضحاك بن قيس الفهر ؛ ١٥٤
طارق بن زياد الليثي ؛ ٢٥ ، ٤٠ - ٤٢ ،
٤٥ - ٥٤ ، ٥٧ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٨٦ ،
٢١٠ ، ٥٢١ ، ٥٥٩ ، ٦٨٦
المالوت المعافري ؛ ٢٤٣ ، ٢٤٤ ،
طاهر بن محمد البغدادي ؛ ٦٩٧ ، ٦٩٨
المطبري ؛ ١٠٦
طرسوس المجوسي ؛ ٦٣٣
طرفة الفتي ؛ ٦١٦ ، ٦١٧
طرفة بن لقيط ؛ ٢٥١
طروب البخارية ؛ ٢٧٥ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٨٩
طريف بن مالك ؛ ٤٠ ، ٤٨
طوطمة ملكة تافار ؛ ٤٠٢ ، ٤٠٥ ، ٤٠٦ ،
٤٠٨ ، ٤١٤ ، ٤٢٠ ، ٤٥٩ ، ٥٩٢ ،
٥٩٣ ، ٥٩٩ ، ٦٠٠
ع-غ
عاصم بن مسلم الشنقي ؛ ١٩٨
عامر بن أبي جوشن ؛ ٣٩٠ ، ٣٩١
عامر بن عامر ؛ ٣٠٩
عامر بن عمرو العبدوي ؛ ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٥٢
عامر بن فتوح الفائق ؛ ٦٥٩
عامر بن كليب ؛ ٢٦٠
عائشة بنت أحمد بن قادم ؛ ٥١٦
عباس بن الوليد ؛ ٢٦٥
عباس بن عبد العزيز القرشي ؛ ٣٧٥
العباس بن عبد الله ؛ ٢٥١
العباس بن عبد المطلب ؛ ١٤٣
عباس بن فرناس ؛ ٢٥٢ ، ٢٨٠ ، ٢٨١ ،
٢٩٣ ، ٣١٤ ، ٣١٥ ، ٦٩٣ ، ٦٩٥ ، ٧٠٤
عباس بن ناصح الجزيري ؛ ٢٤١ ، ٢٤٢ ،
٢٥٢ ، ٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٦٩٣
عبد الأعلى بن وهب ؛ ٢٧٦ ، ٦٩٤

- عبد الرحمن بن هشام (المستظهر) ؛ ٦٦٥ ، ٦٦٤ ؛
عبد الرحمن بن وهاب ؛ ٣٩٩
عبد الرحمن بن يوسف الفهرى ؛ ١٣٦ ، ١٥٢ ،
١٥٤ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ٢١٣
عبد الرحمن بن يوسف بن أرطليل ؛ ٤٩٥
عبد السلام بن بسيل الرومى ؛ ١٩٨
عبد السلام بن يزيد بن هشام ؛ ١٨٩ ، ٦٩٤
عبد العزيز بن أبي عبدة ؛ ٢٥١ ، ٦٨٤
عبد العزيز بن الناصر ؛ ٥٠٦
عبد العزيز بن عباس ؛ ٣٠٩
عبد العزيز بن عبد الرحمن التجيبى ؛ ٣٤١
عبد العزيز بن عبد الرحمن المنصور ؛ ٦٢٧ ، ٦٨٦
عبد العزيز بن مروان ؛ ٢٣ ، ٢٤ ، ٣٥
عبد العزيز بن موسى بن نصير ؛ ٥٥ ، ٥٦ ،
٥٨ ، ٧١ - ٧٣ ، ١٢٦
عبد الغافر اليماني ؛ ١٦٠
عبد الغافر اليحصبي ؛ ١٦٦
عبد الغافر بن عبد العزيز ؛ ٣٠١
عبد القادر بن أبان ؛ ٢٢٧
عبد الكريم بن مهران الفسائي ؛ ١٥٨
عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث ؛ ٢٢٨ ،
٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٤٢ ، ٢٤٤ ، ٢٥١ ،
٢٥٤ - ٢٥٦ ، ٢٧٤ - ٢٧٦ ، ٣٥٤ ،
٦٨٤ ، ٦٩٣ ، ٦٩٤
عبد الله بن أبي حاتم ؛ ٥١٥ ، ٦٢٩ ، ٦٣٣ ،
٦٣٤
عبد الله بن أحمد بن محمد بن عيسى ؛ ٤٦١
عبد الله بن أصغ ؛ ٣٨٠
عبد الله البلنسي ؛ ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٣٢ ،
٢٣٣ ، ٢٣٥ ، ٢٤١ ، ٢٥٥ ، ٤٦٥
عبد الله بن الشعر بن نمير ؛ ٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٦٩٤
عبد الله بن بدر ؛ ٤٦٠ ، ٤٦١
عبد الله بن حبيب ؛ ٣١٥
عبد الله بن حجاج ؛ ٣٣١ ، ٣٣٢
عبد الله بن خالد ؛ ١٥١ ، ١٥٣ ، ١٦٤ ، ١٩٨
عبد الله بن سعد بن أبي سرح ؛ ١٥ ، ١٦
عبد الله بن طاهر ؛ ٢٤٥
عبد الله بن عباس بن أحمد بن أبي عبدة ؛ ٤٦١
١٢٧ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٥٠ ، ١٦٢ ، ١٧١
عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبدة ؛ ١٢٩
عبد الرحمن بن حبيب العسلي ؛ ١٨٥ ، ١٨٦
عبد الرحمن بن حفصون ؛ ٣٨٣ ، ٣٨٤
عبد الرحمن بن حمدون بن أبي عبدة ؛ ٣٤٧
عبد الرحمن بن رستم ؛ ٢٧٤ ، ٢٧٥
عبد الرحمن بن رباح ؛ ٤٨٨ ، ٤٨٩ ،
٥٠١ ، ٥٠٥
عبد الرحمن بن سعيد بن مالك ؛ ٣٩٠
عبد الرحمن بن عبد العزيز التجيبى ؛ ٣٤١
عبد الرحمن بن عبد الله الجليقي ؛ ٣٨٩
عبد الرحمن بن عبد الله الزجالي ؛ ٤٦٢
عبد الرحمن بن عبد الله الغاقي ؛ ٨١ ، ٨٤ ،
٨٥ ، ٨٨ - ٩٠ ، ٩٦ - ١١٠ ، ١١٣ ،
٢١٢ ، ٦٨٦ ، ٦٨٧
عبد الرحمن بن علقمة اللخمي ؛ ١١٤ ، ١١٥ ،
١٢٤ - ١٢٦ ، ١٣٤ ، ١٣٧
عبد الرحمن بن غانم ؛ ٣١٢
عبد الرحمن بن فطيس ؛ ٧٠٤
عبد الرحمن بن كثير اللخمي ؛ ١٢٨
عبد الرحمن بن الأمير محمد ؛ ٢٩٩
عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن الناصر ؛
أنظر المرتضى بالله
عبد الرحمن بن مروان الجليقي ؛ ٣٠٠ - ٣٠٣ ،
٣٠٧ ، ٣١٣ ، ٣٣٠ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩
عبد الرحمن بن مطرف التجيبى ؛ ٥٤٩ ، ٥٥٠
عبد الرحمن بن معاوية (الداخل) ؛ ١٣٦ ،
١٤٩ - ١٧٠ ، ١٨٥ - ٢٠٥ ، ٢١٤ -
٢١٦ ، ٢١٩ ، ٢٢٣ - ٢٢٥ ، ٢٣٠ ،
٢٣١ ، ٢٣٣ ، ٢٣٩ ، ٢٤٩ ، ٢٥٢ ،
٢٥٦ ، ٢٧٤ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨٥ ،
٣١٤ ، ٣٢٢ ، ٣٤٤ ، ٤٢٩ ، ٤٣٦ ،
٤٤٨ ، ٤٦٠ ، ٤٦٤ ، ٤٨٤ ، ٥٠٤ ،
٥٠٨ ، ٥١٤ ، ٥٥١ ، ٦٠٦ ، ٦٨١ ،
٦٨٢ ، ٦٨٤ ، ٦٨٧ ، ٦٩٠
عبد الرحمن بن مغيث ؛ ١٩٨
عبد الرحمن بن مثنانا ؛ ٦٧٣ ، ٧٠٥
عبد الرحمن بن هاشم ؛ ٤٠٩

- عبد الله بن الأمير عبد الرحمن : ٢٨٩ ، ٢٩٠
عبد الله بن عبد الرحمن الناصر : ٤٠٢ ، ٤٥٠
عبد الله بن عبد العزيز المرواني : ٥٤٩ ، ٥٥١ ، ٥٥٢
عبد الله بن عبد الملك بن مروان : ١٩ ، ٢٣
عبد الله بن عمرو بن العاص : ٦٢٧
عبد الله بن عمرو بن مسلمة : ٣٩٠
عبد الله بن قاسم الفهري : ٦٦٨
عبد الله بن قريش بن بدر : ٢٨٠
عبد الله بن كليب : ٢٦٠ ، ٢٦٣ ، ٢٦٥
عبد الله بن محمد ، الأمير : ٣٠٤ ، ٣٠٨
٣١٦ ، ٣١٨ ، ٣٢٠ ، ٣٢٢ ، ٣٢٤ —
٣٢٦ ، ٣٢٩ ، ٣٣٣ — ٣٣٦ ، ٣٣٨
٣٤٠ ، ٣٤٢ ، ٣٤٤ ، ٣٤٦ — ٣٥١
٣٦٠ ، ٣٦٣ ، ٣٧٣ ، ٣٧٦ ، ٣٩٢
٥٤٩ ، ٥٥١ ، ٥٩٥ ، ٦٩٥ ، ٦٩٦
عبد الله بن محمد بن أبي حوثر : ٢٧٦
عبد الله بن محمد بن أمية : ٢٧٦
عبد الله بن محمد الزجالي : ٤٦٠ ، ٧٠٠
عبد الله بن محمد بن علي (النفاح) : ١٤٥
١٤٦ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ٢٠٢
عبد الله بن محمد بن لب : ٣٤٢ ، ٣٤٣
٣٦٣ ، ٣٩٨
عبد الله بن محمد بن مروان الخليلي : ٣٣٩
٣٨٩ ، ٣٩٢ ، ٣٩٣
عبد الله بن مروان : ١٩ ، ٢٣
عبد الله بن مسلمة : ٦٣٤
عبد الله بن المنصور : ٥٤٩ ، ٥٥٠ ، ٥٥١
عبد الله بن موسى بن نصير : ٢٥ ، ٥٦
٥٨ ، ٧١ ، ٧٣
عبد الله بن وهب : ٢٧٦ ، ٦٩٢
عبد الله بن يحيى : ٢٦٥
عبد الله بن يحيى بن إدريس الخالدي : ٣٥١ ، ٤٢٤ ، ٤٦١
عبد الملك بن أبي الجواد : ٣٣٠ ، ٣٣٩
عبد الملك بن إدريس الجيزي : ٦١٧
عبد الملك بن إدريس الخولاني : ٥٧٤
عبد الملك بن جهوز : ٣٥١ ، ٤٦٢ ، ٦٥٥ ، ٦٩٨
- عبد الملك بن حبيب : ٢٧٦
عبد الملك بن حبيب السلمي : ٦٩٢ ، ٦٩٣
عبد الملك بن سعيد بن أبي حمزة : ٤٠٤ ، ٤٢٦
عبد الملك بن سعيد المرادي : ٤٨٦ ، ٦٩٦
عبد الملك بن شهيد : ٣٥١ ، ٥٧٤ ، ٥٧٥
عبد الملك بن حامر المعافري : ٥٢١
عبد الملك بن العباس القرشي : ٢٩٩
عبد الملك بن عبد الله بن أمية : ٣١٣ ، ٣٣٢ ، ٣٤٧ ، ٣٤٩
عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث : ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٤٦٥
عبد الملك بن عمر بن مروان (المرواني) : ١٥٨ ، ١٦٣
عبد الملك بن عيسى بن سعيد : ٦١٧ ، ٦٢٠
عبد الملك بن قطن الفهري : ١١٢ ، ١١٣
١١٦ ، ١١٧ ، ١٢٠ ، ١٢٢ — ١٢٤ ، ٦٨١ ، ٦٨٧
عبد الملك بن مروان : ٢٠ — ٢٤ ، ١٩٦ ، ١٩٧
عبد الملك بن المنصور (المظفر) : ٥٤٥
٥٤٨ ، ٥٥٣ ، ٥٥٥ — ٥٥٩ ، ٥٦٢
٥٦٦ ، ٥٨١ ، ٦٠٧ — ٦١٢ ، ٦١٤
٦١٦ — ٦٢٣ ، ٦٢٥ ، ٦٣٠ ، ٦٣٤
٦٣٥ ، ٦٨٦ ، ٦٨٥ ، ٦٨٣ ، ٦٣٨ ، ٦٩٠
عبد الملك بن موسى بن نصير : ٥٦
عبد الملك بن هشام : ٢٢٨
عبد الملك بن يزيد الأزدي ، أنظر أبو عون
عبد الواحد الروطي : ٣٠٢
عبد الواحد المراكشي : ٦٥٧
عبد الواحد بن اسحاق الفهري : ٢٨١
عبد الواحد بن يزيد الإسكندراني : ٢٧٤
عبد الواحد بن يزيد الهوار : ١٢٠ ، ١٢١
عبد الوهاب بن أحمد بن مغيث : ٣٠١
عبد الوهاب بن حزم : ٦٦٥
عبد الوهاب بن عباس : ٢٥٢ ، ٦٩٣
عبد الوهاب بن عبد الرؤوف : ٣٢٣
عبد الوهاب بن محمد بن بسيل : ٤٦١
عبدون عامل الثغر : ٢٤١
عبدون بن خزرون : ٦٧٥

عبد النافارية ، زرجة المنصور ؛ ٥٨٣ ، ٦٢٣
 عبید الله المهدی ؛ ٤٢٥ ، ٤٢٦
 عبید الله بن أبان بن معاوية ؛ ١٨٩ ، ١٩٤
 عبید الله بن أحمد الزجالي ؛ ٤٦٠
 عبید الله بن عبد الله البلنسی ؛ ٢٣٢ ، ٢٤٣ ، ٢٥٧
 عبید الله بن عثمان ؛ ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٧
 ١٥٨ ، ١٦٤ - ١٦٦ ، ١٨٩ ، ١٩٣
 ١٩٤ ، ١٩٨ ، ٢٢٦
 عبید الله بن قاسم ؛ ٤٩٠
 عبید الله بن محمد بن أبي عبدة ؛ ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٤٧
 عبید الله بن يحيى بن إدريس ؛ ٦٩٦ - ٦٩٨
 عبيدة ، والى إفريقيا ؛ ١٠٦
 عبيدة بن حميد ؛ ٢٣٩
 عبيدة بن عبد الرحمن السلمی ؛ ٨٣ ، ٨٤
 عثمان بن أبي نعمة الخثعمی ؛ ٨٣ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ١٠٣
 عثمان بن عفان ؛ ١٥ ، ١٨ ، ١١٨ ، ١٩٦
 عثمان بن عمرو ؛ ٣٣٠
 عثمان بن نصر ؛ ٣٧٩ ، ٣٨٠
 عثمان بن نصر المصنفی ؛ ٥١١
 العذری ، أحمد بن عمر ؛ ٣٤١
 عروة بن الوليد الذی ؛ ١٣٤ ، ١٣٥
 عزرة بن عبد الله القهری ؛ ٨٣
 العزيز بالله الفاطمی ؛ ٤٩٩ ، ٥٤٤ ، ٥٤٥
 عصام الخولاني ؛ ٣٤٦
 عقبة بن الحجاج السلولي ؛ ١١٣ ، ١١٤
 ١١٦ ، ١١٧ ، ١٢٢ ، ٢١٢
 عمقبة بن نافع القهری ؛ ١٥ ، ١٩ ، ٢٠
 عكاشة الفزاري ؛ ١٢٠ ، ١٢١
 العلاء بن مغيث اليحصبي ؛ ١٦١ - ١٦٣
 ١٨٦ ، ٢١٥
 علي بن أبي طالب ؛ ١٨ ، ١٤١ - ١٤٣
 علي بن حمود ؛ ٦٥٣ ، ٦٥٤ ، ٦٥٧ - ٦٦١
 علي بن وداعة ؛ ٦٥١
 عمر بن حفصون ؛ ٣٠٣ ، ٣٠٧ - ٣١٠
 ٣١٧ - ٣١٩ ، ٣٢١ ، ٣٢٣ - ٣٢٥
 ٣٢٨ - ٣٣٠ ، ٣٣٣ ، ٣٣٥ - ٣٣٨

٣٤٠ ، ٣٤٥ ، ٣٤٨ ، ٣٤٩ ، ٣٦٢
 ٣٧٦ ، ٣٧٧ ، ٣٨٠ ، ٣٨١ ، ٣٨٣
 ٣٨٥ ، ٣٨٦ ، ٣٨٨ ، ٣٨٩ ، ٦٩٥
 عمر بن الخطاب ؛ ١٤ ، ٢٣ ، ١٩٦
 عمر بن طالوت ؛ ١٦٦
 عمر بن عبد العزيز ؛ ٧٤ ، ٧٥ ، ٨٢ ، ٢٢٥
 ٦٨٠ ، ٦٨١
 عمر بن عبد الله ؛ ١١٩
 عمرو بن العاص ؛ ١٤ ، ١٥
 عمرو بن أبي الحباب ؛ ٥٧٥
 عمر بن عبد الله بن أبي عامر (عسكلاجة) ؛
 ٥٤٥ ، ٥٤٨
 عمرو بن عمرو بن عمرو ؛ ٣٠١
 عمرو بن يوسف ؛ ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٣٠١
 عمريل بن تيمات ؛ ٥٠٠
 عنبر العامري ؛ ٦٤٩
 عنبة بن سحيم الكلبي ؛ ٨٢ ، ٨٣
 عيسى بن أحمد بن أبي عبدة ؛ ٤٦١ ، ٤٦٢
 عيسى بن أحمد الرازي ؛ ٢٨٩
 عيسى بن الحسن بن أبي عبدة ؛ ٢٩٠ ، ٢٩١
 ٢٩٦ ، ٢٩٩ ، ٣١٢
 عيسى بن دينار ؛ ٢١٩ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧
 ٢٧٦ ، ٣١٥ ، ٦٩٢ ، ٦٩٣
 عيسى بن سعيد (ابن القطاع) ؛ ٥٥٨ ، ٥٧٤
 ٥٧٥ ، ٦١٦ - ٦٢٠ ، ٦٣٠
 عيسى بن شهيد ؛ ٢٦٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥
 ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٣١٢ ، ٦٨٤
 عيسى بن فطيس ؛ ٤١٦ ، ٤٦١ ، ٥١٢
 ٥٥٣ ، ٥٧٤
 عيسى بن قرلمان ؛ ٤٩١
 عيسى بن مزاحم ؛ ٦١
 عيسى بن مساور ؛ ١٥٣
 عيسى بن منصور ؛ ٤٩٠
 عيشون بن سليمان بن يةظان ؛ ١٧٦ ، ١٧٧
 ١٨٠ ، ١٨٧
 عيشون حاكم أرشدونة ؛ ٣٢٠
 غاتون ، الكونت ؛ ٢٩٢
 غالب ، أمير البحر ؛ ٤٢٧

- غالب بن تمام بن علقمة ؛ ١٩٨
غالب بن عبد الرحمن الناصري ؛ ٤٨٧ ، ٤٨٥ ، ٤٨٩ ، ٥١٢ ، ٥٠٢ ، ٤٩٨ — ٤٩٦ ، ٥٣٠ — ٥٣٧ ، ٥٤١ ، ٥٤٢ ، ٥٩٨ ، ٥٧٥ ، ٥٥٥ ، ٦٠٠
غري فرناندز ؛ ٥٦٣
غرسية ، أمير نافار ؛ ٢٦١ ، ٢٥٩
غرسية لإنجيز ؛ ٣٦٢ ، ٣٤٣
غرسية الأول ملك نافار ؛ ٢٩٨ ، ٢٩٧ ، ٣٥٧ ، ٣٠١ ، ٣٠٠
غرسية الثاني ملك نافار ؛ ٤٥٩ ، ٤٢٢ ، ٤٠٢ ، ٣٦١ ، ٣٦٠
غرسية ابن ألفونسو الثالث ؛ ٣٩١
غرسية ملك ليون ؛ ٤٨٧ ، ٤٨٦ ، ٤٩٠ ، ٥٩٤ ، ٥٩٣ ، ٥٦٥ ، ٥٦٤ ، ٦٠٠ ، ٥٩٩
غرسية سانشيز الثاني ، أمير قشتالة ؛ ٦٠٠
غرسية سانشير الثالث ، أمير قشتالة ؛ ٦٠١ ، ٦٠٠
غرسية سانشير الثالث ملك نافار ؛ ٦٠١ ، ٦٠٠
غرسية فرنانديز ، أمير قشتالة ؛ ٤٩١ ، ٤٩٠ ، ٤٩٩ ، ٥٥٠ ، ٥٤١ ، ٥٠٥ ، ٥٥٢ ، ٥٩٨ ، ٥٩٧ ، ٥٦٥ ، ٥٦٤
غريب بن عبد الله ؛ ٢٤٧
غريب بن مسعود ؛ ٤١٨
غزاة البياض ؛ ٥٤٨
غزاة العلة ؛ ٦١٥
غزوة بنبلونة (الناصر) ؛ ٤٠٠
غزوة بنبلونة (عبد الملك المنه ور) ؛ ٦١٢
غزوة شنت ياقب ؛ ٥٦١
غزوة قلاونية (عبد الملك المنصور) ؛ ٦١٤ ، ٦١٣
الغزيري ، ميخائيل ؛ ٥٥
الغمر بن يزيد بن عبد الملك ؛ ٢٠٢
غياث بن علقمة ، اللخمى ؛ ١٦٣ ، ١٦٢ ، ١٥٣
ف — ق — ك
فائق ، الفقى ؛ ٦٣٣ ، ٥٧٩
فاطمة بنت الرسول ؛ ١٦٤
الفاطمي ؛ أنظر شقنا بن عبد الواحد
فاقيلا ابن بلايو ؛ ٢١٣ ، ١٣٨
فاقيلا والد بلايو ؛ ٢٠٧
فاليا ، ملك القوط ؛ ٢٩
فالينس ، الإمبراطور ؛ ٢٨
فاميا ، ملك القوط ؛ ٣٤
فائق الفقى ؛ ٥١٧ ، ٥١٨ ، ٥٢٦
الفتح بن خاقان ؛ ٤٤١ ، ٥٨٤
الفتح بن موسى بن ذى النون ؛ ٣٧٥ ، ٣٤٠
فخر الجارية ؛ ٢٧٨
فرتون لإنجيز ؛ ٢٦٥
فرتون بن لب بن موسى ؛ ٢٩٩
فرتون بن غرسية ؛ ٢٩٨ ، ٣٦٢ ، ٥٩٩
فرتون بن محمد الطويل ؛ ٤١٦
فرتون بن موسى القسوى ؛ ٢٩٩ ، ٣٠٢
فرنان كورثمالث (فردلند القومس) ؛ ٤٨٤ ، ٤٨٧ ، ٥٩٤ ، ٥٩١ — ٥٩٧ ، ٦٠٠ ، ٥٩٩
فرنان لينيز ؛ ٤٩١
فرويل ، أمير استورية ؛ ٨٧
فرويل ، أمير كانتابريا ؛ ٢١٥ ، ٢١٤
فرويل ، الكونت ؛ ٣٥٨
فرويل ابن ألفونسو الثالث ؛ ٣٦٠
فرويل الأول ؛ ٢١٥ — ٢١٨ ، ٢١٩
فرويل ، ملك ليون ، ٤٠٠
فرويل بن برمند ؛ ٣٥٨
فطيس بن اصبيغ بن فطيس ؛ ٤٦٢
فلورا ، الفتاة المنتصرة ؛ ٢٧٢ ، ٢٧٣
فلورقدا القوطية ؛ ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧
فنى ، جورج ؛ ١١٠
فون شليجل ؛ ١١٠
فيدوكنت ؛ ١٦٩ ، ١٧٣ ، ١٨٣ ، ١٨٨
قارله ، قلدوس ؛ أنظر كارل الأكبر
قارله بن بين ؛ ٢٨٩
القاسم بن حمود ، المستعلى ؛ ٦٥٣ ، ٦٥٤ ، ٦٥٧ ، ٦٦١ ، ٦٦٤ — ٦٧٠ ، ٦٧٣ ، ٦٧٦
قاسم بن حمد ؛ ٥١٨
القاسم بن محمد بن عبد الرحمن ؛ ٣٤٩ ، ٣٥٠
القاسم بن محمد (الوائق) ؛ ٦٧٦

لب بن حمد بن لب ٢٠٣٤١٤ ، ٣٤٦ ، ٣٦٣
 لب بن موسى بن فرتون ٣٦٢
 لب بن موسى بن موسى ٢٩٩
 الليث بن سعد ١٠٦ ، ٢٧٦ ، ٦٩٢
 لوتبراند ، ملك اللومبارد ١١٦
 لوتبراند ، المؤرخ ٤٥٨ ، ٤٦٩ ، ٤٧٢
 لوقا للتطيل ٣٥
 لوقا للتوحي ٤١٩
 لويس بن شارلمان ٢٢٧ ، ٢٣١ ، ٢٤٠ ،
 ٢٥٦ ، ٢٥٧ ، ٢٦٦ ، ٤٦٦
 لويس الرابع ٤٥٦
 ليوكريسيا ٢٩٦ ، ٣٠٣
 ليون الثالث ، البابا ١١٠
 ماردة أم المعتصم ٢٨٢
 ماسدي ، المؤرخ ٣٤ ، ٣٦ ، ٥٨٦
 ماركوس أوريليوس ٥٠٨
 ماريما ، فتاة قرطبة ٢٧٣
 ماريما ، والدة الناصر ٣٧٣
 ماريانا ، المؤرخ ٣٦ ، ٨٩ ، ٥٦٥
 مالك بن أنس ، الإمام ٢٢٩ ، ٢٧٦ ، ٦٩١ ، ٦٩٢
 مالك بن يزيد التجيبي ٢٣٦
 المأمون العباسي ٢٤٥ ، ٢٨٢ ، ٧٨٣
 ماييل ، القديس ٤٧٣
 مايور ، دونيا ٥٦٤
 متعة ، البحرية ٢٧٨
 المتيني ٦٩٩
 مجاهد العامري ٤٧٤ ، ٤٧٥ ، ٦١٦ ، ٦٥٨
 محافظ القصر ٧٩ ، ٨٠ ، ٩٦
 محمد ، للنبي العربي ٩١ ، ٩٢ ، ٩٦ ،
 ١١٠ ، ٢٧٠ - ٢٧٣
 محمد بن الحسين ٤٥٩ ، ٥٩٢
 محمد بن الحنفية ١٤٣
 محمد بن الخيزر بن خزر ٤٢٨ ، ٤٩٤
 محمد بن الساجم ٢٧٤
 محمد بن السليم ، أبو بكر ٥١٢
 محمد العراقي ٦٦٤ ، ٦٦٥ ، ٦٦٧
 محمد بن الفرغسي ٦٦٣
 محمد بن القاسم المرواني ٢٣٦

قاسم بن مطرف بن ذئب النون ٤٨٧
 القاسم بن المنذر ٢٣١
 القاسم بن يوسف الفهر ١٥٩ ، ١٦٠
 الإقام الفاطمي ٤٢٦
 قسطنطين الأكبر ٢٨
 قسطنطين السابع ٤٥٢ ، ٤٥٣ ، ٤٥٦
 قسطنطين الملكي ٤٩١
 قسي ، الكونت ٢٦٠
 قطن بن عبد الملك بن قطن ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٦
 كايا ، وصيفة فلورنذا ٣٦
 كاردون ، المستشرق ١٠٥
 كارديناس ، المستشرق ٦٦
 كارل مارتل ٨٧ ، ٨٨ ، ٩٦ -
 ١٠٢ ، ١٠٤ ، ١٠٨ ، ١١٠ ، ١١٤ -
 ١١٦ ، ١٣٧ ، ١٧١
 كارل الأكبر ، أنظر شارلمان
 الكاهنة ١٧ ، ٢٢
 الكرسي الرسول ٢٥٩
 كريش بن عثمان بن خلدون ٣٣١ - ٣٣٣ ،
 ٣٣٩
 كريزي ، إدوارد ١١٠
 كسيلة بن لمزم ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢
 كلثوم بن عياض القشيري ١١٩ ، ١٢٠ ،
 ١٢٣ - ١٢٦
 كاوتير الثاني ٧٨
 كلوفيس ٧٧ ، ٩٥
 كنانة بن سعيد ١٦٧
 كوديرا ، المستشرق ٥٦٥
 كوندى ، يوسف ٣٦ ، ٩٩ ، ١٠٢
 كوزراد ، ملك برخونمة ٤٦٩

ل - م

لافونتي ، موديستو ٥٠٨ ، ٥٦٤ ، ٥٦٥ ،
 ٥٩٧
 لامبجيا ٨٧ ، ٨٨
 لايين بول ٦٤
 لب بن الطريشة ٣٨٩
 لب بن زكريا بن عمرو ٣٠١

٣٢٥ ، ٣٢٨ ، ٣٣٩ ، ٣٤١ ، ٣٤٧ ،
٣٥١ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧ ، ٣٥٩ ، ٤٦٢ ،
٥٠٤ ، ٦٨٤ ، ٦٨٨ ، ٦٦٤ ، ٦٩٥

محمد بن عبد الرحمن التجيبي ؛ ٤٠٥
محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله بن الناصر ؛ ٦٦٦
محمد بن عبد السلام بن بسيل ؛ ٢٧٤
محمد بن عبد السلام بن كليب ؛ ٤٦١
محمد بن عبد السلام الخشني ؛ ٦٩٤
محمد بن الأمير عبد الله ؛ ٣٢٢ ، ٣٢١
٣٤٨ ، ٣٤٩ ، ٣٧٣ ، ٣٨٠
محمد بن عبد الله الأشجعي ؛ ٨٤
محمد بن عبد الله البرازلي ؛ ٦٧٠ - ٦٧٢
محمد بن عبد الله بن موسى ؛ ٤٦١
محمد بن عبد الملك المنصور ؛ ٦٣٥
محمد بن عبد الملك بن أبي عبده ؛ ٤١٠
محمد بن عبد الملك بن شبريط (الطويل) ؛ ٣٤٢ ،
٣٤٣ ، ٣٦٣

محمد بن عبد الوهاب ؛ ٣٠١
محمد بن علي بن عبد الله بن العباس ؛ ١٤٣ ، ١٤٤
محمد بن عمر بن لبابة ؛ ٣١٥ ، ٦٩٣ ، ٦٩٦
محمد بن القاسم بن حمود ؛ ٦٧٤ - ٦٧٦
محمد بن القاسم بن طملس ؛ ٤٦١ ، ٤٩٥ ، ٦٨٥
محمد بن لب بن موسى ؛ ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣٠٩
٣١٨ ، ٣٣٦ ، ٣٤٠ ، ٣٤٢ - ٣٥٩ ،
٣٦٠ ، ٣٩٧

محمد بن محمد التجيبي ؛ ٤٩٧
محمد بن محمد بن أبي زيد ؛ ٣٧٤
محمد بن محمد بن ذى النون ؛ ٣٩٠
محمد بن مروان بن عبد الله بن بسيل ؛ ٤٦١
محمد بن مسعود ؛ ٣٨٧
محمد بن مطرف بن شخيص ؛ ٧٠١
محمد بن المغيرة ؛ ٦٣٣
محمد بن نوح ؛ ٦٧٥
محمد بن هاشم التجيبي ؛ ٤٠٥ ، ٤٠٧ ، ٤٠٩ ،
٤١١ ، ٤١٣ ، ٤١٥ ، ٤١٦ ، ٤١٨ ،
٤٢٠ ، ٤٢١
محمد بن هاني الأزدي ؛ ٦٩٩
محمد بن هشام بن عبد الجبار (المهدي) ؛ ٦٣٠ -
٦٣٩ ، ٦٤٢ ، ٦٥١ ، ٦٥٧ ، ٦٥٨ ، ٦٨٣

محمد بن إبراهيم بن حجاج ؛ ٣٢٤
محمد بن أبي جمعة ؛ ٥٨٠
محمد بن أبي سليمان الزجاجي ؛ ٢٧٦
محمد بن أبي عامر (المنصور) ؛ ٢٠٥ ، ٢١٥ ،
٤٣٩ ، ٤٤٠ ، ٤٨٤ ، ٤٩٦ ،
٥١٨ - ٥٣١ ، ٥٣٥ - ٥٦٦ ، ٥٦٨ -
٥٧٦ ، ٥٧٨ - ٥٨١ ، ٥٨٤ - ٥٨٧ ،
٥٩٨ - ٦٠١ ، ٦٠٧ ، ٦٠٨ - ٦١٠ ،
٦١٢ ، ٦١٦ - ٦١٨ ، ٦٢٢ - ٦٢٥ ،
٦٢٧ ، ٦٣٢ ، ٦٣٥ ، ٦٣٨ ، ٦٤٢ ،
٦٥٠ ، ٦٥٦ ، ٦٥٨ ، ٦٦٧ ، ٦٨٣ ،
٦٨٨ ، ٦٩٠ ، ٧٠٠ ، ٧٠١ ، ٧٠٣ ، ٧٠٤

محمد بن أبي عبد الله بن عيسى ؛ ٤٢٤
محمد بن أحمد بن قابوس ؛ ٤٦١
محمد بن إدريس المستعلي ؛ ٦٧٥ ، ٦٧٦
محمد بن إدريس ، المهدي ؛ ٦٧٤ - ٦٧٦
محمد بن إسماعيل بن عباد ؛ ٦٦٤ ، ٦٧٠ -
٦٧٢ ، ٦٧٤ ، ٦٧٦

محمد بن إسماعيل بن موسى ؛ ٣٤٠
محمد بن أضحى الحمداني ؛ ٣٢٩ ، ٦٩٦
محمد بن أفلح ؛ ٤٩١
محمد بن بشير ؛ ٢٤٩
محمد بن تاجيت ؛ ٣٩٢
محمد بن تاركيت المصمودي ؛ ٣٣٩
محمد بن جعفر المصحق ؛ ٥٢٨ ، ٥٢٩
محمد بن جهور بن عبد الملك البخفي ؛ ٤٦١ ، ٥٧٤
محمد بن حارث ؛ ٢٧٦ ، ٦٩٤
محمد بن الحسن الزبيدي ؛ ٧٠٣
محمد بن حسين الطنبلي ؛ ٤٩٧ ، ٦٩٧ ، ٦٩٨ ،
٧٠١ ، ٧٠٢

محمد بن حفص بن جابر ؛ ٥٧٤
محمد بن رستم ؛ ٢٥٨ ، ٢٦٣
محمد بن سليمان الزجاجي ؛ ٦٩٤
محمد بن سليمان بن وائسوس ؛ ٤٦١
محمد بن سعيد بن المنذر ؛ ٤٦١
محمد بن عباس بن محمد بن أبي عبدة ؛ ٣٦١
محمد بن عبد الرحمن ، الأمير ؛ ٢٥٢ ، ٢٦١ ،
٢٦٥ ، ٢٧٦ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٩٠ ،
٢٩٣ - ٣١٤ ، ٣١٦ ، ٣١٧ ،

- محمد بن ضاح ؛ ٢٧٦
محمد بن يزيد ؛ ٧٣
محمد بن يعلى الزناتى ؛ ٦٣٦
محمد بن يوسف الحجار ؛ ٧٠١ ، ٥٠٦
محمد بن يوسف الفهر ؛ أبو الأسود ؛ ١٣٣ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٩٠
محمد بن يوسف بن مطروح ؛ ٢٧٦ ، ٦٩٤
محمود بن عبد الحبار ؛ ٢٥٧ ، ٢٥٨
مراجل أم المأمون ؛ ٢٨٢
المرتضى بالله ، عبد الرحمن ؛ ٦٦٠ - ٦٦٢
مرجان الرومية ؛ ٣٧٨ ، ٣٨٣
مروان بن جهور بن عبد الملك البختى ؛ ٤٦١
مروان بن الحكم ؛ ١٥٤
مروان بن حيان ، أبو سعد ؛ ٤١٦
مروان بن عبد الرحمن الحلبي ؛ ٣٣٩
مروان بن عبد الملك ؛ ٣٩٢
مروان بن محمد ؛ ١٤٤ ، ١٤٦ - ١٤٦
مروان بن يونس الحلبي ؛ ٢٤٢ ، ٣٠٤
المستظهر بالله ؛ ٦٨٦
المستكن بالله الأموى ؛ ٦٦٦ ، ٦٦٧ ، ٦٧٠
المستكن بالله العباسى ؛ ٦٦٧
المستنصر بالله الفاطمى ؛ ٤٥٩
المسعودى ، المؤرخ ؛ ١٩٧ ، ٤١٤
مسعود بن سعدون السرنباقي ؛ ٣٩٣
مسعود بن عبد الله ؛ ٢٩٤
مسلم بن عقبة المرى ؛ ١٤١
مسلمة بن عبد الرحمن الأموى ؛ ٢٣٧
مسلمة بن مخلد ؛ ٢٠
مسودة بن مطرف ؛ ٢٩١ ، ٢٩٢
المسيح ؛ ٤٥٣ ، ٤٥٤
مضاء بن عمري ؛ ٤٩٩
المطرف بن عبد الرحمن ؛ ٢٦١ ، ٢٧٨
المطرف بن الأمير عبد الله ؛ ٣٢١ ، ٣٣٢ ، ٣٣٦ ، ٣٤٧ ، ٣٤٩ ، ٣٥٠ ، ٣٧٣
مطرف بن عيسى النساني ؛ ٥٠٥
مطرف بن لب بن موسى ؛ ٢٩٩ ، ٣٤٠
المطرف بن محمد بن لب ؛ ٣٤١ ، ٣٦٣
مطرف بن مندف التجيبى ؛ ٤٠٦ - ٤٠٨
مطرف بن موسى القسوى ؛ ٢٩٩ ، ٣٠١ ، ٣٠٢
المطرف بن موسى بن ذى النون ؛ ٣٤٠ ، ٣٩٨
مطروح بن سليمان بن يقظان ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٨٠ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧
مخفر بن موسى بن ذى النون ؛ ٣٠٧
معاوية بن أبي سفيان ؛ ١٨ - ٢٠ ، ٢٣ ، ٩٣ ، ١٩٣ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ٢١٠
معاوية بن حديج ؛ ١٩
معاوية بن لب ؛ ٤٩٠
معاوية بن هشام ؛ ٢٢٥
معاوية بن هشام ، المؤرخ ؛ ٣١٠
المتعمم العباسى ؛ ٢٨٢ ، ٢٨٣
المتعمم بن صادق ؛ ٦٧٦
المعز لدين الله الفاطمى ؛ ٤٩٣ ، ٤٩٤ ، ٦٩٩
المعز بن باديس ؛ ٦١٨
المعز بن زير بن عطية ؛ ٥٤٦ ، ٥٥٩
معن بن عبد العزيز النجيبى ؛ ٥٥٢ ، ٥٦١ ، ٦٠٩
المغيرة بن الحكم ؛ ٢٤٨
المغيرة بن الوليد بن معاوية ؛ ١٨٩ ، ١٩٤
المغيرة بن عبد الرحمن الناصر ؛ ٥١٧ ، ٥١٨ ، ٥٢٤ ، ٥٢٦ ، ٥٣٠
مغيث الرومى ؛ ٤٩ ، ٥٧ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٢٧٥
المقر ، المؤرخ ؛ ٤٨ ، ٨٥ ، ١٠٧ ، ٥٣٧
مكحول بن عمر ؛ ٣٠٠ ، ٣٠٤
المنذر بن الناصر ؛ ٥٠٦
منذر بن إبراهيم ؛ ٣٣٠
منذر بن سعيد البلوطى ؛ ٤٥٤ ، ٤٥٥ ، ٤٦١ ، ٥١٢ ، ٦٩٨
المنذر بن عبد الرحمن ؛ ٢٦١ ، ٢٧٨ ، ٢٩٩ ، ٣١٠
المنذر بن محمد بن عبد الرحمن ؛ ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣١٧ ، ٣١٨ ، ٣٢٠ ، ٣٢٢ ، ٣٢٩ ، ٣٤١ ، ٣٤٧ ، ٣٤٩ ، ٣٦٠ ، ٣٥٧
المنذر بن يحيى التجيبى ؛ ٦٥٤ ، ٦٦٠ - ٦٦٢
المنصور بن أبي عامر ؛ أنظر محمد بن أبي عامر
المنصور العباسى ، أنظر أبو جعفر المنصور
منصور الحصى ؛ ١٩٨

- منندو كونثالث ؛ ٥٦٤ ، ٥٩٩ ، ٦١٠
منوسة ؛ ٨٥ — ٨٩ ، ٢١٢ ، ٢١٣
منينا ؛ ٨٧
موجات ؛ ٢١٩ ، ٢٢٠
مونتوس ، الدوق ؛ ١١٥ ، ١١٦
موسى بن أبى العافية ؛ ٣١٦
موسى بن حنوش ؛ ٥١٦
موسى بن ذى النون ؛ ٣٠٧ ، ٣٣٩
موسى بن سالم الخولاني ؛ ٢٣٦ ، ٢٤٣
موسى بن غلند ؛ ٣٠١
موسى بن فرقه ن بن قسى ؛ ٣٦٢
موسى بن فرقوق ؛ ٢٢٥
موسى بن محمد بن حدير ؛ ٣٥١ ، ٣٧٤ ، ٤٦٠ ، ٦٩٨
موسى بن موسى بن قسى ؛ ٢٥٩ — ٢٦١ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٩٤ ، ٢٩٨ ، ٣٠٠ ، ٣٥٧
موسى بن نصير اللخمى ؛ ٢٣ — ٢٦ ، ٣٥ ، ٣٨ — ٤٢ ، ٤٥ ، ٥١ — ٥١ ، ٦٠ ، ٧١ — ٧٣
موسيتو ، موجيتوس ؛ أنظر مجاهد العامري
مؤمرة الجارية ؛ ٢٧٨
مؤمن بن سعيد ؛ ٢٥٢ ، ٣١٥ ، ٦٩٣
موتينار ؛ ٣٦
مؤنس الكاتب ؛ ٤٩١
مونيا ؛ ٢١٨
ميسرة المدفري ؛ ١١٩
ميسرة الفتى الصقلبي ؛ ٢٥٩
ميسور الصقلبي ؛ ٤٢٦ ، ٤٦١ ، ٥٠٩
ميخائيل ، القيصر ؛ ٢٨٣
ميشليه ، المورخ ؛ ١١٠
- ن — ي
- نجا الصقلبي ، أبو الفوز ؛ ٦٧١ ، ٦٧٢ ، ٦٧٣
نجدة بن حسين الصقلبي ؛ ٤١٢ ، ٤١٣ ، ٤٢٠ ، ٤٥١ ، ٤٦١
نصر الخصى ؛ ٢٥١ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، ٢٧٥ ، ٢٧٧ ، ٢٨٩
نصر بن سيار ؛ ١٤٤ ، ١٤٥
نصير اللخمى ؛ ٢٣
- نصر المدفري ؛ ٦٣٤
نظيف الفتى ؛ ٦١٩ ، ٦٣٤
نود ، ملكة النورمان ؛ ٢٨٥
نونيو ، الكونت ؛ ٣٦٠
هادريان ، البابا ؛ ١٧٣
هاشم الضراب ؛ ٢٥٨
هاشم بن عبد العزيز ؛ ٢٧٤ ، ٢٩١ ، ٣٠٢ — ٣٠٩ ، ٣١٢ ، ٣١٣ ، ٣١٥ ، ٣١٧ ، ٣١٨ ، ٦٨٤
هاشم بن محمد التجيبي ؛ ٤٩٧
هذيل بن الصميل ؛ ١٨٩
هذيل بن محمد التجيبي ؛ ٤٩٧
هرودلان ، أنظر رولان
هرسوقييتا ؛ ٤٤٨
هشام الفهري ؛ ١٦٣
هشام المصحف ؛ ٤٨٥ ، ٥٣٠
هشام ، المعتد بالله ؛ ٦٦٨ — ٦٧٠
هشام ، المؤيد بالله ؛ ٤٤٠ ، ٤٥٣ ، ٥٠٣ ، ٥٠٩ ، ٥١١ ، ٥١٤ ، ٥١٧ — ٥٢٠ ، ٥٢٢ ، ٥٢٦ ، ٥٣١ ، ٥٣٥ ، ٥٣٦ ، ٥٥٤ — ٥٥٦ ، ٥٥٨ ، ٥٦٩ ، ٥٧٣ ، ٥٨٥ ، ٦٠٧ ، ٦١٠ ، ٦١٤ ، ٦١٦ ، ٦٢٣ — ٦٢٦ ، ٦٢٢ ، ٦٣٣ ، ٦٣٦ ، ٦٣٨ ، ٦٤٢ — ٦٤٤ ، ٦٤٧ ، ٦٤٩ — ٦٥٣ ، ٦٥٨ — ٦٦٠ ، ٦٧٠ ، ٦٧٤ ، ٦٨٢ ، ٦٨٣ ، ٦٨٦ ، ٧٠٣
هشام بن الحكم ؛ ٢٤٢
هشام بن سليمان بن الناصر ؛ ٦٤٥ ، ٦٤٦
هشام بن عبد الجبار بن الناصر ؛ ٦١٩ ، ٦٢٠ ، ٦٣٠ ، ٦٣١
هشام بن عبد الرحمن الأموي ؛ ٢٢٠ ، ٢٢٣ — ٢٣١ ، ٢٥٠ ، ٢٥٦ ، ٢٦١ ، ٢٦٦ ، ٣٤٥ ، ٣٥٤ ، ٤٦٥ ، ٦٩١ ، ٦٩٢
هشام بن عبد الرحمن بن الحكم ؛ ٢٦٤ ، ٣٣٠ ، ٣٣٢
هشام بن عبد الملك ؛ ٦١ ، ٨٤ ، ٨٨ ، ١١٢ ، ١١٧ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢٥ ، ١٤٠ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، ٢٠٠ ، ٦٨١
هشام بن عزرة الفهري ؛ ١٥٧ ، ٦٦١ ، ٦٦٣

- هشام بن محمد بن عبد الرحمن ؛ ٣٤٩
هشام بن محمد بن عثمان ؛ ٥١٨
هشام بن المنذر ؛ ٣٢١
هشام بن هذيل ؛ ٤٥٦
هلال الميديوني ؛ ١٦٥
هوج ، ملك بروقانس ؛ ٤٦٩ ، ٤٧٠
هوريك ، ملك النومان ؛ ٢٨٤
هونالد ، دوق أكوئين ؛ ١١٤
هونويوس ، الإمبراطور ؛ ٢٨
الهيثم بن عبيد الكلبي ؛ ٨٣ - ٨٥ ، ٢١١
هيرود ؛ ٢٢٠
واضح الفتي ؛ ٤٤٠ ، ٥٠٩ ، ٥٥٧ ، ٥٥٨ ،
٦١٠ ، ٦١٢ ، ٦١٦ ، ٦٣٦ ، ٦٤٤ ، ٦٤٦
٦٤٧ ، ٦٤٩ - ٦٥١ ، ٦٥٨
الواقدي ، المؤرخ ؛ ١٠٦
وانسوس البربري ؛ ١٥١
وتيزا ، ملك القوط ؛ ٣٢ ، ٣٥ ، ٤٢ ،
٥١ ، ٦٠ ، ٢٠٨
ودنا بن عطاف ؛ ٣٨٠
الوليد بن الحكم ؛ ٢٥٩
وليد بن خيزون ؛ ٤٨٥
الوليد بن عبد الملك ؛ ٢٣ ، ٢٤ ، ٤٧ ، ٥٠ ،
٥٤ ، ٥٥ ، ٥٧ ، ١٤٠ ، ١٤٣
وليد بن غانم ؛ ٣١٣
وليد بن معاوية ؛ ١٨٩
الوليد بن يزيد بن عبد الملك ؛ ١٣٠
ونقة بن شانجه ؛ أنظر إنيجواريسا
وهب بن عامر ؛ ١٣٦
وهب الله بن حزم ؛ ٢٦٢
ياسر ، الفتي ؛ ٤٥١ ، ٤٥٢
ياقوب ، القديس ؛ ٢٢٠ ، ٥٥٩ ، ٥٩٦
ياقوت الحموي ؛ ٤٤١
يحيى الفزال (يحيى بن الحكم) ؛ ٢٥٣ ،
٢٦٤ ، ٢٨٢ - ٢٨٥ ، ٢٩٣
يحيى بن إبراهيم بن مدين ؛ ٢٧٦
يحيى بن إدريس المتأبد ؛ ٦٧٢ ، ٦٧٣
يحيى بن إسحاق ؛ ٣٨٠ ، ٤٦٣
يحيى بن حبيب ؛ ٢٨٤
يحيى بن حريث الجذامي ؛ ١٣١
يحيى بن الحسين الأنصاري ؛ ١٨٨
يحيى بن سلمة الكلبي ؛ ٨٣
يحيى بن صقالة القيسي ؛ ٣٢٨
يحيى بن عبد الرحمن التجيبي ؛ ٥٥٠
يحيى بن عبد الله ؛ ٢٥٥
يحيى بن عبد الله بن يحيى ؛ ٥٠٣
يحيى بن علي بن حدود الأندلسي ؛ ٤٩٣ ،
٥٠٠ ، ٥٠١ ، ٥٣٩ ، ٧٠٢
يحيى بن علي بن حدود (المعتل) ؛ ٦٦٢ -
٦٦٤ ، ٦٦٨ ، ٦٧٠ - ٦٧٢ ، ٦٧٥
يحيى بن محمد التجيبي ؛ ٤٨٧ ، ٤٩٧ ،
٤٩٨ ، ٥١٢
يحيى بن نصر القيسي ؛ ٢٣٦
يحيى بن موسى بن ذي النون ؛ ٣٤٠ ، ٤٠٠
يحيى بن نصر اليحصبي ؛ ٢٤٣
يحيى بن هاشم ؛ ٤٠٢ ، ٤١٠ ، ٤٢٢
يحيى بن هذيل ؛ ٧٠٢
يحيى بن يحيى بن إسحاق ؛ ٤٠٥
يحيى بن يحيى بن بكر ؛ ٣٣٩
يحيى بن يحيى الليثي ؛ ٢٢٩ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٧٦
٦٩٢ ، ٦٩٣
يدو بن يعلى ؛ ٥٤٦ ، ٥٤٧
يزيد بن الوليد ؛ ١٣٠
يزيد بن عبد الملك ؛ ٨٢
يزيد بن معاوية ؛ ٢٠ ، ١٢٣
يزيد بن المهلب ؛ ٥٧ ، ٥٨
يعقوب الحواري ؛ أنظر ياقب القديس
يعقوب بن أبي خالد التوزري ؛ ٣٩٩
يعقوب بن كلث ؛ ٥٣٥
ينقة بن ونقة ؛ ٢٦٠
يوحنا ، حاكم قرطاجنة ؛ ٢١
يوحنا الجورزيي ؛ ٤٥٦ - ٤٥٨ ، ٤٧٢
يوحنا الثامن ، البابا ؛ ٣٥٩
يوحنا الثاني حشر ، البابا ؛ ٤٥٩
يوحنا زمسكي ، القيصر ؛ ٤٩١
يوستنيان ، الإمبراطور ؛ ١٨

| | |
|-------------------------------------|---|
| يوسف بن عمر الأزرق ؛ ١٣٤ | يوسف العيسى ؛ ٢٢٥ |
| يوسف بن محمد التميمي ؛ ٤٩٧ | يوسف بن إسماعيل بن فخرالة ؛ ٥٠٧ |
| يوسف بن هارون البطليوسي ؛ ٤٩١ | يوسف بن بخت ؛ ١٥٢ ، ١٩٨ ، ٢٢٦ ، ٢٧٤ |
| يوسف بن هارون الرمادي ؛ ٧٠٢ ، ٨٠٣ | يوسف بن عبد الرحمن الفهري ؛ ١٢٩ — ١٣٢ ، |
| يوليان ، الكونت ؛ ٢٦ ، ٣٣ — ٣٥ ، ٣٧ | ١٣٤ — ١٣٦ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٥١ — |
| ٣٨ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٥ ، ٤٨ ، ٤٩ | ١٦٠ ، ١٦٢ ، ١٦٩ ، ١٨٦ ، ١٩٦ ، |
| ٥١ ، ٥٢ ، ٦٠ | ٢١٤ ، ٢٨١ ، ٢٨٧ ، ٢٨٩ |

موسوعة الأندلس

تأليف الأستاذ محمد عبد الله عنان

تشتمل على سبعة مجلدات هي الآتية :

- دولة الإسلام في الأندلس المجلدان الأول والثاني (الطبعة الرابعة)
- دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي (الطبعة الثانية)
- عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس (مجلدان)
- نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين (الطبعة الثالثة)
- الآثار الأندلسية الباقية في اسبانيا والبرتغال (الطبعة الثانية)

ويلحق بهذه المجموعة كتاب :

لسان الدين بن الخطيب ، حياته وتراثه الفكري

